التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٥١٤هـ

أول كتاب يبرز مطبوعًا للمؤلف
ويطبع محققًا على ثلاث نسخ خطية
إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص
عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له
محمد خلوف العبد الله

المجلد الخامس

الأنبياء - الأحزاب

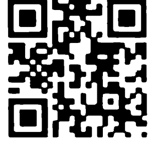
دار اللباب

التيسير في التفسير

(٥)

الطبعَة الأولىٰ

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م





دَارُ اللُّبَاب
لِلدِّرَاسَاتِ وَتَحْقِيقِ التُّرَاثِ

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990

دمشق - سوريا
00963993151546
info@allobab.com
Www.allobab.com

اسطنبول - تركيا
00902125255551
00905454729850



İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

الإمام أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٥١٤ هـ
رحمه الله تعالى

أول كتاب يبرز مطبوعاً للمؤلف
ويطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية
إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢ هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص
عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له
محمد خلوف العبد الله

المجلد الخامس

الأنبياء - الأحزاب

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

تفسيرُ سورةِ الأنبياءِ

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾؛ أي: قرُبَ الوقتُ الذي يُحاسَبُونَ فيه على أعمالِهم، ومَن علِمَ اقترابَ السّاعةِ قصُرَ أملُه، وطابَتْ نفسُه بالتَّوبةِ، ولم يركَنْ إلى الدُّنيا.

ومعنى هذا القُربِ: أنَّ ما هو آتٍ فقريبٌ.

وقيلَ: يعني: أنَّ القيامةَ قريبةٌ بالإضافةِ إلى ما مضى منَ الزَّمانِ، فما بقيَ منَ الدُّنيا أقلُّ ممَّا مضَى.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ أي: جهالةٍ عنِ القيامةِ، وقيلَ: عمَّا الله فاعلٌ بهم ذلك اليومَ.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عنِ التَّأهُّبِ له وعمَّا جاءَ به محمَّدٌ ﷺ.

قولُه تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾؛ أي: ما يتجدَّدُ نزولُ شيءٍ من القرآن.

وقيلَ: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾؛ أي: من رسول[1].

---

(١) «أي ما يتجدد نزول شيء من القرآن، وقيلَ: من ذكر؛ أي من رسول» من (ج).

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾؛ أي: منَ النَّبيِّ ﷺ، أو من أُمَّتِه ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يستَمِعُونَ القرآنَ مُستَهزِئينَ لاعبينَ.

وقولُه: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ يرجعُ إلى الإنزالِ وتلاوةِ جبريلَ على النبيِّ ﷺ.

قولُه تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: يستَمِعُونَه لاعبينَ لاهيةً قلوبُهم، مُتشاغلةً عن التَّأمُّلِ والتَّفهُّمِ ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾؛ أي: تناجَوا فيما بينَهم بالتَّكذيبِ، ثمَّ بيَّنَ مَن هم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: أشرَكُوا، فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدَلٌ منَ الواوِ في (أَسَرُّوا).

وقال المُبرِّدُ: هو كقولك: «إنَّ الذينَ في الدّارِ انطَلَقُوا بَنُو عبدِ الله»، فهو بدلٌ منَ الواوِ في «انطلَقوا»[1].

وقيلَ: هو رفعٌ على الذَّمِّ؛ أي: هم الذين ظلَمُوا، أو نصبٌ على تقديرِ: «أعني الذينَ ظلَمُوا»، أو خفضٌ تبعًا لـ«النّاسِ»؛ أي: اقترَبَ للنّاسِ الذينَ ظلَمُوا.

وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رفعٌ على قولِ مَن يقولُ: «أكلُوني البراغيثُ»؛ أي: أسرُّوا الذينَ ظلَمُوا، وتقولُ: «انطَلَقُوا إخوتُكَ، وانطلَقا صاحِباكَ»، تشبيهًا بعلامةِ التَّأنيثِ في قولك: «ذهبَتْ جاريتُكَ». **وهذه لغةٌ بعيدةٌ.**

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: تناجَوا فيما بينَهم وقالوا: هل هذا الذِّكرُ الذي هو الرَّسولُ، أو: هل هذا الذي يدعُوكم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا يتميَّزُ عنكم بشيءٍ.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾؛ أي: إنَّ الذي جاءَ به محمَّدٌ سحرٌ، فأطلَعَ الله نبيَّه عليه السَّلامُ على ما تناجَوا به.

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: تعلمُونَ أنَّه ليس بسحرٍ، وقيلَ: ترونَ أنَّه بشرٌ مثلُكم.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٢).

(٤) ـ ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ ربِّي يَعْلَمُ القَوْلَ في السَّماءِ والأرضِ﴾؛ أي: لا يخفَى عليه شيءٌ مـمَّا يُقالُ في السَّماءِ والأرضِ.

وقُرِئَ: ﴿ قَالَ رَبِّي ﴾[1]؛ أي: ﴿ قَالَ ﴾ محمَّدٌ: ﴿رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ ﴾؛ أي: هو عالِـمٌ بما تناجَيتُم به.

***

(٥) ـ ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾.

قـولُه تعـالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ ﴾؛ أي: هـم مُتحيِّرونَ لا يستقِرُّونَ على شيءٍ، قالوا مرَّةً: إنَّه سحرٌ، وقالوا مرّةً: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ ﴾، وقالوا مرّةً: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، وقالوا مرّةً: إنَّه ﴿شَاعِرٞ﴾.

وقيلَ: أي: قال فريقٌ: إنَّه ساحرٌ، وفريقٌ: إنَّه أضغاثُ أحلامٍ، وفريقٌ: إنَّه افتَراه، وفريقٌ: إنَّه شاعرٌ.

وأضغاثُ الأحلامِ: تخاليطُ الرُّؤيا في المنامِ. والافتِراءُ: الاختِلاقُ.

﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ أي: مثلَ ناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، وكانوا عالِـمِينَ بأنَّ القرآنَ ليس بسحرٍ ولا شعرٍ ولا رُؤيا، ولكنْ قالوا: ينبَغي أن يأتيَ بآيةٍ نقتَرِحُها، ولـم يكُن لـهم الاقتراحُ بعدَما رأَوا آيةً واحدةً.

وأيضًا إذا لـم يُؤمِنوا بآيةٍ هي من جنسِ ما هم أعلَمُ النّاسِ به، ولا مجالَ للشُّبهةِ

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفصٍ، والباقون: ﴿قل﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٥٤).

فيها، فكيف يُؤمِنُونَ بآيةٍ غيرِها؟ ولو أبرأَ الأكمَهَ والأبرَصَ لقالُوا: هذا من بابِ الطِّبِّ، وليس ذلك من صناعتِنا.

***

(٦) - ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾؛ أي: اقترَحَتْ أممٌ آياتٍ فرأَوها فما آمَنُوا، بل كان الحكمُ فيهم الاستِئصالَ، فلو رأى هؤلاءِ ما اقترحُوا لَـمَا آمَنُوا ولاستُؤْصِلُوا؛ فإنَّه جرَى الحكمُ به، وقد علِمْنا أنَّ في أصلابِهم مَن يُؤمِنُ، وسبقَ الحكمُ بتأخيرِ عقابِهم إلى أجلٍ مُسمًّى.

﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ ﴿مِّن﴾ زائدةٌ كقولِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

وقيلَ: أي: ما آمنَتْ قبلَهم قريةٌ منَ القُرى التي أهلَكْناها بالآياتِ.

***

(٧) - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ هذا ردٌّ عليهم في قولِهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾؛ أي: لم نُرسِلْ قبلَكَ إلّا رجالًا ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ، وسمَّاهم أهلَ الذِّكرِ لأنَّهم كانوا يذكُرونَ أخبارَ الأنبياءِ ممَّا لم يَعرِفْه العربُ، وكانت كفَّارُ قريشٍ يُراجِعُونَ أهلَ الكتابِ في أمرِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقيلَ: عنَى بأهلِ الذِّكرِ: مَن أسلَمَ من أهلِ الكتابِ، وقد ثبَتَ بالتَّواتُرِ أنَّ الرُّسلَ كانوا منَ البشرِ، فاحتَجَّ عليهم بذلك.

وقيلَ: أهلُ الذِّكرِ هم المُؤمنون، والذِّكرُ هو القرآنُ؛ أي: لا تبتَدِئُوا بالإنكارِ وبقولِكم: ينبَغي أن يكونَ الرَّسولُ منَ الملائكةِ، بل ناظِرُوا المُؤمنينَ ليُثبِتُوا لكم جوازَ أن يكونَ الرَّسولُ منَ البشرِ.

قُرِئَ: ﴿إلَّا رِجالًا يُوحَى إليهم﴾، وقُرِئَ: ﴿نُّوحِىٓ﴾ بالنُّونِ[1]، والملَكُ لا يُسمَّى رجلًا؛ لأنَّ الرَّجلَ يقعُ على ما له ضدٌّ من لفظِه، تقولُ: «رجلٌ وامرأةٌ»، و«رجلٌ وصبيٌّ»، فقولُه: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾؛ أي: من بني آدمَ.

* * *

(٨) ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾؛ أي: لم نجعَلِ الرُّسلَ خارِجينَ عن طِباعِ البشرِ لا يحتاجُونَ إلى طعامٍ وشرابٍ.

وقيلَ: الجسدُ كنايةٌ عمَّا لا يتحوَّلُ[2] ولا ينصرِفُ؛ أي: كانُوا آدميِّينَ وما كانوا خالدينَ، بل كانوا مُتعرِّضينَ للموتِ.

ولم يقُلْ: «أجسادًا» لأنَّه أرادَ: وما جعَلْنا كلَّ واحدٍ منهم جسدًا.

وقيلَ: نزلَ هذا في قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]؟.

* * *

(٩) ـ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾؛ أي: وعَدْناهم أن تكونَ العاقبةُ المحمودةُ

---

(١) قرأ بها حفص، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

(٢) في (أ): «لا يتحرك».

لهـم، ثـمَّ أنجَزْنا ذلـك الوعـدَ وأنجَيناهم من شـرِّ الأعـداءِ ومـنَ العذابِ الـذي نزَلَ بالعدوِّ.

﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾؛ أي: الذين صدَّقُوهم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المُشركينَ.

* * *

(١٠) ـ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: أنزَلْنا عليكم القرآنَ، وهو مـمَّا يُكتَبُ ويُحفَظُ، و﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: شرفُكم، فالذِّكرُ بمعنَى الشَّرفِ هنا، وهذا الكتابُ شرفٌ لنبيِّنا عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ لأنَّه مُعجزتُه، وهو شرَفُنا.

وقيلَ: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: ذِكرُ أمرِ دينِكم وأحكامِ شرعِكم، وما تصيرونَ إليه من ثوابٍ وعقابٍ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الأشياءَ التي ذكَرْناها.

* * *

(١١) ـ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ رغَّبَ في تأمُّلِ القرآنِ، ثمَّ أوعَدَ مَن أعرَضَ عنه بالمُعاجلةِ بالعقابِ، أو بإحلالِ العقابِ به غدًا.

والقَصْمُ: الكسرُ، والمعنِيُّ به هاهُنا: الإهلاكُ.

﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾؛ أي: كافرةً؛ يعني: أهلَها، والظُّلمُ: وضـعُ الشَّيءِ فـي غيرِ موضعِه، وهم وضَعُوا الكفرَ موضعَ الإيمانِ.

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾؛ أي: أوجَدْنا بعد إهلاكِهم ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

* * *

(١٢) ـ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾؛ أي: رأَوا عذابَنا، يُقالُ: أحسَسْتُ منه ضَعْفًا، وقال الأخفشُ: أحسُّوا: خافُوا وتوقَّعُوا[1].

﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾؛ أي: يهرُبونَ خارِجينَ منها، والرَّكضُ: أن تضرب مَرْكَلَي[2] الدَّابَّةِ برِجلَيكَ، ومنه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ [ص: ٤٢]؛ أي: اضرِبِ الأرضَ بها، ويُقالُ: «رَكَضْتُ الدَّابَّةَ»، و«ركَضَتْ هي بنفسِها».

وقولُه: ﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ يجوزُ أن يكونَ بمعنى: يركُضُونَ دوابَّهم، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى: يركُضُونَ بأنفُسِهم؛ أي: يفِرُّونَ.

* * *

(١٣) ـ ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ هو إخبارٌ عن قومٍ سلَّطَ الله عليهم، فخرَجُوا لقتالِه ثمَّ انهزَمُوا، فنادَتْهم الملائكةُ استِهزاءً بهم وقالَتْ: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٢١).

(٢) المركَل كمَقْعَد: حيث تصيبه برجلك من الدابة. انظر: «القاموس» (مادة: ركل).

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٢١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قرية من قرى اليمن يقال لها: حضور، أرسل الله عز وجل إليهم نبياً فكذبوه ثم قتلوه، فسلط الله عز وجل عليهم بختنصر فقتلهم وهزمهم، فقالت لهم الملائكة عليهم السلام حين انهزموا: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾. واسم ذلك النبي: شعيب بن ذي مهدم. انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٣/ ٣٣٦)، و«التعريف والإعلام» للسهيلي (ص: ١١٢).

وفي «البسيط» (١٥/ ٢٧) عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾ قال: يريد مدائن كانت باليمن، حَضُوراء وبيت شِبَام مدائن كثيرة.

﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: إلى نِعَمِكُم التي كانت سببَ بطرِكم، يُقالُ: «أُترِفَ على فلانٍ»؛ أي: وُسِّعَ عليه في معاشِه، وإنَّما أترَفَهم الله عزَّ وجلَّ كما قال: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣].

وقيلَ: ارجِعُوا إلى النِّعَمِ التي أترفَتْكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ، وقيلَ: لعلَّكُم تُعذَّبون.

وقيلَ: لعلَّكم تُسأَلون فتُجيبونَ عمّا تُشاهِدون إذا رأيتُم مساكِنكم ونعمَتكم.

أو: لعلَّكم تُسأَلون أن تُؤمِنُوا كما كنتُم تُسألونَ ذلك قبلَ نُزولِ البأسِ بكم.

أو: تُسأَلونَ عن السَّببِ في كُفرِكم وإعراضِكم عن قَبولِ الإيمانِ.

* * *

(١٤) - ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾؛ أي: لمَّا قالتِ الملائكةُ لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾، ولم يرَوا شخصًا يُكلِّمُهم عرَفُوا أنَّ الله هو الذي سلَّطَ عليهم عدُوَّهم بقتلِهم النَّبيَّ الذي بُعِثَ فيهم، فعند ذلك قالوا: «يا ويلَنا»، فاعترَفُوا بأنَّهم ظَلِمُوا حينَ لا ينفَعُ الاعتِرافُ.

* * *

(١٥) - ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾؛ أي: لم يزالُوا يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾؛ أي: بالسُّيوفِ كما يُحصَدُ الزَّرعُ بالمِنْجَلِ ﴿خَامِدِينَ﴾؛ أي: ميِّتينَ كخُمودِ النّارِ.

وقيلَ: عنَى بالحصدِ الإهلاكَ.

* * *

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾؛ أي: لم نخلُقْهما هَزْلًا بل للتَّنبيهِ على أنَّ لهما خالقًا قادِرًا يجبُ امتِثالُ أمرِه، وأنَّه يُجازي المُسيءَ والمُحسِنَ.

قولُه تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ لـمَّا اعتقدَ قومٌ أنَّ له ولدًا قال: لو أرَدْنا أن نتَّخِذَ الولدَ والصّاحبةَ ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾؛ أي: من عندِنا لا من عندِكم.

قيلَ: أرادَ الرَّدَّ على مَن قال: الأصنامُ بناتُ الله؛ أي: كيف يكونُ منحوتُكم ولدًا لنا؟

واللَّهوُ: طلَبُ التَّرويحِ عنِ النَّفسِ.

﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾؛ أي: منَ الجواهرِ السَّماويّةِ التي يقِلُّ تغيُّرُها.

وقيلَ: منَ الحورِ العينِ.

وقيلَ: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾؛ أي: من عندِنا بحيثُ لا يطَّلعون عليه؛ لأنَّه نقصٌ، ومَن قدرَ على سترِ النَّقصِ لـم يُظهِرْه، وكلُّ هذا بيانُ أنَّ اتِّخاذَ الولدِ مُحالٌ في حقِّه، وقد يُحتاجُ في تقريرِ الحجّةِ إلى تقريرِ مُحالٍ، وما نحنُ فيه من ذلك.

وقال ابنُ قُتيبةَ: الآيةُ ردٌّ على النَّصارَى؛ أي: لو أرَدْنا اتِّخاذَ صاحبةٍ وولدٍ لاتَّخذْنا ذلك من عندِنا لا من عندِكم؛ لأنَّ ولدَ الرَّجلِ وزوجتَه يكونانِ عنده لا عند غيرِه، واسمُ اللَّهوِ يُطلَقُ عندَ العربِ على المرأةِ وعلى الوِقاعِ[1].

وقيلَ: لو أرَدْنا أن نتَّخِذَ ولدًا على طريقِ التَّبنِّي لاتَّخذْناه من عندِنا من الملائكةِ.

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص: ١٠٤ ـ ١٠٥).

ومالَ إلى هذا قومٌ؛ لأنَّ الإرادةَ قد تتعلَّقُ بالتَّبنِّي، فأمَّا اتِّخاذُ الولدِ فهو مُحالٌ، والإرادةُ لا تتعلَّقُ بالمُستحيلِ.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ أي: لو كُنَّا فاعلينَ، ولكنْ لسنا فاعلينَ ذلك؛ لاستِحالةِ أن يكونَ لنا ولدٌ.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ أي: ما كنَّا فاعلينَ، كقولِه: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]؛ أي: ما أنتَ إلّا نذيرٌ، فـ﴿إِنۡ﴾ بمعنَى الجحدِ.

* * *

(١٨) ـ ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ أي: ليس كما يتوهَّمونَ، بل نرمي بالحقِّ على الباطلِ فيقهرُ الحقُّ الباطلَ، أرادَ بالحقِّ القرآنَ، وبالباطلِ كذبَهم، أو أراد بالحقِّ الحجّةَ، وبالباطلِ شُبَهَهم.

﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾؛ أي: يُبطِلُه، يُقالُ: «دمَغْتُه»؛ أي: أصبْتُ بالضَّربِ دماغَه، وهو مقتَلٌ.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾؛ أي: ذاهبٌ زائلٌ.

﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾؛ أي: ولكم العذابُ في الآخرةِ بسببِ وصفِكم الرَّبَّ بما لا يجوزُ في وصفِه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: الويلُ: وادٍ في جهنَّمَ[١].

﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾؛ أي: مـمَّا تكذِبون.

وقيلَ: مـمَّا تصِفُونَ اللهَ به منَ المُحالِ، وهو اتِّخاذُ الولدِ.

---

(١) رواه أسد بن موسى في «الزهد» (١٦)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤١).

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: الكلُّ ملكُه، فكيف يجوزُ أن يُشرَكَ به ما هو عبدُه وخلقُه؟ وهو خالقُ كلِّ ما سواه، فلا حاجةَ له ولا نقصَ، فلا أنسَ له إذًا بأهلٍ وولدٍ.

﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾؛ أي: الملائكةُ الذين ذكرتُم أنَّهم أولادُ الله لا يأنَفُونَ عن عبادتِه والتَّذلُّلِ له ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾؛ أي: لا ينقَطِعُون منَ العبادةِ، يُقالُ: «حَسَرَ واستَحْسَرَ»؛ أي: تعِبَ وأعيا، ومنه: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٤]؛ أي: كليلٌ.

قولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يُنزِّهونَ الله دائمًا ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾؛ أي: لا يضعُفونَ، فكيف يكونُونَ آلهةً يُعبَدون؟!

* * *

(٢١) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ هذا تعجيبُ توبيخٍ.

﴿يُنشِرُونَ﴾؛ أي: يُحيُونَ، يُقالُ: «أنشرَ الله الميِّتَ فنشرَ»؛ أي: أحياهُ فحيِيَ.

قال المُبرِّدُ: أي: بل اتَّخذُوا[1]، فهذا معنى «أم» المُنقطعةِ.

---

(١) في (ج): «أي بل اتخذوا أي اتخذوا»، وفي (أ): «اتخذوا أي اتخذوا»، والصواب المثبت، فقد ذكره عن المبرد: الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٥)، وفيه: «قال المبرد: ﴿أَمِ﴾ هاهنا تقريع وتوبيخ كالألف، إلا أنَّ فيها زيادة انتقال عن خبر إلى خبر معناه: بل اتخذوا، وهذا معنى «أم» المنقطعة حيث وقعت».

وقال المُفضَّلُ: مقصودُ هذا الاستفهامِ الجحدُ[1]؛ أي: لم يتَّخِذُوا آلهةً تقدرُ على الإحياءِ.

وقيلَ: ﴿ أَمِ ﴾ عطفٌ على المعنَى؛ أي: أفخلَقْنا السَّماءَ والأرضَ لعِبًا، أم هذا الذي أضافُوه إلينا من عندِنا فيكونَ لهم موضعَ شُبهةٍ، أم هل ما اتَّخذوه منَ الآلهةِ في الأرضِ يُحيي الموتَى فيكونَ موضعَ شُبهةٍ؟

وقيلَ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، ثمَّ عطفَ عليه بالمُغايبةِ فقال: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً ﴾.

وقُرِئَ: (يَنْشُرون) بفتحِ الياءِ[2]؛ أي: يحيَونَ ولا يمُوتون.

* * *

(٢٢ - ٢٣) - ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ﴾؛ أي: في السَّماواتِ والأرضِ ﴿ءَالِهَةٌ﴾؛ أي: معبُودون.

﴿إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ تقولُ: «جاء القومُ إلّا زيدًا» بالنَّصبِ على الاستثناءِ، و: «جاء القومُ إلّا زيدٌ» على الصِّفةِ؛ أي: جاءَ القومُ غيرُ زيدٍ، وكذلك ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ معناه: لو كان فيهما آلهةٌ غيرُ الله، ذكرَه الزَّجَّاجُ وأبو عليٍّ[3].

﴿لَفَسَدَتَا﴾؛ أي: لخرِبَتا ولَوقعَ التَّمانُعُ، ولم يقُلْ: «لَفسَدْنَ»؛ لأنَّه جعلَ السَّماواتِ صنفًا والأرضَ صنفًا.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣ - ٩٤) عن الحسن.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٨٨)، و«الإيضاح العضدي» لأبي علي الفارسي (ص: ٢٠٩).

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ نزَّهَ نفسَه وأمرَ العبادَ أن يُنزِّهوه عن أن يكونَ له شريكٌ أو ولدٌ.

قولُه تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾؛ أي: عمَّا يَخلقُ، فلا يُقالُ: لِـمَ خلَقَ؟ ولِـمَ فعَلَ ما فعَلَ؟ والخلقُ مسؤولونَ عن أعمالِـهم، بيَّنَ بهذا أنَّ مَن يُسأَلُ غدًا عن أعمالِه كالمسيحِ والملائكةِ لا يصلحُ للإلـهيّةِ.

***

(٢٤) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾ أعادَ التَّعجيبَ في اتِّخاذِ الآلهةِ من دونِ الله مُبالغةً في التَّوبيخِ.

وقيلَ: الأوَّلُ احتجاجٌ من حيثُ المعقولُ؛ لأنَّه قال: ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ ويُحيُونَ المَوتَى، هيهاتَ! والثّاني احتجاجٌ بالمنقولِ؛ أي: هاتوا بُرهانَكم من هذه الجهةِ، ففي أيِّ كتابٍ نزَلَ هذا؟ في القرآنِ أم في الكتُبِ المُنزلةِ على سائرِ الأنبياءِ؟

﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾؛ أي: القرآنُ فيه خبرُ مَن معيَ على ديني ممَّن تبِعَني[1] إلى يومِ القيامةِ ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾ أي: وفيه ذِكرُ مَن قبلي منَ الأممِ السّالفةِ، وذِكرُ التَّوراةِ والإنجيلِ وما أنزلَ الله منَ الكتبِ؛ أي: فانظُروا هل في كتابٍ من هذه الكتُبِ أنَّ الله أمرَ باتِّخاذِ آلهةٍ سواه؟ فالشَّرائعُ لـم تختَلِفْ فيما يتعلَّقُ بالتَّوحيدِ، وإنَّما اختلَفَتْ في الأوامرِ والنَّواهي.

وقيلَ: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾؛ أي: في القرآنِ ما نصيرُ وتصيرُونَ إليه، فافعلوا ما شئتُم، فعن قريبٍ ينكشفُ الغِطاءُ. ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هذا ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

---

(١) في (ج): «يتبعني».

(٢٥) ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾؛ أي: لم نُرسِلْ قبلَكَ يا محمَّدُ رسولًا إلّا أوحَينا إليه التَّوحيدَ، وقُلنا للجميعِ: لا إلهَ إلّا الله.

فأدلّةُ العقلِ شاهدةٌ على أنَّه لا شريكَ له، والنَّقلُ عن جميعِ الأنبياءِ موجودٌ، والدَّليلُ إمّا معقولٌ وإمّا منقولٌ.

﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ أي: وافقكُم أيُّها المسلمون جميعُ الأنبياءِ على دينِكم فتمسَّكوا به.

* * *

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ هذا ردٌّ على مَن قال منَ العربِ: الملائكةُ بناتُ الله، وكانوا يعبُدونَهم طمعًا في شفاعتِهم لهم.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا له ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾؛ أي: ليس كما زعمَ هؤلاءِ الكفّارُ، بل الملائكةُ عبادُ الله قد أكرمَهم بما أرادَ كما أكرمَ بعضَ الأزمانِ وبعضَ الأماكنِ وبعضَ الآدميِّينَ.

والمعنَى: بل هم عبادٌ، والولدُ هاهُنا للجمعِ، وقد يكونُ للواحدِ والجمعُ أولادًا، ويجوزُ أن يكونَ لفظُ «الولدِ» للجنسِ، كما يُقالُ: «لفلانٍ مالٌ وولدٌ»، يُرادُ الجنسُ لا الواحدُ.

قولُه تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: إنَّهم لا يشفَعُونَ لأحدٍ إلّا بإذنِه ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: لا يعملونَ إلّا ما أمرَهم به.

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرةُ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الدُّنيا[1].

وقيلَ: ما عمِلُوا وما يعمَلُون، وما قدَّمُوا وأخَّرُوا من أعمالِـهم.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾؛ أي: فكيف يشفَعُون لمَن أشركَ بالله.

﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾؛ أي: إلّا لَمن هـو مرضيٌّ عندَ الله؛ أي: مُوحِّدٌ، والملائكةُ يشفَعُونَ غدًا في الآخرةِ، وفي الدُّنيا أيضًا، فإنَّهم يستغفِرُونَ للمُؤمنينَ، ولكن إذا أذِنَ الرَّبُّ فيه.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ ﴾؛ أي: مـن خشـيتِهم منـه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفـونَ لا يأمنُـونَ مَكرَه.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ ﴾؛ أي: مـن يقُـلْ مـنَ الملائكـةِ: إنِّـي إلهٌ من دونِ الله ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾؛ أي: فذلـك القائـلُ نجزيـه جهنَّمَ، وهـذا دليلٌ على أنَّهـم وإن أُكرِمُـوا بالعصمـةِ فهـم مُتعبَّدونَ وليسـوا مُضطرِّيـنَ إلى العبـادةِ كما ظنَّه بعضُ الـجُهَّالِ.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾؛ أي: كما جزَيناه جهنَّمَ نجزي الظّالمينَ جهنَّمَ.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٤) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣٠) - ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دعا الخلقَ إلى النَّظرِ في أفعالِه حتَّى يتحقَّقُوا أنَّه القادرُ على الكمالِ، ولا إلهَ غيرُه، ولا شريكَ له، فقال: «أولَم يروا»؛ أي: ألَم يرَوا بأبصارِهم؟ أو: أولَم يعلَمُوا؟

﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ قال الزَّجَّاجُ: السَّماواتُ لفظُ الجمعِ وأُريدَ به الواحدُ، ولهذا قال: ﴿كَانَتَا﴾؛ لأنَّه أرادَ السَّماءَ والأرضَ[1]، ومنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

وبيانُ هذا: أنَّه جعلَ السَّماواتِ نوعًا والأرَضينَ نوعًا، فأخبرَ عن النَّوعَينِ كما يُخبَرُ عن اثنَينِ، وهو كما تقولُ: «أصلَحْتُ بينَ القومَينِ»، وتقولُ: «مرَّ بنا غنمانِ أسوَدانِ»؛ لأنَّ هذا القطيعَ غنمٌ وذاكَ غنمٌ.

﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ الرَّتقُ: السَّدُّ، من: «رتَقْتُ الشَّيءَ فارتَتَقَ»، ومنه: الرَّتقاءُ، للمُنضَمَّةِ الفَرْجِ.

﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ الفَتقُ: الفصلُ بينَ الشَّيئَينِ المُتَّصلَينِ؛ أي: كانتا ذواتَي رَتْقٍ ففتَقْناهُما.

قيلَ: أرادَ الله فتْقَ السَّماءِ بالمطرِ، والأرضِ بالنَّباتِ والأشجارِ.

وقيلَ: كانتا شيئًا واحدًا ففصَلَ الله بينَهما بالهواءِ.

قال كعبٌ: خلَقَ الله السَّماواتِ والأرَضينَ بعضُها على بعضٍ، ثمَّ خلقَ ريحًا

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٩٠).

توسَّطتها[1]، ففتحَها بها وجعَلَ السَّماواتِ سبعًا والأرضينَ سبعًا[2].

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾؛ أي: جعَلْناه سببَ حياةِ كلِّ شيءٍ.

وقيلَ: المُرادُ: خلقُ الحيواناتِ منَ النُّطفةِ، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

وهذا احتجاجٌ آخرُ سوى ما تقدَّمَ من كونِ السَّماواتِ والأرضينَ رتقًا.

وقيلَ: الكلُّ قد يُذكَرُ بمعنَى البعضِ كقولِه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، وقولِه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أفلا يُصدِّقُونَ بأنَّ ذلك لـم يكُنْ بنفسِه، بل بمُكوِّنٍ كوَّنَه، ولا يجوزُ أن يكونَ ذلك المُكوِّنُ مُحدَثًا.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿ألـم يرَ الذين كفَروا﴾ بغيرِ واوٍ، والباقونَ: ﴿أَوَلَمْ﴾ بالواوِ[3].

***

(٣١) ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾؛ أي: جبالًا ثوابتَ لئلا تميدَ بهم ولا تتحرَّكَ؛ ليتمَّ القرارُ عليها.

والمَيدُ: التَّحرُّكُ والدَّوَرانُ، يُقالُ: «مادَ رأسُه»؛ أي: دارَ.

---

(١) في (أ): «بوسطها».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ١١٨)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٨).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

و﴿أَن تَمِيدَ﴾ بمعنى: «لئلا تميدَ» عند الكوفيِّينَ، وبمعنَى: «كراهةَ أنَ تميدَ» عند البصريِّينَ.

قال ابنُ عبّاسٍ: بُسِطَتِ الأرضُ على الماءِ فكانت تميدُ بأهلِها كما تميدُ السَّفينةُ، فأرساها الله بالجبالِ الثِّقالِ(١).

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ قيلَ: جعَلْنا في الرَّواسي فِجاجًا، وهي المسالكُ، والفجُّ: الطَّريقُ الواسعُ بين الجبلَينِ.

وقيلَ: أي: وجعَلْنا في الأرضِ فِجاجًا؛ أي: مسالكَ.

﴿سُبُلًا﴾ تفسيرٌ للفِجاجِ؛ لأنَّ الفَجَّ قد يكونُ وقد لا يكونُ طريقًا نافذًا مسلوكًا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ «لعلَّ» ليس للشَّكِّ، بل لترقيقِ الكلامِ؛ أي: لتستَدِلُّوا وتتَوصَّلوا بتلك الطُّرقِ إلى ما تقصِدُونَ إذا أَصَبْتُم في الاجتهادِ والطَّلبِ، وإن أخطَأتُم فلا تَضْنَون(٢).

* * *

(٣٢) - ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أي: السَّماءُ للأرضِ كالسَّقفِ للبيتِ.

﴿مَحْفُوظًا﴾؛ أي: منَ الشَّياطينِ بالنُّجومِ، كما قال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧].

---

(١) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (٩/ ١٤)، وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٣٠٤)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢١٦)، بلا نسبة.

(٢) في (ج) لعلها: «فلا تضنون».

وقيلَ: محفوظًا منَ الوُقوعِ علـى الأرضِ، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وقيلَ: محفوظًا منَ الـهَدْمِ والنَّقْضِ، وعن أن يبلُغَه أحدٌ بحيلةٍ.

وقيلَ: محفوظًا فلا يحتاجُ إلى عمادٍ.

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أضافَ الآياتِ إلى السَّماءِ؛ لأنَّها مجعولةٌ فيها، وقد أضافَ الآياتِ إلى نفسِه في مواضعَ؛ لأنَّه الفاعلُ لـها، وهو كما يُضافُ الرَّسولُ مرَّةً إلى المُرسِلِ، ومرّةً إلى المُرسَلِ، بيَّنَ أنَّ المُشركينَ غَفِلُوا عن النَّظرِ في السَّماواتِ وآياتِها حتَّى يعلَمُوا أنَّ لـها صانعًا قادرًا واحدًا يستحيلُ أن يكونَ له شريكٌ.

***

(٣٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ذكَّرَهم نِعَمَه بأنْ جعَلَ لهم اللّيلَ ليسكُنوا فيه، والنَّهارَ ليتصرَّفُوا فيه لمَعاشِهم، وجعلَ الشَّمسَ آيةً للنَّهارِ والقمرَ آيةً للَّيلِ؛ لتُعلَمَ الشُّهورُ والسِّنونَ والحسابُ.

﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الفَلَكُ: شيءٌ مُستَديرٌ، وأصلُ الكلمةِ من الدَّورانِ، ومنه: «فَلْكةُ المِغْزلِ» للاستِدارةِ، و«تفَلَّكَ ثَدْيُ المرأةِ».

قال ابنُ زيدٍ: الأفلاكُ: مجاري النُّجومِ والشَّمسِ والقمرِ، قال: وهي بين السَّماءِ والأرضِ(١).

«يسبَحُون»؛ أي: يجرُونَ بسُرعةٍ كالسّابحِ فـي الماءِ، قال الله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٥٢).

سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣]، وقد يُقالُ للفرسِ الذي يمُدُّ يدَه في الجرْيِ: «سابِحٌ»، وقد وصفَ النُّجومَ بالفعلِ فأُجرِيَتْ مُجرَى ما يعقِلُ فقيلَ: «يسبَحُونَ».

***

(٣٤) - ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ لمّا حاجَّ في التَّوحيدِ حاجَّ في إثباتِ النُّبوّةِ، فإنَّ المُشركينَ كانُوا يدفعُونَ نبوَّتَه، ويقُولونَ شاعرٌ نتربَّصُ به رَيبَ المَنونِ، ولعلَّه يموتُ كما ماتَ شاعرُ بني فلانٍ، قال الله: قد ماتَ الأنبياءُ من قبلِكَ وتولَّى الله دينَه بالنَّصرِ والحياطةِ، فهكذا يحفَظُ دينَكَ وشرعَكَ، والخلدُ: الاسمُ منَ الخلودِ، وهو البقاءُ الدّائمُ؛ أي: ما جعَلْنا لأحدٍ من بني آدمَ دوامَ البقاءِ في الدُّنيا، فليس في موتِ محمَّدٍ ما يُبطِلُ نُبوَّتَه.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ هو استفهامُ إنكارٍ؛ أي: إنْ ماتَ محمَّدٌ فهم يمُوتُون أيضًا، فلا شماتةَ في الإماتةِ.

قُرِئَ: ﴿مِتَّ﴾ و﴿مُتَّ﴾ بكسرِ الميمِ وضمِّها[1]، وهما لُغتانِ.

***

(٣٥) - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ «النَّفسُ» لفظُ عمومٍ أُريدَ به التَّخصيصُ؛ أي: كلُّ نفسٍ مخلوقةٍ منَ الحيواناتِ فإنَّها تموتُ.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر بضم الميم، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٢١٨)، و«التيسير» (ص: ٩١).

﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: ذائقةٌ الموتَ، كقولِه: ﴿هَدْيَا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقولِه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١].

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: نبتَليكم بالشِّدّةِ والرَّخاءِ، والحلالِ والحرامِ؛ لننظرَ كيف شكرُكم وصبرُكم.

﴿فِتْنَةً﴾؛ أي: اختبارًا منِّي ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: للجزاءِ بالأعمالِ.

قُرِئَ بالياءِ والتّاءِ، وقُرِئَ ﴿تَرجِعون﴾ بالتّاءِ على المُخاطَبةِ[1].

***

(٣٦) - ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ عجَّبَ العبادَ مِنِ استهزاءِ المُشركينَ بالنَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، ومنِ استِعجالِهم بالعذابِ.

﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ أي: ما يتَّخِذُونَكَ إلّا مهزُوءًا به.

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ أي: يقولُونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾؟ فالقَولُ مُضمَرٌ، وهو جوابُ «إذا»، وقولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كلامٌ مُعترِضٌ بينَ «إذا» وجوابِه.

﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ أي: يَعيبُها، أو يذكرُها بالسُّوءِ.

---

(١) بالياء مضمومة رواية عباس عن أبي عمرو كما في «السبعة»، وقرأ ابن عامر من رواية ابن ذكوان بخلف بالتاء مفتوحة، والباقون بالتاء مضمومة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٩)، و«جامع البيان» (٣/ ١٣٦٩).

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: تعجَّبُوا من ذكرِكَ آلـهتَهم التي لا تضُرُّ ولا تنفعُ بالسُّوءِ، وهم بذكرِ الله الذي خلَقَهم ومنه نفعُهم وضرُّهم كافرون.

وقيلَ: أرادَ قولَـهم إذا سمِعُوا ذكرَ الرَّحمنِ: هو مُسيلمةُ رحمنُ اليمامةِ.

وقيلَ: أرادَ بذكرِ الرَّحمنِ القرآنَ، فإنَّهم كانوا يكفُرونَ بما فيه.

وقولُه: ﴿هُمْ﴾ الثّانيةُ توكيدُ كفرِهم؛ أي: هم كلُّ الكافرين، مُبالغةً في وصفِهم بالكفرِ.

* * *

(٣٧) ـ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ أي: عَجُولًا، كما قال الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤]؛ أي: خُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا، ويُقالُ: «خُلِقَ فلانٌ من الشَّرِّ»؛ أي: خُلِقَ شرِّيرًا، ويُقالُ: «إنَّما أنتَ ذهابٌ ومجيءٌ»؛ أي: ذاهِبٌ وجاءٍ؛ أي: طَبعُ الإنسانِ العجَلةُ، فيستعجلُ كثيرًا منَ الأشياءِ وإن كانت تَضُرُّه؛ أي: هؤلاءِ المُستَهزِئُونَ يقولون: متى هذا الوعدُ؟

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾؛ أي: أدِلَّةَ صدقِ محمَّدٍ، وما جعلَه له منَ العاقبةِ المحمودةِ، فدَعُوا الاستعجالَ، فلكلِّ شيءٍ أجلٌ مضروبٌ.

نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ وقولِه: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٢][1].

وقيلَ: أرادَ بالإنسانِ آدمَ، لـمَّا نُفِخَ فيه الرُّوحُ لـم تبلُغِ الرُّوحُ رجلَيه حتَّى

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٧٨) من رواية عطاء عن ابن عباس، وهذه الرواية باطلة كما تقدم.

استعجَلَ وهوَى إلى عُنقودٍ من عنَبِ الجنَّةِ ليأكلَ منه.

وقيلَ: خُلِقَ يومَ الجمعةِ في آخرِ النَّهارِ، فلمَّا أحيا الله رأسَه استعجلَ وطلبَ تتميمَ نفخِ الرُّوحِ فيه قبلَ غروبِ الشَّمسِ.

ثمَّ، وإن أخبرَ أنَّ طبعَ الآدميِّ العجَلةُ قالَ مع ذلك: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ في طلبِ العذابِ، وقد نُهِيَ المرءُ عمَّا هو مطبوعٌ عليه كما نُهِيَ عن المُحرَّماتِ وإن كانَ تميلُ إليها الطِّباعُ.

وقيلَ: ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أرادَ القتلَ يومَ بدرٍ.

* * *

(٣٨ ـ ٤٠) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: الموعودُ، كما يُقالُ: «الله رجاؤُنا»؛ أي: مَرجُوُّنا.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ العلمُ بمعنَى المعرفةِ، فلا يقتَضي مفعولًا ثانيًا هاهُنا؛ أي: لو عرَفُوا الوقتَ الذي ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لـمَا استعجَلُوا، فجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾؛ أي: تأتيهم القيامةُ فجأةً؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: متى السّاعةُ؟

وقيلَ: بل تأتيهم النّارُ بغتةً فلا يتمكَّنونَ من حيلةٍ.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾؛ أي: تُحيِّرُهم، يُقالُ: «بهتَه يَبهَتُه»؛ أي: واجهَه بشيءٍ يُحيِّرُه.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾؛ أي: صَرْفَها عنهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يُمهلون لتوبةٍ واعتذارٍ.

* * *

(٤١) - ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاطَ بالمُستَهزئين العذابُ.

* * *

(٤٢) - ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ لـمَّا استعجَلُوا العذابَ قال: قل: مَن يحفَظُكم باللَّيلِ إذا نِمتُم وبالنَّهارِ إذا قُمتُم وتصرَّفتُم في أمورِكم ﴿مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: لو أرادَ لنزلَ بكم العذابُ.

ثمَّ، يحتملُ أن يكونَ هذا خطابًا لمَن اعترفَ منهم بالصّانعِ؛ أي: إذا أقرَرْتُم بأنَّه الخالقُ فهو قادرٌ على إحلالِ العذابِ الذي تستعجِلُونَه بكم.

والكَلاءةُ: الحِفظُ، و«اكتلأْتُ بهذه الدّارِ»؛ أي: تحصَّنْتُ بها.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: عن القرآنِ، وقيلَ: عن مواعظِ ربِّهم. وقيلَ: عن معرفتِه.

وقولُه: ﴿مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: من أمرِ الرَّحمنِ، أو: عذابِه كقولِه: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٣]؛ أي: من عذابِ الله.

(٤٣) ـ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾؛ أي: يستعجِلُونَ العذابَ جهلًا منهم بأنَّه لا حافظَ لـهم منَ العذابِ إنْ نزلَ بهم، أم اعتمادًا على آلهةٍ لهم تدفعُ عنهم عذابَ الله، فتلك الآلهةُ لا تدفعُ عن نفسِها شيئًا، فكيف تدفعُ عنهم؟

﴿مِّن دُونِنَا﴾؛ أي: آلـهةٌ من دونِنا تمنَعُهم، و﴿مِّن﴾ صلةُ ﴿ءَالِهَةٌ﴾؛ أي؛ أم لـهم آلهةٌ دونَنا، أو صلةُ ﴿تَمْنَعُهُم﴾؛ أي: أم لـهم مانعٌ سوانا.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ دلَّ عليه ما قبلَه من ذكرِ الآلهةِ[1].

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ أي: ولا الكفّارُ يُجارُونَ من عذابِنا، والمُجيرُ: صاحبُ الجارِ، ويُقالُ: «صحِبَكَ الله»؛ أي: أجارَكَ الله وحفِظَكَ، فهو من «صَحِبَ يصحَبُ».

وقيلَ: منَ الإصحابِ، يُقالُ: «أصحَبْتُ الرَّجلَ»؛ أي: منَعتُه منَ الآفاتِ.

وقيلَ: أي: لا يصحبُهم الله خيرًا، ولا يجعلُ رحمتَه صاحبًا لـهم[2].

***

(٤٤) ـ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ﴾؛ أي: ليس لـهم مَن يمنعُهم من عذابِنا، بل اغترُّوا بأنْ متَّعناهُم بالحياةِ الدُّنيا، وبسَطْنا لهم ولآبائِهم في نعيمِها، فطالَ عليهم

(١) والتقدير: آلهتُهم التي يزعمون أنها تنصرهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠) عن قتادة بلفظ: لا يصحبون من الله بخير.

العمرُ في النِّعمةِ، فظنُّوا أنَّها لا تزولُ عنهم، فأعرَضُوا عن تدبُّرِ حججِ الله.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾؛ أي: أفلا يرونَ خرابَ البلادِ، فما الذي يُؤمِنُهم من مثلِه ومن هلاكِهم بعد طولِ الإمهالِ؟

وقيلَ: أفلا يرونَ ما يُفتحُ على محمَّدٍ ﷺ من بُلدانِ الكفَّارِ ممَّا حولَ مكَّةَ؟

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ يعني: كفَّارَ مكَّةَ بعد أن نقَصْنا من أطرافِهم بها، بل أنتَ تغلِبُهم.

***

(٤٥) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾؛ أي: ليس إليَّ إنزالُ العذابِ، إنَّما أنا مُنذِرٌ، ويُقالُ: «أنذرتُه عذابًا»، وهاهُنا قال: ﴿بِٱلْوَحْيِ﴾؛ لأنَّه قد يُقالُ: «أنذَرْتُه بكذا»، و«أنذَرْتُه كذا»، كما يُقالُ: «خوَّفتُه كذا»، و«خوَّفتُه بكذا».

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؛ أي: أصمَّكم العِنادُ عن سماعِ الحقِّ.

قُرِئَ: ﴿وَلَا يَسْمَعُ﴾ بالياءِ ﴿ٱلصُّمُّ﴾ بالرَّفعِ، وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿ولا تُسمِعُ﴾ بالتَّاءِ مضمومةً ﴿الصُّمَّ﴾ بالنَّصبِ[1]؛ أي: إنَّك لا تُسمِعُ الصُّمَّ.

***

(٤٦) ـ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾؛ أي: لو مسَّهم شيءٌ منَ العذابِ لأقرُّوا على أنفُسِهم بأنَّهم جهِلُوا لـمَّا استعجَلُوا العذابَ،

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

يُقالُ: نفحَتِ الرّائحةُ تنفَحُ نَفْحًا ونُفُوحًا، وله نفحةٌ طيِّبةٌ ونفحةٌ خبيثةٌ؛ أي: إنْ أصابَهم رائحةُ العذابِ لنادَوا بالويلِ.

وقال الخليلُ: «نفحَتِ الدَّابَّةُ»؛ أي: رَمحَتْ [برجلِها]، و«نفحَه بالسَّيفِ»؛ أي: تناوَلَه [من بعيدٍ] شَزرًا(١).

أي: إنْ تناولَـهم شيءٌ منَ العذابِ لأيقَنُوا بالهلاكِ.

***

(٤٧) ـ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾؛ أي: ليَكونَنَّ هذا الذي وصَفْنا من عرضِهم على النار حين نضع الموازين القسط(٢).

والقِسْطُ: العدلُ؛ أي: ليس فيها بَخْسٌ ولا ظُلْمٌ كما يكونُ في وزنِ الدُّنيا.

و﴿ٱلْقِسْطَ﴾ صفةُ ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ وإنْ كانَ مُوحَّدًا، كما تقولُ: «أنتم رِضًا وعدلٌ»، يُقالُ: «ميزانٌ قِسطٌ، وميزانانِ قِسْطٌ، وموازينُ قِسْطٌ»؛ أي: ذاتُ قِسْطٍ.

وقولُه: ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ يدُلُّ بظاهرِه على أنَّ لكلِّ مُكلَّفٍ ميزانًا يُوزَنُ به أعمالُه فتُوضَعُ الحسناتُ في كِفَةٍ والسَّيِّئاتُ في كِفَةٍ.

وقيلَ: هو ميزانٌ واحدٌ له كِفَّتانِ ولسانٌ، فالكثرةُ ترجعُ إلى كثرةِ مَن تُوزَنُ أعمالُـهم، فهو في حقِّ كلِّ واحدٍ ميزانٌ لعملِه، فقيلَ: نضَعُ(٣) الموازينُ.

---

(١) انظر: «العين» (٣/ ٢٤٩)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) «أي: ليكونن هذا الذي وصفنا من عرضهم على النار حين نضع الموازين القسط» من (ج).

(٣) في (أ): «توضع».

وقيلَ: قد يُذكَرُ الجمعُ بمعنى الواحدِ، كقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وإنَّما قالَه نُعَيمُ بنُ مسعودٍ[١].

وقيلَ: للميزانِ كِفَّتانِ وخيوطٌ ولسانٌ والشّاهِيْنُ، فالجمعُ يرجعُ إليها.

وقال مُجاهدٌ وقتادةُ والضَّحّاكُ: ذِكرُ الميزانِ مثَلٌ، وليس ثَمَّ ميزانٌ، وإنَّما هو العدلُ[٢].

والذي ورَدَ به الأخبارُ وعليه السَّوادُ الأعظَمُ القولُ الأوَّلُ.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يُنقَصُ من إحسانِ مُحسنٍ، ولا يُزادُ في إساءةِ مُسيءٍ.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾؛ أي: وإنْ كانَ العملُ مثقالَ حبّةٍ.

وقُرِئَ: ﴿مثقالُ﴾ بالرَّفعِ إسنادًا للفعلِ إلى المثقالِ[٣]، ومثقالُ الشَّيءِ: ميزانُه من مثلِه.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾؛ أي: جِئْنا بها للمُجازاةِ عليها ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ أي: وحَسْبُ مَن حضرَ ذلك الموقفَ بنا حاسبينَ مُجازينَ على ما قدَّمُوه من خيرٍ وشرٍّ.

وقيلَ: ﴿حَٰسِبِينَ﴾؛ أي لا أحدَ أسرَعُ حسابًا منّا، وهذا في الآخرةِ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣١٦)، و«مغازي الواقدي» (١/ ٣٢٧)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٧٢). وكون القائل هو نعيم بن مسعود لم يثبت. انظر ما تقدم عند تفسير الآية المذكورة في (سورة آل عمران).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٦٥)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٨٥)، عن مجاهد، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٣٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٩٠)، عن قتادة، وذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٣١٩)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٧٦)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥) عن الضحاك من طريق جويبر.

(٣) قرأ بالرفع نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

وقيلَ: كفَى بنا حاسبين في الدُّنيا؛ أي: مُحصينَ أعمالَـهم.

والباءُ زائدةٌ؛ أي: كفَيْنا حاسبينَ، والحَسْبُ: العدُّ.

﴿أَتَيۡنَا بِهَا﴾؛ أي: بالحبّةِ، ولو قال: أتينَا به ـ أي: بالمِثقالِ ـ لجازَ.

وقيلَ: مثقالُ الحبّةِ ليس شيئًا غيرَ الحبّةِ، فلهذا قال: ﴿أَتَيۡنَا بِهَا﴾.

وقولُـه: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: فـي يـومِ القيامـةِ، تقـولُ: جئتُـكَ لأمرِ كـذا، و: فـي أمـرِ كذا.

وقيلَ: لأهلِ يومِ القيامةِ، ولأمرِ يومِ القيامةِ.

* * *

(٤٨ ـ ٥٠) ـ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والفرقانُ: التَّوراةُ؛ لأنَّها فرَّقَتْ بينَ الحقِّ والباطلِ، وكان ذلك ضياءً يُهتَدى به إلى الحقِّ، وكانَ ذِكرًا؛ أي: تعريفًا[1] لِـمَا بالنّاسِ إليه حاجةٌ في دينِهم.

وقيلَ: الفرقانُ: النَّصرُ لمَّا أُغرِقَ فرعونُ، كما قال: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، وعلى هذا فالضِّياءُ هو التَّوراةُ.

وقيلَ: الواوُ في قولِه: ﴿وَضِيَآءٗ﴾ مُقحَمةٌ، كما قالَ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا﴾ [الصافات: ٦ ـ ٧]؛ أي: حِفظًا، ذكرَه الفرَّاءُ[2].

(١) في (ج): «تفريقًا».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٠٥).

وعند البصريِّينَ لا يجوزُ زيادةُ الواوِ[(١)].

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خصَّهم لأنَّهم المُنتَفِعُونَ به.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: غائبينَ عن الآخرةِ؛ لأنَّهم لم يرَوها، ولـم يرَوا الله تعالى، بل عرفُوا بالنَّظرِ والاستدلالِ.

وقيلَ: يخشَونَ ربَّهم في سرائرِهم وخلَواتِهم التي يغيبُونَ فيها عن النّاسِ.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: وهم من عذابِ السّاعةِ؛ أي: قيامِ السّاعةِ قبلَ التَّوبةِ خائِفُونَ.

قولُـه تعالـى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القـرآنُ ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ وهـو مُعجِـزٌ لا تقـدرونَ علـى الإتيـانِ بمثلِه.

* * *

(٥١) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾؛ أي: أعطَيناه هُداهُ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ النُّبوّةِ؛ أي: وفَّقناه للنَّظرِ والاستدلالِ لمَّا جَنَّ عليه اللَّيلُ فرأى النَّجمَ والشَّمسَ والقمرَ.

وقيلَ: ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ موسى وهارونَ، فالرُّشدُ على هذا النُّبوّةُ.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾؛ أي: علِمْنا أنَّه أهلٌ لإيتاءِ الرُّشدِ، وصالحٌ للنُّبوّةِ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٩٤).

(٥٢ ـ ٥٤) ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾؛ أي: كنّا به عالِـمينَ إذ قال لأبيه، أو: آتيناه رُشدَه إذ قال لأبيه، أو تـمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، ثـمَّ قال: واذكُرْ إذ قال لأبيه وقومِه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؛ أي: الأصنامُ.

والتِّمثالُ: اسمٌ موضوعٌ للشَّيءِ المصنوعِ مُشبَّهًا بخلقٍ من خلقِ الله تعالى، يُقالُ: مثَّلتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ؛ أي: شبَّهتُه به، واسمُ ذلك المُمثَّلِ: تِـمثالٌ.

﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ أي: على عبادتِها مُقيمونَ.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾؛ أي: نعبُدُها تقليدًا لأسلافِنا.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ظاهرٍ يعلَمُ كلُّ عاقلٍ أنَّه ضلالٌ، إذ عبَدْتُم جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ ولا تعلَمُ.

* * *

(٥٥ ـ ٥٧) ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أجادٌّ أنتَ فيما تقولُ أم لاعِبٌ مازِحٌ.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لستُ بلاعبٍ، بل ربُّكم والقائمُ بتدبيرِكم خالقُ السَّماواتِ والأرضِ ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾؛ أي: خـلقَ السَّـماواتِ والأرضَ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: على أنَّه ربُّ السَّماواتِ والأرضِ.

وقيلَ: الشّاهدُ يُبيِّنُ الحكمَ، ومعنَى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨]: بيَّنَ الله، فالمعنى: وأنا أُبيِّنُ بالدَّليلِ ما أقولُه.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أخبرَ أنَّه لـم يكتَفِ بالمُحاجّةِ باللِّسانِ، بل كسَّرَ أصنامَهم فعلَ واثقٍ بالله تعالى، مُوطِّنٍ نفسَه على مُقاساةِ المكروهِ في الذَّبِّ عنِ الدِّينِ.

«تالله» بمعنَى: والله، والكيدُ: الإضرارُ بالشَّيءِ بالتَّدبيرِ الخفيِّ.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: تنطَلِقُوا ذاهِبين.

وكان لـهم في كلِّ سنةٍ عيدٌ يجتَمِعُونَ فيه، فقالوا لإبراهيمَ: لو خرجتَ معنا إلى عيدِنا أعجبَك دينُنا، فقال إبراهيمُ في نفسِه: «تالله لأكيدَنَّ أصنامَكم».

قال قتادةُ ومُجاهدٌ: لـم يسمَعْ هذا القولَ من إبراهيمَ إلّا رجلٌ واحدٌ هو الذي أفشاه عليه[1].

وقيلَ: إنَّما قالَه بعد خروجِ القومِ ولـم يبقَ إلّا الضُّعفاءُ، فهم الذين سمِعُوه منه، وكانَ إبراهيمُ احتالَ في التَّخلُّفِ عنهم بقولِه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]؛ أي: ضعيفٌ عن الحركةِ.

* * *

(٥٨) ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾؛ أي: تولَّوا عنه مُدبِرين فكاد أصنامَهم وجعلَها جُذاذًا؛ أي: فُتاتًا، والـجَذُّ: الكَسْرُ والقَطْعُ، والـجُذاذُ: قِطَعُ ما كُسِرَ، الواحدةُ: جُذاذةٌ، مثلَ الرُّفاتِ والدُّقاقِ.

---

(١) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ١٤٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٣) عن مجاهد.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿جِذاذًا﴾ بكسرِ الجيمِ[1]، وهو جمعُ «جَذيذٍ»، مثلَ «خفيفٍ وخِفافٍ»، و«ثقيلٍ وثِقالٍ»، والجذيذُ: المجذوذُ، وهو المكسورُ.

وقيلَ: الجِذاذُ جمعُ الجِذَّةِ، كالقِطاعِ جمعُ القِطعةِ.

والقومُ اعتَقَدوا في أصنامِهم الإلهيَّةَ، فلهذا قال: (جعلَهم).

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: إلى إبراهيمَ ودينِه وإلى ما يدعوهم إليه بتقريرِ الحجّةِ عليهم.

وقيلَ: لعلَّهم ينصرِفُونَ من عندِهم إلى إبراهيمَ وإلى أصنامِهم ليرَوها مُكسَّرةً ليعرِفُوا ضلالَتَهم.

قيلَ: إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ دخلَ بيتَ أصنامِهم وبيدِه فأسٌ فكسَّرَهُنَّ، حتَّى إذا لم يبقَ إلّا الصَّنمُ الأكبرُ علَّقَ الفأسَ في عنُقِه، وكانوا عند الانصرافِ من عيدِهم يدخلون على أصنامِهم ويسجُدون لها ثمَّ ينصرِفُونَ إلى بيوتِهم.

وقيلَ: لا، بل كانوا يضَعونَ[2] قبلَ الخروجِ طعامًا في بيتِ الأصنامِ، فإذا انصرَفُوا دخلُوا بيتَ الأصنامِ وأكلُوا ذلك الطَّعامَ، وقالوا: برَّكَتِ الأصنامُ عليه.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: ترَكَ الصَّنمَ الذي كان أكبرَ جثّةً.

وقيلَ: كانَ أكبرَها في تعظيمِهم إيّاه.

* * *

---

(١) قرأ الكسائي وحده بكسر الجيم والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) في (ج): «يصنعون».

(٥٩) ـ ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ﴾؛ أي: لـمَّا رجعُوا ورأَوا ذلك قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلـهتِنا؟ وهو استفهامُ إنكارٍ، ثمَّ قالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وقيلَ: ﴿مَن﴾ ليس استِفهامًا، بل هو ابتداءٌ وخبرُه: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١)؛ أي: فاعلُ هذا ظالِـمٌ، والأوَّلُ أصحُّ؛ لقولِه: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾، وهذا جوابُ ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾.

***

(٦٠) ـ ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ هذا القائلُ هو الذي سمعَ إبراهيمَ يقولُ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾، والواحدُ قد يُخبَرُ عنه بخبرِ الجميعِ إذا كان ما أخبرَ به عنه مـمَّا يرضَى به غيرُه، ومثلُه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [المنافقون: ٨].

ويحتملُ أنَّه سمعَ ذلك من إبراهيمَ جماعةٌ، أو سمعَ واحدٌ ففشا في جماعةٍ، أو أرادَ سَمْعَهم عيبَ الأصنامِ في كلِّ وقتٍ.

﴿يَذْكُرُهُمْ﴾؛ أي: يعيبُهم ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ قال الزَّجَّاجُ: أي: يُقالُ له: هو إبراهيمُ، ويجوزُ أن يكونَ رفعًا على النِّداءِ؛ أي: يا إبراهيمُ(٢).

وقـال ابـنُ عبّاسٍ: مـا أرسـلَ الله نبيًّـا إلّا شـابًّا، ثمَّ قـرأ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ [الأنبيـاء: ٦٠](٣).

---

(١) في (أ) و(ج): «﴿لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾» والصواب المثبت. انظر: «البسيط» (١٥/ ١٠٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٩٦).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٤٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٥٥)، =

(٦١) ـ ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ﴾ لمَّا بلغَ الخبرُ نُمروذَ وأشرافَ قومِه كرِهُوا أن يأخُذوه بغيرِ بيِّنةٍ فقالوا: ايتُوا بالذي ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ ظاهرًا بمرأًى منَ النّاسِ حتَّى يرَوه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ عليه بما قالَه ليكونَ ذلك حجّةً عليه.

وقيلَ: لعلَّهم يشهدونَ عقابَه فلا يُقدمُ أحدٌ على مثلِ ما أقدَمَ عليه.

أو: لعلَّ قومًا يشهدونَ بأنَّهم رأَوه يُكسِّرُ الأصنامَ.

أو: لعلَّهم يشهدونَ طعنَه على آلهتِهم ليعلَمُوا أنَّه يستحقُّ العقابَ.

* * *

(٦٢ ـ ٦٣) ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾؛ أي: فأَتَوا به فقالُوا له هذا، فقال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ قيلَ: أراد إقامةَ الحجّةِ عليهم، فقال: فعلَه كبيرُهم وغضِبَ من أن تعبُدوا معه هذه الصِّغارَ فكسَّرَهُنَّ.

وفي الخبرِ: «لم يكذِبْ إبراهيمُ إلّا ثلاثَ كذباتٍ، كلُّها في الله؛ قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾، وقولُه: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾، وقولُه لسارةَ: هي أُختي»[1].

= والضياء المقدسي في «المختارة» (١٠/ ١٥)، ورواه دون ذكر الآية الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٤٢١)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٥): «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه قابوس بن أبي ظبيان، وثقه يحيى بن معين في رواية، وضعفه في أخرى، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وضعفه أحمد».

(١) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يبعُدُ أن يكونَ الله أذِنَ له في ذلك ليُوبِّخَ قومَه ويُعرِّفَهم خطأَهم، كما أذِنَ ليوسفَ حتَّى أمرَ المُناديَ فقال لإخوتِه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

وقيلَ: أرادَ: بل فعلَه كبيرُهم إنْ كانُوا ينطِقُون، فبيَّنَ أنَّ مَن لا يتكلَّمُ ولا يعلَمُ لا يستحِقُّ أن يُعبَدَ، فكان قولُه منَ المعاريضِ؛ أي: «سلُوهم إنْ نطَقُوا فإنَّهم يُصدِّقُونَني، وإنْ لـم يكونُوا ينطِقُونَ فليس هو الفاعلَ»، وفي ضمنِ هذا الكلامِ اعترافٌ بأنَّه الفاعلُ وتقريرُ الحجّةِ عليهم، وفي خبرِ الشَّفاعةِ: أنَّ أهلَ الموقفِ إذا سألُوه أن يشفعَ لهم قال: «إنِّي لستُ هُناكم، إنِّي كذبْتُ ثلاثَ كذباتٍ»[1]، فلو لـم يكُنْ في الكلامِ مُجازفةٌ لَمَا قال هذا، ولو كان الله أذِنَ له فيه[2] أو كان كلامُه تعريضًا لـمَا قال: «إنِّي لست هُناكُم».

وقيلَ: الكذبُ المُحرَّمُ ما فيه إضرارٌ بالغيرِ، فأمَّا ما يكونُ للدَّفعِ عن الدِّينِ فهو مُباحٌ، وقد رُخِّصَ في الكذبِ في الحربِ، وفي الصُّلحِ بينَ الزَّوجَين.

والأظهرُ أنَّ قولَ إبراهيمَ كان منَ المعاريضِ، والذي في خبرِ الشَّفاعةِ محمولٌ على أنَّ الأنبياءَ يُشفِقُونَ مـمَّا لا يُشفِقُ منه غيرُهم إجلالًا لله.

وقال الكسائيُّ رحمَه الله: الوقفُ عند قولِه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾؛ أي: فعلَه مَن فعلَه، ثمَّ يبتدِئُ: ﴿كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾[3].

وقيلَ: أي: لِـمَ تُنكِرون أن يكونَ فعلَه كبيرُهم؟ فهذا إلزامٌ بلفظِ الخبرِ؛ أي: مَن اعتَقَدَ عبادتَها يلزمُه أن يُثبِتَ لـها فعلًا، والمعنَى: بل فعلَه كبيرُهم فيما يلزمُكم.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) «فيه» من (ج).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ١٤٥)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ١١١)، والنووي في «شرح مسلم» (١٥/ ١٢٥)، قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٣٩٢): «ولا يخفى تكلفه».

(٦٤ ـ ٦٧) ـ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: أنكَروا، وقال بعضُهم لبعضٍ: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لهذا الرَّجلِ في مسألتِكم إيّاه، وهذه آلـهتُكم حاضرةٌ فاسألُوها.

وقيلَ: إنَّكم الظّالمون إذ عبَدْتُم الصِّغارَ مع هذا الكبيرِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أنتم الظّالمونَ حيثُ عبَدتُم ما لا يتكلَّمُ[1]، فكان هذا إقرارًا منهم على أنفُسِهم بالكفرِ، ثمَّ أدركَهم الشَّقاءُ فعادوا إلى كفرِهم.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ النَّكسُ: قلبُ الشَّيءِ بأن يُجعَلَ أعلاه أسفلَه وآخرُه أوَّلَه، ويُقالُ للولدِ: منكوسٌ، إذا خرجَتْ رِجلاه قَبْلَ رأسِه، فقولُه: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ﴾؛ أي: ذَلُّوا وقُهِرُوا، وهذا القهرُ: أنَّهم اعترَفُوا لإبراهيمَ بما فيه الحجّةُ فقالوا:

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيفَ نسألُـهم؟ فظهرَتْ حجّةُ إبراهيمَ حتّى قال: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ وهو جمادٌ.

وقيلَ: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾؛ أي: عادُوا إلى الشِّركِ بعدَما اعترَفُوا، وقال بعضُهم لبعضٍ: أنتم الظّالـمون، كما يُنكَسُ المريضُ.

وقيلَ: أي: طَأْطَؤُوا رُؤوسَهم خجلةً من إبراهيمَ، ويُقالُ لمَن أطرَقَ: نكَّسَ رأسَه، ونكَّسَ بصرَه. **وفيه نظرٌ**؛ لأنَّه لـم يقُلْ: نكَّسُوا رُؤوسَهم، بل قال: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾؛ أي: رُدُّوا على ما كانُوا عليه في أوَّلِ الأمرِ.

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: فقالوا: لقد علِمْتَ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١١٤) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وإنَّما قالَ: ﴿يَنطِقُونَ﴾ لاتِّساقِ نظمِ الآيِ، ولأنَّهم أجرَوا الأصنامَ مُجرى ما يعقلُ.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ قيلَ: لا ترزُقُكم، وإنْ تركتُم عبادتَها لم تضُرَّكم.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾؛ أي: ساءَ لكم، فهي كلمةُ توبيخٍ وكراهيةٍ لـمَن يُقالُ له ذلك.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لتعلَمُوا أنَّ الجمادَ لا يستحِقُّ أن يُعبَدَ.

* * *

(٦٨ - ٦٩) - ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾؛ أي: عجَزُوا عن مُحاجَّتِه فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾؛ أي: قال لهم ملِكُهم نمرودُ ذلك.

﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ أي: بتحريقِ إبراهيمَ؛ لأنَّه يسُبُّها ويعيبُها.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾؛ أي: فاعلينَ النُّصرةَ لآلـهتِكم، ففعلوا ذلك وألقَوه في الجحيمِ، ثمَّ نجّاه الله منها.

قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: فأوقَدُوا له نارًا فألقَوه فيها، فـ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾، وهذا أمرُ تسخيرٍ.

ثمَّ؛ هذا من قولِ الله، وقيلَ: من قولِ جبريلَ بأمرِ الله تعالى.

قيلَ: بنَوا له بُنيانًا فأوقَدُوا فيه، وقد جمعوا له الحطبَ شهرًا، واتَّخذوا منجنيقًا ورمَوه في مضربٍ بعيدٍ، فاستقبَلَه جبريلُ في الهواءِ فقال: أَلَكَ حاجةٌ؟ فقال: أمّا إليكَ فلا، فاستقبَلَه ميكائيلُ فقال: إنْ أرَدْتَ أخمَدْتُ النّارَ؛ فإنَّ خزائنَ الأمطارِ

والمياهِ بيدي، فقال: لا أُريدُ، فأتاه ملَكُ الرِّيحِ فقال: لو شئتَ طيَّرتُ النّارَ، فقال: لا أُريدُ، بل حسبيَ الله، فقال جبريلُ: فاسألِ الله، فقال: حسبي عِلمُه بحالي[١].

فلمّا انتَهَى إلى النّارِ أخذَتِ الملائكةُ بضَبْعَيه فأقعَدُوه على الأرضِ، فإذا عَينُ ماءٍ عذبٍ، وورِدٌ أحمرُ ونرجِس، وأنزلَ الله زَرْبِيَّةً من الجنّةِ فبُسِطَت في النّارِ[٢].

وما أحرقَتِ النّارُ منه إلّا وِثاقَه[٣].

وجاءَ جبريلُ معَه[٤] قميصٌ من حريرِ الجنّةِ، وقال: إنَّ ربَّكَ يقولُ: إنَّ النّارَ لا تضُرُّ أحبابي[٥].

وقال عليٌّ وابنُ عبّاسٍ: لو لم يقُلْ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لهلَكَ إبراهيمُ منَ البردِ لمّا قال: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾[٦].

---

(١) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٥٠) بلفظ: «علمه بحالي يغني عن سؤالي» ونقل عن ابن تيمية قوله: موضوع.

قلت: وجاء في «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١/ ١٨٣): ليس له إسناد معروف، وهو باطل، بل الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل». رواه البخاري (٤٥٦٣) بلفظ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيمُ عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٢٢) عن المفسرين.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٢٤)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٠٧)، عن كعب.

(٤) في (ج): «وجاءه جبريل مع».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ١٥٤) عن ابن يسار.

(٦) رواه عن علي رضي الله عنه الإمام أحمد في «العلل» (٣/ ٢١١)، والراوي عنه رجل مبهم، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والبردُ: ضِدُّ الحرِّ، والسَّلامُ أن يكونَ بردُها غيرَ مُؤذٍ.

ومعنى جعلِ النّارِ بردًا؛ أي: برَّدَ نفسَ النّارِ حتَّى لا تُؤذِيَ بالوهجِ والحرِّ ولا تحرِقَ، وإمّا بأن جعَلَ بينَها وبينَ إبراهيمَ ما منعَها من إحراقِه.

وقيلَ: بقيَ إبراهيمُ سبعةَ أيّامٍ لـم يقدرْ أحدٌ أن يقربَ منَ النّارِ، ثمَّ جاؤوا فإذا هو قائمٌ يُصلِّي.

* * *

(٧٠ ـ ٧٣) ـ ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ أي: قصَدَ نمروذُ وقومُه أن يكيدوا إبراهيمَ ويحتالُوا لإهلاكِه ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾؛ أي: الأخسَرينَ أعمالًا، وكلُّ مَن أرادَ أمرًا فخابَ فقد خسِرَ.

وقيلَ: هذا الخسرانُ: أنَّ الله سلَّطَ البعوضَ علـى نمروذَ وقومِه حتَّى أكلَتْ لحومَهم وشرِبَتْ دماءَهم، حتَّى رأى نمروذُ عظامَ أصحابِه وخيلِه تلوحُ، ووقعَتْ واحدةٌ في دماغِه حتَّى أهلكَتْه.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا﴾؛ أي: خلَّصْناه وخلَّصْنا لوطًا ـ وهو ابنُ عمِّهِ ـ من نمروذَ وقومِه.

وقيلَ: لوطٌ ابنُ أخيه، وكان آمَنَ به.

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: الشّامَ، وقد بُورِكَ فيها بالخصبِ وكثرةِ الثِّمارِ والأنهارِ[1]، والبركةُ: ثُبوتُ الخيرِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: الأرضُ المُباركةُ مكّةُ، وإنَّ إسماعيلَ نزلَ بها[2].

وكان إبراهيمُ ولوطٌ بكُوثَى من أرضِ العراقِ فخرَجا إلى الشّامِ، وهي معادنُ الأنبياءِ، فلها البركةُ أيضًا من هذه الجهةِ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ ذكرَ ما أنعمَ به على إبراهيمَ بعد أن خلَّصَه منَ الأعداءِ إلى المأمَنِ، ونبَّهَ بهذا على أنَّ محمَّدًا عليه السَّلامُ مـن أولادِه، وإنْ أخرجَه الكفّارُ إلى المدينةِ لـم يَبعُدْ.

وبيَّنَ أنَّه أجابَ دُعاءَه فيما سألَ من الولدِ إذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فوَهَبَ له إسحاقَ، ومن إسحاقَ يعقوبَ من غيرِ دعاءٍ، فكان ذلك نافلةً كالشَّيءِ المُتطوَّعِ به منَ الآدميِّينَ، فقولُه: ﴿نَافِلَةً﴾؛ أي: زيادةً على ما سألَ، كصلاةِ النَّفلِ التي هي زيادةٌ على الفرضِ.

وقيلَ: ﴿نَافِلَةً﴾ ترجعُ إلى «إسحاقَ ويعقوبَ»؛ أي: وهَبْناهُـما له فضلًا منّا، ويُقالُ لولدِ الولدِ: نافلة؛ لأنَّه زيادةٌ على الولدِ.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾؛ أي: وكلًّا من إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ جعَلْناه صالحًا عالمًا عاملًا بطاعةِ الله، وجَعْلُهم صالحينَ إنَّما يتحقَّقُ بخلقِ الصَّلاحِ والطّاعةِ لـهم، وبخلقِ القُدرةِ على الطّاعةِ، وما يكتسِبُه العبدُ فهو مخلوقٌ لله تعالى.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣١١ ـ ٣١٤) عن أبي بن كعب رضي الله عنه والحسن وقتادة والسدي وأبي العالية وابن جريج وابن زيد وابن إسحاق.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣١٤)، وإسناده ضعيف جدًا.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾؛ أي: رُؤَساءَ يُقتدَى بهم في الخيرِ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: يهدُونَ النّاسَ إلى دينِنا بأمرِنا إيّاهم بإرشادِ الخلقِ ودُعائِهم إلى التَّوحيدِ.

وقيلَ: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: بما أنزَلْنا عليهم مِنَ الوحيِ والأمرِ والنَّهيِ، فكأنَّه قال: يهدُونَ بكتابِنا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: العملَ بالطّاعةِ ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: إقامةَ الصَّلاةِ، فحُذِفَ الهاءُ لأنَّ الإضافةَ عوضٌ منه ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾؛ أي: مُطيعينَ.

***

(٧٤ ـ ٧٥) ـ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ أي: وآتينا لُوطًا آتيناه، فهو نصبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ.

وقيلَ: أي: واذكُرْ لوطًا.

﴿حُكْمًا﴾؛ أي: النُّبوّةَ، ﴿وَعِلْمًا﴾؛ أي: معرفةً بأمرِ الدِّينِ وما يقعُ به الحكمُ.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾؛ أي: نجَّيناهُ من أهلِها.

وقيلَ: منَ العذابِ النّازلِ بهم، وهذه القريةُ سدومُ، والخبائثُ أوَّلُها الكفرُ، ثمَّ ما اختَصُّوا به من إتيانِ الذُّكورِ، والمُنكَرِ الذي كانوا يأتونَه في ناديهم، فكانوا يتضارَطُونَ في مجالسِهم ويحذِفُونَ المارّةَ، وكلُّ هذا سَفَهٌ.

وقيلَ: الخبائثُ: إتيانُ الذُّكورِ، فجُمِعَ لأنَّ كلَّ إقدامٍ على هذه الفاحشةِ خبيثةٌ مُفردةٌ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾؛ أي: نجَّيناه منهم لأنَّهم كانوا قومَ سوءٍ ﴿فَٰسِقِينَ﴾؛ أي: خارِجينَ عن طاعةِ الله.

قولُه تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾؛ أي: في الجنّةِ.

وقيلَ: في النُّبوّةِ.

وقيلَ: في الإسلامِ.

وقيلَ: عنى بالرَّحمةِ: إنجاءَه من قومِه.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: منَ الأنبياءِ.

* * *

(٧٦ ـ ٧٧) ـ ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: واذكُرْ نوحًا إذ نادَى من قبلُ؛ أي: من قبلِ إبراهيمَ ولوطٍ فقالَ: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقالَ: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ وأهلَكْنا قومَه ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: منَ الغرقِ، ومن تكذيبِ قومِه له، والكربُ: الغمُّ الشَّديدُ.

﴿وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: المُؤمنينَ منهم.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: ومنَعْناه منَ الكفّارِ وشرِّهم.

وقال أبو عُبيدةَ: ﴿مِن﴾ بمعنَى: «على»(١).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ١٦٥)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٣٢).

وقيلَ: أي: انتقَمْنا له منَ القومِ الذين كذَّبوا.

﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: الصَّغيرَ والكبيرَ.

* * *

(٧٨ ـ ٨٠) ـ ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾؛ أي: واذكُرْهما ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ هو الزَّرعُ.

وقيلَ: كان ذلك كَرْمًا.

قال الزُّهريُّ: دخلَتْ ماشيةٌ لرجلٍ زرعًا لرجلٍ فأفسَدَتْه، فارتَفَعا إلى داودَ، فقضى بغنَمِ صاحبِ الغنَمِ لصاحبِ الزَّرعِ، فانصرَفا فمرَّا بسليمانَ فقال: بمَ قضى نبيُّ الله بينكما؟ فقالا: قضى بالغنمِ لصاحبِ الزَّرعِ، فقال: لعلَّ الحكمَ غيرُ هذا، انصرِفا معي، فأتى أباه، فقال: ينبَغي أن يُدفَعَ الغنَمُ إلى صاحبِ الزَّرعِ فينتفعَ بألبانِها وسمونِها وأصوافِها، ويُدفَعَ الزَّرعُ إلى صاحبِ الغنمِ ليقومَ عليه، فإذا عادَ الزَّرعُ إلى حالِه التي أصابَتْها الغنمُ عليها رُدَّتِ الغنمُ على صاحبِ الغنمِ، ورُدَّ الزَّرعُ على صاحبِ الزَّرعِ، فقال داودُ: لا يَقطعُ الله فمَكَ[١]، وقضَى بما قضَى به سليمانُ[٢].

---

(١) في (ج): «فهمك».

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٢) عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والزهري وابن زيد وغيرهم.

وقال الحسنُ: كان الحكمُ ما قضى به سليمانُ، ولم يُعنِّفِ الله داودَ في حكمِه[١].

﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾؛ أي: رَعَتْ ليلًا، والنَّفْشُ: أن تنتشرَ الغنمُ باللَّيلِ ترعَى بلا راعٍ، وقد أنفَشْتُها أنا، وهي غنمٌ نَفَشٌ ونُفَّاشٌ ونَفاشٌ.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾؛ أي: جرَى ذلك بمرأًى منّا، وقال: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ وهما اثنانِ: داودُ وسليمانُ؛ لأنَّ الاثنَينِ جمعٌ.

وقيلَ: الحاكمانِ والمحكومُ عليهم جمعٌ.

وقال الكلبيُّ: قوَّمَ داودُ الغنَمَ والكرمَ الذي أفسَدَتْه الغنَمُ، وكانت القيمتانِ سواءً، فدفعَ الغنمَ إلى صاحبِ الكرمِ، وأمَّا في حكمِ سليمانَ فقد قيلَ: كانت قيمةُ ما نالُوا منَ الغنمِ وقيمةُ ما أفسَدَتْه سواءً أيضًا[٢].

قولُه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: ففهَّمْنا القِصّةَ[٣] أو الحكومةَ، فكنَّى عنها إذ سبقَ ما يدُلُّ عليها، وفضلُ سليمانَ وفضيلتُه راجعةٌ إلى داودَ، والوالدُ يسرُّه زيادةُ ولدِه عليه.

﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ أي: كلًّا من داودَ وسليمانَ آتينا النُّبوّةَ والحكمَ على النّاسِ.

وقيلَ: وكلًّا منهما ومنَ الأنبياءِ المذكورينَ قبلَهما آتينا الحكمَ.

واختلَفَ العلماءُ في جوازِ الاجتهادِ على الأنبياءِ، فمنَعَه قومٌ، وجوَّزَه المُحقِّقون؛ لأنَّه ليس فيه استحالةٌ عقليّةٌ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٨).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٣٦).

(٣) في (ج): «القضية».

فإنْ قيلَ: لا يجوزُ أن يُبلِّغَ النَّبيُّ عن الله تعويلًا على غلبةِ ظنِّه.

قُلنا: إذا غلَبَ على الظَّنِّ يُقطعُ بأنَّ حكمَ الله تعالى ذلك، فهو كما لو قال له الرَّبُّ: إذا غلَبَ على ظنِّكَ كذا فاقطَعْ بأنَّ ما غلَبَ على ظنِّك فهو حُكمي، فبلِّغْه الأمَّةَ، فهذا غيرُ مستحيلٍ في العقلِ.

وإنْ قيلَ: لو اجتهَدَ فربَّما يُؤدِّي اجتهادُ غيرِه إلى شيءٍ آخرَ، ويجبُ على كلِّ مجتهدٍ أن يتبعَ اجتهادَه، فهو تسويغُ مخالفةِ النَّبيِّ.

قلنا: هذه المُخالفةُ غيرُ محرَّمةٍ؛ لأنَّ وجوبَ اتِّباعِ الاجتهادِ يثبُتُ بأمرٍ، هذا من حيثُ العقلُ، ولكنْ قام الإجماعُ على أنَّه لا يجوزُ مخالفةُ النَّبيِّ فيما بيَّنَ منَ الشَّرعِ، فعلى المُجتهدِ اتِّباعُ اجتهادِه إلّا ما كان للنَّبيِّ فيه اجتهادٌ.

وإنْ قيلَ: ربَّما يُخطِئُ المُجتهدُ.

قلنا: كلُّ مجتهدٍ مُصيبٌ، ثمَّ لا يجوزُ الخطأ منَ النَّبيِّ لوجوبِ العصمةِ له فيما يتعلَّقُ بتبليغِ الشَّرعِ، ولهذا قلنا: معارِفُهم نظريَّةٌ، وإن كان النّاظرُ ربَّما يُخطِئُ، ولكنَّ الأنبياءَ معصومُونَ.

ومَن قال: المُصيبُ واحدٌ، قال: الخطأُ محطوطٌ عمَّن لم يُصِبْ.

وهذا في جوازِ الاجتهادِ منهم، فأمَّا وقوعُه منهم فقد قال قومٌ: وقعَ، والحقُّ عندَنا أنَّه لم يثبُتْ وقوعُ الاجتهادِ منهم بطريقٍ مقطوعٍ به، فلا يُدرَى هل وقعَ الاجتهادُ منهم أم لا.

وإذا ثبتَ هذا فقد قال قومٌ: ذكرَ داودُ وسليمانُ ما ذُكِرَ اجتهادًا فاختَلَفا، ثمَّ كانَ الصَّوابُ عند الله ما قالَه سليمانُ، وهذا على جوازِ الاجتهادِ منهم ووُقوعِه على أنَّ المُصيبَ واحدٌ وإنْ لم يتعيَّنْ، ولكنْ عيَّنَ الله هاهُنا قولَ سليمانَ.

وقال قومٌ: كانا نبيَّينِ يقضِيانِ بما يُوحَى إليهما، فأُوحي إلى داودَ بما قضى به، وأُوحي إلى سليمانَ بنسخِ ما قضى به داودُ، وعلى هذا ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: بطريقِ الوحيِ النّاسخِ لِـمَا أُوحي إلى داودَ، فأُمِرَ سليمانُ بأن يُبلِّغَ ذلك داودَ، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، والحكمُ في هذه الواقعةِ في شرعِنا: أنَّ على أصحابِ الماشيةِ حفظَها باللَّيلِ، وعلى أصحابِ الحوائطِ حفظَ حيطانِهم وزُروعِهم بالنَّهارِ، ثمَّ الضَّمانُ بالمثلِ في المثليّاتِ، وبالقيمةِ في ذَواتِ القِيَمِ.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ قال وَهْبٌ: كان داودُ يمُرُّ بالجبالِ مُسبِّحًا والجبالُ تُجاوِبُه بالتَّسبيحِ، وكذلك الطَّيرُ.

وقيلَ: كان إذا وجدَ فترةً أمرَ الجبالَ فسبَّحَتْ حتَّى يشتاقَ، ولهذا قال: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾؛ أي: جعَلْناها بحيثُ تُطيعُه[1] إذا أمرَها بالتَّسبيحِ.

وقيلَ: سخَّرَ الجبالَ لتسيرَ معَه، فإنَّه قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾، والتَّأويبُ: سيرُ النَّهارِ إلى اللَّيلِ.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾؛ أي: سخَّرْنا الجبالَ والطَّيرَ، وقيلَ: يُسبِّحْنَ مع الطَّيرِ.

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ أي: لِـمَا فُعِلَ بهم منَ التَّفهيمِ وإيتاءِ الحِكَمِ والتَّسخيرِ.

قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني: اتِّخاذَ الدُّروعِ بإلانةِ الحديدِ له، وكلُّ شيءٍ لبستَه فهو لَبُوسٌ، وأوَّلُ مَن صنعَ الدُّروعَ داودُ، وإنَّما كانت صفائحُ فسرَدَها وحلَّقَها.

﴿لِيُحْصِنكم﴾ أي: ليُحرِزَكم ذلك اللَّبوسُ.

وقيلَ: ليُحصِنَكم الله به.

---

(١) في (أ): «تلبيه».

وقيلَ: ليُحصِّنكم داودُ به.

وقُرِئَ بالنُّونِ بدليلِ قولِه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾.

وقُرِئَ بالتّاءِ(١)؛ لأنَّ معنى اللَّبوسِ: الدُّروعُ.

﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي: من حربِكُم.

وقيلَ: منَ السَّيفِ والسَّهمِ والرُّمحِ؛ أي: من آلةِ بأسِكم، فحُذِفَ المُضافُ.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾؛ أي: على تيسيرِ نعمةِ الدِّرعِ لكم.

وقيلَ: هل أنتم شاكرون بأن تُطيعوا رسولي.

* * *

(٨١ ـ ٨٢) ـ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: وسخَّرْنا لسليمانَ الرِّيحَ ﴿عَاصِفَةً﴾: شديدةَ الهبوبِ، قال ابنُ عبّاسٍ: كان إذا أمرَ الرِّيحَ أن تعصِفَ عصَفَتْ، وإذا أرادَ أن تُرخِيَ أرخَتْ، كما قال: ﴿رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

قُرِئَ: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالنَّصبِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ(٢)؛ أي: ولسليمانَ الرِّيحُ، كما تقولُ: «لزيدٍ المالُ».

---

(١) قرأ بها ابن عامر وحفص، وأبو بكر بالنُّون، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٥٥). وكلها بتخفيف الصاد.

(٢) قرأ أبو جعفر بالجمع والنصب: (الرياحَ)، وباقي العشرة بالإفراد والنصب. انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٣). وقرأ بالجمع والرفع أبو حيوة، وبالإفراد والرفع الأعرج. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾؛ أي: أرضِ الشّامِ، وقال الكلبيُّ: فلسطينُ بارَكَ الله فيها بالماءِ والثِّمارِ والنَّخيلِ[1].

قال الفرّاءُ: كانتِ الرِّيحُ تجري لسليمانَ في كلِّ موضعٍ، ثمَّ تعودُ به من يومِه إلى منزلِه[2].

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾؛ أي: بكلِّ شيءٍ علَّمْناه[3] عالِمين بصحّةِ التَّدبيرِ فيه.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾؛ أي: سخَّرْنا له منَ الشَّياطينِ مَن يغوصُ له، والغَوصُ: الدُّخولُ تحتَ الماءِ؛ أي: يستخرِجُونَ له الجواهرَ منَ البحرِ.

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: دونَ الغَوصِ منَ البناءِ وغيرِه.

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛ أي: من أن يُفسِدُوا ما عمِلُوا، أو من أن يُهيِّجُوا أحدًا من بني آدمَ في زمانِ سليمانَ، وحفِظْناهُم من أن يخرُجوا عن أمرِه.

وقد قيلَ: إنَّ الحمامَ والنَّورةَ والطَّواحينَ والقواريرَ والصّابونَ من استخراجِ الشَّياطينِ.

وقيلَ: إنَّ نهرَ الملكِ ممَّا احتُفِرَ لسليمانَ، وإنَّ دُجَيلًا من حفرِ الشَّياطينِ لسليمانَ، وألقَتْ ترابَه بين خانِقينَ وقصرِ شيرينَ.

ثمَّ قيلَ: كان يستسخِرُ الكفّارَ منَ الجنِّ والشَّياطينِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٤٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٠٩).

(٣) في (ج): «عملناه».

وقيلَ: هم قومٌ مـنَ الجنِّ المُؤمنين كانوا يُطيعونَه ويُعينُونَه على سائرِهم ويأتُونَه بهم.

وقيلَ: بل أمرَ الله الملائكةَ أن تجمَعَهم لسليمانَ ويأتُوه بهم، فقولُه: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾؛ أي: حتَّى لا يهرُبوا منه.

* * *

(٨٣ ـ ٨٤) ـ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾؛ أي: واذكُرْ أيُّوبَ.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: نالَني في بدَني ضرٌّ، وفي مالي وأهلي.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فارحَمْني واكشِفْ عنِّي الضُّرَّ.

قال ابنُ عبّاسٍ: سُمِّيَ أيُّوبَ لأنَّه آبَ إلى الله تعالى؛ أي: رجعَ في كلِّ حالٍ.

وقيلَ: كان لإبليسَ مجلسٌ منَ السَّماءِ يسمعُ فيه ما تقولُه الملائكةُ، فقالوا: إنَّ لله عبدًا في الأرضِ يُقالُ له: أيُّوبُ، من فضلِه كذا وكذا، فقال إبليسُ: إنْ سلَّطَني الله عليه لأضطرَّ به إلى الجزَعِ والشِّكايةِ، فسلَّطَه الله عليه، وذلك أنَّ الله منعَ إبليسَ وأعوانَه منَ الأنبياءِ والأولياءِ، فخلَّى بينَه وبينَ أيُّوبَ، ولـم يزجُرْه عنه.

ثمَّ قيلَ: سلَّطَه على مالِه فلم يجزَعْ أيُّوبُ، فسألَ إبليسُ أن يُسلِّطَه على أولادِه فلم يجزَعْ، فسألَ أن يُسلِّطَه على جسدِه فنفَخَ فيه نفخةً فظهرَتْ عليه ثآليلُ مثلُ

ألياتِ الشِّياهِ(١)، واحتكَّتْ فجعَلَ يحكُّها بأظفارِه وبالعظمِ وبالخزَفِ، ووقعَتْ فيه الأكلةُ، وكان في قريةٍ بقُربِ دمشقَ، فأُخرِجَ إلى ظاهرِ القريةِ، ورفضَه القريبُ والبعيدُ، وكانت امرأتُه رحمةُ تدورُ في القريةِ، وتعملُ للنّاسِ وتحتالُ في قُوْتِه(٢)، فلم يستعمِلْها أحدٌ ذاتَ يومٍ فباعَتْ قرنَيها برغيفَين وأتَتْه بهما، فقال: أينَ قرناكِ؟ فقالت: بعتُهما بالرَّغيفَينِ، فحينَئذٍ قال: ﴿مَسَّنِيَ﴾ الضُّرُّ.

وقيلَ: قصَدَتْ دودةٌ مـمَّا وقعَ فيه قلبَه وأُخرَى لسانَه، فخشيَ أن يفتُرَ عن الذِّكرِ فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقيلَ: إنَّما قالَه لشماتةِ الأعداءِ، وقد سُئِلَ بعد العافيةِ فقيلَ: ما أشدُّ ما مرَّ بكَ؟ قال: شماتةُ الأعداءِ.

وقيـلَ: قـال إبليسُ لرحمـةَ: اسـجُدي لـي سـجدةً حتَّـى أرُدَّ عليكـم المـالَ والأولادَ وأُعافـيَ زوجَـكِ، فإنِّـي أنـا الذي فعلـتُ بكم هـذا، فأخبَرَتْ أيُّـوبَ فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقيلَ: بقيَ في البلاءِ سبعَ سنينَ.

وقال وَهْبٌ: ثماني عشرةَ سنةً(٣).

---

(١) في (ج): «الشاة».

(٢) في (أ): «ذمته».

(٣) وهو موافق لما رواه البزار (٢٣٥٧ ـ كشف)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٦١٦)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٦٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٨٩٨)، والضياء في «المختارة» (٢٦١٧)، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوبَ لَبِثَ به بلاؤهُ ثماني عشرة سنة، فرَفَضه القريبُ والبعيدُ إلا رجلانِ مِن إخوانه...» الحديث. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٨): «رواه البزار وأبو يعلى ورجال البزار رجال الصحيح». =

وقيلَ: أربعينَ سنةً.

وقال الحسنُ: ثمانينَ سنةً[١].

ولـمَّا غاظَه ما فعلَتْ رحمةُ من بيعِ قَرْنيها[٢] حلَفَ بالله أن يضرِبَها مئةَ خشبةٍ، فأتاه جبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد أن عُوفيَ، وقال له: خُذْ بيدِكَ ضِغْثًا ـ وهو أصلٌ من شيحٍ فيها مئةُ قضيبٍ أو أكثرُ ـ فاضرِبْها به ضربةً واحدةً ولا تحنَثْ في يمينِكَ[٣].

ولا أثرَ للشَّيطانِ في أحدٍ، وإنَّما يُوسوِسُ ثمَّ الله يُحدِثُ ما يحدِثُ.

والجملةُ: أنَّ الله تعالى أحدَثَ فيه المرضَ والأكلةَ، وشُغِلَ به عن رعايةِ أموالِه فتبدَّدَتْ، وتطيَّرَ به قومُه فأخرجُوه إلى طرفِ البلدةِ، وكان مع ذلك صابرًا مُحتَسبًا.

وكان الشَّيطانُ يُوسوِسُ إليه بما يَضيقُ صدرُه، ويُوسوِسُ إلى قومِه بأن يهجُروه استقذارًا له، فعند ذلك دَعا الله سبحانَه وسألَهُ رحمتَه، ولـم يكُنْ قولُه: ﴿مَسَّنِيَ

= وقال ابن كثير: «رفع هذا الحديث غريب جدًّا».

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٢) ضمن خبر طويل.

(٢) «من بيع قرنيها» من (ج)، وكذا جاء في هامش (أ) ولم تصحح.

(٣) وغالب هذه الأقوال لم يصح منه شيء كما نقل القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢١٠) عن أبي بكر بن العربي قوله: «ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين، الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، والثانية: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه رِجْلٌ من جراد من ذهب» الحديث. وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أي لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمَّ عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالًا».

﴿ٱلضُّرُّ﴾ جزَعًا؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، بل كان ذلك دعاءً منه، والجزَعُ في الشَّكوى إلى الخلقِ لا إلى الله تعالى، والدُّعاءُ لا يُنافي الرِّضا.

قولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾؛ أي: منَ الأوجاعِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أرادَ بالأهلِ: الأولادَ.

قيلَ: ردَّ عليه أهلَه وولدَه بأعيانِهم.

وقيلَ: آتاه مثلَهم في الدُّنيا، ووعَدَ أن يرُدَّهم بأعيانِهم إليه في الآخرةِ.

وقال ابنُ مسعودٍ: ماتَ أولادُه، وهم سبعةٌ منَ الذُّكورِ وسبعٌ منَ الإناثِ، فلمَّا عُوفي نُشِرُوا له، وولدَتْ له امرأتُه سبعةَ بنينَ وسبعَ بناتٍ(٤)، وهو قولُ الكلبيِّ(٥).

وقال عكرمةُ ومجاهدٌ: خُيِّرَ فاختارَ إحياءَ أهلِه في الآخرةِ وإعطاءَ مثلِهم في الدُّنيا(٦).

وقيلَ: المُرادُ: آتيناه في الآخرةِ أهلَه ومثلَهم معَهم، وأبدَلَه الله بكلِّ شيءٍ ذهبَ له في الدُّنيا ضِعفَه.

وقيلَ: بعثَ الله إليه جبريلَ حتَّى ركَضَ برجلِه على الأرضِ ركضةً فظهرَتْ عينُ ماءٍ حارٍّ، فأخذَ بيدِه ونفَضَه نفضًا فتناثرَتْ عنه الدِّيدانُ، وغاصَ في الماءِ غوصةً فنبَتَ لحمُه وعادَ كما كانَ، ورجعَ إلى منزلِه، ونشأتْ سحابةٌ بيضاءُ على قدرِ قواعدِ دارِه، فمطرَتْ ثلاثةَ أيّامٍ بلياليها جرادًا من ذهبٍ، فقال له جبريلُ عليه السَّلامُ: أشبِعْتَ يا أيُّوبُ؟ فقال: ومَن يشبعُ من فضلِ الله؟ فأوحَى الله إليه: قد أثنَيْتُ عليك بالصَّبرِ قبلَ

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٢٢٣).

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٨١).

(٦) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧).

وُقوعِكَ في البلاءِ وبعدَه، ولولا أنِّي وضعتُ تحتَ كلِّ شعرةٍ منك صبرًا ما صبَرْتَ.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ أي: فعَلْنا ذلك به رحمةً من عندِنا.

وقيلَ: ابتلَيناه ليعظُمَ ثوابُه غدًا.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: وتذكيرًا للعبادِ.

* * *

(٨٥ـ٨٦) ـ ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾؛ أي: واذكُرْهم، أو: وأرسَلْنا إسماعيلَ، أو: وآتينا إسماعيلَ حُكمًا وعلمًا، عطفًا على ما تقدَّمَ.

قال عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ العاصِ: قرأتُ الكتبَ فوجَدْتُ إدريسَ عليه السَّلامُ أقدَمَ من نوحٍ، بعثَه [الله] إلى قومِه ليقولُوا: «لا إلهَ إلّا الله» فأبَوا، فأهلكَهم الله[1].

ورفعَه إلى السَّماءِ الرّابعةِ[2].

وأمّا ذو الكفلِ فقالَ ابنُ عبّاسٍ: إنَّ نبيًّا من أنبياءِ الله أوحَى الله إليه أنّي أُريدُ قبضَ روحِكَ فاعرِضْ ملكَكَ على بني إسرائيلَ، فمَن تكفَّلَ لك أنَّه يُصلِّي اللَّيلَ لا يفتُرُ، ويصومُ النَّهارَ لا يُفطِرُ، ويقضي بينَ النّاسِ ولا يغضَبُ، فادفَعْ ملكَكَ إليه، ففعَلَ ذلك، فقامَ شابٌّ وتكفَّلَ به، فشكرَ الله تعالى له ونبَّأه، فهو ذو الكفلِ[3].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١١)، والدينوري في «المجالسة» (٣٣٦١).

(٢) هذه العبارة لم ترد في الأثر السابق، وقد روى البخاري (٣٢٠٧) عن أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما في حديث المعراج ما يدل عليه، وفيه: «فأتينا السماء الرابعة... فأتيت على إدريس فسلمت عليه، فقال: مرحبا من أخ ونبي».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٥١) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال أبو موسى الأشعريُّ: لـم يكُنْ نبيًّا، ولكن كفلَ بصلاةِ رجلٍ كان يُصلِّي كلَّ يومٍ مئةَ صلاةٍ، وتُوفِّي ذلك الرَّجلُ فسُمِّيَ ذا الكفلِ(١).

وقيلَ: ذو الكفلِ هو النّاسُ، والكِفْلُ في اللُّغةِ: النَّصيبُ، والكِفْلُ أيضًا: الكِساءُ الذي يُجعَلُ وراءَ الرَّجلِ على البعيرِ.

وقيلَ: سُمِّيَ بذي الكفلِ لأنَّه ضُعِّفَ ثوابُه لشرفِ عملِه.

﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: في طاعةِ الله وعن معاصيه.

قولُه تعالى: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾؛ أي: في النُّبوّةِ والثَّوابِ والجنّةِ.

* * *

(٨٧) ـ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ﴾؛ أي: واذكُرْ ذا النُّونِ، وهو لقبٌ ليونسَ بنِ متَّى لابتلاعِ النُّونِ إيّاه، وهو الحوتُ، وقد قال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، فذو النُّونِ: صاحبُ الحوتِ.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾؛ أي: لقومِه.

قال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ شَعْيا النَّبيُّ والملكُ الذي كان في وقتِه أن يبعثُوا يونسَ إلى ملكٍ كان غَزا بني إسرائيلَ وسبَى الكثيرَ منهم ليُكلِّمَه حتَّى يُرسلَ معه بني إسرائيلَ، فقال يونسُ لشَعْيا: هل أمرَكَ الله بإخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سمَّاني لك؟ قال: لا، قال: فهاهُنا غيري أنبياءُ، فألـحُّوا عليه، فخرَجَ مُغاضبًا للنَّبيِّ ﷺ وللملِكِ ولقومِه،

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٨٢)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٢).

فأتى بحرَ الرُّومِ، فكانَ من قصَّتِه ما كانَ، فابتُلِيَ ببطنِ الحوتِ لتركِه أمرَ شَعْيا[(١)]، ولـهذا قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]، والمُليمُ: مَن فعلَ ما يُلامُ عليه، وكان ما فعلَه إمّا صغيرةً أو تركَ الأولى.

وقيلَ: خرجَ ولـم يكُنْ نبيًّا في ذلك الوقتِ، ولكنْ أمرَه ملكٌ من ملوكِ بني إسرائيلَ أن يأتيَ نَينَوى ليدعُوَ أهلَها بأمرِ شَعْيا، فأنِفَ أن يكونَ ذهابُه إليهم بأمرِ أحدٍ غيرِ الله، فخرجَ مُغاضبًا للملكِ، فلمّا نجا من بطنِ الحوتِ بعثَه الله إلى قومِه فدَعاهُم فآمَنُوا.

والأظهرُ أنَّ هذه المُغاضبةَ كانت بعد إرسالِ الله تعالى إيّاه، وبعد رفعِ العذابِ عن القومِ بعدَما أظلَّهم، فإنَّه كرِهَ رفعَ العذابِ عنهم.

وقيلَ: كانَ مُغاضبًا لقومِه في امتِناعِهم منَ الإيمانِ به، فلم يصبِرْ على أذاهُم، ووجهُ الخطأ أنَّه خرجَ من بينِهم من غيرِ إذنٍ منَ الله.

وقال ابنُ مسعودٍ في جماعةٍ: ذهبَ مُغاضبًا لربِّه؛ فإنَّه كان يتوعَّدُ قومَه بنزولِ العذابِ في وقتٍ معلومٍ، وخرجَ من بينِهم في ذلك الوقتِ فأظلَّهم العذابُ، فتضرَّعُوا فرُفِعَ عنهم العذابُ، فذهبَ مُغاضبًا[(٢)]، وبالغَ القُتَبيُّ في نُصرةِ هذا القولِ[(٣)]، وفي

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٣٢)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٥٤)، من رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٦٦)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٤٤١)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ١٢٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا. وصحح إسناده الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٢٣).

ورواه بأتم من هذا الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٥) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢٩ ـ ٢٣٣)، وذكر الخبر الآتي بعدُ.

الخبرِ في وصفِ يونسَ: أنَّه كانَ ضيِّقَ الصَّدرِ، فلما حملَ أعباءَ النُّبوّةِ تفسَّخَ تحتَها تفسُّخَ الرُّبَعِ تحتَ الحِمْلِ الثَّقيلِ[(١)]، فمضَى على وجهِه مُضِيَّ الآبقِ النّادِّ، وهذه المُغاضَبةُ كانت صغيرةً منه، ولـم يغضَبْ على الله، ولكنْ غضِبَ لأمرِ الله؛ إذ رفعَ العذابَ عنهم.

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ [الصافات: ١٤٠] قال ابنُ مسعودٍ: أبقَ من ربِّه[(٢)]؛ أي: من أمرِ ربِّه حينَ أمرَه بالعودِ إليهم بعد رفعِ العذابِ عنهم، فلم يعُدْ.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما: لمّا خرَجَ من بطنِ الحوتِ أنبَتَ الله له شجرةً من يقطينٍ، فكان يستظِلُّ بها حتَّى قوِيَ بعضَ القُوّةِ، فمضَى يومًا إلى شطِّ البحرِ، فرجعَ فوجدَ الشَّجرةَ قد جفَّتْ، فبكى حُزنًا عليها، فأوحَى الله إليه: أتحزَنُ على شجرةٍ أنبتُّها لك وقد أردتَ أن أُهلِكَ أكثرَ من مئةِ ألفٍ من عبادي؟ ارجِعْ إلى قومِكَ[(٣)].

وقيلَ: معنى المُغاضَبةِ: الأنَفةُ؛ لأنَّ الآنِفَ منَ الشَّيءِ يغضبُ، فتُسمَّى الأنَفةُ غضبًا، فمعنى ﴿ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ ذهبَ آنِفًا من ظُهورِ خُلفِ وعدِه، وقال: والله لا أرجعُ إليهم كذَّابًا أبدًا[(٤)]، ويُقالُ: «غاضَبْتُ من كذا»؛ أي: غضِبْتُ من كذا، نحوَ «سافَرْتُ»، و«عاقَبْتُ اللِّصَّ».

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (ص: ١٣٢)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤١٢٨)، عن وهب بن منبه، والرُّبَع: ولد الناقة إذا نتجت في الربيع، فهو أول النتاج، والأنثى: رُبَعة. انظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٤٤٦) و(٣/ ١٦٩).

(٢) ورد ضمن خبر ابن مسعود رضي الله عنه المتقدم تخريجه قريباً.

(٣) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٤٨٩).

(٤) ورد قول يونس عليه السلام هذا في خبر ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٢٦).

وقيلَ: خافَ أن يُعيَّرَ بالكذبِ؛ لخفاءِ سببِ رفعِ العذابِ عنهم.

وقيلَ: كانَ من أخلاقِ قومِه قتلُ مَن جرَّبوا عليه الكذبَ، فخشيَ أن يُقتَلَ.

وقيلَ: وعدَهم العذابَ في وقتٍ مُعيَّنٍ، وخرجَ من بينِهم لذلك الوقتِ، فأظلَّهم العذابُ، فأخلَصُوا في التَّوبةِ ولـم يعلَمْ يونسُ توبتَهم فلهذا ذهبَ مُغاضبًا، وكان من حقِّه ألّا يذهبَ إلّا بأمرٍ مجدَّدٍ[١].

ومَن قال: «ذهبَ مغاضبا لقومه»[٢] قال: إنَّما ألام[٣] لأنَّه كان من حقِّه أن يخرُجَ بإذنِ الله مـمَّا بينَهم.

وقيلَ: التقامُ الحوتِ إيّاه ما كان عقوبةً، بل تمحيصًا منَ الصَّغيرةِ، كما قال في أهلِ أُحدٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٤١]، فمعاصي الأنبياءِ مغفورةٌ، ولكنْ قد يجري تمحيصٌ، ويتضمَّنُ ذلك زجرًا عن المُعاوَدةِ.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ قيلَ: غزا بعضُ الملوكِ بني إسرائيلَ فسبى منهم تسعةَ أسباطٍ ولفيفًا من سبطٍ[٤]، فأوحَى الله إلى شَعْيا: قُلْ لحِزْقِيا الملكِ: وجِّه نبيًّا قويًّا أمينًا؛ فإنِّي أُلقي في قلوبِ أولئك أن يُرسِلُوا معه بني إسرائيلَ، فقال له الملكُ: فمَن ترى؟ وكان في مملكتِه خمسةٌ منَ الأنبياءِ، فقال شَعْيا: يونسَ؛ فإنَّه قويٌّ أمينٌ، فامتنَعَ يونسُ كما قدَّمْنا، وخرجَ مُغاضبًا للملكِ، وأتى بحرَ الرُّومِ، وإذا سفينةٌ مشحونةٌ فركبَها، فلمَّا توسَّطَتِ اللُّجّةَ تكفَّأَتْ وأشرَفُوا على الغرقِ، فقال الملّاحُونَ: هاهُنا

---

(١) في (أ): «إلا بإذنٍ محدد».

(٢) في (أ): «ذهب ومن معه».

(٣) أي: أتى ما يلام عليه. انظر: «القاموس» (مادة: لوم).

(٤) في المصدر: «تسعة أسباط ونصف سبط، وبقي سبطان ونصف».

رجلٌ عاصٍ، أو عبدٌ آبِقٌ، ومِن رسمِنا أن نقترعَ، فمَن خرجَت عليه القرعةُ ألقَيناه في البحرِ، فاقترَعوا ثلاثَ مرّاتٍ، فكانتِ القُرعةُ تخرجُ على يونسَ في كلِّ مرّةٍ، فقامَ وقال: أنا الرَّجلُ العاصي والعبدُ الآبِقُ، وألقَى نفسَه في الماءِ فابتلَعَه حوتٌ(١).

وفي بعضِ الرِّواياتِ: فجاء حوتٌ أكبرُ منه فابتلَعَ هذا الحوتَ(٢).

وبقيَ في بطنِ الحوتِ ثلاثةَ أيّامٍ.

وقيلَ: سبعةَ أيّامٍ.

وقال مُقاتلٌ: أربعينَ يومًا(٣).

وقيلَ: أوحى الله إلى الحوتِ: لا تُؤذِ منه شعرةً؛ فإنِّي جعلتُ بطنَكَ سجنَه ولم أجعَلْه طعامَكَ(٤).

فقولُه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: فظنَّ أن لن نُضيِّقَ عليه الحبسَ، والقَدْرُ: التَّضييقُ.

وقيلَ: فظَنَّ أنْ لن نفعلَ ما نقدرُ عليه من حبسِه في بطنِ الحوتِ.

وقيلَ: إنَّما ظنَّ ذلك لأنَّه خرجَ حميّةً لدينِ الله.

وقيلَ: ظنَّ أن نتركَ له الطَّريقَ واسعًا حتَّى يذهبَ أين يشاءُ، و«قَدَرَ وقُدِرَ»، و«قَتَرَ وقُتِرَ» بمعنًى؛ أي: ضُيِّقَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٣١) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هي في خبر ابن عباس رضي الله عنهما السابق.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٩١)، وفيه: «بلغنا أن النبي ﷺ قال: مكث يونس عليه السلام في بطن الحوت ثلاثة أيام. وعن كعب قال: أربعين يومًا».

(٤) هي في خبر ابن عباس رضي الله عنهما السابق.

وقيلَ: القدرُ بمعنَى التَّقديرِ، يُقالُ: «قدَرَ الله الشَّيءَ وقدَّرَه»؛ أي: قضاه؛ أي: فظَنَّ أن لن نقضيَ عليه بالحبسِ، والظَّنُّ بمعنى الحسبانِ.

ولا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّ النَّبيَّ لا يدري أنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فمَن قال منَ المُفسِّرينَ: إنَّه ظنَّ أن يُعجِزَ ربَّه أو يَفوتَه؛ فهو غلطٌ.

وقيلَ: هو استفهامٌ؛ أي: أفظَنَّ أنْ لن نقدِرَ عليه؟

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمةِ اللَّيلِ، وظلمةِ البحرِ، وظلمةِ بطنِ الحوتِ.

وقيلَ: ظلمةُ بطنِ الحوتِ، ثمَّ ظلمةُ بطنِ الحوتِ الآخرِ، ثمَّ ظلمةُ قعرِ البحرِ.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حينَ عصَيتُكَ؛ أي: ما صنعتُ من شيءٍ فلم أعبُدْ غيرَكَ، فهذا معنى قولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، وفي ضمنِ هذا القولِ اعترافٌ وتوبةٌ ودعاءٌ، ولهذا قال الله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾.

ورَوَى سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «دعاءُ ذي النُّونِ في بطنِ الحوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لـم يَدْعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلّا استُجيبَ له»[1].

ومَن حمَلَ ما جرَى من يونسَ على تركِ الأَوْلَى قال: التَّوبةُ أبدًا من شعارِ الصّالحينَ، وفي الخبرِ: «إنِّي لأستغفرُ الله في اليومِ سبعينَ مرّةً»[2].

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٦٢)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤١٧)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٦٥٥)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٦٢ ـ ١٨٦٥)، و(٤١٢١) بروايات متقاربة، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

(٨٨) ـ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾؛ أي: أجَبْنا دُعاءَه ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وفي الخبرِ: في هذه الآيةِ شرطَ الله لمَن دَعاه بها أن يُجيبَه كما أجابَ يونسَ، ويُنجيه كما أنجاه، وهو قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ في روايةٍ: ﴿كذلك نُجِّي المُؤمنين﴾ مُشدَّدةَ الجيمِ[2]، وهذا خطُّ المُصحفِ بنونٍ واحدةٍ، وخطَّأهما قومٌ، **ولا طريقَ إلى التَّخطِئةِ فيما قرأ به مشاهيرُ الأئمّةِ.**

وعلى هذا قال الفرَّاءُ: أي نُجِّيَ النَّجاءُ المُؤمنينَ[3].

وقال أبو عُبيدٍ: أي نُنجِّي بالتَّشديدِ؛ لقولِه: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾، فأدغمَ النُّونَ الثّانيةَ في الجيمِ[4]، وسُكِّنت الياءُ لاستثقالِ الحركةِ على الياءِ، ولهذا قرأ الحسنُ: «وذَرُوا ما بقِيْ منَ الرِّبا» بسكونِ الياء[5].

---

(١) روى معناه الحاكم في «المستدرك» (١٨٦٥) حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ولفظه: «هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ الدعوة التي دعا بها يونس حيث ناداه في الظلمات الثلاث: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾». فقال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾»، وقال رسول الله ﷺ: «أيما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر شهيد، وإن برأ برأ وقد غفر له جميع ذنوبه».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٥٥)، وهي رواية أبي بكر عن عاصم.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١٠).

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٣٨)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٧١).

(٥) انظر: «المحتسب» لابن جني (١/ ١٤١).

(٨٩ ـ ٩٠) ـ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: واذكُرْ زكريّا إذ دَعا ربَّه أن يرزُقَه ولدًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾؛ أي: فردًا لا ولدَ لي يُعينُني على إقامةِ دينِك، ويرثُني الدُّعاءَ إلى عبادتِكَ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: إنِّي أعلمُ أنَّك لا تُضيعُ دينَكَ، ولكنْ لا تقطعْ هذه الفضيلةَ التي هي القيامُ بأمرِ الدِّينِ عن عقِبي.

قولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾؛ أي: أجَبْنا دُعاءَه ورزَقْناه يحيى.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾؛ أي: كانت عاقِرًا فجعَلَها الله وَلُودًا، فولدَتْ وهي بنتُ تسعٍ وتسعينَ سنةً.

وقال ابنُ عبّاسٍ: كان في لسانِها بذاءةٌ فأصلَحَها الله له، فكانَتْ لا تُغضِبُه ولا تُخالِفُه(١).

﴿إِنَّهُمْ﴾ ترجعُ الكنايةُ إلى زكريّا وامرأتِه ويحيَى.

وقيلَ: إلى الأنبياءِ الذين تقدَّمَ ذِكرُهم.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: أنعَمْنا عليهم ثوابًا لهم على مُسارعتِهم إلى الطّاعاتِ وإجابةً لدُعائِهم إذ كانوا ﴿يدعُونَنا﴾؛ أي: يفزَعُون إلينا في الشَّدائِدِ، وقيلَ: يعبُدونَنا.

﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ أي: للرَّغَبِ والرَّهَبِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٧٩) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه بمعناه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٤٦)، وصححه، فتعقبه الذهبي بقوله: طلحة بن عمرو واه.

وقيلَ: نصبٌ على المصدرِ؛ أي: يرغبُونَ رغَبًا، ويرهَبُونَ رهَبًا.

وقيلَ: أي: يدعُونَنا في حالِ الرَّخاءِ والشِّدّةِ.

وفي روايةٍ عن أبي عمرو[١]: (رَغْبًا ورَهْبًا) بتخفيفِ الغينِ والهاءِ[٢]، وهما لُغتانِ، مثلَ نَهَرٌ ونَهْرٌ، وصَخَرٌ وصَخْرٌ.

﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾؛ أي: مُتَواضِعينَ.

* * *

(٩١) ـ ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي: واذكُرْ مريمَ التي أحصَنَتْ فرجَها، وإنَّما ذكرَها وليسَتْ منَ الأنبياءِ لتتميمِ ذكرِ عيسى، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وذلك أنَّها ولدَتْ من غيرِ فحلٍ.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي: مـمّا حرَّمَ الله عليها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾؛ أي: أمَرْنا جبريلَ حتَّى نفخَ في دِرْعِها، ففيه إضمارٌ؛ أي: فنفَخْنا في دِرْعِها، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: لا حاجةَ إلى الإضمارِ، بل المعنى: أجرَيْنا فيها روحَ عيسى كما نُجري

---

(١) في (أ) و(ج): «عن ابن عمر»، والصواب المثبت. انظر التعليق الآتي.

(٢) نسبها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥) لأبي عمرو والأعمش، وذكرها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٠٢)، وأبو حيان في «البحر» (١٥/ ٢٧٤) من طريق سبعة ـ سماهم ـ عن أبي عمرو. لكن المشهور عنه الفتح كباقي العشرة.

الرِّيحَ بالنَّفخِ، وهذا لأنَّ الله تعالى أمرَ جبريلَ بالنَّفخِ فيها، فأبدَعَ بذلك النفخِ المسيحَ في رحمِها.

﴿مِن رُّوحِنَا﴾؛ أي: من رُوحِ عيسى، فأضافَ إلى نفسِه تشريفًا.

﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً﴾؛ أي: أُعجوبةً للخلقِ وعَلَمًا لنُبوّةِ عيسى، ودلالةً على نفوذِ قُدرتِنا فيما نشاءُ.

***

(٩٢) - ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لـمَّا ذكرَ أخبارَ الأنبياءِ قال: هؤلاءِ كلُّهم مُجتمِعُونَ على التَّوحيدِ، فأمَّا المُشركونَ فقد خالَفُوا الكُلَّ، والمعنى: هؤلاءِ الذين ذكَرْنا أخبارَهم ـ وهم الأنبياءُ ـ أمَّتُكم؛ أي: فريقُكم الذي ينبَغي أن تقتَدُوا بهم وتتَّبِعُوا أديانَهم، وهو كقولك: هؤلاءِ أصحابُنا، وهؤلاءِ فريقُنا؛ أي: المُوافِقُونَ لنا على مذهبِنا.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: كلُّها أمّةً واحدةً على دينٍ واحدٍ، والأمّةُ: الفريقُ المُجتَمِعونَ على أمرٍ واحدٍ.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: إلهُكم وحدي ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾؛ أي: أفرِدُوني بالعبادةِ.

وقيلَ: أي: هذا دينُكم دينٌ واحدٌ، والأمّةُ: الدِّينُ، ومنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ أي: على دينٍ، وهذا لأنَّ القومَ الذين يجتَمِعُونَ على دينٍ واحدٍ يُقالُ لهم: أمّةٌ، فأُقيمتِ الأمّةُ مُقامَ الدِّينِ.

قال الفرَّاءُ: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصبٌ على القطعِ[١]؛ لمجيءِ النَّكرةِ بعد تـمامِ الكلامِ.

وقال الزَّجّاجُ: نصبٌ على الحالِ؛ أي: في حالِ اجتماعِها على الحقِّ[٢]؛ أي: هذه أمَّتُكم ما دامَتْ أمَّةً واحدةً، واجتمعتُم على التَّوحيدِ، فإذا خالفتُم وتفرَّقتُم فليس مَن خالفَ الحقَّ من جملةِ أهلِ الدِّينِ الحقِّ، وهو كما تقولُ: «فلانٌ صديقي عفيفًا»؛ أي: ما دامَ عفيفًا، فإذا خالفَ العفَّةَ لـم يكُنْ صديقي[٣].

***

(٩٣) ـ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ ثمَّ ذمَّ المُشركينَ فقال: قد خالَفُوا واتَّخذوا من دونِ الله آلـهةً، وصارُوا فِرَقًا وأحزابًا، والتَّقطُّعُ بمعنَى التَّفرُّقِ.

وقال الأزهريُّ رحمَه الله: أي: تفرَّقُوا في أمرِهم، فنُصِبَ ﴿أَمۡرَهُم﴾ بحذفِ «في»[٤]، فالتَّقطُّعُ على هذا لازمٌ، وعلى الأوَّلِ مُتعدٍّ؛ أي: جعلُوا أمرَهم في أديانِهم قِطَعًا، فمِن مُوحِّدٍ، ومن يهوديٍّ، ومن نصرانيٍّ، ومن عابدِ ملَكٍ أو صنَمٍ.

يُقالُ: «تقَطَّعُوا» كما يُقالُ: توَزَّعُوا المالَ فيما بينَهم وتقسَّمُوه.

﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾؛ أي: إلى حُكمِنا فنُجازِيهم.

***

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٠٤).

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (١٥/ ١٨٧).

(٤) لم أجده في «تهذيب اللغة»، وذكره عن الأزهري الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٨٩)، وصاحب «اللسان» (مادة: قطع).

(٩٤) - ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ﴿مِنَ﴾ للتَّبعيضِ؛ أي: مَن يعمَلْ شيئًا منَ الصَّالحاتِ فرضًا أو نفلًا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: مُوحِّدٌ.

قال ابنُ عبّاسٍ: مُصدِّقٌ لمُحمَّدٍ عليه السَّلامُ[1].

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾؛ أي: لا يضيعُ جزاؤُه، والكُفرانُ مصدرٌ كالشُّكرانِ والغُفرانِ.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾؛ أي: لعملِه كاتِبون.

وقيلَ: أي: وإنَّا كاتِبونَ لمَن يعملُ عملَه، وهذا مثلُ مَن ردَّ الكنايةَ إلى السَّعيِ؛ لأنَّه لا يُقالُ: «كتبَ لعمَلِه»، بل يُقالُ: «كتَبَ له عمَلَه».

وتُشيرُ الكتابةُ إلى حفظِ المكتوبِ؛ أي: لا يضيعُ جزاؤُه، كما قال: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، **والأَولى إجراءُ الكتابةِ على ظاهرِها**، فيثبتُ الله الكتابةَ، أو يأمرُ الملَكَ بالكتبةِ.

* * *

(٩٥) - ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ذكرَ حالَ مَن عمِلَ صالحًا وهو مؤمنٌ، ثمَّ ذكرَ حالَ مَن أشرَكَ فقال: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾؛ أي: كلُّ أهلِ قريةٍ أهلَكْناهم فحرامٌ عليهم أن يرجِعُوا إلى قريتِهم أو إلى الدُّنيا ليستأنِفُوا

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٩٠).

العملَ ويتدارَكُوا ما قصَّرُوا فيه، وهو كقولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

وهذا تنبيهٌ على وجوبِ الإيمانِ قبلَ الهلاكِ؛ إذ لا رجعةَ إلى الدُّنيا بعد الموتِ، والحرامُ هو الشَّيءُ الممنوعُ؛ أي: هم ممنوعون منَ الرُّجوعِ، وعلى هذا ﴿لَا﴾ في قولِه: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ زيادةٌ، و«لا» قد تُزادُ مع المنعِ كقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ أي: أن تسجُدَ، والرُّجوعُ هو الرُّجوعُ إلى القريةِ، أو إلى الدُّنيا.

وقولُه: ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾؛ أي: على أهلِ قريةٍ، والإِهلاكُ: الإِفناءُ والتَّدميرُ.

وقيلَ: أي: وحرامٌ على قريةٍ حكَمْنا بشقائِها وهلاكِها أن يرجعوا عنِ الشِّركِ ويُؤمِنُوا، فهذا إخبارٌ عن كفرِ أقوامٍ علِمَ الله أنَّهم لا يُؤمِنُون، فمعنى الحرامِ على هذا أيضًا: الممنوعُ، ولا زيادةَ في الكلامِ، وليس هذا تحريمَ شرعٍ، بل هو حرامٌ بمعنَى المنعِ، كقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وكما تقولُ: «حرَّمْتَ عليَّ لقاءَكَ»؛ أي: منَعتَني منه.

وقال الزَّجَّاجُ وأبو عليٍّ: هاهُنا خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: حرامٌ على قريةٍ أهلَكْناها بالاستئصالِ وبأنَّهم لا يرجعونَ بقاؤُهم أو حياتُهم(١).

---

(١) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٩٤). وقوله: «وبأنهم إلينا... » هذا العطف بالواو على قوله: «بالاستئصال» عطف تفسيري، يعني: قدروا الباء في ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ ثم جعلوا معنى «أهلكناها بأنهم إلينا لا يرجعون»؛ أي: أهلكناها بالاستئصال، وهذا واضح من كلام الفارسي، ونحوه كلام الزجاج كما ذكر الواحدي وشرح، لكنه جعله على تقدير اللام بدل الباء، حيث قال: معنى هذا القول (قول الزجاج): وحرام على قرية حكمنا عليها بالهلاك ـ لعلمنا بأنهم لا يرجعون عن كفرهم ـ أن نقبل منهم طاعة أو نثيبهم على عمل، فنحتاج إلى تقدير لام في ﴿أَنَّهُمْ﴾ كما قدر أبو علي باء، وإلى إضمار خبر المبتدأ كما أضمره هو. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٠٥)، و«الحجة» للفارسي (٣/ ٣٨١)، و«البسيط» (١٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

=

وقيلَ: حرامٌ على قريةٍ حكَمْنا باستِئصالِـها أو بالختمِ على قلوبِها أن يُتقبَّلَ منهم عملٌ؛ لأنَّهم لا يرجِعُونَ ولا يتُوبُونَ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ علِمَ منهم أنَّهم لا يتُوبونَ، وعلى هذا فيه إضمارٌ؛ أي: حرامٌ أن نتقبَّلَ منهم طاعةً لعِلْمِنا بأنَّهم لا يرجِعُونَ عن كُفرِهم، وعلى هذا وعلى ما قبلَه ﴿لَا﴾ غيرُ زائدةٍ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: الحرامُ بمعنى الواجبِ؛ أي: واجبٌ على أهلِ قريةٍ أهلَكْناهم بالكفرِ أنْ لا يرجِعُوا إلى الدُّنيا[1]، وعلى هذا ﴿لَا﴾ غيرُ زائدةٍ أيضًا.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿وحِرْمٌ﴾[2]، والحِرْمُ والحرامُ واحدٌ، وهو قراءةُ ابنِ جُبيرٍ، فسُئِلَ عن الحِرْمِ فقال: عزْمٌ عليها، وختمٌ عليها[3].

وحَـمْلُ الحرامِ والحِرْمِ على الواجبِ بعيدٌ في اللُّغةِ، والأظهَرُ أنَّ الحرامَ منَ المنعِ.

* * *

(٩٦) ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾؛ أي: حرامٌ رُجوعُهم حتَّى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وقامتِ القيامةُ فحينَئذٍ يُبعَثُونَ ولا تنفَعُهم النَّدامةُ.

= قلت: وهذا الذي شرح به الواحدي بمعنى ما سيأتي من القيل الذي بعده.

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٩١)، وذكره بنحوه السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٤١)، والثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٥٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١)، و«التيسير» (ص: ١٥٥). وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٩٥) لكنه جعل القراءة لابن عباس رضي الله عنهما وتأويلها لابن جبير، ولفظه: «عن أبي المعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، كان يقرؤها: «(وحرم على قرية) قال: فقلت لسعيد: أي شيء حرم؟ قال: عزم».

وقيلَ: أي: حتَّى إذا فُتِحَتْ جهةُ يأجوجَ ومأجوجَ.

وقُرِئَ ﴿فُتِحَتْ﴾ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ(١).

وفتحُها: رفعُ السَّدِّ الذي بناه ذو القرنَينِ، وانفِتاحُ السَّدِّ علامةُ السّاعةِ، قال الله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٨ ـ ٩٩].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾؛ أي: لكثرَتِهم ينسِلُونَ من كلِّ ناحيةٍ ونَشْزٍ وأكَمةٍ، والحدْبُ: الحدورُ في صَببٍ، والجمعُ حِدابٌ، ومنه حَدَبةُ الظَّهرِ.

وقال الزَّجَّاجُ: الحدَبُ: كلُّ أكَمةٍ منَ الأرضِ مُرتفعةٍ(٢).

والنَّسَلانُ: مشيةُ الذِّئبِ إذا أسرَعَ، يُقالُ: «نَسَلَ فلانٌ في العَدْوِ ينسِلُ وينسُلُ ـ بالكسرِ والضَّمِّ ـ نُسولًا ونَسَلانًا».

وقولُه: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ يرجعُ إلى يأجوجَ ومأجوجَ.

وقيلَ: إلى جميعِ الخلقِ؛ فإنَّهم يُحشَرونَ إلى أرضِ الموقفِ، فهم يُسرِعُونَ من كلِّ صَوبٍ.

وقُرِئَ في الشَّواذِّ: (وهم من كلِّ جدَثٍ ينسِلونَ)(٣) أخذًا من قولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

* * *

---

(١) قرأ ابن عامر بتشديد التاء، وباقي السبعة بتخفيفها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٠٥).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥) عن ابن عباس والكلبي والضحاك، و«المحتسب» (٢/ ٦٥) عن ابن مسعود.

(٩٧) ـ ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ قيل: هو جوابُ ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ﴾، والواوُ مُقحمةٌ كقولِه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، ذكره الفرَّاءُ[١].

وأنكرَ الزَّجَّاجُ إقحامَ الواوِ، وقال: جوابُ ﴿حَتَّى إِذَا﴾ مُضمَرٌ؛ أي: حتَّى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ واقترَبَ الوعدُ قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ الآية[٢].

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ قال الفرَّاءُ: ﴿هِيَ﴾ عمادٌ، والأبصارُ مُؤنَّثةٌ، فلهذا قال: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾[٣].

وقيلَ: فإذا القِصَّةُ شاخصةٌ أبصارُ الذين كفَرُوا؛ أي: تشخَصُ أبصارُهم فلا تطرِفُ من شدَّةِ الهولِ.

﴿يَا وَيْلَنَا﴾؛ أي: يقُولونَ: يا ويلَنا ﴿قَدْ كُنَّا﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾؛ أي: في عمايةٍ عمَّا يُرادُ بنا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أي: أنفُسَنا بالإشراكِ وتكذيبِ محمَّدٍ ﷺ.

* * *

(٩٨ ـ ٩٩) ـ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: إنَّكم

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١١).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٠٥).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١٢).

مع الأصنامِ حصَبُ جهنَّمَ، والحصَبُ: الحطَبُ الذي يُلقَى في تنُّورٍ.

وقُرِئَ في الشَّواذِ: (حطَبُ جهنَّمَ)[١].

وأصلُ الحصْبِ قولُك: حصَبْتُ فلانًا أحصِبُه حَصْبًا؛ أي: رمَيتُه، وما رمَيْتَ به «حَصَبٌ»، مثلَ: النَّفْضِ والنَّفَضِ، القَبْضِ والقَبَضِ.

قال الضَّحّاكُ: يرمُونَ بهم في النّارِ كما يُرمَى بالحصباءِ[٢].

﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾؛ أي: فيها داخِلُونَ، والخِطابُ للمُشركينَ عبدةِ الأصنامِ؛ أي: أنتم وارِدُوها مع الأصنامِ.

ويجوزُ أن يُقالَ: الخِطابُ للأصنامِ وعبَدَتِها؛ لأنَّ الأصنامَ وإن كانت جماداتٍ فقد يُخبَرُ عنها بالكناياتِ؛ أي: بكناياتِ الآدميِّينَ.

ويجوزُ أنْ يقعَ على غيرِ الجمادِ، فيكونُ المعنى: أنتم ومَن عبَدْتُمُوه منَ الشَّياطينِ وأطَعْتُموه لها وارِدُونَ.

وذكرَ اللّامَ فقال: ﴿لَهَا﴾ للتَّقديم[٣]، كقولك: «أنت لزيدٍ ضارِبٌ»، وقال الله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٢٩ ـ ٣٠]، وطاعةُ الكافرِ للشَّيطانِ في الكفرِ عبادةٌ له؛ لأنَّه يرى ذلك واجبًا، وطاعةُ العاصي للشَّيطانِ لا تكونُ عبادةً للشَّيطانِ؛ لأنَّه لا يرى طاعتَه واجبةً، بل يراها معصيةً.

وقيلَ: الآيةُ عامّةٌ في الأصنامِ والشَّياطينِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥) عن علي وعائشة وابن الزبير رضي الله عنهم.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٦٣)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤١٢).

(٣) أي: لكون المعمول متقدماً زيدت اللام للتقوية كما هو الحال في مثله على ما تبينه الأمثلة الآتية.

قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾؛ أي: الأصنامُ والشَّياطينُ ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾؛ أي: لأمكَنَها دفعُ النّارِ عن نفسِها.

وقيلَ: لو كانتِ الأصنامُ آلهةً لَـمَا ورَدَ عابِدوها النّارَ.

وقيلَ: ما ورَدَها العابدون والمعبودونَ، ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

***

(١٠٠) - ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾؛ أي: لهؤلاءِ الذين يرِدُونَ النّارَ - وهم الكفّارُ والشَّياطينُ الذين عُبِدَ الأصنامُ بطاعتِهم - ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في جهنَّمَ ﴿زَفِيرٌ﴾ وهو صوتُ نفَسِ المهمومِ[1] يخرُجُ منَ القلبِ، وإنَّما يَعْرِضُ الزَّفيرُ لعبَدةِ الأصنامِ، فأمَّا الأصنامُ فالمصيرُ إلى أن الله يُحيِيَها ويُعذِّبَها حتَّى يكونَ لها زفيرٌ فتُعذَّبَ بعيدٌ، وإنْ كان لله أن يفعَلَ ما يُريدُ.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيلَ: يُحشَرون صُمًّا كما قال الله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وفي سماعِ الأشياءِ رَوحٌ وأُنسٌ، فمنعَ الله الكفّارَ ذلك في النّارِ.

وقيلَ: لا يسمَعُونَ ما يسُرُّهم، بل يسمَعُونَ أصواتَ مَن يتولَّى تعذيبَهم منَ الزَّبانيةِ.

وقيلَ: إذا قيلَ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] يصيرُونَ حينَئذٍ صُمًّا بُكمًا.

---

(١) في (ج): «المغموم».

وقال ابنُ مسعودٍ: إذا بقيَ مَن يخلدُ في النّارِ في جهنَّمَ جُعِلوا في توابيتَ من نارٍ، ثمَّ جُعِلَتِ التَّوابيتُ في توابيتَ أُخرَ، فلا يسمَعُون شيئًا، ولا يرى أحدٌ منهم أنَّ في النّارِ أحدًا يُعذَّبُ غيرَه(١).

***

(١٠١ ـ ١٠٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: لمَّا نزلَ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ شقَّ على كفّارِ مكّةَ وقالوا: شتَمَ آلهتَنا، فقال ابنُ الزِّبَعْرَى: ادعُوه لي، فدُعِيَ النَّبيُّ ﷺ، وكانوا إذا دَعَوه حضرَ رجاءَ إيمانِهم، فقال ابنُ الزِّبَعْرَى: يا محمَّدُ، هذا شيءٌ لآلهتِنا خاصّةً أو لكلِّ ما عُبِدَ من دونِ الله؟ فقال: «لا، بل لكلِّ ما عُبِدَ من دونِ الله»، فقال ابنُ الزِّبَعْرَى: خُصِمْتَ وربِّ هذه البنيّةِ، ألستَ تزعُمُ أنَّ الملائكةَ عبادٌ صالحونَ، وأنَّ عيسى عبدٌ صالحٌ، وأنَّ عُزَيرًا عبدٌ صالحٌ؟ وهذه بنو مليحٍ يعبُدونَ الملائكةَ، والنَّصارَى تعبُدُ عيسى، واليهودُ تعبُدُ عُزَيرًا، قال: فضجَّ أهلُ مكّةَ، فأنزلَ الله

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤١٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩٠٨٧)، والبيهقي في «البعث» (٥٩٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦٩): «رواه الطبراني، وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف».

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[1] الملائكةُ وعيسى وعُزيرًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾.

وفيه نزَلَ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ يعني: ما ذكرَه ابنُ الزِّبَعْرَى ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] يعني: الضَّجيجَ الذي كانَ من أهلِ مكّةَ.

وقيلَ: لمَّا ذُكرَ للنَّبيِّ ﷺ قولُ ابنِ الزِّبَعْرَى قال: «نعم، كلُّ مَن أحبَّ أن يُعبَدَ من دونِ الله فهو مع مَن عبدَه، إنَّما يعبُدونَ الشَّياطينَ ومَن أمرَهم بعبادتِهم»، وأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[2].

وعلى هذا فإنَّما دخلَ تحتَ قولِه: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الشَّياطينُ الذين أمَرُوا بعبادةِ عيسى والملائكةِ وعُزَيرٍ والأحبارِ والأصنامِ.

وقيلَ: لم يدخُلْ عيسى والملائكةُ تحتَ قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ لأنَّ (ما) لِمَا لا يَعقلُ، ولم يقُلْ: «ومَن تعبُدونَ»، ويدُلُّ عليه أنَّ هذا الخطابَ جرَى مع مُشركي قريشٍ، وهم كانوا عبدةَ أصنامٍ.

والإشارةُ بقولِه: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ إلى الأصنامِ التي كانَتْ حولَ الكعبةِ، وهي ثلاثُ مئةٍ وستُّونَ صنمًا، وكان النَّبيُّ عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ أشارَ إليها لمَّا قرأ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وعلى هذا لمَّا لم

---

(١) رواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣/ ١٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٧٣٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦٩): «فيه عاصم بن بهدلة وقد وثِّق وضعفه جماعة». ورواه بنحوه دون ذكر الآية الإمام أحمد في «المسند» (٢٩١٨).

(٢) ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩) عن ابن إسحاق، ورواه عنه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤١٧ ـ ٤١٨).

يفهمِ الخصمُ أنَّ (ما) لِـمَا لا يعقلُ، عُرِفَ الأمرُ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾، أو تكونُ هذه الآيةُ كلامًا مُبتدأً.

و﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾: الرَّحمةُ، وقيلَ: السَّعادةُ. وقيلَ: الجنَّةُ.

وقال قومٌ: قولُه: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ عامٌّ أُريدَ به التَّخصيصُ، ويجوزُ تأخيرُ المُخصَّصِ عن العامِّ، ويقعُ البيانُ عند الحاجةِ، فلمَّا قال ابنُ الزِّبَعْرَى ما قال بيَّنَ الرَّبُّ المُرادَ باللَّفظِ العامِّ، وكان قد سبقَ فيما أنزلَ الرَّبُّ منَ القرآنِ أنَّ عيسى منَ الأنبياءِ، وأنَّ الملائكةَ مُصطَفَونَ لله تعالى قد سبقَتْ لـهم السَّعادةُ، فيُعلَمُ بهذا أنَّهم لا يندَرِجُونَ تحتَ قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾؛ أي: حسيسَ[1] النّارِ وحركةَ لـهَبِها، والحسيسُ والحِسُّ: الحركةُ.

وقيلَ: الصَّوتُ الخفيُّ الذي يُحَسُّ.

وقيلَ: قبلَ دُخولِ الجنّةِ يسمعونَ حسَّ النّارِ، ولكن إذا نزلُوا منازلَـهم منَ الجنّةِ لـم يسمَعُوا حسَّ النّارِ بعد ذلك.

﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: هم مُؤبَّدون في الجنّةِ، ولهم فيها ما تشتَهي أنفُسُهم.

قولُه تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ أهوالُ يومِ القيامةِ أكبرُ الأفزاعِ؛ أي: لا يحزَنُونَ في ذلك اليومِ.

وقيلَ: الفزَعُ الأكبرُ إذا ذُبِحَ الموتُ وقيلَ لأهلِ النّارِ: خلودٌ فلا موتَ.

وقيلَ: هو إذا أطبقَتِ النّارُ على أهلِها.

---

(١) في (ج): «حس».

وقيلَ: هو أن يُؤمَرَ بالعبدِ إلى النّارِ.

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: تستقبِلُهم ملائكةُ الرَّحمةِ عندَ خُروجِهم من القُبورِ، والتَّلقِّي: التَّعرُّضُ للقاءِ الشَّيءِ.

﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾؛ أي: تقولُ الملائكةُ لهم مُبشِّرينَ: هذا يومُكم ﴿ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الكرامةَ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: لا يحزُنُهم الفزَعُ الأكبرُ في اليومِ الذي نطوي فيه السَّماءَ فننقُضُ تركيبَها، وأرادَ بالسَّماءِ الجنسَ.

﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ للْكِتَابِ﴾[1] كما يطوِي الكاتبُ فيصغِّرُ الصَّحيفةُ، فهكذا تصغُرُ السَّماءُ بالطَّيِّ، والسِّجِلُّ بمعنَى الكاتبِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ به ملَكًا يُقالُ له: سجِلٌّ، وهو الذي يطوي كتُبَ بني آدمَ إذا رُفِعَتْ إليه[2].

وقيلَ: السِّجِلُّ بلغةِ الحبشةِ: الرَّجلُ.

وقيلَ: هو من لغةِ العربِ أيضًا، فهو وِفاقٌ بينَ اللُّغتَينِ، وعلى هذه الأقوالِ السِّجِلُّ: هو الطّاوي.

وقيلَ: السِّجِلُّ هو الصَّحيفةُ؛ أي: كما تُطوى الصُّحُفُ ليُكتَبَ فيها الكتابُ، فـ(الكتاب) اسمٌ، أو: كما تُطوى الصَّحيفةُ ليُكتَبَ فيها، فيكونُ (الكتاب) مصدرًا.

---

(١) في (أ) و(ج): «كطي السجل للكتب»، والمراد المثبت على ما يأتي من الشرح، وهما قراءتان من المتواتر ستأتيان.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢١٨) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٢٣) من قول ابن عمر رضي الله عنهما والسدي. وضعفه بأنه لا يعرف في الملائكة ملك ذلك اسمه.

وقيلَ: أي: كطيِّ السِّجِلِّ على الكتابِ؛ أي: على ما فيه منَ الكتابِ، وقد تَرِدُ اللّامُ بمعنى «على»، كقولِه: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [ ]؛ أي: فعلَيها.

وقيلَ: أي: كما تُطوى الصَّحيفةُ لأجلِ ما فيها منَ الكتابِ.

وأصلُ الكلمةِ منَ المُساجَلةِ، وهي منَ السَّجْلِ، وهو الدَّلْوُ مُلِئَ ماءً، ويُقالُ لكلِّ أمرٍ بينَ اثنَينِ: سِجالٌ ومُساجَلةٌ، ويُقالُ[1] للمُكاتَبةِ: مُساجلةٌ؛ لأنَّ هذا يكتُبُ مرّةً ثمَّ ذاك يكتُبُ مرَّةً، و[لمَّا قيل للمكاتَبةِ: مساجَلةٌ] قيلَ للكتابِ: سِجِلٌّ، وسَجَّل؛ أي: كَتَب السِّجِلَّ[2].

ومَن قال: «السِّجِلُّ: الصَّحيفةُ» قال: التَّقديرُ: كطيِّ الطّاوي السِّجِلَّ، فحُذِفَ المُضافُ ـ وهو الطّاوي ـ وأُضيفَ المصدرُ إلى المفعولِ، كقولِه: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ [ص: ٢٤]، وقولُه: ﴿لِلْكُتُبِ﴾؛ أي: لدَرْجِ الكتُبِ، فحُذِفَ المُضافِ، والكتُبُ والكتابُ: المكتوبُ.

قُرِئَ: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، وقُرِئَ: ﴿للكتابِ﴾[3].

والسِّجِلُّ يجوزُ أن يكونَ واحدًا، ويجوزُ أن يكونَ جمعًا.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾؛ أي: كما بدأنا الخلقَ في بُطونِ أمَّهاتِهم عُراةً حُفاةً كذا نُعيدُهم يومَ القيامةِ، وهذا كلامٌ مُبتَدأٌ.

وقيلَ: أي: نُفني كلَّ شيءٍ كما كان في الابتداءِ، وعلى هذا فهو مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾؛ أي: نَطويها فنُعيدُها إلى الفَناءِ فلا تكونُ شيئًا.

---

(١) في (ج): «وقيل».

(٢) انظر: «البسيط» (١٥/ ٢٢٣)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿للكُتُب﴾ على الجمع، والباقون: ﴿للكِتَاب﴾ على الواحد. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

وقيلَ: نُفني السَّماواتِ ثمَّ نُعيدُها يومَ القيامةِ، كقولِه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فهي تفنَى ثمَّ تُعادُ على غيرِ ما كانت عليه في الدُّنيا في الصُّورةِ والهيئةِ.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾؛ أي: هذه الإعادةُ وعدٌ وعَدْنا أن نفعلَه وَعْدًا مُؤكَّدًا، ولا خُلفَ في وعدِنا.

﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ أي: ما وعَدْناكم، وهو كما قال: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨].

وقيلَ: كان الإخبارُ بما سبقَ من قضائِه.

وقيلَ: صلةٌ.

* * *

(١٠٥) - ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ هو متَّصلٌ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾؛ أي: أنزلتُ على محمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ فليسوا حَصَبَ جهنَّمَ، وكتَبْنا في الكتُبِ الأُخَرِ أيضًا أنَّ عباديَ الصَّالحين ليسوا حصَبَ جهنَّمَ.

والزَّبورُ: جميعُ الكُتُبِ المُنزلةِ منَ السَّماءِ، وهو الزَّبرُ، وهو الكتابةُ، والزَّبورُ بمعنَى: المزبورِ، وهو المكتوبُ، كالحَلوبِ بمعنَى المحلوبِ.

وقرأ حمزةُ: ﴿في الزُّبورِ﴾ بضمِّ الزَّايِ[1]، والزَّبورُ والزُّبُرُ جمعٌ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١)، و«التيسير» (ص: ٩٨).

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: من بعدِ ما كتَبْنا في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقيلَ: الذِّكرُ: التَّوراةُ، والزَّبورُ: ما نزلَ منَ الكتُبِ بعدَها.

وقيلَ: يعني: زَبورَ داودَ، (بعد الذِّكرِ)؛ أي: بعد التَّوراةِ.

وقيلَ: الزَّبورُ: القرآنُ، «من بعدِ الذِّكرِ»؛ أي: التَّوراةِ.

﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: أنَّ أرضَ الجنَّةِ ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾؛ أي: المُؤمنونَ.

وقيلَ: هم أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ لأنَّهم أكثرُ أهلِ الجنَّةِ، كما في الخبرِ: «إنِّي لأرجُو أن تكونُوا ثُلثَي أهلِ الجنَّةِ»[1].

وقيلَ: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: أرضَ الدُّنيا، بدليلِ قولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٥٥]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١]، وقولِه عليه السَّلامُ: «زُوِيَتْ ليَ الأرضُ...»

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ « قال فكبرنا. ثم قال «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» قال: فكبرنا. ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض».

ورواه الترمذي (٣١٦٨) عن عمران بن حصين رضي الله عنه، وفيه: «قال: ولا أدري؟ قال: الثلثين أم لا؟».

ويشهد لهذه الرواية ما رواه الترمذي (٢٥٤٦) عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

الخبر[1]، وعلى هذا ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾؛ أي: أمّةُ محمَّدٍ عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

وقيلَ: أرادَ بالأرضِ أرضَ الشّامِ؛ إذ في الأخبارِ أنَّ الله يُورِثُها في آخرِ الزَّمانِ الصَّالحينَ من أمّةِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ عند نُزولِ عيسى عليه السَّلامُ، ويجري على أيديهم قتلُ الدَّجّالِ.

ويحتملُ أنَّه يُريدُ بقولِه: ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ بني إسرائيلَ والصّالحينَ في كلِّ زمانٍ؛ أي: إنَّ الله يجعلُ العاقبةَ المحمودةَ في كلِّ زمانٍ لصالحي أهلِ ذلك الزَّمانِ، وهم أتباعُ الأنبياءِ.

وللكتابةِ معنَيانِ:

أحدُهما: إحكامُ القضاءِ، وذُكِرَ بلفظِ الكتابةِ لأنَّ العادةَ جاريةٌ بأنَّ مَن أرادَ إحكامَ شيءٍ كتبَه.

والثّاني: الحملُ على ظاهرِ الكتابةِ؛ أي: أمرَ أنبياءَه وقومَ أنبيائِه بكتابةِ ما أُوحِيَ إليهم من ذلك، وأضافَ إلى نفسِه لأنَّه أمرٌ بالكتابةِ، وهو كما يُقالُ: «ضرَبَ الأميرُ فلانًا»؛ أي: وقعَ ذلك بأمرِه، وهكذا الكِتْبَةُ في اللَّوحِ المحفوظِ.

ويجوزُ أن يخلُقَ الله كتبَه ويقولَ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا﴾.

قرأ حمزةُ: ﴿عبادِيْ الصّالحون﴾ بتسكينِ الياءِ[2].

***

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه بلفظ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(١٠٦) - ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا ﴾؛ أي: كفايةً، فالبلاغُ والبلوغُ سببُ الوصولِ إلى الشَّيءِ كبلاغِ المُسافرِ، ومنه: البلاغةُ في الكلامِ؛ لأَنَّها الوصولُ إلى ما يُريدُ المُتكلِّمُ بيانَه.

وقولُه: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا ﴾؛ أي: فيما جرَى في هذه السُّورةِ منَ الوَعظِ والتَّنبيهِ.

وقيلَ: إنَّ في القرآنِ وفيما أوحَيْنا إليكم ما يُبلِّغُكم الجنّةَ.

وقيلَ: إنَّ في هذا لبيانًا لِـمَا تحتاجُونَ إليه من أمرِ دينِكم.

والأَوَّلُ أظهَرُ؛ لقولِه: ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾، والبيانُ واقعٌ للكلِّ.

﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾؛ أي: مُطيعينَ، والعابدُ: المُتذلِّلُ الخاضِعُ، **ولا يبعُدُ** أن يدخُلَ فيه كلُّ عاقلٍ؛ لأَنَّه من حيثُ الفِطرةُ مُتذلِّلٌ للخالقِ، وهو بحيثُ لو تأمَّلَ القرآنَ فاستعملَه لأوصلَه ذلك إلى الجنّةِ.

وقيلَ: ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾؛ أي: مُوحِّدينَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: هم أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ الذين يُصلُّونَ الصَّلواتِ الخمسَ، ويصومُونَ شهرَ رمضانَ[1]، أي: في هذا بلاغٌ لهم في التَّثبيتِ على الإيمانِ وأركانِه.

* * *

---

(١) بهذا اللفظ ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٨٠)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٢٩) عن كعب، ورواه بنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦٥٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾؛ أي: الذين يصلون الصلوات في الجماعات»، ورواه الفاكهي مرفوعاً في «أخبار مكة» (٢/ ٩٦) أن النبي ﷺ قرأ ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ فقال: هي الصلوات الخمس في جماعة في هذا المسجد».

(١٠٧) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بيَّنَ أنَّه مُرسَلٌ[1] للكُلِّ، فهو إذًا رحمةٌ للكلِّ، غيرَ أنَّ المؤمنَ قبِلَ قولَه فتعرَّضَ للثَّوابِ، والكافرُ ردَّ قولَه فأُتِيَ من جهةِ نفسِه، فهما كرجُلَين أُعطِيا نعمةً فقَبِلَ أحدُهما وردَّ الآخرُ.

ومن رحمتِه بهم أنَّه أمرَ بالرِّفقِ بهم، ولـمَّا قيلَ له: ألَا تلعَنُ قُريشًا[2] بما أتوا إليكَ؟ فقال: «لـم أُبعَثْ لعَّانًا، إنَّما بُعِثْتُ رحمةً»[3].

ومن أثرِ كونِه رحمةً: أنَّ كلَّ نبيٍّ دعا قومَه فكفَرُوا عُوجِلُوا بالإهلاكِ غيرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ فإنَّه أُخِّرَ عقابُ مَن كفرَ به إلى الآخرةِ.

وقال ابنُ زيدٍ: أرادَ بالعالَمين: المُؤمنينَ خاصَّةً[4].

***

(١٠٨ - ١٠٩) - ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أُمِرَ عليه السَّلامُ

---

(١) في (ج): «مرشد».

(٢) في (ج): «قومًا».

(٣) رواه عبد بن حميد عن عكرمة كما في «الدر المنثور» (٥/ ٦٨٨)، وروواه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال «إني لم أبعث لعانا. وإنما بعثت رحمة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٤٠) بلفظ: «العالمون: من آمن به وصدقه».

بعد إيضاحِ الدَّلائلِ بأنْ يدعُوَهم إلى التَّوحيدِ؛ أي: إنَّما يُوحَى إليَّ أنَّ الصَّانعَ واحدٌ، فلا يجوزُ الإشراكُ به.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: مُنقادُونَ لتوحيدِ الله؛ أي: فأسلِمُوا؛ كقولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ أي: انتهُوا.

قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: فإن أعرَضُوا عن الإسلامِ ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ أي: أعلَمْتُكم أنَّه لا سلمَ بينَنا، كقولِه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]؛ أي: أعلِمْهم أنَّك نقضْتَ العهدَ نقضًا استوَيْتَ أنتَ وهم، فليس لفريقٍ عهدٌ مُلتزَمٌ في حقِّ الفريقِ الآخرِ.

وقال الزَّجَّاجُ: ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ أي: أعلَمْتُكم بما يُوحَى إليَّ على استواءٍ في العلمِ به، ولم أُظهِرْ لأحدٍ شيئًا كتَمْتُه عن غيرِه[1].

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: آذَنْتُكم بالحربِ ولكنِّي لا أدري متى يُؤذَنُ لي في مُحارَبتِكم.

وقيلَ: آذَنتُكم بالحربِ ولا أدري متى تقومُ السّاعةُ.

***

(١١٠ - ١١١) - ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: يعلَمُ ما تجهرونَ به وما تكتُمونَ منَ الشِّركِ، وهو المُجازي عليه وإنْ لم أعلَمْ أنَّى وقتُ العذابِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٠٨)، وعبارته: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أعْلَمْتكم بما يوحى إليَّ لِتَسْتوُوا في الإيمان به.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: ما ﴿أَدْرِي لَعَلَّهُۥ﴾؛ أي: لعلَّ ما أنتُم فيه، أو: لعلَّ تأخيرَ العذابِ عنكم، أو: لعلَّ إبهامَ الوقتِ الذي هو وقتُ العذابِ. أو: لعلَّ ما آذنتُكم به= ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وامتحانٌ ليبينَ هل تتوبونَ فتُسعَدُوا، أو تُصِرُّونَ فتزدادوا كُفرًا على كُفرٍ، ولعلَّه متاعٌ لكم بالدُّنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقتِ الموتِ.

***

(١١٢) - ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ﴾ ختمَ السُّورةَ بأنْ أمَرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بتفويضِ الأمرِ إلى الله وتوقُّعِ الفرَجِ من عندِه؛ أي: احكُمْ بيني وبين هؤلاءِ المُكذِّبينَ لي وانصُرْني عليهم، وحكمُ الله تعالى لا يكونُ إلّا بالحقِّ، فالمعنى: احكُمْ بعذابِ الكفّارِ الذي هو حقٌّ نازِلٌ بهم؛ لِـمَا سبقَ منَ الخبرِ بذلك.

ثمَّ يجوزُ أن يعودَ هذا إلى تعجيلِ العقابِ لهم في الدُّنيا كالذي حلَّ بهم يومَ بدرٍ، ويجوزُ أن يُريدَ عذابَ الآخرةِ.

وقيلَ: أي: اِفصِلْ بيني وبينَ المُشركين بما يظهرُ به الحقُّ للجميعِ.

وقيلَ: إنَّ الله تعالى حكَمَ بعقابِ الكفّارِ، وهو واقعٌ لا محالةَ، ولكنْ تعبَّدَ نبيَّه عليه السَّلامُ بالدُّعاءِ وإظهارِ العبوديّةِ، وهو كقولِه: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فالله مُنجِزٌ وعدَه وإنْ لـم يُسأَلْ، والمقدورُ كائنٌ لا محالةَ، ولكنَّ العبدَ مأمورٌ بالتَّضرُّعِ والدُّعاءِ وإظهارِ العبوديّةِ.

وقُـرِئَ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾(١)؛ أي: قـال محمَّـدٌ عليـه السَّـلامُ: ربِّ احكُـمْ بالحقِّ.

---

(١) قرأ بها حفص، والباقون: ﴿قل﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١ - ٤٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾؛ أي: هـو الرَّحمـنُ الـذي منـه نتوقَّـعُ الرَّحمـةَ والنَّصرَ علـى الأعداءِ.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أيُّها المُشرِكونَ من عبادةِ الأصنامِ وتكذيبِكم لي.

وقُرِئَ بالياءِ[١]؛ [أي][٢]: على ما يصِفُه الكفّارُ، والله أعلَمُ.

* * *

(١) هي رواية ابن ذكوان عن ابن عامر بخلف عنه، ورواية المفضل عن عاصم، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٢)، و«النشر» (٢/ ٣٢٥).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

سُورَةُ الحَجِّ

تفسيرُ سورةِ الحجِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ لفظٌ عامٌّ، والمُرادُ بهذا النِّداءِ المُكلَّفونَ.

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: اخشَوه في أوامرِه أن تترُكوها، ونواهيه أن تُقدِمُوا عليها، والاتِّقاءُ: الاحتِراسُ؛ أي: احتَرِسُوا بطاعتِه عن عُقوبتِه.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: لأنَّ زلزلةَ السّاعةِ شيءٌ عظيمٌ، وأنتم مبعوثُونَ للجزاءِ يومَ القيامةِ، والزَّلزلةُ: شِدّةُ الحركةِ، ومنه ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وأصلُ الكلمةِ من: «زلَّ عن الموضعِ»؛ أي: زالَ عنه وتحوَّلَ، و«زلزَلَ الله قدَمَه»؛ أي: حرَّكَها، وهذه اللَّفظةُ تُستَعملُ في تهويلِ الشَّيءِ.

وقيلَ: هي الزَّلزلةُ المعروفةُ كما قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]؛ أي: حُرِّكتِ الأرضُ بأهلِها للبعثِ.

ولـمَّا نزلتِ الآيتانِ في مُفتتحِ هذه السُّورةِ كان النَّبيُّ ﷺ في غزوةِ بني المُصطلقِ، فقرأهما ليلًا على أصحابِه، فلم يُرَ أكثرَ باكيًا من تلك اللَّيلةِ، وأصبَحُوا ولم يحطُّوا السُّروجَ عن الدَّوابِّ، ولم يضرِبُوا الخيامَ وقتَ النُّزولِ، ولا طبَخُوا،

وهم بين حزينٍ وباكٍ، ومُفكِّرٍ وشاكٍ[١]، فقال عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ: «أتدرُونَ أيُّ يومٍ ذلك؟ يومَ يقولُ الله لآدمَ: ابعَثْ بعثَ النّارِ من ذُرِّيَّتِك، فيقولُ: من كم؟ فيقولُ: من كلِّ ألفٍ تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ إلى النّارِ، وواحدًا إلى الجنّةِ»، فبكَتِ الصَّحابةُ وقالوا: فمَن ينجُو؟ فقال: «أبشِرُوا وسدِّدُوا وقارِبُوا، فإنّكم بينَ خليقَتَينِ ما كانتا في شيءٍ إلّا كثَّرتاهُ، يأجوجَ ومأجوجَ»، وقال: «إنِّي لأرجُو أن تكونُوا ثُلثَي أهلِ الجنّةِ»، في خبرٍ طويلٍ[٢].

---

(١) «وشاك»: ليس في (ج)، وفي «تفسير الثعلبي» و«تفسير البغوي»: «والناس ما بين باك أو جالس حزين متفكر».

(٢) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٩٣)، ثم البغوي في «تفسيره» (٥/ ٣٦٥) عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، وتابعهما المصنف فجمع بين حديثيهما في سياق واحد.

أما حديث عمران بن حصين رضي الله عنه فقد رواه الترمذي (٣١٦٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٠) قال: كنّا مع النبي ﷺ في مسيرٍ، فتَفاوَتَ بين أصحابه في السَّير، فرَفَع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾، فلمّا سمع ذلك أصحابُه حثُّوا المطي وعَرَفوا أنه عند قولٍ يقوله، فقال: «هل تدرون أيُّ يومٍ ذلك؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «ذلك يومٌ يُنادِي اللهُ فيه آدم فيناديهِ ربُّه فيقولُ: يا آدمُ ابْعَثْ بَعْثَ النار، فيقولُ: أي ربِّ، وما بَعْثُ النار؟ فيقولُ: مِن كلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ في الجنة» فيئس القومُ، حتى ما أبدَوْا بضاحكةٍ فلما رأى رسول الله ﷺ الذي بأصحابه قال: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، ومن مات من بني آدم وبني إبليس» قال: فسري عن القوم بعض الذي يجدون، فقال: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة. قال الترمذي: حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن عمران. =

وقيل: هذه زلزلةٌ تقعُ في الدُّنيا عظيمةٌ تكونُ من أشراطِ السّاعةِ قبلَ قيامِ القيامةِ.

وقيلَ: تكونُ مع النَّفخةِ الأولى.

وقيلَ: تكونُ مع قيامِ السّاعةِ حتَّى يتحرَّكَ النّاسُ من قُبورِهم.

وفائدةُ ذكرِ هولِ ذلك اليومِ: التَّحريضُ على التَّأهُّبِ له.

* * *

= ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٠)، والطبراني في «الكبير» ١٨/ (٥٤٦) من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن العلاء بن زياد العدوي، عن عمران. وهذا إسناد صحيح أيضاً، وبه يزول محذور عدم سماع الحسن من عمران رضي الله عنه.

وروى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٩٥)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (٧٩)، من حديث أنس رضي الله عنه. قال الحاكم: صحيح على شرطهما.

وأما حديث أبي سعيد الخدري فقد رواه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)، ولفظه: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]»، قالوا: يا رسول الله وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا فإن منكم رجل ومن يأجوج ومأجوج ألف. ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود».

وكون نزولها في غزوة بني المصطلق رواه ابن مردويه كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٧٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وهذا إسناد واه.

(٢) - ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: ترونَ تلك الزَّلزلةَ ﴿تَذْهَلُ﴾؛ أي: في ذلك اليومِ تذهَلُ، يُقالُ: «ذَهَلَ عن كذا يذهَلُ، وذَهِلَ أيضًا»؛ أي: شغَلَه عنه شغلٌ.

﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ قيلَ: تسلُو عن ولدِها؛ أي: تشتغِلُ بنفسِها فلا تذكرُ ولدَها.

﴿مُرْضِعَةٍ﴾ جاءَتْ على الفعلِ على أرضَعَتْ، ولو أرادَ الصِّفةَ لقالَ: «كلُّ مُرضعٍ»، كما يُقالُ: «حائضٌ وحاملٌ وطامِثٌ وطالقٌ»؛ أي: ذاتُ رضاعٍ وحملٍ وحيضٍ[1].

وقال المُبرِّدُ: لمَّا قال: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾[2]، يريدُ: تذهَلُ المُرضِعةُ عن ولدِها لغيرِ فطامٍ.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾؛ أي: تُسقِطُ الحبالى أجنَّتَها لغيرِ تمامٍ منَ الهولِ.

وقولُه: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ (ما) بمعنَى «مَن»؛ أي: عمَّنْ أرضَعَتْ.

وقال المُبرِّدُ: (ما) بمعنى المصدرِ؛ أي: تذهَلُ عن الإرضاعِ[3].

---

(١) وقد بين الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٥٢٢) الفرق بين (مرضع) و(مرضعة) أجمل بيان فقال: المرضعةُ: التي هي في حال الإرضاع مُلقِمةٌ ثديَها الصَّبيَّ. والمُرضعُ: التي شأنُها أن تُرضِعَ وإن لم تُباشرِ الإرضاع في حالِ وَصْفِها به، فقيل: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ليُدَلَّ على أنَّ ذلك الهَول إذا فُوجِئَتْ به هذه وقد ألقَمتِ الرَّضِيعَ ثَدْيَها نزعَتْه عن فيه لِمَا يَلحَقُها من الدَّهشَةِ.

(٢) انظر: «المقتضب» لابن المبرد (٣/ ١٦٣).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٤٤).

وهذا يدُلُّ على أنَّ هذه الزَّلزلةَ في الدُّنيا؛ إذ ليس بعد البعثِ حملٌ وإرضاعٌ، إلّا أن يُقالَ: مَن ماتَتْ حاملًا بُعِثَتْ حاملًا فتضعُ حملَها للهَولِ، ومَن ماتَتْ مُرضِعةً بُعِثَتْ كذلك.

أو يُقالُ: هذا مثَلٌ كما قال: ﴿يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾؛ أي: منَ الخوفِ والهولِ.

قُرِئَ: ﴿وَتَرَى﴾ بفتحِ التّاءِ، وقُرِئَ: (وتُرى) بضمِّ التّاءِ[1]؛ أي: تظُنُّهم، ولم يقُلْ: يكونُ النّاسُ سُكارَى.

﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ لأنَّه مُتناقِضٌ، والسُّكرُ: اختِلاطُ العقلِ، ومنه: سَكرةُ الموتِ، وسكرةُ الحبِّ، وسكرةُ الشَّبابِ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿سَكْرَى﴾ ﴿وما هم بسَكْرَى﴾[2]، والسَّكْرَى والسُّكارَى واحدٌ، وهما جمعُ سكرانَ.

و«سَكرَى» بفتحِ السِّينِ، أمّا «سكارى» فيجوزُ فتحُ السِّينِ وضمُّها[3].

وقد قالَ قومٌ: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾، وهذا للجمعِ، ثمَّ قال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وهو للواحدِ، وهو من بابِ تلوينِ الخطابِ.

---

(١) بفتح التاء قراءة الجمهور، وبضمها نسبت لأبي هريرة وأبي زرعة كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، وزاد في «البحر» (١٥/ ٣٠٦) نسبتها لأبي نهيك، وللزعفراني وعباس في اختياره. على أن الأخيرين قرأا: (الناسُ) بالرفع، والأولين: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ بالنصب.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٣) الضم قراءة الجمهور، وقرأ بفتح السين أبو نهيك وعيسى كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

وقيلَ: (ترى) وإنْ كانت للإفرادِ فتأويلُها التَّشبيهُ؛ أي: وكأنَّ النّاسَ سُكارَى، وهو مثلُ قولِهِ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨]، اللَّفظُ لفظُ الأمرِ، وهو في الجمعِ والواحدِ والذَّكرِ والأُنثَى واحدٌ؛ لأنَّه للتَّعجُّبِ.

***

(٣) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ لـمَّا ذكرَ أهوالَ القيامةِ بيَّنَ أنَّ منَ النّاسِ مَن غفلَ عنها وأنكرَها وأشرَكَ، نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ[١].

وقيلَ: في الوليدِ بنِ المُغيرةِ وعُتبةَ بنِ ربيعةَ[٢]، وكانوا غالينَ في إنكارِ البعثِ؛ أي: يُخاصِمُ في الله ويقولُ: إنَّه غيرُ قادرٍ على البَعثِ.

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ فيمَن يُنكِرُ الصّانعَ وقُدرتَه أصلًا.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾؛ أي: هو جاهلٌ لا دليلَ معه.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾؛ أي: يتبعُ ما يُوسوِسُ إليه الشَّيطانُ من أنَّ العظمَ الرَّميمَ كيفَ يحيا، وأمثالَ هذا القولِ، وهذا الشَّيطانُ قد يكونُ من شياطينِ الجنِّ والإنسِ.

وقد كان النَّضْرُ بنُ الحارثِ يأخذُ ما يقولُ منَ الأعاجمِ والرُّومِ، وكان يأخُذُ عن اليهودِ أيضًا ما يقدَحُ به في الإسلامِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٩) عن ابن جريج، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٧٤) عن أبي مالك، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٦) عن ابن عباس، وقاله مقاتل في «تفسيره» (٣/ ١١٥).

(٢) ذكر الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٥٠) في رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿مَّرِيدٍ﴾ مُتمرِّدٍ على الله، وأصلُه: الإملاسُ، ومنه: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ [النمل: ٤٤]، فالمَريدُ: المُتمَلِّسُ منَ الخيرِ.

* * *

(٤) ـ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قضَى الله أنَّ مَن أطاعَ إبليسَ أضلَّه ولـم يُرشِدْه وصيَّره إلى عذابِ السَّعيرِ.

﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على الشَّيطانِ ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾؛ أي: اتَّبعَه وانقادَ له ﴿فَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: فأنَّ الشَّيطانَ ﴿يُضِلُّهُۥ﴾؛ أي: يُضِلُّ هذا الذي يتولَّاه.

* * *

(٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ حاجَّ هذا المُجادِلُ في الله بغيرِ علمٍ في إنكارِه القيامةَ بوجهَينِ:

أحدُهما: بابتداءِ الخلقِ.

والثَّاني: بإعادةِ النَّباتِ غضًّا بعد تناثُرِ الأوراقِ في الشِّتاءِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: كلُّ ما فـي القرآنِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكِّيٌّ، فالخطابُ لأهلِ مكَّةَ[١].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ١٥٥). وتعقب ذلك القرطبي في «تفسيره» في أول سورة النساء =

﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾؛ أي: شكٍّ من أنَّ الله يبعَثُ الموتَى للحسابِ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: فتأمَّلُوا فإنَّا نُخبِرُكم أنَّا ﴿خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يعني: آدمَ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: أولادَ آدمَ؛ أي: ابتَدَأنا خلقَهم من تُرابٍ، ثمَّ خُلِقُوا من ماءٍ مَهينٍ جمادٍ.

والنُّطفةُ: الماءُ القليلُ، يُقالُ: في الغديرِ نطفةٌ زرقاءُ؛ أي: بقيَّةُ ماءٍ صافٍ، والنَّطْفُ: القَطْرُ، ونطَفَتِ السَّحابةُ تنطُفُ، مثلَ «نصَرَ ينصُرُ»، فالماءُ الذي منه الولدُ ماءٌ يَقْطُرُ.

ثمَّ بيَّنَ أنَّه جعلَ الولدَ من نُطفةٍ، وجعلَ النُّطفةَ علَقةً، والعلَقُ: الدَّمُ الجامدُ قبلَ أن يَيْبَسَ، والقِطعةُ منه: علَقةٌ، ثمَّ جعلَ العلقةَ مُضغةً كاللَّحمِ المتجسِّد(١)، وسُمِّيَتْ مُضغةً لأنَّها بمقدارِ ما يُمضَغُ، وهذه الأطوارُ أربعةُ أشهرٍ.

وفي الخبرِ: «خلقُ أحدِكم يُجمَعُ في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا نُطفةً، ثمَّ أربعينَ يومًا علَقةً، ثمَّ أربعينَ يومًا مُضغةً، ثمَّ يُبعَثُ الملَكُ فينفُخُ فيها الرُّوحَ»(٢).

وقال ابنُ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما: يُصوَّرُ في العشرِ بعد الأشهرِ الأربعةِ، ثمَّ يُنفَخُ بعد ذلك فيه الرُّوحُ، فذلك عدَّةُ المُتوفَّى عنها زوجُها: أربعةُ أشهرٍ وعشرٌ، ثمَّ يتحرَّكُ في جوفِها فتعلمُ أنَّ فيه ولدًا(٣).

= بقوله: وأما من قال: إن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكي حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية وفيها قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في موضعين، والله أعلم.

قلت: لعله على الغالب، فغالب المواضع التي وردت فيها ﴿أيها الناس﴾ آيات مكية.

(١) في (أ): «المستجسد»، وفي (ج): «المستحشد»، والصواب المثبت.

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وليس عندهما كلمة: «نطفة»، وإنما لفظه: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك»، وعند مسلم: «ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك...».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٥٩).

﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قيلَ: المُخلَّقةُ: ما تتابعَ عليه الخلقُ، فيكونُ أوَّلًا نُطفةً، ثمَّ علقةً، ثمَّ مُضغةً، ثمَّ الخلقُ الرّابعُ، وهو نفخُ الرُّوحِ فيه.

وغيرُ المُخلَّقةِ: ما لم يُجاوِزْ أن يكونَ نُطفةً، ثمَّ يُلقيه الرَّحمنُ نُطفةً، فالتَّخليقُ منَ الخلقِ، وفيه معنى الكثرةِ، فما تتابعَ عليه الأطوارُ فقد خُلِقَ خلقًا بعد خلقٍ، وإذا كان نُطفةً فهو مخلوقٌ، ولهذا قال الله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

وقيلَ: يرجعُ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ إلى الولدِ لا إلى السِّقْطِ؛ أي: منهم مَن يُتمِّمُ الرَّبُّ صنعتَه فيخلُقُ له الأعضاءَ أجمعَ، ومنهم مَن يكونُ خديجًا ناقصًا غيرَ تامٍّ.

وقيلَ: المُخلَّقةُ وغيرُ المُخلَّقةِ صفةُ السِّقْطِ، فأمَّا ما لا تُسقِطُه المرأةُ فقد ذكرَه إذ قال:

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾؛ أي: هذه النُّطفةُ إمَّا سِقْطٌ، وإمَّا ما تلِدُه المرأةُ لوقتِ الولادةِ، فأمَّا السِّقْطُ فمُنقسمٌ، فقد تُسقِطُ المرأةُ النُّطفةَ بيضاءَ، وقد تُسقِطُ المرأةُ العلقةَ، وقد تُسقِطُ اللَّحمَ لم يظهَرْ فيه التَّخطيطُ، وقد تُسقِطُ وقد ظهرَ فيه بعضُ الصُّورةِ.

وقيلَ: غيرُ المُخلَّقةِ: السِّقْطُ، والمُخلَّقةُ: أن تلِدَ المرأةُ لتمامِ الوقتِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: المُخلَّقةُ: ما كان حيًّا، وغيرُ المُخلَّقةِ: السِّقطُ[1].

وقال في روايةٍ[2]: المُخلَّقةُ ما أُخِذَ منه الميثاقُ[3].

---

(١) رواه عنه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٥٢)، وصححه.

(٢) في (ج): «وفي رواية قال».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٦١) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾؛ أي: ما يتمُّ ولا تُسقِطُه المرأةُ، فإنَّه يُقَرُّ في الرَّحمِ إلى الأجَلِ المُقدَّرِ له.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أي: أخبَرْناكم بابتداءِ خلقِكم لنُبيِّنَ لكم قُدرتَنا على الإعادةِ، أو لنُبيِّنَ لكم ما تحتاجُونَ إليه منَ الأحكامِ.

وقولُه: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقتُ المُعتادُ أو غيرُ المُعتادِ، فتمتدُّ مُدّةُ الحملِ من ستّةِ أشهُرٍ إلى أربعِ سنينَ، وإنَّما قال: ﴿مَا نَشَآءُ﴾ ولـم يقُلْ: «مَن نشاءُ» لأنَّه يرجعُ إلى الحملِ وهو مُبهَمٌ؛ أي: ونُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ منَ الحملِ، أو منَ المُضغةِ، وهي جمادٌ فيُكنَى عنها بلفظِ «ما».

قرأ الأكثرُ: ﴿وَنُقِرُّ﴾ بالرَّفعِ، ورُوِيَ عن عاصمٍ: (ونُقِرَّ) بالنَّصبِ، وكذلك (ثمَّ نُخرِجَكم)[1]، والمعنى: لنُقِرَّ، لا أنَّه تعليلٌ، بل هو لبيانِ العاقبةِ كقولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ أي: أطفالًا، كقولِ القائلِ:

كلُـوا فـي نصـفِ بطنِكـم تعيشُـوا[2]

---

(١) هي رواية المفضل عن عاصم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦)، و«الوقف والابتداء» لابن الأنباري (٢/ ٧٨٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٦١)، و«جامع البيان» للداني (٣/ ١٣٧٦).

(٢) وعجزه:

فـإنَّ زمانكـم زَمَـنٌ خَمِيـصُ

وهو بلا نسبة في «الكتاب» (١/ ٢١٠)، و«المقتضب» (٢/ ١٧٢)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (١/ ٣١٣)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٠٧)، ورواية «الكتاب» و«الأصول»:

كلـوا فـي بعـض بطنكـم تَعِفُّـوا

وكقولِ الله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]؛ أي: ظُهَراء.

وقال المُبرِّدُ: هو اسمٌ استُعمِلَ مصدرًا كالرِّضا والعدلِ، فيقعُ على الواحدِ والجمعِ، قال الله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ [النور: ٣١](١).

وقيلَ: هو نصبٌ على التَّمييزِ، كقولِه: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]؛ أي: ثمَّ يُخرِجُ كلَّ واحدٍ منكم طِفلًا.

ثمَّ لفظُ «الطِّفلِ» يُطلَقُ من وقتِ انفصالِ الولدِ إلى البُلوغِ، ويُقالُ: «جاريةٌ طفلٌ»، و«جارِيتانِ طفلٌ»، و«جوارٍ طفلٌ»، و«غلامٌ طفلٌ»، و«غلمانٌ طفلٌ»، ويُقالُ أيضًا: طفلٌ وطفلةٌ وطفلانِ وطفلتانِ وأطفالٌ، ولا يُقالُ: طفلاتٌ.

وأطفَلَتِ المرأةُ؛ أي: صارَتْ ذاتَ طفلٍ.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: ويُعمِّرُكم لتبلُغُوا أشدَّكم.

وقيلَ: ﴿ثُمَّ﴾ زائدةٌ كالواوِ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأنَّ «ثمَّ» من حروفِ النَّسقِ كالواوِ.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، كقولِه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦ ـ ٧]؛ أي: وحِفْظًا من كلِّ شيطانٍ فعلنا ذلك، فكذلك هاهُنا؛ يعني: لتبلُغوا أشُدَّكم نُخرِجُكم طفلًا.

﴿لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: ثماني عشرةَ سنةً(٢).

وقيلَ: يُريدُ الكمالَ والقوَّةَ، وهو ما بينَ الثَّلاثينَ إلى الأربعينَ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٦٧)، وانظر: «المقتضب» (٢/ ١٧٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٦٩).

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾؛ أي: من قبلِ بلوغِ الأشُدِّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾؛ أي: أخسِّه وأدوَنِه، وهو الخرفُ حتَّى لا يعقلَ، ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذا هو الاحتجاجُ الثّاني، وفي الأوَّلِ قال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فخاطَبَ جمعًا، وفي الثّاني قال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ فخاطَبَ واحدًا، فانفصَلَ اللَّفظُ عن اللَّفظِ، ولكنَّ المعنَى مُتَّصلٌ من حيثُ الاحتجاجُ على مُنكري البعثِ.

﴿هَامِدَةً﴾؛ أي: يابسةً لا نباتَ فيها، يُقالُ: «رمادٌ هامِدٌ»؛ أي: كادَ يندَرِسُ، و«همدَ الثَّوبُ همودًا»؛ أي: بلِيَ.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾؛ أي: المطرَ ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾؛ أي: تحرَّكَتْ بالنَّباتِ ﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: ارتفعَتْ وزادَتْ.

وقيلَ: انتفَخَتْ.

وقال المُبرِّدُ: أي: اهتزَّ نباتُها(١)، فحُذِفَ المُضافُ، والاهتِزازُ في النَّباتِ أظهَرُ، وأمَّا اهتِزازُ الأرضِ وحركتُها فهي التَّشقُّقُ عن النَّباتِ.

وأصلُ «رَبا يربُو» منَ الزِّيادةِ، ومنه: الرَّبوةُ والرِّبا.

﴿وَأَنۢبَتَتْ﴾؛ أي: أخرَجتِ النَّباتَ ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾؛ أي: من كلِّ صنفٍ حسنٍ، والبَهجةُ: حُسنُ الشَّيءِ ونضارتُه، والبهيجُ بمعنى المُبهِجِ.

والأظهَرُ أنَّ قولَه: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ يرجعُ إلى الأرضِ؛ لأنَّ قولَه: (أنبتَتْ) صفةٌ للأرضِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٧٣).

(٦) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ما ذكَرْنا من تصريفِ أحوالِ الإنسانِ والأرضِ إنَّما كان كذلك لأنَّ له صانعًا حقًّا لا صانعَ غيرُه، وهو قادرٌ على الابتداءِ والإعادةِ.

و﴿ٱلْحَقُّ﴾: الموجودُ الثّابتُ.

وقيلَ: أي: ذو الحقِّ على عبادِه.

وقيلَ: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بمعنَى: المُحقُّ في أفعالِه.

وقال الزَّجَّاجُ: معناه: الأمرُ ما وُصِفَ لكم وبُيِّنَ بأنَّ الله هو الحقُّ؛ أي: لأنَّ الله هو الحقُّ، قال: ويجوزُ أن يكونَ ذلك نصبًا؛ أي: فعلَ الله ذلك بأنَّه هو الحقُّ[١].

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: وبأنَّه يُحيي الموتَى.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: وبأنَّه قادرٌ على ما أرادَ.

* * *

(٧) - ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ هو عطفٌ على قولِه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ من حيثُ اللَّفظُ، وليس عطفًا في المعنى؛ إذ لا يُقالُ: فعَلَ الله ما ذُكِرَ بأنَّ السّاعةَ آتيةٌ، بل لا بدَّ من إضمارِ فعلٍ يتضمَّنُه؛ أي: ولتعلَمُوا أنَّ الساعةَ آتيةٌ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤١٣).

(٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى﴾ يجوزُ أن يكونَ هذا إخبارًا عن قومٍ آخرينَ سوى مَن أخبرَ عنهم أوَّلًا، فالأوَّلُ إخبارٌ عمَّن أنكرَ قدرةَ الله على البعثِ، والثّاني إخبارٌ عمَّن أنكرَ الصّانعَ، أو عمَّن أنكرَ أن يكونَ القرآنُ مُنزلًا من جهتِه، أو شكَّ في نبوّةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكلُّ هذا جدالٌ في الله تعالى.

وقال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ هذه الآيةُ الثّانيةُ في أبي جهلٍ[1].

والمُعظَمُ على أنَّ الآيةَ نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ كالآيةِ الأولى، فهما في فريقٍ واحدٍ، والتَّكريرُ للمُبالغةِ في الذَّمِّ، كما تقولُ للرَّجلِ تذُمُّه وتُوبِّخُه: أنتَ فعلتَ هذا، أنتَ فعلتَ هذا.

ويجوزُ أن يكونَ التَّكريرُ لأنَّه وصفَه في كلِّ آيةٍ بزيادةٍ، فكأنَّه قال: إنَّ النَّضرَ بنَ الحارثِ يُجادِلُ في الله، ويتَّبعُ كلَّ شيطانٍ مريدٍ، والنَّضرُ بنُ الحارثِ يُجادِلُ في الله من غيرِ علمٍ ومن غيرِ هدًى وكتابٍ مُنيرٍ ليُضلَّ عن سبيلِ الله، وهو كقولِك: «زيدٌ يشتُمُني، وزيدٌ يضرِبُني»، فهو تكريرٌ مفيدٌ.

ويجوزُ أن يُقالَ: كانت مُجادلتُه في أمورٍ كلُّها جدالٌ في الله.

وقد قيلَ: نزلَتْ فيه بضعَ عشرةَ آيةً[2]، فالمُرادُ بالآيةِ الأولى: إنكارُه البعثَ، وبالثّانيةِ: إنكارُه النُّبوّةَ، أو أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ من جهةِ الله.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٧٧) من رواية عطاء عن ابن عباس، وإسناده ساقط كما تقدم غير مرة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٧٢)، عن عطاء.

وقد قيلَ: كان من قولِ النَّضرِ بنِ الحارثِ: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، فهذا أيضًا جدالٌ في الله تعالى بغيرِ علمٍ؛ أي: ليس معه حُجّةٌ ويقينٌ يَعلَمُ به صحّةَ ما يقولُ.

وقيلَ: من غيرِ علمٍ بما تَؤُولُ إليه عاقبةُ جدالِه من عذابِ الله تعالى ﴿وَلَا هُدًى﴾؛ أي: ليس معه دليلٌ ليكونَ مُهتَديًا من حيثُ النَّظرُ والاستدلالُ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾؛ أي: كتابٍ له نورٌ؛ أي: ومن غيرِ أن يشهدَ له شيءٌ من كتُبِ الله المُنزَّلةِ على الأنبياءِ، والدَّليلُ إمَّا معقولٌ وإمَّا منقولٌ، وليس معه واحدٌ منهما.

***

(٩) ـ ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾؛ أي: هو في جدالِه مُعرِضٌ عن الحقِّ وعن النَّظرِ، وهو كقولِه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان: ٧]، وقولِه: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥]، وقولِه: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣]، وقولِه: ﴿ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣].

والعِطْفُ: الجانبُ، وعِطْفا الرَّجلِ: يمينُه وشمالُه، وأصلُه منَ العَطْفِ، وهو اللَّيُّ، فالعِطْفُ: الموضعُ الذي يلوِيه الإنسانُ ويُميلُه عندَ الإعراضِ عن الشَّيءِ، ويُسمَّى الرِّداءُ: العِطافَ؛ لأنَّه يقعُ في ذلك الموضعِ.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن طاعةِ الله.

وقُرِئَ: ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفتحِ الياءِ[1]، واللّامُ لامُ العاقبةِ؛ أي: يُجادِلُ فيَضِلُّ، كقولِه:

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]؛ أي: فكانَ لهم كذلك، ونظيرُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا﴾ [الروم: ٣٣ـ ٣٤].

﴿لَهُۥ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي: هَوانٌ وذلٌّ بما يجري له من الذِّكرِ القبيحِ على ألسنةِ المُؤمنينَ إلى القيامةِ، كما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ الآية [القلم: ١٠].

وقيلَ: الخِزْيُ هاهُنا: القتلُ؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قتلَ النَّضرَ بنَ الحارثِ يومَ بدرٍ صبرًا[1].

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: نارَ جهنَّمَ.

* * *

(١٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾؛ أي: يُقالُ له في الآخرةِ إذا أُدخِلَ النّارَ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، ويحتملُ أنَّه ممَّا قيلَ له في الدُّنيا؛ أي: لك هذا الخِزْيُ في الدُّنيا والحريقُ في الآخرةِ بما قدَّمَتْ يداكَ.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: لا يضَعُ الثَّوابَ موضعَ العقابِ، ولا العقابَ موضعَ الثَّوابَ.

* * *

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٩٢)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٣)، عن سعيد بن جبير. ومعنى: (قتل صبراً) أي: قتل وهو مأسور. ولم يقتل في معركة ولا خلسة. انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (٩/ ٢١١).

(١١) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ ثمَّ أخبرَ عن أقوامٍ آخرين، وهم المُنافقون والشّاكُّونَ[١].

قال ابنُ عبّاسٍ: كان الرَّجلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإنْ ولدَتِ امرأتُه غلامًا أو حصلَ له نتاجُ خيلِه قال: هذا دينٌ صالحٌ، وإنْ لـم يحصُلْ له مقصودُه قال: هذا دينُ سوءٍ[٢].

فقولُه: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: على شكٍّ، وحرفُ الشَّيءِ: طرَفُه.

وقيلَ: على انتظارٍ لِـمَا يكونُ.

وقيلَ: على انحرافٍ.

والكلُّ يرجعُ إلى معنًى واحدٍ.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾؛ أي: رخاءٌ ونعمةٌ وكثرةُ مالٍ.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: اختبارٌ بجَدْبٍ[٣] وشدّةٍ وفقرٍ.

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾؛ أي: رجعَ إلى دينِه الأوَّلِ وكُفرِه.

وقيلَ: الوجهُ: الطَّريقُ؛ أي: عادَ إلى طريقِه الأوَّلِ في الكفرِ، والفتنةُ: الاختبارُ، وقد تكونُ بالنِّعمةِ والشِّدّةِ، والغرضُ هاهُنا الشِّدّةُ؛ أي: خالِفُوا هؤلاءِ الذين وصَفْناهم واعبُدوا الله مُطمئِنِّين إليه، واثِقين به، عالِـمينَ بأنَّ له أن يتصرَّفَ في عبيدِه بما يُريدُ،

---

(١) في (ج): «الشاكون».

(٢) رواه البخاري (٤٧٤٢).

(٣) في (ج): «بحرث».

وإن تردَّدتُم في هذا فالقيامةُ بينَ أيديكم، وزلزلةُ السّاعةِ شيءٌ عظيمٌ، وحينَئذٍ يظهرُ[١] المُطيعُ والعاصي.

وقال الحسَنُ في هذه الآيةِ: هو المُنافقُ يعبُدُ الله بلسانِه دونَ قلبِه، فهو معنى ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾[٢].

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾؛ أي: هذا الذي يعبُدُ الله على حرفٍ لا يتحقَّقُ له دينٌ، ولا تبقَى له الدُّنيا؛ لأنَّها إلى زوالٍ، فقد خسِرَ الدُّنيا والآخرةَ.

***

(١٢) - ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾؛ أي: هذا الذي يرجعُ إلى الكفرِ يعبُدُ الصَّنَمَ الذي لا ينفعُ ولا يضرُّ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾؛ أي: الذَّهابُ عن الرُّشدِ؛ لأنَّه أتعبَ نفسَه فيما لا نفعَ فيه، بل كلُّه ضررٌ، فهو أقصَى درجاتِ الضَّلالِ.

***

(١٣) - ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾؛ أي: يعبُدُ هذا الذي انقلَبَ على وجهِه مَن ضرُّه أدنَى من نفعِه؛ أي: ضرُّه في الآخرةِ أكبرُ[٣]؛ لأنَّه بعبادتِه يَدخلُ النّارَ، ولم يرَ منه نفعًا أصلًا، ولا نفعَ في عبادةِ الصَّنَمِ، ولكنَّه قال: ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ

---

(١) بعدها في (ج): «جزاء».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٠٦).

(٣) في (ج): «أكثر».

مِن نَّفۡعِهِۦ﴾؛ ترفيعًا للكلامِ؛ كقولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقيلَ: الكافرُ يتعبُ في عبادةِ الصَّنمِ(١) ناجزًا، ويتوهَّمُ أنَّه يشفعُ له غدًا، فالنَّفعُ مُتوهَّمٌ، ثمَّ يتبيَّنُ غدًا أنَّ الجمادَ لا يشفعُ ولا ينفعُ، فلهذا قال: ﴿من ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ وإنْ لـم يكُنْ ثمَّ يقعُ أصلًا.

وقولُه: ﴿لَمَن﴾ قال الزَّجَّاجُ والفرَّاءُ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: يدعو مَن لضرُّه أقربُ من نفعِه(٢).

وذكرَ الزَّجَّاجُ قولًا آخرَ فقال: أي: ذلك هو الضَّلالُ البعيدُ يدعوه؛ أي: في حالِ دُعائِه إيّاه، ففي «يدعو» هاءٌ مُضمَرةٌ، وقولُه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مرفوعٌ بالابتداءِ، وخبرُه: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾، وهذا لأنَّ اللّامَ لليمينِ والتَّوكيدِ، فحقُّها أوَّلُ الكلامِ(٣).

وتكلَّمَ أبو عليٍّ على القولَينِ بكلامٍ طويلٍ(٤).

وذكرَ الزَّجَّاجُ قولًا ثالثًا فقال: ﴿يدعو﴾ بمعنى: «يقولُ»، وهو في موضعِ رفعٍ والخبرُ محذوفٌ(٥)؛ أي: يقولُ لمن ضرُّه أقربُ من نفعِه: معبودي وإلـهي، والكافرُ الذي يقولُ: الصَّنمُ معبودي؛ لا يقولُ: ضرُّه أقرَبُ من نفعِه، ولكنَّ المعنَى: يقولُ

---

(١) بعدها في (أ): «ولكنه قال: ضره أقرب من نفعه»، ولعله سهو من الناسخ بالنظر للسطر الذي قبله.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤١٥).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤١٥ ـ ٤١٦).

(٤) انظر: «الإغفال» لأبي علي الفارسي (٢/ ١٥٠٦) وما بعدها.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤١٦).

الكافرُ: لمن ضرُّه أقربُ من نفعِه في قولِ المسلمينَ معبودي وإلهي، وهو كقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]؛ أي: يا أيُّها الساحرُ عند أولئِكَ الذين يدعُونَكَ ساحرًا.

قال الزَّجَّاجُ: ويحتملُ أن يكونَ ﴿يدعُو﴾ بمعنَى: يُسمِّي[١]، تقولُ: «دعَوتُه زيدًا»؛ أي: سمَّيتُه زيدًا، وقولُه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللّامُ دخلَتْ على الابتداءِ.

قال أبو عليٍّ: قد يرِدُ الدُّعاءُ بمعنى التَّسميةِ، ولكنَّه لا ينتظمُ هاهُنا؛ لأنَّه لا يُقالُ: «يُسمَّى لَزيدٌ أعلَمُ من فلانٍ».

قال الزَّجَّاجُ: وفيه وجهٌ خامسٌ، وهو أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في محلِّ النَّصبِ بوقوعِ ﴿يدعو﴾ عليه، ومعناه الذي؛ أي: الذي هو الضَّلالُ البعيدُ يدعو، ثمَّ قولُه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ كلامٌ مُبتدأٌ، و﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ خبرُ المُبتدأ، واللّامُ فيه لامُ اليمينِ[٢].

وتقديرُ الآيةِ على هذا: يدعُو الذي هو الضَّلالُ البعيدُ، ثمَّ قُدِّمَ المفعولُ وهو «الذي»، كما تقولُ: «زيدًا يضرِبُ»، واستحسَنَه أبو عليٍّ.

وقال أيضًا: يجوزُ أن يُجعَلَ ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ تكرارًا للفعلِ الأوَّلِ على جهةِ تكثيرِ هذا الفعلِ الذي هو الدُّعاءُ، ولا تُعدِّيه إذ قد عدَّيتَه مرّةً؛ أي: يدعُو من دونِ الله ما لا ينفعُه ولا يضرُّه يدعو، فتُرِكَ إعمالُ الثّاني؛ لأنَّها قد أُعمِلَتْ مُتقدِّمةً، كما تقولُ: «ضربتُ زيدًا ضربْتُ»، وقولُه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأٌ، و﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ خبرُ المُبتَدأ.

وقال الفرَّاءُ والقَفَّالُ: يدعُو مَن ضرُّه أقرَبُ من نفعِه. وهكذا قراءةُ عبدِ الله، ولا يُقالُ: «رأيتُ لَزيدًا»، ولكنْ جازَ ذلك هاهُنا لأنَّ «مَن» حرفٌ لا يتبيَّنُ فيه الإعرابُ،

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤١٦).

(٢) المصدر السابق.

فجُوِّزَ إدخالُ اللّامِ عليه، وقد تقولُ العربُ: «عندي لَـما غيرُه خيرٌ منه»؛ أي: عندي ما لَغيرُه خيرٌ منه، و: يدعو مَن لَضرُّه أقرَبُ[1].

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾؛ أي: في التَّناصُرِ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾؛ أي: المُعاشِرُ والصّاحبُ، والعشيرةُ قومٌ ينتسِبُون إلى أبٍ واحدٍ، وبُرمةٌ أعشارٌ؛ لأنَّها كسورٌ عن أصلٍ واحدٍ.

* * *

(١٤) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ لمَّا ذكرَ حالَ المُشركينَ وحالَ المُنافقينَ والشّاكِّينَ ذكرَ حالَ المُؤمنينَ أيضًا في الآخرةِ؛ أي: يُدخِلُهم الجنّاتِ، ووصفَها بغايةِ النُّزهةِ، وأنَّها تجري من تحتِها الأنهارُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ أي: يُثيبُ مَن يشاءُ، ويُعذِّبُ مَن يشاءُ، فللمُؤمنين الجنّةُ بحُكمِ وعدِه وبفضلِه؛ لأنَّ فعلَ الرَّبِّ تعالى مُعلَّلٌ بفعلِ العبيد.

* * *

(١٥) - ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ فيه قولانِ:

أحدُهما: أنَّ الكنايةَ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ ترجعُ إلى محمَّدٍ ﷺ، وهو وإنْ لـم يجرِ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١٧)، وعنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٠٣). ووقعت العبارة الأخيرة في (أ) و(ج): «يدعو لمن لضره أقرب»، وهو خطأ فقد صرح الفراء بقوله: «وموقع اللام كانَ ينبغي أن يكون في ﴿ضَرُّهُۥ﴾».

له ذِكرٌ هاهُنا فجميعُ الكلامِ دالٌّ عليه؛ لأنَّ الإيمانَ هو الإيمانُ بالله وبمُحمَّدٍ، والانقلابُ عن الدِّينِ انقِلابٌ عن الدِّينِ الذي أتى به محمَّدٌ ﷺ؛ أي: مَن كان يظُنُّ ممَّن يُعادي محمَّدًا وممَّن يعبُدُ الله على حرفٍ أنّا لا ننصرُ محمَّدًا فليفعَلْ كذا وكذا، وعلى هذا فقولُه:

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: بحبلٍ، والسَّببُ: ما يُتوَصَّلُ به إلى الشَّيءِ، والسَّماءُ: السَّقفُ؛ لأنَّ كلَّ ما علاكَ فأظلَّكَ يُسمَّى سماءً؛ أي: فليشدُدْ حبلًا في سقفِه ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾؛ أي: ثمَّ ليختَنِقْ غيظًا، فهل ينفعُه ذلك؟

وفي قراءةِ عبدِ الله: (فلْيَقْطَعْه)[1]؛ أي: ليقطعِ السَّببَ؛ أي: الحبلَ، وقطعُه بجَذْبِه إيّاه حتى ينقطعَ فيموتَ اختناقًا.

وقيلَ: فليمدُدْ بحبلٍ إلى السَّماءِ إنْ أمكنَه، وإذا لم يُمكِنْه الامتِدادُ بحبلٍ إلى السَّماءِ فتقديمُ ما أخَّرَه الله، أو تغييرُ ما وقَّتَه بوقتٍ، أو إهانة مَن أكرمه= متعذِّرٌ أيضًا.

وقال القفَّالُ: فَلْيمدُدْ حبلًا إلى السَّماءِ التي من قِبَلِها يأتيه الوحيُ والنُّصرةُ والنُّبوّةُ، ثمَّ ليقطَعْ على النَّبيِّ ﷺ ما يأتيه منَ السَّماءِ، ولينظُرْ هل يتهيَّأُ له هذا حتَّى يذهبَ غيظُه، فإذ لم يُمكِنْه هذا فليُؤْمِنْ به وليتجَرَّعْ ما يغيظُه.

وقيلَ: فليشدُدْ حبلًا في السَّقفِ وليقطَعْ نَفَسَه بذلك بأن يختنقَ به.

وقيلَ: أي: مَن ظنَّ أنَّ الله لا ينصُرُ محمَّدًا فليقتُلْ نفسَه بالخنقِ حتَّى يصِلَ بذلك إلى العِلمِ الحقيقيِّ بعد الموتِ بأنَّه يُنصَرُ، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢١٨)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٠٩)، بلفظ: «ثم ليقطعه».

﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]. **وفي هذا بُعدٌ**؛ إذ ليس للقتلِ بالخنقِ دونَ سببٍ آخرَ تأثيرٌ في هذا.

والقولُ الثّاني: أنَّ الهاءَ في قولِه: ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ كنايةٌ عن ﴿مَن﴾؛ أي: مَن كان يظُنُّ أنْ لن ينصُرَه الله ولن يرزُقَه ويبقَى أبدًا مقهورًا وكان آيسًا من رحمةِ الله فليختَنِقْ فلينظُرْ هل ينفَعُه ذلك؟ وليس هذا أمرَ تكليفٍ، بل هو بيانُ أنَّه لا حيلةَ له.

﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾؛ أي: غيظَه، و﴿مَا﴾ مع الفعلِ المُضارعِ بمعنَى المصدرِ.

وقيلَ: ﴿مَا﴾ بمعنى «الذي»؛ أي: هل يُذهِبَنَّ كيدُه الذي يغيظُه.

قُرِئَ: ﴿ثمَّ لِيقطَعْ﴾ بكسرِ اللّامِ، وقُرِئَ بسكونِ اللّامِ[1].

***

(١٦) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: القرآنَ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: لأهلِ التَّوحيدِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾؛ أي: وأنزَلْنا القرآنَ بأنَّ الله يهدي مَن يُريدُ، فالمدارُ على الإرادةِ.

***

(١٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: بالله وبمحمَّدٍ ﷺ.

---

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام، وباقي السبعة بسكونها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٤ـ٤٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم المُنتَسِبُونَ إلى ملَّةِ موسى.

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ هم قومٌ يعبُدونَ النُّجومَ.

﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ هم المُنتَسِبُونَ إلى ملّةِ عيسى.

﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم عبَدةُ النِّيرانِ.

ثمَّ قيلَ: المجوسُ في الأصلِ: «النَّجوسُ» لتَدَيُّنِهم باستعمالِ النَّجاساتِ، والنُّونُ والميمُ يتعاقَبانِ، كالغَيمِ والغَينِ، والأيمِ والأينِ.

قال الأزهريُّ: هو مُعرَّبٌ، وأصلُه: «منج كوش»، وكان أوَّلَ مَن دانَ بدينِ المجوسِ رجلٌ صغيرُ الأذنَينِ فعرَّبَته العربُ وقالَتْ: «مجوس».

وربَّما تركتِ العربُ صرفَ «مجوس» تشبيهًا بالقبيلةِ، وذلك لاجتماعِ التَّأنيثِ والعُجمةِ، فتقولُ: «قالت مجوسُ كذا»، ويُقالُ: «تمَجَّسَ الرَّجلُ»؛ أي: دانَ بالمجوسيّةِ، و«مجَّسَه غيرُه»[١].

﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم العربُ عبَدةُ الأوثانِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: يقضي، فقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وهذا الفصلُ بينَهم غدًا بأن يُدخِلَ المؤمنَ الجنّةَ والكافرَ النّارَ، ولهذا قال بعدَ هذا: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾.

وقيلَ: هذا الفصلُ بأن يُعرِّفَهم المُحِقَّ والمُبطِلَ بمعرفةٍ ضروريّةٍ، واليومَ يتميَّزُ المُحِقُّ عن المُبطِلِ بالنَّظرِ والاستدلالِ.

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ٣١٧-٣١٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: كلِّ شيءٍ من أعمالِ هؤلاءِ، فمعنَى الشَّهادةِ هاهُنا: العلمُ، وأصلُ الشَّهادةِ: الحضورُ؛ أي: هو حاضرُ كلِّ شيءٍ يعلَمُه فلا يعزُبُ عنه شيءٌ.

* * *

(١٨) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾؛ أي: ألَـم تعلَمْ، والمُرادُ: رُؤيةُ القلبِ، ومعنى سجودِ هذه الأشياءِ: دلالتُها على وحدانيّةِ الله تعالى؛ إذ كلُّ مخلوقٍ يحتاجُ إلى مُوجِدٍ يُوجِدُه.

وقال المُفسِّرونَ: سجودُ هذه الأشياءِ سجودُ ظلِّها، كقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، ويرجعُ هذا أيضًا إلى نُفوذِ قُدرتِه في كلِّ شيءٍ.

وقيلَ: أي: كلُّ مخلوقٍ فهو بحيثُ لو تأمَّلَه العاقلُ علمَ به أنَّ له خالقًا له أن يتعبَّدَ بالسُّجودِ، فكلُّ شيءٍ يدعو العارِفين إلى السُّجودِ لله تعالى والاعترافِ به، ويرجعُ هذا أيضًا إلى قريبٍ مـمَّا تقدَّمَ.

وقال أبو العاليةِ: ما في السَّماواتِ نجمٌ ولا قمرٌ ولا شمسٌ إلّا يقعُ ساجدًا لله حتَّى يغيبَ، ثمَّ لا ينصرفُ حتَّى يُؤذَنَ له، فيرجعُ من مطلعِه[1]، وورَدَ هذا في خبرِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٨٧).

مُسنَدٍ في حقِّ الشَّمسِ[1]، فهذا سجودٌ حقيقيٌّ، ومن ضرورتِه تركيبُ الحياةِ والعقلِ في هذا السّاجدِ.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: المُؤمنينَ.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ قيلَ: الفريقانِ منَ السّاجدينَ، فالمُؤمنُ يسجُدُ بالبدَنِ، ومن حيثُ الدّلالةُ، والكافرُ من حيثُ الدّلالةُ، وهو الذي حقَّ عليه العذابُ.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ في الجنّةِ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

وقيلَ: إنَّما ينقطعُ ذكرُ السّاجدينَ عندَ قولِه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: يسجُدُ لله الشَّمسُ والقمرُ والشَّجرُ والدَّوابُّ وكثيرٌ منَ النّاسِ، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: بامتناعِه عن السُّجودِ الاختياريِّ، فهؤلاءِ غيرُ داخلينَ في جملةِ السّاجدينَ، وعلى هذا فالوقفُ على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قولِه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾؛ أي: مَن أهانَه بالشَّقاءِ والكفرِ لا يقدرُ أحدٌ على دفعِ الهوانِ عنه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي مَن تهاوَنَ بعبادةِ الله تعالى صارَ إلى النّارِ[2]، وتهاوُنُه بعبادةِ الله من إهانةِ الله إيّاه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: لا اعتِراضَ لأحدٍ عليه.

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ولفظ البخاري: «كنت مع النبي - ﷺ - في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٢٨).

(١٩) ـ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ يعني: مَن سبقَ ذِكرُه منَ الفريقَينِ المُؤمنِ والكافرِ؛ أي: كلُّ فريقٍ يدَّعي أنَّه المُحِقُّ، ويظهرُ التَّميُّزُ بالضَّرورةِ بين المُحِقِّ والمُبطِلِ غداً، فيُعاقِبُ الله الكافرَ ويُثيبُ المُؤمنَ.

قال أبو ذرٍّ: نزلَتْ في هؤلاءِ السِّتَّةِ: حمزةَ، وعُبيدةَ بنِ الحارثِ، وعليِّ بنِ أبي طالبٍ، وعُتبةَ، وشيبةَ، والوليدِ، وهم الذين تبارَزُوا يومَ بدرٍ(١).

وقيلَ: نزلَتْ في الخصومةِ في البعثِ، إذ قال به قومٌ، وأنكرَه قومٌ.

وقيلَ: في اليهودِ والنَّصارَى مع المُسلمينَ، فقال أهلُ الكتابِ: نحنُ أسبَقُ إيمانًا، وقال المسلمونَ: نحنُ آمنَّا بجميعِ الأنبياءِ وأنتُم آمنتُم بالبعضِ(٢).

وإنَّما قال: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ لأنَّ كلَّ فريقٍ جمعٌ، وهو كقولِه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]، ولو قال: «اختَصَما» لجازَ.

﴿فِى رَبِّهِمْ﴾؛ أي: في دينِ ربِّهم، فقال كلُّ فريقٍ: نحنُ أولَى بالله منكم.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: منَ الفِرَقِ الذين تقدَّمَ ذِكرُهم ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ أي: خِيطَتْ وسُوِّيَتْ، وشُبِّهَتِ النّارُ بالثِّيابِ لأنَّها لباسٌ لهم كالثِّيابِ، فقولُه: ﴿قُطِّعَتْ﴾؛ أي: تُقَطَّعُ لهم في الآخرةِ ثيابٌ من نارٍ، وذُكِرَ بلفظِ الماضي لأنَّ ما كان من أخبارِ الآخرةِ فالموعودُ منه كالواقعِ المُحقَّقِ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ أي: يقولُ الله: ﴿يَٰعِيسَى﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٩٦٩)، ومسلم (٣٠٣٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٩١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ويحتملُ أن يُقالَ: قد أعَدْتُ الآنَ تلك الثِّيابَ لهم ليلبِسُوها إذا صارُوا إلى النّارِ.

وقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: تلك الثِّيابُ من نُحاسٍ قد أُذيبَ(١)، وهي السَّرابيلُ المذكورةُ من قَطِرانٍ.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾؛ أي: الماءُ الحارُّ المغليُّ بنارِ جهنَّمَ، و«أحمَّ الرَّجلُ نفسَه»؛ أي: غسَلَها بالماءِ الحارِّ، و«استَحَمَّ»؛ أي: اغتَسَلَ بالحميمِ، ومنه: الحمَّامُ، ومنه: المِحَمُّ، وهو الإناءُ الذي يُسَخَّنُ فيه الماءُ.

وفي الخبرِ: «إنَّ الحميمَ ليُصَبُّ فوقَ رؤوسِهم فينفذُ في الجمجمةِ حتى يخلصَ إلى جوفِه، فيسلُتُ ما في جوفِه حتَّى يبلُغَ قدمَيه، وهو الصَّهرُ، ثمَّ يُعادُ كما كانَ»(٢).

وقال ابنُ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما: لو سقَطَتْ منه نقطةٌ على جبالِ الدُّنيا لأذابَتْها(٣).

***

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾؛ أي: تُذابُ إذابةَ الشَّحمِ، والصَّهرُ: إذابةُ الشَّحمِ، والصُّهارةُ: ما ذابَ منه.

وقيلَ: الجلودُ لا تُذابُ، ولكنْ يُضَمُّ في كلِّ شيءٍ ما يليقُ به؛ أي: يُصهَرُ به ما في بطونِهم وتُحرَقُ جلودُهم، وهو كما تقولُ: «أتيتُه فأطعَمَني ثريدًا، إي والله ولبنًا قارِصًا»؛ أي: وسقاني لبنًا.

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ هذا كقولِك: «له عندي ضربٌ شديدٌ»، والمقمعةُ تُشبهُ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨١).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٢)، وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٣٣).

الجُرْزَ منَ الحديدِ يُضرَبُ بها الرَّأسُ، والجمعُ: «مقامِعُ»، وهي من «قمَعْتُ رأسَه»؛ أي: ضربتُه ضربًا عنيفًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: أي: زبانيةُ جهنَّمَ تقمَعُهم بمقامعِ الحديدِ إذا أرادُوا الخروجَ من جهنَّمَ(١).

وقيلَ: المقامعُ: المطارِقُ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا ﴾؛ أي: منَ النّارِ ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالضَّربِ بالمقامعِ.

وقيلَ: المقامعُ تثقُبُ رُؤوسَهم فيُصَبُّ فيها حينَئذٍ الحميمُ.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾؛ أي: وتقولُ الزَّبانيةُ لهم: «ذُوقُوا»، ومعنى الذَّوقِ هاهُنا: المُقاساةُ، والحريقُ: الاسمُ منَ الاحتراقِ.

* * *

(٢٣) ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ ﴾ ذكرَ حكمَ أحدِ الخصمَينِ وهو الكافرُ، ثمَّ ذكرَ حالَ المُؤمنِ.

﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾ الأساوِرُ: جمعُ «أسوِرةٌ»، والأسوِرةُ:

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٣٦).

جمعُ «سِوارٍ»، وقال في سورةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، فقيلَ: يُحلَّونَ أساوِرَ الذَّهبِ والفضّةِ جميعًا.

وقيلَ: يُحلَّى البعضُ بهذا، والبعضُ بذاك.

وقيلَ: يُحلَّى النِّساءُ بالذَّهبِ، والرِّجالُ بالفِضّةِ.

﴿ولُؤْلُؤٍ﴾ وهو ما يُستَخرَجُ منَ البحرِ من جَوفِ الصَّدف، والمُرادُ: ترصيعُ السِّوارِ باللُّؤلؤِ، ولا يبعُدُ أن يكونَ في الجنّةِ سِوارٌ من لُؤلُؤٍ مُصمَتٍ.

وقيلَ: يُحلَّونَ بأساوِرَ، ويُحلَّونَ باللُّؤلؤِ.

وقُرِئَ: ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ بالنَّصبِ[1]؛ أي: يُحلَّونَ ذهبًا ولؤلؤًا.

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾؛ أي: ثيابُ الإبريسمِ، وهذا الحريرُ من حريرِ الجنّةِ، وهو أغلى مـمَّا في الدُّنيا بكثيرٍ.

* * *

(٢٤) - ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: أُرشِدُوا إلى ذلك.

قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ: لا إلهَ إلّا اللهُ، والحمدُ لله[2].

وقيلَ: إلى القرآنِ.

ثمَّ قيلَ: هذا في الدُّنيا هُدُوا إلى الشَّهادةِ وقراءةِ القرآنِ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ أي: إلى صراطِ الله، فهو حميدٌ بمعنَى أنَّه محمودٌ، وصراطُ الله دينُه، وهو الإسلامُ.

---

(١) هي قراءة نافع وعاصم، وباقي السبعة بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٥)، و«التيسير» (٦/ ٧٥).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٣٩).

وقيلَ: هُدُوا في الآخرةِ إلى الطَّيِّبِ منَ القولِ، وهو الحمدُ لله؛ لأنَّهم يقولون غدًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وليس في الجنّةِ لغوٌ ولا كذبٌ، فما يقولونَه فهو طيِّبُ القولِ، وقد هُدُوا في الجنّةِ إلى صراطِ الله؛ إذ ليس في الجنّةِ شيءٌ من مُخالفةِ أمرِ الله.

وقيلَ: الطَّيِّبُ منَ القولِ: ما يأتيهم منَ الله منَ البشاراتِ ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ أي: إلى طريقِ الجنّةِ.

* * *

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عادَ الكلامُ إلى مُشرِكي العربِ.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: والصَّدُّ عن سبيلِ الله منهم دائمٌ، فكأنَّه قال: إنَّ الذين كفروا مِن شأنهم الصدُّ، ولو قال: إنَّ الذين كفروا وصَدُّوا لجاز، وقيلَ: إنَّ الذين كفروا فيما مضَى وهم يصُدُّونَ مع ما تقدَّمَ من كُفرِهم.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: جعَلْناه للنّاسِ للصَّلاةِ والطَّوافِ والعبادةِ، وهو كقولِه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦].

﴿سواءٌ العاكِفُ فيهِ والبَادِي﴾؛ أي: لا فضلَ لأحدٍ على غيرِه، وليس للعاكفِ ـ وهو المُقيمُ ـ أن يمنَعَ الباديَ ـ وهو الطّاري ـ من موضعٍ آخرَ.

والآيةُ تعجيبٌ للعبادِ من تجاسُرِهم على المنعِ منَ العبادةِ في موضعٍ جعلَه الله هكذا.

وقيلَ: أرادَ بالمسجدِ هاهُنا: كلَّ الحرمِ.

وعلى هذا قال قومٌ: النّاسُ سواءٌ في منازلِ مكّةَ ينزلونَ حيثُ شاؤُوا، غيرَ أنّه لا يُخرَجُ أحدٌ من بيتِه؛ لسبقِه إليه، هذا مذهبُ ابنِ عبّاسٍ وابنِ جُبَيرٍ وجماعةٍ[١]، فيحرُمُ عندَهم كِراءُ دورِ مكّةَ وبيعُها؛ لقولِه: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، فأرضُ مكّةَ شرَّفَها اللهُ تعالى لا تُملَكُ كالمساجدِ التي مَن سبَقَ إليها كانَ أولى بالمكانِ لسبقِه لا لملكِه[٢]، وكالمُباحاتِ التي مَن سبَقَ إليها كانَ أولى بها.

واستدلَّ هؤلاءِ على أنَّ المسجدَ الحرامَ جميعُ الحرَمِ بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وأرادَ به الحرمَ.

وقال قومٌ: هذه التَّسويةُ ترجعُ إلى تعظيمِ البيتِ واحترامِ الحرمِ؛ أي: يستوي فيه العاكفُ والبادي، وإنْ كانت أرضُ الحرمِ مملوكةً لملّاكِها، وهذا قولُ مَن أجازَ بيعَ دُورِ مكّةَ، وهو مذهبُ الشّافعيِّ رحمه الله.

وقد تمسَّكَ الشّافعيُّ على إسحاقَ الحنظليِّ في هذه المسألةِ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ فأضافَ إليهم[٣].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٠١) عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وغيرهم.

(٢) في (ج): «لا يملكه».

(٣) وذلك في مناظرة جرت بينهما، وروى قصة هذه المناظرة: الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٢٩ - ٣٣٢)، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٨/ ٢١٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٨٢)، وفي آخرها عندهما قول إسحاق: «فلما علمت أن الحجة قد لزمتني قمت». وذكر القصة ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية، وقال: إنها حصلت في مسجد الخيف، والإمام أحمد حاضر معهم.
قال أبو حفص النسفي - وهو من أئمة الحنفية - في «التيسير في التفسير» (١٠/ ٤٨٧): وفي جواز بيع أراضي مكةَ عن أبي حنيفة رحمه الله روايتان، قال في «الجامع الصغير»: «لا يجوز». وروى ابن زياد عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه يجوز، وهو قول أبي يوسف. =

وقال ابنُ عبّاسٍ: قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يومَ الفتحِ: «مَن أغلَقَ بابَه فهو آمنٌ، ومَن دخلَ دارَ أبي سُفيانَ فهو آمنٌ»[1]، وقال: «وهل ترَكَ لنا عقيلٌ من رَبْعٍ؟»[2].

﴿سواءٌ﴾ بالرَّفعِ؛ لأنَّه خبرُ ابتداءٍ مُقدَّمٍ؛ أي: العاكفُ والبادي فيه سواءٌ.

وقرأ حفصٌ ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصبِ[3] فأُعمِلَ المصدرُ عملَ اسمِ الفاعلِ، ورُفِعَ ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ به كما يُرفَعُ بـ«مُستَوي» لو قلتَ: «مُستَوِيًا فيه العاكفُ والبادي».

وقُرِئَ: ﴿والبادي﴾ بالياءِ، وقُرِئَ من غيرِ ياءٍ[4].

﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾؛ أي: في المسجدِ الحرامِ بظُلمٍ ومعصيةٍ فإنِّي أُذيقُه من عذابٍ أليمٍ، وهذا وعيدٌ للمُشركينَ؛ أي: في المسجدِ الحرامِ.

= ونصُّ كلام «الجامع»: «ولا بأس ببيع بناء بيوت مكة ويكره بيع أرضها»، وجاء في شرحه: «قوله: ويكره بيع أرضها، هذا عند أبي حنيفة، وعندهما لا بأس ببيع أرضها أيضاً لأنها مملوكة لهم كالبناء، ولأبي حنيفة: أن مكة حرة محرمة بالنص فلا يجوز بيعها». انظر: «الجامع الصغير وشرحه النافع الكبير» (ص: ٤٨١). وانظر قول ابن زياد في «عيون المسائل» للسمرقندي (ص: ٢٦٧).

قال النسفي: والسلف مختلِفون في جواز بيع بيوت مكة وإجارتها، وكانت بيوت مكة لا يُتخذ بها أبوابٌ حتى ظهرت السرقة فيهم، فقال عمر لرجل منهم ـ وهو أول مَن اتَّخذ باباً ـ: أتَّخذتَ باباً لتحتجِب به؟ فقال: لا، ولكنْ أحرزتُ المتاع عن السرقة، فقال له: إنه لا يحل لأهل مكة أن يأخذوا أجور بيوتهم.

وروى خبر عمر بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٠١).

(١) ورواه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٢٨٢)، ومسلم (١٣٥١)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٤) أثبت الياء في الوصل أبو جعفر وأبو عمرو وورش، وأثبتها في الحالين ابن كثير ويعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٧).

والإلحادُ: تحريفُ الشَّيءِ وإمالتُه عن حقيقتِه؛ أي: مَن أمالَ المسجدَ الذي جُعِلَ للنّاسِ على غيرِ[1] هذا الحكمِ فصَدَّ عنه وأشرَكَ به ظالِـمًا واضِعًا الشَّيءَ غيرَ موضعِه، فهو مُستحِقٌّ للعقابِ[2].

والإلحادُ في الحرمِ قيلَ: الشِّركُ.

وقيلَ: القتلُ.

وقيلَ: استحلالُ الحرامِ.

وقيلَ: احتِكارُ الطَّعامِ.

واللَّفظُ عامٌّ في جميعِ المعاصي، ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ الإرادةَ للذَّنبِ في الحرمِ يُستَحَقُّ بها العذابُ كما يُستَحَقُّ بالعملِ، وإن اختَلَفا في العقوبةِ.

وقد صارَ قومٌ إلى هذا في الحرمِ وغيرِه، وقالوا: الهمُّ بالذَّنبِ ذنبٌ.

وقال قومٌ: مَن همَّ بذنبٍ فإنْ عمِلَه كُتِبَ عليه، وإنْ لم يعمَلْه لم يُكتَبْ عليه بالهمِّ شيءٌ، وقد ورَدَ فيه أخبارٌ هكذا، فعند هؤلاءِ: الحرمُ مخصوصٌ بأنَّ الهمَّ فيه بالذَّنبِ يُكتَبُ على صاحبِه لحرمةِ الحرمِ، ولهذا يُضاعَفُ ثوابُ الحسناتِ فيه.

وقيلَ: الإلحادُ المذكورُ في هذه الآيةِ يختصُّ باستحلالِ محظوراتِ الإحرامِ والحرمِ، والباءُ في قولِه: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ زائدةٌ؛ أي: ومَن يُرِدْ فيه إلحادًا بظُلمٍ.

* * *

(١) في (ج): «عن» بدل: «على غير».

(٢) في (ج): «للعذاب».

(٢٦) ـ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ ذكرَ صدَّ المُشركينَ للمُسلمينَ عن البيتِ الحرامِ وإلحادَهم فيه بالظُّلمِ، ثمَّ ذكرَ شأنَ البيتِ، وهو ما أُمِرَ به إبراهيمُ عليه السَّلامُ من بنائِه والتَّأذينِ بجميعِ[1] النَّاسِ منَ الآفاقِ لإقامةِ مناسكِ الحجِّ.

وكانت قريشٌ تفتخرُ بالبيتِ، ويرَونَ أنفُسَهم أخصَّ به، فعجَّبَ النَّاسَ من تدنيسِهم للبيتِ بوضعِ الأصنامِ حولَه، وعبادتِهم الأصنامَ فيه بعدَ أمرِ الله إبراهيمَ عليه السَّلامُ بتطهيرِه منَ الأدناسِ للطّائفينَ والعاكفينَ والقائمينَ.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾؛ أي: واذكُرْ إذ بوَّأنا، يُقالُ: «بوَّأْتُه منزلًا»، و«بوَّأْتُ له منزلًا»، كما يُقالُ: «مكَّنتُكَ» و«مكَّنتُ لك»، فاللّامُ صلةٌ للتَّوكيدِ كقولِه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢].

وقال الزَّجّاجُ: أي: جعَلْنا مكانَ البيتِ مُبوَّءًا لإبراهيمَ[2]، فاللّامُ من صلةِ معنى ﴿بَوَّأْنَا﴾ لا من صلةِ لفظِه.

وقيلَ: ﴿بَوَّأْنَا﴾؛ أي: بيَّنّا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ[3]، وذلك لأنَّ الله تعالى بعثَ سحابةً على قَدْرِ البيتِ، فيها رأسٌ يتكلَّمُ له لسانٌ وعينانِ، فقامَتْ بحيالِ البيتِ فقالت: يا إبراهيمُ، ابنِ على قَدْري[4].

---

(١) في (ج): «لجميع».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٢٢).

(٣) في (ج): «مكان البيت لإبراهيم».

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٥٦)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٥٦)، عن الكلبي.

وقيلَ: بعَثَ الله ريحًا خَجُوجًا[1] فكنسَتْ لإبراهيمَ ما حولَ البيتِ عن الأساسِ الأوَّلِ الذي كان البيتُ عليه قبلَ أن رُفِعَ وقتَ الطُّوفانِ[2].

وقيلَ: الذي رُفِعَ قبلَ الطُّوفانِ هو البيتُ المعمورُ في السَّماءِ، فهؤلاءِ يقولون: كان البيتُ في وقتِ آدمَ، ثمَّ بناه إبراهيمُ على أساسِه بعدَ الاندِراسِ.

وقال قومٌ: إبراهيمُ هو الذي بنَى البيتَ أوَّلًا بأمرِ الله تعالى، ولـم يكُنْ موجودًا من قبلُ.

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾؛ أي: مما أوحَيْنا إليه وعهِدْنا[3] إليه.

وقيلَ: لا حاجةَ إلى هذا الإضمارِ، بل «إذ» بمعنى الحينِ والوقتِ؛ أي: حينَ بوَّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ قُلنا له: «لا تُشرِكْ»، أو: أمَرْناه بأن لا يُشرِكَ، فيعودُ الإضمارُ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو القولُ، وعلى الأوَّلِ التَّقديرُ: اذكُرْ إذ بوَّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ وأوحَينا إليه.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾؛ أي: أزِلْ عن بيتيَ الذي بوَّأْتُه لكَ الأدناسَ والأرجاسَ[4].

قيلَ: عنَى به التَّطهيرَ عن الأوثانِ كما قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وذلك أنَّ جُرْهُـمًا والعمالقةَ كانت لهم أصنامٌ في محلِّ البيتِ وحولَه قبلَ أن يبنيَه إبراهيمُ.

---

(١) عند الطبري: «يقال لها ريح الخجوج». والخجوج: هي الريح الشديدة المرِّ أو الملتوية في هبوبها. انظر: «القاموس» (١/ ١٨٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥١٢) عن السدي.

(٣) في (ج): «أي: مما أوحينا أو عهدنا».

(٤) في (ج): «والأنجاس».

وقيلَ: أي: نزِّهْ بيتيَ عن أن يُعبَدَ فيه صنَمٌ، وهذا أمرٌ بإظهارِ التَّوحيدِ فيه.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ أي: من أجلِهم، حتَّى إذا طافُوا به لم يكُنْ حولَه صنَمٌ؛ أي: شيءٌ يُعظَّمُ غيرُ الله ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾؛ أي: في صلاتِهم ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ في صلاتِهم.

***

(٢٧) - ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أمرَ إبراهيمَ بأن يناديَ بالحجِّ ويُصوِّتَ للإعلامِ، فيُعلِمَهم وجوبَ الحجِّ عليهم إلى البيتِ الذي أمرَه ببنائِه.

والإيذانُ: الإعلامُ، وكذلك التَّأذينُ.

ولـمَّا فرَغَ إبراهيمُ من بناءِ البيتِ وقيلَ له: أذِّنْ في النّاسِ بالحجِّ؛ قال: يا ربِّ، وما يبلُغُ صوتي؟ قال: أذِّنْ وعليَّ البلاغُ، فصعِدَ إبراهيمُ جبلَ أبي قُبَيسٍ وصاحَ: يا أيُّها النّاسُ، إنَّ الله يدعوكُم إلى حجِّ بيتِه الحرامِ ليُثيبَكم به الجنّةَ ويُجيرَكم من عذابِ النّارِ، فأجابَه مَن كان في أصلابِ الرِّجالِ وأرحامِ النِّساءِ: لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيكَ، فمَن أجابَ يومَئذٍ حجَّ على قدرِ الإجابةِ، إنْ أجابَ مرّةً فمرّةً، وإنْ أجابَ مرَّتَين فمرَّتَين، فذلك قولُه: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾[1].

---

(١) روى نحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨١٨)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥١٤ ـ ٥١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٦٤) وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى نحوه مرفوعًا الفاكهي في «أخبار مكة» (٩٧٣)، والكلاباذي في «معاني الأخبار» (ص: ١٨٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيلَ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أمرٌ منَ الله لمُحمَّدٍ ﷺ بإعلامِ النّاسِ بالحجِّ ووجوبِه عليهم، وجَرَى هذا في حجّةِ الوداعِ، فقال عليه السَّلامُ: «يا أيُّها النّاسُ كُتِبَ عليكم الحجُّ»(١).

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ وعَدَه إجابةَ النّاسِ إلى حجِّ البيتِ ما بين راجلٍ وراكبٍ، وإنَّما قال: ﴿يَأْتُوكَ﴾ وإن كانُوا يأتون الكعبةَ؛ لأنَّ المُناديَ إبراهيمُ، فمَن أتى الكعبةَ حاجًّا فكأنَّه أتى إبراهيمَ؛ لأنَّه أجابَ نداءَه، وفيه تشريفُ إبراهيمَ.

﴿رِجَالًا﴾: جمعُ «راجلٍ»، مثلَ «صِحابٍ وصاحبٍ»، وقدَّمَ الرِّجالَ على الرُّكبانِ في الذِّكرِ لزيادةِ تعبِهم في المشيِ.

وقيلَ: الرِّجالُ: جمعُ «رَجْلٍ»، والرَّجْلُ: جمعُ «راجِلٍ»، مثلَ: «تِجارٍ وتَجْرٍ وتاجرٍ»، و«صِحابٍ وصَحْبٍ وصاحبٍ»، وقد يُقالُ في الجمعِ: «رَجْلَى ورُجَّالٌ» بالتَّشديدِ، كما قيلَ: «كافرٌ وكفّارٌ».

وقيلَ: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ من قولِك: «هذا رجُلٌ»؛ لأنَّ الغالبَ خروجُ الرِّجالِ للحجِّ دونَ الإناثِ، وفيه بُعدٌ؛ لقولِه: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ يعني: الرُّكبانَ، والضُّمورُ: الهُزالُ، يُقالُ: «ضَمُرَ يضْمُرُ ضُمُورًا»، والمُرادُ: رُكبانُ الإبلِ وغيرِها منَ الدَّوابِّ، وذكرَ سببَ الضُّمورِ فقال:

﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾؛ أي: أثَّرَ فيها طولُ السَّفرِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٤٢)، والواحدي في «تفسيره» (١٥/ ٣٥٨) عن الحسن، والمرفوع منه دون ذكر حجة الوداع رواه النسائي (٢٦٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «أن رسول الله ﷺ قام فقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج» فقال الأقرع بن حابس التميمي: كل عام يا رسول الله؟ فسكت، فقال: «لو قلت: نعم، لوجبت، ثم إذاً لا تسمعون، ولا تطيعون، ولكنه حجة واحدة».

﴿يَأْتِينَ﴾ جمعَ لقولِه: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾، ولو قالَ: «يأتي» لجازَ.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾؛ أي: طريقٍ بعيدٍ.

* * *

(٢٨) - ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾؛ أي: أذِّنْ بالحجِّ يأتوكَ رِجالًا ورُكبانًا ليشهَدُوا منافعَ لهم، والشُّهودُ: الحضورُ؛ أي: ليحضُروا مشاهدَ كعرفاتٍ والمشعرِ الحرامِ ومِنًى، وهي منافعُ لهم.

قيلَ: يعني: منافعَ الدُّنيا منَ التِّجاراتِ في أيّامِ الموسمِ، وكانوا في القديمِ يتحرَّجُونَ عنها، فأباحَ الله لهم التِّجارةَ وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقيلَ: عَنَى منافعَ الآخرةِ، وهي الثَّوابُ والأجرُ.

وقيلَ: عَنَى منافعَ الدِّينِ والدُّنيا.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ أيّامَ الحجِّ: يومَ عرفةَ والنَّحرِ وأيّامَ التَّشريقِ[١].

وقال الحسَنُ: هي عشرُ ذي الحجّةِ، والمعدوداتُ أيّامُ التَّشريقِ؛ لأنَّها قليلةٌ[٢].

وقال مُقاتلٌ: المعلوماتُ والمعدوداتُ أيّامُ التَّشريقِ[٣].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٦٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٦٣).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ١٧٦)، و(٣/ ١٢٣).

والأظهرُ أنَّها أيامُ التَّضحيةِ ـ النَّحرِ ـ وأيامُ التَّشريقِ؛ لقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ [الحج: ٢٨]، والمُرادُ بهذا الذِّكرِ التَّسميةُ عندَ الذَّبحِ، مثلَ قولِك: «بسمِ الله والله أكبرُ، اللَّهمَّ منكَ وإليكَ ولكَ»، ومثلَ قولِكَ عندَ الذَّبحِ: «إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ»، وكان الكفّارُ يذبَحُونَ على أسماءِ أصنامِهم، فبيَّنَ أنَّ الواجبَ الذَّبحُ على اسمِ الله.

ووقتُ الذَّبحِ إذا طلَعَتِ الشَّمسُ يومَ النَّحرِ، ومضى قدرُ صلاةِ رسولِ الله ﷺ، وآخرُه إذا غرَبتِ الشَّمسُ يومَ الثّالثِ من أيّامِ التَّشريقِ.

وتخصيصُ الذَّبحِ بهذا الوقتِ كتخصيصِ الصَّلواتِ بأوقاتِها، والصومِ بوقتِه، والحجِّ بوقتِه.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾؛ أي: على ذَبحِ ما رزَقَهم ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ والأنعامُ: الإبلُ والبقرُ والغنَمُ، وبهيمةُ الأنعامِ هي الأنعامُ، فهي كقولِك: صلاةُ الأولى، ومسجدُ الجامعِ.

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ هذا أمرُ إباحةٍ، ودماءُ الكفّاراتِ لا يأكلُ منها أصحابُها؛ أعني: ما كانَ جُبرانًا لنقصٍ كدمِ القِرانِ والتَّمتُّعِ، ودمِ الإساءةِ، ودمِ التَّقليمِ[١] والحلقِ، والمحظوراتِ.

﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: البائسُ: الذي قد ظهرَ بُؤسُه في ثيابِه وفي وجهِه، والفقيرُ: الذي لـم يظهَرْ ووجهُه وجهُ غنيٍّ[٢]، وهذا يقتَضي الواوَ، فلمَّا لـم يذكُرْ واوَ العطفِ فالفقيرُ من صفةِ البائسِ، وهو الذي نالَه البُؤسُ وشدّةُ الفقرِ، يُقالُ: «بَؤُسَ وبَئِسَ» إذا صارَ ذا بُؤْسٍ.

---

(١) في (ج): «القلم».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٦٧).

وكلَّما كان التَّصدُّقُ بلحمِ الأُضحيةِ أكثرَ كان الأجرُ أوفرَ.

وفي القَدْرِ الذي يجوزُ أكلُه كلامٌ، فقيلَ: النِّصفُ؛ لقولِه: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟﴾.

وقيلَ: الثُّلثانِ؛ لقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «ألا فكُلوا وادَّخِروا وائتَجِروا»[1]؛ أي: اطلُبوا الأجرَ بالإطعامِ[2].

***

(٢٩) ـ ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾؛ أي: ثمَّ ليقْضُوا بعدَ نحرِ الضَّحايا والهدايا ما بقيَ عليهم من أمرِ الحجِّ كالحلقِ ورَمْيِ الجِمارِ.

وقيلَ: التَّفَثُ عملُ الحجِّ كلِّه، ويُقالُ: «تفِثَ الرَّجُلُ»؛ أي: كثُرَ وسَخُه وشعرُه، والتَّفَثُ: الوسَخُ، وما أتفَثَه! أي: ما أوسَخَه!

والقضاءُ: الإحكامُ؛ أي: ليُحكِموا الأمرَ فيه، وليأتُوا به.

﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾؛ أي: ما نذَرُوا لله من هَدْيٍ وبدنةٍ وغيرِها ممَّا نذَرُوه من أعمالِ الخيرِ، والإيفاءُ: الإتمامُ؛ أي: وليُتمُّوها بآدابِها، ولهذا لم يقُلْ: بنُذورِهم؛ لأنَّ الإتمامَ لا يقتَضي باءَ الجرِّ.

---

(١) رواه بهذه اللفظ أبو داود (١٦٨٦) من حديث نبيشة الهذلي، ورواه البخاري (٥٥٦٩) من حديث سلمة بن الأكوع بلفظ: «كلوا وأطعموا وادخروا»، ورواه مسلم (١٩٧١) من حديث عائشة بلفظ: «فكلوا وادخروا وتصدقوا».

(٢) (وائتجروا): أمر من الأجر، أي: اطلبوا به الأجر والثواب. ولو كان من التجارة لكان بتشديد التاء، والتجارة في الضحايا لا تصح، لأن بيعها فاسد، إنما تؤكل ويتصدق منها. انظر: «جامع الأصول» (٣/ ٣٦٦).

وقيلَ: أرادَ بهذا النَّذرِ ما شرَعُوا فيه منَ الإحرامِ بالحجِّ؛ أي: ليُتِمُّوا ما خاضُوا فيه.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال عبدُ الرَّحمنُ بنُ عوفٍ رضيَ الله عنه: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن البيتِ العتيقِ فقال: «أُعتِقَ منَ الجبابرةِ فلا ينالُه جبّارٌ أبدًا»[1].

وقال مُجاهدٌ: خلَقَ الله البيتَ قبلَ الأرضِ بألفَي عامٍ، فسُمِّيَ عتيقًا لهذا[2].

وقيلَ: أُعتِقَ في الجاهليّةِ من أن يخرَبَ أو يُقتَّلَ أهلُه.

وقيلَ: سُمِّيَ عتيقًا لأنَّه لم يُملَكْ قطُّ.

وقيلَ: العَتيقُ بمعنى الكريمِ، يُقالُ: «فرسٌ عتيقٌ»؛ أي: كريمٌ، وهذا الطَّوافُ هو الواجبُ، وهو طوافُ الإفاضةِ، ويُسمَّى طوافَ الزِّيارةِ؛ لأنَّه يزورُ البيتَ بعد الوُقوفِ.

* * *

(١) ذكره من حديث عبد الرحمن بن عوف: أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ٤٩٤)، ولم أقف عليه مسنداً عنه، ورواه الترمذي (٣١٧٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠١٠) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما بلفظ: «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار»، قال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ غريب، وقد رُوي هذا الحديثُ عن الزُّهريِّ عن النبيِّ ﷺ مرسَلًا». ثم رواه كما ذكر، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٩٢٥) من طريق الزهري عن ابن الزبير موقوفاً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٥٥)، ورواه أيضاً (٥/ ٥٩١) من طريق مجاهد عن عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما. ولعله مما نقل عن الإسرائيليات.

(٣٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الأمرُ ذلك الذي ذكرتُه، ثمَّ قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أمرَ الحجِّ وغيرِه فهو خيرٌ له، والحرُماتُ: ما حُرِّمَ ومُنِعَ ارتِكابُه، وقد حرَّمَ تركَ المفروضاتِ، فيدخُلُ في المُحرَّماتِ ما أمرَ به وما نهَى عنه.

وقال ابنُ زيدٍ: الحرُماتُ خمسٌ: البيتُ الحرامُ، والبلدُ الحرامُ، والشَّهرُ الحرامُ، والمسجدُ الحرامُ، والإحرامُ[1].

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾؛ أي: التَّعظيمُ خيرٌ له ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ منَ التَّهاوُنِ بشيءٍ منها.

وقيلَ: ذلك التَّعظيمُ خيرٌ له من خيراتِه[2] ينتفِعُ به.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾؛ أي: بهيمةُ الأنعامِ أن تأكلُوها، وهي الإبلُ والبقرُ والغنمُ.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: في الكتابِ منَ المُحرَّماتِ، وهي الميتةُ والموقُوذةُ والمُتردِّيةُ والنَّطيحةُ وما أكلَ السَّبعُ وما ذُبِحَ على النُّصبِ، ولهذا اتِّصالٌ بأمرِ الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذَّبحَ، فبيَّنَ ما يحِلُّ ذَبحُه وأكلُ لحمِه.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ﴾؛ أي: الشَّيءَ القَذِرَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٣٤) بلفظ: «الحرمات: المَشْعَر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، هؤلاء الحرمات».

(٢) في (أ): «من خزانة مال».

﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ الوَثَنُ: التِّمثالُ من خشَبٍ أو حديدٍ أو ذهبٍ أو فضَّةٍ ونحوِها، وكانت العربُ تنصبُها وتعبُدُها، والنَّصارى تنصبُ الصَّليبَ وتُعظِّمُه، فهو كالتِّمثالِ أيضًا.

وقال عديُّ بنُ حاتمٍ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وفي عنُقي صليبٌ من ذهبٍ، فقال: «ألقِ هذا الوَثَنَ عنكَ»[1]؛ أي: الصَّليبَ، وأصلُه من وَثَنَ الشَّيءُ: إذا أقامَ في مكانِه، وسُمِّيَ الصَّنَمُ وثَنًا لأنَّه يُنصَبُ ويُركَزُ في مكانٍ فلا يَبرحُ عنه، يُريدُ: اجتَنِبُوا عبادةَ الأوثانِ، وسمَّاها رِجْسًا؛ لأنَّها سببُ الرِّجْسِ الذي هو الوَثَنُ.

وقيلَ: الرِّجْسُ: العذابُ.

و﴿مِنْ﴾ هاهُنا للجنسِ.

وقال الزَّجَّاجُ: أي: لا تذبَحُوا على اسمِ الصَّنمِ، والرِّجسُ يرجِعُ إلى أفعالِهم لا إلى عينِ الأصنامِ، ويُمكنُ أن يرجعَ إلى أعيانِها لتلطيخِهم إيّاها بالدِّماءِ وإنْ كانوا لا يعتَقِدُونَها نجاساتٍ[2].

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ الزُّورُ: الباطلُ، ثمَّ يدخُلُ فيه الشِّركُ، وكانوا يقولون في التَّلبيةِ: «لبَّيكَ لا شريكَ لك، إلّا شريكٌ هو لك، تملِكُه وما ملَكَ»؛ أي: الصَّنمُ، ويدخُلُ فيه قولُهم: الملائكةُ بناتُ الله، وقولُهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

(٢) لم أجده هكذا، وفي «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٢٤): «﴿من﴾ ههنا لتخليص جنس من أجناس، المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن»، وهكذا نقله عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٨٢)، ثم ذكر معناه عن المبرد، وانظر كلامه ثمة.

﴿ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وذِكرُهم آلهتَهم عندَ الذَّبحِ، وقولُهم: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ؛ ليفترُوا على الله الكذبَ، وما حرَّمُوه منَ البَحيرةِ والسّائبةِ والوصيلةِ، وفي الخبرِ أنَّه عليه السَّلامُ قامَ خطيبًا فقال: «عدلَتْ شهادةُ الزُّورِ بالشِّركِ بالله» قالَها مرَّتَينِ[1]؛ يعني: أنَّها قد جُمِعَتْ مع عبادةِ الوَثَنِ في النَّهيِ عنها.

***

(٣١) ـ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: مُوحِّدينَ[2]، والحنيفُ: المائلُ عن كلِّ الأديانِ إلى دينِ الإسلامِ.

وقيلَ: الحنيفُ: مَن دانَ بدينِ إبراهيمَ.

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢)، من طريق محمد بن عُبيد، عن سفيان بن زياد العُصْفُريِّ، عن أبيه، عن حبيب بن النُّعمان الأسدي عن خُريمِ بنِ فاتكٍ، عن النبي ﷺ. قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ٣٤٩): إسناده مجهول.
قلت: زيادٌ أبو سفيان العصفري وحبيب بن النعمان مجهولان.
ورواه الترمذي (٢٢٩٩) من طريق مروان بن معاوية الفزاري، عن سفيان العصفري، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خُريم مرفوعاً. وقال: «هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد، واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ». قلت: وفاتِكُ بنُ فضالة مجهول.
وفي الباب ما يغني عنه عن أبي بكرة عند البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧)، ولفظه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ـ ثلاثاً ـ: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، أو: قول الزور».
وعن أنس بن مالك عند البخاري (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٨٦).

وقيلَ: ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ أي: حُجّاجًا، والحجُّ من خاصِّيّةِ دينِ إبراهيمَ.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالله.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ يُقالُ: «خطِفَ يخطَفُ»، مثلَ: حمِدَ يحمَدُ، و«خطَفَ يخطِفُ»، مثلَ: ضرَبَ يضرِبُ؛ أي: أخذَ بسرعةٍ.

وقرأ نافعٌ: ﴿فتَخَطَّفُه﴾[1]؛ أي: فتَتَخَطَّفُه، فحُذِفَ تاءُ التَّفعُّلِ، والمُرادُ: فتخطفُ الطَّيرُ لحمَه.

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾؛ أي: ومثَلُه مثَلُ مَن تُسقِطُه الرِّيحُ ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾؛ أي: بعيدٍ، يُقالُ: «هَوَى» أي: سقَطَ من عُلُوٍّ إلى سُفلٍ.

ويُقالُ: «سُحْقًا له»؛ أي: بُعدًا، و«سَحُقَ يسحُقُ»؛ أي: بعُدَ، فهو سحيقٌ، مثلَ «عَظُمَ يعظُمُ»؛ أي: هذا المُشركُ هالكٌ كما أنَّ مَن يسقُطُ منَ السَّماءِ إذا اختَطَفَ الطَّيرُ لحمَه أو هَوَى في مكانٍ سحيقٍ هالكٌ.

وقيلَ: أي يكونُ هذا المُشرِكُ يومَ القيامةِ بهذا الوصفِ لا يملكُ لنفسِه حيلةً، كما أنَّ مَن خرَّ منَ السَّماءِ لا يُمكِنُه أن يتماسَكَ.

وقيلَ: أي: لا مُتمسَّكَ له من حجَّةٍ، بخلافِ المُؤمنِ الذي استمسَكَ بالعُروةِ الوُثقَى.

***

---

(١) بفتح التاء والخاء وتشديد الطَّاء، والباقون بفتح التاء وإسكان الخاء وتخفيف الطَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٠ و٤٣٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٣٢) ـ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: الأمرُ كما ذكرتُ لكم فالتَزِمُوه، ومَن يُعظِّمْ شعائرَ اللهِ؛ أي: مَن عظَّمَ أعمالَ الحجِّ التي جعلَها الله أعلامًا لدينِه.

والشَّعائرُ: جمعُ شعيرةٍ، ومنه: شعارُ القومِ في الحربِ؛ أي: علامتُهم التي يتعارَفُونَ بها، ومنه: إِشعارُ البدَنةِ، وهو الطَّعنُ في جانبِها الأيمنِ حتَّى يسيلَ الدَّمُ فيكونَ علامةً، فهي تُسمَّى شعيرةً بمعنى: المُشعَرةِ، فشعائرُ الله: أعلامُ دينِه، لا سيَّما ما يتعلَّقُ بالمناسكِ.

وقال قومٌ: تعظيمُ الشَّعائرِ استِعظامُ البُدْنِ واستِسْمانُها.

﴿فَإِنَّهَا ﴾؛ أي: إنَّ هذه الفعلةَ، ولو قال: «فإنَّه» لجازَ.

وقيلَ: ﴿فَإِنَّهَا ﴾؛ أي: فإنَّ تعظيمَ الشَّعائرِ، فحُذِفَ المُضافُ لدلالةِ الكلامِ عليه، فرجَعَتِ الكنايةُ إلى الشَّعائرِ.

﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾؛ أي: من خشيةِ القلبِ منَ الله تعالى، وأضافَ إلى القلبِ لأنَّ حقيقةَ التَّقوى ما في القلبِ، ولهذا قال عليه السَّلامُ: «التَّقوى هاهُنا»، وأشارَ إلى الصَّدرِ(١).

* * *

(٣٣) ـ ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾؛ أي: فيما تُؤدُّونَ مـن شعائرِ الحجِّ وأحكامِ الدِّينِ منافعُ في الدُّنيا والدِّينِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾؛ أي: لكلِّ شيءٍ من أعمالِ الحجِّ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقتٌ مُعيَّنٌ، ومنافعُ الدِّينِ قد تكونُ إلى أجلٍ مُسمًّى؛ أي: تكتَسِبُونَ الثَّوابَ بسَوقِ البُدنِ وتقليدِها وقصدِ التَّقرُّبِ بها ما دامَتْ باقيةً ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾؛ أي: المحِلُّ منَ الجميعِ بالطَّوافِ بالبيتِ العتيقِ.

وقيلَ: لكم في البُدْنِ منافعُ إلى أن تُسمُّوها هَدْيًا، وبعد الإهداءِ يجوزُ الانتفاعُ بالنُّسك كالدَّرِّ[1] والأوبارِ والرُّكوبِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: إلى أن تُنحَرَ، فيجوزُ عند الشّافعيِّ رُكوبُ الهدايا وشُرْبُ لبنِها، ومرَّ رسولُ الله ﷺ برجلٍ يسوقُ بدنةً فقال: «اركَبْها»، فقال: إنَّها هَدْيٌ، فقال: «اركَبْها»، فقال: إنَّها هَدْيٌ، فقال: «اركَبْها ويحَكَ»[2].

وقيلَ: أرادَ بالمنفعةِ: أكلَ النَّاسِ منها.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾؛ أي: الحرَمِ، والأصلُ في الذَّبائحِ أن تكونَ بمكّةَ، والسُّنّةُ أن تُذبحَ للعُمرةِ بمكّةَ على المروةِ، وللحجِّ بمِنًى، وإنَّما قال: ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ وإنْ كانَ المحلُّ الحرَمَ؛ لأنَّ الحرمَ يَحتفُّ[3] بالبيتِ ويقرُبُ منه، فقولُه: ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾؛ أي: عندَ البيتِ العتيقِ، وهو الحرمُ، فإن عطِبَ شيءٌ منَ الهدْيِ قبلَ بُلوغِ مكّةَ وهو مُتطوَّعٌ به فمحِلُّه موضِعُه ذلك.

ومَن قال: الشَّعائرُ أعلامُ الدِّينِ: منَ الوُقوفِ بعرفةَ، ورَمْيِ الجمارِ، والسَّعيِ، فتعظيمُ هذه الشَّعائرِ: توقيرُها، و﴿فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ في الدُّنيا بالتِّجاراتِ، وفي الآخرةِ بالثَّوابِ، وهي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: إلى انقضاءِ أيّامِ الحجِّ، فالمحلُّ على هذا

---

(١) في (أ): «بالنسل والدر».

(٢) رواه البخاري (٢٧٥٤)، ومسلم (١٣٢٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) في (أ) و(ج): «يحيف»، ولعل المثبت هو الصواب.

مصدرٌ أُضيفَ إلى المفعولِ؛ أي: المحلُّ[١] من هذه الأعمالِ إلى البيتِ العتيقِ، وهو الطَّوافُ به بعد قضاءِ المناسكِ، فمحلُّ المناسكِ على هذا القولِ: الطَّوافُ بالبيتِ.

***

(٣٤) ـ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ لمَّا ذكـرَ الذَّبائحَ بيَّنَ أنَّ اللهَ لـم يُخْلِ منها أمَّةً، بل تقرَّبُوا بها إلى اللهِ وذكرُوا عليها اسمَه لا اسمَ الصَّنمِ، فخالفَ المُشركون وذبَحُوا على اسمِ الصَّنمِ.

والأمَّةُ: القومُ المُجتَمِعُونَ على مذهبٍ واحدٍ؛ أي: ولكلِّ جماعةٍ مُؤمنةٍ جعَلْنا منسكًا، والمنسكُ: الذَّبحُ وإراقةُ الدَّمِ.

قُرِئَ بكسرِ السِّينِ وفتحِها[٢]، وهما لُغتانِ، يُقالُ: «نَسَكَ ينسُكُ» بالضَّمِّ، وعلى هذا يُقالُ: «منسَكٌ» بالفتحِ، مثلَ: مدخَلٍ ومخرَجٍ، ويجوزُ: «منسِكٌ» بالكسرِ، مثلَ: مسجِدٍ ومطلِعٍ، ويُقالُ: «نَسَكَ ينسِكُ» بالكسرِ، فعلى هذا يُقالُ: «منسِكٌ» بالكسرِ مثلَ: مضرِبٍ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿مَنسَكًا ﴾؛ أي: شريعةً في الذَّبحِ[٣].

---

(١) في (ج): «الحل».

(٢) قرأ حمزة والكسائي بكسر السين والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٨٩) من رواية عطاء عن ابن عباس: ﴿مَنسَكًا ﴾ يريد: شريعة. يعني: الذبح لأنه من جملة ما شرع.

وقيلَ: عيدًا[١] ووقتًا للذَّبحِ، فهو اسمٌ لزمانِ الذَّبحِ.

وقال الزَّجَّاجُ: هو عينُ الذَّبحِ، ولهذا قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾؛ أي: على ذبحِ ما رزقَهم[٢].

﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: إلهُ الجميعِ واحدٌ، وهو الذي يجبُ أن يُذكَرَ اسمُه على الذَّبائحِ دونَ غيرِه.

﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾؛ أي: أطيعُوا وانقادُوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾؛ أي: الخاضِعينَ لله، قال الخليلُ: الخَبْتُ: ما اتَّسَعَ من بُطونِ الأرضِ[٣].

والمُخبِتُ: الواسعُ الصَّدرِ في الاحتمالِ والصَّبرِ على المكارِه.

وقيلَ: الخَبْتُ: المُنخَفِضُ منَ الأرضِ، والمُخبِتُ: المُتواضِعُ القليلُ في نفسِه؛ أي: بشِّرْهم بالثَّوابِ الجزيلِ.

* * *

---

(١) «وقيل عيدًا»: ليس في (ج). وفي «البسيط»: وقال الكلبي: عيدًا. يعني: وقتًا للذبح. فعلى هذا المنسك اسم لزمان الذبح.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٢٦).

(٣) من هنا وقع اختلاف بين النسختين (أ) و(ج) حتى آخر السورة، ورجحنا النسخة (ج) واعتمدناها أصلاً؛ إذ إنها وافقت ما وُجِدَ في النسخة الخطية لكتاب «المختصر» لهذا التفسير، والذي اعتمدناه في مواضع عدة للاستئناس والترجيح عند الاختلاف. كذلك فإن ما في النسخة (ج) موافقة لأسلوب المصنف، وبمصادره كذلك، كموافقته لما نقله عنه القرطبي في بعض المواضع؛ كقوله متعقباً ما نقل عن الحسن من كون المراد بالغرانيق العلا الملائكةَ: وهذا غيرُ سديدٍ؛ لقولِه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾؛ أي: يبطلُه، وشفاعةُ الملائكةِ غيرُ باطلةٍ، وسيتكرر هذا الاختلاف في مواضع منها في سورة المؤمنون.

وتنظر مقدمة تحقيق هذا الكتاب؛ ففيها بسط ووصف للنسخ الخطية المعتمدة في التحقيق.

(٣٥) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾؛ أي: خافَتْ، وحذِرَتْ مُخالفَته ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾؛ أي: منَ المكارِه في ذاتِ الله.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ بخفضِ ﴿ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ على الإضافةِ، وقرأ أبو عمرٍو: (الصَّلاةَ) بالنَّصبِ[1].

قال الزَّجّاجُ: هو جائزٌ على بُعدٍ، فتُحذَفُ النُّونُ لطولِ الاسمِ، وقد أنشدَ سيبويهِ:

والحافِظُو عورةَ العشيرةِ

بالنَّصبِ، وزعمَ أنّه شاذٌّ[2].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾؛ أي: يحتَمِلُونَ المشقَّةَ في أموالِهم بالزَّكواتِ والصَّدقاتِ كاحتمالِهم في أبدانِهم بالصَّلواتِ وفي قلوبِهم بالصَّبرِ على المكارِهِ.

***

(٣٦) ـ ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ نصبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ؛ أي: جعَلْنا البُدنَ جعلناها لكم.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٨٠)، وهي في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧)، عن ابن أبي إسحاق. والمشهور عن أبي عمرو الجر كقراءة الجماعة.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٢٧). وانظر: «الكتاب» (١/ ١٨٦)، وتمام البيت فيه:

الحافِظُو عَوْرَةَ العشيرةِ لا يَأتِيهِمُ من ورائنا نَطَفُ

بيَّـنَ أنَّ البُـدنَ مـن شـعائرِ الله ليرغَبُوا فـي تعظيمِها، وعلَّـمَ العبادَ مـا يصنَعُونَ فـي نحرِها.

يُقالُ: «بَدَنةٌ وبُدْنٌ وبُدُنٌ»، مثلَ: «ثَمَرةٍ وثُمْرٍ وثُمُرٍ»، وسُمِّيَتْ بدنةً لأنَّها تبدُنُ؛ أي: تسمنُ، والبدنةُ تقعُ على النّاقةِ والبقرةِ، ولا تقعُ على الشّاةِ.

ويُقالُ: بدُنَ الرَّجلُ يَبْدُنُ بَدْنًا وبَدَانةً فهو بادِنٌ؛ أي: ضخمٌ.

وقال قومٌ: تختصُّ البدنةُ بالبعيرِ، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، والبعيرُ: هو الذي يُنحَرُ قائمًا[١].

وقال الأوَّلون: البقرةُ كالبدنةِ في أنَّها تُجزِئُ عن سبعةٍ، ولها بدانةٌ وكبرٌ[٢].

وقُرِئَ: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ بسكونِ الدّالِ، وقُرِئَ بضمِّها[٣]، وهما لُغتانِ كما ذكرنا.

﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: جعَلْنا لكم فيها عبادةً: من سَوقِها إلى البيتِ، وتقليدِها، وإشعارِها، ونحرِها، والإطعامِ منها.

---

(١) يعني: أن الوصف خاص بالإبل، والبقر يضجع ويذبح كالغنم. انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٩٥).

(٢) وهذا قول مالك وأبي حنيفة، وقال ابن مسعود وعطاء والشافعي: لا تطلق البدنة على غير الإبل. وفائدة الخلاف فيمن نذر بدنة فلم يجد البدنة، أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة؛ فهل تجزيه أم لا؟ فعلى مذهب الشافعي وعطاء لا تجزيه. وعلى مذهب مالك تجزيه. قال القرطبي: والصحيح ما ذهب إليه الشافعي وعطاء؛ لقوله عليه السلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة: «من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة» الحديث ـ رواه البخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ فتفريقه عليه السلام بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يقال عليها بدنة. انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٩٥).

(٣) الأولى قراءة الجمهور، والثانية قراءة الحسن وعيسى كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾؛ أي: في هذه البُدْنِ نفعٌ في الدِّينِ، وهو الأجرُ والثَّوابُ، وفي الدُّنيا، وهو التَّصدُّقُ بها والانتفاعُ، وقد جعلَ اللهُ الهدْيَ فداءً لصاحبِه، فهو منَ النَّفعِ في الدِّينِ.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ أي: انحَرُوها على اسمِ الله.

﴿صَوَآفَّ﴾ هو جمعُ «صافَّةٍ»، وهي فاعلةٌ منَ الصَّفِّ، وهو جعلُ جسمٍ بجنبِ جسمٍ على منهاجٍ واحدٍ، ويُتصوَّرُ هذا في الواحدةِ أيضًا؛ أي: صَفَّتْ رجلَيها، أو صفَّتْ بدَنَها إنْ لـم تكُنْ معقولةً.

وقال مجاهدٌ: الصَّوافُّ: أن تُعقَلَ إحدى يدَيها وتُقامَ على ثلاثٍ وتُنحرَ كذلك[1]، فهي صافّةٌ لأنَّها قد صفَّتْ أيديَها وأرجلَها بحيثُ لا يتقدَّمُ البعضُ على البعضِ، ويدُلُّ على هذا قراءةُ عبدِ الله: (صَوَافِنَ)[2]، والصّافنةُ: القائمةُ على ثلاثِ قوائمَ.

وقُرِئَ في الشَّواذِّ أيضًا: (صوافيَ)[3]، وهي جمعُ «صافيةٍ»؛ أي: خالصةً لله تعالى.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾؛ أي: سقطَتْ على الأرضِ، من وجَبَ الحائطُ يجبُ وجبةً؛ أي: سقَطَ، و: وجَبَ الشَّيءُ؛ أي: وقعَ لازمًا، و: وجَبَ القلبُ؛ أي: وقعَ وتحرَّكَ باضطِرابِه، و: وجَبَ الميِّتُ؛ أي: ماتَ.

والوُجوبُ للجنبِ بعد النَّحرِ علامةُ نزفِ الدَّمِ وخروجِ الرُّوحِ منها، وهو وقتُ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤١٠)، والكلام منه، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٥٦) من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٢) نسبت لابن مسعود وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧ ـ ٩٨)، و«المحتسب» (٢/ ٨١)، و«البحر» (١٥/ ٣٦٠).

(٣) نسبت لأبي موسى الأشعري والحسن وزيد بن أسلم وجمع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) و«المحتسب» (٢/ ٨١)، و«البحر» (١٥/ ٣٥٩).

الأكلِ، وإنَّما يبتدأ بالسَّلخِ وقطعِ شيءٍ منَ الذَّبيحةِ بعد السُّكونِ وسماعِ خروجِ الرُّوحِ، ولهذا قال عمرُ: لا تَعْجلُوا الأنفسَ أن تَزهَقَ(١).

﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ القانعُ منَ القُنوعِ، والقُنوعُ: المسألةُ، يُقالُ: «قنعَ يقنَعُ قُنوعًا»، مثلَ: «منعَ يمنَعُ»؛ أي: سألَ، والقانعُ: السّائلُ.

وقيلَ: القانعُ: الذي لا يسألُ، منَ القناعةِ، من «قَنِعَ يَقْنَعُ»، مثلَ: «حَمِدَ يَحْمَدُ»، «قناعةً وقَنَعًا وقَنَعانًا»؛ أي: رضيَ بما قُسِمَ له وتركَ المسألةَ.

وقال ابنُ السِّكِّيتِ: منَ العربِ مَن ذكرَ القنوعَ بمعنَى القناعةِ(٢).

وأمَّا المُعترُّ فهو الذي يطيفُ بـك يطلُبُ ما عندَكَ سائلًا كانَ أو ساكتًا، من «عَرَرْتُ فلانًا وأعرَرْتُه وعرَوْتُه واعترَيتُ»؛ أي: أتيتُه أطلبُ معـروفَه، فالقانعُ إذًا يصلحُ للسّائلِ والسّاكتِ، وكذلك المُعتَرُّ، وفيهما جميعًا تعرُّضٌ للمعروفِ، فقال قومٌ: القانعُ الذي يسألُ، والمُعترُّ الذي يُسلِّمُ ويتعرَّضُ للمعروفِ ولا يسألُ، وعكَسَ قومٌ فقالوا: القانعُ الذي لا يسألُ، والمُعترُّ السّائلُ الذي يعتَريكَ ويسألُكَ.

وقال مجاهدٌ: القانعُ جارُكَ وإنْ كان مُوسِرًا، فيعظم منَ الصُّحبةِ بأن تُرسِلَ إليه، والمُعترُّ الذي يعتَريك ولا يسألُك(٣).

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٦١٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٧٨) واللفظ له.

(٢) ذكره عنه الأزهري في «تهذيب اللغة» (١/ ١٧٢)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤١٦). ولم يرد هذا في «إصلاح المنطق»، وفيه (ص: ١٤٢): وقد قنع يقنع قنوعاً: إذا سأل، وقد قنع يقنع بما آتاهُ الله قناعة: إذا رضي.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤١٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٦٦ ـ ٥٦٧) دون قوله: «ولا يسألك». وقوله: «فيعظم منَ الصُّحبةِ بأن تُرسِلَ إليه» لم أجده في هذا الخبر ولا في غيره.

وقال ابنُ عبّاسٍ: كلاهما الذي لا يسألُ ولكنَّه يحتاجُ[1].

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾؛ أي: كالذي ذكَرْناه لكم سخَّرْنا لكم هذه البُدْنَ مع عِظَمِ أجسامِها حتَّى لا تمتنعُ عليكم عند النَّحرِ والذَّبحِ، بخلافِ السِّباعِ الضّاريةِ.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ أي: فعَلْنا هذا بكم لتشكُروا نعمَتي في تكريمي إيّاكم.

***

(٣٧) ـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ بيَّنَ أنَّه لم يأمُرْهم بهذه البُدْنِ في حجِّهم لحاجةٍ منه إليها، ولكنْ تعبُّداً إيّاهم بنحرِها، وتقرُّبًا منهم إلى الله تعالى، وفداءً لنفوسِهم وتخليصًا لها، فإنَّما ﴿يَنَالُهُ﴾؛ أي: ينالُ رِضا [الله][2] ما قصدَ به هذا المعنى، وكان من حلالِ مالِ الإنسانِ، فأمّا نفسُ الذَّبحِ وقسمةُ اللَّحمِ فلا يُنالُ به رِضا الله تعالى، ومعنى الآيةِ: أنَّ الأعمالَ بالنِّيّاتِ لا بأعيانِه.

وقال مجاهدٌ: كان المُشركونَ يذبَحونَ ويشرحُونَ اللَّحمَ فينصِبُونَه على أنصابٍ حولَ الكعبةِ وينضَحونَ الكعبةَ بدمائِها تقرُّبًا إلى الله تعالى، فأرادَ المسلمونَ أن يفعلوا ذلك فنزلَتْ هذه الآيةُ[3]؛ أي: لا يقبلُ الله إلّا التَّقوَى، ولا يُثيبُ إلّا عليها.

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤) وإسناده ضعيف.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٠) عن ابن جريج، ورواه بنحوه ابن المنذر وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥ ـ ٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والقراءةُ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ بالياءِ ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بالياءِ، وعن يعقوبَ بالتّاءِ فيهما(٤) نظرًا إلى اللُّحومِ والتَّقوى.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كالذي تقدَّمَ ذِكرُه ذلَّل الله لكم هذه البُدْنَ وصيَّرَها غيرَ مُمتنعةٍ عليكم عند النَّحرِ والذَّبحِ ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لتُعظِّمُوه على ما أرشدَكم إليه من دينِه، فذكرُ التَّسخيرِ هاهُنا لتُكبِّروا الله، وفي الآيةِ قبلَ هذه لتشكُروا.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مَن امتثَلَ أمرَ الله تعالى.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: المُوحِّدينَ(٥).

* * *

(٣٨) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ذكرَ الكفّارَ وأنَّهم يذبحونَ على النُّصُبِ ويُشرِكُونَ بالله، وبيَّنَ أنَّ الغلبةَ للمُؤمنينَ، والله يدفعُ عنهم كيدَ أعدائِهم؛ أي: إذا فعلتُم ما أمَرْناكم به من تعظيمِ شعائرِ الله تعالى وإقامةِ المناسكِ، وخالفتُم أهلَ الجاهليّةِ في الشِّركِ وأفعالِهم، فالله يدفعُ عنكم شرَّهم، ويدفعُ عنكم العقابَ في الآخرةِ.

وقيلَ: هو خطابٌ لقومٍ ابتُلوا بشرِّ الكفّارِ فوعدَهم أن يدفعَ عنهم بأن يأذَنَ لهم في الهجرةِ.

وقيلَ: يدفعُ عن المُؤمنينَ بإعلائِهم بالحجّةِ، ثمَّ إنْ قتَلَ كافرٌ مُؤمنًا فهو نادرٌ، ثمَّ قد دفعَ الله عن ذلك المُؤمنِ بأنْ قبَضَه إلى رحمتِه.

---

(٤) بالتاء قراءة يعقوب، وباقي العشرة بالياء. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٦).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٢١).

وقيلَ: يدفعُ عن الذينَ آمنُوا بأن يُديمَ توفيقَهم حتَّى يتمكَّنَ الإيمانُ من قلوبِهم، فلا يقدرُ الكفّارُ على إمالتِهم عن دينِهم، وإنْ جرَى إكراهٌ فيفصِمُهم حتَّى لا يرتَدُّوا بقلوبِهم.

وقُرِئَ: ﴿يُدَٰفِعُ﴾[1]، وهو بمعنَى يدفعُ، مثلَ «عاقبتُ اللِّصَّ» و«عافاهُ الله تعالى».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ هم الذينَ خانُوا الله واعتَقَدوا له شريكًا، وكفَرُوا نعمَه وتقرَّبُوا بذبائحِهم إلى الأصنامِ، والعباداتُ أماناتٌ فمَن تركَها فقد خانَ، وكان مُشرِكُو العربِ مُقِرِّين بالصّانعِ ومع ذلك عبَدُوا غيرَه، فكان هذا جنايةً منهم، ومعنى ﴿لَا يُحِبُّ﴾ لا يُثني عليهم، ولا يرضَى فعلَهم، ولا يجعلُ العاقبةَ الجميلةَ لهم.

***

(٣٩) ـ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أُذِنَ للَّذِينَ يُقاتِلُونَ بأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ قيلَ: هذا بيانُ قولِه: ﴿إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: يدفعُ عنهم غوائلَ الكفّارِ بأن يُبيحَ لهم القتالَ وينصُرَهم، وفيه إضمارٌ؛ أي: أُذِنَ للذين يصلُحُونَ للقتالِ في القتالِ، فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ على المحذوفِ، وكانُوا استأذَنُوا رسولَ الله ﷺ في قتلِ مَن ظفِرُوا به غلبةً سرًّا فلم يأذَنْ لهم، ونزلَ: ﴿إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ﴾، فلمَّا هاجروا إلى المدينةِ أطلَقَ الله لهم القتالَ بقولِه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾[2]؛ أي: يصلُحونَ للقتالِ.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر: ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ... ولولا دَفْعُ الله الناسَ﴾، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ... ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ﴾، وقرأ نافع: ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ... ولولا دفاعُ اللهِ الناسَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٧)، و«التيسير» (ص: ٨٢).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٨/ ٢٥) وعزاه للمفسرين، وذكره ابن حجر في «العجاب في بيان =

وقال ابنُ عبّاسٍ: هذه أوَّلُ آيةٍ نزلَتْ في القتالِ[١].

وقولُه: ﴿أُذِنَ﴾ معناه: إنَّ الله أذِنَ لهم، وقُرِئَ: ﴿أَذِنَ﴾ بفتحِ الهمزةِ[٢]؛ أي: أذِنَ الله.

﴿يُقاتِلُونَ﴾؛ أي: يُقاتِلُونَ عدوَّهم منَ المشركين، وقُرِئَ: ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾ بفتحِ التّاءِ[٣]؛ أي: يُقاتِلُهم المُشركونَ، وهم المؤمنون، ولهذا قال: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾؛ أي: بسببِ أنَّهم ظُلِمُوا؛ أي: أُخرِجُوا من ديارِهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾؛ أي: على نصرِ المُؤمنينَ، وفائدةُ هذا التَّعريفِ وعدُ النَّصرِ؛ أي: سننصرُهم، وهذا كما ورَدَ في القرآنِ في مواضعَ أنَّ الله عليمٌ، ولا يخفَى على المسلمِ ذلك، ولكنَّ الفائدةَ تعريفُنا أنَّه يُجازي كلًّا بعمَلِه.

* * *

(٤٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا أحدُ ما ظُلِمُوا به،

= الأسباب» (٢/ ٩١٨) عن قتادة ومقاتل.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٦٥)، والترمذي (٣١٧١) وحسنه، والنسائي (٣٠٨٥)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧١٠).

(٢) قرأ نافع وعاصم وأبو عَمْرو: ﴿أُذِن﴾ بضم الهمزة والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٣) قرأ نافع وابن عامر وحفص: ﴿يُقَاتَلون﴾ بفتح التاء والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

وإنَّما أُخرِجُوا لقولِهم: ربُّنا الله وحدَه، نزلَتْ بعد الهجرةِ إلى الحبشةِ.

وقيلَ: بعد الهجرةِ إلى المدينةِ.

ومعنى هذا الإخراجِ: التَّسبُّبُ إلى ذلك بالإيذاءِ حتَّى اضطرُّوا إلى الخروجِ.

وقيلَ: قالوا لهم: إمّا أن تترُكُوا أديانَكم أو تخرُجُوا من بينِنا.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟﴾؛ أي: أُخرِجُوا بغيرِ حقٍّ إلّا بقولِهم، ومعنى ﴿إِلَّآ﴾: لكِنْ، فهو استثناءٌ مُنقطعٌ.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: لم يخرُجوا إلّا بقولِهم: لا إلهَ إلّا الله.

وقيلَ: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: إلّا بالحقِّ الذي هو التَّوحيدُ.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: لولا ما شرَعَه للأنبياءِ والمؤمنين من قتالِ الأعداءِ لاستولَى أهلُ الشِّركِ وعطَّلوا ما بيَّنَه أربابُ الدِّياناتِ من مواضعِ العباداتِ لله، ولكنَّه دفع بأن أوجَبَ القتالَ ليتفرَّغَ أهلُ الدِّينِ للعبادةِ، فبيَّنَ أنَّ الجهادَ لإصلاحِ الدِّياناتِ، فمَن استبشَعَ منَ النَّصارَى والصّابئينَ الجهادَ فهو مُناقِضٌ لمذهبِه؛ إذ لولا القتالُ لَما بقيَ الدِّينُ الذي يذُبُّ عنه، وإنَّما ذكرَ الصَّوامعَ والبِيَع لهذا، وأيضًا هذه المواضعُ اتَّحدَتْ قبلَ تحريفِهم وتبديلِهم.

وقيلَ: نُسِخَ تلك المِلَلُ بالإسلامِ، فذُكِرَتْ لهذا المعنى؛ أي: لولا هذا الدَّفعُ لـهُدِمَ في زمانِ موسى الكنائسُ، وفي زمانِ عيسى الصَّوامعُ والبِيَعُ، وفي زمانِ محمَّدٍ ﷺ المساجدُ.

﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ من هدَمْتُ البناءَ؛ أي: نقَضْتُه فانهَدَمَ، قُرِئَ ﴿لـهُدمَت﴾ بالتَّخفيفِ وبالتَّشديدِ[1].

---

(١) قرأ بالتخفيف نافع وابن كثير، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

﴿صَوَامِعُ﴾: هي جمعُ صَومَعةٍ، وهي مُتعبَّدُ الرّاهبِ، سُمِّيَ صومعةً لتلطيفِ أعلاها، يُقالُ: «صمَعَ الثَّريدةَ»؛ أي: رفعَ رأسَها وحدَّدَه، و«رجلٌ أصمَعُ القلبِ»؛ أي: حادُّ الفِطنةِ.

والبِيَعُ: جمعُ البيعةِ، وهي كنيسةُ النَّصارَى.

﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال الزَّجَّاجُ: هي كنائسُ اليهودِ، وهي بالعبرانيّةِ: «صلوتا»[1].

﴿وَمَسَاجِدُ﴾ المسلمين.

وقال ابنُ زيدٍ: الصَّلَواتُ صلَواتُ أهلِ الإسلامِ تنقطعُ إذا دخلَ عليهم العدُوُّ[2]، فعلى هذا الصَّلَواتُ لا تُهدَمُ، فالمعنى: وتُرِكَتْ صَلواتٌ.

وقيلَ: يعني: مواضعَ الصَّلواتِ.

وقيلَ: أي: ولولا انقماعُ أهلِ التعطيلِ وعبَدةِ الأوثانِ بسيوفِ المسلمينَ لاستَأْصَلوا أهلَ الأديانِ كلِّها، فقد اندفعَ غوائلُ المشركينَ عن اليهودِ والنَّصارَى وسائرِ أهلِ المِلَلِ بسيفِ المسلمين، فلكلِّ قومٍ فائدةٌ في الإسلامِ.

﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في المساجدِ.

وقيلَ: في الصَّوامعِ والبِيَعِ والصَّلواتِ والمساجدِ.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾؛ أي: مَن ينصرُ دينَه ونبيَّه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾؛ أي: قادرٌ ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: ممتنعٌ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣٠)، وروى الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٨٤) عن الضحاك أنه قال: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ كنائس اليهود، ويسمون الكنيسة: صلوتا.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٨٥).

(٤١) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هو من صفةِ مَن أُذِنَ له في القتالِ.

وقيلَ: من صفةِ مَن ينصُرُه؛ أي: لينصُرَنَّ الله مَن ينصرُه، وهم الذين إنْ مكَّنّاهم، والمُرادُ: جميعُ المسلمينَ.

وقيلَ: أصحابُ محمَّدٍ ﷺ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: المُهاجِرونَ والأنصارُ والتَّابعونَ بإحسانٍ.

وقيلَ: هم الوُلاةُ.

﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: دامُوا عليها.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾؛ أي: أعطَوها.

﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وهو ما عُرِفَ بالشَّرع حُسنُه.

﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ وهو ما أنكرَه الشَّرعُ.

﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾؛ أي: النَّصرُ والغلَبةُ لمن نصرَ دينَ الله تعالى.

وقيلَ: أي: ترجعُ الأمورُ إلى الله تعالى في الآخرةِ وتنقطعُ الدَّعاوَى.

* * *

(٤٢ ـ ٤٤) ـ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ أي: كان قبلَكَ أنبياءُ كُذِّبوا فصبرَ الأنبياءُ إلى أن أهلَكَ الله المُكذِّبين، فاقتَدِ بهم واصبِرْ، والتَّكذيبُ: النِّسبةُ إلى الكذبِ.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾؛ أي: كذَّبَه فرعونُ وقومُه، فأما بنو إسرائيلَ فما كذَّبُوه، فلهذا لـم يقُلْ: وكذَّب قومُ موسى.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾؛ أي: أخَّرْتُ عنهم العقوبةَ، يُقالُ: «أملَى الله لفُلانٍ في العمرِ»؛ أي: أخَّرَ عنه أجلَه، وأصلُه من الملَوَينِ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾؛ أي: بالعذابِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ هو استفهامٌ بمعنى التَّقريرِ، والنَّكيرُ: الاسمُ منَ الإنكارِ؛ أي: الشَّيءُ قد وقعَ العذابُ موقعَه، وكذلك أفعلُ بمَن يُكذِّبُك.

* * *

(٤٥) ـ ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وكأيِّنْ مِن قَرْيةٍ أَهْلَكْتُها﴾؛ أي: كم من قريةٍ أهلكْتُ أهلَها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ إذ عبَدَتْ غيرَ الله وعصَتْ رُسلَه وظلمَتْ أنفُسَها. وقُرِئَ: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا ﴾[1].

---

(١) قرأ أبو عمرو: ﴿أهلكْتُها﴾، والباقون: ﴿أَهْلَكْناها﴾. انظر: «التيسير» (ص: ٤٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٢٧).

﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: بادَ أهلُها فخلَتْ منَ السُّكّانِ فتداعَتْ للحرابِ وتساقطَتْ الجدرانُ على سقوفها؛ أي: سقَطَ السقفُ أوَّلًا، ثمَّ سقطَ الحيطانُ عليه، وهو كما يُقالُ: «سقَطَ فلانٌ على وجهِه»، فالمعنَى: فانهدَمَتْ.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾؛ أي: وكم من بئرٍ مُعطَّلةٍ متروكةٍ منَ العملِ والاستقاءِ، يُقالُ: «امرأةٌ عاطِلٌ»؛ أي: ليس عليها حُليٌّ، فالتَّعطيلُ: الفَراغُ والتَّضييعُ.

﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾؛ أي: عطَّلَها الله لـمَّا أهلَكَ أهلَها، أو عطَّلَها أهلُها وأربابُها ولـم يتفرَّغُوا إليها فتعطَّلَتْ.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾؛ أي: مبنيٍّ بالشِّيدِ، وهو الجصُّ، يُقالُ: شادَه يَشيدُه؛ أي: بناه بالجصِّ والنُّورةِ.

وقيلَ: المَشيدُ بمعنَى المُشيَّدِ، وهو المرفوعُ، والتَّشييدُ للمُبالغةِ.

قال الضَّحّاكُ: كانت هذه البئرُ باليمنِ بحضرموتَ في بلدٍ يُقالُ له: حاضوراءُ، نزَلَ بها أربعةُ ألافٍ ممَّن آمنَ بصالحٍ، وكانوا أَتَوا حضرمَوتَ ومعهم صالحٌ، فماتَ صالحٌ فسُمِّيَ المكانُ حضرمَوتَ، ثمَّ إنَّهم كثُروا وطالَ عليهم الزَّمانُ فكفَرُوا وعبَدُوا الأصنامَ، فبعثَ الله تعالى عليهم نبيًّا يُقالُ له: حنظلةُ بنُ صفوانَ، فقتلُوه في السُّوقِ، فأهلَكَهم الله، وماتُوا عن آخرِهم، وعُطِّلَتْ بيوتُهم، وخُرِّبَتْ قصورُهم»[1].

***

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٨٢)، وأبو بكر النقاش في «تفسيره» كما في «التعريف والإعلام» للسهيلي (ص: ١١٨). وهنا ينتهي الاختلاف بين النسختين.

(٤٦) ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أفلم يُسافِرُوا فيُشاهِدُوا هذه القُرى ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾؛ أي: ليتأمَّلُوا ما يُوعَظُونَ به، ويحذَرُوا عقابَ الله تعالى ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما ينزلُ عليهم منَ الوعظِ.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفرَّاءُ: الهاءُ عمادٌ، ويجوزُ أن يُقالَ: «فإنَّه»، وهو قراءةُ عبدِ الله[1].

وقيلَ: أي: فإنَّ الأبصارَ لا تعمى، أو: فإنَّ القِصّةَ لا تعمَى الأبصارُ؛ أي: أبصارُ العيونِ ثابتةٌ لهم، ولكنْ عميَتْ قلوبُهم عن دركِ الحقِّ، فقد أعرَضُوا عن النَّظرِ وإنْ رأوا بأعيُنِهم هذه الآثارَ، وعمَى القلبِ جهلُه، والجاهلُ بقلبِه لا يهتَدي إلى الصَّوابِ كالأعمَى الذي لا يرى المرئيّاتِ.

وقيلَ: أي: عمَى البصرِ لا تُهلِكُ صاحبَها، فالعمَى عمَى القلوبِ لأنَّها تُهلِكُ صاحبَها.

﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ تأكيدٌ للكلامِ، كقولِه: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقولِه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقولِه: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقيلَ: لو أُطلِقَ ذكرُ القلبِ فهو لفظٌ مشتركٌ، يُقالُ: «قلبُ النَّخلةِ»، فإذا قال: «التي في الصدور» بعُدَ عن الالتباسِ.

وقيلَ: لـمَّا نزلَ: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابنُ أمِّ مكتومٍ:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٢٨).

أفأكونُ أعمَى أبداً، فأنزَلَ الله هذه الآيَةَ[1]؛ أي: المُرادُ: مَن كانَ في هذه أعمى بقلبِه عن الإسلامِ فهو في الآخرةِ في النّارِ.

***

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ كانوا إذا سمِعُوا الوعيدَ يستعجِلُونَ العذابَ استهزاءً، فقالَ الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾.

﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ أي: في إنزالِ العذابِ بهم، قيلَ: في الآخرةِ، وقيلَ: في الدُّنيا؛ أي: يومَ بدرٍ؛ أي: وعدُ الله كائنٌ، ولكنْ في الوقتِ الذي حكمَ به، كقولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال الزَّجّاجُ: استعجَلُوا العذابَ فأعلَمَهم الله تعالى أنَّه لا يَفوتُه شيءٌ، وأنَّ يومًا عندَه وألفُ سنةٍ في قُدرتِه واحدٌ، ولا فرقَ بين وُقوعِ ما يستعجلونَكَ به في الحالِ وتأخيرِه في القدرةِ، إلّا أنَّ الله تفضَّلَ بالإمهالِ[2].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٧) عن ابن عباس ومقاتل، وأورده البيضاوي في تفسير سورة الحج مقدماً له بـ (قيل)، وهي صيغة التمريض عنده، وقال الشهاب: لعل تمريضه لعدم ثبوته عنده لأنّ ابن أم مكتوم رضي الله عنه لا يخفى عليه مثله.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣٣).

وهذا قولُ ابنِ عبّاسٍ؛ فإنَّه قال: إنَّ يوماً وألفَ سنةٍ عندَه سواءٌ[1]؛ لأنَّه قادرٌ عليهم متى شاءَ أخذَهم، والمُرادُ: نفيُ العجلةِ عن الرَّبِّ.

وقال الفرَّاءُ: هذا وعيدٌ لهم بامتدادِ عذابِهم في الآخرةِ؛ أي: يومٌ من أيّامِ عذابِهم في الآخرةِ ألفُ سنةٍ[2].

وقيلَ: يومٌ من أيّامِ عذابِهم في الآخرةِ في الثِّقَلِ والاستطالةِ كألفِ سنةٍ، فكيف يستعجِلُونَ العذابَ لولا جهلُهم؟ فالكافرُ يُقاسي منَ الألَمِ والغمِّ في يومٍ مقدارَ ما يُعذَّبُ به الإنسانُ في الدُّنيا ألفَ سنةٍ، والمُنعَمُ عليه في الجنّةِ ينالُ في مقدارِ يومٍ من أيامِ الدُّنيا منَ اللَّذّةِ والسُّرورِ ما ينالُه الإنسانُ في الدُّنيا ألفَ سنةٍ.

وقيلَ: أي: هؤلاء يستعجلونَ العذابَ وبين أيديهم يومُ الحساب الذي مقدارُه ألفُ سنةٍ من أيام الدُّنيا، فمَن كان بين يديه هذا اليومُ فليس لاستعجالِه العذابَ معنًى.

وقيل: إني خلقْتُ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيّامٍ، كلُّ يومٍ مقدارُه ألفُ سنةٍ من أيّامِ الدُّنيا، وكنْتُ قادراً على خلقِها في لحظةٍ، فكذا أنا قادرٌ على إنزالِ العذابِ بهم في الحال، ولكن لا يقعُ العذابُ إلّا في الوقتِ الذي أريد.

قرئ ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بالتاء والياء[3].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾؛ أي: أمهلْتُها مع عتوِّها، ثم أنزلْتُ بهم العذابَ في الدُّنيا، ويومَ القيامة أعذِّبُهم بالنَّارِ؛ أي: لا تغترُّوا بإمهالِ اللهِ.

***

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٤٦)، من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٢٨): يوم من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة مما تعدون في الدنيا.

(٣) ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٤٩ ـ ٥١) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: قـل لـهـم: إنَّ اللهَ أرسلني بالإنذار ولم يقدِّرْني على إنزالِ العذابِ بهم ولا على تأخيرِه عنهم.

﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: منذر ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: أُبينُ لكم ما تحتاجون إليه من أمر دينكم.

قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنَّة، وهو العطاءُ الشَّريفُ الذي لا نقصةَ فيه ولا غصَّة.

والكريمُ: ما كَرُمَ عندَ صاحبِه وغيرِه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: سعَوا في إبطالِ آياتِنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: مغالِبين.

قال الزجَّاج: أي: ظانِّينَ أنَّهم يعجزونَنا لأنَّهم ظنُّوا أنْ لا بعثَ، وظنُّوا أنَّ اللهَ لا يقدِرُ عليهم[1].

وقيل: أي: يفاخرون الأنبياء والمؤمنين؛ أي: يقاتلونَهم ليُصَيِّروهم إلى العجْزِ عن أداءِ أمرِ الله.

وقرئ ﴿مُعَجِّزِيْنَ﴾[2]؛ أي: مثبِّطينَ النَّاسَ عن الإيمانِ بمحمَّدٍ، وقيل: أي:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣٣)، وفيه: «أي: ظانِّينَ أنهم يعجزونَنَا لأنهم ظَنوا أنهم لا يُبْعَثُونَ، وأنَّهُ لاَ جنَّةَ ولا نار».

(٢) بتشديد الجيم من غير ألف قرأ بها أبو عمرو وابن كثير، وباقي السبعة بالألف وتخفيف الجيم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

يَنْسبون من اتَّبعَ محمَّداً عليه السلام إلى العجزِ، كقولهم: جهَّلته وفسَّقته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: أهلُ الجحيمِ، وذِكْرُ الصُّحبةِ يُؤْذِنُ بالخلودِ، وهو مستَحَقٌّ في حقِّ الكافرِ.

* * *

(٥٢) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ كان مما يموِّهُ به الكفَّارُ على عوامِّهم قولُهم: حقُّ الأنبياءِ أنْ لا يَعجزُوا عن شيء، فلِمَ لا يأتينا محمَّدٌ بالعذابِ وقد بالغْنا في عداوتِه؟

وكانوا يقولون أيضاً: ينبغي أنْ لا يجريَ عليهم سهوٌ وغلطٌ.

فبيَّنَ الرَّبُّ أنَّهم بشرٌ، والآتي بالعذابِ هو اللهُ على ما يريدُ، ويجوزُ على البشرِ السَّهوُ والنِّسيانُ والغلَطُ إلى أنْ يُحْكِمَ اللهُ آياتِه وينسخَ حِيَلَ الشَّيطانِ.

والرَّسولُ: الذي أُرْسِلَ إلى الخَلْقِ بإرسالِ جبريلَ إليه عياناً، والنَّبيُّ تكون نبوَّتُه إلهاماً ومناماً، وكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، قاله الفراء(١).

وقال آخرون: الرَّسولُ والنَّبيُّ واحدٌ؛ إذ يقال: قال رسولُ اللهِ كذا، وقال نبيُّ اللهِ كذا، وقال اللهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، فأخبر أنَّهما معاً مرسَلان، وهؤلاء قد يقولون: بينهما فرقٌ من الوجه الذي ذكره الفرَّاء، فالرسول هو المرسَلُ بشريعةٍ يوردُها على أمَّتِه، والنَّبيُّ هو المخبِرُ عن اللهِ ما

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٢٩)، وعبارته: «فالرسول النبي المرسل، والنبي: المحدث الذي لم يرسل».

يلقيْهِ إليه وإنْ لم يكنْ له شريعةٌ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ وليسَ كلُّ نبيٍّ رسولاً.

والرَّسولُ من حيثُ اللَّفظُ: مَنْ أُرْسِلَ، والنَّبيُّ هو المخبِرُ عن اللهِ تعالى، وقيل: هو الطريقُ الواضحُ إلى معرفةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ النبيء بالهمز الطَّريقُ، فتركت الهمزة لكثرة الاستعمال.

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾؛ أي: قرأ، والتَّمنِّي بمعنى التِّلاوةِ مشهورٌ، ومنه:

تمنَّى كتابَ اللهِ آخرَ ليلِهِ[1]

---

(١) صدر بيت وعجزه:

تمَنِّيَ داوُدَ الزَّبُورَ عَلى رِسْلِ

وفي بعض المصادر: «أول ليله» بدل «آخر ليله».

وهو دون نسبة في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٣٨)، و«المنجد في اللغة» لكراع النمل (ص: ١٥٤)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ١٥١)، و«تفسير القرآن» لابن أبي زمنين (٣/ ١٨٩)، و«الغريبين» للهروي (مادة: منا)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٨)، و«المحكم» لابن سيده (١٠/ ٥١١). وعزاه الآلوسي في «روح المعاني» (١٧/ ٣٦٠) لحسان، وليس في ديوانه. و«رِسْل» بكسر فسكون بمعنى: تؤدة وهينة.

وذكروا لهذا الصدر عجزاً آخر على أن الرواية: «أول ليله»، كما في «العين» (٨/ ٣٩٠)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٣٨)، و«المنجد في اللغة» لكراع النمل (ص: ١٥٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣٥)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ١٥٠)، و«أمالي الزجاجي» (ص: ٢٠)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٤٦٤)، و«الوجوه والنظائر» لأبي هلال العسكري (ص: ١٥٠)، و«الغريبين» للهروي (مادة: منا)، و«تفسير الثعلبي» (١٨/ ٣٢٢)، و«المحكم» لابن سيده (١٠/ ٥١١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٨). وعجزه:

وآخرَه لاقَى حِمَامَ المَقادِرِ

وذكر بعضهم كابن الأنباري والهروي والثعلبي أنه في رثاء عثمان رضي الله عنه.

فالمعنى: ألقى الشَّيطانُ في تلاوتِه؛ أي: خلَطَ بها ما ليسَ منها.

وقيل: التَّمني: حديثُ النَّفسِ والشَّهوة؛ أي: كان الأنبياءُ يتمنَّونَ ما يقرِّبُ الأمرَ على قومِهم ويؤمنون عندَه، وكان الشَّيطانُ يحتالُ في هذه الحالةِ لأنْ يلقيَ في قراءتِهم ما يرضَى به قومُهم حتى يُتَوَهَّمَ أنَّ ذلك مِنَ النَّبيِّ.

قال المفسرون: جلسَ رسولُ اللهِ ﷺ يوماً في نادٍ من أنديةِ قريشٍ، وقرأ عليهم سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فلمَّا بلَغَ قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠] ألقى الشَّيطانُ على لسانِه لما كان يحدِّثُ به نفسَه ويتمنَّاه مِنْ شيءٍ يقرِّبُ قومَه إلى الإيمان به: (تلْكَ الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتَهُنَّ لَتُرْتَجَى)، ثم قرأ السُّورةَ كلَّها وسجدَ، ففرِحت قريشٌ بما سمعوا منه، وسجدَ المسلمونَ سجودَه، وسجَدَ مَنْ في المسجدِ من المشركين، فلم يبقَ في المسجدِ مؤمنٌ ولا كافرٌ إلَّا سجَدَ، إلَّا الوليدَ بن الـمُغيرةِ وأبا أُحَيْحَةَ سعيدَ بنَ العاصي فإنَّهما أخَذا حفنةً من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها؛ لأنَّهما كانا شيخَيْنِ كبيرَيْنِ فلم يستطيعا السُّجود، وتفرَّقَتْ قريشٌ وقالوا: قد ذكَرَ محمَّدٌ آلهتَنا بأحسنِ الذِّكْرِ، وقد عرَفْنا أن الله يحيي ويميتُ ويخلُقُ ويرزُقُ، ولكنَّ آلهتنا هذه تشفعُ لنا عندَه، فإذا جعلَ محمَّدٌ لنا نصيباً فنحن معه، فلمَّا أمسى رسول الله صلى الله عليه أتاه جبريلُ فقال: ماذا صنعْتَ؟! تلوْتُ على النَّاسِ ما لم آتِكَ به عن اللهِ، وقلْتَ ما لم أقلْ لك؟! فحزِنَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه حزناً شديداً وخافَ مِنَ اللهِ خوفاً كبيراً، فأنزل الله هذه الآية، فقال قريشٌ: ندِمَ محمَّدٌ على ما ذكَرَ مِنْ منزلةِ آلهتنا عندَ اللهِ،

= ووقع في بعض المصادر: «أول ليلةٍ»، قال الشهاب في «الحاشية على البيضاوي» (٢/ ١٨٩): و«ليله» قيل: مضاف إلى ضمير الغائب، لا بتاء التأنيث للوحدة على ما في بعض النسخ، يعرف ذلك بالتأمل، ويؤيده أنّ ابن الأنباري وغيره أنشد تمامه: «وآخره لاقى. . »، ولم يرو: وآخرها.

وزادوا شرًّا على ما كانوا عليه، وأمَّا المؤمنون فقال حين نُسِخَ ما ألقَى الشَّيطانُ على لسانِه عليه السلام: آمنَّا بما قال محمَّدٌ صلى الله عليه[1].

ثـم، قيـل: قـال الشَّـيطان قولاً بصـوتٍ أشـبهَ صـوتَ النَّبـيِّ، فظُنَّ أنَّـه صوتُ النَّبـيِّ عليـه السـلام، وقيـل: احتالَ الشَّـيطانُ ووسـوَسَ حتَّـى نطَقَ عليـه بذلك من غيـرِ تأمُّـلٍ وفكرٍ.

ومَن اختارَ الأوَّل قال: لا ينكِرُ منكِرٌ أنَّ للجنِّ والملَكِ والأشخاصِ الرُّوحانيةِ قولاً وصوتاً، والوحيُ وتبليغ الملَكِ الرُّسَلَ معترفٌ به، وللبشر أيضاً احتيالٌ في إلقاء اللَّغوِ في كلام النَّبي عليه السلام، قال الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فلا يُستَنْكَرُ مِنْ مردةِ الشَّياطينِ والجنِّ مثلُ ذلك، وقد

(١) قصـة الغرانيـق معروفـة، ولا يصح فيها شـيء، فقـد رويت فيها مرسـلات عن قتـادة والضحاك وأبي العاليـة وأبـي بكـر بـن عبـد الرحمـن بـن الحارث بـن هشـام وغيرهـم، وروي فيهـا خبر مـن طريق عطيـة العوفـي عن ابـن عباس، لكن إسـناده ضعيف جـدًّا. وتنظر هـذه الأخبار في «تفسـير الطبري» (١٦/ ٦٠٤ ـ ٦١٢).

وقد تكلم العلماء المحققون في توهين ما روي في هذه القصة وردها عقلاً ونقلاً كالقاضي عياض الذي قال: «فيكفيك أنّ هذا حديث لم يُخَرِّجه أحد من أهل الصحَّة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أُولِع به وبمِثْله المفسرون والمؤرخون المُولَعون بكلِّ غريب، المتلقِّفون من الصحف كلّ صحيح وسَقيم، وصَدَق القاضي بكرُ بن العلاء المالكيّ حيث قال: لقد بُلِي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلَّق بذلك المُلحِدون، مع ضَعْف نَقَلَتِه واضطراب رواياتِه وانقطاع إسنادِه واختلاف كلماتِه...». انظر: «الشفا» (٢/ ١٢٥).

وممـن تكلـم فـي توهيـن هـذه القصـة الإمـام أبـو حفـص النسـفي فـي «التيسـير فـي التفسـير» (١٠/ ٥٢١ ـ ٥٢٣)، فذكـر ثلاثـة وجـوه فـي إبطالهـا بحيـث لا يبقـى شـك فـي ذلـك لمـن طالع كلامـه.

نادى الشَّيطان يوم أحد: ألا إنَّ محمَّداً قد قُتِلَ(١)، وتَصَوَّر بصورة الشيخ النجدي يوم الندوة(٢).

قال أبو زيدٍ البلخيُّ: وقد صار قومٌ إلى أن الشَّيطان في هذه الآية شيطانُ الإنسِ(٣)، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقد يقال: ألقى الشَّيطانُ في قلبي كذا؛ إذ كان الملقي(٤) شخصاً أطاع الشَّيطانَ وعمِلَ بوسوستِه.

قال: ويستحيلُ أنْ يُقال: تكلَّمَ النَّبيُّ بكلمةِ الشِّرْكِ غلطاً؛ لأنَّه كان محافظاً على ما يُوحَى إليه، حتى كان يحرِّكُ لسانَه بالوحيِ خوفَ النِّسيانِ، حتى قال المشركون: إنه أبداً يحرِّكُ شفتيه يزوِّرُ كلاماً ويسوِّيه حتى يقولَ: إنَّه وحيٌ، حتى نزلَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦]، فلا يُظَنُّ به أنْ يَغلَطَ فيتكلَّمَ بالشِّركِ، لا سيَّما والإنسان في حالِ غفلتِه يجري لسانُه بما يحبُّه كما من النَّائمِ والغافلِ، لا بما هو أبغضُ الأشياء إليه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٦٠٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٧٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٣١٦٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
وذكره الواقدي في «مغازيه» (١/ ٢٩٣)، و(١/ ٣٢١)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٧١)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٤٣) عن الزهري.
وذكره ابن هشام في «سيرته» (٢/ ٧٧) من طريق ابن إسحاق عن الزبير رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٤٣) عن عروة، رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٧) عن السدي.

(٣) ممن ذكره وجهاً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٦) و(ص: ٥٧٣)، والجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ٣٢١)، وذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ٧٦٤) عن ابن عيسى.

(٤) في (ج): «إذا الملقا» بدل: «إذ كان الملقي»، والمثبت أقرب للصواب.

قال أبو زيد: وقال قوم: أكرهَهُ الشَّيطانُ حتى قال، وهذا محالٌ؛ إذ ليسَ للشيطانِ قدرةٌ على سلْبِ الإنسانِ الاختيارَ، قال الله مخبراً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ولو كان للشيطانِ هذه القدرةُ لَـمَا بقيَ لأحدٍ من بني آدمَ قوةٌ في طاعةٍ، ومن توهَّمَ أنَّ للشيطانِ هذه القوَّةَ فهو قولُ الثنويَّة والمجوس في أنَّ الخيرَ من اللهِ والشَّرَّ من الشيطان.

ومَن قال: «جرى ذلك على لسانِه سهواً» قال: لا يَبعدُ أنَّه كان سمعَ الكلمتين من المشركين وكانتا على حفظِه، فجرى عندَ قراءةِ السورةِ ما كان في حفظِه سهواً، وعلى هذا يجوز السَّهوُ عليهم وإن كان يتعلَّقُ بالمعارف ولا يُقَرُّون عليه، فلا جرمَ لـمَّا بيَّنَهُ عاد فقرأ بالقراءة الصحيحة، وأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية تمهيداً لعذرِه لئلَّا يُقال: إنَّه رجعَ عن بعض قراءتِه، وبيَّنَ أنَّ مِثلَ هذا جرى على الأنبياء سهواً، والسَّهوُ إنَّما ينتفي عن الله تعالى، وقد قال ابن عبَّاسٍ: إنَّ شيطاناً يقال له: الأبيض كان قد أتى رسولَ اللهِ ﷺ في صورة جبريل، وألقى في قراءةِ النَّبيِّ: (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى)(١).

وقال السُّديُّ: لم يبعثِ اللهُ نبيًّا قطُّ إلَّا تمنَّى أنْ يؤمنَ قومُه، ولم يتمنَّ ذلك نبيٌّ قطُّ إلَّا ألقى الشَّيطانُ على لسانِه ما يُرضي قومه، ثم يَنسخُ اللهُ ما يلقي الشَّيطانُ ويُحْكِمُ آياتِه(٢).

والتمني على هذا من الأُمنية لا من القراءة.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٦٧) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا يصح أمثاله كما تقدم غير مرة.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٦٨).

وقال الحسنُ: أراد بالغرانيق العلا: الملائكةَ[1].

وهذا غيرُ سديدٍ؛ لقولِه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: يبطلُه، وشفاعةُ الملائكةِ غيرُ باطلةٍ، ثم المحذورُ أنْ يُسْمَعَ منَ النَّبيِّ ما ليس بقرآنٍ في أثناءِ أداءِ الوحيِ والقرآنِ، وفي ضمْنِ هذا التأويلِ تجويزُ ذلك.

وقيل: تقدير الكلام: تلك الغرانيقُ العلا وإنَّ شفاعتَهُنَّ لَتُرْتَجى عندكم؛ لأنَّه في الحقيقةِ كذلك. **وهذا أيضاً مردود بما تقدَّم.**

ثم قال: «إنَّ الشَّيطانَ تكلَّمَ به وشبَّهَ صوتَه بصوتِ النَّبيِّ» فهو ظاهر.

ومَنْ قال: «قالَه النَّبيُّ صلى الله عليه سهواً أو تكلَّم به الشَّيطانُ على لسانِه كالجنِّيِّ يتكلم على لسانِ المصروعِ» فمعنى إضافته إلى الشيطانِ أنه وسوسَ به، ولكنَّ خالقَ الكلامِ والحركاتِ هو الله تعالى.

ومفعولُ ﴿أَلْقَى﴾ غيرُ مذكورٍ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه والمؤمنين علِموا المقصود، ونُقِلَ على الاستفاضةِ أنَّه قالَ: «تلك الغرانيق العلا».

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: يبطلُه، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بنسخ ما ليس منها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما أوحَى إلى نبيِّه ﴿حَكِيمٌ﴾ في خَلْقِه.

* * *

(٥٣) ـ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٩٣)، والماوردي في «النكت والعيون» (٧/ ٤٣١)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٦٩).

﴿قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: فتنةً للمنافقين والمشركين بأنْ يتوهَّموا أنَّ ذلك الذي ألقاه الشَّيطانُ حقٌّ، فإذا نُسِخَ تحيَّروا وظنُّوا أنَّ محمَّداً يقولُ الشَّيءَ مِنْ تِلقاءِ نفسِه ثمَّ يندمُ فيبطلُه، ويعني بـ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركين.

وقيل: اللامُ في ﴿لِّيَجْعَلَ﴾ لامُ العاقبة.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: أهلَ مكَّةَ؛ أي: هم في اختلافٍ شديدٍ وعداوةٍ شديدةٍ، وقيل: بعيدةٍ مِنْ أنْ يُرجَى زوالُها.

* * *

(٥٤) ـ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي: ليعلموا أنَّ نسخَ ما يلقي الشَّيطانُ وإحكامَه آياتِه حقٌّ من اللهِ.

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾: المؤمنون، [و]قيل: أهل الكتاب.

﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بما أثبتَ اللهُ من ذلك ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: ترقَّ للقرآنِ قلوبُهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: يثبِّتهم على الهداية.

* * *

(٥٥) ـ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ﴾؛ أي: شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: ممَّا

ألقى الشَّيطانُ على لسانِ محمَّدٍ ويقولون: ما بالُه ذكرَ الأصنامَ بخيرٍ ثمَّ ارتدَّ عنها.

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من الحقِّ، أو من القرآن.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي: القيامةُ فجأةً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: أو يأتيَهمُ العذابُ في الدُّنيا فيُقتَلوا، فعندَ ذلك تزولُ شكوكُهم ولا ينفعُهم ذلك.

والعقيمُ: مِنَ العُقْمِ في الوِلادةِ، يقال: امرأةٌ عَقيمٌ، وعجوزٌ عقيمٌ، ورجلٌ عقيمٌ: لا يُولَد له، والجمع: عُقُمٌ، وأصلُ الكلمةِ: القطعُ، ومنه: الـمُلْكُ عَقيمٌ؛ أي: تُقطَّعُ فيه الأرحامُ بالقتلِ والعُقوق، فالعقيمُ: التي قُطعَتْ ولادتُها.

وقال أبو عبيد: العُقْمُ: السَّدُّ، يقال: امرأةٌ معقومةُ الرَّحمِ؛ أي: مسدودةُ الرَّحم[١].

ويقال: ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾؛ أي: ليس فيه خيرٌ، ويومُ القيامةِ عقيمٌ على الكفَّارِ، والرِّيحُ العقيمُ: التي لا تأتي بالمطرِ ولا تلقِحُ الشَّجرَ.

وقال ابن عباس: أراد باليوم العقيم: يومَ بدر[٢]؛ لأنَّه كان يوماً لا نظيرَ له، ولم تقاتلِ الملائكةُ إلَّا معَ النَّبيِّ عليه السلام، ولم تقاتلْ معَه إلَّا يومَ بَدْرٍ، فكانَ الدَّهرُ عقيمٌ عن مثلِ ذلك اليومِ.

وقيل: سُمِّيَ عقيماً لأنَّهم لم ينظروا فيه إلى اللَّيلِ، بل قُتلوا قبلَ المساء، فهو عقيمٌ لانقطاعِ أعمارِهم، فكانَ عليهم يوماً لا ليلَ لهم بعدَه، ويُقالُ ليومِ القيامة أيضاً: يومٌ عقيمٌ؛ إذ لا ليلَ فيه، كالمرأة لا يولَدُ لها.

---

(١) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٥/ ٨٤)، و«البسيط» (١٥/ ٤٧٥) وفيهما: «الشد» «مشدودتها» بالشين. وورد عن أبي عبيد بالسين في «تهذيب اللغة» (١/ ١٩٠)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣٦٦)، و«اللسان» (مادة: عقم).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٥٠).

وقيل: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الحج: ٥٥]؛ أي: اليومُ الذي تموتُ فيه الخلائق، وهو عند النَّفخةِ الأولى، واليوم العقيم: يومُ القيامةِ الذي يقومُ فيه النَّاسُ لربِّ العالمين، وهذا في النَّفخةِ الثَّانيةِ.

* * *

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾؛ أي: يزولُ التَّمويهُ فلا منازعَ للهِ ذلكَ اليوم، وهذا يرجع إلى يومِ القيامة ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بينَ المؤمنِ والكافرِ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أهلُ التَّوحيدِ الذين أوتوا العلمَ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: بالمعجزاتِ والنُّبوَّةِ، وهم الذين في قلوبِهم مرضٌ وقسوةٌ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

* * *

(٥٨ ـ ٥٩) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ أفردَ ذِكْرَ المهاجرين الذين ماتوا أو قُتلوا تفضيلاً لهم على سائر الموتى؛ أي: هاجروا من مكَّةَ إلى المدينةِ في طاعةِ اللهِ ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: دائماً لا انقطاعَ له ولا يشوبُه كَدَرٌ ونغصة.

قرئ ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ بالتخفيف والتشديد[1].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ أي: هو أفضل الرازقين.

قوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾؛ أي: الجنانَ، قرئ: ﴿مُّدْخَلًا﴾ بالضم، وهو الإدخالُ، ويجوز أن يُعنى به: الموضعُ، وقرئ: ﴿مَدْخلاً﴾ بالفتح[2]، وهو الدُّخولُ، ويجوز أن يُعنى به الموضعُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: ﴿عليم﴾ بنبئهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن عقابهم[3].

* * *

(٦٠) - ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ما تقدَّم ذكرُه كما أعلمناكم ولهم مع ذلك أني: أنصرُهم في الدُّنيا على مَنْ بَغَى عليهم.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ أي: مَنْ جازى الظَّالمَ بمثلِ ما ظلَمَه، وسُمِّيَ جزاءُ العقوبةِ عقوبةً لاستواءِ الفِعْلَين في الصُّورة؛ أي: مَنْ قاتلَ المشركين كما قاتلوه وبُغِيَ عليه بالإزعاج من وطنِه.

قال مقاتل: نزلت في قومٍ من مشركي مكَّة لقوا المسلمين لليلتَيْن بقيَتا من المحرَّمِ، فقالوا: إنَّ أصحابَ محمَّدٍ يكرهون القتالَ في الشَّهرِ الحرامِ فاحملوا

---

(١) قرأ ابن عامر بتشديد التاء، وباقي السبعة بتخفيفها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(٢) قرأ نافع بفتح الميم، وباقي السبعة بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ٩٥).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٨٠)، وفيه: «بنياتهم» بدل «بنبئهم».

عليهم، فناشدَهم المسلمون أنْ يقاتلوهم في الشَّهر الحرامِ، فأبى المشركون إلَّا القتالَ، فحملوا عليهم، فثبَتَ المسلمون ونصرَهم اللهُ، وحصَلَ في أنفسِ المسلمين من القتالِ في الشَّهرِ الحرامِ شيءٌ، فنزلَتْ هذه الآيةُ[1].

وقيل: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لينصرَنَّ محمَّداً عليه السلام وأصحابَه، فإنَّ الكفارَ بغَوا عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ أي: عفا عن المؤمنين ذنوبَهم وقتالَهم في الشَّهر الحرامِ وسترَ.

* * *

(٦١) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: هذا الذي تقدَّم مِنْ فِعلي هو بأنِّي أنا الذي أولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ، فلا يقدرُ أحدٌ على ما أقدِرُ عليه؛ أي: مَنْ قدَرَ على هذا قدَرَ على أن ينصرَ عبدَه.

* * *

(٦٢) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ذلك الذي فَعَلَ مِـنَ النَّصرِ بأنَّه ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ذو الحقِّ، ودينُه الحقُّ وعبادتُه حقٌّ، والمؤمنون يستحقُّون منه النَّصر بحكمِ وعدِه.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ١٣٥).

وقيل: ذلك الذي سبقَ مِنْ أنَّه يولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ لأنَّه الإلهُ المستحِقُّ للإلهيَّة.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالتاء والياء[1] ﴿مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ أي: الأصنام؛ أي: لا استحقاق لها في العبادة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾؛ أي: العالي على كلِّ شيءٍ بقدرتِه، والعالي عن الأشباهِ والأندادِ.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يصغُرُ مقدارُ كلِّ شيءٍ سواه.

***

(٦٣) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ دَلَّ على كمالِ قدرتِه، يعني: أنزلَ[2] المطرِ ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾؛ أي: بالنَّباتِ بعدَ أنْ كانَتْ هامدةً يابسةً، فمَنْ قدرَ على هذا قدرَ على إعادةِ الحياةِ بعدَ الموتِ.

﴿فَتُصْبِحُ﴾ رفعٌ على الاستئناف وليس بجواب الاستفهام؛ كقراءةِ مَن قرأ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفُهُۥ لَهُۥ﴾[3]؛ أي: فهو يضاعفُه.

وسئل الخليل عن الرفع في ﴿فَتُصْبِحُ﴾ فقال: ليس هذا بجوابٍ لقوله: ﴿أَلَمْ

---

(١) قرأ ابن كثير وشعبة ونافع وابن عامر بالتاء، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) في (ج): «إنزال».

(٣) قرأ عاصم وابن عامر بنصب الفاء من ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾، وباقي السبعة برفعها. انظر: «التيسير» (ص: ٨١).

تَـرَ﴾ إذ لم يقل: ألم تر فتصبحَ، بل هذا واجب، و﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ تنبيهٌ، فتقديرُه: اسمعْ يا فلانُ أنزلَ اللهُ من السَّماءِ ماءً فكان كذا وكذا[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عالمٌ ببواطنِ الأشياءِ.

وقال ابـنُ عبَّاسٍ: خبيرٌ بما ينطوي عليه العبدُ مِـنَ القُنوطِ عند تأخيرِ المطرِ، لطيفٌ بأرزاقِ عبادِه[٢].

وقيل: لطيفٌ باستخراجِ النَّباتِ مِنَ الأرضِ، خبيرٌ بما يحدُثُ مِنْ ذلك الماءِ ومِنْ ذلك النَّباتِ.

وقيل: ﴿لَطِيفٌ﴾ أي: بأنْ يخلقَه خبيرٌ عالمٌ بمصالِحهم.

* * *

(٦٤) ـ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلُّ شـيءٍ يحتـاجُ إلـى تدبيـرِه وإتقانِـه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فـلا يحتـاجُ إلـى شـيءٍ، وهـو المحمـودُ فـي كلِّ حـالٍ.

* * *

---

(١) ذكـره عنـه الزجـاج فـي «معانـي القـرآن» (٣/ ٤٣٦)، والنحـاس فـي «معانـي القـرآن» (٤/ ٤٢٩)، والواحـدي فـي «البسـيط» (١٥/ ٤٨٤)، وصرحـوا أن السـائل هـو سـيبويه. وكلامـه فـي «الكتاب» (٣/ ٤٠).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٨٧).

(٦٥) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ذكر نعمةً أخرى، فأخبرَ أنَّه سخَّرَ للعبادِ ما يحتاجون إليه مِنَ الدَّوابِّ ومن غيرِ الدَّوابِّ.

قال ابن عباس: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: البهائمَ التي تُركَبُ وتُؤكَلُ(١).

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: وسخَّرَ لكم الفلكَ في حالِ جَرْيِها.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ﴾؛ أي: كراهةَ أنْ تقعَ، فهو نصبٌ لأنَّه مفعولٌ له؛ أي: لكراهتِه أنْ تقعَ، ومذهب الكوفيين: لئلَّا تقعَ، وإمساكُه لها خلقُ السكونِ فيها حالاً بعد حالٍ.

﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾؛ أي: إلَّا بإذنِ اللهِ لها بالوقوعِ فتقعَ بإذنِه؛ أي: بإرادتِه وتخليتِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: في هذه الأشياءِ التي سخَّرها لهم.

* * *

(٦٦) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ﴾؛ أي: بعدَ أنْ كنتُم نُطَفاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندَ آجالِكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: للحسابِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ يعني بالإنسان: الكافر.

وقيل: إنَّما قال ذلك لأنَّ الغالبَ على الإنسان كُفْرُ المنعِمِ؛ كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

* * *

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٨٧).

(٦٧) ـ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ ثمَّ بيَّنَ أنَّه تعالى جعلَ لكلِّ قومٍ شرعاً.

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: لا ينازِعَنَّكَ أحدٌ منهم فيما شُرِعَ لأمَّتِكَ، فقد كانت الشَّرائعُ في كلِّ عصرٍ.

وقيل: ﴿مَنسَكًا﴾ أي: ذبائح؛ أي: جعلنا لكلِّ قومٍ ضرباً من القُربان يتقرَّبون به إلى اللهِ تعالى، فليس لهم منازَعَتُكَ فيما أمرْتَهم به من الذَّبائح؛ لاتِّفاقِهم على جوازِ ذلكَ.

قرئ ﴿مَنسَكًا﴾ بكسر السين وفتحها[1]، وقد مضى المعنى.

والنُّسُكُ: العبادةُ، والنُّسُكُ أيضاً: الذَّبيحةُ، يقال: مَن فَعَلَ هذا فعليه نُسُكٌ؛ أي: دمٌ.

نزلتِ الآيةُ في بُدَيلِ بنِ وَرقاءَ الخزاعيِّ وجماعةٍ من خُزاعةٍ وغيرِهم من كفَّار قريش، قالوا للمؤمنين: ما قتلَ اللهُ لكم أحقُّ أن تأكلوه ممَّا قتلْتُم أنتم بسكاكينِكم[2].

وقال الزَّجاجُ: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ أي: لا تنازعْهُم أنتَ، نزلَتِ الآيةُ قبلَ الأمرِ

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بكسر السين والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٨/ ٤٠٣) ولم يذكر له سنداً ولا رواياً. وروي نحو هذا في نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]. رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٥٠) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٢٢ ـ ٥٢٦) عن ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد والضحاك وغيرهم.

بالقتالِ، تقول: لا يُضارِبَنَّك فلانٌ؛ أي: لا تضاربْه أنت، فيجري هذا في باب المفاعلة، ولا يقال: لا يضربنَّك زيدٌ، وأنت تريد: لا تضربْ زيداً[١].

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى توحيدِه والإيمانِ به ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾؛ أي: دينٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: قويمٍ.

وقيل: أنكرَ قومٌ ذبائحَ الحجِّ فنزلَتِ الآيةُ؛ أي: أنتم معترفون بالتقرُّبِ بالذَّبائحِ إلى اللهِ، فالموضِعُ الذي تذبحونَ فيه تعظِّمونَه بأمرِ اللهِ تعالى، وقد أُمرنا بتعظيمِ مكَّةَ واتِّخاذِها مَذبحاً.

***

(٦٨ - ٦٩) - ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾؛ أي: خاصَموكَ ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: مِنْ تكذيبِ محمَّدٍ صلى الله عليه.

وقيل: بما تعملونَ وما تعملُ فـ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: بينَنا وبينكم.

وقيل: كان جدالُهم تعنُّتاً بعدَ أنْ قُرِّرَتْ حُجَجُ التَّوحيدِ والنُّبوةِ، فأمرَهُ بالإعراضِ عن مماراتِهم صيانةً له عن الاشتغالِ بتعنيتِهم، ولا جوابَ لصاحبِ العِنادِ.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: بينَنا وبينكم.

وقيل: إنَّ قوماً كانوا يخالفونَ في موضعِ الذَّبحِ، وذبَحَ قومٌ على اسمِ الصَّنمِ، وأكَلَ قومٌ الميتاتِ، وتحكَّمَ أقوامٌ بالبَحيرةِ والسَّائبةِ، وتصرَّفوا في التَّحريمِ وفي التَّحليل، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣٧).

ثـم، قيل: الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ؛ يعني: السُّكوتُ عمَّنْ خالفَه والاكتفاءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾.

***

(٧٠) ـ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: فإذْ قد علمْتَ هذا فاعلم أنَّه يعلمُ أيضاً ما أنتم مختلفونَ فيه، فهو يحكمُ بينكم.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾؛ أي: كلُّ ما يجري في العالَم فهو مكتوبٌ عندَ اللهِ تعالى في أمِّ الكتاب ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾؛ أي: لا يَلحقُه تعبٌ في شيءٍ.

***

(٧١) ـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ أي: الأصنامَ، ولم يُنزلِ اللهُ به حُجَّةً ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾؛ أي: لا أحدَ يمنَعُ حلولَ العِقابِ بهم.

***

(٧٢) ـ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾؛ أي: على عبدةِ الأصنامِ، وعجزوا

عن معارضتِها، عُرِفَ في وجوهِهم الكراهةُ والغضبُ على مَنْ يتلوها عليهم حتَّى يكادوا يسطونَ بالذي يقرأُ عليهم القرآن.

فالمنكَرُ بمعنى الإنكار، والسَّطْوُ: شدَّةُ البطشِ، واللهُ ذو سَطَواتٍ؛ أي: أخذاتٍ شديدةٍ، يقال: سَطَا به وسَطَا عليه.

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ﴾؛ أي: أكرَهُ مِنْ هذا القرآنِ الذي تسمعونَه هو النَّارُ، فكأنَّهم قالوا: ما الذي هو شرٌّ؟ فقيل: هو النَّارُ.

وقيل: أي: هل أنبئكُم بشرٍّ ممَّا يلحقُ تالي القرآنِ منكم؟ هو النَّارُ، فيكون هذا وعيداً لهم على سطوتِهم بالذي يتلو القرآنَ.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: الموضعُ الذي يصيرونَ إليه، وهو النَّارُ.

* * *

(٧٣) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾؛ أي: ذُكِرَ شِبْهُ الصَّنم ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: تعبدون من الأصنام ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾؛ أي: لن يستطيعوا ذلك.

قال الأخفشُ: ليس هاهنا مَثَلٌ؛ لأن المعنى أن الله قال: ضُربَ لي مثلٌ[1]؛ أي:

---

(١) في (ج): «ليس هاهنا مثل بل ضرب الله لي مثلًا»، والتصويب من «معاني القرآن» للأخفش و«البسيط».

جُعِلَ لي مِثْلٌ أو شِبْهُهُ مِنَ الأصنامِ، فاستمعوا لهذا المثلِ الذي جعَلوه مَثَلي ـ والمَثَلُ والمِثْلُ بمعنًى ـ إنَّهم لن يقدروا على خلقِ ذبابٍ، فكيف يعتقدون الصَّنم مثلاً لله تعالى وهو ربُّ كلِّ شيءٍ(١)؟

والذُّبابُ اسمٌ واحدٌ للذَّكر والأنثى، والجمعُ: أذِبَّةٌ وذِبَّانٌ، مثل: غرابٍ وأغربةٍ وغِربانٍ، وسُمِّي به لكثرةِ حركتِه، يقال: ذبَّ الرجلُ وذبذبَ؛ أي: أسرعَ السَّيرَ، وذبابُ الهودجِ: ما يعلقُ منه فيتردَّد في الهواء، والذَّبُّ: الرَّجلُ الخفيفُ الحركةِ، والذَّبْذَبُ: ذكَرُ الرَّجُلِ؛ لتردُّدِه.

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ: التخليص.

قال ابنُ عبَّاسٍ: كانوا يُطلونَ أصنامَهم بالزَّعفرانِ فيجفُّ فيأتي الذُّبابُ فيختلسُه(٢).

وقال السُّديُّ: كانوا يجعلونَ للأصنامِ طعاماً فيقعُ عليه الذُّبابُ فيأكلُ(٣).

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الطَّالبُ: الصَّنمُ، والمطلوبُ الذُّبابُ.

وقيل: الطَّالبُ الذُّبابُ، والمطلوبُ الصَّنمُ.

وقيل: أي: العابدُ والمعبودُ، والطَّالبُ الذي يطلبُ إلى هذا الصَّنم بالتَّقرُّبِ إليه، والصَّنمُ المطلوبُ إليه.

وقال قوم: الآيةُ ضرْبُ مَثَلٍ على التَّحقيق، ولكن لم يصرِّح بذلكَ المثلِ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ أي: مَثَلُكم مثلُ مَنْ عَبَدَ آلهةً اجتمعَتْ لتخلُقَ ذباباً فلم تقدرْ عليه.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٥٢)، و«البسيط» (١٥/ ٤٩٧)

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٩٩)، وذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٠٥).

والأكثر: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء، وعن يعقوب بالياء[١].

***

(٧٤) - ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ أي: ما عظَّموهُ حقَّ عظمتِه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾؛ أي: الذي يُعبدُ يجبُ أنْ يكونَ قادراً على الكمالِ. والقوَّةُ: القدرة.

﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: منيعٌ في ملكِه.

قال الكلبيُّ: نزلَتْ في جماعةٍ مِنْ يهودِ المدينةِ قالوا: لَمَّا فرغَ اللهُ من خلقِ السَّماواتِ والأرضِ أعيَى فاستلقى فاستراحَ، ووضعَ إحدى رجلَيْهِ على الأخرى، وكذَبَ أعداءُ اللهِ، فنزلَ قولُه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١][٢].

***

(٧٥) - ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ ختمَ السُّورةَ بأنَّ اللهَ اصطفى محمَّدًا لتبليغِ الرِّسالةِ؛ أي: ليسَ بعثةُ محمَّدٍ أمراً بِدْعيًّا، وقدْ أرسلَ اللهُ إلى الخلْقِ رُسُلاً، والاصطفاءُ: الاختيارُ، واختصاصُ بعضِ الآدميِّينَ بالرِّسالةِ كاختصاصِ بعضِ الملائكةِ مِنَ الملائكةِ؛ أي: جبريلَ وميكائيلَ وغيرهما.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني: محمَّداً عليه السلام، قيل: قال الوليدُ بنُ المغيرةِ: أأنزِلَ

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٧).

(٢) ذكره عن الكلبي الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٠٢)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

عليه الذِّكْرُ مِنْ بينِنا، فنزلَتِ الآيةُ[1]؛ أي: إنَّ الاختيارَ إلى اللهِ تعالى يختارُ مَنْ يشاءُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ بمقالتِهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بمَنْ يتَّخذُه رسولاً.

* * *

(٧٦) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: ما قدَّموا وأخرَّوا.

وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما عمِلوه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: ما يعملونَه في المستقبلِ.

وقيل: يعلمُ ما كانَ قبلَ خلقِ الملائكةِ، ويعلمُ ما يكونُ بعدَ خلقِهم؛ لأنَّه جرى ذكرهم.

وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الدُّنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآخرة، وقيل على العكس.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: هو عالمٌ بجميعِها، وإليه ترجَعُ الأمورُ في الآخرةِ وتنقطعُ الدَّعاوى.

* * *

(٧٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾؛ أي: صلُّوا فإنَّ الرُّكوعَ والسُّجودَ من خاصيَّةِ الصَّلاة.

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٧١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٤) دون نسبة، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٠٣) عن مقاتل.

﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: امتثلوا أمره ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾؛ أي: ما أمركم به.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: إذا فعلْتُم ذلك فكونوا على رجاءٍ مِنَ الفَلاحِ.

* * *

(٧٨) - ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قيل: عنى الجهادَ مع الكفَّارِ، وهو فرضُ عينٍ في بعضِ الأحوالِ، وفرضُ كفايةٍ في بعضِ الأحوال.

وقيل: هو إشارةٌ إلى امتثالِ جميعِ ما أمرَ اللهُ بِهِ، والانتهاءِ عن كلِّ ما نهى عنه؛ أي: جاهدوا أنفسَكم في ذاتِ اللهِ وردُّوها عن الهوى، وجاهدوا الشَّيطانَ في ردِّ وساوسِه حقَّ جهادِه.

قال مقاتلٌ: نسخَها قولُه تعالى في (التغابن): ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦](١).

وقال ابن عباس: أي: بنيَّةٍ صادقةٍ(٢)، وهو أنْ يُصلِحَ مِنْ غيرِ تقصيرٍ.

ثمَّ المأمورُ بقدْرِ الوسعِ، فلا حاجةَ إلى تقدير النَّسْخِ.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾؛ أي: اختارَكُمْ للذَّبِّ عن دينِه والتزامِ أمرِه، وهذا تأكيدٌ للأمرِ بالمجاهدةِ؛ أي: وجبَ عليكم أن تجاهدوا لأنَّ اللهَ اختارَكم له.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ١٣٩).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: لم يأمرْكُم بما يَضيقُ عنه وسعُكم، أمرَكُم بالجهادِ، وحَطَّ عن الأعمى والأعرجِ، وعمَّنْ عُدِمَ النَّفقةِ، وعمَّنْ له غريمٌ، ووالدان، وعيالٌ لا يأذنونَ له، وهكذا في جميع الواجبات تخفيفاتٌ، وحَطَّ عن هذه الأمَّةِ الإصرَ الذي كان على بني إسرائيل.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: أنتم أحقُّ باتِّباع أبيكم وإقامةِ دينِه.

﴿مِّلَّةَ﴾؛ أي: اتَّبعوا ملَّة أبيكم، أو: عليكم ملَّةَ أبيكم، وقيل: وافعلوا الخير فعلَ أبيكم إبراهيم، فإنَّ فِعْلَ إبراهيمَ هو ملَّتُه، فأقامَ الملَّةَ مُقامَ الفعلِ.

﴿أَبِيكُمْ﴾ لأنَّ إبراهيمَ أبو العربِ قاطبةً.

وقيل: هو خطابٌ لجميعِ المسلمين، فهو أبو المسلمينَ كلِّهم؛ لأنَّ حرمتَه عليهم كحرمةِ الوالدِ، كما قالَ نبيُّنا صلى الله عليه: «إنَّما أنا لكم مثلُ الوالدِ للولدِ»[1]، وإنَّما أُمِرْنا باتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ لأنَّها داخلةٌ في ملَّةِ محمَّدٍ عليهما السلام.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ سمَّاكم المسلمين مِنْ قبلِ إنزالِ القرآنِ في الكتبِ السَّابقةِ وفي اللَّوحِ المحفوظِ ﴿وَفِي هَٰذَا﴾؛ أي: وفي القرآن.

وقيل: ﴿هُوَ﴾ يرجعُ إلى ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: إبراهيمُ سمَّاكُم المسلمين؛ إذ أخبرَ الرَّبُّ عن قولِ إبراهيمَ: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، فكانَ إبراهيمُ حكمَ بأنَّ كلَّ مَنْ آمنَ بمحمَّدٍ عليه السلام فإنَّه يُسمَّى مسلماً.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾؛ أي: جاهدوا في اللهِ يشهدْ لكم الرَّسولُ يومَ القيامةِ بأنَّكم

---

(١) رواه بهذا اللفظ الدارمي في «مسنده» (٧٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه أبو داود (٨) بلفظ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه».

أطعْتُم أمرَ اللهِ، فإذا شهِدَ بذلك ظهرَ للأممِ أنَّكم المسلمونَ العُدولُ، فتصيرون بذلك شهداءَ على سائرِ الأممِ بأنَّ رسلَهم بلَّغوهم عن اللهِ تعالى، وفي هذا أجلُّ مرتبةٍ لكم.

وقيل: هو اجتباكم وسمَّاكم المسلمينَ ليكونَ الرَّسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداءَ على النَّاسِ.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: دُوموا على العبادات.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: تقوَّوا باللهِ بالتَّوكُّلِ عليه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: سلوا ربَّكم أنْ يَعصمَكُم مِنْ كلِّ ما يَسخَطُ ويَكرَهُ[1].

﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: ناصرُكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾؛ أي: فنِعْمَ المولى هو لكم ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فإنَّ مَنْ تولَّاه اللهُ لم يغلبْهُ أحدٌ.

* * *

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥١٢).

سُورَةُ المؤمنون

تفسير سورة المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ ـ ١١) ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ رَوى أنسٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «خَلَق اللهُ جنةَ عدنٍ، وغَرَس أشجارها بيدِه، وقال لها: تكلَّمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»[١].

وقال [عمرُ] رضي الله عنه: كان إذا نَزَل الوحيُ على رسولِ الله ﷺ يُسمع عند وجهِه كدَوِيِّ النحل، فنزل عليه الوحيُّ، فمَكَث ساعةً ثم استقْبَلَ القِبلةَ ورَفَع يديه وقال: «اللهمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصْنا، وأَكْرِمْنا ولا تُهِنَّا، وأَعْطِنا ولا تَحرِمْنا، وآثِرْنا ولا تُؤْثِرْ

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٨٠) وصححه، فتعقبه الذهبي بقوله: بل ضعيف.

وأعله ابن عدي بعلي بن عاصم وقال عنه: «الضعف بيِّن على حديثه»، وتعقبه الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٣٧) بقوله: «ولقد أساء ابن عدي في إيراده هذه البواطيل في ترجمة علي، والعلاء [بن مسلمة] متهم بالكذب»، وقال نحو هذا في «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٢٦٠).

علينا، [وأرضنَا] وارْضَ عنَّا»، ثم قال: «لقد أُنزلَتْ علينا عشرُ آياتٍ مَن أقامَهُنَّ دخَل الجنَّة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى عشر آيات[١].

﴿قَدْ﴾ للتأكيد، والفلاحُ: الفوز، وقيل: البقاء؛ أي: سُعِدَ المصدِّقُون وبقُوا في الجنة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾؛ أي: متذلِّلون لله تعالى، وهذا الخشوعُ: سكونُ الأطرافِ وتركُ الالتفاتِ.

قال ابن عباسٍ: يخشعُ من خوفِ الله تعالى فلا يَعرف مَن على يَمينه ويَساره[٢].

وفي الخبر: كان عليه السلام إذا صلَّى نظَر في السماء، فلما نزَلَتِ الآيةُ كان بعد ذلك يضعُ نظَرَه بحيث يسجد[٣].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال ابن عباسٍ: عن الشِّرك[٤].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣)، والترمذي (٣١٧٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٤٤٣). قال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم ويونس بن سليم لا نعرفه. وما بين معكوفتين من مصادر التخريج

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٢١).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٨٣) من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فطأطأ رأسه». قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين لولا خلاف فيه على محمد، فقد قيل عنه مرسلاً. وقال الذهبي: الصحيح مرسل.
والمرسل رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٢٦١)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٨٣) وقال: هذا هو المحفوظ مرسل.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٢١) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيـل: عـن المعاصي والشـتمِ واليميـنِ الكاذبـةِ، وكلِّ ما لا يُحْمدُ مـن القولِ والفعل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾؛ أي: يؤدُّون الزَّكَوات.

قال الزجَّاج: ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ أي: مُؤْتُون[1]؛ لأنَّ الإيتاءَ فِعْلٌ.

وقيل: أي: والذين هـم للعمل الصالح فاعلون، كقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١] أي: خير منه عملاً صالحاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ هذا وصفٌ لهم بالوَرَع وقَمْعِ الشَّهوةِ المحرَّمةِ. ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ الفَرْج: السوأة، وأصلُه: الفُرْجةُ بينَ الشَّيئين.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾؛ أي: إلا مِن أزواجهم، فـ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى: مِن، قاله الفرَّاء[2].

وقـال الزجَّـاج: أي: يُلامُـون فـي ركـوبِ مـا حُظِـر عليهـم إلا علـى أزواجِهم فإنهـم لا يُلامُـون علـى إتيـانِ أزواجِهـم وجوارِيْهـم[3]، فـ﴿عَلَىٰٓ﴾ مِـن صفـةِ اللَّومِ المضمَـرِ، ولهـذا ذُكـر اللومُ في الآيـة؛ أي: والذين هـم لفُروجِهم حافِظـون مَلُومُون علـى تـركِ حفظِهـا إلا عـن أزواجِهـم، يعنـي: إذا لم يكـنْ مانعٌ مـن حيـضٍ ونِفاسٍ وظِهـارٍ وعِـدَّةٍ فإنهم غيـرُ مَلُومين.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٦)، وعبارته: «موضع «ما» خفض ودخلت «على» ههنا لأن المعنى أنهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم، إلا على أزواجهم فإنهم لا يلامون على ما أحل لهم من تزوج أربع، ومن ملك اليمين، والمعنى أنهم يلامون على ما سوى أزواجهم وملك أيمانهم».

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: طَلَبَ سوى الأزواجِ والولائدِ المملوكةِ له، و﴿وَرَآءَ﴾ بمعنى: سوى، وهو مفعولُ الابتغاء.

وقال الزجَّاج: أي: فمَن ابتغَى بعد ذلك[١]، فمفعولُ الابتغاءِ محذوفٌ، و﴿وَرَآءَ﴾ ظرفٌ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ يشارُ به إلى كلِّ مذكورٍ مؤنَّثاً كان أو مذكَّراً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾؛ أي: المجاوِزون الحدَّ، مِن عَدَا؛ أي: جاوَزَ الحدَّ وجارَ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ يعني: أماناتِ الناسِ كالودائعِ، وأماناتِ اللهِ كالوضوءِ والصلاةِ والصِّيام، وقُرئ ﴿لأَمَانَتِهم﴾، فهو مصدرٌ واسمُ جنسٍ، فيقعُ على الكثيرِ أيضاً.

﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ قيل: خَلْقِهم، وقيل: يعني: العقودَ التي عاقَدُوا الناسَ عليها، ويَدخلُ فيه النُّذورُ ﴿رَٰعُونَ﴾؛ أي: حافظون.

قوله تعالى: ﴿والَّذينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهم يُحافِظُون﴾؛ أي: يُواظِبون، قال ابنُ مسعود: لا يُخرِجونَها عن أوقاتها، فأمَّا تَرْكُها فالكفرُ[٢]، وقرئ ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾؛ أي: مَن عَمِل بما ذُكر في هذه الآياتِ فهم الوارثونَ منازلَ أهلِ النارِ من الجنَّة، وهو تفسيرُ النبيِّ صلى الله عليه[٤].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٦).

(٢) رواه ابن الجعد في «مسنده» (١٩٢٤)، ومحمد بن نصر المروزي في «الصلاة» (٦٢)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٦٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٩٣٨)، من طريق الحسن بن سعد والقاسم بن عبد الرحمن عن ابن مسعود رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٩): «الحسن بن سعد والقاسم لم يسمعا من ابن مسعود».

(٣) قرأ بالإفراد حمزة والكسائي، والباقون بالجمع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٤) رواه ابن ماجه (٤٣٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «ما منكم من أحد إلا له منزلان: =

وقيل: الميراثُ: العاقبة؛ أي: عاقبتُهم ومآلُ أمرِهم نعيمُ الجنة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ وهو البستانُ، ثم قيل: بلُغةِ الرُّوم، وقيل: بلُغةِ الحبشةِ، وإنْ ثبتَ ذلك فهو وفاقٌ بين اللُّغتين، وقال ابن عباس: هو خيرُ الجِنَان[1].

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون، وفي الخبر: «الفردوسُ رَبْوةُ الجنةِ العُلْيا، وهي أوسطُها وأحسنُها»[2].

= منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». قال البوصيري في «مصباح الزجاج» (٤/ ٢٢٦): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

وروى البخاري (٦٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة».

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٣٣).

(٢) رواه الترمذي (٣١٧٤) من طريق قتادة عن أنس رضي الله عنه: أن الربيع بنت النضر أتت النبي ﷺ وكان ابنها حارثة بن سراقة أصيب يوم بدر، أصابه سهم غرب، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: أخبرني عن حارثة لئن كان أصاب خيراً احتسبت وصبرت، وإن لم يصب الخير اجتهدت في الدعاء، فقال النبي ﷺ: «يا أم حارثة إنها جنان في جنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى، والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها». قال: حديث حسن صحيح غريب.

هكذا روى الترمذي محل الشاهد متصلاً بالحديث، وفي رواية الإمام أحمد في «مسنده» (١٣٧٤١) هو من قول قتادة.

ورواه البزار في «مسنده» (٤٥٨٢) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، ولفظه: «الفردوس ربوة الجنة فإذا سألتم الله تبارك وتعالى فاسألوه الفردوس»، و(٤٦٤٩) بلفظ: «إن الفردوس هي ربوة الجنة الوسطى التي هي أرفعها وأحسنها»، وكذا رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٨٨٥). =

(١٢ ـ ١٤) ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ ﴾ ثم عرَّفهم ابتداءَ خَلْقِهم وأنهم ميِّتون فمبعوثون لم يُخلَقوا عبثاً ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: ابن آدم، والسُّلالةُ فُعَالةٌ من السَّلِّ، وهو استخراجُ الشيءِ من الشيءِ، يقال: سَلَلْتُ الشَّعرَ من العَجين، والسيفَ من الغِمْدِ فانْسلَّ، فالنطفةُ سُلالةٌ، والولدُ سليلٌ، و﴿سُلَـٰلَةٍ﴾ عُني به الماءُ يُسلُّ من الظَّهر سلًّا.

وقوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ أي: أنَّ الأصلَ آدمُ وهو من طين.

وقيل: الإنسان هاهنا آدم استُلَّ من طين؛ قال الكلبيُّ: السلالةُ: الطينُ إذا عصَرْتَه انسلَّ من بينِ أصابِعِكَ، فالذي يَخرجُ هو السُّلالةُ[(١)].

قولـه تعالـى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً ﴾ مَن قال: «الإنسـانُ ابـنُ آدمَ» فالكنايـةُ ظاهرةٌ، ومَـن قـال: «آدمُ» فالكنايةُ في قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ ﴾ تَرْجعُ إلى ابـنِ آدمَ، وجاز ذلك لأنَّه لمَّـا ذَكَـر الإنسـانَ ـ وهـو آدمُ ـ دلَّ ذلك على إنسـانٍ مثلِه، وأيضـاً ابـنُ آدمَ بعضٌ مِن

= قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٨): «وأحد أسانيد الطبراني رجاله وثقوا، وفي بعضهم ضعف».

وبمعناه ما رواه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة».

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٨)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٣٦).

آدمَ، قال الجُرْجانيُّ[١]: ومثلُه: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا﴾ [المائدة: ١٠١]، فقولُه: ﴿عَنْهَا﴾ لا يعودُ على ﴿أَشْيَآءَ﴾ في قولِه: ﴿عَنْ أَشْيَآءَ﴾، بل يعودُ إلى أشياءَ أُخرَ سواها لا هي، وجاز ذلك لأنَّ المذكورةَ دلتْ عليها حيث اجتمعَتا في اللفظ.

﴿فِى قَرَارٍ﴾؛ أي: مستقَرٍّ، فسمَّاه بالمصدر.

و﴿مَّكِينٍ﴾؛ أي: مطمئنٍّ غيرِ مضطرِب.

يريدُ بالقرارِ المكينِ: الرَّحِم، وقد قال الله تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٨]، فالمخلوقُ من الطين آدمُ، والمخلوقُ من الماءِ المهينِ نسلُه.

والنُّطفةُ: الماءُ القليل، يقالُ: نَطَفَتْ قِرْبَتُكَ؛ أي: قَطَرتْ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾؛ أي: نقَلْنا النُّطفةَ التي هي بيضاءُ عن حالِها إلى أنْ صيَّرْناها علقةً، وهي الدمُ، وهذا بإحداثِ أعراضٍ أُخَرَ فيها وإبطالِ أعراضٍ، سمِّي ذلك خلقاً لها، والعلقةُ: الدَّمُ الجامدُ قبلَ أنْ يتغيَّر، والمضغةُ: القطعةُ من اللحم ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ وقرئ: ﴿العَظْمَ﴾ وكذلك ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ و﴿عَظْماً﴾[٢].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال ابن عباسٍ: يعني: نَفْخَ الروحِ فيه[٣]، وإنما سمَّاه خلقاً آخَرَ لأنه صار حيواناً بعدَ أنْ كان جماداً.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٧/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨).

(٢) قرأ بها أبو بكر وابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٢).

وقيل: يعني به: نباتَ الشَّعَرِ والسِّنِّ.

وقيل: يعني به: تصريفَه بعد الولادةِ إلى الطفولةِ والكهولةِ والشبابِ إلى الموت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥].

وقال ابنُ عمرَ: هو استواءُ الشباب(١).

وقيل: أي: جعَلْناه ذكَراً وأُنثى، والهاءُ في ﴿أَنشَأْنَاهُ﴾ ترجعُ إلى الإنسانِ أو إلى العظم.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾؛ أي: استحَقَّ التعظيمَ والثناء، وقيل: أي: إن نِعَمَه دائمةٌ باقيةٌ.

﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؛ أي: المصوِّرين والمقدِّرين، يقال: خلَقْتُ الأديمَ؛ أي: قدَّرْتُه لأقطعَ منه شيئاً.

قال مقاتلٌ: هو أحسنُ خلقاً من الذين يخلُقون التماثيلَ التي لا يتحرَّكُ منها شيءٌ(٢).

***

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾؛ أي: عندَ انقضاءِ آجالِكم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾؛ أي: لتعْلَموا أنكم لم تُخْلَقوا عبثاً، وهذا لا يدلُّ على أنه لا يكونُ بين الموتِ والبعثِ للقيامة حياةٌ بسببِ سؤالِ القبر، وهذا كما أَخبرَ أنه أماتَ قوماً في الدنيا ثم أحياهم كما قال: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٤٢)، والواحدي في «تفسيره» (١٥/ ٥٤١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٤) عن مجاهد.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ١٥٣).

[البقرة: ٢٥٩]، وأَخبر تعالى أن عيسى كان يُحيي الموتى، وأحيا قتيلاً من بني إسرائيلَ بضربهِ بالبقرة، ولم تتضمَّنِ الآيةُ نفيَ هذه الأشياء.

***

(١٧ ـ ١٩) ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ مَنَّ بنِعَمِه على العِباد؛ أي: خلَقْنا السماوات، قال الفرَّاء: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ كلُّ سماءٍ طريقةٌ[1].

وقيل: هو من قولهم: طارَقَ بينَهما؛ أي: ظاهَرَ، فبعضُها فوقَ بعضٍ.

وقيل: هي طرائقُ الملائكة يسيرون فيها كيفَ شاؤوا بأمرِ الله تعالى.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾؛ أي: لم نَتركْ ما يصلحُهم ويُقيمُهم، والخلقُ بمعنى: المخلوق.

وقيل: لم نكنْ لِنَغْفُلَ عن جميعِ ما خلَقْنا من السماواتِ وعمَّا تحتها.

و(كان) صلةٌ؛ أي: ولَسْنا غافلينَ عنهم، وقيل: أي: نعلم مَن يشكرُ ومَن يكفرُ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بقَدَرٍ معلوم تسهُل به معايشُهم ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾ ذلك الماءَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو العيونُ، وفي قدرتِنا إذهابُه وتغويرُ العيونِ؛ كقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠].

وقيل: هو إشارةٌ إلى الماء العَذْب، رفعَه بلُطْفِه وحُسنِ تقديرِه من البحر إلى

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٢).

السماء حتى طاب بذلك الرفعِ والتصعيدِ، ثم أنزله إلى الأرض ليُنتفَعَ به، ولو كان الأمرُ إلى ماءِ البحر لَمَا انتُفِع به مِن مُلوحته.

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾؛ أي: جعَلْنا ذلك سببَ النبات ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ﴾ من غيرِ الرُّطَب والعِنَب لأنه ذكَرَهما بقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، ويجوزُ أن يَدخلَ العنبُ والرُّطَبُ في لفظ الفواكه.

﴿كَثِيرَةٌ﴾؛ أي: هي كثيرةُ الرَّيْع، فأكثرُ ثمارِ الحجاز هذانِ النوعان.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: منها تَقْتاتُون؛ أي: في هذه الجنَّاتِ ما يُقتاتُ وما يُتفكَّهُ به، وقوله: ﴿وَمِنْهَا﴾ يمكِنُ أن يَرجعَ إلى الفواكه ويُمكنُ أن يرجعَ إلى الجنات.

***

(٢٠) - ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾؛ أي: وأنشأنا بالماءِ شجرةَ الزيتون، وأَفْرَدَها بالذِّكر لعظيمِ مَنافعِها في أرضِ الشامِ والحجاز.

وقيل: شجرةُ الزيتون لا تحتاجُ إلى متعهِّدٍ بالسَّقي والمراعاة، ويُتَّخَذُ من ثمرتها الدُّهنُ الذي تَعْظُم فيه المنفعةُ.

﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾؛ أي: أنبتَها الله تعالى في الأصلِ من هذا الجبل الذي باركَ فيه؛ كما قال: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

وقال مقاتل: كلُّ جبلٍ يحملُ الثمارَ فهو سيناءُ[١]؛ أي: حسنٌ[٢].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٥٧)، وفيه: «وكل جبل لا يحمل الثمر لا يقال له سيناء». وذكره بلفظ المصنف الواحدي والقرطبي، انظر التعليق الآتي.

(٢) في (ج): «أي حسناً»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٨)، وفي «البسيط» (١٥/ ٥٤٨): =

وقال الكلبيُّ: طورُ سيناء: الجبلُ المشجَّرُ[١].

وقال ابن عباس: يريد: الجبلَ الحسن[٢].

وقيل: أي: جَبَلُ البركة[٣].

وقيل: سيناءُ بالنَّبَطِية، وقيل: بالحَبَشِية.

وقال مجاهدٌ: سيناءُ حجرٌ بعَينِه أُضيفَ الجبلُ إليه لوجودِهِ عنده[٤].

والأظهر: أن ﴿سَيْنَآءَ﴾ اسمُ ذلك المكانِ الذي به هذا الجبلُ، وهو الجبلُ الذي نُودي منه موسى عليه السلام، وهو بينَ مصرَ وأَيْلَةَ.

وقيل: أولُ ما نَبَتَ الزيتونُ نَبَتَ هناك.

ثم؛ قرئ: ﴿سِيناءَ﴾ بكسر السين، فهو اسمٌ لبقعةٍ فلا ينصرِفُ، وقرئ ﴿سَيْنَآءَ﴾ على وزن فَعْلاء[٥].

= «يعني الحسن».

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٩٦٣) بلفظ: «جبل ذو شجر».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٤٧) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٤٨) من رواية عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعطية هو العوفي، ورواه من طريقه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٩) بلفظ: «هو جبل بالشام مبارك».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٤٨)، وهو بهذا اللفظ من كلام الواحدي فسر به كلام مجاهد، وعبارة الواحدي: «وقال مجاهد: ﴿سَيْنَاءَ﴾ حجارة. يعني: أن سيناء اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده». ورواه عنه عبد بن حميد بلفظ: «سيناء الحجارة»، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٩٦).

(٥) قرأ حمزة وعاصم والكسائي وابنُ عامر بفتح سين ﴿سَيناءَ﴾، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ قُرئ بضمِّ التاء، فالباءُ زيادةٌ كقوله: «مَدَدْتُ ثوبَه» و«مددت بثوبه»، وقوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ أي: أيديَكم.

وقيل: أي: تُنبتُ هذه الشجرةُ ثمرةً والدُّهنُ فيها؛ كقولك: خرج بسيفِه؛ أي: وسيفُه معه؛ أي: «تُنبِتُ ثمرةً بالدُّهن» محذوفَ المفعول، و﴿بِٱلدُّهۡنِ﴾ في موضعِ الحال؛ أي: تُنبت الزيتونَ وفيه دهنٌ.

وقال أبو عليٍّ: هو مِن بابِ حذفِ المضاف؛ أي: تُنْبِتُ نَبْتَ الدُّهْنِ؛ أي: تُنبتُ ما فيه دُهنٌ[١].

قال: ويجوزُ أن يكونَ «أنبت» بمعنى: نَبَت[٢].

وقرئ: ﴿تَنۢبُتُ﴾ بفتحِ التاء[٣]، فالباءُ للتَّعديَة، يقالُ: نَبَت به؛ أي: أَنْبَتَه، والمعنى: تَنْبُتُ بالزيتونِ، والزيتونُ سببُ الزيتِ.

﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾؛ أي: يَصْطَبِغُ الناسُ بالزَّيتِ، والصِّبغُ والصِّباغُ: ما يُصطَبَغُ به، كاللُّبس واللِّباس.

وأصلُ الصِّبغ: ما يلوَّثُ به الثوبُ، فشبِّه الأَدَمُ به لأنَّ الخبزَ يُلوَّنُ بالصِّبغ إذا غُمِس فيه.

---

(١) لم أجده، وفي «الحجة» للفارسي (٥/ ٢٩٢): «ويجوز أن يكون الباء متعلِّقاً بغير هذا الفعل الظاهر، ويقدَّر مفعولاً محذوفاً تقديره: تنبت جناها أو ثمرتها وفيها دهنٌ وصبغ، كما تقول: خرج بثيابه وركب بسلاحه». وهو قريب من القول السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء، والباقون بفتح التاء وضم الباء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

وقال مقاتلٌ: الأَدَمُ: الزيتون، والدُّهن: الزيتُ، وقد جعَل الله في هذه الشجرةِ أَدَماً ودُهناً(١).

فالصِّبغُ على هذا: الزيتونُ.

* * *

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾؛ أي: لكم فيها ما تَستدلُّون به على قدرةِ الله تعالى ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ بضمِّ النون؛ أي: نُخْرِجُ لكم من بطونها ﴿لَبَنًا﴾.

وقرئ بفتح النون(٢)، والمعنى واحد.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الأنعام ﴿مَنَافِعُ﴾ من أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها وجلودِها.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: من لحومِها وأولادِها والكسبِ عليها.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾؛ أي: وعلى الأنعامِ في البرِّ ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحرِ ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما يحمَلُ في البرِّ على الإبل، فيجوزُ أن ترجعَ الكنايةُ إلى بعضِ

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ١٥٤) وعبارته: «فجعل الله عز وجل في هذه الشجرة أدماً ودهناً» دون شرح الأدم والدهن.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ويعقوبُ بفتح النون من السَّقي، وقرأ أبو جعفر بتاء مفتوحة، والباقون بضم النون من الإسقاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤).

الأنعام، ورُوي أن رجلاً ركب بقرةً في الزمانِ الأوَّلِ، فأنطقها الله تعالى معه وقالت: إنَّا لم نُخلقْ لهذا، وإنما خُلِقْنا للحَرْث[1].

***

(٢٣ ـ ٢٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ لمَّا عدَّد النِّعَم ذَكَر أخبارَ الأممِ الماضيةِ، وأنَّ مَن كفَر منهم النِّعَمَ حلَّتْ به النِّقَمُ، وسمِّي نوحاً لنياحتِه على نفسِه لمَّا استعجَلَ عذابَ قومه، ولِمَا قيل له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وحِّدوه وأَطيعوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وغيرِه[2].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: أفَلَا تخافونَ عقابَه إذا كفرتُم به.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: الكُبَراءُ من قومِ نوحٍ لِمَن هو دُونَهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: ليس إلا آدميًّا ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يَسُودَكم ويَفْضُلَكم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ أي: لو شاء اللهُ أنْ لا يُعبدَ شيءٌ سواه لجَعَل رسوله ملَكاً ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾؛ أي: بهذا الذي يَدْعُونا نوحٌ إليه من التوحيد ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: في الأمم الماضية.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٤)، ومسلم (٢٣٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه، فقالت: لم أخلق لهذا، خلقت للحراثة».

(٢) قرأ الكسائي بالجر، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

والباءُ في ﴿بِهَٰذَا﴾ زائدةٌ؛ أي: ما سمعنا هذا، و﴿فِيٓ﴾ ظرفٌ لمحذوفٍ؛ أي: ما سمِعْنا هذا كائناً في آبائنا.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾؛ أي: ما نوحٌ رسولُ الله تعالى، بل هو رجلٌ به جنونٌ لا يَدري ما يَقولُ، ولو كان له عقلٌ لَمَا طَمِع في اتِّباعنا له، وهو واحدٌ منَّا مِثْلُنا لا فضلَ له علينا.

والجنونُ: ما يسترُ العقلَ.

﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾؛ أي: انتظروا موتَه أو ادفعُوا أمرَه، فإمَّا أن يموتَ أو يتركَ ما هو عليه، أو يَحدُثُ لكم في أمرِه رأيٌ.

والجِنَّةُ: الجنون، والجِنَّةُ أيضاً: جمعُ الجنِّ، قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]، فيحتمِل أنهم أرادوا: ﴿بِهِۦ جِنَّةٞ﴾؛ أي: شيطانٌ استولى عليه.

* * *

(٢٦ ـ ٢٩) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛ أي: انتقِمْ لي منهم واحفَظْني مِن شرِّهم جزاءً لهم على تكذيبِهم لي، فهذا دعاءٌ عليهم بالإهلاك.

قيل: إنما قال هذا بعد أن أُوحي إليه أنه لن يؤمنَ من قومكَ إلا من قد آمَنَ.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: أرسَلْنا إليه رسلاً من السماء ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: اتَّخِذِ السفينةَ بمرأًى منَّا ﴿وَوَحْيِنَا﴾؛ أي: بأمرِنا، وذلك أنَّ جبريل هو الذي علَّمه عملَ السفينة.

وقيل: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: نحن نحفظُكَ؛ كما قال: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ [طه: ٤٦] فأنا أحفظُكما.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: عذابُنا، وسمَّاه الأمرَ تعظيماً له.

وقيل: هو كما يقالُ للشيء الفظيع: هذا أمرُ الله؛ أي: هـو الشيءُ الذي لا يقدِرُ عليه غيرُ الله.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ تنُّورٌ في دارِ نوحٍ جُعِل نُبوعُ الماء منه علامةً لهلاك القوم.

وقيل: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: اشتدَّ الأمرُ كما يفورُ القِدْرُ في الغَلَيان.

﴿فاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: اجعَلْ في سفينتِكَ مِن كلِّ جنسٍ مِن الحيوانِ ذَكَراً وأُنثى لئلا ينقطِعَ نسلُ الحيوان وجنسُه.

قال الحسنُ: لم يحمِلْ نوحٌ في السفينةِ إلا ما يلدُ ويَبيضُ، فأمَّا البقُّ والذُّبابُ والدُّودُ فلم يحمِلْ شيئاً منها، وإنما يخرجُ من الطين[1].

يقال: سلَكْتُ الخيطَ في الإبرةِ وأَسْلَكْتُه، ومنه سمِّي الخيطُ سِلْكاً.

﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الفُلك، والفلكُ يؤنَّث لقوله: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، ويذكَّر لقوله: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: من كلِّ صِنفينِ، ومنه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: ١٤٣]؛

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨).

أي: ثمانيةُ أصنافٍ، وقال: ﴿مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجر: ٨٨]؛ أي: أصنافاً ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ أي: ذكراً وأنثى، ولم يقل: «من كلِّ زوجٍ اثنين» لأنه لا يُوجِب من الذَّكَر اثنين، ومِن الأُنثى اثنين.

وفي روايةٍ عن عاصم: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين[1]؛ أي: من كلِّ ضَرْبٍ اثنين، كما قرئ: (وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه)[2]، فذكرُ ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ على هذه القراءةِ تأكيدٌ كقولك: «جاءني رجلان اثنان».

﴿وَأَهۡلَكَ﴾؛ أي: وأدخِلِ السفينةَ أهلَكَ؛ كما قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وأهلُه: نساؤه وولدُه.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: سبق من الله القولُ بأنه هالكٌ، وكان ابنُه وامرأتُه من هؤلاء، والقولُ السابقُ: ما كُتب في اللوحِ المحفوظِ من كفرهم.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾؛ أي: في الكفار من أهله وقومِه في تخليصَهم من الغرق ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾؛ أي: فإني أُغرقُهم، وإنَّما قال نوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: ٤٥] قبْلَ أنْ أُلقيَ إليه هذا الخطابُ، أو لعله حَمَل قولَه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ على سوى أهلِه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾؛ أي: على السفينة؛ أي: تمكَّنْتُم عليها راكبينَ ﴿فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: احمَدِ الله على تخليصِه إياكُم من الغرقِ ومن القومِ الكفار.

---

(١) هي رواية حفص عن عاصم، وقرأ الباقون بالإضافة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٣)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٢) نسبت لابن عباس والحسن والضحاك ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٣).

وقيل: ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: في الفلك.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾؛ أي: عند تمكُّنِكَ من السفينة، وقيل: عند نزولك من السفينة، والـمُنزَلُ مصدرٌ؛ أي: أنزلني إنزالاً مباركاً، وقيل: المنزَلُ موضعُ الإنزال؛ أي: أنزلني مكاناً مباركاً.

وفي روايةٍ عن عاصمٍ: ﴿مَنْزِلاً﴾ بفتحِ الميم وكسر الزاي[1]، فيجوزُ أن يكونَ مصدراً، ويجوزُ أن يكونَ موضعَ نزولٍ.

﴿مُّبَارَكًا﴾؛ أي: بحيث تتَّصلُ بنا البركاتُ حتى يهتديَ بنا الخَلْقُ.

* * *

(٣٠) ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في أمرِ نوحٍ والسفينةِ وإهلاكِ الكافرينَ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: لدلالاتٍ على كمالِ قدرةِ اللهِ تعالى، وأنه ينصرُ أنبياءَه ويُهلِكُ أعداءهم.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾؛ أي: ما كنَّا إلا مبتلِينَ الأممَ قَبْلَكم ليَظهرَ المطيعُ والعاصي.

وقيل: وإنْ كنَّا لمبتلِينَ من بعدِ نوحٍ وقومِه كما ابتليناهم.

وقيل: وإنْ كنَّا لمبتلِينَ قومَ نوحٍ قبلَ الغرقِ ليَتبيَّنَ إيمانُهم وكفرُهم، ومعنى هذا الابتلاء: أن يَبِينَ للملائكةِ حالُهم لا أنْ يستجدَّ الربُّ علماً.

وقيل: أي: نعاملُهم معامَلَةَ المختَبِرين.

وقيل: ﴿إِن كُنَّا﴾؛ أي: وقد كنَّا مبتلِين.

* * *

---

(١) قرأ بها شعبة عن عاصم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

(٣١ ـ ٤١) ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا
مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ
هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾: أخرَجْنا بعد قومِ نوحٍ قوماً آخرين؛ يعني: عاداً قومَ هود.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾؛ أي: هوداً ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من عشيرتهم يَعرفون مولدَه ومَنْشأَه ليكون سكونُهم إلى قوله أكثرَ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: الملأُ الكافرون، ويحتمِل: من قومه الكافرين، وكأنه قال: في قومه مَن آمَنَ وفيهم مَن كفر ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: وسَّعنا عليهم نِعَمَ الدنيا حتى بَطِروا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فلا فضلَ له عليكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ ولو كان نبيًّا لكان ملَكاً مُستغنياً عن الطعام.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: تكونوا خاسرينَ لأنكم أطَعْتُموه من غيرِ فضيلةٍ له عليكم.

قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أعاد ﴿أَنَّكُمْ﴾ فذكَره مرتين لأنه فرَق بينهما بـ﴿إِذَا﴾، وفي قراءة عبد الله: (أَيَعِدُكم إذا مِتُّمْ)[1]،

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٤)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٤١)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٤٥٦).

وهو كقولك: أظنُّ أنَّك إنْ خرجتَ أنك نادمٌ، ذكره الفراء[1].

قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾؛ أي: إن ذلك لا يكون.

قال الكلبيُّ: أي: بعيداً بعيداً ما يَعدُكم من يومِ البعث[2].

قال الفرَّاء: هو بمنزلةِ الصِّفة؛ أي: بعيدٌ ما تُوعدون.

قال: ويجوز: هيهاتَ ما تُوعَدون، وهيهاتَ لِمَا تُوعـدون، وهيهاتَ لكَ، وهيهاتَ أنت[3].

وقال الزجَّاج: هو بمعنَى البُعدِ؛ أي: البُعدُ لِمَا تُوعدون[4].

وقال أبو عليٍّ: هو بمنزلةِ الفعل؛ أي: بَعُدَ ما تُوعدون[5].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ هي كنايةٌ عن الحياة؛ أي: ما الحياةُ إلا ما نحن فيه لا الحياةُ الآخرةُ التي تَعِدُنا بعد البعث ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ قيل: فيه تقديمٌ وتأخير؛ أي: إنْ هي إلا حياتُنا الدنيا نحيا فيها ونموتُ.

وقيل: أي: يموتُ قومٌ منَّا ويحيا آخرون.

وقيل: نموت في الدنيا ونحيا بمَن يولَدُ من أولادنا وبما نخلِّفُه من الآثار.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: تقوَّلَ على اللهِ بدعوَى

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٥٨٣).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٥).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٣).

(٥) انظر: «المسائل الحلبيات» (ص: ٣٤٩).

النبوَّةِ وبأنَّ الله يُحيي بعد الموت ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدِّقين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ دعا على قومه بالهلاك، وهذا بعدَ اليأس من إيمانهم.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾؛ أي: فأوحى الله إليه؛ أي: عن قليلٍ من الزمان يندَمون، قيل: أي: بعد الموت، وقيل: يريد وقتَ نزولِ العذابِ بهم في الدنيا.

﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ اللَّامُ لامُ القَسَم؛ أي: والله ليُصْبِحُنَّ، والإصباحُ بمعنى المصير؛ أي: يَصيرون نادِمين.

و(ما) في قوله: ﴿عَمَّا﴾ زائدةٌ كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ قيل: هو عذابٌ بصياحٍ هائلٍ يموتُ منه الإنسانُ وينخلِعُ قلبُه، وفي التفاسير: صاح بهم جبريلُ صيحةً واحدةً مع الرِّيح التي أهلكهم الله بها فماتوا عن آخرهم(١).

وقيل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: أخَذَهم عذابٌ مصطَلِمٌ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: باستحقاقٍ منهم لها؛ كما تقولُ: حقُّك أن يُفعَلَ بك كذا؛ أي: إنك تَستحِقُّ ذلك.

وقيل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ بأنَّ ما جاء من عند الله تعالى له حقيقةٌ ولا دفعَ له.

وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لأنَّ للهِ تعالى أن يَفعل ما يشاء.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾؛ أي: أهلَكْناهم حتَّى صارُوا مَوتَى.

والغُثاءُ: ما يجيءُ على وجهِ السَّيلِ منَ الحشيشِ والقصبِ مـمَّا يبسَ وتفَتَّتَ،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦٣٦) عن المفسرين.

ومن أول السورة إلى هنا يوجد اختلاف بين النسختين (أ) و(ج)، والمثبت من النسخة (ج) للأسباب التي تقدمت في سورة الحج، وتنظر مقدمة التحقيق.

و: غَثا الماءُ يغثُو غثوًّا وغُثاءً؛ أي: كثُرَ فيه الورقُ والقصبُ؛ أي: جعَلْناهم كالشَّيءِ البالي من نبتِ الأرضِ يحملُه السَّيلُ.

﴿فَبُعْدًا﴾؛ أي: بُعْدًا لهم منَ الرَّحمةِ، وهي كلمةٌ تُطلَقُ بمعنَى: أبعدَه الله من الخيرِ.

وقيلَ: هو خبرٌ عن إبعادِ الله إيّاهم منَ الجنّةِ والرَّحمةِ.

﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المُشركينَ.

***

(٤٢ ـ ٤٣) ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: أُمَمًا في أوقاتٍ مُختلفةٍ، مثلَ قومِ صالحٍ ولوطٍ وشُعَيبٍ وغيرِهم، وفيه إضمارٌ؛ أي: فكذَّبوا أنبياءَهم فأهلَكْناهم.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾؛ أي: ما تسبقُ أمّةٌ الوقتَ المُؤقَّتَ لعذابِهم إنْ لم يُؤمِنُوا ولا تتأخَّرُ عنه.

***

(٤٤) ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾؛ أي: بعد هذه القُرونِ أيضًا أرسَلْنا رُسلَنا تَتْرى؛ أي: تَتَابَعُ مُتَّصلينَ ترغيبًا وترهيبًا.

﴿تَتْرَا﴾ بتركِ التَّنوينِ، وهي «فَعْلَى» منَ المُواترةِ، كالتَّقوَى والدَّعوَى.

وقال أبو عليٍّ: الأقيَسُ ألَّا يُصرَفُ، والمصادرُ قد تَلحقُ أواخرَها ألفُ التَّأنيثِ، كالدَّعوَى والعَدْوَى[1].

وقرأ أبو عمرٍو وابنُ كثيرٍ: ﴿تَتْرًا﴾ بالتَّنوينِ[2] فهو فَعْلٌ، تقولُ في الرَّفعِ: «تَتْرٌ»، وفي الجرِّ: «تَتْرٍ»، وفي الفتحِ «تَتْرًا»، والأصلُ: «وَتْراً» و«وَتْرَى»، فهو كقولِـهم: «تَولَجٌ»، الأصلُ: «وَوْلَجٌ»[3] من: وَلَجَ.

فـ«تترى» من: واتَرْتُ الخبرَ؛ أي: أتبعْتُ بعضَه بعضًا، وأصلُه من الوِترِ، وهو الفردُ، فمعنى «واتَرْتُ»: جعلتُ كلَّ واحدٍ بعد صاحبِه فردًا فردًا.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ تقليدًا لأسلافِهم.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاكِ.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾؛ أي: صيَّرْناهُم على حدٍّ يتحدَّثُ النّاسُ بعدَهم بذكرِهم.

والأحاديثُ: جمعُ أُحدوثةٍ، وهي ما يُتحَدَّثُ به.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: هلاكًا لهم، أو: أبعَدَهم الله تعالى.

***

(١) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٩٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

(٣) التَّوْلَجُ: كِناسُ الوحِش الذي يَلِجُ فيه. التاء مبدلة من الواو، وهو فوعل لأنك لا تكاد تجد في الكلام تفعل اسمًا. انظر: «الصحاح» (مادة: ولج).

(٤٥ـ٤٨) ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ إلى فرعونَ وقومِه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: بالدَّلائلِ ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: حجَّةٍ بيِّنةٍ.

وقيلَ: السُّلطانُ أنَّه أوجَبَ على الخلقِ الانقيادَ له.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ أي: تعظَّمُوا عن الإيمانِ ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾؛ أي: قاهِرينَ للنَّاسِ بالظُّلمِ، كما قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

وقيلَ: أي: علَوا في الكفرِ غايةَ العُلوِّ، لا سيَّما وقد بلَغُوا أعظَمَ منازِله.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؛ أي: أنُصدِّقُ إنسانَينِ مثلَنا من لحمٍ ودمٍ ليس لهما فضلٌ علينا ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؛ أي: بنو إسرائيلَ؟ ومَن أطاعَ غيرَه يُقالُ: عبَدَه ودانَ له.

قولُه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾؛ أي: موسى وهارونَ ﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾؛ أي: في البحر.

* * *

(٤٩) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: وحقًّا أنزَلْنا على موسى التَّوراةَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني: فرعونَ وقومَه.

والصَّحيحُ أنَّ المُرادَ: ليهتديَ به بنو إسرائيلَ؛ لأنَّ التَّوراةَ نزلَتْ على مُوسى بعد إغراقِ فرعونَ، وخُصَّ موسى بالذِّكرِ لأنَّ التَّوراةَ نزلَتْ على موسى في الطُّورِ وهارونُ يومَئذٍ خليفتُه في قومِه، ولو قال: «آتيناهُما» جازَ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

* * *

(٥٠) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾؛ أي: دلالةً على قُدرتِنا؛ فإنَّه وُلِدَ لا من أبٍ.

وقيلَ: دلالةً على صدقِه فيما ادَّعى منَ النُّبوّةِ.

ولم يقُلْ: «آيتَينِ» لأنَّ المعنَى فيهما معنى آيةٍ واحدةٍ، وهي ولادةٌ من غيرِ أبٍ، ولو قال: «آيتَينِ» لجازَ؛ لأنَّ مريمَ ولَدَتْ من غيرِ فحلٍ، وعيسى كان رُوحًا منَ الله ألقاه إلى مريمَ.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾؛ أي: جعَلْناهما يأوِيانِ ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾؛ أي: إلى مكانٍ مُرتفعٍ منَ الأرضِ.

قيلَ: هي دمشقُ.

وقيلَ: بيتُ المقدسِ.

وقيلَ: الرَّملةُ.

وقيلَ: أرضُ فلسطينَ منَ الشّامِ.

وقيلَ: مصرُ.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾؛ أي: مُستويةٍ يُستَقَرُّ عليها.

وقيلَ: ذاتِ ثمارٍ، ولأجلِ الثِّمارِ يَستقرُّ فيها السّاكنون.

﴿وَمَعِينٍ﴾: ماءٍ جارٍ، وهو «مفعولٌ» منَ العينِ.

وقيلَ: «فَعيلٌ» منَ الماعونِ، وأصلُه: المَعْنُ، وهو الاستِقاءُ[1].

وقيلَ: السَّهلُ الذي ينقادُ ولا يعتاصُ، والماعونُ: ما يسهُلُ على مُعطيه، كالماءِ والنّارِ.

وقال ابنُ الأعرابيِّ: معَنَ الماءُ يَمْعنُ وأمعَنَ بمعنًى؛ أي: جرَى، وأمعَنْتُه أنا[2].

وقيلَ: ﴿مَعِين﴾ «فعيلٌ» منَ «أمْعَنَ»؛ أي: أسرَعَ، فهو «فعيلٌ» بمعنى «مُفعِلٍ».

ثمَّ؛ قيلَ: إنَّ مريمَ فرَّتْ بعيسى إلى مصرَ فكانا بها سنتَينِ، ثمَّ رجعَتْ إلى أهلِها بعدَما ماتَ الملكُ الذي كانا هرَبا منه، فهو الإيواءُ.

وقيلَ: أرادَ به: أنْ آواهُما عند ولادةِ عيسى إلى موضعٍ فيه رُطَبٌ وماءٌ، وكان هذا في نواحي بيتِ المقدسِ.

***

(٥١ - ٥٣) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هو خطابٌ لجميعِ رُسلِه الذينَ تقدَّمَ ذِكرُهم؛ أي: وقُلنا لهم ذلك.

---

(١) كلمة: «الاستقاء» كذا في (ج)، وسقطت الجملة من (أ)، ومثله في «المحكم» (٢/ ٢٥١) «اللسان» (مادة: عين)، والذي في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٧)، و«البسيط» (١٥/ ٥٥٩): «الاستقامة».

(٢) ذكره عنه النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٤٦٥)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (٣/ ١٣).

وقيلَ: عنَى به محمَّدًا ﷺ.

قال الفرَّاءُ: هو كما تقولُ للرَّجلِ الواحدِ: أيُّها القومُ، كفُّوا عنَّا أذاكُم، ومثلُه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني: نُعَيمَ بنَ مسعودٍ(١).

وقال ابنُ جريرٍ: أرادَ به عيسى، وفي خبرٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في هذه الآيةِ: «ذاك عيسى ابنُ مريمَ، كانَ يأكلُ من غزلِ أمِّه»(٢).

قولُه تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: منَ الحلالِ، ومَن قال: «إنَّه خطابٌ لمحمَّدٍ ﷺ» قال: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: منَ الغنائمِ.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾؛ أي: بما أمرَكُم الله به ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فأُجازيكُم.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أخبرَ أنَّ هذا الذي تقدَّمَ ذِكرُه هو ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾؛ أي: دينُكم وملَّتُكم ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ أي: دينًا واحدًا لا يختلفُ في عقلٍ ولا شرعٍ، وإنَّما تختلفُ الفروعُ؛ أي: هذا دينُكم فالزَمُوه ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ وَحدي لا شريكَ لي ﴿فَٱتَّقُونِ﴾.

وهذا على قراءةِ ﴿وَإِنَّ﴾ بالكسرِ، والأمَّةُ على هذا: الدِّينُ، كقولِه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٧).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٩)، والخبر المذكور رواه الطبري عن عمرو بن شرحبيل قوله، وكذا رواه ابن أبي الدنيا في «النفقة على العيال» (٢/ ٥٨١).

وأخرجه عبدان في «الصحابة» كما في «الإصابة» لابن حجر (٢/ ١٨١)، و«الدر المنثور» (٦/ ١٠٢) عن حفص بن أبي جبلة مرفوعًا، قال السيوطي: وهو مرسل؛ حفص تابعي. ورواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٥١٤) عن حفص من قوله لم يرفعه، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٤١٤) على الشك في رفعه.

﴿ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ أي: على دينٍ، وما يُقتَدى به فهو أمّةٌ، وقولُه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أي: قُدوةً.

وقيلَ: الأمّةُ الجماعةُ، يُقالُ: رأيتُ أمَّةً منَ النّاسِ؛ أي: جماعةً؛ أي: هؤلاءِ الذينَ مضى ذِكرُهم منَ الأنبياءِ هم جماعتُكم التي ينبَغي أن تقتَدُوا بهم؛ أي: هم جماعةٌ واحدةٌ في التَّوحيدِ فاقتَدُوا بهم.

وقُرِئَ ﴿وأنَّ هذه﴾ بالفتحِ[1]؛ أي: إنِّي بما تعملون عليمٌ وبأنَّ هذه أمَّتُكم؛ أي: أنا عالـمٌ بأنَّ هذا دينُكم الذي أمرتُكم أن تُؤمِنُوا به[2]، وبأنِّي أنا ربُّكم فاتَّقونِ.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: واعلَمُوا أنَّ هذه أمَّتُكم أمةً واحدةً.

و﴿أُمَّتُكُمْ﴾ رفعٌ لأنَّه خبرٌ، و﴿أُمَّةً﴾ نصبٌ على القطعِ.

وقيلَ: ﴿وأنَّ هذه﴾ تقديرُه: ولأنَّ هذه أمَّتُكم، كقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]؛ أي: لأنَّ المساجدَ لله فلا تدعُوا مع الله غيرَه، وكقولِه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]؛ أي: فَلْتَعبُدوا ربَّ هذا البيتِ لإيلافِ قريشٍ.

وقُرِئَ: ﴿وأَنْ هذه﴾ بفتحِ الألفِ وسكونِ النُّونِ، ومعناه ما ذكرنا في (أَنَّ) المُشدَّدةِ، تقولُ: «علمْتُ أَنَّ زيدًا خارجٌ» و«أَنْ زيدًا خارجٌ».

قولُـه تعالـى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: جعلُـوا دينَهـم أديانًـا بعدَمـا أُمِرُوا بالاجتماعِ[3].

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ونافعٌ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم بكسر الألف، وخفف ابن عامر النُّون مع فتح الهمزة، وسيذكرها المصنف قريباً. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

(٢) في (ج): «أمرتكم به أن تؤمنوا لي به».

(٣) في (ج): «باجتماع».

قيلَ: أرادَ أهلَ الكتابِ، كفَرَ قومٌ بالتَّوراةِ، وقومٌ بالإنجيلِ، فلم يعمَلُوا بها مُتَّفِقةً في قواعدِ الدِّينِ، وأنَّه يجبُ الإيمانُ بجميعِ الرُّسلِ.

﴿زُبُرًا﴾؛ أي: كتبًا، وهي جمعُ «زَبورٍ».

وقُرِئَ: (زُبَـرًا)(١) أي: قِطَـعًا كقِطَعِ الحديـدِ، كقولـه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦].

وقيلَ: الزُّبُرُ بالضَّمِّ: جمعُ زُبْرَةٍ بمعنى القِطعةِ، يُقالُ: زُبْرَةٌ وزُبَر.

وقيلَ: أرادَ مُشرِكي العربِ وأهلَ الكتابِ.

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾؛ أي: أهلُ كلِّ ملّةٍ بما عندَهم منَ الدِّينِ مُعجَبُونَ.

* * *

(٥٤ ـ ٥٦) ـ ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾؛ أي: دَعْ هؤلاءِ الكفّارَ في ضلالتِهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقتٍ سيأتيهم عذابي، فلا يَضِقْ صدرُكَ بتأخيرِ العذابِ عنهم، فلكلِّ شيءٍ وقتٌ.

وقيلَ: إلى حالةِ الموتِ، فيتحقَّقُ لهم في تلك الحالةِ خطؤُهم، ولا ينفعُهم في ذلك الوقتِ.

والغَمْـرةُ فـي اللُّغـةِ: مـا يغمُـرُك ويعلُـوك، ودخَـلَ فـلانٌ فـي غمـارِ النّـاسِ؛ أي: زحمَتِهـم.

---

(١) نسبها الداني في «جامع البيان» لابن عامر (٢/ ٣٠٣) لكن بخلاف بين أصحاب هشام راوية ابن عامر، ونسبت لأبي عمرو في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١).

قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿ما﴾ بمعنَى «الذي»؛ أي: الذي نُعطيهم في الدُّنيا منَ المالِ والأولادِ هو ثوابٌ لـهم، إنَّما هو استِدراجٌ.

قولُه تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: نُسارعُ لهم به في الخيراتِ، كقولِه تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]؛ أي: ما يُؤمَرُونَ به.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: هم يفرحُونَ بما وجَدُوا من نعيمِ الدُّنيا ولا يعلمُونَ أنَّه سببُ العذابِ، أو: لا يشعُرونَ ما لهم في الآخرةِ منَ العذابِ.

وقيلَ: بل لا يشعُرونَ أنَّهم على ضلالٍ.

***

(٥٧ ـ ٦١) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾؛ أي: إنَّ المُسارَعَ له في الخيراتِ مَن كانَتْ له أعمالٌ صالحةٌ وخشيةٌ منَ الله تعالى.

﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾؛ أي: مـن خشـيةِ عقابِـه وسـخَطِه، ولا يُقـالُ: «خشِـيَ مـن خشـيةِ الله تعالـى»، بـلِ المعنـى: والذيـن هـم مـن خشـيةِ الله تعالـى مُشـفِقُونَ من عذابِـه، فحُـذِفَ لدلالـةِ الـكلامِ عليه.

قولُـه تعالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقُـونَ بالقـرآنِ أنَّـه من عنـدِ الله تعالـى، وكذلـك بسـائرِ الكتُـبِ المُنزلـةِ، فـلا يتقطَّعـونَ ولا يفترِقُـونَ بين كتـبِ الله تعالى ورُسـلِه.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: لا يعبُدونَ معه غيرَه.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾؛ أي: مِنَ الصَّدقاتِ والأعمالِ الصّالحةِ ﴿وَّقُلُوبُهُمْ﴾ خائفةٌ منَ الله تعالى أنْ لا يَقبلَ ذلك منهم، قالَتْ عائشةُ رضيَ الله عنها: قلتُ: يا رسولَ الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الرَّجلُ يزني ويشربُ الخمرَ ويسرِقُ؟ قال: «لا، ولكنَّه الرَّجلُ يصومُ ويُصلِّي ويتصَدَّقُ ويخافُ أنْ لا يُقبَلَ منه»[١].

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾؛ أي: من أنَّهم راجِعُونَ إليه، فخوَّفَهم منَ البعثِ والحسابِ.

وقيلَ: لأنَّهم إلى ربِّهم راجِعُونَ، فعلى هذا خوَّفَهم من أنْ لا تُقبَلَ طاعتُهم، وأنَّهم إلى ربِّهم راجِعُونَ سببٌ لهذا الخوفِ.

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: نُسارِعُ لهم فيها؛ إذ هم يُسارِعُونَ في الطَّاعاتِ لا هؤلاءِ الذينَ تقطَّعُوا أمرَهم بينَهم، ويُقالُ: «أسرَعَ وسارَعَ» بمعنًى.

﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾؛ أي: هم إليها سابقُونَ؛ أي: سبَقُوا غيرَهم منَ الأممِ لإسراعِهم إلينا.

وقيلَ: أي: هم من أجلِها؛ أي: من أجلِ اكتسابِها سابقُونَ غيرَهم.

---

(١) رواه الترمذي (٣١)، وابن ماجه (٧٥)، من طريق عبد الرحمن بن سعيد الهمداني عن عائشة به. وفي سنده انقطاع، عبد الرحمن بن سعيد الهمداني لم يلقَ عائشة رضي الله عنها فيما قال أبو حاتم كما في «المراسيل» لابنه (ص: ١٢٧). وأشار الترمذي إلى شاهد للحديث، فقال: «وروي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحو هذا»، لكن المحفوظ هو الطريق المرسل عن عائشة رضي الله عنها كما قال الدارقطني في «العلل» (١١/ ١٩٣).

وقيلَ: هم من أجلِ مُسارَعتِهم في الخيراتِ سابقُونَ يومَ القيامةِ إلى الجنّةِ، فالكنايةُ في قولِه: ﴿لَهَا﴾ تعودُ إلى المُسارَعةِ، وعلى ما تقدَّمَ إلى ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

وقيلَ: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾؛ أي: يلحقُونَها ويفعلُونَها من قبلِ أن يفوتَهم وقتُها، والعربُ تقولُ لمَن طلَبَ شيئًا فلحِقَه: «إنَّه سبقَه»، وإذا فاتَه فلم يلحَقْه قالوا: «قد سبَقَ الطّالبُ»، والمعنَى: وهم لـها مُدرِكُونَ لا يفوتُهم ذلك، بل هم يفوتُونَه فيكونُونَ سابقينَ له، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦١]، فليس هذا على أنَّ أحدًا يسبقُه إلى ذلك حتَّى يفعَلُه قبلَه، بل معناه: أنَّ ذلك لا يفوتُنا ولا يُعجِزُنا.

* * *

(٦٢) ـ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: إلّا ما في وُسعِه، وتكليفُ الكافرِ الإيمانَ مع إرادةِ أمرِه ليس بتكليفِ ما لا يُطاقُ؛ لأنَّ خلافَ المعلومِ مقدورٌ، كما أنَّ تكليفَه الإيمانَ مع العلمِ بأنَّه لا يُؤمِنُ ليس بتكليفِ ما لا يُطاقُ؛ لأنَّ خلافَ المعلومِ مقدورٌ.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: كتابٌ كتبَتِ الملائكةُ فيه أعمالَ العبادِ، فهو ينطقُ بالحقِّ، وأضافَ إلى نفسِه لأنَّ الملائكةَ كتبَتْ بأمرِه.

وقيلَ: عنَى اللَّوحَ المحفوظَ، وقد أُثبِتُ فيه كلُّ شيءٍ، فهم لا يُجاوِزُونَ ذلك، ولفظُ النُّطقِ يجوزُ في الكتابِ، والمُرادُ: التَّبيينُ والإيضاحُ كأنَّه يتكلَّمُ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا ينقصُ من ثوابِهم شيءٌ.

* * *

(٦٣) ـ ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ﴿بَلْ﴾ للإعراضِ عن شيءٍ والابتداءِ بشيءٍ؛ أي: ليس ذهابُ هؤلاءِ عن الإيمانِ بيدِكَ وبجهدِكَ، بل ذهابُهم لأنَّ قلوبَهم في غمرةٍ؛ أي: في غطاءٍ وغفلةٍ.

أو: ليس الأمرُ كما يَحسبُ هؤلاءِ من أنَّ إمدادَنا إيّاهُم بالمالِ والبنينَ لخيرٍ نسوقُه إليهم، بل قلوبُهم في غمرةٍ وعمًى عن حقيقةِ الحالِ.

و﴿مِّنْ هَٰذَا﴾؛ أي: منَ القرآنِ.

وقيلَ: أي: مـمَّا وُصِفَ من أعمالِ البرِّ في الآياتِ المُتقدِّمةِ، أو منَ الكتابِ الذي ينطِقُ بالحقِّ.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: لهم أشغالٌ من أعمالِ الدُّنيا قد علَّقُوا قلوبَهم بها.

وقيلَ: قلوبُهم في غفلةٍ منَ الإيمانِ فهم كافِرُونَ، ولهم أعمالٌ من دونِ الكفرِ.

﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ فيستحِقُّونَ العقوبةَ بالجميعِ.

﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من سِوَى ذلك.

وقيلَ: أصغرُ من ذلك؛ لأنَّ ما دونَ الكفرِ منَ الذُّنوبِ أصغرُ منه.

وقيلَ: أي: للمُشركينَ أعمالٌ من دونِ ما وصفَه الله تعالى من أعمالِ المُؤمنين؛ أي: أعمالٌ لا يرضاها الله، وهي دون أعمالِ أهلِ الإيمانِ.

﴿مِّن﴾ زيادةٌ، تقولُ: «رأيتُ فلانًا دونَك»، و«من دونِك».

وقيلَ: أي: إنَّ لهم مُدَّةً يَبقونَ إليها يعملون فيها غيرَ ما هم فيه الآن إلى أن تأتيَهم آجالُـهم.

وقيلَ: ﴿لَهَا عَامِلُونَ﴾؛ أي: هم بها عامِلُونَ.

(٦٤ ـ ٦٧) ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ ﴾ قيلَ: جبابرَتَهم وأغنياءَهم ورُؤوسَهم، والمُترَفُ: المُتقلِّبُ في لينِ العيشِ.

﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ قيلَ: بالسَّيفِ يومَ بدرٍ؛ فإنَّهم لـمَّا قُتِلُوا جزِعَ أهلُ مكّةَ.

وقيلَ: أي: بالجوعِ سبعَ سنينَ، حينَ دعا عليهم رسولُ الله ﷺ.

﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾؛ أي: يصيحُونَ(١) ويتضرَّعُونَ.

قولُه تعالى: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ أي: يُقالُ لـهم: لا تتضرَّعُوا اليومَ فلا ينفعُكم التَّضرُّعُ ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

وقيلَ: معنى هذا النَّهيِ: الإخبارُ؛ أي: إنَّكم إنْ تضرَّعتُم لـم ينفَعْكم.

قولُه تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾؛ أي: إعراضُكم عن القرآنِ أورَثَكم هذا العذابَ ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾؛ أي: ترجِعُونَ مُولِّينَ عنها.

قولُه تعالى: ﴿ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالحرمِ، أو: بالبيتِ، أو: بالبلدِ الذي هو مكّةُ؛ أي: يقولونَ: نحنُ أهلُ الحرمِ فلا نخافُ، فالكنايةُ ترجعُ إلى غيرِ مذكورٍ، كقولِه تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النحل: ٦١]؛ أي: على الأرضِ.

وقيلَ: ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآنِ؛ أي: يستكبِرُونَ بسببِ القرآنِ عنِ الإيمانِ به.

وقيلَ: كنتُم تنكصُونَ مُستكبِرينَ بالنُّكوصِ؛ أي: تُظهِرُونَ تكبُّرًا بإعراضِكم عن القرآنِ والإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ.

---

(١) في (ج): «يضجون».

وقيلَ: الباءُ صلةٌ لـ﴿سَٰمِرًا﴾؛ أي: مُستكبِرين سامرًا به، والسَّمرُ: حديثُ القومِ باللَّيلِ، يُقالُ: «سمَرَ يسمُرُ سمَرًا فهو سامِرٌ»، واشتقاقُه منَ السَّمَرِ، وهو ظلُّ القمرِ، والسُّمْرةُ في اللَّونِ مُشتقَّةٌ من هذا، ذكرَه الزَّجَّاجُ[١].

وقال الفرَّاءُ: السَّمرُ: كلُّ ليلةٍ ليس فيها قمرٌ، يُقالُ: «لا أفعلُ ذلك السَّمرَ والقمرَ»؛ أي: ما طلَعَ القمرُ وما لـم يطلُعْ[٢]، ثمَّ الحديثُ باللَّيلِ يُسمَّى سمَرًا، وعلى الأوَّلِ لأنَّهم كانوا يتحدَّثُونَ في القمرِ.

وقال المُفضَّلُ: السَّمرُ: الحديثُ باللَّيلِ، ثمَّ كثُرَ فسَمَّوا الظُّلمةَ سَمَرًا، والسّامرُ: اسمُ الجماعةِ الذين يَسمُرونَ ليلًا[٣].

وقد جاءَتْ حروفٌ على لفظِ «فاعلٍ» وهي جمعٌ كالجاملِ: يكونُ فيه الذُّكورُ والإناثُ، والسّامرُ: القومُ يسمُرونَ ليلًا، والحاضِرُ: الحيُّ النّازلُ على الماءِ، والباقرُ: البقرُ.

وقيلَ: السّامرُ هاهُنا واحدٌ في معنى الجمعِ، كما يُرادُ الجمعُ بالواحدِ، كقولِه: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٨).

(٢) ذكر كلام الفراء الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٩١). وقوله: «لا أفعلُ ذلك السَّمرَ والقمرَ» من أمثال العرب. انظر: «العين» (٧/ ٢٥٥)، و«الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٣٨١)، و«الفاخر» للمفضل (ص: ٣٤)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٣٦٩)، و«الأمثال» للهاشمي (ص: ٢٨٥)، و«مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٢٢٨)، و«المستقصى في الأمثال» للزمخشري (٢/ ٢٤٣). وفي بعض المصادر: «حلف بالسمر والقمر»، وفي أخرى: «لا آتيك السمر والقمر».

(٣) انظر: «الفاخر» للمفضل (ص: ٣٤) عن الأصمعي، وكذا ذكره ابن الأنباري في «الزاهر» (١/ ٣٦٢) عن الأصمعي.

﴿تَهْجُرُونَ﴾؛ أي: تقولونَ الهَجْرَ منَ الطَّعنِ في القرآنِ وسبِّ النَّبيِّ ﷺ، فهو منَ الهَجْرِ بمعنَى الهذَيانِ.

وقيلَ: تهجُرونَ القرآنَ وتترُكونَه فلا تُؤمِنُون به.

وقُرِئَ: ﴿تُهجِرونَ﴾ بضمِّ التّاءِ[1]، منَ الهُجْرِ بمعنَى الفُحشِ، يُقالُ: هَجَرَ وأهْجَرَ؛ أي: هذَى، وتقديرُ الآيةِ: مُستكبِرينَ به سامرًا هاجِرينَ.

* * *

(٦٨) ـ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: أفلم يتدبَّروا، وهو كقولِه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وسُمِّيَ القرآنُ قولًا لأنَّهم خُوطِبُوا به.

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ما العذرُ في الإعراضِ عن القرآنِ: أهو أنَّهم لا يتدبَّرونَ القرآنَ؟ فهذا ليس بعُذرٍ، فَلْيتدَبَّروه حتَّى يَعرفوا أنَّه حقٌّ، أم العذرُ أنَّهم يقولون: لم يأتِ آباءَنا رسولٌ وكتابٌ؟ فهذا أيضاً ليس عذراً؛ إذْ ليسَ من ضرورةِ كلِّ رسولٍ أنْ يكونَ قبلَه رسولٌ لأنَّه تَسَلْسُلٌ.

وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى: بل؛ أي: بل جاءَهم ما لا عهدَ لآبائِهم به فتركوا النَّذير له.

ففي قولٍ: جاءَهم ما جاءَ آباءَهم المتقدِّمين، وهو الرُّسُلُ في سالفِ الزَّمان، وفي قولٍ: أتاهم ما لم يأتِ آباءَهم الآدميِّين.

وقيل: أم جاءهم أمانٌ من العذابِ، وهو شيءٌ لم يأتِ آباءَهم الأوَّلين.

---

(١) قرأ بها نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

(٦٩ ـ ٧٠) ـ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾؛ أي: أم عذرُهُمْ في تركِ الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه أنَّه رجلٌ مجهولٌ فيهم لم يعرفوه، فهذا أيضاً ليسَ عذراً لأنَّهم عرفوا نسبَه وأحوالَه ومولدَه ومنشأَه.

قال سفيانُ: بلى قد عرفوا ولكنَّهم حسدوه[1].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ أي: أم يحتجُّون في تركِ الإيمانِ به بأنَّه مجنونٌ، فليسَ هذا هكذا لزوالِ أماراتِ الجنونِ عنه.

﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾: بالتَّنزيْلِ الذي هو الحقُّ؛ أي: القرآنِ والتَّوحيدِ الحقِّ والدِّينِ الحقِّ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ حسداً وبغياً وتقليداً.

* * *

(٧١) ـ ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ما يهواهُ النَّاسُ لبَطَلَ نظامُ العالَم؛ لأنَّ شهواتِ النَّاسِ تختلفُ وتتضادُّ، وسبيلُ الحقِّ أنْ يكونَ متبوعاً، وسبيلُ النَّاسِ الانقيادُ للحقِّ.

وقيل: ﴿الْحَقُّ﴾ هاهنا هو اللهُ؛ أي: لو جعلَ لنفسِه شريكاً فسدَ العالمُ.

---

(١) رواه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٧٢٩) من طريق سفيان عن إسماعيل عن أبي صالح، وهو في «تفسير الثوري» (ص: ٢١٧) عن سفيان عن رجل عن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

وقيل: ﴿الْحَقُّ﴾: التَّنزيلُ؛ أي: لو نزلَ بما يريدون من إثباتِ شريكٍ للهِ لفسدَ العالم.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾؛ أي: بما فيه شرفُهم وعزُّهم.

أو: أتيناهم بما فيه بيانُ الحقِّ وذكرُ ما بهم إليه حاجةٌ من أمر الدِّين وهم له كارهون.

***

(٧٢) - ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾؛ أي: أم يتَّهمونَكَ فيما تدعوهم إليه بأنَّكَ تسألُهم أجراً وتطمعُ في مالِهم، فهذا أيضاً ليسَ كذلِكَ؛ لأنَّ خَراجَ ربِّكَ خيرٌ؛ أي: ما يؤتيْكَ اللهُ مِنَ الأجرِ على طاعتِكَ له خيرٌ مِنْ عَرَضِ الدُّنيا، وقد عَرَضوا عليكَ أموالَهم حتى تكون كأغنى رجل من قريشٍ فلم تُجِبْهم إليه.

قرئ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهم خَرْجاً فخَرْجُ ربِّكَ﴾ بغيرِ ألفٍ، وقُرئ: ﴿خَراجاً فخَراجُ ربِّكَ﴾[1]، وهما لغتان.

وقيل: الخَرْجُ: الجزيةُ، والخَرَاجُ في الأرضِ.

وقيل: أي: ورِزْقُ ربِّكَ خيرٌ؛ لأنه قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وما يعطيْهِ الرَّبُّ لا ينقطِعُ ولا يتكدَّرُ.

***

(١) قرأ ابن عامر بالأولى، وقرأ بالثانية حمزة والكسائي، وباقي السبعة: ﴿خَرْجاً فخَرَاجُ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: لتدعو الكفَّارَ والخَلْقَ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: دينِ الإسلامِ، فحقيقٌ أن يتدبَّروا قولَكَ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: بالبعثِ ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾؛ أي: عن الحقِّ والطريقةِ المستقيمةِ ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾؛ أي: لَعادِلونَ، أو: مُعرِضونَ.

* * *

(٧٥ ـ ٧٧) ـ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ قيل: يتَّصِلُ هذا بقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾.. ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ لزادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾، وهو كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقيل: ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يعني: الجوعَ الذي أصابَهم سبعَ سنينَ بمكَّةَ(١) ﴿لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾؛ أي: تمادوا عليه، يقال: لَجَّ يَلِجُّ ويَلَجُّ.

---

(١) روى النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٦٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز ـ يعني الوبر والدم ـ فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩)، وفيه أن سبب شدتهم أن ثمامة بن أثال حال بينهم وبين الميرة من اليمامة،، وخبر ثمامة رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) دون الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: بالأمراض والحاجةِ والجوعِ ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: ما تواضَعوا، يقال: أكانَهُ يُكِينُهُ إكانَةً؛ أي: أخضعَهُ حتى استكانَ.

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: ما يخشعونَ للهِ تعالى في الشَّدائدِ تصيبُهم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس: ذاك يومُ بدر[1].

وقيل: يعني: الموتَ، وقيل: الجوعَ، وقيل: فتحَ مكَّةَ.

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: متحيِّرونَ لا يدرونَ ما يصنعونَ كالآيسِ مِنَ الفرَجِ.

وقيل: العذابُ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ عذابُ الدُّنيا، والعذابُ الشَّديدُ في الآخرةِ؛ أي: لو كشفْنا عنهم عذابَ الآخرةِ وردَدْناهم إلى الدُّنيا لعادُوا إلى الكفر.

***

(٧٨ - ٧٩) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ عرَّفَهم كثرةَ نعمِه وكمالَ قدرتِه ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ما تشكرون إلَّا قليلاً؛ أي: إنِ اعترفْتُم بأنَّه خالقُ السَّماواتِ والأرضِ فقد عبدْتُم الأصنامَ.

وقيل: أي: لا تشكرونَ ألبتَّةَ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقَكُم فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاءِ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٣٥٤)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٩٤).

(٨٠) ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ أي: يحيي النُّطفَةَ فيكـوِّنُ الحيوانَ ثم يميتُه.

﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾؛ أي: يَذْهَبُ بهذا ويأتي بذلك.

وقيل: اختلافُهما: نقصانُ أحدِهما وزيادةُ الآخرِ.

وقيل: اختلافُهما: النُّورُ والظُّلمةُ.

وقال الفرَّاء: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾؛ أي: هو الذي جعلَهما مختلفَيْن؛ كقولك: لكَ الأجرُ والصِّلةُ؛ أي: إنَّكَ تَصِلُ وتُؤْجَر[1].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ له شريكٌ، وأنَّه يجبُ أنْ يقدِرَ على البعثِ.

***

(٨١ ـ ٨٣) ـ ﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾؛ أي: لم يعقلْ هؤلاء ما وُعظوا به، بل قالوا متعجِّبينَ: إذا مِتْنا أنبعَثُ؟!!

قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا ﴾؛ أي: أَنُبْعَثُ بعدَ هذا؟! أي: إنَّه لا يُتَصوَّرُ.

قولـه تعالى: ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ ﴾؛ أي: مِـنْ قبلِ مجيءِ محمَّدٍ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤٠).

عليـه السـلام فلم نر لـه حقيقـةً ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: هـذا القولُ إلَّا مـا سـطَّرَتْهُ الأوَّلونَ مـن الأحاديث.

***

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ أمرَ النَّبيَّ عليه السلام بتقريرِهم بأشياءَ كانوا مقرِّين بها، وإنْ لم يقرُّوا فهي ظاهرةٌ لا يمكنُ جَحدُها؛ ليَستدلَّ عليهم بأنَّ مَنْ قَدَرَ على هذه الأشياء يقدِرُ على إحياءِ الموتى؛ أي: قل: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإنَّهم يجيبونَكَ بأنْ يقولوا: هي لله، وهو خالقُها ومالكُها.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: أفلا تتذكَّرونَ لتعلَموا أنَّ مَنْ قدرَ عليها كان على إحياءِ الموتى أقدَرَ.

***

(٨٦ ـ ٨٧) ـ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾؛ أي: مَنْ مدبِّرُها ومالِكها ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وكانت العربُ لا تجهلُ الملائكةَ وسكَّانَ السَّماواتِ.

والعرشُ: المُلْكُ، وإنَّما يَعرِفُ العرشَ الذي هو أعظمُ المخلوقاتِ ـ على غيرِ جهةِ الملْكِ ـ أصحابُ الشَّرائعِ.

وقيـل: كان خبرُ العرشِ قد تقـرَّر عندَ أوائلِ الأقـوامِ عن أهل الكتـابِ فكانوا مؤمنين بـه.

﴿سَيَقُولُونَ اللهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ألا تتَّقونَ عذابَ اللهِ في اتِّخاذِ غيرِه إلهاً وآلهتُكم لا تملِكُ شيئاً.

وقرئ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ وكذلك فيما بعده[1]، وهو جوابٌ على المعنى، فإنَّ مَنْ قال: «مَنْ مالِكُ هذه الدَّارِ؟» فقد يُقالُ في الجوابِ: «لزيدٍ»، وهو جوابٌ على المعنى؛ لأن معنى «مَنْ صاحبُ هذه الدَّار؟»: لِـمَنْ هذهِ الدَّارُ، فجازَ أنْ يُقالَ في الجواب: «لزيدٍ».

***

(٨٨ ـ ٨٩) ـ ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: مَـنْ يملِكُ الأشـياءَ كلَّها وعنـدَه خزائِنُهـا، والملكـوتُ: عِظَـمُ المُلْـكِ، وفَعَلـوتٌ للمبالغة، مثـل: رَحَموتٍ ورَهَبـوتٍ وجَبَروت.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يقـال: أجرْتُ فلانـاً: إذا اسـتغاثَ بكَ فحميْتَه، وأجـرْتُ عليه؛ أي: حميْـتُ عنـه مَـن يَرُومُـه؛ أي: إنَّـه يمنَـعُ مِـنَ السُّـوءِ مَـنْ أرادَ، ولا يمنَـعُ أحـدٌ قدرتَـه على نفسِـهِ.

وقيل: يؤمِّنُ مَنْ أخافَه غيرُه، ومَنْ أخافَه اللهُ لم يؤمِّنْهُ أحدٌ.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنْ كنتم أصحابَ معرفةٍ وعلمٍ.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ اللهُ﴾ أي: فقلْ لهم عندَ هذا التقرير: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؛

---

(١) قرأ بها السبعة غير أبي عمرو فإنه قرأ بغير اللام، ولا خلاف في الحرف الأول. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

أي: فمِنْ أيِّ وجهٍ يُخيَّلُ إليكم أنْ تشركوا به مَنْ لا يضرُّ ولا ينفعُ.

والسِّحْرُ هو التَّخييلُ، وكلُّ هذا احتجاجٌ على العربِ المقرِّينَ بالصَّانعِ.

* * *

(٩٠) ـ ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ليس ما يقولونُه مِنْ إثباتِ الشَّريْكِ ونفيِ البعثِ وتكذيبِ القرآنِ لقصورٍ في الحُجَجِ التي قرَّرْناها، بل جئْناهم بالكتابِ الذي فيه بيانُ كذبِهم، ولكنَّهم أصرُّوا على كذبِهم إعراضاً عن تدبُّرِ الحُجَجِ وإلغاءِ التَّقليدِ.

* * *

(٩١) ـ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾؛ أي: لم يتَّخِذْ ولداً حتى يُتوَهَّم أنَّ الملائكةَ بناتِه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾؛ أي: ما كانَ له شريكٌ في الملكِ والخلْقِ فيكونَ إلهاً معَه، ولو كانَ معَه آلهةٌ لم ينتظِمْ أمرُ العالمِ ولَتمانَعوا ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾؛ أي: لانْفَرَدَ كلُّ إلهٍ بما خلَقَ ولتغالَبوا، وفيه إضمارٌ؛ أي: لو كان معه آلهةٌ لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خلَقَ ولغلَبَ القويُّ الضَّعيفُ، والمغلوبُ لا يستحِقُّ الإلهيَّةَ، وهذا الذي يدلُّ على نفيِ الشَّريْكِ يدلُّ على نفيِ الولدِ أيضاً؛ لأنَّ الولَدَ ينازِعُ الأبَ في الملكِ منازعةَ الشَّريكِ.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: غلبَ هذا ذاك ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: تنزيهاً له عن الولدِ والشَّريْكِ.

* * *

(٩٢) ـ ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿عالـمُ الغَيْبِ والشَّـهادَةِ﴾ بالرَّفـعِ؛ أي: هو عالمُ الغيـبِ، وقرئ: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ بالكسـر[1]؛ أي: سـبحانَ اللهِ عالمِ الغيبِ.

ثم عطفَ بالفاءِ فقال: ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ والعربُ تعطفُ بالواو والفاء.

* * *

(٩٣ ـ ٩٥) ـ ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾ علَّمَه ما يدعو به؛ أي: قلْ: ربِّ إنْ أريتني ما يوعدون من العذابِ ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: في نزولِ العذابِ بهم، بل أخرجني منهم.

و(مـا) فـي ﴿إِمَّا﴾ زائـدةٌ، وقيـل: أصـلُ (إمَّـا): (إنْ مـا)، و(إنْ) شـرطٌ و(ما) شـرطٌ، فجُمـع بيـن الشـرطين توكيداً.

﴿يُوعَدُونَ﴾ مـن الوعيـدِ، ويجـوزُ أنْ يكـونَ مِـنَ الوعْـدِ، وقد يطلَـقُ الوعْدُ في الشَّـرِّ.

﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي ﴾ الفاءُ جوابُ ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ اعترضَ النِّداءُ بينَهما، كما تقولُ: «إنْ تأتني يا زيدُ فعجِّلْ»، ولو لم يكن قبلَه جزاءٌ لم يجزْ أنْ يقالَ: «يا زيدُ فقمْ» إلَّا أنْ يكونَ جواباً لكلامٍ قبلَه، كقولِ القائل: «قد أقيمَتِ الصَّلاةُ»، فتقولُ: «يا هؤلاءِ فقوموا».

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

وكان عليه السَّلام يعلَمُ أنَّ اللهَ تعالى لا يجعلُه في القومِ الظَّالمين إذا نزلَ بهم العذابَ، ومع هذا أمرَهُ الرَّبُّ بهذا الدُّعاءِ والسُّؤالِ لتعظيمِ أجرِه، وليكونَ في كلِّ الأوقاتِ ذاكراً لربِه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ نبَّه بهذا على أنَّ خلافَ المعلومِ مقدورٌ.

***

(٩٦) ـ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ أي: أَجمِلْ معاشرتَهم لتَسلَمَ مِنْ أذاهم، ونزلَتِ الآيةُ قبلَ الأمرِ بالقتالِ.

و﴿الَّتي هي أَحسَنُ﴾: الصَّبرُ، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾: إيذاءُ المشركينَ إيَّاه، وهذا أمرٌ بالتَّلطُّفِ في الدُّعاءِ إلى الحقِّ.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾؛ أي: يقولونَ مِنَ الكذبِ والشِّرْكِ، فسنجازيهم عليه.

***

(٩٧ ـ ٩٨) ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الهمَزاتُ: جمعُ هَمْزَةٍ، والهَمْزَةُ في اللُّغةِ: الدَّفْعُ، يُقالُ: همزَهُ ولَمَزَهُ ولَهزَهُ؛ أي: دفعَه، و﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ أي: دفعِهم بالإغواءِ إلى المعاصي، وهو بما يُوَسْوِسون إلى النَّاسِ ويُسوِّلون، ويَرِدُ الهَمْزُ بمعنى العَيْبِ، ومنه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وهو

الـذي يهمِـزُ أخـاهُ ويَعيبُـهُ مِنْ خلفِـه، ولا يَبعـدُ أنْ تُحمَلَ همـزةُ الشَّـيطانِ عليه؛ لأنَّ مكائـدَه خفيَّـةٌ أيضاً.

وقال مجاهدٌ: همزاتُ الشيطان: نفخُه في الإنسانِ عند الغضبِ وغيرِه[١].

وقيـل: كانـوا يَنسـبونَ النَّبـيَّ ﷺ إلـى الجنـونِ؛ لِمَـا كانَ يعتريْـهِ عنـدَ نـزولِ الوحـيِ مِـنَ العَـرَقِ والتَّغطِّـي بالـرِّداء، فأمـرَه أنْ يسـتعيذَ باللـه مِـنْ أنْ يكـونَ كما كانـوا يَرْمونَه بـــه.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾؛ أي: يحضروني في أموري، وقيل: عندَ تلاوةِ القرآنِ.

وقيل: عندَ النَّزْعِ؛ أي: أعوذُ بِكَ مِنْ أنْ يصيبوني بسوءٍ، يُقال: «حُضِرَ فلانٌ»؛ أي: دنا موتُه، وفي الخبر: «اللَّبنُ محتضَرٌ ـ وروي: محضورٌ ـ فغطِّ إناءَكَ أنْ تصابَ منه»[٢]، وكذلك الحُشَوشُ محتضَرَة؛ أي: يُصابُ النَّاسُ فيها، وقولُه تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]؛ أي: مصابٌ فيه.

وقيل: أي: يحضروني بسوءٍ، فحُذف السُّوءُ لأنَّه يُعْلَمُ أنَّ الشَّيطانَ لا يحضرُ ابنَ آدمَ إلا بسوءٍ.

***

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٥٢) عن مجاهد بلفظ: «نفخهم ونفثهم».

(٢) هذا من قول العرب كما ذكر الجاحظ في «الحيوان» (٤/ ٣١٤)، ونقل الأزهري في «تهذيب اللغة» (٤/ ١١٩) عن الأصمعي قوله: «العرب تقول: اللبن محتضر فغطه؛ يعني: تحضره الدواب وغيرها من أهل الأرض».

(٩٩ ـ ١٠٠) ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ عادَ الكلامِ إلى ذكرِ المشركين؛ أي: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، ثم احتجَّ عليهم وذكَّرهم قدرتَه على كلِّ شيءٍ، ثم قال: هم مصرُّون على الإنكار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ تيقَّنَ ضلالتَه وعاينَ الملائكةَ، فيندمُ ولا ينفعُه النَّدمُ.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾؛ أي: ملَكُ الموتِ أو أسبابُ الموتِ ومقدِّماتُه، كقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [إبراهيم: ١٧].

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلى الدنيا، فجاء الخطاب على لفظ الجمع كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾ [ق: ٤٣]، وقيل: بدأ بالخطابِ للهِ تعالى فقال: ﴿رَبِّ﴾، ثم قال: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾؛ لأنَّ هذه المسألةَ للملائكةِ الذين يَحضرونَ لقبضِ روحِه.

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾؛ أي: من مالي فأؤدِّي الدَّعوةَ وأتقرَّبُ إلى اللهِ؛ كما قال: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠].

وقيل: لعلِّي أعملُ صالحاً في الدُّنيا فأوحِّدَ وأصلِّيَ وأصومَ؛ لأنَّه في تلك الحالةِ قد تركَ الدُّنيا.

وقيل: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ ﴾؛ أي: فيما صنعْتُ وتركْتُ العملَ به من الطَّاعات.

وقيل: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ ﴾؛ أي: فيما مضى من عمري.

و(لعل) يتضمَّنُ تردُّداً، وهذا الذي يسألُ الرَّجعةَ قد استيقَنَ العذابَ، فهو يوطِّنُ نفسَه على العملِ قطعاً مِنْ غيرِ تردُّدٍ، فالتردُّدُ يرجعُ إلى ردِّه إلى الدنيا أو إلى التَّوفيق؛

أي: لعلِّي أعملُ صالحاً إنْ وفَّقتني إذْ ليسَ علَى قَطْعٍ من وجود القدرةِ والتَّوفيقِ لو رُدَّ إلى الدُّنيا.

﴿كَلَّآ﴾ هذه كلمةُ رَدٍّ؛ أي: ليس الأمرُ على ما يظنُّه مِنْ أنَّه يُجابُ إلى الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، بل هو كلامٌ يَطيحُ في أدراجِ الرِّيحِ.

وقيل: أي: لو أَجبْتُ إلى ما يطلُبُ لَـمَا وَفى بما يقولُ، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقيل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ يرجعُ إلى الله تعالى؛ أي: لا خُلْفَ في خبرِه، وقد أخبرَ أنَّه لن يؤخِّرَ نفساً إذا جاء أجلُها، وأخبرَ بأنَّ هذا الكافرَ لا يؤمِنُ.

وقيل: إنَّها كلمةٌ لا بدَّ له مِنْ أنْ يقولَها عند الموت، ولكنْ لا تنفعُ.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾؛ أي: ومِن بينِ أيديهم، وقيل: مِن خَلْفِهم.

﴿بَرْزَخٌ﴾ هو الحاجزُ بيَن الثَّلَتَيْنِ، فالميتُ في البرزخِ لأنَّه بين الدُّنيا والآخرة، فالبرزخُ هاهنا هو ما بينَ موتِ الميت وبعثِه.

وقيل: أي: بينهم وبين الرُّجوع إلى الدُّنيا حاجزٌ ومانعٌ.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: إلى وقت البعث.

***

(١٠١) ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ بيَّنَ حالَ الكافرِ وأنَّه يموتُ بحسَراتِه ويبقى في البرزخِ مُعذَّباً، ثم بيَّنَ حالَه في الآخرةِ أيضاً، فالمرادُ بهذا النَّفخِ: النَّفخةُ الثَّانيةُ.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: لا يتفرَّغونَ إلى التَّعاطُفِ والتَّساؤُلِ والتَّفاخُرِ بالأنساب، وهذا في حقِّ الكفَّارِ لِـمَا دُفعوا إليه من الهولِ والفزَع.

وقيل: المرادُ: النَّفخةُ إذا صَعِقَ مَنْ في السماوات والأرض إلَّا مَنْ شاء الله، فعندَ ذلك ينقطعُ ما كان في الدُّنيا من التَّواصلِ والأنسابِ.

وسأل رجلٌ ابنَ عباسٍ عن قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] فقال: لا يتساءلون في النَّفخة الأولى؛ لأنَّه لا يبقى على الأرضِ حيٌّ فلا أنسابَ ولا تساؤلَ، وأمَّا قولُه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فإنَّهم إذا دخلوا الجنَّة تساءلوا[(١)].

وقيل: لا يتساءلون على طريق التَّعاطف، وقد يتساءلون على غير هذا الوجهِ، مثل قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

وقيل: يتساءلون في أوَّلِ بعثِهم، ثم يساقونَ إلى موقفِ الحسابِ فيشغلُهم هولُه عن التَّساؤلِ.

وقيل: قال ابنُ عبَّاسٍ في جواب السَّائل: هذه تاراتٌ يومَ القيامة[(٢)].

وفي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: «لا أنسابَ بينهم يومَئذ يتعاطفون بها»؛ لأنَّ الأنسابَ لا ترتفعُ، و(إذا) نُصِبَ بتقدير: تتقطعُ الأنسابُ إذا نُفِخَ في الصُّور، أو: لا تنفعُ الأنسابُ إذا نُفِخَ في الصُّور.

ولا يجوز أن نقولَ: نُصِبَ بـ﴿نُفِخَ﴾، ولا بقوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾؛ لأنَّ ما بعد (لا) لا يعملُ فيما قبلَها.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١١١)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٧١٦).

(٢) بهذا اللفظ ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٦٩)، وروى معناه البخاري عقب الحديث (٤٨١٥).

(١٠٢) ـ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: بالطَّاعـاتِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائـزونَ بالخلـودِ فـي الجنَّة.

***

(١٠٣) ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أي: رجَحَتْ سيِّئاتُه، وهذا في حقِّ الكافرين.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: أهلكوها ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي: فهم في جهنَّم خالدون فيها، وهذه موازينُ يُعرِّفُ اللهُ بها عبادَه مقاديرَ أعمالِهم من الطَّاعة التي يقرُّونها ـ ويُعرِّفهم بشهادةِ الملائكةِ والمؤمنين عليهم.

***

(١٠٤ ـ ١٠٥) ـ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ اللَّفْحُ: الاحتراقُ، يُقال: لَفحَتْهُ السُّمومُ؛ أي: أحرقَتْهُ، واللَّفْحةُ أعظمُ تأثيراً من النَّفْخِ.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ الكُلُوحُ: بُدُوُّ الأسنانِ عند العُبوسِ، يقال: كلَحَ كُلوحاً وأكلَحَه كذا، ودهرٌ كالحٌ، وبردٌ كالحٌ؛ أي: شديدٌ.

وفي الخبر: «تَشْوِيهِ النَّارُ فتَقْلُصُ شفتُه العُلْيَا حتى تَبْلُغَ وسطَ رأسِه، وتَسْتَرْخي شفتُه السُّفْلى حتى تَضْرِبَ سُرَّته»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٧) و(٣١٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقال: «حسن =

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يقال لهم: ألم تكنْ آياتي تُتْلى عليكم فكنْتُم تقولون: إنها ليسَتْ من عند الله، فذاكَ الذي أوردَكم النَّار.

* * *

(١٠٦ ـ ١٠٧) ـ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾؛ أي: ما سبقَ في علمِكَ أو كُتِبَ علينا في أمِّ الكتابِ من الشَّقاوة.

وقيل: أي: غلبَتْ علينا الأعمالُ الرَّديَّةِ، وكنَّا في فعلِها ضالِّين عن الثَّواب.

وهذا اعترافٌ منهم بسوءِ صنيعِهم لا أنَّه يَقبلُ لهم عذراً.

قرئ: ﴿شَقَاوَتُنا﴾، وقرئ: ﴿شِقْوَتُنَا﴾ بكسر السين من غيرِ ألفٍ، وهما لغتان[1].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾؛ أي: من النَّار، يطلبونَ الرَّجعةَ إلى الدُّنيا ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفرِ ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسِنا بالعَود إليه.

* * *

= غريب». لكن في سنده دراج أبو السمح، وهو وإن كان صدوقاً، إلا أنه في روايته عن أبي الهيثم ضعيف. انظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٠٨).

(١) قرأ حمزة والكسائي: ﴿شَقاوتُنا﴾ بالألف وفتح الشين، وقرأ الباقون: ﴿شِقْوتُنا﴾ بكسر الشين وحذف الألف. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(١٠٨ ـ ١١١) ـ ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا ﴾؛ أي: ابعُدوا في جهنَّم، كما يقال للكلب: اخسأ؛ أي: ابعُد.

قال عبد الله بن عَمرٍو: يَدعونَ فلا يُجابونَ حتى يمضيَ مثلُ عُمُرِ الدُّنيا[١].

وقال مقاتلٌ: مثلُ عمرِ الدُّنيا سبعَ مراتٍ، ثم يُجابون بأنْ يقالَ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[٢].

قال عبدُ الله بن عَمرو: فلم ينبسِ القومُ بعدَ ذلك بكلمةٍ إنْ كانَ إلَّا الزَّفيرَ والشَّهيق[٣].

قال قتادةُ: صوتُ الكفَّار في النارِ كصوتِ الحمار، أولُه زفيرٌ وآخرُه شهيق[٤].

وقال ابن عبَّاسٍ: يصير لهم كنباحِ الكلْبِ[٥].

وقيل: عند ذلك يَنقطعُ رجاؤهم فينبحُ بعضُهم في وجهِ بعضٍ وتُطبِقُ النارُ عليهم.

---

(١) قطعة من خبر عن ابن عمرو رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٠٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٤٢٠) وفيه: «.. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ قال: فيسكت عنهم قَدْرَ الدنيا مرتين..».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ١٦٧)، وزاد: «فلا يتكلم أهل النار بعدها أبدًا، غير أن لهم زفيراً أول نهيق الحمار، وشهيقاً آخر نهيق الحمار».

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٧٧٠)، وعنه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٨٠).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٩٩٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٧).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٧٤) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ يعني: المؤمنين ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ فكيف تَسْتخِفُّون بهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾؛ أي: استهزأتُم بهم، فهذا جزاؤكم اليومَ.

وقرئ ﴿سِخْرِيًّا﴾ بضمِّ السينِ وكسرِها[١].

والسخريُّ مصدر، يقال: سَخِرَ به وسَخِرَ منه سُخْرِيَةً وسُخْرِيًّا وسَخَراً، ويجوز أن يكون السُّخْريُّ والسُّخريَة نعتاً.

وقال قوم: يُقال من العُبودة: «سُخريٌّ» بالضم، ومن الهزء: «سِخريٌّ» بالكسر.

وكان كفَّارُ قريشٍ يستهزئُون من عَمارٍ وبِلالٍ وصُهيبٍ وخَبَّابٍ وفقراءِ الصحابة.

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾؛ أي: حتى اشتَغَلْتُم بالاستهزاءِ بهم عن ذكر الله تعالى، فأضاف الإنساءَ إلى المؤمنين لأنَّهم كانوا سبباً لانشغالهم عن ذِكْرِه، وتعدَّى شؤمُ استهزائِهم بالمؤمنين إلى استيلاءِ الكفرِ على قلوبهم.

﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾؛ أي: استهزاء بهم.

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾؛ أي: صبَروا على أذاكم وصبَروا على طاعتي ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بفتحِ ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: لأنَّهم هم الفائزون، وقرئ: ﴿إنهم﴾ على الاستئناف[٢].

* * *

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بضم السين، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٨ ـ ٤٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(١١٢ ـ ١١٤) ـ ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هـذا يجرِي قَبْلَ قولِه: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾، ويجوزُ مثلُ هذا في الأخبار، قال الله لهؤلاء المشركين وهم في العَرَصات أو في النَّار: كم لبثتم في الدُّنيا عددَ سنين؛ أي: كم لبِثْتُم من السِّنين إلى أن بُعِثْتم؟ أي: كم بقِيْتُم في القبور؟

وقرئ ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُم﴾[1]، فهو أمرٌ للمَلَك ليسألهم يومَ البعث عن قَدْر مكثهم في الدنيا، أو أراد: «قل أيها الكافر كم لبثتم».

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ نسُوا ذلك لِعظَمِ ما هم فيه من العذاب.

وقيل: رأَوا ما كانوا فيه يسيراً بالنِّسبة إلى ما هم بصَدَدِه.

﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾؛ أي: سَلْ مَن يَعرف عددَ ذلك فإنَّا قد نسيناه؛ أي: فسَلِ الملائكةَ الذين كانوا معنا في الدُّنيا.

قوله: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾؛ أي: قال الله لهم، أو قالت الملائكة لهم.

وقرئ: ﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُم إِلَّا قَلِيلاً﴾[2]، وهو أمرٌ للمَلَك الذي يسألُهم عن قَدْرِ لبثِهم.

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾؛ أي: ما لبثتُم في الأرضِ إلا قليلاً، وذلك أنَّ مكثَهم في القبورِ وإنْ طال كان مُتناهياً.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٢) هي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي، والباقون: ﴿قال﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

وقيل: هو قليلٌ بالنِّسبة إلى مُكثِهم في النار لأنَّه لا نهايةَ له.

﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كنتُم تعلَمون أنَّ الدُّنيا فانيةٌ لعلِمْتُم أنَّ مدَّتَها وإنْ طالَتْ هي قليلةٌ، وكان ينبغي أنْ يمنعَكم ذلك عن قولِكم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾.

والجملةُ: أنَّهم كانوا يُنكِرون البعثَ ويَستبطِئونه إنْ كان منه حقيقة، فيقالُ لهم يومَ القيامة: قد جاء ما كنتم تَستبطئونَ، فكم مَكثتُم في الدنيا؟ وهل منعَ ذلك المكثُ من مجيء الساعة، ألمْ تكنْ مُدَّةُ الدنيا وإنْ طالتْ قصيرةً، ولكن لظنِّكم أنْ لا بعثَ قدَّرْتُموها باقيةً؟

***

(١١٥ - ١١٦) - ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾؛ أي: أظننْتُم إذ أنكرْتُم البعثَ أنَّا خلَقْناكم لعِباً لغيرِ فائدة.

والعَبَثُ: اللَّعبُ، فقوله: ﴿عَبَثًا﴾ نصبٌ على الحال، أو نصبٌ على المصدر، أو لأنه مفعولٌ له؛ أي: أخلَقْناكم للعَبَث كما خُلقَتِ البهائمُ لا ثوابَ لها ولا عقاب؟ لا بل خلَقْناكم لنَمْتَحِنكم ثم نُثِيبَ المطيعَ ونعاقبَ العاصيَ.

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فتجازَون بأعمالِكم.

قرئ ﴿ترجعون﴾ بفتحِ التاء وضمِّها[1].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وباقي السبعة بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

قوله تعالى: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: تنزَّهَ الذي هو المَلِكُ الحقُّ عن الأولاد والشركاءِ والأندادِ، وعن أنْ يَخلُقَ الخَلْقَ عبثاً.

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنَّ كلَّ مَنْ سواه فهو موجودٌ بإيجادِه.

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ العرشُ: السَّرير، والكريمُ بمعنى: المحسِن، وقد أَخبرَ الرَّبُّ أنَّه خلَق في السماءَ عرشاً عظيماً لا يقدرُ أحدٌ على مثلِه سواه، ويجبُ الإيمان بما أخبرَ به كالإيمان بالملائكة وعِظَمِ خَلْقِهم وكثرةِ عددِهم وإن كان الرَّبُّ تعالى غيرَ محتاجٍ إلى مكانٍ وغيرَ محتاجٍ إلى أعوان.

***

(١١٧ ـ ١١٨) ـ ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ﴾ وعلى القَطْع لا برهانَ، فمَن دعا غيرَه بعدَ أنْ عرفَ أنْ لا برهانَ له في ذلك فـ﴿حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ وهو يعاقبُه ويحاسبُه.

قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ أمَرَه بالاستغفار لتقتدي به الأمَّة.

وقيل: أمره بالاستغفار لأمته(١).

***

---

(١) جاء بعدها في النسخة (ج): «كمل الجزء الخامس من كتاب «التيسير في علم التفسير» مصنف الشيخ الشهيد الإمام زين الدين ركن الإسلام أبي نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم بن هوازن القشيري.
فرغ منه صاحبه الفقير إلى رحمة الله عبد الله بن عيسى بن عبيد الله بن عيسى المرادي الأندلسي ثم الإشبيلي في الثالث من شعبان سنة أربع وستين وخمس مئة، حامداً لله تعالى مصلياً على رسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وزوجه.
بلغ مقابلة بالأصل على سبيل الاجتهاد والتصحيح، والحمد لله حق حمده».

سُورَةُ النُّورِ

تفسيرُ سورةِ النُّورِ

بسمِ اللّه الرّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه تعالَى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾؛ أي: هذه سورةٌ، أو: ممَّا أنزَلْنا إليك سورةٌ، و﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ صفةٌ لها، قُرِئَ بالتَّخفيفِ، وبالتَّشديدِ للكثرةِ[1]؛ أي: لكثرةِ المفروضِ فيها.

وأصلُ الفرضِ: القَطعُ والتَّقديرُ، والمعنى: جعَلْنا ما فيها منَ الأحكامِ مُقدَّرًا مقطوعًا به، والمعنى على حذفِ شيءٍ في الكلامِ تقديرُه: فرَضْنا فرائضَها، ثمَّ حُذِفَ المُقدَّرُ فاتَّصَلَ الضَّميرُ بـ(فَرَضْنا).

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضِحاتِ الدَّلالةِ بالأمرِ والنَّهيِ والحدودِ والأحكامِ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تتَّعِظُونَ فتتَّقُونَ المحارمَ.

* * *

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الراء، والباقون بتخفيفها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٢)، و«التيسير» (ص:١٦١).

(٢) - ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾؛ أي: فيما فرَضْنا ـ أو أنزَلْنا ـ حكمُ الزّانيةِ والزّاني، والمُرادُ: غيرُ المُحصَنين؛ لرجمِهما[1].

﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾؛ أي: التي زنَتْ والذي زنا فاجلِدُوهما، كقولِك: «مَن زنا فاجلِدْه».

بدأ بذكرِ الزّانيةِ لأنَّ الزِّنا في النِّساءِ أكثرُ، وبدأ بالسّارقِ لأنَّ السّارقَ في الرِّجالِ أكثرُ، أو لأنَّ النِّساءَ أحرَصُ على الزِّنا منَ الرِّجالِ، أو لأنَّ الفعلَ لا يحصلُ إلّا بمُوافقةٍ منها، يُقالُ: «جلَدَه»: إذا ضرَبَ جلدَه، كما يُقالُ: ذكَرَه وفأَدَه ورَأَسَه: إذا أصابَ ذكَرَه وفؤادَه ورَأْسه.

قال العلماءُ: وجاءَ بلفظِ الجلدِ لئَلّا يضرِبَه ضربًا شديدًا يقطعُ لحمًا أو يكسرُ عظمًا.

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: رحمـةٌ في حكمِه وامتثالِ أمرِه، واسـتعمِلُوا الجِـدَّ، ولا يأخُذْكـم في اسـتيفاءِ حقـوقِ الله تعالى لومةُ لائمٍ، ولا شـفقةٌ على أحدٍ، اقتـداءً برسـولِ الله ﷺ حيـثُ قـال: «والله لـو سـرَقَتْ فاطمةُ بنـتُ محمَّـدٍ لقطَعْتُ يدَها»[2].

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ أي: يومِ البعثِ، وهذا نهايةُ الإغراءِ والتَّحريضِ

---

(١) قوله: «لرجمهما»؛ أي: لرجم المحصنين؛ أي: ليس المراد في الآية المحصنين لأن عقوبة المحصن الرجم، والذي في الآية الجلد الذي هو عقوبة غير المحصن.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

على إقامةِ الحدودِ، في الحديثِ: «يُؤتَى بوالٍ نقَصَ من حدٍّ سَوْطًا فيقولُ: رحمةً لعبادِكَ، فيقولُ له: أنتَ أرحَمُ منِّي؟ فيُؤمَرُ به إلى النّارِ، ويُؤتَى بمَن زادَ سَوْطًا فيقولُ: لينتَهوا عن معاصيكَ، فيُؤمَرُ به إلى النّارِ»[1].

ورُوِيَ أنَّ إقامةَ الحدودِ بأرضٍ خيرٌ لأهلِها من مطرِ أربعينَ ليلةً[2].

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليحضُرْ حدَّهما جماعةٌ منَ المُؤمنينَ، وأقلُّهم واحدٌ، أو اثنانِ، أو ثلاثةٌ، أو أربعةٌ كشهودِ الزِّنا، أو عشَرةٌ، أو أربعُونَ رجلًا، وفائدةُ حضورِهم ليعتَبِرُوا بذلك، وليعتَرِفُوا بنعمِ الله تعالى عليهم.

ويجوزُ أنَّه إنَّما خصَّهم بالمُؤمنينَ لئلّا يُعيِّروا المُبتَلَى ويدعُوا عليه فيكونُوا من أعوانِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ في المُؤمنينَ الشَّفقةَ والرَّحمةَ، وأنَّهم يعلَمُونَ مواقعَ الأقدارِ، وأنْ لا سبيلَ إلى الاعتصامِ إلّا مَن عصمَه الله تعالى، أو لأنَّ الفضيحةَ بين صُلَحاءِ المسلمين أعظَمُ، أو ليُبلِّغِ الشّاهدُ الغائبَ.

* * *

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١١٦): لم أجده بهذا اللفظ، وعند أبي يعلى [كما في «المطالب العالية» (٢١٥٥)] من رواية عمرو بن ضرار عن حذيفة مرفوعاً: «يؤتى بالذي ضرب فوق الحد، فيقول له الله تعالى: عبدي، لمَ ضربته فوق الحد؟ فيقول: غضباً لك. فيقول: أكان غضبك أشد من غضبي؟ ويؤتى بالذي قصَّر فيقول: عبدي لمَ قصرت؟ فيقول: رَحِمْتُه، فيقول: أكانت رحمتك أشد من رحمتي؟ ثم يؤمر بهما جميعاً إلى النار».

(٢) رواه النسائي في «المجتبى» (٤٩٠٤) و«الكبرى» (٧٣٥٠)، وابن ماجه (٢٥٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

ورواه النسائي في «المجتبى» (٤٩٠٥) و«الكبرى» (٧٣٥١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً، وقال: وهذا الصواب.

(٣) ـ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: المُناسبُ لكلٍّ منهما ما ذُكِرَ، وحُرِّمَ نكاحُ الزَّواني على المؤمنين الأخيارِ.

قيلَ: نزل ذلك لـمَّا همَّ فقراءُ المُهاجرينَ أن يتزوَّجُوا بغايا المُشركينَ وهُنَّ مُوسِراتٍ لِيُنفِقْنَ عليهم.

فقيلَ: التَّحريمُ خاصٌّ بهم.

وقيلَ: عامٌّ، ونُسِخَ بقولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢](١).

قال ابنُ جُبَيرٍ والضَّحّاكُ: المُرادُ بالنِّكاحِ نفسُ الجماعِ، والمعنَى: الزّاني لا يزني إلّا بزانيةٍ أو مُشركةٍ، والزّانيةُ لا تزني إلّا بزانٍ أو مُشركٍ(٢).

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٠٣) عن سعيد بن المسيب، وقال النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٨٢): «وهذا القول الذي عليه أكثر العلماء وأهل الفتيا يقولون: إن من زنا بامرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها، وهو قول ابن عمر...».

وقال ابن المنذر في «الإشراف على مذاهب العلماء» (٥/ ١٠٥): «واختلفوا في الرجل يزني بالمرأة، ثم يريد تزويجها، فرخص فيه أهل العلم، روينا الرخصة فيه عن أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن عمر».

(٢) رواه عن سعيد بن جبير عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٠٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٩٢٨)، ورواه عن الضحاك ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٩٢٧).

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٠٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٩٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٢١ ـ ٢٥٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢٧٨٦) وصححه، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٣)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أما إنه ليس بالنكاح، ولكنه =

وقال ابنُ عبّاسٍ: إنْ جامَعَها وهو مُحرِّمٌ فهو زانٍ، وإنْ جامعَها وهو مُستَحِلٌّ فهو مُشرِكٌ[١].

وعن ابنِ مسعودٍ: أنَّه كان يُحرِّمُه ويقولُ: إذا تزوَّجَ الزّاني بالزّانيةِ فهما زانيانِ أبدًا[٢].

وقال الحسنُ: المعنَى: الزّاني المجلودُ حدًّا لا ينكحُ إلّا زانيةً مجلودةً حدًّا، والزّانيةُ المجلودةُ حدًّا لا ينكِحُها إلّا زانٍ مجلودٌ حدًّا[٣].

وربَّما توهَّمَ بعضُهم أنَّ المرأةَ إذا زَنَتْ حَرُمَتْ على زوجِها، وليس كذلك، وهو خلافُ الإجماعِ.

* * *

= الجماع لا يزني بها إلا زان أو مشرك».

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٣) من قول يزيد بن هارون، وهكذا ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ١١٥).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٨٩٦)، وابن الجعد في «مسنده» (١٦٥)، وإسماعيل القاضي في «أحكام القرآن» (٢٥٦)، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» (١٣٧٧٣).

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٧٩٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩٦٧٠)، وزادا: فقيل لابن مسعود: أفرأيت إن تابا؟ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] فلم يزل ابن مسعود يرددها حتى قلت: إنه لا يرى به بأساً.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٧٨٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٨٨١).

وروي مرفوعًا؛ رواه أبو داود (٢٠٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢٧٠٠) وصححه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». قال ابن كثير في «إرشاد الفقيه» (٢/ ١٤٩): رواه أبو داود، وهذا إسناد جيد قوي.

(٤) - ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أي: الذين يقذِفُونَ المُحصَناتِ العفيفاتِ.

وشرائطُ الإحصانِ المُوجبِ للرَّجمِ إذا زنا الشَّخصُ بعد وجودِ أربعةٍ: العقلُ، والبلوغُ، والحرِّيةُ، والوَطْءُ في نكاحٍ صحيحٍ، هذا عند الشّافعيِّ وأحمدَ، وليس الإسلامُ عندَهما شرطًا خلافًا لمالكٍ وأبي حنيفةَ.

وشرائطُ الإحصانِ المُوجبِ للحدِّ على قاذفٍ مَن وُجِدَ فيه عند الشّافعيِّ وأبي حنيفةَ خمسةٌ: الإسلامُ، والعقلُ، والبلوغُ، والحرِّيةُ، والعِفَّةُ عـن الزِّنا، والمعنى: والذين يقذِفُونَ بالزِّنا المُسلماتِ البالغاتِ العاقلاتِ الحرائرِ العفائفِ.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على زِناهُنَّ برُؤيتِهم، والواجبُ حضورُ الشُّهداءِ لأداءِ الشَّهادةِ مُجتَمعينَ عند أبي حنيفةَ، فإنْ جاؤُوا مُتفرِّقينَ كانوا قَذَفةً، وعند الشّافعيِّ يجوزُ حضورُ الشُّهداءِ مُتفرِّقين، والمعنى: إنْ لـم يأتِ القَذَفةُ بأربعةِ شهودٍ يشهدونَ بالزِّنا.

﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ إنْ كانَ القاذِفُ حرًّا، وإنْ كانَ عبدًا فأربعينَ، والقذفُ يكونُ بالزِّنا وغيرِه، والمُرادُ به: القذفُ بالزِّنا؛ لذكرِه المُحصناتِ عقبَ الزَّواني.

ولا يُشتَرطُ أربعةُ شهداءَ؛ لأنَّ القذفَ بغيرِ الزِّنا يُكتَفَى فيه بشاهدَينِ، وهو أن يقولَ مثلًا: يا آكلَ الرِّبا، يا شارِبَ الخمرِ، يا فاسقُ، يا خبيثُ، والقَذْفُ أن يقولَ: زَنَيتَ، أو: يا زانٍ، يا زانيةُ، يا ولدَ الزِّنا.

وإنْ كانَ المقذوفُ غيرَ مُحصَنٍ عُزِّرَ القاذِفُ ولا يُحَدُّ، واللَّيثُ يحدُّ قاذفَ المجنونِ، ومالكٌ يحدُّ قاذِفَ الصَّبيّةِ التي يُجامَعُ مثلُها، ولا يحدُّ قاذِفَ الصَّبيِّ الذي يُجامِعُ مثلُه، وأحمدُ يحدُّ قاذِفَهما في مثلِ هذه الحالةِ.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾؛ أي: أيَّ شهادةٍ كانت، وهو ردٌّ للشَّهادةِ على التَّأبيدِ، ويكونُ المُستثنَى على هذا منصوبًا؛ لأنَّه من مُوجَبٍ، وإنْ جعلتَه من ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ لـم يجزِ الوقفُ على ﴿أَبَدًا﴾، ويكونُ المُستثنَى على هذا مجرورًا بدلًا من «هم» في ﴿لَهُمْ﴾.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: لإتيانِهم كبيرةً، فحُكِمَ بفسقِهم.

وظاهرُ الآيةِ يقتَضي أن تكونَ الآياتُ الثَّلاثُ أو الجملُ الثَّلاثُ جوابًا للشَّرطِ، تقديرُه: ومَن قذَفَ المُحصَناتِ فاجلدوهم ورُدُّوا شهادتَهم وفسِّقُوهم؛ أي: اجـمَعُوا لهم بين الجلدِ وردِّ الشَّهادةِ والتَّفسيقِ.

***

(٥) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: عمَلَهم.

قيلَ: نزلَتْ هذه الآيةُ في حسّانَ حينَ تابَ مـن قذفِ عائشةَ رضيَ الله عنها، والمعنَى: إلّا التّائبين الموصوفينَ بالصَّلاحِ، وهم الذين أظهَرُوا التَّوبةَ ولـم يعودوا إلى القذفِ.

وقيلَ: مَن تابَ وحسُنَتْ حالُه قُبِلَتْ شهادتُه، سواءٌ تابَ بعد إقامةِ الحدِّ عليه أو قبلَها.

قال بعضُهم: مَن لـم يُعقِبْ توبتَه بالصَّلاحِ كانت توبتُه بعيدةً عن القَبولِ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: يغفرُ لهم قذفَهم ويـرحمُهم بإلهامِهم التَّوبةَ، وبـهـا ينتَهي فسقُهم وتُقبَلُ شهادتُهم.

وقيلَ: لا تُقبَلُ كما سلَفَ رُجوعًا بالاستثناءِ للجملةِ الأخيرةِ.

***

(٦ - ٩) - ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾؛ أي: بالزِّنا، والمعنى: يقذِفُونَ نساءَهم ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ﴾؛ أي: يشهَدُونَ لهم على صدقِ قولِهم ﴿إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: ليس لهم شاهدٌ غيرَهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾؛ أي: شهادةُ أحدِهم واجبٌ أن يشهدَ أربعَ شهاداتٍ ﴿بِاللَّهِ﴾ ليدرأَ عنه الحدَّ إنْ لم يكُنِ الاعترافُ.

﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: فيما رماها به منَ الزِّنا، وأصلُه: «على أنَّه»، فحُذِفَ الجارُّ وكُسِرَتْ «أَنَّ» وعُلِّقَ العاملُ عنه باللّامِ.

قولُه تعالى: ﴿والخامسةُ أنْ لعنةُ اللهِ عليه إنْ كانَ منَ الكاذِبين﴾؛ أي: وشهادةُ أحدِهم الخامسةُ: أنْ لعنةُ الله عليه، واللَّعنةُ: البُعدُ والطَّردُ، ورفعُها على الابتداءِ، و﴿عليه﴾ الخبرُ.

[قرأ يعقوبُ: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾ و﴿أَنْ غَضَبُ اللَّهِ﴾ بتخفيف النون فيهما وسكونهما ورفع ﴿لعنةُ﴾ و﴿غضبُ﴾، وقرأ نافعٌ بتخفيفِ النون فيهما ورفعِ اللعنةِ] وكسرِ الضّاد من ﴿غَضِبَ﴾ جعَلَه فعلًا ماضيًا، ومَن بقيَ بتشديدِ ﴿أَنَّ﴾ ونصبِ اللَّعنةِ دونَ نافعٍ[1].

وقولُه: ﴿عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ﴾؛ أي: فيما رَماها به، وإذا لاعَنَ الزَّوجُ وجبَ على المرأةِ حدُّ الزِّنا إلّا أن تُلاعِنَ، ولذلك قال بعدَه:

---

(١) أي: بتشديد النون فيهما، ونصب ﴿لعنة﴾، و﴿غضب﴾ بخلاف نافع على ما مر. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٣)، و«التيسير» (ص:١٦١)، و«النشر» (٢/ ٣٣٠)، وما بين معكوفتين مستفاد من هذه المصادر.

﴿وَيَدْرَؤُا﴾؛ أي: يدفعُ ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا﴾؛ أي: الحدَّ أو الحبسَ أو العارَ، والمعنَى: والذي يدفعُ الحدَّ عن الزَّوجةِ إذا قذَفَها الزَّوجُ وشهِدَ أربعَ شهاداتٍ مُلاعِنًا: أن تشهدَ ـ أي: الزَّوجةُ ـ أربعَ شهاداتٍ بالله إنَّه لمنَ الكاذبينَ فيما قذفَها به ورَماها به منَ الزِّنا ﴿والخامسةُ﴾[1]؛ أي: والشَّهادةُ الخامسةُ ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: فيما قذَفَها به.

قيلَ: سببُ نزولِ هذه الآيةِ كما روى ابنُ عبّاسٍ: أنَّ هلالَ بنَ أميّةَ قذَفَ امرأتَه خولةَ بشريكِ بنِ السَّحْماءِ عندَ رسولِ الله ﷺ فقال: رأيتُ عند امرأتي شريكَ بنَ السَّحْماءِ، فرأيتُ بعيني وسمعتُ بأُذُني، فاشتدَّ ذلك على رسولِ الله ﷺ، فقال سعدُ بنُ عبادةَ: الآنَ يُضرَبُ هلالٌ وتُرَدُّ شهادَتُه، ثمَّ إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «البيِّنَةَ أو حدًّا في ظهرِكَ»، فقال: يا رسولَ الله، إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجلًا ينطلقُ يلتمسُ البيِّنةَ، فجعلَ ﷺ يقولُ: «البيِّنَةَ، وإلّا حدًّا في ظهرِكَ»، فقال هلالٌ: والذي بعثَكَ بالحقِّ إنِّي لصادقٌ، وليُنزِلَنَّ الله ما يُبرِئُ ظهري منَ الحدِّ، فنزلَتِ الآياتُ، فلاعَنَ رسولُ الله ﷺ بينَهما.

وقال رسولُ الله ﷺ عند قولِه وقولِها: «أنَّ لعنةَ الله عليه، وأنَّ غضَبَ الله عليها»: «آمين»، وقال القومُ: آمين.

وقال لها: «إنْ كنتِ ألـمَمْتِ بذنبٍ فاعتَرِفي به، فالرَّجمُ أهوَنُ عليكِ من غضبِ الله، إنَّ غضبَه هو النّارُ»[2].

---

(١) بالرفع قراءة السبعة عدا حفصاً فقد قرأ بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٣)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

(٢) رواه بنحوه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٧٨٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٢١٣١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٧٤٠)، وقصة هلال بن أمية رواها البخاري (٤٧٤٧) عن ابن عباس رضي الله =

(١٠) - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالسَّترِ، أو بدفعِ الحدِّ عنكم باللِّعانِ، وجوابُ (لولا) محذوفٌ تقديرُه: لعاجَلَكم بالعقوبةِ، ولكنَّه رحِمَكم وسترَ عليكم ودفعَ عنكم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾؛ أي: رجَّاعٌ عن عقوبةِ مَن يرجعُ عن المعاصي تائبًا ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرَضَ من الحدودِ وغيرِها، يُبيِّنُ الحقَّ في ذلك، ويُعاجِلُ بالعقوبةِ مَن يستحقُّها.

* * *

(١١) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾؛ أي: الكذبِ ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، أو هو أسوأُ الكذبِ، وهو الكذبُ الذي جاؤوا به على عائشةَ أمِّ المؤمنينَ بقذفِها، والعُصبةُ: الجماعةُ.

قالت عائشةُ رضيَ الله عنها: هم حسَّانُ بنُ ثابتٍ وعبدُ الله بنُ أُبيٍّ ومِسْطَحٌ وحَمْنَةُ بنتُ جحشٍ[1]، والمعنى: الذين تكلَّمُوا بالكذبِ جماعةٌ منَ المؤمنينَ.

= عنهما دون كلام سعد بن عبادة.

وقوله: «وقال رسولُ الله ﷺ عند قولِه وقولِها: ﴿أنَّ لعنةَ الله عليه﴾، و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾: «آمين»، وقال القومُ: آمين» ليس في مصادر التخريج.

(١) ورد ضمن إحدى روايات البخاري (٤١٤١) عن عروة عنها قالت: «فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول»، وفيه: «قال عروة: لم يسم من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى».

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾؛ أي: أيُّها المُؤمنُونَ غيرُ العُصبةِ، أو الخطابُ لعائشةَ وحدَها، أو لـها ولصفوانَ، أو لـهما ولأبوَيها وللنَّبيِّ ﷺ.

﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بأن تُثابُوا على ذلك، وتظهرَ براءةُ عائشةَ وصفوانَ.

قالت عائشةُ: كان رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ سفرًا أقرَعَ بين نسائِه، فمَن خرجَ سهمُها أخذَها معه في سفرِه، فخرجَ سهمي هذا بعدما نزلَ الحجابُ، فحُمِلْتُ في هودَجٍ، فلمّا رجعَ ﷺ من غزوتِه تلك نحوَ المدينةِ قافِلًا أذِنَ ليلةً بالرَّحيلِ، فقُمتُ فمشَيتُ حتَّى جاوَزْتُ الجيشَ، فلما قضَيتُ شأني أقبَلْتُ إلى رَحلي، فلمَسْتُ صدري فإذا عِقدٌ لي من جَزْعِ ظَفارِ قد انقطَعَ، فرجَعْتُ فالتمَسْتُ عِقدي فحبَسَني ابتغاؤُه، وأقبلَ الرَّهْطُ الذين كانوا يرحَلُون بي، فاحتَمَلُوا هَودَجي فرَحَلُوه على بعيري الذي كنتُ أركبُ عليه وهم يحسَبُونَ أنِّي في الهودَجِ، وكان النِّساءُ إذ ذاك خِفافًا لـم يُهَبَّلْنَ ولـم يغْشَهُنَّ اللَّحمُ، فسارُوا، ووجَدْتُ عِقدي بعدَما استمرَّ الجيشُ، فجئتُ منازِلَـهم وليس فيها منهم داعٍ ولا مُجيبٌ، فتيمَّمْتُ منزلي الذي كنتُ فيه فنِمْتُ، فما استيقَظْتُ إلّا باسترجاعِ صفوانَ بنِ المُعطَّلِ حينَ رآني، فخَمَّرْتُ وَجهي بجِلْبابي، والله ما تكلَّمْنا بكلمةٍ، ولا سمِعْتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعِه، وهوَى حتَّى أناخَ راحلتَه فوَطِئَ على يدِها فقُمْتُ إليها فركبتُها، فانطلَقَ يقودُ بي الرّاحلةَ حتَّى أتَينا الجيشَ مُوغِرينَ في نحرِ الظَّهيرةِ، وهم نزولٌ، فهلَكَ فينا مَن هلَكَ.

ورُوِيَ: أنَّ عبدَ الله بنَ أُبيٍّ ابنَ سلولَ لـمَّا رأى صفوانَ يقودُ البعيرَ الذي عليه عائشةُ قال: مَن هذه؟ قيلَ له: عائشةُ، قال: والله ما نجَتْ منه ولا نجا منها، امرأةُ نبيِّكم باتَتْ مع رجلٍ حتَّى أصبحَتْ ثمَّ جاءَتْ يقودُ بها.

قالت: فاشتكَيْتُ حين قدِمْتُ المدينةَ شهرًا، والنّاسُ يُفيضُونَ في قولِ أصحابِ الإفكِ ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، ويَريبُني في وجَعي أنِّي لا أعرفُ من رسولِ الله ﷺ

اللُّطفَ الذي كنتُ أعرِفُه منه حينَ أشتكي، إنَّما يدخلُ عليَّ فيقولُ: «كيفَ تيكُم؟» ثمَّ ينصرِفُ، ولـم أشعُرْ بالشَّرِّ، فخرَجْتُ ليلةً مع أمِّ مسطحٍ بعدَما نَقَهْتُ قِبَلَ المناصِعِ، وكان مُتَبَرَّزَنا، وكنَّا لا نخرجُ إلّا ليلًا، وذلك قبلَ أن تُتَّخَذَ الكنُفُ، وأمرُنا أمرُ العربِ في التَّنزُّهِ قِبَلَ الغائطِ، ثمَّ أقبَلْتُ أنا وأمُّ مسطحٍ قِبَلَ بيتي حتَّى فرَغْنا من شأنِنا، فعثَرَتْ أمُّ مسطحٍ في مِرْطِها فقالَتْ: تعِسَ مسطحٌ، فقلتُ لـها: بئسَ ما قُلتِ، تشينينَ رجلًا شهِدَ بدرًا، قالت: أوَلـم تسمَعي ما قالَ؟ قلتُ: وما قال؟ فأخبرَتْني بحديثِ أصحابِ الإفكِ، فازدَدْتُ مرضًا إلى مرَضي.

فلمّا رجَعْتُ إلى بيتي دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «كيفَ تيكُم» فقُلتُ: أتأذَنُ لي أن آتيَ أبوَيَّ؟ وأريدُ أن أستَيقِنَ الخبرَ من قِبَلِهما، فأذِنَ لي، فقلتُ لأمِّي: ماذا يتحدَّثُ النّاسُ؟ فقالَتْ: يا بُنيّةُ، هوِّني عليكِ، فوالله قلَّما كانت امرأةٌ وضيئةٌ عند رجلٍ يُحبُّها لـها ضرائرُ إلّا أكثَرْنَ عليها، فبكيتُ تلك اللَّيلةَ أجمعَ لا ينقطعُ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ، ثمَّ أصبحتُ أبكي.

فدَعا رسولُ الله ﷺ عليًّا وأسامةَ بنَ زيدٍ يسألُـهما ويستَشيرُهما، فأمّا أسامةُ فقال: يا رسولَ الله، أهلُكَ فلا نعلمُ إلّا خيرًا، وأمَّا عليٌّ فقال: لـم يُضيِّقِ الله عليكَ، والنِّساءُ سِواها كثيرٌ، وسلِ الجاريةَ تصدُقْكَ، فقالَ ﷺ: «أَيْ بَريرةُ، هل رأيتِ من شيءٍ يَريبُكِ؟» فقالَتْ: والذي بعثَكَ بالحقِّ، ما رأيتُ عليها قطُّ أمرًا أَغمِصُه أكثرَ من أنَّها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ تنامُ عن عجينِ أهلِها حتَّى تأتيَ الدّاجِنُ فتأكُلَه.

فقامَ ﷺ على المنبرِ فقال: «يا معشرَ المُسلمينَ، مَن يَعذِرُني من رجلٍ قد بلَغَني عنه أذاه في أهلي، فوالله ما علِمْتُ على أهلي إلّا خيرًا، [ولقد ذَكَرُوا رجلًا ما عَلِمْتُ عليه إلا خيرًا] فوالله ما يدخُلُ على أهلي إلّا معي»، فقام سعدُ بنُ معاذٍ أخو بني الأشهلِ فقال: يا رسولَ الله، أنا أعذِرُكَ، فإنْ كانَ منَ الأوسِ أضرِبُ عنُقَه، وإنْ كانَ

منَ الخزرجِ فعَلْنا فيه أمرَكَ، فقامَ منَ الخزرجِ سعدُ بنُ عبادةَ، وكانَ قبلَ ذاك رجلًا صالحًا، ولكنْ حملَتْه الحمِيَّةُ، فقال لسعدٍ: كذَبْتَ، لعمرُ الله لا تقتُلُه ولا تقدرُ على ذلك، ولو كانَ من رهطِكَ ما أحبَبْتَ قتلَه، فقام أُسيدُ بنُ حُضَيرٍ وهو ابنُ عمِّ سعدٍ فقال لسعدِ بنِ عُبادةَ: كذَبْتَ، والله لنقتُلَنَّه، وإنَّكَ لمُنافقٌ تُجادِلُ عن المُنافقينَ، فثارَ الحيّانِ الأوسُ والخزرجُ حتَّى همُّوا أن يقتَتِلُوا ورسولُ الله ﷺ على المنبرِ، فلم يزَلْ يُخفِّضُهم حتَّى سكَتُوا وسكَتَ.

فبكيتُ ذلك اليومَ أجمع، حتَّى إنِّي لأظُنُّ البكاءَ فالِقَ كبِدي، ومعي امرأةٌ أُخرَى تبكي، وأبوايَ جالسانِ عندي، فأتى رسولُ الله ﷺ ونحنُ على تلكَ الحالِ، ثمَّ جلَسَ عندي ولم يجلِسْ عندي قبلُ، وكان قد لبثَ شهرًا لا يُوحَى إليه شيءٌ في شأني، فتشهَّدَ ثمَّ قال: «أمَّا بعدُ، يا عائشةُ إنَّه بلغَني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيُبرِّئُكِ الله، وإنْ كنتِ ألْمَمْتِ بذنبٍ فاستغفِري الله وتوبي إليه؛ فإنَّ العبدَ إذا اعترَفَ تابَ الله عليه».

فلمَّا قضى مقالتَه قَلَصَ دمعي حتَّى ما أُحِسُّ منه بقطرةٍ، فقلتُ لأبي: أجِبْ رسولَ الله، فقال: والله ما أدري ما أقولُ، فقلتُ لأمِّي: أجيبي رسولَ الله، فقالَتْ: والله ما أدري ما أقولُ، فتشهَّدْتُ ثمَّ قلتُ: والله لقد علِمْتُ أنَّكم سمعتُم هذا الحديثَ حتَّى استقرَّ في أنفُسِكم وصدَّقتُم، فإنْ قلتُ: إنِّي بريئةٌ، لا تُصدِّقوني، وإن اعترَفْتُ لكم بأمرٍ أنا منه بريئةٌ لتُصَدِّقوني، فوالله ما أجدُ لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسفَ نبيَّ الله يعقوبَ حينَ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

ثمَّ تحوَّلْتُ واضْطَجَعْتُ على فراشي، وأنا والله أعلَمُ أنَّ الله يُبرِّئُني، ولكنْ والله ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله يُنزِلُ في شأني وَحْيًا يُتلَى لصِغَرِ شأني عندي، وكنتُ أرجو أنَّ

رسولَ الله ﷺ يرى رُؤيا يُبرِّئُني الله بها، فما فارَقَ ﷺ مجلسَه ذاكَ حتَّى أُوحيَ إليه، فلمّا سُرِّيَ عنه الوحيُ نظرَ إليَّ وهو يضحكُ ثمَّ قال: «يا عائشةُ، والله لقد برَّأكِ الله» فقالت أُمِّي: قُومي إليه، فقُلْتُ: لا والله، لا أقومُ إليه ولا أحمدُ إلّا اللهَ، ونزلَ في شأني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآياتِ العشرَ[1].

قولُه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾؛ أي: العُصبةِ الكاذبةِ؛ أي: على كلِّ امرئٍ منهم ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾؛ أي: اجترَحَ منَ الذَّنبِ، والمعنَى: له جزاءُ ما اجترَحَ بقَدْرِ إفكِه وخَوضِه.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ أي: والذي تحمَّلَ مُعظَمَ الكذبِ، فبدأ بالخوضِ فيه وأشاعَه، وهو عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: في الآخرةِ، وهو النّارُ.

* * *

(١٢) ـ ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ أي: الإفكَ؛ أي: هلَّا حينَ سمِعتُموه ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؛ أي: ظنَّ بعضُهم ببعضٍ خيرًا.

أو المُرادُ بـ(أنفُسِهم): أمَّهاتُهم، أو أخَواتُهم، أو أهلُ دينِهم؛ لأنَّ المُؤمنينَ كنفسٍ واحدةٍ، ونظيرُه قولُه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، والمعنَى: هلّا ظننتُم كما ظنُّوا؛ لأنَّهم أحسَنُوا الظَّنَّ ونفَوا الإفكَ.

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كذِبٌ بيِّنٌ.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) و(٤١٤١) و(٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، وما بين معكوفتين منهما.

(١٣) ـ ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ أي: هلّا جاؤُوا ـ أي: العصبةُ الكاذبةُ ـ على إفكِهم بأربعةٍ منَ الشُّهودِ شاهَدُوه، فحيثُ لم يأتُوا بالشُّهودِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حُكمِه، وفيما جاءَ من عندِه ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: فيه، والمعنى: كذِّبُوهم بأمرِ الله.

***

(١٤) ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: خُضتُم فيه منَ الإفكِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قيلَ: نزلَتْ في شأنِ الذين لم يقذِفُوا ولكنَّهم خاضُوا.

والعذابُ قيلَ: في الدُّنيا. وقيلَ: عذابُ الآخرةِ.

***

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾؛ أي: تأخُذُونَه وتقبَلُونَه، ويرويه بعضُكم عن بعضٍ.

قيلَ: كان الرَّجلُ منهم يلقَى الرَّجلَ فيقولُ: بلَغَني كذا وكذا، فيتلَقَّونَه تلقينًا.

قولُه تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: وتقُولُونَ كلامًا مُختصًّا

بالأفواهِ بلا مُساعدةٍ منَ القلوبِ؛ لأنَّه ليس تعبيرًا عن علمٍ به في قلوبِكم، وهو كقولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ لا إثمَ فيه ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾؛ أي: في الوِزْرِ والإثمِ واستجرارِ العذابِ.

وهذه ثلاثةٌ مُترتِّبةٌ عُلِّقَ بها مسُّ العذابِ العظيمِ: تلقِّي الإفكِ بألسنَتِهم، والتَّحدُّثُ به من غيرِ تحقُّقٍ، واستِصغارُهم لذلك وهو عندَ الله عظيمٌ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ أي: وهلّا حينَ سمِعْتُموه ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾؛ أي: ما ينبَغي لنا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ والمعنى: هلّا قُلتُم إذ سمِعْتُم حديثَ الإفكِ: ما يجوزُ لنا أن نتَفَوَّهَ بهذا.

رُوِيَ: أنَّ أمَّ أيُّوبَ [زوجةَ أبي أيوبَ] الأنصاريِّ قالَتْ له: أمَا بلغَكَ ما يقولُ النّاسُ في عائشةَ؟ فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: كذِبٌ بالغٌ في العِظَمِ، فنزلَتْ الآيةُ على وَفْقِ قولِه(١).

الأصلُ في «سُبحانَ» أن تُستعمَلَ للتَّعجُّبِ من كلِّ ما يعظُمُ خطرُه، ثمَّ كثُرَ ذلك حتَّى استُعمِلَتْ في كلِّ مُتعَجَّبٍ منه، والمعنَى: تنزَّهَ الله تعالى أن تكونَ امرأةُ نبيِّه فاجرةً.

***

(١) رواه بنحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٧٤)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ١٠٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٢٣)، عن عائشة رضي الله عنها، ورواه بنحوه البخاري (٧٣٧٠) بإبهام القائل، ولفظه: «وقال رجل من الأنصار: سبحانك، ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾».

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: ينهاكُم، أو المعنى: حرَّمَ عليكم.

﴿أَن تَعُودُواْ ﴾؛ أي: كراهةَ أن تعُودوا، أو: لئلّا تعودُوا.

﴿لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: لأنَّ الإيمانَ يَمنَعُ عنه.

وفي الآيةِ توبيخٌ وتقريعٌ.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ في الأمرِ والنَّهيِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يأمرُ به وما ينهى عنه، أو بشأنِ عائشةَ وصفوانَ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أتى به، أو فيما حكَمَ من براءَتِهما.

* * *

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ أي: أن تظهرَ الفاحشةُ وتنتشرَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ هو الجلدُ ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهو النّارُ، والمُرادُ بذلك عبدُ الله بنُ أُبيٍّ وأصحابُه المُنافقونَ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كذِبَ الخائضينَ وبراءةَ عائشةَ منَ الزِّنا، أو: والله يعلَمُ مَن أحبَّ إشاعةَ الفاحشةِ ممَّن كرِهَ ذلك ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: لا تعلَمُونَ وُجودَها فيهم.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ هو خطابٌ لعامّةِ الخلقِ، أو خاصٌّ بالخائضينَ في الإفكِ، والمعنَى: ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه إيّاكُم، وجوابُ

«لولا» محذوفٌ كحذفِه في الآيةِ التي قبلَ هذه، والتَّكريرُ مع الحذفِ في الموضعَينِ دليلٌ على مُبالغةٍ عظيمةٍ.

***

(٢١) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾؛ أي: ما طَهرَ ولا صلحَ، أو ما اهتَدَى، أو ما أسلَمَ.

وقُرِئَ: (ما زكَّى) مُثقَّلًا[1]؛ أي: اللهُ.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يُطهِّرُ مَن يشاءُ بالتَّوبةِ وقَبولِها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميعٌ لِمَا قالوا، عليمٌ بنيَّاتِهم ومقاصِدِهم.

***

(٢٢) - ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾؛ أي: ولا يحلِفْ، من «الأَلِيَّةِ» وهي اليمينُ، وقُرِئَ: ﴿ولا يَتَأَلَّ﴾ وزنَ «يتفعَّل»[2].

﴿أُولُو الْفَضْلِ﴾ في الدِّينِ، أو أصحابُ الغِنَى ﴿مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾؛ أي: في

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٢) عن الحسن وأبي حيوة.

(٢) قرأ بها أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣١). وهذا مضارع تألَّى بمعنى: حلَف.

المـالِ، وفيـه دليـلٌ علـى فضـلِ أبـي بكـرٍ وشـرفِه؛ لأنَّ مسـطحًا كانَ ابـنَ خالتِـه، وكان أبـو بكـرٍ يُنفِـقُ عليـه قبـلَ خَوضِـه في عائشـةَ، فلمّـا نزلَـتْ براءتُـها حلَفَ لا يُنفِـقُ عليـه شـيئًا، فنزلَتْ.

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: لا يُؤتُوا أصحابَ القرابةِ ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المُرادُ بذلك مسطحٌ؛ حيثُ امتنعَ أبو بكرٍ منَ النَّفقةِ عليه وحلَفَ.

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ عنهم فيما وقَعَ منهم، والصَّفحُ: الإغماضُ عن المكروهِ والإضرابُ عنه.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: على عفوِكم وصَفحِكم وإحسانِكم إلى مَن أساءَ إليكم.

قيلَ: لمَّا سمِعَها أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ قال: بلى، أنا أُحبُّ أن يغفرَ الله لي، وأعادَ إلى مسطحٍ نفقتَه التي كان يُنفِقُها عليه، وقال: والله لا أنزِعُها منه أبدًا[1].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: فتخَلَّقُوا بأخلاقِه، فإنَّه مع كمالِ قُدرتِه هذا وصفُه.

قال ابنُ عبّاسٍ: أقسمَ جماعةٌ منَ الصَّحابةِ منهم أبو بكرٍ أنَّهم لا يتصدَّقُونَ على رجلٍ تكلَّمَ في عائشةَ، فنزلَتْ هذه الآيةُ.

* * *

(٢٣) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾؛ أي: العفائفَ عنِ الفواحشِ ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾؛ أي: اللّاتي لـم يقَعْ في قلبِهنَّ فعلُ الفاحشةِ.

---

(١) قطعة من حديث الإفك الطويل عن عائشة رضي الله عنها المتقدم. رواه البخاري (٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠).

﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ أي: عُذِّبوا، فعذابُهم في الدُّنيا الجلدُ، وفي الآخرةُ النّارُ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: لعِظَمِ ذُنوبِهم، فهو خاصٌّ بمَن قذَفَ عائشةَ، أو أزواجَ النَّبيِّ ﷺ، ولذلك قال ابنُ عبّاسٍ: لا توبةَ له[1].

ولو فتَّشْتَ وَعيداتِ القرآنِ لم تجِدْ أغلَظَ ممّا نزَلَ في إفكِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

قيلَ لسعيدِ بنِ جُبيرٍ: مَن قذَفَ مؤمنةً يلعنُه الله في الدُّنيا والآخرةِ؟ فقال: إنَّما ذلك لمَن قذَفَ عائشةَ خاصّةً[2].

قال بعضُ العلماءِ: مَن قذَفَ عائشةَ أو إحدى زوجاتِه ﷺ ليس له توبةٌ، ومَن قذَفَ مؤمنةً غيرَهُنَّ كان له توبةٌ[3].

***

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ قُرِئَ بالياءِ[4]؛ لأنَّ تأنيثَ الألسنةِ غيرُ حقيقيٍّ، وللفصلِ بينَ الفعلِ والفاعلِ بالظَّرفِ، وشهادتُهم في إقرارِهم بما تكلَّمُوا به من حديثِ الإفكِ، وهذا قبلَ أن يُختَمَ على أفواهِهم، فإذا خُتِمَ على أفواهِهم تكلَّمَتْ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٣٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٥٣).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٦٢ و٢٢٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٥١).

(٣) روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٥٣).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٤)، و«التيسير» (ص:١٦١).

جوارِحُهم، وهي أيديهم وأرجلُهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: في الدُّنيا، أو هؤلاءِ غيرُ الذين يُختَمُ على أفواهِهم، أو المعنَى: تشهدُ ألسنةُ بعضِهم على بعضٍ، والشَّهادةُ في يومِ القيامةِ.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: يُجازيهم جزاءَه الواجبَ عليهم، أو المعنَى: حسابَهم العدلَ، أو: جزاءَ دينِهم.

وقُرِئَ: (دينَهم الحقُّ) رفعًا نعتًا لله تعالى[1]، تقديرُه: يُوفِّيهم اللهُ الحقُّ دينَهم.

﴿وَيَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لمُعاينَتِهم الأمرَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: يتحقَّقونَ حينَئذٍ ما كانُوا يشكُّون فيه، أو المعنى: يُبيِّنُ اللهُ لـهم ما كان يعِدُهم به في الدُّنيا حقيقةً.

قال ابنُ عبّاسٍ: كان عبدُ الله بنُ أُبيٍّ بنُ سلولَ قد شكَّ في الدِّينِ، فيعلمُ يومَ القيامةِ أنَّ الله هو الحقُّ المُبينُ[2].

***

(٢٦) ـ ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾؛ أي: الزَّواني للزُّناةِ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ﴾؛ أي: الزُّناةُ للزَّواني. وفي التَّكريرِ زيادةُ تأكيدٍ، ويجوزُ أن يكونَ إيذانًا أنَّ كلَّ واحدٍ منهما أهلٌ للآخرِ دونَ غيرِه منَ النّاسِ.

---

(١) قرأ بالنصب جمهور القراء، وبالرفع في «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ١٠٣) عن ابن عباس ومجاهد، وفي «المحتسب» (٢/ ١٠٤) عن مجاهد وأبي روق. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٣٢) عن مجاهد.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ١٣٠)، وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ١٨٢).

أو: الكلماتُ الخبيثاتُ إنَّما تُقالُ أو تُعَدُّ على الخبيثينَ منَ الرِّجالِ.

أو: الخبيثاتُ منَ الأعمالِ للخبيثينَ منَ النّاسِ، والخبيثُونَ منَ النّاسِ للخبيثاتِ منَ الأعمالِ.

قال الزَّجَّاجُ: المعنَى: لا يتكلَّمُ بالخبيثاتِ إلّا الخبيثُ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ[1].

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ أي: العفائفُ منَ النِّساءِ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾: للأعِفَّاءِ منَ الرِّجالِ.

﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾؛ أي: الأعِفّاءُ ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾: للعفائفِ.

وفي التَّكريرِ ما تقدَّمَ من زيادةِ التَّأكيدِ، وإيذانُ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما أهلٌ للآخرِ دونَ غيرِه.

أو: الكلماتُ الطَّيِّباتُ إنَّما تُقالُ للطَّيِّبينَ من النّاسِ وبالعكسِ.

قال الزَّجَّاجُ: المعنَى: لا يتكلَّمُ بالكلماتِ الطَّيِّباتِ إلّا الطَّيِّبونَ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: صفوانُ وعائشةُ، وجمعَهما كقولِه: ﴿وإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]؛ لأنَّ أقلَّ الجمعِ اثنانِ على ما فيه، أو الإشارةُ إلى (الطَّيِّبونَ والطَّيِّباتُ).

﴿مُبَرَّءُونَ﴾: مُنزَّهون ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾؛ أي: عمّا يقولُ الخبيثُونَ والخبيثاتُ فيهم.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ أي: تُغفَرُ ذنوبُهم وتُمحَى ﴿و﴾ لهم ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: الجنّةُ، أو فيها.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٧).

(٢) المصدر السابق.

وقد افتخَرَتْ عائشةُ رضيَ الله عنها بأشياءَ، منها أنَّها خُلِقَتْ طيِّبةً، ووُعِدَتْ بالمغفرةِ، وبرزقٍ كريمٍ وهو الجنَّةُ[1].

(١) روى أبو يعلى في «مسنده» (٤٦٢٦)، والآجري في «الشريعة» (١٨٤٧) و(١٩٠١)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٧٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢١)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣١٤)، جميعهم من طريق علي بن زيد بن جدعان عن جدَّته عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قد أعطيت تسعاً ما أعطيتها امرأة إلا مريم بنت عمران: لقد نزل جبريل بصورتي في راحته حتى أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً وما تزوج بكراً غيري، ولقد قبض ورأسه لفي حجري، ولقد قبرته في بيتي، ولقد حفت الملائكة بيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وهو في أهله فيتفرقون عنه، وإن كان لينزل عليه وإني لمعه في لحافه، وإني لابنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة وعند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريماً».

وعلي بن زيد ضعيف، وجدته مجهولة، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤١): رواه أبو يعلى، وفي الصحيح وغيره بعضه، وفي إسناد أبي يعلى مَن لم أعرفه.

قلت: لكن روي بنحوه من طرق أخرى صحح بعضها العلماء:

منها: ما رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٢٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٦٧٣٠) وصححه: أن عبد الله بن صفوان أتى عائشة وآخر معه فسألاها عن نفسها، فقالت عائشة رضي الله عنها: خلال لي تسع لم يؤتهن أحد قبلي...، فذكره بنحوه.

ومنها ما رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٦٥) عن عبد الملك بن عمير عن عائشة قالت: أعطيت خلالاً ما أعطيتها امرأة... فذكره بنحوه أيضاً.

وقد رواه الطبراني في «الكبير» ٢٣/ (٧٤) و(٧٥) و(٧٧)، من طرق عن عائشة، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤١): هو في الصحيح باختصار، رواه الطبراني، ورجال أحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح.

قلت: روى البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨) عن عائشةَ أنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «أُرِيتُكِ في المنام ثلاثَ ليالٍ، جاءني بكِ المَلَكُ في سَرَقَةٍ من حريرٍ، فيقولُ: هذه امرأتُك...» الحديث.

وروى البخاري (٤٤٥١)، ومسلم (٢٤٤٣)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: تُوُفِّي النبيُّ ﷺ في =

(٢٧) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: التي تسكنُونَها ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾؛ أي: تستَأذِنُوا، منَ الاستِئناسِ بمعنَى الاستعلامِ، من «أَنِسَ الشَّيءَ»: إذا أبصرَه؛ أي: لِتَستأذِنُوا.

قال بعضُهم: هو منَ الأُنسِ، ضدِّ الوحشةِ؛ لأنَّ مَن يطرُقُ بابَ غيرِه يكونُ عندَه وحشةٌ ما؛ لأنَّه ما يدري هل يُؤذَنُ له أم لا؟

أو ﴿تَسْتَأْنِسُوا۟﴾: تستعلِمُوا، أو تستكشِفُوا: هل ثَمَّ أحدٌ أم لا؟

قال ابنُ عبّاسٍ وابنُ جُبيرٍ: القولُ بأنَّه منَ الأُنسِ ضدِّ الوحشةِ خطأٌ، وإنَّما هو منَ الإذنِ، وقُرِئَ: (حتَّى تستأذِنُوا)(١).

= بيتي، وفي يومي، وبينَ سَحْري ونَحْري... الحديث.

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠٧)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٤١)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقرؤها: (حتى تُسَلِّموا على أهلها وتَسْتَأْذِنُوا)، وقال: و﴿تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ وهمٌ من الكُتَّاب.

ورواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤/ ٢٤٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٩٦) من طريق مجاهد عن ابن عباس بلفظ: «أخطأ الكاتب، (حتى تستأذنوا)». وهكذا ذكره ابن جني في «المحتسب» (٢/ ١٠٧). وكذا رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٤٠)، لكن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس

ورده النحاس «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٨٧) بقوله: فأما ما روي عن ابن عباس ـ وبعضُ الناس يقول: عن سعيد بن جبير ـ أنه قال: أخطأ الكاتب، وإنما هو: (حتى تستأذنوا)، فعظيم محظورٌ القول به؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد رد الخبر بذلك أيضاً كثير من العلماء، منهم ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣/ ٣٧٠) حيث =

قال أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ: قُلنا: يا رسولَ الله، ما الاستِئناسُ؟ قال: «يتكلَّمُ الرَّجلُ بالتَّسبيحةِ والتَّكبيرةِ والتَّحميدةِ، أو يتَنَحْنَحُ يُؤذِنُ أهلَ البيتِ»[(١)].

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾؛ أي: يقولُ الواحدُ: السَّلامُ عليكم، أأَدخُلُ؟ كما ورَدَ في حديثٍ[(٢)].

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ أي: الاستِئذانُ والتَّسليمُ ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ أي: مِن تركِ الاستئذانِ عند الدُّخولِ، وخيرٌ من تحيّةِ الجاهليّةِ؛ لأنَّ الرَّجلَ في الجاهليّةِ كان إذا أرادَ أن يدخُلَ

= قال: وليس فيه خطأ من كاتب، ولا يجوز ان ينسب الخطأ الي كتابٍ تولَّى الله حفظه وأجمعت الأمة علي صحته، فلا يلتفت الي راوي ذلك عن ابن عباس.

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٦): مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ وصح الإجماع فيها من لدنْ مدةِ عثمان رضي الله عنه، فهي التي لا يجوز خلافها، والقراءة بـ(تستأذنوا) ضعيفة، وإطلاق الخطأ والوهم على الكتاب في لفظٍ أجمع الصحابة عليه لا يصح عن ابن عباس، والأشبه أن يقرأ (تستأذنوا) على التفسير.

ورده أيضاً القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٨٩)، وأبو حيان في «البحر» (١٦/ ٥٩)، والآلوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٢٩٤)، بل جعله أبو حيان رحمه الله من الطعن في الإسلام، قال: وابن عباس بريء من هذا القول.

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٠٧)، وفي إسناده أبو سَوْرة ـ وهو ابن أخي أبي أيوب ـ وهو ضعيف.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٩٠)، من حديث أبي سعيد وأبي موسى، وفيه قصة بين أبي موسى وعمر رضي الله عنهما. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأصل الحديث رواه البخاري (٦٢٤٥) ومسلم (٢١٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ورواه مسلم (٢١٥٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وروى أبو داود (٥١٧٧) من حديث رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل السلام عليكم، أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل.

بيتَ غيرِه قال: «حُيِّيتُم صباحًا» و«حُيِّيتُم مساءً»، ثمَّ يدخُلُ، فربَّما صادَفَ الرَّجلَ مع زوجتِه في ثوبٍ واحدٍ، فنُهُوا عن ذلك بهذه الآيةِ.

وفي الحديثِ: «مَن سبقَتْ عينُه استِئذانَه فقد دَمَرَ»(١)؛ أي: هلَكَ.

ثمَّ اختلَفُوا في الاستئذانِ مع السَّلامِ، فحمَلَ بعضُهم النَّصَّ على ظاهرِه في تقديمِ الاستئذانِ على السَّلامِ، فيقولُ: أَأَدْخُلُ؟ السَّلامُ عليكم، وأكثرُهم قال: يُقَدَّمُ السَّلامُ فيقولُ: السَّلامُ عليكم، أَأَدْخُلُ؟ فعلى هذا تقديرُ الكلامِ: حتَّى تُسلِّمُوا على أهلِها وتستأذِنُوا.

ورُوِيَ أنَّ كَلدةَ بنَ حنبلٍ دخلَ على رسولِ الله ﷺ ولم يستأذِنْ، فقال له: «ارجِعْ فقُلْ: السَّلامُ عليكم، أَأَدْخُلُ؟»(٢).

---

(١) رواه هناد في «الزهد» (١٤٢٧) عن عيسى بن يونس عن عوف عن الحسن عن النبي ﷺ قال: «من سبقه بصره إلى البيوت قبل أن يستأذن فقد دمر». وكذا رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٢٣٣) عن أبي أسامة عن عوف به، لكن دون قوله: «قبل أن يستأذن».
ورواه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ١٦١ ـ ١٦٢) عن هشيم عن عوف عن الحسن عن النبي ﷺ بلفظ: «من اطَّلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد دمر».
ورواه الطبراني في «الكبير» (٧٥٠٧) من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ: «ومَن أَدخل عينيه في بيتٍ بغيرِ إذن أهله فقد دَمَرَ».
ورواه إبراهيم الحربي في «غريب الحديث» كما في «الكافي الشاف» (ص: ١١٧)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ١٨٥)، من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «لا يحل لمسلم أن ينظر في بيت حتى يستأذن فإن فعل فقد دمر».

(٢) روى الترمذي (٢٧١٠) عن عمرو بن عبد الله بن صفوان، أخبره أن كلدة بن حنبل، أخبره أن صفوان بن أمية بعثه بلبن ولبأ وضغابيس إلى النبي ﷺ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل؟» وذلك بعد ما أسلم =

واختلَفُوا في الاستئذانِ على ذَواتِ المحارمِ، فرُوِيَ عن حُذيفةَ وأبي موسى الأشعريِّ الاستِئذانُ على ذَواتِ المحارمِ[(١)]، فإنْ كانوا في دارٍ واحدةٍ تنَحْنَحَ وتحرَّكَ أدنَى حركةٍ.

ورُوِيَ أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله، أأستأذِنُ على أمِّي؛ فإنَّه ليس لـها خادمٌ غيري؟ قال: «أتُحِبُّ أن تراها عُرْيانةً؟» قال: لا، قال: «فاستأذِنْ»[(٢)].

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي تتَّعِظُوا، فلا يدخلَ بعضُكم على بعضٍ بغيرِ إذنٍ.

* * *

(٢٨) ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾؛ أي: فإنْ لـم تجِدُوا مَن له أن يأذَنَ لكم فلا تدخُلوها إلّا بإذنٍ ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا﴾ المعنَى: إذا كانَ في البيوتِ مَن يأذَنُ لكم فادخُلوا، وإلّا فانصَرِفُوا.

= صفوان، قال عمرو: وأخبرني بهذا الحديث أمية بن صفوان، عن كلدة بن حنبل، ولم يقل سمعته من كلدة. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج، ورواه أبو عاصم، أيضًا عن ابن جريج، مثل هذا. وضغابيس: هو حشيش يؤكل.

(١) ذكره عنهما السمعاني في «تفسيره» (٣/ ٥١٩)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٠)، وروى البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٦٠) أن رجلاً سأل حذيفة فقال: أستأذن على أمي؟ فقال: إن لم تستأذن عليها رأيت ما تكره.

(٢) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٦٣)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٨٨)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، عن عطاء بن يسار مرسلاً، قال ابن عبد البرّ في «التمهيد» (١٦/ ٢٢٩): هذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ، وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه.

قال المُبرِّدُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾؛ أي: فإنْ لـم تعلَمُوا[١]؛ إذ لو كان من وِجْدانِ الضَّالّةِ كانوا غيرَ ممنوعينَ منَ الدُّخولِ.

وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنَّه لا يجوزُ دخولُ دارِ الغيرِ بغيرِ إذنٍ وإن لـم تجِد ثمَّ أحدًا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: حتَّى يحضُرَ مَن يأذَنُ لكم.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾؛ أي: لا تتعَدَّوا ثَمَّ ولا تُلازِمُوا ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: أطهرُ في دينِكم، وأبعَدُ منَ الإثمِ.

***

(٢٩) - ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ ذكَرْنا[٢] أنَّ أبا بكرٍ قال: فكيفَ بالبيوتِ في الخاناتِ؟ فنزلَتِ الآيةُ[٣].

---

(١) في «المقتضب» للمبرد (٤/ ٩٦): «وقد يكون لفظ الفعل واحدًا وله معنيان أو ثلاثة معان، فمن ذلك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت تريد وجدت الضالة، ويكون من وجدت في معنى علمت وذلك قولك: وجدت زيدًا كريمًا».

(٢) كذا قال، ولم يذكره قبل ذلك.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٠) عن مقاتل بن حيان، ولفظه: «لما نزلت آية التسليم والإيذان في البيوت، قال أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه يا رسول الله: فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة، والشام وبيت المقدس، ولهم بيوت معلومة على الطريق، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان، فرخص الله في ذلك، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ بغير إذن».

وهو في «تفسير مقاتل بن سليمان» (٣/ ١٩٥)، وعزاه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٢٥) للمفسرين.

قال ابنُ عبّاسٍ: يعني: الخاناتِ التي ينزلُـها السَّفْرُ ولا يسكنُها أحدٌ[1].

﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: منافعُ لكم تتَّقُونَ بها الحرَّ والبردَ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من أعمالِكم وأقوالِكم.

* * *

(٣٠) - ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ وصَل بذكرِ السفرِ ما يتعلَّقُ به من أمرِ النَّظرِ، يُقالُ: «غضَّ بصرَه يغضُّه غضًّا».

و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ؛ كقولِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

وقيلَ: ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ منَ النَّظرِ ما يُباحُ.

وقيلَ: الغَضُّ: النُّقصانُ، يُقالُ: «غَضَّ فلانٌ من فلانٍ»؛ أي: وضَعَ منه، فالبصرُ إذ لـم يُمكَّنْ من عملِه فهو موضوعٌ منه ومنقوصٌ، فـ﴿مِنْ﴾ صلةُ الغَضِّ، وليست للتَّبعيضِ ولا للزِّيادةِ.

﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾؛ أي: يستُروها عن أن يراها مَن لا يحِلُّ، وليس فيه «مِن» بمعنَى التَّبعيضِ؛ لأنَّ النَّظرَ إلى الفرجِ مُحرَّمٌ.

وقيـلَ: أي: ويحفَظُـوا فروجَهـم عن الزِّنـا، وعلى هذا لو قال: «مـن فُروجِهم» لجازَ أيضًا.

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: غضُّ البصرِ وحفظُ الفرجِ أطهَرُ في الدِّينِ وأبعَدُ من دنَسِ الآثامِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: عالِـمٌ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٤٩) بلفظ: «هي الخانات تكون لأهل الأسفار».

(٣١) - ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ ذكَرْنا معنَى الغَضِّ، وأمرُ المناظرِ وما يحلُّ ويحرمُ منها يُذكَرُ في فنِّ الفقهِ.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ مُنِعْنَ عن إبداءِ الزِّينةِ حذرًا منَ الافتِتانِ، ومنَ الزِّينةِ ظاهرٌ وباطنٌ، فما ظهرَ فهو مُباحٌ إبداؤُه لكلِّ النّاسِ منَ المحارمِ والأجانبِ، وما بطَنَ فلا يحلُّ إبداؤُه إلّا لمن سمَّاهم الله في هذه الآيةِ أو حلَّ محلَّهم.

ثمَّ، قيلَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ أرادَ الأطرافَ منَ الوجهِ واليدَينِ؛ لأنَّ كشفَ ذلك ممَّا قد تُؤدِّي إليه الضَّرورةُ في النِّساءِ، واسمُ الزِّينةِ يتناوَلُ الحَلَقَ وما يسترُ الإنسانَ منَ الثِّيابِ، ويتناوَلُ الحليَّ أيضًا.

وقولُه: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾؛ أي: في العادةِ، وهو في النِّساءِ الوجهُ والكفَّانِ.

وقيلَ: المُرادُ بالزِّينةِ: الثِّيابُ؛ أي: لا يُظهِرْنَ ثيابَهنَّ إلّا ما كان ظاهرًا منها، وهو الجلبابُ الذي تلبسُه المرأةُ فوقَ درعِها، وهو الذي يظهرُ في العادةِ، وهذا كقولِه: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ أي: ثيابَكم؛ لأنَّهم كانوا يطوفُونَ عُراةً.

وقيلَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يعني: الثِّيابَ والكُحلَ والخاتمَ.

وقيلَ: الخضابُ في الكفِّ.

وسُئِلَتْ عائشةُ رضيَ الله عنها عن قولِه: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، فقالَتْ: هي القُلْبُ والفَتْخةُ، ووضَعَتْ كفَّها على كوعِها[١].

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الخمُرُ: جمعُ الخمارِ، وهو ما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها، ومنه: اختَمَرَتِ المرأةُ وتخمَّرَتْ، وهي حسَنةُ الخُمْرةِ، ومنه: «العَوانُ لا تُعَلَّمُ الخِمْرةَ»[٢].

والجيوبُ: جمعُ الجيبِ، وهو موضعُ القطعِ منَ الدِّرعِ والقميصِ، وهو منَ الجَوْبِ وهو القطعُ.

---

(١) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٤٤٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧٠٠٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٨٦)، من طريق حماد بن سلمة عن أم شبيب عن عائشة.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٦٠) من طريق ابن جُرَيج عن عائشة، وزاد بعد قولها: «القلب والفتخة»: قالت عائشة: دَخَلَتْ عليّ ابنة أخي لأمي عبد الله بن الطفيل مُزَيَّنَةً، فدخل النبيّ ﷺ فأعرض، فقالت عائشة: يا رسول الله إنها ابنة أخي وجارية، فقال: «إذا عركت المرأة لم يحلّ لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا»، وقبض على ذراع نفسه، فترك بين قبضته وبين الكفّ مثل قبضة أخرى. وإسناده منقطع.
وقوله: «ووضَعَتْ كفَّها على كوعِها» كذا ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٢٠٦)، ولم يرد في رواية ابن أبي شيبة، وفي رواية يحيى بدلاً منه: «وقالت بثوبها على ثوبها فشدَّته»، وعند البيهقي: «وضمت طرف كمها».

(٢) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٠٨)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٥٣)، و«الصحاح» (مادة: خمر)، و«جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (٢/ ٣٨)، و«الأمثال» للهاشمي (ص: ٨٩)، و«مجمع الأمثال» للميداني (١/ ١٩). قال العسكري: يُضْرب مثلاً للعالِم بالأمر المجرَّب له، والعوان: الثيِّب، وقيل: العوان بنت الثَّلاثين، وقد عونت تعويناً، والخِمْرة مثلُ الجِلْسةِ والقِعدة؛ أي: هي عالمة بالاختمار ولا حاجة بها إلى تعلُّمه.

قال مُقاتلٌ: «على جُيوبِهنَّ»؛ أي: على صُدورِهنَّ[١]؛ يعني: على مواضعِ جُيوبِهنَّ.

ومعنى الآيةِ: لِتُلْقِيْنَ مَقَانِعَهُنَّ التي يستُرْنَ بها رُؤوسَهُنَّ على مُؤَخَّرِ أكمامِ دُروعِهنَّ لتتغَطَّى بذلك أعناقُهُنَّ وصُدورُهُنَّ وما يُحيطُ بها من شعرٍ وزينةٍ من حليٍّ في نحرٍ وأُذنٍ.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: الزِّينةَ الخفِيّةَ ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: أزواجِهِنَّ، أو أبناءِ أزواجِهنَّ، وهم ذكورٌ، وكذا الأزواجُ، ويدخلُ فيه أولادُ الأولادِ وإنْ سفلُوا، من ذُكرانٍ كانوا أو إناثٍ، كبَني البنينَ وبني البناتِ، وكذلك آباءُ البُعولةِ والأجدادُ وإنْ علَوا من جهةِ الذُّكرانِ والإناثِ، كآباءِ الآباءِ وآباءِ الأمَّهاتِ، وكذلك أبناؤُهنَّ وإن سفلُوا، فيستَوي فيه أولادُ البنينَ وأولادُ البناتِ، وكذلك أَخَواتُهنَّ وهم من ولدِ الآباءِ والأمَّهاتِ، أو أحدُ الصِّنفَينِ، وكذلك بنُو الإخوةِ وبنُو الأخواتِ وإن سفلُوا، من ذُكرانٍ كانوا أو إناثٍ، كبني بني الأخواتِ وبني بناتِ الأخواتِ.

وهذا كلُّه في معنَى ما حرُمَ منَ المناكحِ، فإنَّ ذلك على المعاني في الولاداتِ، وهؤلاءِ محارِمُ، والعمُّ والخالُ كسائرِ المحارمِ في جوازِ النَّظرِ لهما إلى ما يجوزُ لهم، وليس في الآيةِ ذكرُ الرَّضاعِ، وهو كالنَّسبِ.

وعند الشَّعبيِّ وعكرمةَ: ليس العمُّ والخالُ منَ المحارمِ، وقال عكرمةُ: لم يذكُرْهما في الآيةِ لأنَّهما يَنعَتانِ لأبنائِهما[٢].

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: نساءَ المُسلماتِ، فلا تُبدي المسلمةُ زينتَها إلّا لامرأةٍ

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ١٩٦).

(٢) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧٢٩٣) عن الشعبي وعكرمة.

مسلمةٍ، ولا تُبديها للكافرةِ إلا أن تكونَ أمةً لها، قيلَ: لانقطاعِ الولايةِ بين أهلِ الإسلامِ وأهلِ الكفرِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: لا يحلُّ للمسلمةِ أن تراها يهوديَّةٌ أو نصرانيَّةٌ؛ لئلَّا تصِفَها لزَوجِها(١)، وفي هذه المسألةِ خلافٌ للفقهاءِ، **والقياسُ**: أنَّ نظرَ الكافرةِ إلى المسلمةِ كنظرِ المسلمةِ إلى المسلمةِ.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ ظاهرُ الآيةِ يشملُ العبيدَ والإماءَ، حتَّى يجوزُ للمرأةِ أن تُظهِرَ لمملوكِها ما يظهرُ لمحارِمِها، وكذلك للمُكاتَبِ ما لـم يَعْتِقْ.

وفي الخبرِ: «إذا وجَدَ مُكاتَبُ إحداكُنَّ وفاءً فلتحْتَجِبْ عنه»(٢)، وفيه تفصيلٌ للفقهاءِ.

﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ قيلَ: هو الأحمقُ الذي لا حاجةَ به إلى النِّساءِ.

وقيلَ: الرَّجلُ يتبعُ القومَ يأكلُ معَهم ويرتَفِقُ بهم، وهو ضعيفٌ لا يكتَرِثُ للنِّساءِ ولا يشتَهيهِنَّ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٢١٢)، وذكر نحوه الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٩٤) عن الكلبي. وعزاه ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٤٤) لعبد بن حميد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم».

(٢) رواه أبو داود (٣٩٢٨)، والترمذي (١٢٦١)، وابن ماجه (٢٥٢٠)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها، ولفظه: «إذا كان عند مكاتب إحداكن ما يؤدي فلتحتجب منه»، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وقيلَ: العِنِّينُ. وقيلَ: المُخنَّثُ. وقيلَ: الخصِيُّ.

وفي الخبرِ: كانَ أملَكَكُم لإِربِه وشهوتِه[1]؛ أي: لحاجتِه إلى النِّساءِ.

وقيلَ: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ كالشَّيخِ الكبيرِ، والصَّبيِّ الذي لم يُدرِكْ، والكلمةُ منَ الإِرْبِ، وهو الحاجةُ.

وفي الخبرِ: أنَّ رجلًا مُخنَّثًا يُقالُ له: هِيْتٌ، كان يدخلُ على أزواجِ النَّبيِّ ﷺ ويضْحَكْنَ منه، ويرَينَه من غيرِ أولي الإِربةِ منَ الرِّجالِ، فسمِعَه النَّبيُّ ﷺ ينعَتُ بنتَ غيلانَ الثَّقفيّةَ وكانت تحتَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ، وهو يقولُ في نعتِها: إنَّها تُقبِلُ بأربعٍ وتُدبِرُ بثمانٍ، فقال عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ: «ألا أسمَعُ هذا يُحسُّ ما هاهُنا، لا يدخُلَنَّ عليكُنَّ»، فحَجَبْنَه[2].

ووصَفَ ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ بـ﴿غَيْرِ﴾؛ لأنَّ ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ غيرُ مقصودينَ بأعيانِهم، فصارَ اللَّفظُ كالنَّكرةِ، أو «غير» لا يتمَحَّضُ نكرةً، فجازَ أن يجريَ وصفًا على المعرفةِ، وهذا يُذكَرُ في: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وقُرِئَ: ﴿غيرَ أولي الإِربةِ﴾ بالنَّصبِ[3]، فيكونُ استثناءً؛ أي: يُبدينَ زينَتَهنَّ للتَّابعينَ إلَّا ذا الإِربةِ منهم.

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٧)، ومسلم (١١٠٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ: يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه.

(٢) رواه بنحوه البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) قرأ بها أبو بكر وابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٤)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

ويجوزُ أن يكونَ حالًا؛ أي: والذين يتَّبِعُونَهنَّ عاجزينَ عنهنَّ، وذو الحالِ ما في ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ منَ الذِّكرِ(١).

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: لـم يكشِفُوا عن عوراتِهنَّ للجماعِ لصِغَرِهم؛ أي: لـم يفهَمُوا عوراتِ النِّساءِ.

وقيلَ: لـم يبلُغوا أن يُطيقُوا النِّساءَ، يُقالُ: ظهَرْتُ على كذا؛ أي: علمتُه وفهِمتُه، وظهَرْتُ على كذا؛ أي: قهَرْتُه.

والطِّفلُ في معنَى الجمعِ، وكذلك ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]، وهو في مصحفِ حفصةَ: (أو الأطفال).

والعَورةُ: سَوأةُ الإنسانِ.

قُرِئَ: (عَوَرات) بفتحِ الواوِ، مثلَ «حَفْنَةٍ وحَفَنَاتٍ»، وقُرِئَ بسكونِ الواوِ(٢)؛ لاستثقالِ الحركةِ على الواوِ.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ أي: لا تضربِ المرأةُ برجلِها إذا مشَتْ لتُسمِعَ

---

(١) أي: الضمير.

(٢) بسكون الواو قراءة الجمهور، وبفتحها نسبت لابن عامر في «جامع البيان» للداني (٣/ ١٤٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٩)، والمشهور عنه سكون الواو كالجمهور. وذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤) عن ابن أبي إسحاق والأعمش، لكن عند تفسير الآية (٥٨) من هذه السورة، وهي: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾، ثم قال ابن خالويه: «وسمعنا ابن مجاهد يقول: هو لحن. وإنما جعَله لحناً وخطأً من قبل الرواية، وإلاّ فله مذهب في العربية، بنو تميم يقولون: رَوَضات وجَوَزات وعَوَرات، وسائر العرب بالإسكان، وهو الاختيار لئلا تنقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها».

صوتَ خلخالِها، فإسماعُ صوتِ الزِّينةِ كإبداءِ الزِّينةِ، والغرضُ التَّستُّرُ.

قولُه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾: ارجِعُوا إنَّكم لا تخلُونَ من سهوٍ وتقصيرٍ في أداءِ حقوقِ الله تعالى، فلا تترُكوا التَّوبةَ في كلِّ حالٍ.

وقيلَ: أي: ارجِعُوا إليه بطاعتِكم له فيما أمرتُكم في هذه الأشياءِ.

والقراءةُ: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿أَيُّهُ المُؤمنونَ﴾ و﴿يا أَيُّهُ السّاحرُ﴾، و﴿أَيُّهُ الثَّقلانِ﴾[١].

قال أبو عليٍّ: آخرُ الاسمِ هو الياءُ الثّانيةُ من «أيٍّ»، والمضمومُ ينبَغي أن يكونَ آخرَ الاسمِ، ولو جازَ ضمُّ الهاءِ هاهُنا لاقترانِها بالكلمةِ لجازَ ضمُّ الميمِ في «اللَّهُمّ»؛ لاقترانِها بالكلمةِ..، في كلامٍ طويلٍ قرَّرَه[٢].

وقد قدَّمْنا أنَّه إذا ثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ قراءةٌ فليس إلّا اعتقادُ الصِّحّةِ في اللُّغةِ، فإنَّ القرآنَ هو الحجّةُ[٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لتسعَدُوا في الدُّنيا، وتَنْعَمُوا في الجنة، وتفُوزُوا بالمطلوبِ من رضوانِ الله تعالى.

***

(٣٢) - ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ وهذا يدخلُ في بابِ السترِ والصَّلاحِ؛ أي: زوِّجُوا مَن لا زوج له منكم فإنَّه طريقُ التعفُّفِ، والأَيِّمُ: مَن لا امرأةَ له منَ الرِّجالِ،

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٥)، و«التيسير» (ص:١٦١ - ١٦٢).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٣١٩ - ٣٢١).

(٣) نبه المؤلف - رحمه الله - على ذلك كثيراً فيما تقدم.

ومَن لا زوجَ لـها منَ النِّساءِ، فيدخلُ في قولِه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾ الرِّجالُ والنِّساءُ.

وفي الخبرِ: «أنكِحُوا أبا هندٍ، وانكَحُوا إليه»[1]؛ أي: زوِّجُوه واخطِبُوا إليه، وكان عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ يتعوَّذُ منَ الأَيْمةِ[2]، وهو طولُ العُزْبةِ. ويُقالُ: «رجلٌ أَيِّمٌ، وامرأةٌ أيمٌ وأيمةٌ»، والجمعُ: «أيامَى».

وقال قومٌ: الأيامى: ضدُّ الأبكارِ.

وقــال قــومٌ: الأيامــى: النِّســاءُ، [**والصحيــح** مــا تقــدم، والمقصــود: الأحــرار،

(١) رواه أبو داود (٢١٠٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٠٦٧) و(٦٠٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢٦٩٣) وصححه، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، وأبو هند كان حجامًا، كما جاء في الحديث نفسه. وللحديث شاهد من حديث عائشة عند الطبراني في «الأوسط» (٦٥٤٤)، والدارقطني في «سننه» (٣٧٩٣) و(٣٧٩٥). وإسناده حسن.

(٢) رواه ابن قتيبة في «غريب الحديث» (١/ ٣٣٨)، والعسكري في «تصحيفات المحدثين» (١/ ٣٧٣)، من طريق سُلَيْمَان بن الرّبيع النهدي، عن همام بن مسلم، عن أبي العَوَّام عمران بن دَوَار القطان، عن قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حُصَين، عن النَّبي ﷺ: «أنه كان يَتعوَّذ من خمس: من العيمة والغيمة وَالْأَيمَة والكزم وَالْقَرْمُ.

وهذا إسناد ضعيف جدًّا، سليمان بن الربيع النهدي تركه الدارقطني كما ذكر الذهبي في ترجمته في «الميزان»، وشيخه همام بن مسلم قال عنه ابن حبان في «المجروحين» (٣/ ٩٦): «روى عنه سليمان بن الربيع النهديّ، كان ممن يسرق الحديث ويحدث به، ويروي عن الثِّقات ما ليس من أحاديثهم على قلَّة معرفته بصناعة الحديث، فلما فحش ذلك منه وكثر في روايته بَطل الاحتجاج به». والحسن في سماعه من عمران خلاف، ثم هو مدلس وقد عنعنه.

وذكره الزمخشري في «الفائق» (٣/ ٤٣)، وفيه: «العيمة»: شَهْوَة اللَّبن حَتَّى لَا يصبر عنه، «الغيمة»: شدَّة العطش وكثرة الاستسقاء للماء. «الأيمة» طول التعزب. «الكَزَم»: شدة الأكل، من تكزَّمْتُ الفاكهة: إذا أكلتها من غير أن تقشرها، وقيل: هو الْبُخْل وقِصر اليد عن المكارم، «القرم»: شدَّة شَهْوَة اللَّحْم، وروي بالزاي، وهو الشُّح واللؤم.

ثـم بيَّـن](١) حكـمَ المماليـكِ، فقـال: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾، قيـلَ: أرادَ بالصَّـلاحِ الإيمانَ.

وقيلَ: أرادَ: ينبَغي أن تكونَ الرَّغبةُ في تزويجِ الإماءِ والعبيدِ إذا كانُوا صالحينَ، فأمَّا إذا لـم يكونُوا صالحينَ فيجوزُ تزويجُهم، ولكنْ لا ترغيبَ فيه ولا استحبابَ، وهذا كما قال: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ [النور: ٣٣]، تجوزُ الكتابةُ وإنْ لـم يعلَمْ في العبيدِ خيرًا، ولكنَّ الخطابَ ورَدَ في التَّرغيبِ والاستحبابِ، وإنَّما تُستَحَبُّ كتابةُ مَن فيه خيرٌ.

﴿مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾؛ أي: من عَبيدِكُم.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ رجـعَ الـكلامُ إلى الأحـرارِ؛ أي: لا تمتَنِعُوا عـنِ التَّزويـجِ بسـببِ فقـرِ الرَّجـلِ والمـرأةِ، إنْ يكونُـوا فقـراءَ يُغنِهـم الله مـن فضلِه، وهـذا وعـدٌ بالغِنَى.

وقيـلَ: ليـس وعـدًا لا يقـعُ فيـه خُلـفٌ، بـل المعنـى: أنَّ المـالَ غـادٍ ورائحٌ، فارجُـوا الغِنَى.

وقيلَ: يُغنيهم الله من فضلِه إنْ شاءَ كقولِه: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقال: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقيلَ: أي: إنْ يكونُوا فقراءَ إلى النِّكاحِ يُغنِهم الله بالحلالِ ليتعفَّفُوا عنِ الزِّنا.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾؛ أي: غنيٌّ يسعُ لأَنْ يرزُقَ عبادَه، ولأَنْ يُغنِيَ المساكينَ ﴿عَلِيمٞ﴾ بمصالحِ عبادِه.

---

(١) ما بين معكوفتين من «التفسير المختصر» للمصنف (ورقة ١٩٦/ ب)، ومثله في «تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٣٠)، ووقع بدلاً منه في (أ) كلمة: «فهو».

(٣٣) - ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: مَن لم يجِدْ سعةً للنِّكاحِ فليصبِرْ، وليصُنْ فرجَه عنِ الحرامِ حتَّى يُغنِيَه الله من فضلِه، ويرزُقَه ما يتزوَّجُ به، أو يجدَ امرأةً ترضَى باليسيرِ منَ الصَّداقِ، أو تزولَ عنه شهوةُ النِّساءِ.

﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾؛ أي: طَوْلَ نكاحٍ، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: النِّكاحُ هاهُنا: ما تُنكَحُ به المرأةُ منَ المهرِ والنَّفقةِ، كاللِّحافِ: اسمٌ لِـمَا يُلتَحَفُ به، واللِّباسِ: اسمُ لِـما يُلبَسُ، فعلى هذا لا حذفَ فـي الآيةِ، فمَن لـم تَتُقْ نفسُه إلى النِّكاحِ فالأَولى له التَّخلِّي لعبادةِ الله تعالى.

وفي الخبرِ: «خيرُكم الخفيفُ الحاذِ»[1]؛ أي: الذي لا أهلَ له ولا ولدَ.

ومَن تاقَتْ نفسُه إلى النِّكاحِ فإنْ وجدَ الطَّولَ؛ فالمُستحَبُّ له أن يتزوَّجَ، وإنْ لـم يجدِ الطَّولَ؛ فعليه الاستعفافُ ما أمكَنَ ولو بالصَّومِ، فإنَّ الصَّومَ له وِجَاءٌ، كما في الخبرِ[2].

---

(١) رواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٦٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وأعله برواد بن الجراح، وذكر عن الإمام أحمد أنه قال عنه: لا بأس به، صاحب سنة، إلا أنه حدث عن سفيان بأحاديث مناكير. وقال أبو حاتم: هذا حديث باطل. انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧). وقال ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٣/ ٢٩٠): «وقال الحفاظ: كثيراً ما يخطئ ويتفرد بحديث ضعفه الحفاظ فيه وخطَّؤوه»، وذكر هذا الحديث.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ جرَى ذِكرُ العبيدِ والإماءِ فيما سبقَ، فوصلَ به أنَّ العبدَ إذا طلبَ الكتابةَ فالمُستحَبُّ كتابتُه، وربَّما يقصدُ بالكتابةِ أن يستقِلَّ ويكتسِبَ ويتزوَّجَ إذا أرادَ ليكونَ أعفَّ له.

وقيلَ: نزلَتْ في غلامٍ لحُوَيطبِ بنِ عبدِ العُزَّى يُقالُ له: صُبْحٌ - وقيلَ: صُبَيحٌ - طلبَ من مولاه أن يُكاتبَه فأبى، فأنزَلَ الله هذه الآيَةَ[1]، فكاتبَه حُوَيطبٌ على مئةِ دينارٍ، ووَهَبَ له منها عشرينَ دينارًا فأدّاها[2].

وقيلَ: يومَ حُنَينٍ في الحربِ.

وقيلَ: نزلَتْ في الصَّبيحِ القِبْطيِّ، وكان مملوكًا لحاطبِ بنِ أبي بلتعةَ[3].

والكتابُ بمعنَى المُكاتَبةِ، كالقتالِ والمُقاتلةِ، والدِّفاعِ والمُدافعةِ.

وقيلَ: الكتابُ هاهُنا هو الكتابُ المعروفُ الذي يُكتَبُ فيه الشَّيءُ، وذلك أنَّهم كانوا إذا كاتَبُوا العبيدَ كتَبُوا عليهم وعلى أنفُسِهم بذلك كتابًا للوثيقةِ.

والمعنَى: يطلُبونَ العِتقَ الذي يُكتَبُ به الكتابُ فيُدفَعُ إليهم، وهذا العقدُ سُمِّيَ كتابةً إمّا لأنَّه يُكتَبُ كما ذكَرْنا، أو منَ الجمعِ، فالعبدُ يجمعُ النُّجومَ ليَعْتِقَ، والسَّيِّدُ يضُمُّ ما يأخذُه بعضَه إلى بعضٍ.

﴿مِمَّا مَلَكَتْ﴾؛ أي: ممَّن ملَكَتْ.

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ٥٤٨)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٨٨٢)، وابن السكن في «معرفة الصحابة» كما في «الدر المنثور» (٦/ ١٨٩)، وابن منده كما في «أسد الغابة» (٣/ ٨).

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ١٩٧).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٢٤٦) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ هو أمرُ ندبٍ ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾؛ أي: قوّةً على الكسبِ وأداءِ المالِ.

وقيلَ: الخيرُ: الإسلامُ والقرآنُ، وقد كرِهَ الأوَّلونَ كتابةَ العبدِ إذا لم يكُنْ له حرفةٌ، وإنَّما يُعوِّلُ على سؤالِ النّاسِ.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: أعطُوهم، وهذا أمرٌ للسّادةِ بإعانتِهم في مالِ الكتابةِ، إمّا بأن يُعطُوهم شيئًا ممّا في أيديهم؛ أعني: أيدي السّادةِ، أو يحُطُّوا عنهم شيئًا من مالِ الكتابةِ.

والإيتاءُ واجبٌ عند الشّافعيِّ، فلْيَضَعْ عنه ما قلَّ أو كثُرَ[1]، ورُوِيَ عن عليٍّ رضيَ الله عنه أنه قالَ: هو ربعُ المالِ[2].

وقيلَ: أي: وآتُوهم سهمَهم الذي جعلَ الله تعالى لهم منَ الزَّكواتِ؛ أي: سهمَ الرِّقابِ، فهو حثٌّ على إعانةِ المُكاتَبِ، والخطابُ لجميعِ النّاسِ سوى السَّيِّدِ على هذا القولِ.

وليس لسيِّدِ المُكاتَبِ أن يضعَ شيئًا من زكاتِه في مُكاتَبِه، دليلُ هذا القولِ أنَّه لو أرادَ حطَّ شيءٍ من نُجومِ الكتابةِ لقالَ: ضَعُوا عنهم كذا.

---

(١) انظر: «الأم» للشافعي (٨/ ٣٥)، وفيه: «يجبر سيد المكاتب على أن يضع عنه مما عقد عليه الكتابة شيئًا وإذا وضع عنه شيئاً ما كان لم يجبر على أكثر منه، فإن مات قبل أن يضع عنه جبر ورثته على ذلك، فإن كانوا صغاراً وضع عنه الحاكم أقل ما يقع عليه اسم الشيء من كتابته».

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٥٨٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٠١٨)، عن علي رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً، ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢١٣٥١)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٨٣)، موقوفاً.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ قال جابرُ بنُ عبدِ الله: كانَ عبدُ الله بنُ أُبيٍّ يقولُ لجاريةٍ له: اذهَبي فابغِيْنا شيئًا، فنزلَتِ الآيةُ[١].

وكانَ لابنِ أُبيٍّ جارِيتانِ، مُعاذةُ ومُسَيْكةُ، وكان يُكرِهُهما على الزِّنا بضريبةٍ يأخذُها منهما[٢].

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾؛ أي: إذا رغِبْنَ في التَّحصُّنِ فأنتم أحقُّ بذلك مع ما طُبِعَ عليه النِّساءِ منَ الشَّهوةِ، لا أنَّه يجوزُ الإكراهُ على البغاءِ إنْ لم يُرِدْنَ التَّحصُّنَ.

وكانَ إماءُ ابنِ أُبيٍّ أسلَمْنَ، وكان مع ذلك يُكرِهُهنَّ على الزِّنا.

وقد قيلَ: إنَّما قال: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لمُوافقةِ الحالِ؛ لأنَّ إماءَ ابنِ أُبيٍّ كنَّ يُرِدْنَ التَّحصُّنَ لإسلامِهنَّ، وهو كقولِه: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١]، ثمَّ البنتانِ تستحِقّانِ الثُّلثَينِ أيضًا، ولكنْ نزلَتِ الآيةُ في ثلاثِ بناتٍ.

---

(١) رواه مسلم (٣٠٢٩/ ٢٦).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٩/ ٢٧) من حديث جابر رضي الله عنهما: أن جارية لعبد الله بن أبيٍّ بنِ سلول يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وورد اسم معاذة في رواية الزهري عند عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٤١)، ولفظه: «أن رجلًا من قريش أسر يوم بدر[ا] وكان عند عبد الله بن أبي بن سلول أسيرا وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها: معاذة، فكان القرشي الأسير يريدها على نفسها وكانت مسلمة[ا] فكانت تمتنع منه لإسلامها وكان ابن أبي يكرهها ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده[ا] فقال الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾».

وقال النووي في «شرح مسلم» (١٨/ ١٦٣): وقيل: نزلت في ست جوار له كان يكرههن على الزنى معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة.

وقال الزَّجَّاجُ والحسينُ بنُ الفضلِ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: وأنكِحُوا الأيامَى والصّالحينَ من عبادِكم وإمائِكم إنْ أرَدْنَ تحصُّنًا[1]، ولعلَّ هؤلاءِ يقولونَ: خصَّ النِّساءَ بإرادةِ التَّحصُّنِ ـ وإنْ كان لفظُ ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ في الصَّحيحِ يشملُ الرِّجالَ والنِّساءَ ـ لوُفورِ شهواتِهنَّ.

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: الضَّريبةَ والغلةَ[2] والولدَ ليُسترَقَّ ويُباعَ.

وقد قيلَ: كان الزّاني يفتَدي ولدَه من المزنيِّ بها بمئةٍ منَ الإبلِ يدفعُها إلى سيِّدِها.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾؛ أي: يقهَرْهُنَّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لهنَّ؛ إذ لا اختيارَ لهنَّ، وفي مصحفِ أُبيٍّ: (فإنَّ الله من بعدِ إكراهِهنَّ لهُنَّ غفورٌ رحيمٌ)[3].

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: تُبيِّنُ للنّاسِ أحكامَ دينِهم. وقُرِئَ: ﴿مُبيَّناتٍ﴾ بالنَّصبِ[4]؛ أي: ظاهراتٍ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٠)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٣٥) عن الحسين بن الفضل.

(٢) في (أ): «والعقد»، والمثبت من «البسيط» (١٦/ ٢٥١).

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٠٨) عن ابن عباس وسعيد بن جبير. ورواها عبد بن حميد في «تفسيره» عن ابن مسعود كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧). وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠٨) عن جابر رضي الله عنه، وكذا ذكرها مسلم (٣٠٢٩) عن جابر في الحديث المتقدم.

(٤) قرأ حمزةَ والكسائيُّ وابن عامر وعاصم في رواية حفصٍ بكسر الياء، والباقون بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٩)، و«التيسير» (ص:١٦٢).

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: وشبهًا من أحوالِ المُتقدِّمينَ الذين كذَّبوا الرُّسلَ فحلَّ بهم العذابُ؛ أي: فاحذَرُوا أن يلحقَكم مثلُ ما لحِقَهم.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين يتَّقونَ الشِّركَ والمعاصيَ.

* * *

(٣٥) - ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكرَ أنَّه بيَّنَ الآياتِ والبراهينَ، فمَن ذهبَ عنها فليس ذلك لخفاءِ الأدلَّةِ.

﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هادي مَن في السَّماواتِ والأرضِ، والنُّورُ: الضِّياءُ، وهو ضدُّ الظُّلمةِ، والنُّورُ من أسماءِ الله تعالى، فالنُّورُ المحسوسُ يهدي الأبصارَ، والله يهدي المؤمنينَ.

وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: نورُ أهلِ السَّماواتِ والأرضِ، كقولِه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَ القريةِ.

وقال مُجاهدٌ: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مُدبِّرُ أهلِ السَّماواتِ والأرضِ(١)؛ أي: مُدبِّرُ الأمورِ فيهما بحكمةٍ بالغةٍ نيِّرةٍ، كما يُقالُ: «فلانٌ نورُ هذا البلدِ»؛ أي: يجري أمرُه على سَنَنِ السَّدادِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٩٦) عن مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «يدبر الأمر فيهما: نجومهما وشمسهما وقمرهما». وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٠٢).

وقيلَ: أي: مُنوِّرُ السَّماواتِ والأرضِ بالشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ، وهو كما يُقالُ: «فلانٌ جُودٌ»، و«فلانٌ كرمٌ»، و«فلانٌ لُؤْمٌ»؛ أي: جوادٌ وكريمٌ ولئيمٌ.

والآيةُ مُبالغةٌ في وصفِه بهذه الأشياءِ؛ أي: منه هذه الأشياءُ.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾؛ أي: صفةُ دلائلِه التي يقذِفُها في قلبِ المُؤمنِ، فالدَّلائلُ تُسمَّى نورًا، وقد سمَّى الله كتابَه نورًا، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وسمَّى نبيَّه نورًا، فقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وهذا لأنَّ الكتابَ يهدي ويُبيِّنُ، وكذا الرَّسولُ، ووجهُ الإضافةِ إلى الله تعالى: أنَّه مُثبِتُ الدِّلالةِ ومُبيِّنُها وواضِعُها.

وقرأ أُبيُّ بنُ كعبٍ: (مثَلُ نورِ المُؤمنِ كمشكاةٍ)[١].

وقال ابنُ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما في روايةٍ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾؛ أي: مثَلُ نورِ المُؤمنِ[٢]، فالكنايةُ ترجعُ إلى غيرِ مذكورٍ في الآيةِ.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما: مثَلُ نورِ محمَّدٍ ﷺ كمشكاةٍ[٣]، وذلك لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُرشِدٌ ومُبيِّنٌ عنِ الله تعالى، فالمشكاةُ قلبُه، والمصباحُ نورُ النُّبوّةِ، والزُّجاجةُ صدرُه، والشَّجرةُ المباركةُ إبراهيمُ عليه السَّلامُ، لا شرقيةٌ ولا غربيةٌ؛ لأنَّ إبراهيمَ ما كان يُصلِّي قِبَلَ المشرقِ ولا المغربِ.

---

(١) ذكرها الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٧/ ٥٦٤)، والنحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٥٣٦)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٢٥٨).

(٢) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٤٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨/ ٢٥٩٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٦).

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال الفرَّاءُ وأبو عُبَيدةَ: المِشكاةُ: كُوَّةٌ ليسَتْ بنافذةٍ(١).

وقيلَ: هي بلغةِ الحبشةِ، وإنْ صحَّ هذا فهو وِفاقٌ بين اللُّغتَينِ.

وقال مُجاهدٌ: المشكاةُ: القصبةُ التي في جوفِ القِنديلِ(٢)، وهي موضعُ الفَتيلةِ، شبَّهها بكُوَّةٍ غيرِ نافذةٍ.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾؛ أي: سراجٌ تامُّ الضَّوءِ.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾؛ أي: قنديلٍ، وضوءُ النّارِ يزدادُ في الزُّجاجِ الصّافي.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ أي: كالدُّرِّ في صفائِه وحُسنِه، يُقالُ: «دُرِّيٌّ» و«دِرِّيٌّ»، مثلَ: سُخْرِيٍّ وسِخْرِيٍّ، وقيلَ: «دُرِّيءٌ» بضمِّ الدّالِ والهمزِ، منَ الدَّرْءِ، ويُقالُ للكوكبِ: «دَرَأَ يدْرَأُ»؛ إذا تَدافَعَ مُنقَضًّا فتَضاعَفَ نورُه، والنُّجومُ الدَّراري: التي تدرَأُ؛ أي: تنحَطُّ وتسيرُ مُتدافعةً.

وقيلَ: دَرَأَ الكوكبُ؛ أي: رُجمَ به الشَّيطانُ فدفعَه، قالَه الفرَّاءُ(٣).

ويُقالُ للنُّجومِ العظامِ التي لا تُعرَفُ أسماؤُها: «الدَّراري» بغيرِ همزٍ، فلعلَّهم خفَّفوا الهمزَ، والأصلُ منَ «الدَّرءِ» الذي هو الدَّفعُ؛ أي: دَرأ الخفاءَ بتلألُئه.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٢)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٦٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٥)، بلفظ: «الصفر» بدل «القصبة»، وهو بلفظ المصنف في «البسيط» (١٦/ ٢٦٢).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٢)، وفيه: «دَرَأَ الكوكبُ: إِذَا انحط؛ كأنه رُجم به الشيطان فدمَغه».

وقرأ الكسائيُّ وأبو عَمروٍ: ﴿دِرِّيءٌ﴾ بكسرِ الدّالِ والهمزِ[1] منَ الدَّرءِ والدَّفعُ، مثلَ: السِّكِّيرِ والفِسِّيقِ.

وقال سيبويهِ: أي: يدفعُ بعضُ ضوئِه بعضًا من لَمَعانِه[2].

﴿تُوقَدُ﴾ بضمِّ التّاءِ؛ أي: الزُّجاجةُ، وفيه حذفٌ، أي: يوقَدُ مصباحُ الزُّجاجةِ، فحُذِفَ المُضافُ وأُقيمَ المُضافُ إليه مُقامَه.

وقُرِئَ: (تَوَقَّدُ) بفتح التّاءِ وتشديدِ القافِ وضمِّ الدّالِ[3]؛ أي: تتوقَّدُ الزُّجاجةُ؛ أي: مصباحُ الزُّجاجةِ، فحُذِفَ المُضافُ.

وقُرِئَ: ﴿تَوقَّدَ﴾ بفتحِ التّاءِ ونصبِ الدّالِ؛ أي: تَوَقَّدَ المصباحُ.

وقُرِئَ: ﴿يُوقَدُ﴾ بضمِّ التّاءِ والدّالِ[4]؛ أي: المصباحُ.

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: من زيتِ شجرةٍ، فحُذِفَ المُضافُ.

قال ابنُ عبّاسٍ: في الزَّيتونةِ منافعُ: يُسرَجُ بالزَّيتِ، وهو إدامٌ ودهانٌ ودباغٌ، ووقودٌ يُوقَدُ بحطبِه وثُفْلِه، وليس فيه شيءٌ إلّا وفيه منفعةٌ، حتَّى الرَّمادُ يُغسَلُ به

---

(١) وقرأ حمزة وأبو بكر بضم الدال والمد والهمز، وقرأ الباقون بضم الدال وتشديد الياء من غير مد ولا همز، وحمزة على أصله في تخفيفه وقفًا بالإدغام. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٥)، و«التيسير» (ص:١٦٢)، و«النشر» (٢/ ٣٣٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٢٦٦)،

(٣) هي رواية عن عاصم كما في «السبعة» (ص: ٤٥٦). وذكرها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣) عن السلمي ومجاهد والحسن وجماعة والمفضل عن عاصم.

(٤) قرأ بها نافع وابن عامر وحفص، وبالتي قبلها قرأ ابن كثير وأبو عمر ويعقوب وأبو جعفر، والباقون بالتاء مضمومة على التأنيث وتخفيف القاف وضم الدال. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٢)، و«النشر» (٢/ ٣٣٢).

الإبرِيسمُ، وهو أوَّلُ شجرةٍ نبتَتْ في الدُّنيا، وأوَّلُ شجرةٍ نبتَتْ بعد الطُّوفانِ، وتنبتُ في منازلِ الأنبياءِ والأرضِ المُقدَّسةِ، ودعا بها سبعون نبيًّا بالبركةِ، منهم إبراهيمُ، ومنهم نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ(١)؛ فإنَّه قال: «اللَّهُمَّ بارِكْ في الزَّيتِ والزَّيتونِ»، قالَه مرَّتَينِ(٢).

وقيلَ: من بركتِها: أنَّ أغصانَها تُورِقُ من أسفلِها إلى أعلاها، ولا يُحتاجُ فيه إلى عصَّارٍ ليستخرجَ الدُّهنَ.

﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدلٌ من «شجرةٍ».

﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ أي ليست بشرقيّةٍ وحدَها ولا غربيّةٍ وحدَها، بل هي شرقيّةٌ وغربيّةٌ، والشَّرقيّةُ: التي تُصيبُها الشَّمسُ إذا أشرَقَتْ، ولا تُصيبُها إذا غرَبَتْ لأنَّ لـها سترًا، والغربيّةُ عكسُها؛ أي: أنَّها شجرةٌ في الصَّحراءِ لا يُواريها عنِ الشَّمسِ شيءٌ، وهو أجودُ لزيتِها.

وقيلَ: أي: أنَّها وسطَ الأشجارِ، لا تُصيبُها الشَّمسُ لا بالغداةِ، ولا بالعشيِّ؛ لالتفافِ الشَّجرِ حولَـها وسترِها إيّاها، فلا تُصيبُها الشَّمسُ شرقًا ولا غربًا، وهو أجودُ ما يكونُ منَ الزَّيتِ على ما قيلَ، فكأنَّها بارزةٌ للشَّمسِ في وقتٍ غيرُ بارزةٍ في وقتٍ، فقد أخذَتْ منَ الشَّمسِ والظِّلِّ بحظٍّ؛ أي: من زيتونِ الشّامِ، فإنَّ الشّامَ لا شرقيٌّ ولا غربيٌّ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٢٧٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٥٨) من طريق يعلى بن الأشدق عن عمه عبد الله بن جراد رضي الله عنه. قال الذهبي في «الميزان» ترجمة عبد الله بن جراد: عبد الله بن جراد مجهول، لا يصح خبره لأنه من رواية يعلى بن الأشدق الكذاب عنه، قال أبو حاتم: لا يعرف، ولا يصح خبره.

وقال الحسنُ: هذا مثَلٌ ضرَبَه الله تعالى، وليسَتْ هذه الشَّجرةُ من شجرِ الدُّنيا؛ لأنَّ ما في الدُّنيا إمّا شرقيٌّ وإمّا غربيٌّ[١].

وقيلَ: أي: إنَّها تنبُتُ على خطِّ الاستواءِ.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾؛ أي: زيتُ الزَّيتونةِ ﴿يُضِيٓءُ﴾؛ أي: يُضيءُ المكانَ من صفائِه ولو لـم تُصِبْه النّارُ.

ومعنَى المثَلِ أنَّه قال: صفةُ البراهينِ التي أنارَ بها الحقَّ كمشكاةٍ غيرِ نافذةٍ وُضِعَ فيها قنديلٌ من أصفى زُجاجٍ، قد أُوقِدَ بأصفَى زيتٍ، فاجتمَعَ في المشكاةِ ضوءُ المصباحِ إلى ضوءِ الزُّجاجِ وإلى ضوءِ الزَّيتِ، فصار لذلك نوراً على نورٍ، واعتلَقَتْ هذه الأنوارُ في المشكاةِ إذ كانت غيرَ نافذةٍ، فصارَتْ كأنورِ ما يكونُ، فكذلك براهينُ الله تعالى واضحةٌ، وهي برهانٌ بعد بُرهانٍ، وتنبيهٌ بعد تنبيهٍ، من عقلٍ يتفكَّرُ به الإنسانُ في الأدلّةِ، ورسلٍ بُعِثُوا بالمُعجزاتِ، وكتُبٍ أُنزِلَتْ عليهم، ومواعظَ تتكرَّرُ، فقولُه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ كقولك: فلانٌ يضَعُ درهمًا على درهمٍ، لا يعني اثنَين، بل يُرادُ به التَّوالي والاتِّصالُ.

وقال أُبيُّ بنُ كعبٍ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ أي: أنَّ المُؤمنَ يتقلَّبُ في خمسةِ أنوارٍ: كلامُه نورٌ، وعملُه نورٌ، ومُدخَلُه نورٌ، ومُخرَجُه نورٌ، ومصيرُه إلى النُّورِ يومَ القيامةِ[٢].

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾؛ أي: للقرآنِ والدِّينِ وقَبولِ الحُجَجِ ولمحمَّدٍ ﷺ ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٤٩)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٣).

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي يُبيِّنُ الأشياءَ تقريبًا إلى الأفهامِ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: المُهتَدِي والضَّالِّ.

* * *

(٣٦) - ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾؛ أي هذا المصباحُ في مساجدَ أمرَ الله بتعظيمِها بالعبادةِ له فيها، فالمُصلُّونَ يتعهَّدونَ المصباحَ بما يدومُ به ضوءُه حتَّى لا ينقطعَ، وكذلك الحُجَجُ محروسةٌ من مطاعنِ المُلحِدينَ، ولـمَّا قال: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ عُلِمَ أنَّه ليس مصباحًا واحدًا، بل في كلِّ مسجدٍ مصباحٌ، ففي كلِّ قلبِ مؤمنٍ نورٌ.

وقيلَ: قولُه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُعترِضٌ في الكلامِ؛ أي: ومَثَلًا منَ الذين خلَوا من قبلِكم وموعظةً للمُتَّقينَ، في بيوتِ أذِنَ الله أن تُرفعَ؛ أي: للمُتَّقين الذين هم في بيوتٍ، كقولِك: «جاءَني الرَّجلُ فعَلَ كذا»؛ أي: الذي فعَلَ كذا.

وقيلَ: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾؛ أي: المشكاةُ أو المصباحُ في بيوتٍ.

وقيلَ: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ كلامٌ مُبتدأٌ في وصفِ المساجدِ لا اتِّصالَ له بما تقدَّمَ؛ إذ المشكاةُ والمصباحُ فيها لا يختلفُ بأن يكونَ في مسجدٍ أو غيرِه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: المساجدُ بيوتُ الله في الأرضِ، وهي تُضيءُ لأهلِ السَّماءِ كما تُضيءُ النُّجومُ لأهلِ الأرضِ[١]، فالآيةُ عامّةٌ في جميعِ المساجدِ.

وقيلَ: أرادَ أربعةَ مساجدَ لـم يبنِهنَّ إلّا نبيٌّ: الكعبةُ وهي من بناءِ إبراهيمَ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٦٠٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٧١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦٨٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٧): «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون».

وإسماعيلَ، وبيتُ أريحا بناه داودُ وسليمانُ، ومسجدُ المدينةِ ومسجدُ قباءَ بناهما محمَّدٌ ﷺ.

وقال السُّدِّيُّ: هي بيوتُ المدينةِ[1]؛ لأنَّها التي كانت يُصلَّى فيها حينَ نزلَتْ هذه الآيةُ.

وقيلَ: هي في بيوتِ النَّبيِّ ﷺ، وقرأ النَّبيُّ عليه السَّلامُ هذه الآيةَ، فقيلَ له: أيُّ بيوتِ هذه؟ فقالَ: «بيوتُ الأنبياءِ»[2].

﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أمرَ الله تعالى ﴿أَن تُرۡفَعَ﴾؛ أي: تُبنَى، كما قال: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقيلَ: ﴿تُرۡفَعَ﴾؛ أي: تُعظَّمَ، ولا يُتكلَّمَ فيها بالـخَنا والفُحشِ.

﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾؛ أي: يُوحَّدَ الله فيها.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾؛ أي: يُصلِّي في تلك البيوتِ ﴿رِجَالٌ﴾. وقُرِئَ: ﴿يُسبَّحُ﴾ بفتحِ الباءِ[3].

﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾؛ أي: في الصَّلواتِ المفروضةِ.

وقيلَ: أي: في عمومِ الأوقاتِ، كما تقولُ: «أنا أُكرِمُكَ غدوةً وعشيًّا»؛ أي: أبدًا.

والآصالُ: جمعُ أُصُلٍ، والأُصُلُ: جمعُ أصيلٍ، والأصيلُ: العشِيُّ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٧٥).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٧٤)، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٣)، من حديث أنس وبريدة، قال في «منهاج السنة» (٧/ ٨٩): «هذا الحديث موضوع عند أهل المعرفة بالحديث».

(٣) قرأ بها ابن عامر وشعبة، والباقون بالمبني للمعلوم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٢).

وقال: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ فوحَّدَ؛ لأنَّ الغُدُوَّ في الأصلِ مصدرٌ لا يُجمَعُ، والأصيلُ اسمٌ يُجمَعُ.

* * *

(٣٧) ـ ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَـٰرُ﴾.

﴿رِجَالٌ﴾؛ أي يُسبِّحُ له فيها رجالٌ، ومَن قرأ: ﴿يُسبَّحُ﴾ قال: ﴿رِجَالٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، فلا بدَّ من إضمارٍ؛ أي: رجالٌ يُسبِّحونَ الله تعالى.

وقيلَ: أي: في بيوتٍ أذِنَ الله أن ترفعَ رجالٌ، وقولُه: ﴿يُسبَّحُ﴾ بالفتحِ نعتٌ للبيوتِ؛ أي: في البيوتِ المرفوعةِ لذكرِ الله تعالى المُسبَّحِ فيها لله رجالٌ صفتُهم كذا وكذا.

﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾؛ أي: لا تَشغَلُهم ﴿تِجَارَةٌ﴾؛ أي: الشِّراء؛ لقوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾.

وقيلَ: التِّجارةُ تتناوَلُ البيعَ والشِّراءَ إذا كان يعتادُ الرَّجلُ التَّصرُّفَ.

والبيعُ: ما يُنفَقُ له من شيءٍ خاصٍّ.

وخصَّ التِّجارةَ من بينِ الشَّواغلِ بالذِّكرِ؛ لأنَّها أعظَمُ ما يُشغَلُ به الإنسانُ عن الصَّلاةِ.

﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: الصَّلواتِ المفروضةِ.

وقيلَ: عن ذكرِ الله بالتَّوحيدِ والتَّمجيدِ؛ أي: لا يتَّجِرُونَ حتَّى تشغَلَهم التِّجارةُ عن الصَّلاةِ.

وقيلَ: أي: وإن اتَّجروا فلا يُؤخِّرونَ الصَّلاةَ عن الوقتِ بسببِ طلبِ الرِّبحِ.

﴿وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ﴾ الإقامُ يعني الإقامةَ، فحُذِفَ الهاءُ وأُقيمَ المُضافُ مُقامَها.

وقال قُطربٌ: يجوزُ: «أقمْتُ إقامةً وإقامًا»، و«أجَزْتُ إجازةً وإجازًا»، و«أقَلْتُ إقالةً وإقالًا».

وإقامةُ الصَّلاةِ: أداؤُها بفرائضِها وسُننِها وهيئاتِها.

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾؛ أي: الزَّكواتِ الواجبةِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: يعني بالزَّكاةِ: طاعةَ الله[1]؛ إذ ليس لكلِّ مؤمنٍ مالٌ.

وقد قيلَ: نزلَتِ الآيةُ في أهلِ الصُّفّةِ، وكانوا من أفقرِ النّاسِ[2].

﴿يَخَافُونَ يَوۡمًا﴾؛ أي: يخافُونَ أن يُؤاخَذُوا بالتَّقصيرِ يومًا ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ يعني يومَ القيامةِ تتقلَّبُ فيه القلوبُ؛ أي: ترتفعُ إلى الحناجرِ، وتزرَقُّ الأبصارُ.

وقيلَ: تتقلَّبُ القلوبُ بينَ الطَّمعِ في النَّجاةِ وخوفِ الهلاكِ، وتتقلَّبُ الأبصارُ من أين يُؤتَونَ كتبُهم، أَمِنَ اليمينِ أم منَ الشِّمالِ؟

وقيلَ: تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ من حالٍ إلى حالٍ؛ لشِدّةِ الأهوالِ.

* * *

(٣٨) - ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: ما فعلُوا ليُثيبَهم الله على الطّاعاتِ، يُقالُ: «جزاؤُه كذا وجزاؤُه كذا»؛ أي: يُسبِّحُ له فيها رجالٌ ليجزِيَهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٣٧).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥١٤)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٨٤) وعزاه لمقاتل بن حيان.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: ويزيدَهم ما لم يستَحِقُّوه بعمَلِهم، وكلُّ إحسانِ الرَّبِّ فضلٌ.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: من غيرِ أن يُحاسبَه على ما أعطاه، أو: لا نهايةَ لعطائِه.

***

(٣٩) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ لمَّا ضرَبَ مَثَلَ المؤمنِ ضرَبَ مثَلَ الكافرِ، والسَّرابُ: ما يُرَى نصفَ النَّهارِ في اشتدادِ الحرِّ كالماءِ في المفاوِزِ يلتصِقُ بالأرضِ، والآلُ الذي يكونُ ضُحًى كالماءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وإنَّما سُمِّيَ السَّرابُ سرابًا لأنَّه يسرُبُ سَرْبًا؛ أي: يجري جَرْيًا، من بابِ «نصَرَ ينصُرُ»، يُقالُ: سرَبَ الفحلُ؛ أي: مضَى وسارَ في الأرضِ.

والقيعةُ: جمعُ القاعِ، مثلَ «جيرةٍ وجارٍ».

والقاعُ: ما انبسَطَ منَ الأرضِ، يُقالُ: قاعٌ، وأقوُعٌ، وأقواعٌ، وقِيعةٌ، وقيعانٌ، وهو ما استوَى منَ الأرضِ لا حصى فيه، ولا يُنبِتُ الشَّجرَ، وما حوالَيه أرفعُ منه، وهو مصبُّ المياهِ.

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ يُقالُ: ظمِئَ يظمَأُ ظَمَأً فهو ظمآنُ؛ أي: اشتَدَّ عطشُه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾؛ أي: السَّرابَ إلى موضِعه رأى أرضًا لا ماءَ فيها؛ أي: أعمالُ الكفّارِ مثلُ السَّرابِ للظَّمآنِ.

﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾؛ أي: شيئًا مـمَّا حسِبَ وظنَّ وقدَّرَ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الكافرَ إذا ماتَ علِمَ أنَّه ليس على شيءٍ.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾؛ أي: وجـدَ اللهَ بالمرصـادِ ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾؛ أي: جـازاه بعملِه .

وقال: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، وقال في أوَّلِ الآيةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾؛ لأنَّه ضرَبَ له مثلَ الظَّمآنِ، فعادَ الخطابُ إليه، ثمَّ الظَّمآنُ لا حسابَ عليه، وإنَّما الحسابُ على الكفّارِ؛ أي: فوفَّاهم حسابَهم.

والسَّرابُ: بخاراتٌ ترتفعُ وينبسِطُ عليها ضوءُ الشَّمسِ وتهُبُّ عليها الرِّياحُ فتُشبِهُ الماءَ في حركتِه وتلألُئِه، فإذا قربتَ منها بعُدَ شعاعُ البصرِ فيها فلم يرَها شيئًا، فلهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾؛ أي: رآه بخاراتٍ، ثمَّ لـمَّا قرُبَ لـم يرَ شيئًا.

وقيلَ: لـم يجِدْه شيئًا نافعًا مُعِينًا؛ كقولِه: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقيلَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾؛ أي: جاءَ موضـعَ السَّرابِ لـم يجدِ السَّرابَ شيئًا ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾؛ أي: وكذلك الكافرُ المُحتاجُ إلى عملِه يومَ القيامةِ إذا جاءَ عملَه لـم يجِدْه شيئًا، ووجدَ هذا الكافرُ اللهَ عندَه فوفّاه حسابَه؛ أي: عاقبَه على كفرِه.

والكنايةُ عمَّا لـم يجرِ له ذكرٌ موجودٌ في كلامِهم إذا كان في الكلامِ ما يدُلُّ على المعنى، على أنَّه جرَى في أوَّلِ الآيةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

وقيلَ: وفيه إضمارٌ يدُلُّ عليه الكلامُ؛ أي: حتَّى إذا جاءَه لـم يجِدْه شيئًا، فكذلك الكافرُ إذا جاءَ عملَه لـم يجِدْه شيئًا ووجدَ الله عندَه.

ثـمَّ قيـل: ﴿عِندَهُۥ﴾؛ أي: عنـدَ نفسِـه؛ أي: وجـدَ أمـرَ الله قـد حضـرَه، أو وجـدَ

ما وعدَ اللهُ منَ العقابِ، وهذا قد يكونُ إذا حضرَه الموتُ، وقد يكونُ إذا وافى العَرَصاتِ يومَ القيامةِ، وقد يكونُ في الوقتَينِ.

وقال الفرَّاءُ: وجدَ الله عندَ عملِه؛ أي: قدِمَ على الله فوفَّاه أجرَ عملِه(١).

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: عن قريبٍ يُحاسِبُ الكفّارَ.

***

(٤٠) - ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ ثمَّ ضربَ للكفّارِ مثلًا آخرَ؛ أي: أعمالُهم كسرابٍ بقيعةٍ، أو كظُلماتٍ.

قال الزَّجَّاجُ: أي: إنْ شئتَ مثِّلْ بالسَّرابِ، وإنْ شئتَ مثِّلْ بهذه الظُّلماتِ(٢).

وقال الجرجانيُّ: الآيةُ الأولى في ذكرِ أعمالِ الكفّارِ، والثّانيةُ في ذكرِ كفرِهم، فنُسقَ الكفرُ على أعمالِهم لأنَّ الكفرَ أيضًا من أعمالِهم، وقد قال الله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ أي: منَ الكفرِ إلى الإيمانِ(٣).

وقال أبو عليٍّ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾؛ أي: أو كذي ظُلماتٍ، ودلَّ على حذفِ المُضافِ قولُه: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ فالكنايةِ تعودُ إلى المُضافِ المحذوفِ(٤).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٨).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٠٦ - ٣٠٧).

(٤) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٠).

فعند الزَّجّاجِ التَّمثيلُ وقعَ لأعمالِ الكفّارِ، وعند الجرجانيِّ لكفرِ الكافرِ، وعند أبي عليٍّ للكافرِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ في روايةٍ: هذا مثَلُ قلبِ الكافرِ[1].

وعند أبي عليٍّ: الكافرُ في بحرٍ لُـجِّيٍّ؛ أي: عميقٍ واسعٍ.

واللُّجّةُ: موضعُ العُمقِ منَ البحرِ، والظُّلمةُ فيه أكثرُ، فاللُّجِّيُّ: الواسعُ اللُّجّةِ، ولـجَّجَ فلانٌ؛ أي: توسَّطَ البحرَ.

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾؛ أي: يعلُو ذلك البحرَ اللُّجِّيَّ موجٌ ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾؛ أي: من فوقِ الموجِ موجٌ ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾؛ أي: من فوقِ هذا الموجِ الثّاني ﴿سَحَابٌ﴾.

﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظُلمةُ البحرِ، وظُلمةُ الموجِ فوقَ الموجِ، وظُلمةُ السَّحابِ.

وقولُه تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هذه ظُلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ.

وقُرِئَ: «سحابٍ ظلماتٌ» بالكسرِ والتَّنوينِ، وعلى هذا هي بدلٌ منَ الظُّلماتِ الأولى.

وقُرِئَ: ﴿سحابُ ظُلماتٍ﴾ بإضافةِ السَّحابِ إلى الظُّلماتِ[2]، وهي الظُّلماتُ التي تقدَّمَ ذِكرُها.

فإنْ قلتَ: هذا مثَلٌ لعملِ الكافرِ، والمعنَى: أنَّه يعملُ في حيرةٍ وضلالةٍ كمَن في هذه الظُّلماتِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٠٨) من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. ونقله عن المصنف: القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٤).

(٢) قرأ قنبل بالأولى، والبزي بالثانية، والباقون بالرفع والتنوين فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٢).

وقـال أُبـيُّ بـنُ كعبٍ: الكافـرُ يتقلَّبُ فـي خمسٍ مـنَ الظُّلماتِ: كلامُـه ظلمةٌ، وعملُـه ظلمـةٌ، ومدخلُـه ظلمـةٌ، ومخرجُـه ظلمـةٌ، ومصيـرُه إلـى الظُّلمـاتِ يـومَ القيامـةِ إلى النّـارِ(١).

وإنْ قلتَ: هذا مثلُ كفرِ الكافرِ، فكفرُه عملُه كما بيَّنّا.

وإنْ قلتَ: هو مثلُ الكافرِ، فالكافرُ من عملِه وكفرِه يتقلَّبُ في الظُّلماتِ.

وإنْ قلتَ: هذا مثلُ قلبِ الكافرِ، فالمعنَى: ما يغشى قلبَه منَ الشَّكِّ والحيرةِ والرَّينِ والختمِ والطَّبعِ.

وقيلَ: يعني: ظُلمةَ القلبِ، وظُلمةَ الصَّدرِ، وظُلمةِ الجوفِ؛ أي: لا يُبصِرُ بقلبِه نورَ الإيمانِ، كما أنَّ صاحبَ البحرِ إذا أخرجَ يدَه في الظُّلمةِ لـم يكَدْ يراها، وهذا تأكيدُ شدَّةِ هذه الظُّلماتِ.

وقيلَ: أرادَ بالظُّلماتِ: ظُلمةَ اللَّيلِ، وظلمةَ عُمقِ البحرِ، وظُلمةَ الموجِ، وظُلمةَ السَّحابِ، فلا يُبصِرُ مَن كان في هذه الظُّلماتِ سماءً ولا كوكبًا.

وقيلَ: يرِدُ الكافرُ غدًا من أعمالِه على ظُلماتٍ يتحيَّرُ فيها، فلا يهتَدي إلى نجاةٍ.

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾؛ أي: هذا الكافرُ المضروبُ له المثَلُ إذا أخرَجَ يدَه لم يكَدْ يراها؛ أي: لـم يرَها ولـم يكَدْ.

وقيلَ: يراها بعد أن كادَ لا يراها من شدّةِ الظُّلمةِ.

وعلى الأوَّلِ «كادَ» صلةٌ وتأكيدٌ.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: إذا أخرَجَ يدَه يراها ـ أي: ليراها ـ لـم يكد؛ أي: لـم يُقارِبْ أن يراها.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥١٠)، وصححه.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾؛ أي: الله نورُ السَّمواتِ والأرضِ، ولكنْ مَن لـم يجعلِ الله له نورًا يهتَدي به أظلَمَتْ عليه الأمورُ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: مَن لـم يجعَلِ الله له دينًا فما له من دينٍ(١).

وقيلَ: مَن لـم يجعلِ الله له نورًا يمشي به يومَ القيامةِ لـم يهتَدِ إلى الجنّةِ؛ لقولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

***

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لمَّـا ذكـرَ وُضـوحَ الآيـاتِ زاد فـي الحجّةَ والبيـانَ وبيَّنَ أنَّ مصنوعاتِـه تدُلُّ بتغيُّرِها على أنَّ لـها صانعًا قـادرًا علـى الكمالِ، فلـه بعثةُ الرُّسـلِ وقد بعثَهـم الله تعالـى، وأيَّدَهـم بالمُعجِزاتِ، وأخبَـرُوا بالجنّـةِ والنّارِ.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألـم تعلَمْ، والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ والمُرادُ الكلُّ.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الجنُّ والإنسُ والملائكةُ وكلُّ مخلوقٍ، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ أي: كلُّ شيءٍ بفطرتِه يُنادي بأفصحِ لسانٍ على نفسِه بأنّه مُفتَقِرٌ إلى صانعٍ يُوجِدُه.

﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ عطفٌ على ﴿مَن﴾، وخُصَّتْ بالذِّكرِ لأنّها تكونُ فـي الجوِّ بين السَّماءِ والأرضِ، فهي خارجةٌ عن جملةِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ.

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ أي في حالِ بسطِها أجنحتَها في الهواءِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣١٥).

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ الصَّلاةُ بمعنَى التَّسبيحِ، وكُرِّرَ تأكيدًا كقولِه: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، والصَّلاةُ قد تُسمَّى تسبيحًا كقولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧]، أي: كلُّ واحدٍ من المذكورينَ يعلَمُ ما يتوجَّبُ عليه منَ الصَّلاةِ والتَّسبيحِ.

وقيلَ: كلٌّ قد علِمَ صلاتَه وتسبيحَه الواجبتَين عليه.

وقيلَ: كلٌّ علِمَ الله صلاتَه وتسبيحَه، ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: لا يخفَى عليه طاعتُهم وتسبيحُهم.

قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يملكُهما غيرُه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: بعد الموتِ، والمعنى: فإيّاه فاعبُدوه.

* * *

(٤٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ ذكرَ من جملةِ حُجَجِه شيئًا آخرَ؛ أي: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعينِ قلبِكَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾؛ أي: يسوقُ؛ الإزجاءُ: السَّوقُ برفقٍ.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾؛ أي: يجمَعُ بين مُتفرِّقِ السَّحابِ حتَّى يُكثَّفَ.

والأصلُ في التَّأليفِ: الهمزُ، تقولُ: «يُؤَلِّفُ»، وقُرِئَ: ﴿يُوَلِّفُ﴾ بالواوِ وتخفيفِها[1].

---

(١) هي رواية ورش عن نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٧)، و«الإقناع في القراءات السبع» لابن الباذش (ص: ١٨٤).

والسَّحابُ واحدٌ في اللَّفظِ، ولكنَّ معناه جمعٌ، ولـهذا قال: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]، وإنَّما قال ﴿بَيْنَهُۥ﴾ - و«بينَ» يقتَضي شيئَين - لـهذا، وهو كما تقولُ: «فلانٌ بين النَّخلِ» لأنَّه جمعٌ، ولا يُقالُ: «فلانٌ بينَ زيدٍ»، نعم تقولُ: «بين زيدٍ وعمرٍو»، وهذا قولُ الفرّاءِ(١).

وقال الزَّجّاجُ: «بينَه» أي: بينَ السَّحابِ واحدًا، إلّا أنَّه قال: ﴿بَيْنَهُۥ﴾ لكثرتِه، كما تقولُ: «ما زلتُ أدورُ بينَ الكوفةِ»؛ لأنَّ الكوفةَ أماكنُ كثيرةٌ(٢).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾؛ أي: مُجتمِعًا يركبُ بعضُه على بعضٍ؛ لقولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤].

والرَّكمُ: جمعُ الشَّيءِ فوقَ الشَّيءِ.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾؛ أي: المطرَ، يُقالُ: «ودَقَتِ السَّحابةُ تدِقُ فهي وادِقةٌ».

وقال المُبرِّدُ: «وَدَقَتْ سُرَّتُه»؛ أي: خرَجَتْ، فيُسمَّى المطرُ وَدْقًا لخروجِه منَ السَّحابِ(٣).

﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ خلالُ السَّحابِ: مخارجُ المطرِ، جمعُ خَلَل(٤)، مثلَ «الجبلِ والجبالِ»، وتقولُ: «كنتُ في خلالِ القومِ»؛ أي: وسطهم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٩).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٢٢)، وفي «الكامل» للمبرد (٢/ ٢٠٧): «والودق: المطر، يقال: ودقت السماء يا فتى تَدِقُ ودقًا، قال الله جل وعز: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾».

(٤) في (أ): «والجمع: الخلال»، والصواب المثبت. قال القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٩). وخلال جمع خلل؛ مثل: الجبل والجبال.

وقُرِئَ: (من خَلَلِه).

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قيلَ: خلَقَ الله تعالى في السَّماءِ جبالًا من بـرَدٍ، فهو يُنزِلُ منها بـرَدًا، وفيه إضمارٌ؛ أي: يُنزِلُ من جبالِ البَرَدِ بـردًا، فالمفعولُ محذوفٌ.

وقيلَ: أي: يُنزِّلُ منَ السَّماءِ برَدًا أمثالَ جبالٍ قد اجتمَعَ فيها لكثرتِه، كأنَّه يكونُ في السَّماءِ أمثالَ الجبالِ، فيُنزِلُ منها إلى الأرضِ ما يشاءُ، وعلى هذا فالجبالُ ليست خلافَ السَّهلِ، بل هي للتَّعظيمِ، كما يُقالُ: «لفلانٍ جبلُ مالٍ»، و«عندَه جبالُ شِعْرٍ»، يريدونَ تعظيمَ الأمرِ.

والجبلُ يُعبَّرُ به عـن الشَّيءِ العظيمِ المُجتمِعِ، ومنه الجِبِلُّ والجبِلّةُ؛ للخليقةِ الكبيرةِ.

ثـمَّ قيـلَ: أرادَ بالسَّـماءِ السَّحابَ، فالبَـرَدُ يجتمعُ في السَّحابِ كالجبـالِ، ثمَّ ينـزلُ منها.

وقيلَ: أرادَ السَّماءَ الحقيقيّةَ.

وقيلَ: عنَى بالجبالِ: السَّحابَ العِظامَ، والبرَدُ: مطرٌ جامدٌ.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يُعذِّبُ بضررِ هذا البرَدِ مَن يشاءُ منَ النّاسِ في نفسِه وزرعِه فيُهلِكُه ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾؛ أي: يصرِفُ ضررَه عمَّن يشاءُ.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ السَّنا: الضَّوءُ، يُقالُ: «سنا النّارِ، وسنا البرقِ».

وقال المُبرِّدُ: «السَّنا» مقصورٌ، وهو اللَّمْعُ، فإذا كانَ منَ الشَّرفِ والحسَبِ فهو ممدودٌ[١]، وأصلُهما واحدٌ، وهو الالتماعُ، وأضافَ البرقَ إلى السَّحابِ أو إلى البرَدِ.

---

(١) انظر: «الكامل» للمبرد (٣/ ١٠٢).

وقيلَ: يصرِفُه عمَّن يشاءُ، ولولا صرفُه إيَّاه لكانَ ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

وقرأ أبو جعفرٍ: ﴿يُذهِبُ بالأبصارِ﴾(١). وإدخالُ الهمزِ مع حرفِ الجرِّ بعيدٌ، فلعلَّه يقولُ: الباءُ زائدةٌ.

* * *

(٤٤) ـ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يُعقِبُ هذا ذاك، وذاك هذا، كما قال: ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقيلَ: يأتي بكلِّ واحدٍ يدلُّ على الآخرِ، فهو يُقلِّبُهما.

* * *

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾؛ أي: كلَّ ما يَدِبُّ على وجهِ الأرضِ منَ الحيوانِ، ولا تدخلُ الملائكةُ والجنُّ في هذا؛ لأنَّا لا نُشاهِدُهم، ولم يثبُتْ أنَّهم خُلِقُوا منَ الماءِ.

وقال المُفسِّرون: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾؛ أي: من نُطفةٍ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائمِ والأنعامِ والسِّباعِ.

وقولُه: ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ يشملُ ما يعقلُ وما لا يعقلُ، ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُم﴾، وقال:

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٢).

﴿مَّن يَمْشِى﴾، فأشارَ بالاختلافِ إلى ثُبوتِ الصّانعِ؛ أي: لولا أنَّ للجميعِ صانعًا مختارًا لَـمَا اختلَفُوا، بل كانوا من جنسٍ واحدٍ، وهو كقولِه: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ [الرعد: ٤].

وقال قومٌ: لا تُستثنَى الجنُّ والملائكةُ، بل كلُّ حيوانٍ خُلِقَ منَ الماءِ؛ إذ خلقُ الطِّينِ منَ الماءِ، وخلقُ النّارِ منَ الماءِ، وخلقُ الرِّيحِ منَ الماءِ؛ إذ أوَّلُ ما خلَقَ الله تعالى منَ العالـمِ الماءَ، ثمَّ خلقَ منه كلَّ شيءٍ.

ثمَّ، قد تجدُ حيوانًا يمشي على أكثرَ من أربعٍ، ولكنْ ليس في الكتابِ ما يمنعُ من ذلك؛ إذ لـم يقُلْ: ليسَ منها ما يمشي على أكثرَ من ذلك.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: ومنهم مَن يمشي على أكثرَ من أربعٍ.

وقيلَ: ما يمشي على أكثرَ من أربعٍ يُرى على صورةِ ما يمشي على أربعٍ، أو اعتمادُه على أربعٍ، فلم يُفرِدْه بالذِّكرِ.

وقيلَ: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صلةُ ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، لا صلةُ ﴿خَلَقَ﴾، ثمَّ لا يبعُدُ أن يكونَ وراءَ ما خُلِقَ منَ الماءِ حيوانٌ خلقَه من غيرِ الماءِ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿والله خالقُ كلِّ دابّةٍ﴾ بالألفِ[1].

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فلا يعتاصُ عليه شيءٌ.

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ عرَّفَنا موقعَ ما أودَعَ هذه الآياتِ منَ الحُجَجِ ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بتلك الآياتِ.

* * *

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٤٧ ـ ٥٠) ـ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: المُنافقينَ بألسنَتِهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ يعني: ذَوي النِّفاقِ ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: الفريقَ المُنافقينَ.

قيلَ: نزلَتِ الآيةُ في بشرٍ المُنافقِ كان يُخاصِمُ يهوديًّا في أرضٍ، فقال اليهوديُّ: رضيتُ بحكمِ محمَّدٍ، فقال المُنافقُ: إنَّه يَحيفُ علينا، فلنُحكِّمْ كعبَ بنَ الأشرَفِ، فنزلَ: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: إلى المُحاكمةِ إلى الله ورسولِه في الـخُصومةِ تقعُ لهم.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن ذلك، وهذا يدُلُّ على أنَّ الامتناعَ كان منَ البعضِ، فأشرَكَ الجميعَ في الذَّمِّ لِرضاهُم بذلك، وإنَّما قال: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ولـم يقُلْ: «ليحكُما»؛ لأنَّ المعنيَّ الرَّسولُ، فإنَّما بدأَ بذكرِ الله إعظامًا لله تعالى.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٠٥)، وعن مقاتل ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥١٩)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٣٢)، وهو دون عزو في «تفسير الثعلبي» (١٩/ ٣٠٠)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٢٧).

ورواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٩٣ ـ ١٩٤) عن مجاهد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠]، وكذا رواه الواحديُّ في «أسباب النزول» (ص: ١٦١)، عن قتادة والشعبي، وعن ابن عباس من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: إنْ علِمُوا أنَّ الحقَّ يكونُ لهم إذا تحاكَمُوا إلى محمَّدٍ ﷺ ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي مُنقادين، وإذا كان الحقُّ عليهم رغِبُوا عنه، وعن التَّحاكُمِ إليه.

قولُه تعالى: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ أي: نفاقٌ ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ أم حدَثَ لهم شكٌّ في نبوَّتِه ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ فأتَى بلفظِ الاستفهامِ لأنَّه أشدُّ في التَّوبيخِ، وهذا استفهامٌ بمعنى الإخبارِ.

والحيفُ: الميلُ في الحكمِ والظُّلمُ.

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: ظلَمُوا أنفُسَهم بالإعراضِ عن حكمِ الله تعالى.

***

(٥١) - ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: إنَّما كان ينبَغي أن يقولَ المُؤمنونَ إذا دُعُوا إلى الله ورسولِه: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهؤلاءِ لو كانوا مؤمنينَ لكانوا يقولُونَ: أطَعْنا.

وقيلَ: أي: إنَّما قولُ المؤمنين، و﴿كَانَ﴾ صلةٌ في الكلامِ، كقولِه تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

وقُرِئَ: ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنَّصبِ؛ أي: إنَّما كان السَّمعُ والطَّاعةُ قولَ المُؤمنينَ.

والأشهر: (إنما كان قولُ) بالرفع[1].

---

(١) بل هي شاذة لم يقرأ بها أحد من العشرة، فجميعهم قرؤوا: ﴿قولَ﴾ بالنصب، أما القراءة بالرفع فنسبت لعلي رضي الله عنه والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤)، و«المحتسب» (٢/ ١١٥).

(٥٢) ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: فيما حكمَ به الرَّسولُ ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في ذنوبِه التي عمِلَها ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بعدُ، فلم يعصِ اللهَ؛ أي: يتَّقِ عذابَ الله تعالى بطاعتِه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنَّعيمِ المُؤبَّدِ.

قُرِئ: ﴿ويتَّقِهي﴾ بالياءِ في اللَّفظِ.

وقرأ نافعٌ: ﴿ويتَّقِهِ﴾ من غيرِ ياءٍ.

وقُرِئَ: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بجزمِ الهاءِ.

وقُرِئَ: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بسكونِ القافِ وكسرِ الهاءِ[1].

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ لـمَّا بيَّنَ كراهةَ المُنافقينَ لحكمِ النَّبيِّ ﷺ أتَوه فقالوا: والله لو أمَرْتَنا أن نخرُجَ من ديارِنا وأموالِنا ونسائِنا لخرَجْنا، وإنْ أمَرْتَنا بالجهادِ لجاهَدْنا، فنزلتْ هذه الآيةُ.

أي: وأقسَمُوا أنَّهم يخرُجونَ معك في المُستأنَفِ، ويُطيعُونَ جهدَ إيمانِهم.

---

(١) قرأ بها حفص عن عاصم. وقرأ قالون عن نافع: ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ بكسر القاف والهاء من غير إشباع، وهو أحد وجهي هشام عن ابن عامر.

وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وخلاد ـ بخلاف عنه ـ عن حمزة: ﴿وَيَتَّقِهْ﴾ بكسر القاف وسكون الهاء. وقرأ ورش عن نافع، وابنُ كثير، وابنُ ذكوان عن ابن عامر، وخلفٌ عن حمزة، وهو الوجه الآخر عن خلاد وعن هشام: بكسر القاف وكسر الهاء مشبعةً بحيث يتولد ياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٢ ـ ١٦٣).

قال مُقاتلٌ: مَن حلَفَ بالله فقد اجتهَدَ في اليمينِ[١].

﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾؛ أي: لا تحلِفُوا؛ لأنَّكم تحلِفُون على ما تُضمِرُونَ خلافَه، وهو معصيةٌ، فنُهُوا عن المعصية؛ أي: أنَّه لو كلَّفكم ما تُقسِمُونَ عليه ما وفَّيتُم بيمينِكم.

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾؛ أي: هذه طاعةٌ منكم معروفةٌ، وهي الكذبُ والتَّكذيبُ، فالمعروفُ منكم الكذبُ دونَ الإخلاصِ.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: ليكُنْ منكم طاعةٌ معروفةٌ بإخلاصِ القلبِ، ولا حاجةَ إلى اليمينِ.

وقيلَ: أي: طاعةٌ معروفةٌ خيرٌ لكم من هذا الحلفِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعتِكم بالقولِ، ومُخالفتِكم بالفعلِ.

***

(٥٤) - ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: قُلْ: دَعُوا النِّفاقَ وأخلِصُوا الطَّاعةَ لله ورسولِه ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: فإنْ تتولَّوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾؛ أي: على الرَّسولِ البلاغُ[٢] ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ أي: الطَّاعةُ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: التَّبليغُ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾.

قُرِئَ: ﴿حُمِّلَ﴾ و﴿حُمِّلْتُمْ﴾ بالتَّشديدِ، وقرأ نافعٌ بالتَّخفيفِ[٣].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٠٥).

(٢) في (أ): «إلا البلاغ» والصواب المثبت.

(٣) بالتشديد قراءة الجمهور، وبالتخفيف قرأ نافع، وهي خلاف المشهور عنه.

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بلِّغْ أيُّها الرَّسولُ، وأطيعُوه أيُّها المُؤمنونَ؛ فقد وعدَ الله المُؤمنينَ منكم النَّصرَ على الكفّارِ.

قال أبو العالية: مكثَ رسولُ الله ﷺ بمكّةَ عشرَ سنينَ بعد ما أُوحِيَ إليه خائفًا هو وأصحابُه يدعُونَ إلى الله سرًّا وجهرًا، ثمَّ أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ، وكانوا فيها خائفينَ يُصبِحُونَ ويُمسُونَ في السِّلاحِ، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أما يأتي علينا يومٌ نأمَنُ فيه ونضَعُ السِّلاحَ؟ فقال رسولُ الله ﷺ «لن تلبَثُوا إلا يسيرًا حتى يجلسَ الرَّجلُ منكم في الملأ العظيمِ مُحتَبِيًا ليس عليه حديدةٌ»، ونزلَتْ هذه الآيةُ، وأظهرَ الله نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على جزيرةِ العربِ، فوَضَعُوا السِّلاحَ وأمِنوا[1].

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾؛ أي: وعدَهُم أن يجعلَهم خلفاءَ الأرضِ؛ أي: سُكّانَها والمُتسلِّطينَ عليها، تقولُ: «وعدتُه لأُكرِمنَّه»، بمنزلةِ قولِكَ: «لآتينَّكَ»[2].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٣٤٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٠٨)؛ عن أبي العالية مرسلًا. وأسنده الحاكم في «المستدرك» (٣٥١٢) ـ ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٦) ـ بنقص يسير، فرواه من طريق الرَّبيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيِّ بن كعب قال: لمَّا قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رَمَتْهم العرب عن قوسٍ واحدة لا يَبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترَوْنَ أنَّا نعيشُ حتى نَبيتَ آمِنينَ مُطْمئنين لا نخاف إلَّا الله؟ فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه أيضا الضياء في «المختارة» (١١٤٥) و(١١٤٦).

(٢) كذا وقعت العبارة في (أ)، ولعل فيها سقطاً أو تحريفاً، فقد قال الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٤٣): =

وقال ابن عبّاسٍ: يُريدُ أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا، وكلَّ مَن وَلِيَ من أصحابِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: بني إسرائيلَ؛ إذ أهلَكَ الجبابرةَ بمصرَ وأورَثَهم أرضَهم وديارَهم، وقُرِئَ: ﴿كما استُخلِفَ﴾ بضمِّ التّاءِ وكسرِ اللّامِ[2].

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[3]، يُقالُ: «بُدِّلْتَ»؛ أي: غُيِّرَ حالُك؛ أي: يُذهِبُ الله الخوفَ ويأتي بالأمنِ، وهو عامٌّ في كلِّ خوفٍ كان لأصحابِ النَّبيِّ ﷺ، كخَوفِهم من كفّارِ مكّةَ، وخوفِ أبي بكرٍ في الغارِ.

وهذا مُعجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه أخبرَهم بحصولِ الأمرِ وزوالِ الخوفِ، فكان كما أخبرَ.

﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ هو في موضعِ الحالِ؛ أي: في حالِ عبادتِهم الله بالإخلاصِ.

= قوله ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ قال الفراء والزَّجَّاج: إنما جاءت اللام لأنَّ العِدَة قولٌ يصلح فيها «أن»، ويصلح فيها جواب اليمين، تقول: وعدتك أن آتيك، ووعدتك لآتينك، ومثله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ [يوسف: ٣٥] وتقول: «وعدته لأكرمنه»، بمنزلة: «قلت»؛ لأن الوعد لا ينعقد إلا بقول. وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٥١).

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٤٣) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) وهي قراءة شعبة، وقرأ الباقون بالمبني للمعلوم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

(٣) قرأ أكثر السبعة بالتشديد، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

ويجوزُ أن يكونَ استئنافًا على طريقِ الثناءِ عليهم؛ أي: المُؤمنُونَ يعبُدونَني.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾؛ أي: منَ الآلهةِ، ولا يخافونَ أحدًا غيري.

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بهذه النِّعمِ، والمُرادُ: كُفرانُ النِّعمةِ؛ لأنَّه قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ والكافرُ بالله فاسقٌ بعد هذا الإنعامِ وقبلَه.

قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أعادَ الأمرَ بالعبادةِ تأكيدًا، وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لتُرحَمُوا.

* * *

(٥٧) - ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ ووَعدٌ بالنَّصرِ؛ أي: إنَّهم لا يفُوتُونَنا.

وقُرِئَ: ﴿لا يحسَبَنَّ﴾ بالياءِ[1]؛ أي: لا يحسَبَنَّ الذين كفَرُوا أنفُسَهم مُعجِزينَ.

وقال أبو عليٍّ: أي لا يحسَبَنَّ النَّبيُّ الذين كفَرُوا مُعجِزينَ[2].

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: بل هم مقدورٌ عليهم ومُحاسَبُونَ، ومأواهم النّارُ، ولو لـم يقُلْ هذا لكانَ: لا تحسَبَنَّ أنَّ مأواهُم النّارُ.

* * *

(١) قرأ بها ابن عامر وحمزة، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٣٢).

(٥٨) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحُۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عادَ الكلامُ إلى التَّستُّرِ؛ أي: مُرُوا عبيدَكم وإماءَكُم والصِّبيانَ الذين لـم يحتلِمُوا من أحرارِكم أن يستأذِنُوا للدُّخولِ عليكم، فلا يدخلُوا إلّا بإذنٍ في ثلاثةِ أوقاتٍ منَ اللَّيلِ والنَّهارِ.

﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾؛ أي: تتجرَّدُونَ في وقتِ القائلةِ وشدَّةِ الحرِّ ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ لأنَّ هذه الأوقاتِ أوقاتُ التَّجرُّدِ وظهورِ العورةِ، فما قبلَ صلاةِ الفجرِ وقتُ انتهاءِ النومِ ووقتُ الخروجِ من ثيابِ النَّومِ ولبسِ ثيابِ النَّهارِ، ووقتُ القائلةِ وقتُ التَّجرُّدِ، وبعد صلاةِ العشاءِ وقتُ التَّعرِّي للنَّومِ، فالتَّكشُّفُ غالبٌ في هذه الأوقاتِ.

قيلَ: بعثَ رسولُ الله ﷺ غلامًا منَ الأنصارِ يُقالُ له: «مُدْلِجٌ» إلى عمرَ بنِ الخطّابِ ظهرًا ليدعُوَه، فوجدَه نائمًا قد أغلَقَ عليه البابَ، فدفعَ الغلامُ البابَ فناداه ودخلَ، فاستيقَظَ عمرُ وجلسَ وانكشَفَ منه شيءٌ، فقال عمرُ: ودِدْتُ أنَّ الله نهى أبناءَنا ونساءَنا وخدَمَنا عن الدُّخولِ علينا في هذه السّاعاتِ إلا بإذنٍ، فنزلَتْ هذه الآيةُ[1].

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥٢٢)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣١٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٢٩)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٦٠)، والرازي في «تفسيره» (٢٤/ ٤١٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٠٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما دون سند.

وذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٥٢) عن الكلبي.

وهو من رواية السديّ الصغير، عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس؛ رواه كذلك ابن منده =

وقال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ: منَ النِّساءِ والرِّجالِ[١].

وقال ابنُ عمرَ: هو للرِّجالِ دونَ النِّساءِ[٢].

وقال أبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ: هو للنِّساءِ خاصّةً، فأمَّا الرِّجالُ فيستأذِنُونَ على كلِّ حالٍ باللَّيلِ والنَّهارِ[٣].

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾؛ أي: من أحرارِكم منَ النِّساءِ والرِّجالِ.

﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾؛ أي: ثلاثةَ أوقاتٍ؛ لأنَّه فُسِّرَ بالأوقاتِ، فقال: ﴿مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾، وإنَّما قال: ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ للأوقاتِ؛ لأنَّه أرادَ مرّةً في كلِّ وقتٍ، ولا يجبُ أن تستأذنَ ثلاثَ مرّاتٍ في كلِّ وقتٍ.

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ سمَّى هذه الأوقاتِ عوراتٍ لأنَّ الإنسانَ يضعُ ثيابَه في الغالبِ فتبدُو عورتُه.

قُرِئَ: ﴿ثَلَاثُ﴾ بالرَّفعِ؛ أي: هي ثلاثُ عوراتٍ، فهو خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ.

وقُرِئَ: ﴿ثلاثَ﴾ بالنَّصبِ[٤] على البدلِ من قولِه: ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾، ثمَّ لا بدَّ من

= كما في «الإصابة» (٦/ ٥٠). والسدي الصغير هو محمد بن مروان: كذاب، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٥٣).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٥٧)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٥١)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٩٣)، جميعهم من طريق ليث عن نافع عن ابن عمر. قال النحاس: وهذا القولُ يَستحسنُه أهلُ النَّظر لأنَّ (الذين) في كلام العرب للرجال وإن كان يجوزُ أنْ يدخلَ معهم النساءُ فإنَّما يقعُ ذلك بدليلٍ والكلامُ على ظاهره غيرَ أنَّ في إسناده ليث بن أبي سُليم.

(٣) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٤٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٣).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وأبو بكر، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٩)، =

إضمارٍ حتَّى يصحَّ البدلُ؛ أي: أوقاتَ ثلاثِ عوراتٍ، فلمَّا حُذِفَ المُضافُ أُعرِبَ المضافُ إليه بإعرابِ المُضافِ، وهو كقولِكَ: «كنتُ عندَ فلانٍ صلاةَ الظُّهرِ»؛ أي: وقتَ صلاةِ الظُّهرِ.

قال السُّدِّيُّ: كان جماعةٌ منَ الصَّحابةِ يُعجِبُهم أن يُواقِعُوا نساءَهم في هذه السّاعاتِ ليغتَسِلُوا ثمَّ يخرُجُوا إلى الصَّلاةِ، فورَدَ بالاستئذانِ في هذه الأوقاتِ[1].

ثمَّ قيلَ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ أمرٌ للمماليكِ والصِّبيانِ، ويجوزُ توجيهُ الأمرِ عليهم إذا كانوا يعقِلُونَ ما يُقالُ لهم.

وقيلَ: المأمورُ: السّادةُ والأولياءُ ليحمِلُوهم عليه، كما تقولُ للرَّجلِ: «ليخَفْكَ أهلُكَ وولدُكَ»؛ أي: افعَلْ بهم ما يخافونَكَ عندَه، وكما يُخرِجُ الزَّكاةَ عن مالِ الأطفالِ.

ثمَّ؛ قال قومٌ ـ وهو قولُ مُقاتلٍ وأبي عُبيدٍ ـ: فيجبُ على الرَّجلِ أن يأمرَ بذلك مَن كان عندَه من حرٍّ أو عبدٍ، حتَّى لا يدخُلوا تلك السّاعاتِ الثَّلاثِ إلّا بإذنٍ[2].

وقال قومٌ: الآيةُ منسوخةٌ.

وقال ابنُ عبّاسٍ وقد سُئِلَ عن هذه الآيةِ: إنَّ الله تعالى رفيقٌ رحيمٌ بالمؤمنينَ يحبُّ السَّترَ عليهم، وكان النّاسُ ليس لهم ستورٌ ولا حجابٌ، فربَّما دخلتِ الخادمةُ أو الولدُ والرَّجلُ على أهلِه، فأُمِرُوا بالاستئذانِ، فجاءَهم الله بالسُّتورِ والخيرِ، فلم أرَ أحدًا يعملُ بذلك[3].

و«التيسير» (ص: ١٦٣).

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٤).

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (ص: ٢١٩)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٦) عن مقاتل بن حيان.

(٣) رواه أبو داود (٥١٩٢).

والأوَّلون يقولونَ: قولُه: «لـم أرَ أحدًا يعملُ بذلك» توبيخٌ، لا أنَّه يدَّعي النَّسخَ.

وقال قومٌ: كان ذلك أمرَ استحبابٍ لا أمرَ إيجابٍ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: في أنْ لا تستأذِنُوا.

﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الكنايةُ في ﴿عَلَيْكُم﴾ للجميعِ منَ السّادةِ والآباءِ والمماليكِ والصِّبيانِ، وقولُه: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تفسيرٌ له.

وقيلَ: أي: ليس على السّادةِ والآباءِ جُناحٌ إذا لـم يأمُروا المماليكَ والصِّبيانَ بالاستئذانِ في غيرِ هذه الأوقاتِ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: كالذي بيَّنّا لكم منَ الاستئذانِ نُبيِّنُ لكم غيرَه منَ الآياتِ التي يجبُ أن تعملُوا بها.

***

(٥٩) ـ ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾؛ أي: إذا بلَغَ الصِّبيانُ من أحرارِكم وجرَى عليهم القلمُ، فلا يدخُلوا عليكم في هذه الأوقاتِ ولا في غيرِها إلّا أن يستأذِنُوا كما استأذَنَ الذينَ من قبلِهم؛ أي: كما استأذَنَ الكبارُ منَ الأولادِ والأقاربِ كالأحرارِ.

ولـم يذكرِ المماليكَ هاهُنا لأنَّ حكمَهم إذا كانُوا رجالًا وصغارًا حكمٌ واحدٌ في وجوبِ الاستئذانِ في الأوقاتِ الثَّلاثةِ دونَ غيرِها، وعند كثيرٍ منَ الأئمّةِ لا يدخلُ العبدُ البالغُ على مالكتِه إلّا بإذنٍ، ولا ينظرُ إلى شعرِها، وعندَ هؤلاء يدخلُ في الخطابِ المملوكُ وغيرُه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: الذين كانوا مع إبراهيمَ وإسماعيلَ(١).

وقيلَ: يرجعُ ذلك إلى قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ [النور: ٢٧].

وقيلَ: إلى قولِه ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾.

***

(٦٠) - ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ثمَّ رخَّصَ للقواعدِ، وهنَّ اللَّواتي قعَدْنَ عن الحيضِ والولدِ، ولا مطمعَ لهنَّ في الأزواجِ، فجوَّزَ لهنَّ القعودَ عند غيرِ ذَوي المحارمِ في سراويلَ ودرعٍ وخمارٍ من غيرِ جلبابٍ فوقَها أو قناعٍ فوقَ الخمارِ ورداءٍ فوقَ الدِّرعِ، فأمَّا الشَّوابُّ فلا يجوزُ لهنَّ وضعُ الجلابيبِ إلا عند ذَوي المحارمِ والمذكورين في قولِه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، وقولِه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

يُقالُ: «امرأةٌ قاعدٌ»؛ أي: قعَدَتْ عن الحيضِ، و«قاعدةٌ» منَ القعودِ الذي هو ضدُّ القيامِ.

وقال الزَّجّاجُ: القواعدُ: هنَّ اللَّواتي قعَدْنَ عن الزَّواجِ وكبِرْنَ(٢).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٦٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٥٣).

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾؛ أي: جلابيبَهُنَّ وما يكونُ فوقَ الدِّرعِ والخمارِ، والمُرادُ بالثِّيابِ هاهُنا: بعضُها لا كلُّها.

وفي قراءةِ عبدِ الله: (من ثيابِهنَّ)[1].

وقال قومٌ: الكبيرةُ التي أيِسَتْ منَ النِّكاحِ لو بدا شعرُها فلا بأسَ، فعلى هذا لا يجوزُ لـها وضعُ الخمارِ.

والصَّحيحُ أنَّها كالشّابّةِ في بابِ التَّستُّرِ، إلّا أنَّ الكبيرةَ تضَعُ الجلبابَ الذي يكونُ فوقَ الدِّرعِ والخمارِ.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾؛ أي: من غيرِ تزيُّنٍ، والتَّبرُّجُ: الكشفُ وإظهارُ الزِّينةِ؛ أي: من غيرِ أن يُرِدْنَ بوضعِ الجلبابِ أن تُرَى زينتُهنَّ.

قال عطاءٌ: وهذا في بيتِها، فإذا خرجَتْ فلا يجوزُ لـها وضعُ الجلبابِ[2].

وعلى هذا ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ﴾؛ أي: غيرَ خارِجاتٍ من بيوتِهنَّ. وعلى هذا يلزمُ أن يُقالَ: إذا كانت في بيتِها فلا بدَّ لـها من جلبابٍ فوقَ الدِّرعِ، **وهذا بعيدٌ**، إلّا إذا دخلَ عليها أجنبيٌّ.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ فلا يضَعْنَ الجلبابَ فذلك ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

* * *

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٤٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٢).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٦٨).

(٦١) - ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ وصلَ بما تقدَّمَ الرُّخصةَ في أشياءَ كما رخَّصَ في وضعِ الجلبابِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: لمّا أنزلَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ تحرَّجَ المسلمون عن مُؤاكلةِ المرضَى والزَّمْنَى والعُمْيِ والعُرْجِ، وقالوا: الطَّعامُ أفضلُ الأموالِ، وقد نهانا الله تعالى عن أكلِ المالِ بالباطلِ، والأعمى لا يُبصِرُ موضعَ الطَّعامِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ(١).

وقال ابنُ المسيبِ: كانوا إذا خرَجُوا مع النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام في الغزوِ وضَعُوا مفاتيحَ بيوتِهم عند الأعمَى والأعرَجِ والمريضِ، وعند أقاربِهم، وكانوا يأمُرونَهم أن يأكُلوا ممّا في بيوتِهم إذا احتاجُوا إلى ذلك، فكانوا يخشَونَ أن يأكلُوا منها، ويقولون: لعلَّ أنفُسَهم غيرُ طيِّبةٍ بذلك، فنزلَتِ الآيةُ(٢)، وأُبيحَ لهم التَّناوُلُ ممّا

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٢٧)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٩٨). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٢٤).

(٢) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٠٠).

ورواه بنحوه البزار (٢٢٤١ ـ كشف)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٦)، والنحاس في =

أُذِنَ لهم فيه إذا لم يُجاوِزُوا القدرَ الذي يُعلَمُ في العُرفِ أنَّهم لا يحظُرونَه على الدّاخلينَ من هؤلاءِ، بل تطيبُ أنفُسُهم به، وهذا تأكيدُ أسبابِ الأُلفةِ والبرِّ والصِّلةِ.

ومَن قال: «كانوا يتحرَّجُونَ عن مُؤاكلةِ العُميانِ خوفًا من أن يأكلُوا الأجودَ» قال: أي: ليس عليكم حرجٌ في مُؤاكلتِهم.

وقد قيلَ: كانوا يتحرَّجُونَ من مُؤاكلةِ العُميانِ ومَن به جرحٌ استقذارًا، فالمعنى: ليس على أصحابِ العاهاتِ حرَجٌ في مُؤاكلةِ أصحابِ العافيةِ.

وقيلَ: أي: ليس على الأعمى حرَجٌ في التَّخلُّفِ عن الغزوِ مع رسولِ الله ﷺ.

وعلى هذا تمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، ثمَّ ابتدأَ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ولعلَّهم احترَزُوا عن أن يأكلَ المرءُ عند غيرِه؛ لقولِه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقيلَ: ليس عليكم حرجٌ في أنفُسِكم أن تأكلوا من أموالِ عيالِكم وأزواجِكم، فقولُه: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: بيوتِ أزواجِكم، وهذا لأنَّ بيتَ المرأةِ كبيتِ الزَّوجِ.

وقيلَ: أرادَ بيوتَ الأولادِ، فنسَبَها إلى الآباءِ لأنَّ الأولادَ كسبُهم، وفي الخبرِ: «أنتَ ومالُك لأبيكَ»(١).

= «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٤).

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٩١) من حديث جابر رضي الله عنهما، وإسناده صحيح على شرط البخاري كما قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ٣٧). وصححه البزار فيما نقله عنه ابن التركماني في «الجوهر النقي» (٧/ ٤٨١)، وصححه أيضًا ابن التركماني، وابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٥/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٤١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وإسناده صحيح كذلك. =

وإنَّما قلنا هذا؛ لأنَّ أحدًا لا يحترزُ منَ الأكلِ في بيتِ نفسِه حتَّى يحتاجَ إلى نفيِ الحرجِ عنه، وأيضًا ذكرَ القراباتِ البعيدةَ ولـم يذكرِ الولدَ.

وقيلَ: لـمَّا رخَّصَ لـهم في الأكلِ من هذه البيوتِ بدأ بذكرِ بيوتِهم ثمَّ أتبعَه بذكر بيوتِ القراباتِ تنبيهًا على أنَّ الكلَّ بمثابةٍ واحدةٍ، وهو كما تقولُ: «كُلْ إنْ شئتَ من مالي، وإنْ شئتَ من مالِكَ»، فتُجري ذكرَ نفسِكَ تنبيهًا على رفعِ الفرقِ.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قيلَ: يُريدُ المماليكَ؛ لأنَّ السَّيِّدَ يملكُ منزلَ عبيدِه، وعلى هذا فالمفاتحُ: الخزائنُ، ويجوزُ أن يكونَ الذي يُفتَحُ به.

وقيلَ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾؛ أي: ما خزَّنتُموه لغيرِكم، يُريدُ الزَّمْنى الذين كانُوا يُسلِّمُونَ إليهم عند الخروجِ إلى الغزوِ مفاتيحَ خزائنِهم.

ويقرُبُ منه وكيلُ الرَّجلُ وقيِّمُه في ضيعتِه وماشيتِه: لا بأسَ عليه أن يأكُلَ من تمرِ ضيعتِه، ويشربَ من لبنِ ماشيتِه، وكلُّ هذا مبنيٌّ على قرائنِ الأحوالِ، وكذا أمرُ تقديمِ الطَّعامِ إلى الضِّيفانِ والنِّثارِ في عقدِ الإملاكِ[1].

وقيلَ: أي: مـمَّا تملِكُونَه في خزائنِكم، وهو كقولِه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنه: إذا دعاكُم[2].

والصَّديقُ بمعنَى الجمعِ، قالَ الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء: ٧٧].

وقيلَ: هو منسوخٌ بقولِه: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]،

= ورواه أبو داود (٣٥٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وإسناده حسن.

(١) قوله: «والنِّثارِ في عقدِ الإملاكِ»؛ أي: ما ينثر على الناس في الأعراس.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٧٩) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لا يحِلُّ مالُ امرئٍ مسلمٍ إلّا بطيبِ نفسٍ منه»(١).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ نزلَتْ هذه الآيةُ في بني ليثِ بنِ بكرٍ، وهم حيٌّ من كنانةَ، كان الرَّجلُ منهم لا يأكلُ وحدَه، ويمكُثُ أيّامًا حتَّى يجدَ مَن يُؤاكِلُه، فبيَّنَ أنَّ المرءَ إنْ أكلَ وحدَه فلا إثمَ عليه(٢).

﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ نزلَتْ فيمَنْ تقدَّمَ ذِكرُهم، نصبٌ على الحالِ، و﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أي: مُتفرِّقينَ، وهي جمعُ «شَتٍّ»، فالشَّتُّ: المصدرُ بمعنَى التَّفرُّقِ، يُقالُ: «شَتَّ القومُ»؛ أي: تفرَّقُوا.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ قيلَ: هو في دخولِ الرَّجلِ بيتَ نفسِه، والسَّلامِ على أهلِه ومَن في بيتِه، وفي الخبرِ: «إذا دخلتُم بُيوتَكم فسلِّمُوا على أهلِها»(٣).

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٠٦٩٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٥٧٠)، من طريق أبي حرة الرقاشي عن عمه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٦٥): «أبو حرة الرقاشي وثقه أبو داود وضعفه ابن معين، وفيه علي بن زيد، وفيه كلام».

ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢١٠٨٢) من حديث عمرو بن يثربي.

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «ولا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٧٠)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٧٦) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٧٦) عن الضحاك. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٣٢) عن قتادة والضحاك وابن جريج.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٥١٥) عن جابر رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديث غريب الإسناد والمتن في هذا الباب، ومحمد بن الحسن المخزومي أخشى أنه ابن زبالة ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «غريب».

وقيلَ: هذا تسليمٌ على أهلِ ذلك البيتِ الذي يدخلُه، أيَّ بيتٍ كان، فقولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ أي: أهليكُم؛ لأنَّ أهلَ الرَّجلِ من نفسِه، أو أرادَ: على بني جنسِكم.

وقيلَ: وإن لـم يكُنْ في البيتِ أحدٌ، فالسُّنَّةُ أن تقولَ: «السَّلامُ علينا من ربِّنا»[1]، فهو تسليمٌ من نفسِه على نفسِه.

وقيلَ: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ أي: على أهلِ ملَّتِكُم.

وقال مجاهدٌ: إذا دخلْتَ بيتًا ليس فيه أحدٌ فقُلْ: السَّلامُ علينا من ربِّنا، السَّلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصّالحينَ[2].

وقال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ بالبيوتِ المساجدَ[3]، فإذا دخلتَ المسجدَ فسلِّمْ على مَن فيه.

وقيلَ: سبقَ الأمرُ بالاستِئذانِ، ثمَّ جُوِّزَ للمُتخلِّفينَ بعد خروجِ قومٍ للغزوِ أن يدخُلوا بيوتَهم، فأُمِرُوا بالسَّلامِ عند الدُّخولِ؛ ليكونَ بمثابةِ الاستئذانِ على أربابِ المنازلِ في حالِ حضورِهم.

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٩/ ١٤٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٤٤٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأعله ابن عدي بيزيد بن عياض، وذكر أن عامة أحاديثه غير محفوظ، وقال البيهقي: «لا أعرفه إلا من حديث يزيد بن عياض وليس بالقوي».

وروي نحوه موقوفاً؛ رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٥٥) عن نافع أن عبد الله بن عمر قال: إذا دخل البيت غير المسكون فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وسيأتي نحوه عن مجاهد.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٧٣)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٥٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٠).

(٣) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢/ ١٣٠)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٩).

والأوجَهُ أن يُقالَ: هذا عامٌّ في دخولِ كلِّ بيتٍ، فإنْ كانَ فيه ساكنٌ مسلمٌ يقولُ: «السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه»، وإنْ لم يكُنْ فيه ساكنٌ يقولُ: «السَّلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصَّالحينَ»، وإنْ كان في البيتِ مَن ليس بمُسلمٍ قال: «السَّلامُ على مَن اتَّبعَ الهدى»، أو «السَّلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصَّالحينَ».

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ هذا نصبٌ على المصدرِ؛ لأنَّ قولَه: «فسلِّمُوا» معناه: فحَيُّوا.

وقيلَ: هذا من قولِ المُسلِّمِ؛ أي: أعني تحيَّةً مُباركةً طيِّبةً، فالمُباركةُ: التي يكثُرُ بها الخيرُ والأجرُ، والطَّيِّبةُ: التي يستَطيبُها سامِعُها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾؛ أي: كما يُبيِّنُ لكم شُبَهَ دينِكم في هذه الأشياءِ يُبيِّنُ لكم سائرَ ما بكم حاجةٌ إليه في دينِكم.

* * *

(٦٢) - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بيَّنَ في أوَّلِ السُّورةِ أنَّه أنزلَ آياتٍ بيِّناتٍ، وإنَّما النُّزولُ على محمَّدٍ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، فختَمَ السُّورةَ بتأكيدِ الأمرِ في مُتابعتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لنعلمَ أنَّ أوامرَه كأوامرِ القرآنِ.

﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾؛ أي: على أمرٍ جمعَهم على شريعةِ الإسلامِ، كالجمعةِ والعيدِ وغيرِها مما يجمعُهم النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عليه.

﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ من عندِ رسولِ الله ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ فيأذَنَ لهم؛ تعظيمًا له ورعايةً للأدب.

وقيلَ: الأمرُ الجامعُ: هو الذي يشمَلُهم نفعُه وضرُّه، فيحتاجُ إلى جمعِ النّاسِ للتَّشاوُرِ، ولإقامةِ سنّةٍ في الدِّينِ، أو لترهيب العدوِّ باجتماعِهم للحروبِ.

﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ قال مقاتلٌ: نزلَتْ هذه الآيةُ في عمرَ رضيَ الله عنه، استأذَنَ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في غزوةِ تبوكَ في الرَّجعةِ إلى أهلِه، فأذِنَ له وقال: «انطلِقْ فوالله ما أنتَ بمُنافقٍ»، ويُريدُ بذلك أن يُسمِعَ المُنافقينَ[(١)].

وقال ابن عبّاسٍ: إنَّما استأذَنَ عمرُ في العمرةِ، فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لـمَّا أذِنَ له: «يا أبا حفصٍ، لا تنسَنا في صالحِ دُعائِكَ»[(٢)].

وقيلَ: كان النَّبيُّ عليه السَّلامُ إذا خطَبَ يومَ الجمعةِ عرَّضَ في خُطبتِه بالمنافقينَ وعابَهم، فربَّما كانوا يخرُجُونَ منَ المسجدِ لا يكمِلُونَ معه الجمعةَ، وأنزلَ الله تعالى هذه الآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[(٣)]؛ أي: هم المُؤمنونَ لا الذين يتسلَّلونَ من غيرِ إذنِكَ.

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: فَأْذَنْ لهم في

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢١٠). ومقاتل متروك، ومثل هذا مما يتفرد به مع انقطاعه لا يصح، والصحيح أنه في استئذانه للعمرة على ما يأتي.

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٨٦)، ورواه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٨٨) بلا نسبة، وذكره الرازي في «التفسير الكبير» (٢٤/ ٤٢٤) عن الكلبي.

الانصرافِ؛ إذ لـم يكُنْ فيه ضررٌ فيمَن مشيُه على الصَّلاحِ لا على التَّشهِّي.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لخروجِهم عن الجماعةِ إنْ علِمْتَ لهم عذرًا.

***

(٦٣) - ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: ما يدعُوكم إليه الرَّسولُ ﴿كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾؛ أي: كما يدعو بعضُكم بعضًا إلى أمرٍ منَ الأمورِ، فتستَخيروا التَّخلُّفَ.

وقيلَ: أي: لا تدعُوه كما يدعُو بعضُكم بعضًا بل عظِّمُوه؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣].

وقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: لا تقولُوا: يا محمَّدُ، بل قولُوا: يا رسولَ الله[١].

وقيلَ: أي: لا تتعرَّضُوا لدُعاءِ الرَّسولِ عليكم؛ فإنَّ دعوتَه مُوجِبةٌ.

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗا﴾ التَّسلُّلُ والانسِلالُ: الخروجُ، واللِّواذُ منَ المُلاوَذةُ، وهي أن يستَتِرَ بشيءٍ مخافةَ مَن يراه، وكان المُنافقون يخرُجُونَ منَ المسجدِ يومَ الجمعةِ مُستَترينَ من غيرِ استئذانٍ، فنزلَتِ الآيةُ فيهم.

وقيلَ: في حفرِه الخندقَ، وكان قومٌ يتسلَّلونَ من غيرِ إذنٍ.

﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾؛ أي: يُعرِضُونَ عن أمرِه، ودخلَتْ ﴿عَنۡ﴾ لتضمُّنِ المُخالفةِ معنى الإعراضِ.

---

(١) رواه محمد بن نصر المروزي في «الصلاة» (٧٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٥)،

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: ضلالةٌ وكفرٌ.

وقيلَ: بليّةٌ تُظهِرُ نفاقَ قلوبِهم، فتُضرَبُ رقابهم.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: القتلُ في الدُّنيا.

وقيلَ: الفتنةُ أن يُطبَعَ على قلوبِهم لشُؤْمِ مُخالفةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

***

(٦٤) - ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: كلُّ مخلوقٍ فهو تحتَ تدبيرِه.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ فهو يُجازيكُم به.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ويعلَمُ يومَ يُرجَعُونَ إليه.

﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾؛ أي: يُخبِرُهم ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾.

وقيلَ: بيَّنَ أنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ، فليس للملوكِ أن يُخالفَ أمرَ المالكِ.

﴿يُرْجَعُونَ﴾ بضمِّ الياءِ، وقُرِئَ بفتحِها[1].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ من أعمالِهم وأحوالِهم.

واللهُ سُبحانَه وتعالى أعلَمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجعُ والمآبُ.

***

(١) قرأ السبعة بضم الياء وذكر ابن مجاهد خلافاً على أبي عمرو. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦١).

سُورَةُ الفُرۡقَانِ

تفسيرُ سورةِ الفُرقانِ

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرّحيمِ

(١) ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ مقصودُ السُّورةِ ذِكرُ عظيمِ موضعِ القرآنِ، وذكرُ مطاعنِ الكفّارِ في النُّبوّةِ.

﴿تَبَارَكَ﴾؛ أي: تقدَّسَ وتعالى، وأصلُ البركةِ: الكثرةُ والاتِّساعُ وثباتُ الشَّيءِ.

وقيلَ: تبارَكَ اللهُ؛ أي: دامَ بقاؤُه، وهو الذي يُديمُ النِّعمةَ لعبادِه، من «بركَ الطَّيرُ على الماءِ»؛ أي: ثبَتَ ودامَ.

﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: القرآنَ، وهو الذي فرَقَ بينَ الحقِّ والباطلِ.

وقيلَ: سُمِّيَ فُرقانًا لأنَّه يُخرِجُ منَ الشُّبهاتِ، من قولِه: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]؛ أي: مخرجًا.

وقيلَ: لأنَّه أُنزِلَ فصلًا فصلًا، وسورةً سورةً، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وهو منَ التَّفرُّقِ.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ أي: على محمَّدٍ ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾؛ أي: ليكونَ محمَّدٌ ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾: مُخوِّفًا من عذابِ الله تعالى، أو: ليكونَ القُرآنُ المنزلُ نذيرًا.

* * *

(٢) - ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي خلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ردٌّ على مَن قال في عيسى وعُزَيزٍ والملائكةِ ما قال.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ ردٌّ على مَن عبَدَ غيرَه واتَّخذَ الأصنامَ.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: لا كما قال المجوسُ والثنويةُ: إنَّ الشَّيطانَ أو الظُّلْمةَ تخلقُ بعضَ الأشياءِ، ولا كما يقولُ مَن قال: للمخلوقِ قُدرةُ الإيجادِ.

﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ أي: قدَّرَ كلَّ شيءٍ ممّا خلقَ بحكمتِه على ما أرادَ، لا عن سهوٍ وغفلةٍ؛ أي: هو الخالقُ فإيّاه فاعبُدوا.

***

(٣) - ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ عجَّبَ العبادَ منَ المشركينَ، وكنَى عنهم لتقدُّمِ ذِكرِهم فيما سبقَ منَ القرآنِ، وهو كقولِه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]؛ أي: أنزَلْنا القرآنَ، ولـم يسبِقْ له ذكرٌ في هذه السُّورةِ.

﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ لأنَّ المخلوقَ لا يخلُقُ.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمَّا اعتقدَ الكـفَّارُ فيها أنَّها تَضُرُّ وتنفعُ عبَّرَ عنها كما يُعبَّرُ عمَّا يعقلُ، كقولِه: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، و﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: لا يملِكُونَ دفعَ ضرٍّ وخلقَ نفعٍ، فحُذِفَ المضافُ.

وقيلَ: لا يقدرونَ أن يضُرُّوا أنفسَهم أو ينفعُونَها بشيءٍ، ولا لمن يعبُدُهم لأنَّها جماداتٌ.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾؛ أي: لا يُميتُونَ أحدًا ولا يُحيُونَه، والنُّشورُ: الإحياءُ بعد الموتِ.

* * *

(٤) - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾؛ أي: ما هذا الذي جاءَ به محمَّدٌ إلّا إفكٌ اختلَقَه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وأعانَ محمَّدًا ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ ممَّن نظرَ في الكتُبِ المُتقدِّمةِ، وعرَفَ أقاصيصَ الأممِ السّالفةِ.

وذلك أنَّهم قالوا: أعانَ محمَّدًا على هذا عدّاسٌ مولى حُويطبِ بنِ عبدِ العُزَّى، ويسارٌ غلامُ ابنِ الحضرميِّ، وجَبرٌ مولى عامرٍ، وكان هؤلاء الثّلاثةُ من أهلِ الكتابِ[1].

والافتِراءُ: الكذبُ العظيمُ، من قولِه: «فلانٌ يَفرِي الفَرِيَّ»، إذا عمِلَ عملًا يُبالغُ فيه.

وقيلَ: من قولِهم: «فَرَيْتُ»؛ أي: قطَعْتُ، وهو كما يُسمَّى الكذبُ اختِلاقًا.

﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ أي: أتَوا ظلمًا وكذبًا؛ أي: وصَفُوا كلامَ الله بالكذبِ، فقد قالوا قولًا عظيمًا، وظَلَموا بهذا القولِ.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٢٢٦)، وذكر أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث.

وقيلَ: يرجعُ الظُّلْمُ إلى ما قالوه في النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والزُّورُ إلى ما قالوه في القرآنِ من أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ.

وأصلُ الزُّورِ منَ الزَّوْرِ، وهو الصَّدرُ، والزَّوَرُ: ميلٌ في توسُّطِ الصَّدرِ، فالقولُ الزُّورُ: المائلُ عن القصدِ.

وقيلَ: الزُّورُ: القوَّةُ، فيُسمَّى الباطلُ زُورًا لأنَّه قَوِيَ حتَّى تصوَّرَ بصورةِ القويِّ وهو في نفسِه ضعيفٌ.

وقيلَ: أي: قال المُشركونَ: هذا الذي قالَه محمَّدٌ مع النَّفرِ الثَّلاثةِ ظلمٌ وزورٌ.

***

(٥) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هذا القرآنُ أحاديثُ الأوَّلينَ، نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ، كان يقولُ للمشركينَ: هذا كما كنتُ أُحدِّثُكم عن رستُم وإسفنديار(١).

فـ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: الذي جاءَ به محمَّدٌ أساطيرُ مـمَّا سطَّرَه الأوَّلونَ مـمَّا لا تحقيقَ لها.

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾؛ أي: انتَسَخَها محمَّدٌ من عدَّاسٍ ويسارٍ وجبرٍ، ومنَ اليهودِ، ومعنى «اكتَتَبَ»: أمرَ أن تُكتَبَ له؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لـم يكُنْ كاتبًا؛ أي: أمَرَ هؤلاءِ أن يكتبُوه له.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٢٢٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٩٩) من طريق محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تُمْلَلُ، فأُبدِلَتِ اللامُ الأخيرةُ ياءً هرَبًا من التَّضعيفِ، كقولِهم: «تظنَّيتُ»، و:

تَقَضِّيَ البازي إذا البازي كَسَرْ(١)

أي: فهي تُمْلَى عليه لتُحفظَ.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: غدوةً وعشيًّا؛ أي: يُعلِّمُونه طرَفَي النَّهارِ.

***

(٦) ـ ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: قُلْ يا محمَّدُ: أنزلَ هذا القرآنَ الذي يعلمُ السِّرَّ، فهو عالمُ الغيبِ فلا يحتاجُ إلى مُعلِّمٍ، ولو كان مأخوذًا من أهلِ الكتابِ وغيرِهم لَمَا زادَ على كتُبِهم، وقد جاء القرآنُ بغيوبٍ تخرجُ عنها، فقد بطلَ الاعتراضُ من هذا الوجهِ.

وأيضًا لو كان مأخوذًا من هؤلاءِ لتمكَّنَ المُشركونَ منه أيضًا كما تمكَّنَ محمَّدٌ ﷺ، فهلَّا عارَضُوه.

***

---

(١) الرجز للعَجَّاج يمدح عمر بن معمر التيمي، وهو في «ديوانه» (ص: ٨٣)، و«الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقطرب (ص: ٣٠)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٢٨٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٣٢)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٤٢٣)، وقبله:

إذا الكرامُ ابتدروا الباعَ بَدَرْ

يصفه بالكرم وأنه لحرصه على السبق للمكارم يسرع إليها إسراع بازٍ رأى صيداً فانقض عليه، و«ابتدروا» بمعنى: بادروا، والباع: الذراع وقدر مدِّ اليدين، وهو مجاز هنا عن الإحسان، و«كسر» بمعنى: ضم جناحيه للنزول. انظر: «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٨/ ٣٢٦).

(٧) ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ ذكرَ شيئًا آخرَ من مطاعنِهم؛ أي: قالوا: ما لِـهذا الذي يزعمُ أنَّه رسولُ الله؟ وهذا استهزاءٌ منهم، أو: ما لِـهذا الرَّسولِ عند نفسِه وفيما يدَّعيه؟

﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾؛ أي: أنكَرُوا أن يكونَ رسولُ الله بشرًا يحتاجُ إلى الطَّعامِ.

﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾؛ أي: يتردَّدُ كما يتردَّدُ البشرُ في الطُّرقات، فأيُّ فضلٍ له علينا؟

وقيلَ: أرادُوا أنَّه فقيرٌ يحتاجُ إلى طلبِ المعاشِ لنفسِه بالتَّردُّدِ في الأسواقِ، ولهذا قال: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ليستغنيَ عن طلبِ المعاشِ؛ أي: عابُوه بأنَّه ليس بمَلِكٍ ولا ملَك.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾؛ أي: يُنذِرُ معه كما يُنذِرُ هو.

***

(٨) ـ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾؛ أي: هلَّا يُلقَى إليه كنزٌ، فهو عطفٌ على الاستفهامِ.

وقيلَ هذا، ثمَّ قيلَ: عَنَوا: هلَّا يُلقَى إليه كنزٌ ليقسِمَه بيننا، أو: هلَّا أُلقِيَ إليه كنزٌ ليستغنيَ به؛ لأنَّه إنَّما يفعلُ ما يفعلُ طلبًا للدُّنيا.

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؛ أي: بستانٌ ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾؛ أي: من ثمارِها.

وقُرئ: ﴿نأكُلُ﴾ بالنُّون[1].

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: المُشرِكُونَ الذين ظلـمُوا أنفُسَهم بالشِّركِ؛ أي: قـالوا للمسلمين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ أي: ما تتَّبعُونَ إلّا رجلًا زائلَ العقلِ قد سحَرَتْه الشَّياطينُ فهو يتكلَّمُ بما لا يَعقلُ.

وقيلَ: مسحورًا يُخيَّلُ إليه الشَّيطانُ ملَكًا، وكلامُ الشَّيطانِ وحيًا.

وقيلَ: المسحورُ الذي يُعلَّلُ بالطَّعامِ والشَّرابِ.

***

(٩) ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾؛ أي: كيف وصَفُوا لك الأشياءَ منَ المُفتَرِي، والمُمْلَى عليه، والمسحورِ، والمجنونِ، والشّاعرِ.

﴿فَضَلُّوا۟﴾؛ أي: تحيَّـروا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ أي: مـا يجـدُونَ شـيئًا يسـتقِرُّون عليـه.

وقيلَ: أي: انظُرْ حتَّى تعرِفَ تناقُضَ قولِـهم؛ فإنَّهم قالوا: إنَّك مُفترٍ، ثمَّ قالوا: اكتَتَبَها، وهذا ضدُّ الافتِراءِ؛ لأنَّ ما اكتتَبَه بإملاءِ غيرِه إنْ كان قربةً فالمُفتَرِي هو المُمْلي دونَه.

وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾، ولو أُنزِلَ إليه وأُلقِيَ لـم

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي، والباقون بالياء. انظر «السبعة» (ص: ٤٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

يخرُجْ بذلك من أن يكونَ إنسانًا يأكلُ ويمشي في الأسواقِ، ولو أُنزِلَ إليه ملَكٌ أو جبَّارٌ يُجعَلُ جسدًا مُشاهَدًا يُكلِّمُ النّاسُ ويُكلِّمُونَه، فيصيرُ سبيلُه سبيلَ محمَّدٍ ﷺ، فلا بدَّ من تصحيحِ الدَّعوَى بالمُعجِزاتِ، وقد جاء محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالمُعجِزاتِ.

ثـمَّ مـا التمَسُـوه منَ الكنـزِ والجنّةِ ليس فيـه ما يُوجِـبُ صِدْقًا ولا كذبًـا، وإنَّما يبعثُ الله الرُّسـلَ للدُّعـاءِ إلى دينِه لا لاكتسـابِ الدُّنيا.

ثمَّ رمَوه بالسِّحرِ، والسِّحرُ تخييلٌ، وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُرَى بالمُشاهَدةِ ويُعلَمُ بالحسِّ سلامةُ عقلِه وحواسِّه، وكانَ يظهرُ بأدنى تأمُّلٍ براءةُ حواسِّه[1] عن كلِّ ما قدَحُوا فيه به، وأيُّ سحرٍ في كلامٍ عجزَ أربابُ الفصاحةِ عن الإتيانِ بسورةٍ مثلِه؟ وأيُّ سحرٍ في جذعٍ يحنُّ وهم يستمِعُون؟ وطعامٍ بقَدْرِ جسمِ قطاةٍ يأكلُ منه الخلقُ الكثيرُ ويشبعونَ منه؟

فهـذا وجـهُ النَّظرِ فـي قولِـه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾؛ أي: مَن نظرَ عرفَ بُطلانَ قولِـــهم.

***

(١٠) ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾.

قولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تعالى الله الذي إنْ شاء جعلَ لك خيرًا منَ الجنّةِ الواحدةِ التي سألوها والكنزِ الذي ذكروه بساتين وقصوراً؛ إذ ليس ما عظَّموه عظيمًا عند الله تعالى، وهو قادرٌ على أن يُعطيَكَ خيرًا

---

(١) في (أ) رسمها: «خانته» دون نقط في النون والتاء، ولعل المثبت هو الأقرب للمراد.

منها وأكثرَ كما أعطى سُليمانَ، ولكنْ لا أثرَ للدُّنيا كانت أو عُدِمَتْ في النُّبوّةِ.

ثمَّ قيلَ: أرادَ: إن شاءَ جعلَ لك ذلك في الدُّنيا لأنَّه قد شاءَ أن يجعلَ له ذلك في الآخرةِ.

وقيلَ: أرادَ: في الآخرةِ، وبيَّنَ أنَّه قادرٌ على أن يُعطِيَه أضعافَ ما ذكروا على حسبِ مشيئتِه، ونبَّه بما ذكرَ على أنَّه قادرٌ على أن يُعطِيَه الكنوزَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: لمَّا عيَّروا رسولَ الله ﷺ بالفقرِ وقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾؟ نزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ وقال: ربُّ العزّةِ يُقرِئُكَ السَّلامَ، ويخصُّكَ بالتَّحيّةِ والإكرامِ، ويقولُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾؛ أي: يبتَغُونَ المعاشَ في الدُّنيا، فبينا جبريلُ يُحدِّثُ النَّبيَّ صلَّى الله عليهما إذ ذابَ جبريلُ حتى صارَ مثلَ الـهُرْدةِ، قيلَ: يا رسولَ الله، وما الـهُرْدةُ؟ قال: «العَدَسةُ»، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما لك ذُبتَ حتَّى صرتَ مثلَ الـهُرْدةِ؟» قال: فُتِحَ بابٌ منَ السَّماءِ لـم يكُنْ فُتِحَ قبلَ ذلك، وإنِّي أخافُ أن يُعذَّبَ قومُكَ لتعييرِهم إيّاكَ بالفاقةِ، فأقبلَ جبريلُ والنَّبيُّ عليهما السَّلامُ يبكيانِ، إذ عادَ جبريلُ إلى حالِه، فقال: أبشِرْ يا محمَّدُ هذا رضوانُ خازنُ الجنّةِ أتاكَ بالرِّضا من ربِّكَ، فأقبلَ رضوانُ حتَّى سلَّمَ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، ربُّ العزَّةِ يُقرِئُكَ السَّلامُ، ومعَه سَفَطٌ من نورٍ يتلألأُ، ويقولُ ربُّكَ: هذه مفاتيحُ خزائنِ الدُّنيا، ولا يُنتَقَصُ لك مـمَّا عندي في الآخرةِ مثلُ جناحِ بعوضةٍ، فنظرَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ إلى جبريلَ كالمُستبشِرِ، فضربَ جبريلُ بيدِه على الأرضِ، فقال: تواضَعْ لله، فقال: «يا رضوانُ، لا حاجةَ لي فيها، الفقرُ أحبُّ إليَّ، وأن أكونَ عبدًا صابرًا شكورًا»، فقال رضوانُ: أصَبْتَ أصابَ الله بك، وجاءَ نداءٌ منَ السَّماءِ، فرفعَ جبريلُ رأسَه فإذا السَّماواتُ قد فُتِحَتْ أبوابُها إلى العرشِ، وأوحَى الله إلى جنّةِ عدنٍ أن تُدلِّيَ غُصنًا من أغصانِها

عليه عِذْقٌ عليه غُرفةٌ من زبرجدةٍ خضراءَ لـها سبعونَ ألفَ بابٍ من ياقوتةٍ حمراءَ، فقال جبريلُ: يا محمَّدُ، ارفَعْ بصرَكَ، فرفعَ فرأى منازلَ الأنبياءِ وعرَفَهم، فإذا منازلُه فوقَ منازلِ الأنبياءِ فضلًا له خاصّةً، وإذا مُناديًا يُنادي: أرَضِيتَ يا محمَّدُ؟ فقال عليه الصَّلاةُ: «رضيتُ، فاجعَلْ ما أردتَ أن تُعطيَني في الدُّنيا ذخيرةً عندَكَ في الشَّفاعةِ يومَ القيامةِ»(١).

وقيلَ: هذه الآيةُ التي هي: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ ﴾ أنزلَـها رضوانُ(٢).

﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: مـمَّا قالوه.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ قُـرِئَ: ﴿ويَجْعَلُ﴾ برفعِ اللّامِ عـلى الابتداءِ، وقُرِئَ: ﴿وَيَجْعَل﴾ بالجزمِ(٣) عطفًا على موضعِ ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾؛ لأنَّ معناه: إنْ يشَأْ يجعَلْ لك.

﴿قُصُورًا﴾؛ أي: بيوتًا مبنيّةً مُشيَّدةً.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٦٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٢)، من طريق إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسحاق بن بشر كذاب، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

وروى ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٦) من طريق حبيب بن أبي ثابت، عن خيثمة قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيناك مفاتح الأرض وخزائنها لا ينقصك ذلك عندنا شيئاً في الآخرة، وإن شئتَ جمعتها لك في الآخرة، قال: «لا بل اجمعها لي في الآخرة» فنزلت: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ ﴾ الآية.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٦٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٣)، عقب الخبر السابق دون إسناد ولا نسبة.

(٣) قرأ بالرفع ابن كثير وأبو بكر وابن عامر، والباقون بالجزم. انظر «السبعة» (ص: ٤٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

قال مُجاهدٌ: كانت قريشٌ ترى البيتَ من حجارةٍ قصرًا كائنًا مّا كانَ[١].

والقصرُ في اللُّغةِ: الحبسُ، وسُمِّيَ القصرُ قصرًا؛ لأنَّ مَن فيه مقصورٌ عن أن يُوصَلَ إليه.

وقيلَ: العربُ تُسمِّي بيوتَ الطِّينِ القصرَ، وما يُتَّخذُ منَ الصُّوفِ والشَّعرِ البيتَ.

***

(١١ ـ ١٤) ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾؛ أي: ليس بهم في تكذيبِك أنَّكَ تأكلُ الطَّعامَ والشَّرابَ، وأنَّه ليس لك كنزٌ وجنَّةٌ، ولكنَّ الذي بهم أنَّهم لا يُؤمِنُونَ بالسّاعةِ، فالدّاعي إلى إنكارِ النُّبوّةِ تكذيبُهم بالبعثِ، ويُموِّهُونَ على الضَّعفةِ بأنَّ هذا الرَّسولَ بشرٌ يحتاجُ إلى الطَّعامِ.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾؛ أي: بيومِ القيامةِ ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: نارًا مُتلظِّيةً.

قولُه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾؛ أي: النّارُ، وإلّا فلفظُ السَّعيرِ مُذكَّرٌ، وفي الخبرِ: «مَن تَقَوَّلَ عليَّ ما لم أَقُلْ فليتبَوَّأ بينَ عينَي جهنَّمَ مقعدًا»، فقيلَ: يا رسولَ الله، وهل لها عينانِ؟ قال: نعم، ألم تسمَعُوا إلى قولِه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٧)، عن خالد بن دريك عن رجل من الصحابة، وهو منقطع لأن ابن دريك ذكره ابن حبان في أتباع التابعين. ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٩٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع =

وقيلَ: يعني: أنَّ خُزّانَ جهنَّم إذا رأوا هؤلاءِ المُشركينَ سمعَ المُشركونَ لـهم تغيُّظًا وزفيرًا عليهم لحِرصِهم على تعذيبِهم، فهو كقولِه: ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَها.

وقيلَ: إذا رأَتْهم؛ أي: ظهرَتْ لهم، كما تقولُ العربُ: «إذا راآكَ الخيلُ فخُذْ عن يمينِكَ»؛ أي: إذا ظهرَ لك وحاذاكَ، و«ديارُ بني فلانٍ تتناظَرُ»؛ أي: تتحاذَى.

﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾؛ أي: للنّارِ ﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾؛ أي: صوتَ غلَيانٍ والتهابٍ كالتِهابِ الرَّجلِ المُغتاظِ، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]؛ أي: تتقطَّعُ عليهم غيظًا.

وقيـلَ: أي: سـمِعُوا فيهـا تغيُّظًـا وزفيـرًا للمُعذَّبيـن، كمـا قـال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هـود: ١٠٦]، و«فـي» والـلامُ يتقارَبـانِ، تقـولُ: «أفعَـلُ هذا فـي الله ولله».

﴿مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: من مسيرةِ مئةِ عامٍ.

والتَّغيُّظُ: الاغتِياظُ، واغتاظَ عليه؛ أي: تغيَّرَ عليه، وتغيَّظَتِ الهاجرةُ؛ أي: اشتَدَّ حَـمْيُها.

والزَّفيرُ: آخرُ شهيقِ الحمارِ.

= الزوائد» (١/ ١٤٨): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه الأحوص بن حكيم، ضعفه النسائي وغيره، ووثقه العجلي ويحيى بن سعيد القطان في رواية، ورواه عن الأحوص محمد بن الفضل بن عطية ضعيف». وقال الذهبي في «الضعفاء» (٣٩٣٠) عن الفضل بن عطية: متروك باتفاق.
وأول هذا الحديث متواتر: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ولبعضه شاهد عند الترمذي (٢٥٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «يخرُجُ عُنُقٌ من النار يوم القيامة، له عينان تُبْصِران، وأُذُنان تَسمَعَان، ولِسانٌ ينطِقُ، يقول: إني وكِّلْتُ بثلاثة، بمن جَعَلَ مع الله إلهاً آخر، وبكل جبَّار عنِيد، وبالمصورين»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

قال الكلبيُّ: سمِعُوا لها تغيُّظًا كتغيُّظِ بني آدمَ، وصوتًا كصوتِ الحمارِ(١).

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، سمِعُوا لـها زفيرًا، وعلِمُوا لـها تغيُّظًا.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا﴾؛ أي: من جهنَّمَ ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: يضيقُ عليهم المكانُ كما يضيقُ الزُّجُّ في الرُّمحِ(٢).

وسُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن هذه الآيةِ فقال: «والذي نفسي بيدِه إنَّكم تُستكرَهُونَ في النّارِ كما يُستكرَهُ الوتدُ في الحائطِ»(٣).

وقيلَ: يرفعُ اللَّهَبُ الأسفَلينَ منهم، ويخفِضُ اللَّهَبُ الأعلَينَ منهم، فيزدَحِمُونَ في تلك الأبوابِ الضَّيِّقةِ، فعند ذلك يدعُونَ بالثُّبورِ.

﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾؛ أي: إذا أُلقوا منها في مكانٍ.

وقيلَ: إذا أُلقوا منها مُلقًى ضيِّقًا(٤).

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿ضَيْقًا﴾ بفتحِ الضّادِ مُخفَّفةً(٥)، مثلَ «هيِّنٍ وهَيْنٍ».

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ أي: في الأغلالِ والسَّلاسلِ؛ أي: قُرِنَتْ أيديهم إلى أعناقِهم.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٢٤).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٠)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٨) عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه ابن وهب في «جامعه ـ التفسير» (٢٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٧١)، عن يحيى بن أبي أسيد عن النبي ﷺ. وهو مرسل.

(٤) قولـه أولًا: «في مكان» يعني أن ﴿مَكَانًا﴾ ظرف مكان، ثم قولـه في القيـل: «ملقى ضيقاً» يعني أن ﴿مَكَانًا﴾ مصدر على غير لفظ الصدر.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

وقيلَ: قُرِنُوا مع الشَّياطينِ، كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾؛ أي: نادَوا ثُبورًا.

قولُه تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾؛ أي: يُقالُ لهم ذلك.

﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فإنَّ هلاكَكُم أكثرُ من أن تدعُوا مرّةً واحدةً.

وقال ﴿ثُبُورًا كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ المصادرَ لا تُجمَعُ، وهو كقولِك: «ضرَبَه ضربًا كثيرًا، وقعدَ قعودًا طويلًا».

و«ثَبَرَ الرَّجلُ»؛ أي: هلَكَ؛ و«ما ثَبَرَكَ عن هذا؟»؛ أي: ما صرَفَكَ عنه.

والمُثابِرُ: المُلِحُّ على الشَّيءِ المُلازِمُ له، والثُّبورُ: الـهَلاكُ اللّازِمُ الذي لا يزولُ.

نزلتِ الآياتُ في أبي جهلٍ وأصحابِه[1].

***

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ لا خيرَ في النّارِ، ولكنَّه بيَّنَ تفاوُتَ ما بينَ المنزلَينِ.

﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: وُعِدَ الذي يتَّقي الشِّركَ دُخولَـها، أو الخلودَ فيها، ولـهذا لـم يقُلْ: «وُعِدَتْ»[2].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٢٨) عن الكلبي.

(٢) يريد أن قوله: ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ المراد به: وعد المتقون دخولها، أو نزولها، أو الخلود فيها، وما أشبه هذا مما يؤدي هذا المعنى، وبهذا التقدير تتم صلة الموصول وتمام المعنى، ولهذا ذكر قوله: ﴿وُعِدَ﴾ ولم يقل: «وعدت»؛ لأن الموعود دخولها. انظر: «البسيط» (١٦/ ٤٢٩).

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾؛ أي: ثوابًا ومرجِعًا.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: لا يخرُجُونَ منَ الجنّةِ ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾؛ أي: كانَ دخولُها وعدًا ضمِنَ الله لهم ووَعَدَهم، فأمرَ عبادَه أن يسألُوه ويَستنجِزوه وإنْ كانَ لا خُلفَ في وعدِه.

قال الكلبيُّ: وعدَ الله المُؤمنينَ الجنّةَ، فسألوه ذلك الوعدَ فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]؛ أي: على لسانِ رُسلِكَ[١].

وقيلَ: إنَّ الملائكةَ تسأَلُ لهم في الجنّةِ، قال الله تعالى إخبارًا عنهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ الآية [غافر: ٨].

وقيلَ: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾؛ أي: واجبًا مـمَّا يُسأَلُ وإنْ لـم يُسأَلْ، وهذا الوجوبُ بحُكمِ وعدِ الله الذي لا مَيْنَ فيه.

* * *

(١٧ ـ ١٩) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: واذكُرْ يومَ يحشرُهم، أو: دَعَوا هنالِكَ ثُبورًا يومَ يحشرُهم.

﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: يجمَعُهم؛ أي: المُشركينَ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عيسى وعُزَيرًا والملائكةَ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٣٠).

ويجوزُ أن يُخبرَ بـ«ما» عن الحيوانِ، كقولِه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وتقولُ: «ما رأيتَ؟» فيقولُ المُخاطَبُ: «فلانًا».

وقيلَ: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾؛ أي: الأصنامَ.

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المُشركينَ ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ من غيرِ إضلالٍ منكم، وهذا استفهامُ توبيخٍ.

وقُرِئَ: ﴿ويومَ نحشُرُهم﴾ بالنُّونِ[1].

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ أي: أنتَ مُنزَّهٌ عن الشُّركاءِ ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ أي: لا يجوزُ لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ بعبادتِهم لنا؛ أي: ما تولَّيناهُم، ولا أحبَبْنا عبادتَهم، أو: ما كانَ لنا أن نتَّخِذَ مَن يوالينا فيُعيذُنا دونَكَ.

﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ ﴿مِنۡ﴾ للجنسِ.

وقيلَ: أي: نحنُ وهم عبيدُكَ، وليس للعبيدِ أن يتَّخِذُوا دونَكَ أولياءَ، وأضافُوا إلى أنفُسِهم وعَنَوا الكفّارَ، وقد يُضيفُ الرَّجلُ الشَّيءَ إلى نفسِه وهو يعني غيرَه.

ورُوِيَ عن أبي جعفرٍ ويعقوبَ: ﴿أن نُتَّخَذَ﴾ بضمِّ النُّونِ[2]، وفيه استِكراهٌ؛ لأنَّكَ تقولُ: «ما اتَّخذتُ من أحدٍ وليًّا»، ولا يُقالُ: «ما اتَّخذتُ أحدًا من وليٍّ»، وقال الله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، ولا يُقالُ: «ما أحدٌ عنه من حاجزينَ».

---

(١) قرأ ابن كثير وحفص: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ بالياء والباقون بالنُّون، وقرأ ابن عامر: ﴿فنَقُولُ﴾ بالنون والباقون بالياء. انظر «السبعة» (ص: ٤٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٣) عن أبي جعفر وحده، والمشهور عن يعقوب كباقي العشرة.

ومَن قرأ به جعَلَ ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ هو الاسمَ، وجعلَ الخبرَ ما في ﴿نَّتَّخِذَ﴾ على القلبِ[1].

وقيلَ: أي: ما كان ينبَغي لنا أن نعبُدَ غيرَكَ، فكيف ندعُو أحداً إلى عبادتِنا، وذلك أنَّهم كانوا لا يرَونَ عبادةَ غيرِ الله، فكيف يدعُونَ غيرَهم إلى عبادتِهم.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: لم يعبُدونا لأنَّا أمَرْناهم بذلك ودَعَوناهم إليه، ولكنْ لمَّا طالَ عمرُهم وعمرُ آبائِهم في الدُّنيا ممتَّعينَ بالمالِ والصِّحّةِ والجاهِ نسُوا ذكرَكَ فأشرَكُوا بكَ بَطَرًا وجهلًا.

وقيلَ: لمَّا طالَ عهدُهم بالرَّسولِ ترَكُوا الذِّكرَ، وهو الكتابُ الذي أُنزِلَ على الرَّسولِ.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾؛ أي: هَلْكى، هلَكُوا بسببِ ذلك النِّسيانِ.

وقيلَ: هلَكُوا بغلبةِ الشَّقاوةِ عليهم.

وقيلَ: الذِّكرُ المنسيُّ هاهُنا: الموعظةُ، والبائرُ: الفاسدُ الذي لا خيرَ فيه، وقيلَ: الكاسدُ، من قولِكَ: «بارَتِ السُّوقُ»؛ أي: كسَدَتْ.

وهو الوصفُ كوصفِهم بقولِه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]؛ أي: قَدْرًا؛ فإنَّ الشَّيءَ الكاسدَ لا قَدْرَ له؛ لأنَّه لا يُرغَبُ فيه.

و«البورُ»: جمعُ بائرٍ، مثلَ هودٍ وهائدٍ، وعُودٍ وعائدٍ.

وقيلَ: «البورُ» مصدرٌ يكونُ واحدًا وجمعًا.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٤)، و«البسيط» (١٦/ ٤٣٧) وعنه نقل المصنف.

وقال أبو عُبيدةَ: رجل بورٌ، ورجلانِ بورٌ، وقومٌ بورٌ، وكذلك الأُنثَى[1]، فهو وصفٌ للواحدِ والجمعِ على هذا.

قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ هذا من قولِ الله تعالى للمُشركينَ؛ أي: فقد كذَّبَكُم الملائكةُ في قولِكم إنَّهم أربابٌ يريدونَ عبادتَكم إيّاهم.

وقُرِئَ: ﴿بما يقولون﴾ بالياءِ[2]؛ أي: بقَولِهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ﴾.

وقيلَ: هذا خطابٌ منَ الله لرسولِه والمؤمنينَ؛ أي: إنَّ المُشركينَ كذَّبوكم فيما تقولونَ منَ الحقِّ والإيمانِ بالله تعالى.

﴿فما يَسْتَطِيعونَ صَرْفاً﴾؛ أي: ما يستطيعُ الشُّركاءُ والمعبودونَ صرفَ العذابِ.

وقُرِئَ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بالتّاءِ[3]؛ أي: ما تستطيعُونَ أيُّها المُتَّخِذُونَ الشُّركاءَ صرفًا ولا نصرًا؛ يعني: صرفَ العذابِ.

وقيلَ: الصَّرفُ: الحيلةُ، وفلانٌ يتصرَّفُ؛ أي: يحتالُ، ويُقالُ للمُحتالِ: صَيرَفٌ وصَيْرَفيٌّ.

﴿وَلَا نَصْرًا﴾؛ أي: ولا أن ينصُروا أنفُسَهم في دفعِ العذابِ.

وقيلَ: لا ينصُرُ المشركونَ بعضُهم بعضًا، كقولِه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

وقيلَ: أي: فقد كذَّبَكم أيُّها المؤمنون هؤلاءِ المُشركونَ ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾

---

(١) ذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ٧٣) عن بعضهم.

(٢) قرأ بها قنبل بخلف عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٣) وقد نص ابن مجاهد على سماعها من قنبل عن أبي بزة عن ابن كثير. وذكرها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٦٤) دون نسبة.

(٣) قرأ بها حفص والباقون بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٣).

لكم ﴿صَرۡفٗا﴾ عن الحقِّ الذي هداكُم الله له ﴿وَلَا نَصۡرٗا﴾ لأنفُسِهم مـمَّا ينزلُ بهم منَ العذابِ بتكذيبِهم إيّاكم.

﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: مَن يُشرِكْ منكم ثمَّ ماتَ عليه ﴿نُذِقۡهُ﴾؛ أي: في الآخرةِ ﴿عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾؛ أي: شديدًا[1]، كقولِه: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٤]؛ أي: شديدًا.

وقيـلَ في أصلِ الآيـةِ ـ وهو قولُـه: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ ـ: إنَّهم الجنُّ والشَّـياطينُ وكفّـارُ الإنـسِ، يعترِفُـونَ علـى أنفُسِـهم بالضَّـلالِ، ويقولـونَ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن﴾ نفعـلَ مـا فعَلْنـا وأن ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ أوليـاءَ، ثـمَّ قـال كلُّ واحـدٍ منهـم: هـؤلاءِ الكفّـارُ طالَ تمتُّعُهـم بالدُّنيا فأعرَضُـوا عن التَّدبُّـرِ وضلُّوا وهلَكُـوا، ثمَّ يقولُ للمُشـركينَ الـذي اتَّبعـوا هـؤلاءِ الشَّـياطينَ: قد كذَّبكـم الشَّـياطينُ فيما كنتُـم ترَونَه حقًّـا مـن طاعتِهم.

***

(٢٠) ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عـادَ الكلامُ إلى تسـليةِ النَّبيِّ ﷺ؛ أي: مـا أرسَـلْنا قبلَـكَ رسـولًا ممَّـن تواترَ الخبـرُ عند المُشـركينَ بهـم إلّا وهم بشـرٌ يأكلُـونَ كمـا يأكلُ محمَّـدٌ، ويتصرَّفُـونَ كما يتصـرَّفُ، ولـو كان الرَّسـولُ ملَكًا لـكانَ مـن مُجوِّزاتِ العقـلِ، ولكن كونُه من البشـرِ [لا يُنافي النبـوَّةَ؛ لأنَّ المدارَ على المعجـزات سـواءٌ كان ملَـكاً أو بَشـراً؛ لأنَّـه لـو كان ملَـكاً لأتاهـم في صورةِ البَشـر

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٤١) عن ابن عباس ومقاتل.

فيَحتـاجُ إلى المعجزات، على أنَّ الرسـولَ إذا كان مِن البَشَـر][(١)] كانت قلوبُ البشـرِ أميلَ إليه؛ للجنسـيّةِ.

ثمَّ، الملَكُ لا يُشاهَدُ في العُرفِ إلّا أن يُجعَلَ في صورةِ بشرٍ ويبقَى.

ثمَّ، الاعتراضُ محالٌ، والمخلوقُ لا يخلُو من حاجةٍ ومنافعَ بها قِوامُه، فدفعُ الرِّسالة بوقوعِ الحاجةِ دفعٌ للرِّسالةِ بالكلِّيةِ، فبانَ أنَّ ما تـمَسَّكوا به كان تعلُّلًا لـم يُثِرْ شُبهةً في الرِّسالةِ.

﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ قال الفرَّاءُ: أي: إلا مَن إنَّهم ليأكلونَ الطَّعامَ، فحُذِفَ الموصولُ، تقولُ: «ما بَعَثْتُ إليكَ منَ النّاسِ إلّا مَن إنَّه لَيُعْطيكَ»، فقولُه: «إنَّه لَيُعطيكَ» صلةُ «مَن»، وجازَ الإضمارُ كما قال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]؛ أي: إلا مَن له، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أي: ما منكم إلّا مَن هو وارِدُها[(٢)]. وهذا قولُ الكسائيِّ[(٣)].

وقال الزَّجّاجُ: أي: ما أرسَلْنا رُسلًا إلّا إنَّهم ليأكُلونَ الطَّعامَ، فحُذِفَ «رُسلًا» لأنَّ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دليلاً على ما حُذِفَ[(٤)].

---

(١) ما بين معكوفتين من «التفسير المختصر» للمصنف (ورقة ٢١٦/ أ).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٤).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٨٣).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٦٢)، وفيه: «فأما دخول «إنهم» بعد «إلا» فهو على تأويل ما أرسلنا رسلاً إلا هم يأكلون الطعام، وإلا أنهم ليأكلون الطعام، وحذفت رسلاً لأن «من» في قوله تعالى (من المرسلين) دليل على ما حذف منه».

فالموصـوفُ محـذوفٌ عند الزَّجَّـاجِ، ولا يجـوزُ [عنده][1] حـذفُ الموصولِ وتبقيـةُ الصِّلـةِ، وعند الفـرّاءِ الموصولُ هـو المحذوفُ.

وقال ابنُ الأنباريِّ: كُسِرَتْ ﴿إِنَّهُمْ﴾ بعد ﴿إِلَّآ﴾ للاستئنافِ بإضمارِ واوٍ؛ أي: «وإنهم»، كقولِه: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: «أو وهم قائلون»[2].

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾؛ أي: الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ، وقد أحوَجَ بعضَ الخلقِ إلى الخلقِ، فمِن غنيٍّ وفقيرٍ ثمَّ كلٌّ بشرٌ، فكذلك رسولٌ ومُرسَلٌ إليه، والاحتياجُ إلى الأكلِ وغيرِه ممَّا لا يُنافي الرِّسالةَ، وإذا جازَ أن يتفاضَلَ الخلقُ في الغِنَى والفقرِ فلِمَ لا يجوزُ أن يتفاضَلُوا في النُّبوّةِ؟

وقيلَ: هذا في رُؤساءِ المُشركينَ وفقراءِ الصَّحابةِ؛ فإنَّ الفقراءَ جُعلُوا فتنةً للأغنياءِ، فكانوا يقولون: أنُسلِمُ لنكونَ مثلَ هؤلاءِ الفقراءِ؟!

وقيلَ: هذا لفظٌ عامٌّ في جميعِ الخلقِ.

وقيلَ: يعني: أنَّ أصحابَ البلاءِ يقولونَ: لِـمَ لـمْ نُعافَ؟ فالأعمَى يقولُ: لِـمَ لَـم أُجعَلْ كالبصيرِ؟ وهكذا كلُّ صاحبِ آفةٍ.

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؛ أي: على استهزاءِ المُشركينَ، أو تفضيلِ البعضِ على البعضِ.

ولمَّا صبرَ المسلمونَ نزلَ فيهم: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ [المؤمنون: ١١١]؛ أي: في الدُّنيا.

---

(١) زيـادة يقتضيهـا السـياق. انظـر: «البسـيط» (١٦/ ٤٤٤)، وهذه من مسـائل الخلاف بيـن الكوفيين والبصرييـن كما ذكـر الواحدي.

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٤٥).

وقيلَ: ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾؛ أي: اصبِرُوا، كقولِه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؛ أي: انتهُوا، فهو أمرٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالصَّبرِ.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾؛ أي: بكلِّ مرئيٍّ.

* * *

(٢١) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ ذكرَ مُتعلَّلَهم أنَّهم قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حتَّى يشهَدُوا لمحمَّدٍ بالصِّدقِ، أو: هلّا جعَلَ الرَّسولَ منَ الملائكةِ دونَ البشرِ ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾؛ أي: عِيانًا ليُخبرَنا برسالةِ محمَّدٍ، ووصفَ هؤلاءِ القائلين بأنَّهم لا يرجُونَ لقاءَ الله تعالى؛ أي: لا يُؤمِنُونَ بالبعثِ.

﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: بهذا التَّحكُّمِ وقد أُزيحَتْ عللُهم بالمُعجِزاتِ وهذا القرآنِ، فإذا لم يكتَفُوا بها فكيفَ بالملائكةِ الذين لم يُشاهِدُوهم، ولا يُميِّزونَ بينَهم وبينَ الجنِّ والشَّياطينِ، ولا بدَّ لهم من مُعجزةٍ يُقيمُها مَن يدَّعي أنَّه ملَكٌ، وليس للقومِ طلَبُ مُعجزةٍ، وإنْ كانوا يطلُبونَ العلمَ الضَّروريَّ فلا سبيلَ إليه اليومَ.

﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾؛ أي: علَوا في القولِ علُوًّا شديدًا؛ لأنَّهم طلبُوا الرُّؤيةَ في الدُّنيا عنادًا وجُحودًا.

والعُتُوُّ: مُجاوَزةُ القَدْرِ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾؛ أي: إذا رأوا الملائكةَ ـ وهو يومُ القيامةِ ـ ﴿لَا بُشْرَىٰ ﴾ لهم ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾.

وانتصَبَ ﴿ يَوْمَ ﴾ بتقديرِ: «لا بُشرَى يومَئذٍ للمُجرمينَ يومَ يرَونَ الملائكةَ»، و(يومَ) تأكيدٌ لـ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾، وليس منصوبًا بـ﴿لَا بُشْرَىٰ ﴾؛ لأنَّ ما اتَّصلَ بـ«لا» لا يعمَلُ فيما قبلَها؛ إذ لا يُقالُ: «زيدًا لا ضاربٌ»، وإن كانَ يُقالُ: «لا ضاربٌ زيدًا»، ولكنْ لمَّا قيلَ: ﴿لَا بُشْرَىٰ ﴾ صارَ كأنَّه قال: «يُمنعُونَ البُشرَى يومَ يرونَ الملائكةَ».

وقيلَ: انتصَبَ ﴿ يَوْمَ ﴾ بتقديرِ: اذكُرْ يومَ، ثمَّ ابتدأ فقالَ: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾؛ أي: الذينَ اجترَمُوا الذُّنوبَ والكفرَ، وكسبُوا أنفسَهم عقابَ الله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾؛ أي: إنَّ الملائكةَ يقولونَ للمُجرمينَ: حرامٌ محرَّمٌ عليكم أن يكونَ لكم اليومَ بُشرَى منَ الله، بل البُشرَى للمُؤمنينَ، كما قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ أي: منعَه إيّاها، وكما قال تعالى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ويُقالُ للحرامِ: «حِجْرٌ»؛ لأنَّه حُجِر على المرءِ تعاطيه.

ويُقالُ: حجَره حَجْرًا؛ أي: منعَه، والاسمُ: الحِجْرُ، وهو اسمُ ما حَجَرْتَ عليه، مثلَ: القَسْرِ والقِسْرِ، والطَّحْنِ والطِّحْنِ، ومنه المثَلُ: «أسمعُ جَعْجَعةً ولا أرى طِحْنًا»(١).

والحِجْرُ: العقلُ؛ لأنَّه يمنَعُ صاحبَه منَ التَّخطِّي إلى القبيحِ.

---

(١) ومعناه: أسمع جلبة ولا أرى عملًا. انظر: «جمهرة الأمثال» (١/ ١٥٤).

والحِجْرُ: الفرسُ الأُنثَى؛ لأنَّها تحجرُ ما انتحَلَ في بطنِها.

وفي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: سألَـهم حِجْرًا محجورًا، أو كان ما يسألُونَ حِجْرًا محجُورًا، والمحجورُ تأكيدٌ كقولِكَ: «حرامٌ مُحرَّمٌ»، وهذا من قولِ الملائكةِ لهم.

وقيلَ: هذا من قولِ المُجرمينَ للملائكةِ، وهي كلمةُ استِعاذةٍ، وكانَتْ معروفةً في الجاهليّةِ، فكانَ إذا لقِي الرَّجلُ مَن يخافُه قال: «حِجْرًا محجُورًا»؛ أي: حرامًا عليكَ التَّعرُّضُ، وانتِصابُه على معنى: «حجَرْتُ عليكَ»، أو: «حجَرَ الله عليكَ»، كما تقولُ: «سَقْيًا ورَعْيًا»؛ أي: إنَّ المُجرمينَ إذا رَأَوا الملائكةَ يُلقُونَهم في النّارِ قالوا: نعوذُ بالله منكم.

وقيلَ: ﴿حِجْرًا﴾ من قولِ المُجرمينَ، و﴿مَّحْجُورًا﴾ من قولِ الملائكةِ؛ أي: قالوا للملائكةِ: نعوذُ بالله منكم أن تتعرَّضُوا لنا، فتقولُ الملائكةُ: «محجُورًا أن تُعاذُوا من شرِّ هذا اليومِ»، قالَه الحسَنُ[١].

❊ ❊ ❊

(٢٣) ـ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ هذا تنبيهٌ على عظيمِ قَدْرِ يومِ القيامةِ؛ أي: قصَدْنا في ذلك اليومِ إلى ما كان يعملُه المُجرِمُونَ من عملٍ من عندِ أنفسِهم، يُقالُ: «قدِمَ فلانٌ إلى أمرِ كذا»؛ أي: قصَدَه.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً﴾ الهباءُ: الذي تُطيِّره الرِّيحُ.

قال اللَّيثُ: الهبوةُ: غبارٌ ساطعٌ في الهواءِ كأنَّه دخانٌ، من «هَبا يَهْبُو هُبُوًّا»[٢]؛

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٥٩).

(٢) انظر: «العين» (٤/ ٩٦)، وذكره عنه الأزهري في «تهذيب اللغة» (٦/ ٢٤٠)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٦٠).

أي: سطَعَ، وأهبا الفرسُ التُّرابَ إِهباءً؛ أي: أثارَه.

وقال أبو عُبيدةَ: الهباءُ مثلُ الغُبارِ يدخلُ البيتَ منَ الكُوّةِ إذا طلعَتِ الشَّمسُ ليس له مُثيرٌ(١).

وقيلَ: الهباءُ: ما تَذْرُوه الرِّياحُ من حُطامِ الشَّجرِ، والمنثورُ: المُتفرِّقُ؛ أي: لم ينتَفِعُوا بشيءٍ من أعمالِـهم، بل أبطَلْناها كالهباءِ المنثورِ الذي لا يُستطاعُ القبضُ عليه، وهو كقولِه تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، وقولِه تعالى: ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقولِه: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد: ١٤].

***

(٢٤) ـ ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾؛ أي: موضعَ قرارٍ في الجنّةِ أو في ظلِّ العرشِ منَ المُشركينَ.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾؛ أي: قرارًا في وقتِ القائلةِ، وليس هناك نومٌ، ولكنَّهم خُوطِبُوا بما اعتادُوا في الدُّنيا كقولِه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]؛ لا أنَّ في الجنّةِ ليلًا، ولكنْ على ما ألِفُوه منَ الأوقاتِ، وأهلُ الدُّنيا يجِدُونَ في القائلةِ راحةً، فالمُرادُ: أنَّ أهلَ الجنّةِ في كمالِ الرّاحةِ، ولا يبعُدُ في العقلِ وجودُ نومٍ في الجنّةِ.

وليس في النّارِ خيرٌ، ولكنْ يجوزُ أن يُقالَ: «الجنّةُ خيرٌ منَ النّارِ»، كما يُقالُ للعاقلِ والجاهلِ: «هذا أعقَلُ الرَّجُلَينِ»، وإنْ لـم يكُنْ للثّاني عقلٌ.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٤٨).

وقال ابنُ عبّاسٍ: لا ينتَصِفُ النَّهارُ من يومِ القيامةِ حتَّى يَقيلَ أهلُ النّارِ في النّارِ، وأهلُ الجنّةِ في الجنّةِ[1].

* * *

(٢٥) ـ ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ هو عطفٌ على قولِه: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقيلَ: قولُه: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ﴾ إشارةٌ إلى رُؤيَتِهم حالةَ الموتِ، وقولُه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ ﴾ إشارةٌ إلى يومِ القيامةِ؛ أي: اذكُرْ يومَ كذا.

﴿تَشَقَّقُ﴾؛ أي: تَتَشَقَّقُ، قُرِئَ بالتَّشديدِ وإدغامِ التّاءِ في الشِّينِ، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[2].

بيَّنَ أنَّ السَّماءَ تتشقَّقُ بالغمامِ الذي بينَها وبينَ النّاسِ، فتشقُّقُ الغمامِ بتشقُّقِ السَّماءِ.

وقيلَ: أي: تتشَقَّقُ السَّماءُ وعليها غمامٌ.

وقيلَ: أي: تتشَقَّقُ السَّماءُ عن الغمامِ، و«على» و«عن» والباءُ بمعنًى واحدٍ، تقولُ: «رمَيتُ عن القَوسِ وبالقَوسِ وعلى القَوسِ» بمعنًى واحدٍ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٦٥) عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، ورواه بنحوه سفيان الثوري في «تفسيره» (ص: ٢٢٦)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٥٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨١) من قول سعيد بن جبير.

(٢) قرأ بتشديد الشين لإدغام التاء فيها ابن كثير ونافع وابن عامر، وباقي السبعة بتخفيف الشين لحذف التاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٣ ـ ١٦٤).

وفي التَّفسيرِ: أنَّه غمامٌ أبيضُ رقيقٌ مثلَ الضَّبابةِ، ولـم يكُنْ إلّا لبني إسرائيلَ في التِّيهِ، فتنشَقُّ السَّماءُ عنه، وهو الذي قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]؛ أي: يأتيَهم الله بظُلَلٍ منَ الغمامِ وتأتيَهم الملائكةُ.

والمُرادُ بالسَّماءِ: السَّماواتُ السَّبعُ.

وقـال ابـنُ عبّـاسٍ: تتشَـقَّقُ سـماءُ الدُّنيـا فينـزِلُ أهلُهـا، وهـم أكثـرُ ممَّـن في الأرضِ مـنَ الجـنِّ والإنسِ، ثمَّ تتشـقَّقُ السَّـماءُ الثّانيةُ فينزلُ أهلُها، وهـم أكثرُ ممَّن فـي سـماءِ الدُّنيـا، ثـمَّ كذلك حتَّـى تتشَـقَّق السَّـماءُ السّـابعةُ، ثـمَّ ينـزِلُ الكَرُوبيُّونَ وحمَلةُ العـرشِ(١).

وهذا معنى قولِه: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾؛ أي: منَ السَّماءِ إلى الأرضِ لحسابِ الثَّقَلَينِ.

قرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿ونُنْزِلُ الملائكةَ﴾ بالتَّخفيفِ ونصبِ ﴿الملائكةَ﴾ منَ الإنزالِ(٢)، وجازَ أن تقولَ: ﴿تَنزِيلًا﴾ مثلَ: «وتبتَّلْ تبتيلًا».

وقيلَ: إذا انشَقَّتِ السَّماءُ يُنتقَصُ تركيبُها، ويُفتِّتُها الله تعالى، فتنزِلُ الملائكةُ إلى مكانٍ سواها.

* * *

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٢)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٣٨). قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ١٠٧) بعد أن ساق روايتي ابن أبي حاتم والطبري: «مداره على علي بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، وفي سياقاته غالباً نكارة شديدة».

(٢) وباقي السبعة: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٢٦) ـ ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾؛ أي: تبيَّنَ أنَّ الملكَ الحقَّ لله؛ لأنَّ المُلكَ الذي يزولُ ليس بمُلكٍ.

وقيلَ: لا يُخلَّى ذلك اليومَ بينَ أحدٍ وبين التَّغلُّبِ، فذلك هو الملكُ.

وقيلَ: تنقطِعُ الدَّعاوي غدًا، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾؛ أي: لِـمَا ينالُـهم منَ الأهوالِ والشَّدائدِ، وهو دليلٌ على أنَّه غيرُ عسيرٍ على المُؤمنينَ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾؛ أي: يشتَدُّ ندَمُ الكافرِ على تركِه الإيمانَ، و﴿ٱلظَّالِمُ﴾ عبارةٌ عن جنسِ الظَّلمةِ، كقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، عنَى به جميعَ الكفّارِ بدليلِ قولِه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [النساء: ٤٢].

وقال ابنُ عبّاسٍ: كان أُبيُّ بنُ خلَفٍ يحضرُ النَّبيَّ ﷺ ويُجالسُه ويستمعُ إلى كلامِه، فزَجَرَه عقبةُ بنُ أبي مُعَيطٍ عن ذلك، فنزلَتِ الآيةُ[١].

وقال الشَّعبيُّ: أسلَمَ عقبةُ وكان خليلًا لأُميّةَ بنِ خلفٍ، فقال أميّةُ: وجهي من وجهِكَ حرامٌ إن بايَعْتَ محمَّدًا، فكفرَ وارتدَّ ليُرضِيَ أميّةَ، ونزلتِ الآيةُ[٢].

---

(١) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٤)، ورواه مطولاً عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٨٦) عن مقسم مولى ابن عباس.

(٢) رواه عن الشعبي الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٤٠) وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٨)، =

وقيلَ: قدِمَ عقبةُ من سفرٍ، واتَّخذَ طعامًا ودعا إليه أشرافَ قومِه، وكان يُكثِرُ مُجالسةَ النَّبيِّ ﷺ، فدَعاه إلى طعامِه، فلمَّا قرَّبُوا الطَّعامَ قال رسولُ الله ﷺ: «ما أنا بآكلٍ من طعامِكَ حتَّى تشهدَ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنِّي رسولُ الله»، فقال عُقبةُ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، فأكلَ من طعامِه، فكانَ أُبيُّ بنُ خلَفٍ غائبًا، فلمَّا عادَ وأُخبِرَ بقصَّتِه قال: صبأْتَ يا عقبةُ؟ قال: لا والله، ولكنْ دخلَ عليَّ رجلٌ فأبَى أن يطعَمَ من طعامي إلّا أن أشهدَ له فاستحيَيْتُ أن يخرُجَ من بيتي لـم يطعَمْ، فشهِدْتُ له فطعِمَ، فقال أُبيُّ بنُ خلَفٍ: لا أرضَى منك أبدًا إلا أن تأتيَه فتبزُقَ في وجهِه وتطأَ عُنُقَه، ففعلَ ذلك عُقبةُ، وأخذَ رحِمَ دابّةٍ فألقاها بينَ كتفَيه، فقال رسولُ الله ﷺ: «لا ألقاكَ خارجًا من مكّةَ إلّا ضربتُ رأسَكَ بالسَّيفِ»، فقُتِلَ عقبةُ يومَ بدرٍ صبرًا، وأما أُبيُّ بنُ خلَفٍ فقتَلَه النَّبيُّ ﷺ يومَ أُحدٍ في المُبارزةِ، وأنزَلَ الله فيهما هذه الآيَةَ[1].

وقالَ الضَّحّاكُ: لـمَّا بزَقَ عقبةُ في وجهِ النَّبيِّ ﷺ عادَ بُزاقُه في وجهِه، وانشَعَبَ شُعبتَينِ فأحرَقَ خدَّيه، فكان أثرُ ذلك فيه حتَّى الموتِ[2].

وقيلَ: إنَّ أُبيَّ بنَ خلَفٍ دعا النّاسَ إلى بيتِه، فقال رسولُ الله ﷺ: «لا آكلُ الطَّعامَ

= والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٣)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٦) عن سعيد بن المسيب.

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص: ٤٠١) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٣) عن مجاهد.

وفي قوله: (أن عقبة فعل ما طلبه منه أبيٌّ) نظرٌ، فقد رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٨٥و٢٠٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٤٠ ـ ٤٤١)، عن مقسم مولى ابن عباس، وفيه بدل قوله: «ففعل ذلك»: (فلم يسلطه الله عليه). ويؤيده ما سيذكره المصنف عن الضحاك بعده.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٧)، والواحدي في «تفسيره» (ص: ٣٣٤).

حتَّى تُسلِمَ»، فأسلَمَ، فلقِيَه عقبةُ فأنكرَ عليه[1]، فالظَّالـمُ على هذا عُقبةُ، وعلى ما سبقَ أُبيُّ بنُ خلَفٍ، وقد بيَّنّا أنَّ المقصودَ جنسُ الظَّلَمةِ.

وقيلَ: يعضُّ الظَّالـمُ غدًا على يدَيه حتَّى ينتَهيَ إلى المرافقِ، ثمَّ تنبُتُ فلا يزالُ هكذا كلَّما أكلَها نبتَتْ؛ ندامةً على ما فرَّطَ، وقد قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، و﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]؛ لأنَّ الاكتِسابَ في الغالبِ تأكيدٌ، فكذلك العضُّ لليدِ.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقًا إلى النَّجاةِ من عذابِ الله.

وقيلَ: ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: سببًا ووُصْلةً.

وقيلَ: أي: يا ليتَني سلكْتُ قَصْدَه ومذهبَه.

قُرِئَ: ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾ بسكونِ الياءِ، وقُرِئَ بفتحِها[2].

وقيلَ: عضُّ اليدِ عبارةٌ عن شدَّةِ النَّدمِ على ما قدَّمَ، وإنْ لـم يكُنْ ثَمَّ عضٌّ في الحسِّ.

* * *

(٢٨ - ٢٩) - ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾؛ أي: لـم أتَّخِذْ مَن خالفَ الإيمانَ خليلًا، بل كنتُ أتَّخِذُه عدوًّا.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٥) عن ابن سابط.

(٢) قرأ أبو عمرو بفتح الياء، وباقي السبعة بسكونها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٥).

قُرِئَ: ﴿يَنَوَيْلَتَىٰ﴾ من غيرِ إمالةٍ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالإمالةِ[١].

ويعني بـ﴿فُلَانًا﴾ أبيًّا في قولٍ وأميّةَ في قولٍ.

وقيلَ: «فلانٌ» عندَهم كنايةٌ عن الجملةِ، كما تقولُ للرَّجلِ يصحبُ الأشرارَ: «ما تصنَعُ بصُحبةِ فلانٍ وفلانٍ؟ لِـمَ لا تصحَبُ أفاضِلَ النّاسِ».

و«فـلانٌ» لا يحسُـنُ فيـه الألـفُ واللّامُ، يُقـالُ: «هذا فـلانٌ وفلانٌ آخـرُ»؛ لأنَّه لا نكـرةَ لـه، فإذا نسـبتَ إليه قلـتَ: «الفُلانـيُّ»؛ لأنَّ الياءَ التـي تلحقُه تُصيِّـرُه نكرةً.

وقال ابنُ السِّكِّيتِ رحمَه الله: إذا كتبتَ عن الآدميِّينَ قلتَ: «لقيتُ فلانًا» بغيرِ ألفٍ ولامٍ، فأمّا في البهائمِ تقولُ: «حلبْتُ الفُلانةَ»، و: «ركبْتُ الفُلانَ»[٢].

وقيلَ: يا ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾؛ أي: الشَّيطانَ، بدليلِ قولِه بعدَ هذا:

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ هذا من قولِ الله لا من قولِ الظّالـمِ؛ أي: كان الشَّيطانُ خَذُولًا للكافرِ يتبرَّأُ منه في الآخرةِ.

وقيلَ: يعني: خُذلانَ إبليسَ للمُشركينَ يومَ بدرٍ لـمَّا ظهرَ لهم في صورةِ سراقة بن مالك، فلمَّا عاينَ الملائكةَ تبرَّأَ منهم.

وقُتِلَ عُقبةُ بنُ أبي مُعَيطٍ صَبْرًا، ولـم يُقتَلْ منَ الأسرَى غيرُه وغيرُ النَّضرِ بنِ الحارثِ.

***

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٤)، و«التيسير» (ص: ٤٨).

(٢) انظر: «إصلاح المنطق» (ص: ٢١٢).

(٣٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾؛ أي: وقال محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يومَ القيامةِ شاهدًا على الكفَّارِ بإعراضِهم عن القرآنِ، كما قال تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١]، شاهدًا على الكفَّارِ بإعراضِهم عن القرآنِ.

﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾؛ أي: هجَرُوه وترَكُوه، وترَكُوا الإيمانَ به، فهو منَ الهجرانِ.

وقيلَ: قالوا فيه هَجْرًا، فهو منَ الهَجْرِ الذي هو الهذَيانُ والإفحاشُ في النُّطقِ، فكانُوا يعتَقِدُونَ أنَّ القرآنَ هَجْرٌ ولغوٌ، ويعني بقولِه: ﴿إِنَّ قَوۡمِي﴾ الكافرينَ منهم.

* * *

(٣١) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾؛ أي: كما لك أعداءٌ فقد جعَلْنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا، و(العدوُّ) للجمعِ؛ أي: أعداءً.

وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه كان في الكافرينَ مَن هو أشدُّ عداوةً له كأبي جهلٍ.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾؛ أي: في حالِ الهدايةِ والنَّصرِ، فهو نصبٌ على الحالِ.

وقيلَ: على التَّمييزِ.

(٣٢) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ من مطاعِنِهم قولُه: هلّا أُنزِلَ عليه القرآنُ بدفعةٍ واحدةٍ، كالتَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: أنزَلْناه مُفرَّقًا كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ﴾.

وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من كلامِ المُشركينَ؛ أي: لولا نزلَ القرآنُ جملةً كذلك؛ أي: كالتَّوراةِ والإنجيلِ والكتُبِ المُتقدِّمةِ، وعلى هذا فلا بدَّ من إضمارٍ؛ أي: أنزَلْناه مُتفرِّقًا لنُثبِّتَ به فؤادَكَ؛ أي: ليقوَى قلبُكَ؛ فإنَّ الوحيَ إذا كان يتجدَّدُ في كلِّ حادثةٍ كان أقوَى للقلبِ.

وقيلَ: لنُثبِّتَ به فؤادَكَ؛ أي: لنحفَظَه، فيكونَ فؤادُك بآيَةٍ آيةٍ غيرَ مُضطرِبٍ.

وكانَ عليه السَّلامُ أُمِّيًّا لا يكتُبُ ولا يقرأُ، ففُرِّقَ عليه القرآنُ، ولو نُزِّلَ مرَّةً لتعذَّرَ عليه حِفظُه في وقتٍ واحدٍ، والتَّوراةُ نَزَلت على موسى مكتوبةً، وكان كاتبًا قارئًا.

فإنْ قيلَ: هلّا أُنزِلَ عليه دفعةً وحفِظَه إنْ كانَ في قُدرَتِه ذلك.

قيلَ: وكان في قُدرتِه أن يُعلِّمَه الكتابةَ والقرآنَ في لحظةٍ، وأن يُلْهِمَهم الإيمانَ به، ولكنَّه لم[1] يَفعلْ، ولا معترِضَ عليه في حُكْمِه.

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾: بيَّنَّاه، وقيل: فرَّقناه في التنزيل.

وقيل: فصَّلْناه تَفصيلاً.

---

(١) من هنا وقع سقط في النسخة الخطية لمكتبة أحمد الثالث المرموز لها بـ (أ) حتى بداية الآية (١٥) من الشعراء (ص: ٤٠٩) من هذا المجلد، وقد استدركنا هذا السقط من كتاب المصنِّفِ الآخر: «التفسير المختصر» (ورقة ٢٢٠/ أ).

وقيل: أنزلناه على الترتيلِ وهو ضدُّ العجلةِ، والرَّتَل بفتح التاء: تنسيقُ الشيء، ومنه: ثغرٌ رَتِلٌ؛ أي: حَسَنُ المتنضَّد، ورتَّلْتُ الكلامَ: أتيتُ به على تُؤَدَةٍ.

فكان بَيْنَ نزولِ أوَّلِ القرآنِ وآخِرِه ثلاثٌ وعشرون سنةً.

وأيضاً؛ في القرآنِ ما هو جوابٌ عن أمورٍ سألوها، وهو سببٌ من أسبابِ الأسئلةِ كما قالوا معنى ﴿أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨].

* * *

(٣٣) - ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قيل: ﴿بِمَثَلٍ﴾ إشارةٌ إلى قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧] و: «هلَّا أُلْقِيَ إليه كنزٌ» و: «هلَّا جُعِلتْ له جَنَّةٌ»؛ أي: لا يتعلَّلون بمثلِ شيءٍ من هذه الأشياءِ ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ لتَرُدَّ به باطلَهم وتزيلَ تمويهَهُم، والمثَلُ: الشَّبَهُ.

وقيل: ﴿بِمَثَلٍ﴾ كقولِهم في صفةِ عيسى: إنه خُلق مِن غيرِ أبٍ ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بما فيه نقضُ حجَّتهم كآدم إذ خُلِق من غيرِ أبٍ وأمٍّ.

﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ أي: من مَثَلهم، حُذف لدلالةِ الكلامِ عليه، كقولك: «رأيتُ زيداً وعَمْراً وكان زيدٌ أحسنَ وجهاً».

وقيل: كان المشركون يستمدُّون من أهلِ الكتاب، وكان قد غلَب على أهلِ الكتابِ التحريفُ والتبديلُ، فكان ما يأتي به النبيُّ ﷺ أحسنَ تفسيراً مما عندهم لأنه حقٌّ مَحْضٌ، وكان ما عندهم مختلِطاً بالباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢].

(٣٤) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: هؤلاء المتعلِّلِين بـ﴿لَوْلَا﴾.

وقال مقاتل: قال الكفَّار لأصحابِ محمدٍ ﷺ: هم شرُّ الخلقِ، فنزلتِ الآية[1].

وسُئل النبيُّ ﷺ: كيف يُحشَرون على وجوههم؟ فقال: «إنَّ الذي أَمْشَاهم على أَرْجُلِهم قادرٌ أنْ يُمشيَهم على وجوهِهم»[2].

﴿مَّكَانًا﴾؛ أي: في النارِ.

وقيل: أي: في الدُّنيا أشرُّ صنيعاً لكفرهم.

والمكانُ اسمٌ للمَرْتبة عند ذوي العقول؛ كما يقالُ: لفلانٍ عند الناسِ مكانٌ.

***

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ ذكَر جماعةً من الأنبياءِ وذكَر ما حلَّ بمَن كذَّبهم ليَبْرَحوا الكفارُ عن تكذيبِ نبيِّنا ﷺ.

والوزيرُ من الوَزَرِ، وهو ما يُلتجأُ إليه.

وقيل: الوزيرُ: الموازِرُ كالأكيل.

وقيل: من الوِزْرِ وهو الثِّقْلُ؛ أي: عوناً يتحمَّلُ عنه الأثقال.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ١٣٨)، و«البسيط» (١٦/ ٤٩٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: فرعونَ وقومِه، وهم بعدُ لم يكذِّبوا ولم يَعْرِفوا آياتِ موسى، فكيف كذَّبوا بها؟ فالمرادُ: أنه كان معروفاً منهم تكذيبُ الرسل، أو: كذَّبوا بآياتِ الأنبياءِ السابقِين.

وقيل: اذْهَبَا إلى الكفَّارِ، وأَخبرَ عنهم في وقتِ محمدٍ ﷺ بأنهم كذَّبوا بتلك الآياتِ التي رأَوا مِنْ موسى.

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: فذَهَبا وكُذِّبا ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾.

* * *

(٣٧) - ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾؛ أي: وأغرَقْنا قومَ نوحٍ ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾.

قيل: مَن كذَّب نبيًّا فقد كذَّب جميعَ الرُّسُل.

وقيل أيضاً: ما مِن رسولٍ إلا وهو يؤمِنُ بجميعِ الرُّسُل، فمَن كذَّبه فقد كذَّب الكلَّ.

وقيل: ذَكَر الجنسَ والمرادُ نوحٌ.

وقيل: أَمْطرَ الله عليهم السماءَ أربعينَ يوماً، وخرج ماءُ الأرضِ أربعينَ يوماً، فصارتِ الأرضُ بحراً واحداً.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ أي: في الآخرة، وقيل: هذه سبيلي في كلِّ مَن ظَلَم.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ نصبٌ بالتدمير.

الرَّسُّ: الموضعُ المحفورُ كالقَبْر والمَعْدِنِ والبِئْر، والجمعُ: رِسَاسٌ(١).

قال ابن عباس: سألتُ كعباً عن أصحابِ الرَّسِّ، قال: صاحبُ (يس) الذي قال ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] قَتَلُوه ورَسُّوه في بئرٍ لهم يقال له: الرسُّ(٢). أي: طرَحوه فيها.

وقيل: الرسُّ بئرٌ بأنطاكيةَ قتَلوا فيها حَبيباً النجَّارَ فنُسبوا إليها(٣).

وقال وَهْبٌ: قومٌ بَعَثَ اللهُ إليهم شُعيباً فكذَّبوه وآذَوْه، وكانوا على بئرٍ فانهارت بهم وبديارِهم، فهلَكوا(٤).

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٢٢٣)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٩/ ٤٣٠)، و«البسيط» (١٦/ ٥٠٤)، و«اللسان» (مادة: رسس). واستدل أبو عبيدة وابن قتيبة على المعدن بقول النابغة الجعديّ (هو في الديوان ص: ٨٢):

سَبَقْتُ إلى فَرَطٍ ناهِلٍ تنابلةً يحفرون الرِّساسا

قال أبو عبيدة: والرِّساس المعادن. وقال ابن قتيبة: أي: آبار المعدن.

والمعدن: المنجم تستخرج منه المعادن كالحديد ونحوه. انظر: حاشية «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٧٠) تحقيق أحمد شاكر.

(٢) رواه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٧)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٠٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٥) الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٠٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٠٧) عن السدي، وهو الذي قبله نفسه؛ فإن حبيباً هو مؤمن آل ياسين، وهم أهل أنطاكية، وبذلك صرح السدي في هذا الخبر.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٢)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٠٦).

وقيل: الرسُّ: قريةٌ بفَلْجِ اليمامةِ قَتَل أهلُها نبيَّهم فأهلَكَهم الله تعالى[١].

وقيل: الرسُّ: ماءٌ ونخلٌ لبني أسدٍ.

وقيل: هم قومٌ من ثمودَ أَهْلَكوا قوماً من المؤمنين وقتَلوا منهم في بئر.

وقيل: كانوا بين المدينةِ ووادي القُرى.

وقيل: الرسُّ: الثَّلْجُ المتراكِمُ في الجبالِ، فرُبَّما زَلَقتْ عن أماكنِها في وقتِ الحَرِّ فأَهلكتْ قوماً كذَّبوا نبيَّهم.

***

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

﴿وَكُلًّا﴾ قال الزجَّاج: وأنذَرْنا كلًّا ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾[٢].

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا﴾؛ أي: وأهلَكْنا كلًّا، وتَبَّرْتُ الشيءَ: كسَّرتُه، ومنه: التِّبر.

﴿أَتَوْا﴾؛ أي: هؤلاء المشركونَ في أسفارِهم ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ﴾: قريةِ قومِ لوطٍ وهي سَدُومُ.

قال مقاتلٌ: ﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾؛ أي: الحجارةَ، كلُّ حجرٍ في العِظَم على قَدْرِ إنسانٍ[٣].

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٣) عن قتادة، ورواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٥١) بلفظ: «كانوا بحجر بناحية اليمامة على آبار»، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٥٢) بلفظ: «الرس قرية من اليمامة يقال لها: الفلج».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٦٨).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٣٥)، وزاد: يعني قوم لوط. وروى ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٠) عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ قال: هي سدوم قرية قوم لوط ﴿الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ قال: الحجارة.

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ ذكَر شيئاً آخرَ مِن كفرِهم.

﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾: سخريةً، أي لا يَرَوكَ أهلاً للتعظيم والطاعة.

﴿أَهَٰذَا﴾؛ أي: يقولون، وجوابُ ﴿إِذَا﴾ هو هذا القولُ المضمَر، و﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كلامٌ معترِضٌ.

﴿إِن كَادَ﴾؛ أي: وقالوا.

* * *

(٤٣) ـ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

﴿هَوَىٰهُ﴾؛ أي: هوًى وإلقاءً من غيرِ حُجَّةٍ.

قال الكلبيُّ: كانت العربُ إذا هَوِيَ الرجلُ منهم شيئاً عبدَه من دونِ الله، فإذا رأى ما هو أحسنُ منه تَرَكَ الأوَلَ وعبدَ الأحسنَ[1].

فالتقدير: «أرأيتَ مَن اتخذَ إلهَه بهواه» فحُذِف الجارُّ، أو: ما يَهْواهُ، فسمِّي المفعولُ باسمِ المصدر.

وقيل: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: أطاعَ هواه.

﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: لا يُمكِنكَ هدايتُه؛ وليس ذلك إلى مشيئتِكَ إنْ عليك إلا البلاغُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥١٢)، وما بعده منه.

والوكيل: الحافظُ، وقيل: الكفيلُ، وأصلُه مِن وكَلْتُ الشيءَ إليه؛ أي: فوَّضتُه.

ثُمَّ؛ قيل: نسخَتْها آيةُ السيفِ.

وقيل: لا، إنما هي تسليةٌ للنبيِّ ﷺ.

***

(٤٤) - ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ دخولُ ﴿أَمْ﴾ دلَّ على إضمارِ شيءٍ؛ أي: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ حتى تردَّه عن الكفرِ ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾.

وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى «بل» هنا.

﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ في الأكلِ والشربِ وعدمِ الفِكْرِ في الآخرةِ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ إذ لا حسابَ ولا عقابَ على الأنعام.

قال مقاتلٌ: الأنعامُ تَعرفُ ربَّها وتَذْكُرُه، وأهلُ مكةَ لم يَعْرِفوه[1].

وقيل: أي: الأنعامُ تنقادُ وتطيعُ أربابَها، وهؤلاء لا يُطيعون الربَّ الذي خلَقَهم ورزَقهم.

وقيل: لأنَّ البهائمَ وإنْ لم تَعرفْ صحَّةَ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ لم تَعتقِدْ بُطلانَ ذلك.

وإنَّما قال: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لأنه عَلِمَ أنَّ فيهم مَن سيُؤْمِن.

***

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٣٦).

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ نبَّه على كمالِ قُدرتِه.

قيل: أَلَمْ تَرَ إلى فِعْلِ ربِّكَ، فحُذِفَ المضاف.

وقيل: أَلَمْ تَعْلمِ؛ أي: قد علِمْتَ، فهي رؤيةُ قلبٍ، ويجوزُ أن تكونَ رؤيةَ عينٍ.

وقيل: هو مقلوبٌ؛ أي: ألم تَرَ إلى الظلِّ كيف مَدَّه ربُّكَ.

﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ مُطْبَقٌ على الأرضِ من غيرِ شمسٍ ولا ليلٍ؛ كقوله في صِفَة الجنَّة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]؛ أي: لا شمسَ معه ولا ظُلمةَ.

﴿سَاكِنًا﴾؛ أي: دائماً مستقرًّا لا تنسخُه الشمس.

وقيل: هذا مِن السَّكَنِ لا مِن السُّكون؛ لأنَّ الظلَّ ساكنٌ أبداً، يقال: «سكَنَ فلانٌ بلدَ كذا»؛ أي: أقام فيه.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ أي: جعَلْنا الشمسَ بنَسْخِها الظلَّ دالَّةً على أنَّ الظلَّ شيءٌ؛ لأن الأشياءَ تُعرَفُ بأضدادِها، ولولا الشمسُ ما عُرف الظلُّ، ولولا النُّورُ ما عُرفتِ الظلمة.

والدَّليل: فعيلٌ بمعنى الفاعلِ.

وقيل: بمعنى المفعولِ؛ كالقتيل والدَّهين والخَضِيب؛ أي: دلَلْنا الشمسَ على الظلِّ حتى ذهبتْ به؛ أي: أَتْبَعناها إيَّاه.

وقيل: جعَلْنا الشَّمسَ لمَّا أزالتِ الظلَّ دليلاً عليه أنه مِن خَلْقي أُوْجِدُه إذا شئتُ وأُعْدِمُه إذا شئتُ، فالشمسُ دليلٌ؛ أي: حجةٌ وبرهانٌ.

ولم يؤنَّثِ الدليلُ ـ وهو صفةُ الشَّمسِ ـ لأنه في معنى الاسم؛ كما يقال: الشمسُ برهانٌ.

﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾؛ أي: الظلَّ، وهذا القَبْضُ وقعَ بالشمس؛ لأنها إذا طَلَعتْ أَخَذ الظلُّ في الذَّهابِ يَسيراً شيئاً فشيئاً.

وقال قومٌ: قَبْضُه بغروبِ الشمس؛ لأنها ما لم تَغْرُبْ فالظلُّ فيه بقيةٌ، وإنما يَتِمُّ زوالُه بمجيءِ الليلِ، وعلى هذا ﴿يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلاً علينا.

وقيل: ﴿يَسِيرًا﴾؛ أي: سريعاً.

وقيل: الظلُّ: سوادُ اللَّيلِ وظُلمتُه، وقبضُه بنور الشمس.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾.

﴿لِبَاسٗا﴾ قال ابنُ عباس: أي: أَلْبسْتُ الليلَ الظلمةَ لِيُسْكَنَ فيه[1]؛ أي: ذا لباسٍ من الظُّلمة؛ [أي: أُلبسَ الظُّلمةَ ليُتركَ فيه العملُ والتصرفُ].

وقيل: جعلَه ستراً وغطاءً للأشياءِ كلِّها بظلامه، وإذا سترَ الأشياءَ بظلامِه صارت سببَ السكونِ فيه.

﴿سُبَاتٗا﴾؛ أي: راحة لأبدانِكُم من الأشغالِ، وأصلُه من التمدُّد؛ يقال: سَبَتَتِ المرأةُ شعرَها؛ أي: نقضَتْه وأرسلَتْه، ورجلٌ مَسْبوتٌ؛ أي: ممدودُ الخِلقةِ، وقيل للنومِ: سباتٌ؛ لأنه بالتمدُّد يكونُ، وفي التمدُّد معنَى الراحة.

وقيل: السَّبْتُ: القَطْعُ؛ لأنه انقطاعٌ عن الأشغال، ومنه: سبتُ اليهود؛ لانقطاعهم عن الأعمال فيه.

وقيل: أَسْبَتَ الرجلُ: إذا أخذَتْه سكتةٌ، فالنومُ سباتٌ على معنَى أنه سكونٌ عن الحركةِ والاضْطِراب.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٢٤)، وما سيأتي بين معكوفتين منه.

قال الخليلُ: السباتُ: نومٌ ثقيلٌ[١]؛ أي: جعَلْنا نومَكُم ثقيلاً لتكْمَلَ الراحةُ.

﴿نُشُورًا﴾ من الانتشارِ للمعاشِ، وكأنه نشورٌ من وفاةٍ، وكان عليه السلامُ إذا أَصبح قال: «الحمدُ للهِ الذي أَحْيانَا بَعْدَما أَماتَنا وإليهِ النُّشورُ»[٢].

* * *

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

﴿ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا﴾ ذكَّرهم نعمةً أُخرى وهي المطرُ والريحُ.

قرئ برفْعِ النونِ والشينِ: جمع نُشُورٍ، والنُّشورُ اسمٌ لا مصدرٌ؛ لأن المصدر لا يُجمعُ من لفظِه وإنما يُجمعُ بلفظِ الكثرةِ؛ مثلَ: ﴿ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤] والمعنى: جَعَل الرياحَ سببَ حياةِ النباتِ لأنها سببُ المطر.

وقيل: النُّشُر: جمعُ نَشُورٍ بفتحِ النونِ على فَعُولٍ، من نَشَر يَنْشُر، والنُّشُر بمعنى: النَّاشرات، مثلَ: صُبُرٍ وصابراتٍ؛ أي: ناشراتٍ للغيم باسطاتٍ كما يُنشَرُ المَطْوي.

وقرئ بضمِّ النونِ وسكونِ الشين، ومعناه كالأوَّل.

وبفتحِ النونِ وسكونِ الشين[٣]؛ أي: بَسْطاً للغيم.

---

(١) انظر: «العين» (٧/ ٢٣٨)، وفيه: السُّباتُ: النوم الغالب الكثير. وبلفظ المصنف في «الفائق» للزمخشري (٣/ ٣٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما. ورواه البخاري أيضاً (٦٣٢٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ومسلم (٢٧١١)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿نُشُراً﴾ بضم النون والشين، وابن عامر: ﴿نُشْراً﴾ بضم فسكون، وعاصم: ﴿بُشْراً﴾ بالباء، وقرأ الباقون: ﴿نَشْرًا﴾ بفتح فسكون. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٥)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

ثمَّ، يجوزُ أن يكونَ هذا البسطُ من فِعْلِ الريح، **والأحسنُ** أن نقول: إنه مِن فِعْلِ الله تعالى؛ أي: نَشْراً منه للسحاب ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾: نعمتِه.

وقيل: (نَشْراً)؛ أي: متفرقةً في الجهات.

وقُرئ: (بُشُراً) بضمِّ الباء والشين[1] جمعُ البَشور؛ مثلَ: شُكُرٍ وشَكُورٍ، والمعنيُّ به التبشيرُ، وأمَّا جمعُ بشيرٍ فبُشَراءُ؛ مثلَ: خطيبٍ وخُطباءَ.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب.

وقال الحسن: المطرُ من السماء، والسحابُ عَلَمٌ يَنزلُ عليه الماءُ من السماء[2].

والطَّهورُ: ما يُتطهَّرُ به؛ أي: الماءُ المنزَلُ من السماءِ طاهرٌ في نفسِه مطهِّرٌ لغيره، ويَدخلُ في كونِه طَهوراً: تطهيرُ الأرضِ من الحَدَثِ على طريقِ التوسُّع.

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ قال الزجَّاجُ: قال: ﴿مَّيْتًا﴾ لأن معنى البلدةِ والبلدِ واحدٌ[3].

وقيل: أراد بالبلدةِ: المكان.

﴿أَنْعَٰمًا﴾؛ أي: بهائمَ ﴿وَأَنَاسِيَّ﴾: بَشَراً، وواحدُ الأناسيِّ: إنسيٌّ، مثل: كرسيٍّ وكراسيَّ.

وقيل: (أناسيَّ): جمعُ إنسانٍ، والياءُ الآخرةُ بدلٌ من النون، والأصلُ: «أَنَاسِين» مثلَ: سَرَاحين، قال الفرَّاءُ: أناسينُ مثلُ بساتينَ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٧١)، وذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٥٥) عن ابن عباس والسلمي بخلاف وعاصم بخلاف لكن في سورة الأعراف.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٢٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٧١).

قال: ويجوزُ: (أناسِيْ) بتخفيفِ الياء كأنهم أَسقطوا الياءَ التي بينَ عين الفعلِ ولامِه؛ مثلَ: قَرَاقِرَ وقَرَاقِيرَ(١).

وقال: ﴿كَثِيرًا﴾ ولم يقلْ: «كثيرينَ» لأنَّ فَعيلاً قد يُرادُ به الكثرةُ مثلَ: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] والمرادُ الكثرةُ؛ لقوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١١] وكذلك ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

* * *

(٥٠) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ قيل: المطرَ؛ أي: قسَّمْنا هذا الماءَ المنزَلَ من السماءِ على تفاوُتٍ بينَهم في القِلَّة والكثرة، قال ابن عباس: المطرُ في كلِّ عامٍ واحدٌ، لكنْ يختلفُ على حَسَبِ مَن يُصْرَفُ إليهم، فما زِيدَ لبعضٍ نُقِصَ مِن غيرِهم(٢). فهو معنَى التَّصريف.

﴿كُفُورًا﴾: كفروا النعمةَ فصَرَفوا نزولَ المطرِ إلى الأَنْواءِ.

وقيل: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾: ليَعْلموا قدرةَ الله تعالى على إحياءِ الموتى ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بالبَعْث.

ورَوَى ابنُ مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما مِن سَنَةٍ بأَمطَرَ مِن أُخرى، ولكنْ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٩).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٢٠) وصححه.

إذا عَمِلَ قومٌ بالمعاصي صَرَف اللهُ ذلك إلى غيرِهم، فإذا عصَوا جميعاً صَرَف اللهُ ذلك إلى الفَيَافي والبِحار»(١).

وقيل: ﴿صَرَّفْنَهُ﴾؛ أي: القرآنَ ليتذكَّروه ويعلَموا أنَّ مَن أَنعَمَ بهذه الأشياءِ لا يجوزُ الإشراك به، وقد سبق ذكرُ القرآن في قوله: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ وقولِه: ﴿اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾.

قرئ: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ بالتشديدِ من التَّذكُّر، وبالتخفيف من الذِّكر(٢)؛ أي: ليَذْكُروا مَواقعَ النِّعَم ويشكروا، والتَّذكُّرُ قريبٌ من الذِّكر غيرَ أنَّ التَّذكُّرَ يُطلقُ فيما بَعُدَ عن القلبِ، فيَحتاجُ إلى تكلُّفٍ.

* * *

(٥١ - ٥٢) - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ أي: نبيًّا يُنذرُهم، ولكنَّا لم نفعلْ بل جَعَلْناك نذيراً للكلِّ، فاشكُرِ اللهَ على نعمِه عليك.

---

(١) رواه بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٣٩)، وإسناده منقطع وفيه إسحاق بن بشر وهو كذاب.
ورواه من طريق آخر العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٢٢٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٦٣) بلفظ: «ما أحد بأكسب من أحد، ولا عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يحب»، قال العقيلي: «وذكر نحوه موقوفاً وهو أولى». وقال البيهقي: «كذا روي مرفوعاً بهذا الإسناد والصحيح موقوف».
وروى الموقوف الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٩-٤٠)، والداني في «الفتن» (٢١١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» عقب المرفوع.

(٢) بالتخفيف حمزة والكسائي، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يَدْعونك إليه مِن اتِّباع آلهتِهم ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾: بالقرآن؛ أي: جادِلْهم، أو: جاهِدْهم بالسيفِ، على ما فيه، **والأولُ أشبهُ**؛ لأن السورةَ مكية نزلت قبل الأمر بالقتال.

وقيل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ تخفيفاً عليك ولكنَّا حمَّلناك ثقلَ الجميعِ لتَستوجِبَ بصبرِكَ عليه الثوابَ الجزيل.

﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: شديداً، وهذا أمرٌ بإبذالِ المجهودِ في إحياءِ الدِّين وإماتةِ الكفر.

وقال الحسن: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ أي: اقتُلْهم أو يُسْلِموا[1].

***

(٥٣) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ عاد إلى ذكرِ النِّعَم؛ أي: خلَّاهما وأرسَلَهما في الأرض، فأحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾؛ أي: حلوٌ شديدُ العُذوبةِ ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي: فيه مُلوحةٌ ومَرارة.

قيل: أراد الأنهارَ العِظامَ، والبحرُ عندهم: كلُّ نهرٍ عظيم، يعني: أن الله تعالى أرسل المياهَ في الأرضِ ضَربَينِ؛ منها عذبٌ ومنها ملحٌ، وكلٌّ واحدٍ بحرٌ لأنه نهرٌ عظيمٌ، فالفراتُ العذبُ كالنيلِ والفراتِ ودِجلةَ وسيحانَ، والملحُ الأجاجُ: البحارُ المعروفة.

﴿بَرْزَخًا﴾؛ أي: حاجزاً ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: سِتراً مستوراً، منعَ أحدَهما من

---

(١) لم أجده.

الاختلاطِ بالآخَر فتَفسُدَ على الناسِ مياهُهم، فإذا كان يومُ القيامة زال الحاجزُ واختلطتِ المياه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

وقيل: أراد بحراً واحداً من البحارِ المعروفةِ يجتمِعُ فيه الماءُ المِلْحُ والماءُ العذبُ، ثم مع اجتماعِهما في بحرٍ واحدٍ لا يَختلِطان، وفي الخبرِ في صفةِ الناسِ آخِرَ الزمان: «مَرِجتْ عُهودُهم»[1]؛ أي: فَسَدتْ واختلَطتْ، أَخبرَ أنه خلَطهما ثم جَعَل بينهما برزخاً لا يلتقيان.

وقيل: البرزخُ ما بين الدُّنيا والآخرةِ؛ أي: جَعَلَ بينَ البحرينِ مُهلةً وهي مدَّةُ الدُّنيا، فإذا انقَضَتْ اختَلَط أحدُهما بالآخَر.

والعذبُ: الطيِّبُ، عَذُبَ الماءُ يَعْذُبُ عُذوبةً فهو عَذْبٌ، وأَعْذَبَ القومُ؛ أي: عَذُبَ ماؤهم، وأصلُه: المنعُ، فالماءُ العذبُ هو الذي يَمنعُ العطشَ، يقال: عَذَبه عَذْباً؛ أي: منَعه، وعَذَب عُذوباً؛ أي: امْتَنَع، والعاذِبُ: الفرسُ الذي يُمنع من العَلَف، والعذابُ يَمنعُ المعاقَبَ عن مُعاوَدةِ الفِعلِ الذي عُوقِبَ عليه.

والفراتُ: أعذبُ المياهِ، وفَرُتَ الماءُ يَفْرُتُ فُرُوتَه؛ أي: عَذُبَ.

والملحُ خلافُ العذبِ من الماء، يقالُ: ماءٌ ملحٌ، ولا يقال: «مالِحٌ» إلا في الشاذِّ.

والأُجاجُ: أشدُّ الماءِ مُلوحةً كأنه يُحرقُ بمُلوحته، وأصلُه: مِن تأجُّجِ النار؛ لأن الماءَ الشديدَ الملوحةِ قد يسخُنُ سخونةً مُفرِطةً، ويقالُ: أَجَّ الماءُ يَؤُجُّ أَجًّا وأُجوجاً؛ أي: صار مِلْحاً.

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩٩٦٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقال الخليلُ: سمِّي البحرُ بحراً لانبساطِه وسَعَتِه، واستَبْحَر فلانٌ في العلم[1].

والبرزخُ: الحاجزُ.

وقال ابنُ عباس: ﴿بَرْزَخًا﴾؛ أي: قضاءً من قضاءِ اللهِ عزَّ وجل ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: حراماً محرَّماً أنْ يعذُبَ هذا الملحُ بالعَذْبِ، أو يَمْلحَ هذا العذبُ[2].

وقال الفرَّاء: أي: حراماً محرَّماً أن يَغْلِبَ أحدُهما صاحبَه[3]. فلا بدَّ من إضمارٍ؛ أي: حراماً محرَّماً أن يُفسدَ أحدُهما الآخَرَ.

* * *

(٥٤) - ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ﴾؛ أي: من النُّطفةِ؛ ﴿بَشَرًا﴾؛ أي: إنساناً.

النَّسبُ: القَراباتُ، والصِّهرُ: الخُتونةُ، وقال الأصمعيُّ وغيرُه: الأَحْماءُ مِن قِبَلِ الزَّوجِ، والأختانُ من قِبَل المرأة، والصِّهرُ يجمعُهما.

وقيل: ﴿بَشَرًا﴾؛ أي: آدمَ، خُلقَ من الطينِ، والطينُ خُلق من الماءِ، فالبشرُ على هذا كقوله: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١].

﴿فَجَعَلَهُ﴾؛ أي: آدمَ ﴿نَسَبًا﴾ يُنسَبون إليه ﴿وَصِهْرًا﴾؛ أي: مَن أولاده بعضِهم لبعضٍ بإباحةِ النكاح، وقد عَدَّ قبلَ هذا ما هو قِوَامُ المعاش، ثم بيَّن أن قِوامَ الناس أيضاً في النَّسب والصِّهر.

---

(١) انظر: «العين» (٣/ ٢١٩).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٤٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٠).

وقال الفرَّاء: النَّسب: ما لا يَحِلُّ من القَرابة، والصِّهرُ: ما يحلُّ نكاحُه منها ومِن غيرها[١].

وقيل: النسبُ: آدمُ، والصِّهرُ: حواءُ؛ أي: خلَق من الماءِ بَشَراً فجعله زوجينِ: رجلاً وامرأة، فصار أحدُهما أبو البشر والثاني أمًّا لهم.

وفي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: ذا نسبٍ لا يحرِّم التزوُّجَ ﴿وَصِهْرًا﴾؛ أي: ذا قراباتٍ لا يَحِلُّ له التزوُّج بهن.

[وقال] الكلبيُّ والفرَّاء: النسبُ: من لا يحلُّ بحالٍ، وهو سبعةُ أصنافٍ من القَرابة، وهي ما في قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] والصهرُ: من لا قرابةَ له ويحرُم بالنسب، وهو خمس: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]. وعلى هذا فالصهرُ محرِّمٌ كالنسب[٢].

﴿قَدِيرًا﴾؛ أي: قادراً على ما أراد.

***

(٥٥) - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ لمَّا عدَّد نِعَمَه وبيَّن كمالَ قُدرتِه عَجَّب من المشركين وبيَّن جهلَهم في إشراكِهم به مَن لا يقدِرُ على نفعٍ ولا ضرٍّ.

﴿ظَهِيرًا﴾؛ أي: مُظاهراً؛ مثلَ أَكيلٍ وشَريبٍ ووزير.

وقيل: الظَّهر: العَونُ؛ أي: عَوناً على الله للشيطان على معصيتِه؛ أي: يطيعُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٠).

(٢) انظر: «البسيط» (١٦/ ٥٤٨ _ ٥٤٩).

الشيطانَ فيما يَدْعُوه إليه فيزدادُ الشيطانُ معصيةً على معصيتِه؛ كما قيل: «مَن سَنَّ سنَّة سيئةً كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِل بها»[1]، فالكافرُ يعاونُ الشيطانَ على معصيةِ الله تعالى.

وقيل: وكان الكافرُ على أولياءِ اللهِ تعالى عوناً يُعِينُ على معاداتِهم وإيصالِ المكروهِ إليهم.

وقيل: وكان الكافرُ على ربِّه الذي يعبدُه ـ وهو الصنم ـ قويًّا غالباً يعملُ به ما يشاءُ؛ لأن الجمادَ لا قدرةَ له على نفعٍ ولا دفعٍ.

وقيل: أي: إنَّ الكافرَ مستظهِرٌ بهذه الأصنامِ على الله لأنهم كانوا يطمعون أن يَغلِبوا بذلك رسولَ الله ﷺ، فجُعل استظهارُهم بذلك على مُغالبةِ الرسول استظهاراً على الله.

وقال أبو عبيدةَ: ﴿ظَهِيرًا﴾؛ أي: مظهوراً به؛ أي: هيِّناً على الله تعالى، يقال: ظهَرْتُ بحاجتي؛ أي: لم ألتفِتْ إليها وألقيتُها وراءَ ظهرِي[2]؛ أي: كفرُ الكافرِ هيِّنٌ على الله تعالى، واللهُ مستهينٌ به لأن كفرَه لا يضرُّه.

* * *

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: القرآنِ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ للتأكيد؛ أي: لست بطامعٍ في دنياكم وأموالِكم.

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٧٧).

﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ استثناءٌ منقطِعٌ؛ أي: لكنْ مَن شاء ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بإنفاقِ مالِه فلْيَفْعَلْ.

وقيل: اتخاذُ السبيلِ إلى الله: الإيمانُ برسلِه وكتبِه، والتزامُ أوامرِه.

***

(٥٨ ـ ٥٩) ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

﴿وَسَبِّحْ﴾؛ أي: نزِّهْ الله تعالى عمَّا يَصِفُه به الكفار، وقيل: أي: صلِّ.

و﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾؛ أي: كفَى هو عالماً بذنوبهم يجازيهم.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيةَ، مضَى تفسيرُها في الأعراف، وبيَّن أنه إن أَخَّرَ عقوبةَ مَن عصاه فليس يفوتُه شيء.

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: استولَى على ما خَلَق.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: هو الرحمنُ، نعتٌ لـ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؛ أي: يا محمدُ سلِ الرحمنَ عن ذلك؛ أي: عن خَلْقه، فإنك تَسَلُ خبيراً بما خَلَق لا يَخْفَى عليه شيءٌ منه، وكانت اليهودُ يقولون في ابتداءِ الخَلْقِ أشياءَ، فأَخبره اللهُ تعالى أنَّ الأمرَ كما عرَّفه الله تعالى لا كما يقولُ الكفارُ، فـ﴿خَبِيرًا﴾ منصوب بـ(سَلْ).

وقيل: «فسَلْهُ خبيراً» فهو نصبٌ على الحالِ من الهاءِ المضمَرة[1].

---

(١) قوله: «المضمرة» كذا قال، ولعل أصحاب هذا القيل لا يذهبون إلى إضمار الهاء، بل إلى كون الباء صلة، والهاء هي نفس الضمير الذي في ﴿بِهِۦ﴾، قال الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٥٧): كان ابن جرير يذهب إلى أن الباء صلة؛ ويقول: المعنى: فاسأله خبيرًا، ويذهب إلى أن ﴿خَبِيرًا﴾ منصوب على الحال.

وقيل: «فسَلْ عنه» فالباءُ بمعنى «عن»، ويَكثُرُ ذلك مع السؤال، مثل قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ﴾ [المعارج: ١]؛ أي: فسَلِ الرحمنَ عن خلقِ السماوات والأرضِ خبيراً.

وقيل: أي: يسألُه الناسُ هل تعرفونَ أخبرَ بالأشياءِ وأعلمَ بها من الله تعالى؟

وقيل: فاسأل أهلَ العلمِ فإنهم يُخبرونك أنه هو الرحمنُ، وهو الذي خلَق السماوات والأرضَ، وهو كقوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [النحل: ٤٣]، والخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ غيرُه.

وقيل: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾؛ أي: لا تطلُبْ حوائجَكَ إلا مِن الله ولا تتوكَّلْ إلا على الله، فإنه الخبيرُ بما يَفعلُ، فقولُه: ﴿بِهِۦ﴾ على مجازِ قولكَ: أعوذُ بك منكَ؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١] يرجعُ إلى ما ذُكر مِن خَلْق السماوات والأرض.

وقيل: ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالسؤال، والخبيرُ هو الله تعالى، وقيل: جبريلُ عليه السلام.

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾.

﴿ٱسۡجُدُواْۤ﴾؛ أي: صلُّوا ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ أي: إنَّ الرحمنَ مما لا نعرفُه، فنسجدُ لِمَا لا نعرفُ، ﴿أَنَسۡجُدُ﴾ استفهامُ إنكارٍ ﴿لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾؛ أي: من غيرِ معرفةٍ ﴿وَزَادَهُمۡ﴾؛ أي: قولُك ﴿نُفُورٗا﴾؛ أي: عن الإسلام، وكانوا يقولون: ما نعرفُ إلا رحمنَ اليمامةَ.

وقال الزجَّاج: ما كانوا يَعرفونَ هذا الاسمَ من أسماءِ الله تعالى(١).

وقيل: لم يذهبْ على العربِ هذا الاسمُ، فلعلَّ الآيةَ في قومٍ لم يَعرفوا هذا الاسم من الثَّنَوِيَّة وغيرِهم.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؛ أي: لمسيلمةَ؛ فإنَّا لا نعرفُ مِن الرحمنِ إلا مسيلمةَ.

وعلى الأول: أي: لِمَا لا نعرفُ.

وقيل: أنسجدُ لأمرِ محمدٍ لنا بالسجود لِمَا لا نعرفُ.

وقُرئ: ﴿يَأْمُرُنا﴾ بالياء(٢).

* * *

(٦١ - ٦٢) - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

﴿بُرُوجًا﴾ بروجَ النجومِ الاثنَيْ عَشَر، وقال مجاهدٌ: البروجُ: النجومُ الكبارُ(٣).

وقال الزجَّاج: سُمِّيتِ الكواكبُ بروجاً لارتِفَاعها وظهورِها، والبَرَجُ: تَباعُدُ ما بين الحاجبَينِ(٤)، وبَرَج فلانٌ؛ أي: ظهَر.

وقيل: هي قصورٌ فيها الحَرَس.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾؛ أي: في البروج، وقيل: في السماء ﴿سِرَاجًا﴾؛ أي: الشمسَ؛ كما

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٧٣).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٣) رواه الطبري بهذا اللفظ في «تفسيره» (١٧/ ٤٨٣) عن أبي صالح، وروى عَقِبَه في نفس المعنى عن مجاهد قوله: «الكواكب».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٧٣).

قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، وقرأ حمزةُ: ﴿سُرُجاً﴾ على الجمع[١].

﴿خِلْفَةً﴾؛ أي: مختلفَينِ إلى الناسِ يجيءُ كلُّ واحدٍ منهما حيناً ويذهبُ حيناً، ولم يجعلْ واحداً منهما سرمداً ليَعلَمَ الناسُ عددَ السنينَ والحسابِ، وليكونَ النهارُ للتصرُّفِ والليلُ للسكون.

قال أبو عبيدةَ: الخِلْفةُ: كلُّ شيءٍ بعدَ شيءٍ، وكلُّ واحدٍ من الليلِ والنهارِ يَخلُفُ صاحبَه[٢].

ويقال للمَبْطونِ: أصابه خِلْفةٌ؛ أي: قيامٌ وقعودٌ.

وقال ابنُ عباسٍ: أي: مَن فاتَه شيءٌ من الخيرِ باللَّيل أدركَه بالنَّهار، ومَن فاته بالنهارِ أدركَه بالليل[٣]؛ أي: يتعاقبان في الضِّياء والظَّلام، والزيادةِ والنُّقصان.

وقيل: هو مِن بابِ حذفِ المضافِ؛ أي: ذَوِي خِلْفةٍ؛ أي: اختلافٍ.

﴿يَذَّكَّرَ﴾ فيعلمَ أنَّ الله تعالى لم يجعَلْه كذلك عبَثاً، وقرأ حمزةُ بالتخفيف[٤]؛ أي: يَذْكُرَ ما نَسِيَه في أحدِ الوقتين في الوقتِ الآخر، أو: ليَذْكَرَ تنزيهَ الله تعالى وتسبيحَه فيهما.

وقيل: ﴿يَذْكُرَ﴾ و﴿يَذَّكَّرَ﴾ بمعنًى واحد.

﴿شُكُورًا﴾ يقال: شَكَر يَشْكُرُ شُكراً وشُكُوراً؛ مثل: كَفَر يَكْفُر كُفْراً وكُفوراً، وهذا الشكرُ على أنه جعلَهُما قِواماً لمعاشِهِم، وكأنه لمَّا قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قيل: هو الذي يقدرُ على هذه الأشياءِ.

---

(١) وقرأ بها الكسائي أيضاً، والباقون: ﴿سِرَاجًا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٨٥).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٦٣) ـ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

ولمَّا ذكَر جهالاتِ المشركينَ وطَعْنَهم في القرآنِ والنبوَّةِ؛ ذكَر عبادَه المؤمنين وصفاتَهم؛ أي: عبادُه في الحقيقةِ هم المؤمنون وهذه صفاتُهم، وأضافَهم إلى نفسِه تشريفاً لهم، وكأنَّ مَن لم يُطِعْ قد أَخرَجَ نفسَه من العبودية؛ أي: «هم الذين يمشون» فحذف «هم».

الهَوْنُ: مصدرُ الهيِّن من السكينةِ والوَقار.

وفي التفسير: حُلماءَ متواضِعِين في اقتصادٍ.

وقيل: لا يتكبَّرون.

﴿هَوْنًا﴾ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: مَشياً هَوْناً.

وقيل: لا يمشُون في معصيةٍ، بل في طاعةٍ أو في أمرٍ مباحٍ من غيرِ هَزْلٍ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ٣٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾؛ أي: سلاماً من القولِ وسَداداً من النُّطق؛ أي: يَصُونون أنفسَهم عن مشاتَمةِ السُّفهاء.

وقال الكلبيُّ: نسخَتْها آيةُ القتال[1].

وقيل: أي: قولاً يَسْلَمون فيه من الإثم، ولا حاجةَ إلى دعوى النسخِ.

وقيل: الخيرُ قولُه في آخرِ السورةِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٦٤)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٧٤). وزاد الثعلبي نسبته لأبي العالية.

(٦٤) ـ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

﴿يَبِيتُونَ﴾ ذكَر نهارَهم إذا خرجوا ثم ذكَر ليلَهم وأنهم يسجدُون.

والبَيْتوتةُ: دخولُكَ في الليل، قال ابن عباسٍ: مَن صلَّى ركعتينِ أو أكثر بعد العشاءِ فقد بات ساجداً وقائماً(١).

﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: في وقتِ السجود، ﴿وَقِيَامًا﴾؛ أي: في وقت القيام على أرجلِهم.

* * *

(٦٥ ـ ٦٦) ـ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: هم في طاعتِهم وهم مشفِقون من العذاب.

وقيل: يقولون ذلك في سجودِهم وقيامِهم.

﴿غَرَامًا﴾: هلاكاً، وقيل: لازماً، ومنه: المُغْرَم بالحُبِّ، ومُغْرَمٌ من الغُرْم في الدَّين.

قال الزجَّاج: الغرامُ أشدُّ العذاب(٢).

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ﴾؛ أي: يتعوَّذُونَ منها على عِلْمٍ منهم بأنَّها بئسَ المقامُ، وإذا كانوا على علمٍ كانوا أعرفَ بعِظَمِ قَدْرِ ما يَطلبون، فيكونُ ذلك أقربَ إلى التَّحجُّج.

* * *

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥٤٤)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٦٧)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٧٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٧٥).

(٦٧) - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾: لم يُجاوِزوا الحدَّ ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ بضمِّ التاءِ وكسرِها[١]: لم يضيِّقوا.

وقيل: أَقْتَرَ؛ أي: افتقَر، والمُقْتِرُ: الفقير؛ أي: لم يَقْتروا في إنفاقهم لأن المسرفَ يُشرِفُ على الافتقار.

وقال عمرُ: مِن السَّرَفِ أنْ لا يشتهيَ الرجلُ شيئاً إلا أكَلَه[٢].

وقال ابن عباسٍ: مَن أنفَقَ مئةَ ألفٍ في حقٍّ فليس بسَرَفٍ، ومَن أَنفَقَ درهماً في غيرِ حقِّه فهو سَرَفٌ، ومَن مَنَع من حقٍّ فقد قتَّر[٣].

والقَوَام من العيشِ: ما أقامَكَ وأغناك، وقَوَامُ الجسم: تمامُه، والمراد: الاقتصاد.

***

(٦٨ - ٦٩) - ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في قومٍ من المشركين قتَلوا فأكثَروا، ثم قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ ما تَدْعونا إليه لحَسَنٌ لو تخبرُنا أنَّ لِمَا عَمِلْنا كفَّارةً[٤].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الياء وضم التاء، وقرأ نافع وابن عامر: ﴿يُقْتِرُوا﴾ بضم الياء وكسر التاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٠٠) عن الحسن.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٨٦) من رواية الضحاك عن ابن عباس.

(٤) رواه البخاري (٤٨١٠)، ومسلم (١٢٢).

وقال ابن مسعود: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الذنبِ أعظمُ؟ فقال: «أنْ تجعلَ لله ندًّا وهو خلَقَكَ»، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تقتلَ ولدَكَ مخافةَ أنْ يَطْعَمَ معك»، قال: قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «أنْ تُزانيَ حَلِيلةَ جارِكَ»، فأنزل الله تعالى تصديقَها الآيةَ[1].

وفي روايةٍ عن ابنِ عباس قال: أتى وحشيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: أتيتُكَ مستجِيراً فأَجِرْني حتى أسمَعَ كلامَ الله، فقال: «قد كنتُ أحبُّ أن أراكَ على غيرِ جوارٍ، فأمَّا إذْ أتيتَ مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمعَ كلامَ الله»، قال: فإني أشركتُ بالله، وقتلتُ النفس التي حرَّم الله، وزنيتُ، فهل يقبلُ الله توبتي. فصَمَتَ رسولُ الله ﷺ، فنزلت الآيةُ، فتلاها عليه رسول الله ﷺ، فقال: أَرَى شرطاً، فلعلِّي لا أعملُ عملاً صالحاً، أنا في جوارِك حتى أسمعَ كلامَ الله، فنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فدعا به فتلاها عليه فقال: لعلِّي ممن لا يشاءُ، أنا في جوارك حتى أسمعَ كلامَ الله، فنزل ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر: ٥٣] فقال: الآن لا أرَى شرطاً، فأَسْلَم[2].

﴿ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بيَّن أن [قتلَ النفسِ غيرُ][3] مباحٌ ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بما يَحِقُّ أنْ تُقتَلَ به النفوسُ: من كفرٍ بعد إيمانٍ، وزِنًى بعدَ إحصانٍ، أو قتلِ نفسٍ بغيرِ حقٍّ.

ودلَّت الآيةُ على أنَّه ليس بعدَ الكفرِ بالله شيءٌ أعظمُ من قتلِ النفس بغيرِ حقٍّ، ثم الزنا، ولهذا ثبت في حدِّه القتلُ لمن كان محصَناً.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٤٨٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٥): «فيه أبين بن سليمان وهو ضعيف».

(٣) ما بين معكوفتين وقع بدلاً منه في النسخة الخطية: «الحربي»، ولا يستقيم الكلام.

﴿أَثَامًا﴾؛ أي: عقوبةً، يقالُ: لقي فلانٌ أثامَ ذلك؛ أي: جزاءه.

وقال الفرَّاءُ: يقالُ: أَثَمه اللهُ يَأْثِمُه إثماً وأَثاماً؛ أي: جازاه جزاءَ الإثم، والعبدُ مأثومٌ؛ أي: مجزيٌّ جزاءَ إثمه(١).

وقال الخليلُ وسيبويه: أي: يَلْقَ جزاءَ الأَثَامِ(٢).

وفي التفاسير: أثامٌ وادٍ في جهنمَ من قيحٍ ودمٍ فيه حياتٌ وعقاربُ في فقارِ إحداهن سبعون قُلَّةَ سمٍّ، والعقربُ منها مثلُ البغلةِ المُوْكَفة(٣).

ورَوَى أبو أُمامةَ الباهليُّ عن النبيِّ ﷺ قال: «الغيُّ والأثامُ بئران يسيلُ منها صديدُ أهلِ النار»(٤).

﴿يُضَٰعَفۡ﴾ ﴿وَيَخۡلُدۡ﴾ بالجزمِ فيهما على البدَل من الفعلِ الذي هو جزاءُ الشرط وهو ﴿يَلۡقَ﴾ وقرئ بالرفع(٥) مقطوعاً ممَّا قبله.

---

(١) لم أجده في «معاني القرآن» للفراء، وذكره عنه الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ١١٧)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٩١).

(٢) ذكره عنهما الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٧٦)، وعنه الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٩٢). وانظر: «الكتاب» (٣/ ٨٧).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٨)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (٣٧)، من قول شفي بن ماتع الأصبحي.

(٤) رواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (ص: ٣٦)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٧١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٧٣١)، ولفظه: «بئران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل جهنم، فهذا الذي ذكر الله في كتابه ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] و﴿أَثَامًا﴾». قال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٢٤٦): «هذا حديث غريب ورفعه منكر».

(٥) قرأ ابن عامر وأبو بكر برفع الفعلين والباقون بجزمهما، وابن كثير وابن عامر على أصلهما في الفعل الأول يحذفان الألف ويشددان العين. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٧٠) ـ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ الآيةَ، قال ابنُ عباسٍ: هي منسوخةٌ بقوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء: ٩٣][1]، وقال مرةً: هذا فيمَن كان مشركاً ثُم أسلَمَ، فأمَّا المسلم إذا قتَل فلا توبةَ له[2].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾؛ أي: قبائحَ أعمالهم في الشركِ بصالحِ أعمالِ الإسلامِ: الشِّركَ بالإيمان، والقتلَ بالجهاد، والزِّنا بالعفَّة والإحصان.

وقيل: يمحو اللهُ السيئةَ عن العبدِ ويُثْبتُ له بدَلها حسنةً يومَ القيامة، وفي الخبر: لَيتمنَّيَنَّ قومٌ أنهم أكثَروا من السيئات قيل: مَن هم؟ قال: «الذين يبدِّلُ اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ»[3].

وقيل: إذا وافَوْا ربَّهم مؤمنينَ وَجَدوا بدَلَ قبائحِ أعمالِهم في الكفرِ حسناتٍ في ديوانِهم.

وقيل: أي: يَغفِرُ لهم تلك السيئاتِ، لا أنْ يبدِّلَها حسناتٍ.

وقيل: اسمُ السيئةِ للعقاب، واسمُ الحسنةِ للثَّواب؛ كما قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ [الرعد: ٦]؛ أي: بالعذابِ؛ لقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ [الحج: ٤٧]، فالمعنى: يَغفرُ لهم ويُثِيبُهم بدَل العقاب.

---

(١) رواه مسلم (٣٠٢٣/ ٢٠).

(٢) رواه البخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣/ ١٩).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٦٤٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٩٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الحاكم، ورمز له السيوطي بالصحة كما في «فيض القدير» للمناوي (٥/ ٣٥١).

وفي الخبر: «مَن أحسنَ في الإسلام لم يؤاخَذْ بما عَمِل في الجاهليَّة، ومَن أساء في الإسلام أُخِذ بالأوَّلِ والآخِرِ»[١].

واعلَمْ: أنَّ مَن قَتَل مسلماً متعمِّداً بغيرِ حقٍّ وتاب فهو داخلٌ في قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ وإذا كان الكفرُ يزولُ بالتوبةِ فالقتلُ بذلك أحقُّ.

وقال ابن عباس والضحَّاكُ وجماعةٌ: «الآيةُ فيمَن تاب عن الشِّرك وآمَنَ فالإسلامُ يجبُّ ما قَبْلَه، فأمَّا المسلمُ إذا قَتَل مسلماً عمداً فلا توبةَ له» **وهذا غيرُ بعيدٍ لو صحَّ فيه خبرٌ**[٢]، فإن قبولَ التوبةِ لا يجبُ عقلاً، فلو وَرَد خبرٌ مقطوعٌ به بأنه لا تُقبلُ توبةُ شخصٍ على التعيينِ، أو التوبةُ من كبيرةٍ على التَّعيين، لم يَبْعُدْ في العقل.

* * *

(٧١) ـ ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لا يقال: «مَن قامَ فإنه يقومُ» فكيف قال: ﴿وَمَن تَابَ.. فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ﴾ قال ابن عباسٍ: أي: مَن آمَنَ مِن أهل مكةَ وهاجَرَ ولم يكنْ قَتَل وزَنَى، بل عَمِل صالحاً وأدَّى الفرائضَ، فإنِّي فضَّلْتُهم وقدَّمْتُهم على مَن قاتَلَ النبيَّ ﷺ واستَحَلَّ المحارم[٣].

فالمعنى: مَن آمَنَ ولم يكنْ ممَّن قَتَل وزَنَى فهو مقدَّمٌ على مَن قَتَل وزنَى ثم تابَ وآمَنَ.

وقال القفَّالُ: يحتمِلُ أن تكونَ الأُولى فيمَن تاب من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ ثم عطَفَ عليه مَن تاب مِن المسلمين وأَتْبَعَ توبتَه عملاً

---

(١) رواه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) وقد صح عن ابن عباس حيث هو مروي في الصحيحين كما تقدم، لكنه يبقى قول صحابي، وليس مرفوعاً.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٩٨) من رواية عطاء عن ابن عباس.

صالحاً فله حكمُ التائبين أيضاً، فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِه حسناتٍ.

وقيل: نزلتِ الأولى في أصحابِ النبيِّ ﷺ لمَّا تابوا مِن ذنوبهم السابقةِ في الشركِ من قتلٍ وزنًى، ثم قال: ومَن تاب منكم أيها المشركون بعد نزولِ هذه الآيةِ كما تابَ الأوَّلون فإنه تائبٌ وله حكمُ السابقِ مِن تبديلِ السيئاتِ بالحسنات، فكأنه قال: قَبِلْنا توبةَ أصحابِ النبيِّ ﷺ فيما صدَر منهم حالةَ الشرط مِن الكبائر، وكلُّ مَن تاب بعدَهم فتُقبلُ توبتُه أيضاً.

وقيل: أي: مَن تاب عن ذنوبِه فإنه يرجعُ إلى ثوابِ الله وإحسانِه، والتوبةُ: الرجوعُ، فالأُولى رجوعٌ عن الشركِ والمعاصي، والثانيةُ رجوعٌ إلى اللهِ تعالى للجزاء، قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]؛ أي: رجوعي.

وقيل: أي: مَن تاب بلسانِه دونَ قلبِه فليست توبتُه بناقصةٍ، ومَن تاب بلسانه وقلبِه محقِّقاً ذلك بالأعمالِ الصالحةِ فهو الذي تابَ إلى الله متاباً؛ أي: تاب حقَّ التوبةِ، و﴿مَتَابًا﴾ تأكيدٌ بالمصدر مثلَ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؛ أي: فإنه يتوبُ إلى الله حقًّا فيقبلُ توبتَه حقًّا.

* * *

(٧٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾: لا يَحْضُرون ﴿ٱلزُّورَ﴾: الكذبَ والباطلَ، وهذا من صفاتِ المؤمنين، قال ابن عباسٍ: الزُّورُ: الشركُ[1]، وفي روايةٍ: أعيادُ المشركين[2].

وقال ابنُ الحَنَفيَّة: الزورُ هنا الغناءُ[3]؛ أي: لا يحضُرون مجالسَ الغناءِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٩٨) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) رواه عن ابن عباس الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ١٣)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٧) عن الضحاك. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٥٠٤) عن مجاهد.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٧). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٢٢) عن مجاهد.

وقيل: يعني: شهادةَ الزور.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ اللغوُ: ما يُلْغَى ويُطَّرحُ، وهي المعاصي كلُّها.

﴿كِرَامًا﴾؛ أي: من الكرامِ لا يُمالِئون أهلَه ولا يرضونَه.

وقيل: الذينَ لا يَدخلونَ في الباطلِ، وتكَرَّم فلانٌ عمَّا يَشينُه، أي: تَنزَّه وأكرم نفسَه عنه.

وقيل: إذا سمِعوا الشَّتمَ والأذَى من الكفَّار مرُّوا معرِضِينَ؛ كقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال مجاهدٌ: إذا أَتَوْا على ذكرِ النكاح كَنَوا عنه[١].

وقيل: مِن المرورِ باللَّغوِ كريماً: أن يأمرَ بالمعروفِ ويَنهَى عن المنكَر.

***

(٧٣) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: قُرئ عليهم القرآنُ لم يَفعلوا ما يفعلُه الأصمُّ والأعمى، بل أنكروا بقلوبِهم كما قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقيل: إذا تُليت عليهم وَجِلَتْ قلوبُهم فَخرُّوا سُجَّداً وبُكيًّا ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

وقال الفرَّاء: لم يقعُدوا على حالهم الأُولى كأنْ لم يَسمعوا[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٢٤)، ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٤).

وقيل: هو كذلك للشيء يفهمُه[1]؛ أي: لم يكنِ استماعُهم لها استماعَ مَن لا يفهمُ، بل استماعَ مَن يفهَمُ.

***

(٧٤) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ والذريةُ تكونُ واحداً وجمعاً، فالواحدُ مثلُ قولِه تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ [آل عمران: ٣٨] كقوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى﴾ [مريم: ٥ ـ ٦]، والجمعُ كقولِه تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء: ٩].

قرئ: ﴿وذُرِّيَّتِنا﴾[2] والمراد الجمعُ، و(ذُرِّياتنا) جمعُ الجمع، كما يجمعُ القومُ على أقاوِمَ، والرَّهْطُ على أَرَاهِطَ.

﴿قُرَّةَ﴾ فعلٌ[3]، والفعلُ لا يكادُ يُجمعُ، فلم يقلْ: «قُرَّاتِ»، وهو مصدرُ «قَرَّتْ عينُك قرَّةً»؛ أي: اجعلْ مِن ذرِّيتِنا أتقياءَ تَقَرُّ بهم أعيُنُنا.

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ طلَبوا الرِّيَاسةَ في الدِّين؛ أي: بحيث يُقتدَى بنا في الدِّين لتكثُرَ أجورُنا، فإنَّ مَن سنَّ سُنَّةً حَسنةً فله أجرُها وأجرُ مَن عَمِل بها إلى يومِ القيامةِ.

---

(١) بعدها في النسخة الخطية: «وقد وقعت عليه»، ولعلها محرفة لكن لا يضر حذفها بالسياق.

(٢) قرأ بها أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي، والباقون: ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٣) أي: مصدر، وسماه فعلًا لأن في كليهما معنى الحدث.

ولم يَقلْ: «أئمةً» لأنه مِن الواحدِ الذي أُريدَ بـه الجمعُ، مثل: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

وقال الأخفشُ: الإمامُ جمعُ «آمٍّ» مِن «أَمَّ يَؤُمُّ» جُمع على فِعَالٍ مثلَ: صاحِبٍ وصحابٍ.

وقيل: الإمامُ مصدرٌ سُمِّي به، يقالُ: أَمَّ فلانٌ فلاناً إماماً؛ أي: قَصَده، مثلَ: صام صياماً، وقام قياماً؛ أي: اجعَلْ كلَّ واحدٍ مِنَّا إماماً؛ مثلَ: ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]؛ أي: كلَّ واحد.

وقيل: هو من بابِ القلب؛ أي: اجعلْنا مؤتمِّين بمَن قَبْلَنا.

وقيل: اجعَلْنا إماماً للمتَّقين، ومِن ضَرورته أنْ يتَّبعَ المتَّقين حتى يَصلُحَ لأنْ يَقتديَ به المتَّقون.

وقيل: دَعَوا لِمَن لم يُسلِمْ بعدُ من أهلِيْهِم؛ أي: وفِّقْهُم للإيمان.

وقيل: إماماً في الآخرة يَقْدمُهم إلى الجنة.

* * *

(٧٥ - ٧٦) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿يُجْزَوْنَ﴾ بأفعالِهم الجميلةِ ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ في الجنةِ، والغُرفةُ: العِلِّيَّةُ، وكلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ غرفةٌ، وأصلُها من الغَرْف وهو القَطْعُ والفصلُ، وغرفْتُ ناصيتَه؛ أي: قطعتُها، والغرفةُ: بيتٌ مقطوعٌ مِن غيرِه بعلوِّه وارتفاعِه.

وقال ابن عباس: يريد غُرَفَ الزَّبَرْجَد والدُّرِّ والياقوت[1].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٦١٧).

وقيل: ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾: الجنة.

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ عن المعصية وعلى الطاعة.

﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ بالتشديدِ والتخفيفِ[1] بمعنًى واحدٍ.

﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾؛ أي: من قِبَل الله تعالى.

وقيل: يُحَيِّي بعضُهم بعضاً بالسلام.

وقيل: سلَّم الله تعالى لهم أمرَهم وتجاوَزَ عنهم وأسمَعَهم التحيةَ.

وقيل: تحيِّيهم الملائكةُ مِن عندِ أنفسِهم ويُلقُّونهم سلامَ الله عليهم.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ حالٌ من ﴿يُلَقَّون﴾.

* * *

(٧٧) ـ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾ بيَّن أنه لا حاجةَ به إلى الخَلْق، ولكنه دعاه إلى طاعتِه، فمَن كذَّب أفضى به التكذيبُ إلى عذابٍ لازمٍ، يقال: ما أَعْبَأُ بهذا الأمرِ؛ أي: ما أصنعُ به؟ كأنك تستحقرُه، والعِبْءُ: الثِّقْلُ، وعَبَأْتُ المتاعَ؛ أي: جعلتُ بعضَه على بعضٍ، وما عَبأتُ بكذا؛ أي: ما له عندي وزنٌ.

﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾؛ أي: لولا دعاؤه إياكُم لتَعْبُدوه، أي: أيُّ مقدارٍ لكم عند الله لولا أنه خلَقكم لتَعْبُدوه وتوحِّدوه.

وقيل: لولا عبادتُكم، بيَّن أنَّ مَن لا يعبدُ الله تعالى فلا وزنَ له.

---

(١) بفتح الياء وتخفيف القاف قراءة حمزة والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر، وقرأ الباقون: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ بضم الياء وتشديد القاف. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٥).

وقيل: ما يَعبأُ بعذابِكم لولا ما تَدْعُونه مِن دونِه من الشريكِ والولد.

﴿كَذَّبْتُمْ﴾ الخطابُ لأهلِ مكةَ؛ أي: كذَّبْتُم محمداً ولم تُؤْمِنوا به ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ هذا التكذيبُ ﴿لِزَامًا﴾؛ أي: يَلزمُكم لا يفارقُكم.

وقيل: عَنَى القتلَ يومَ بدر.

وقال أبو عبيدةَ: اللِّزامُ فصلُ الشيء[1]، وهو ضدُّ اللزوم؛ أي: فسوف يكون فصلاً بينكم وبينَ المؤمنين.

وقيل: اللِّزامُ: الهلاك.

* * *

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٨٢)، وفيه: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾؛ أي: جزاء وهو الفيصل... يلزم كلّ عامل ما عمل من خير أو شر، وله موضع آخر: فسوف يكون هلاكاً. وانظر: «البسيط» (١٦/ ٦٢٥)، وفيه أيضا: الفيصل.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ ـ ٦) ـ ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ
٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ
مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

﴿طسٓمٓ﴾ قال ابنُ عباسٍ: ﴿طسٓمٓ﴾ اسمٌ من أسماءِ الله تعالى[1].

وهو بعيدٌ؛ إذ لا يقالُ: «يا طسم» في الدعاء.

وقيل: اسمُ السورة[2].

وقيل: من أسماء القرآن.

﴿تِلۡكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم نزولُه، وقيل: أي: هذه.

﴿بَٰخِعٞ﴾: مُهلِكٌ؛ أي: لا تتأسَّفْ عليهم بعدَما بلَّغْتَ، وإنَّما قال ذلك لشدَّةِ حرصِه على إيمانهم وكثرةِ حُزنهِ على كفرِهم.

﴿إِن نَّشَأۡ﴾؛ أي: إنْ شِئْنا ﴿نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾؛ أي: آياتٍ ضروريَّاتٍ لكن سبقَ الحكمُ بأنَّ المعارفَ اليومَ نَظَرية[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٤٢)، ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٧).

(٢) وهو اختيار المصنف كما تقدم مراراً.

(٣) ومعنى الكلام: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾؛ أي: معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية. انظر: «تفسير القرطبي» (١٦/ ٩).

﴿فَظَلَّتْ﴾ أي: فتظلُّ؛ مثل: إنْ أَتيْتَني أكرَمْتُكَ؛ أي: أكرمُكَ، فصحَّ الماضي موضعَ المستقبل.

﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾: جمعُ عنقٍ ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ولم يقل: «خاضعةً» لرؤوس الآي، وجاز ذلك لأن الأعناقَ إذا خضعَتْ فأربابُها خاضِعِينَ، فتُرِك الخبرُ عن الأعناقِ وأُخبِرَ عن أربابِها.

وقيل: عُني بالأعناق: الجماعات، يقال: جاءني عُنُقٌ مِن الناس.

﴿مِّن ذِكْرٍ﴾: من آيةٍ من القرآنِ، فالذكرُ: القرآنُ؛ كما قال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥].

وقيل: الرسولُ؛ لأنه سببُ الذِّكر.

﴿مُحْدَثٍ﴾؛ أي: متجدِّدِ النُّزول.

﴿أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: العذابُ، قيل: عُنيَ يومُ بدر.

وقيل: في الآخرة.

وقيل: سيكونُ لهذا الأمرِ نبأٌ وليَظهرَنَّ على الدِّين كلِّه.

***

(٧ ـ ٩) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ نبَّه على ما إذا تأمَّلوه علِموا أن الله خالقُ كلِّ شيءٍ، وله التصرُّفُ في مُلكِه بابتعاثِ الرسل.

﴿زَوْجٍ﴾: صنفٍ من النباتِ والفواكهِ بعد أن كانتْ ميتةً.

﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: حسنٍ طيِّبٍ، ونخلةٌ كريمةٌ: إذا طاب حَمْلُها وكثُر.

وقيل: نبَّه على البعث؛ أي: مَن قَدَر على هذا قَدَر على ذلك.

﴿الْعَزِيزُ﴾: المنيعُ المنتقِمُ مِن أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

* * *

(١٠ ـ ١٤) ـ ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ﴾؛ أي: واتْلُ إذ، أو: واذْكُرْ إذ؛ عرَّفَنا أنه أَرسَلَ رُسلاً وأُوذوا فصَبَروا، فكانت العاقبةُ المحمودةُ لهم.

وقيل: وإذ نادى ربُّك موسى كان كذا وكذا.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المشركين، ظلَموا أنفسَهم بالكفر، وظلَموا بني إسرائيلَ بالأسرِ يَسومُونهم سوءَ العذاب.

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ كان في لسانِه عقدةٌ.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾؛ أي: جبريلَ، ولم يقلْ: «لِيُعِيْنَني» لأنه معلومٌ، وفي موضعٍ آخَرَ: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤] وكأنَّ موسى أُذِنَ له في هذا السؤالِ، وليس هو استعفاءً من الرسالة بل طلبَ الإعانة.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾: قتلُ القِبْطي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾؛ أي: بقَتْلي إيَّاه.

وقيل: بزعمِهم أن لهم عليَّ مطالبةً بحقٍّ أو باطلٍ(١).

---

(١) هنا آخر السقط الذي وقع في النسخة الخطية لمكتبة أحمد الثالث المرموز لها بـ(أ)، وقد استدركناه من النسخة الخطية لكتاب «التفسير المختصر» للمصنف (م)، كما نبهنا سابقاً في (ص: ٣٦٩) من هذا المجلد.

(١٥) - ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: ﴿كَلَّا﴾ لن يقتُلوكَ، فهو زجرٌ عن هذا الظَّنِّ، وأمرٌ بالثِّقةِ بالله سُبحانَه وتعالى، ﴿فَٱذْهَبَا﴾ أنتَ وأخوكَ فقد ضَمَمْتُه إليك ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: ببراهينِنا وبالمُعجِزاتَ.

وقيلَ: أي: مع آياتِنا.

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾؛ أي: أنـا معكم أستَمِعُ وأرَى، وأجراهُما مُجرَى جمعٍ فقال: ﴿مَعَكُم﴾.

وقيلَ: أي: أنا معك ومع هارونَ ومع فرعَونَ وملَئِه.

﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ فيه تجوُّزٌ من وجهَينِ:

أحدُهما: لفظُ الجمعِ.

والثّاني: مُستمِعٌ بمعنَى سامعٍ، والاستماعُ: طلَبُ السَّمعِ بالإصغاءِ، والله سامعٌ من غيرِ حاجةٍ إلى إصغاءٍ.

***

(١٦ - ١٧) - ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرَّسولُ بمعنَى الرِّسالةِ.

وقيلَ: الرَّسولُ مصدرٌ كالقَبولِ؛ أي: إنّا ذَوُو رسالةٍ، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: الرَّسولُ يقَعُ على الواحدِ والجمعِ والاثنَينِ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وقولِه: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قولُـه تعالـى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أُرسِـلْنا إليكَ بأن تُرسِـلَ معَنا بني إسـرائيلَ؛ أي: بأنْ تُخلِّــيَ عنهم وتترُكَ اسـتعبادَهم، تقولُ: «أرسَـلْتُ الصَّيدَ»؛ أي: خلَّـيتُه.

***

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ فيه حذفٌ؛ أي: فأتياه وأبلغا الرِّسالةَ، فقالَ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾؟ عرَّفَ فرعونُ موسى بأنَّه ربَّاه في صِغَرِه، وكان هذا بعدَ أن مضَى موسى من طُورِ سيناءَ إلى مصرَ.

والوليدُ: المولودُ، وموسى وُلِدَ فيهم، وربَّاه فرعَونُ في صِغَرِه.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: ثماني عشرةَ سنةً[١].

وقال مُقاتلٌ: ثلاثينَ سنةً[٢].

وقال الكلبيُّ: أربعينَ سنةً[٣].

قولُه تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعـني: قتَلْتَ القِبْطيَّ، فكيف تدَّعي مع علمِنا بأحوالِكَ أنَّ الله أرسلَكَ.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: بإلـهِكَ؛ لأنَّـك كنتَ معَنا على دينِنا هذا الذي نَدينُه.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٣٣).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٦٠).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٣٣).

وقيلَ: أي: منَ الكافرينَ للنِّعمِ التي لنا عليك منَ التَّربيةِ والإحسانِ إليك؛ لأنَّ فرعَونَ لـم يكُنْ يعلَمُ ما الكفرُ بالرُّبوبيَّةِ.

***

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾؛ أي: فعَلْـتُ تلـك الفعلـةَ ﴿وَأَنَا۠﴾ إذ ذاكَ ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: (مـنَ الجاهليـنَ)، وهكـذا فـي مُصحَـفِ عبـدِ الله[1].

ويُقالُ: مَن جهِلَ شيئًا ضلَّ عنه؛ أي: فعلتُها وأنا جاهلٌ بأنَّها تأتي على نفسِ الرَّجلِ فلم أتعمَّدْ.

وقيلَ: وأنا منَ الضّالِّينَ عن النُّبوّةِ، ولـم يأتِني منَ الله شيءٌ، فليس عليَّ فيما فعلتُه في تلك الحالةِ توبيخٌ، وبيَّنَ بهذا أنَّ التَّربيةَ فيهم لا تُنافي النُّبوّةَ والحكمَ على النّاسِ، وأنَّ القتلَ خطأً أو في وقتٍ لـم يكُنْ عليه فيه شرعٌ لا يُنافي النُّبوّةَ.

قولُـه تعالـى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾؛ أي: خرَجْـتُ مـن بينِكـم إلـى مديـنَ ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾؛ أي: نُبـوّةً؛ لأنَّ النَّبـيَّ يحكـمُ على النّاسِ بشـرائعِ الدِّينِ الذي أُرسِـلَ به.

وقيلَ: ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: علمًا.

***

---

(١) ذكرها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٧٩)، ورواها عنه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠٨)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٥٧).

(٢٢) - ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أتـمُنُّ عليَّ بأنْ ربَّيتَني وليدًا وأنتَ قد استعبَدْتَ بني إسرائيلَ؛ أي: تذكرُ إحسانَكَ إليَّ على الخصوصِ، وتنسى استعبادَكَ بني إسرائيلَ، ولولا ذلك لَـمَا احتَجْتُ إلى تربيتِكَ إيّايَ.

أو: تـمُنَّ عليَّ بأن استعبَدْتَ بني إسرائيلَ وهم قومي، يُقالُ: «استعبَدَه وعبَّدَه وتعبَّدَه»؛ أي: أخذَه عبدًا.

ثمَّ قيلَ: فيه تقديرُ استفهامٍ؛ أي: أوتلكَ نعمةٌ؟

وقيـلَ: ليـس فيه اسـتفهامٌ، بل هو إنـكارٌ؛ أي: تلك نعمـةٌ تمُنُّ بهـا عليَّ لأنَّك عبَّـدتَ بنـي إسـرائيلَ، ولو لـم تسـتعبِدْهم لكفَلَني أهلي، وهـو كالرَّجلِ يذكـرُ منَّته علـى غيـرِه، فيقـولُ المُخاطَـبُ: هـذه النِّعمـةُ حصَلَتْ لـك علـى أنْ قتلـتَ أبوَيَّ، ولـو لـم تقتُلْهما لربَّيانـي، فيكونُ ذكرُ سـببِ تربيتِـه إيّاه دفعًا لِـمَا ذكرَ مـنَ النِّعمةِ وإنكارًا.

وقيـلَ: ليـس فـي هـذا إنـكارٌ مـن موسـى لنعمـةِ فرعَـونَ فـي التَّربيـةِ، بل هو اعتـرافٌ، أي: هـي نعمةٌ حيثُ اسـتعبَدْتَ بني إسـرائيلَ ولم تسـتَعبِدْني، بـل ربَّيْتَني وأنزَلْتَنـي منزلـةَ الولدِ.

وعلـى هذا فحجَّةُ موسـى قائمةٌ أيضًـا؛ لأنَّ مِنَّةَ فرعَـونَ عليه بالتَّربيـةِ لا تُنافي إكـرامَ الله تعالـى إيّـاه بالنُّبـوةِ، ومـن شُـكرِه لنعمـةِ فرعَـونَ أن يدعُـوَه إلـى الإيمانِ بـالله تعالى.

***

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لـمَّا قال موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال فرعَونُ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ أي: ما إلـهُك هذا؟

فأجابَ بما دلَّ على الله من مخلوقاتِه، وقد سألَ فرعَونُ عن الجنسِ ولا جنسَ لله تعالى، فعلِمَ موسى جهلَه، فأضرَبَ عن سُؤالِه، فأخبرَه بعظيمِ قُدرةِ الله تعالى، ولهذا قال فرعونُ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ ثمَّ قال: إنَّه لمجنونٌ؛ أي: ليس يُجيبُني عمَّا أسألُ.

وقيلَ: علِمَ موسى أنَّ قصدَه في السُّؤالِ معرفةُ مَن سألَ عنه، فأجابَ بما هو الطَّريقُ إلى معرفةِ الرَّبِّ اليومَ.

وقيلَ: علِمَ موسى أنَّ فرعَونَ يعلَمُ أنَّ الله ربُّه، وإنْ كان يُظهِرُ غيرَ ذلك، فلمَّا علِمَ أنَّه يُريدُ: ما مُلكُ ربِّ العالمينَ؟ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾.

وعلى الجملةِ: أرادَ فرعونُ: أيُّ شيءٍ هو؟ من أيِّ الأجناسِ هو؟ ولـم يكُنْ لموسى طريقٌ في إزالةِ جهلِه إلّا أن يذكُرَ مصنوعاتِ الرَّبِّ حتَّى يعرِفَ فرعَونُ أنَّه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، فظنَّ فرعَونُ أنَّه ما أجابَ، فقالَ: ألا تستَمِعُونَ؟ فزادَ موسى في البيانِ.

وقيلَ: ﴿ما﴾ بمعنَى «مَن»؛ أي: مَن ربُّ العالَـمين؟

وقيلَ: أي: ما قولُكَ في ربِّ العالمين؟

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي: بأنَّه الخالقُ.

وقيلَ: أي: إن كنتُم تقصِدُونَ معرفةَ الحقِّ.

وقيـلَ: إن كنتُـم مُوقنينَ بما تُعاينُونَ منَ السَّماواتِ والأرضِ ومـا بينَهما؛ لأنَّ

مَـن عايَـنَ ذلك وتأمَّـلَ علِمَ أنَّ لهـا صانِعًـا، وأنَّ فرعَـونَ لا يصلُحُ لذلـك، ولا مَن كان مثلَـه فـي الحـدوثِ، فمَن نَفَـى هذا الصّانـعَ فكأنَّه نفَـى السَّـماواتِ والأرضَ، وجحَدَ المحسوسـاتِ.

* * *

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ لـمَّا تحيَّرَ ولـم يجِدْ جوابًا ينقُضُ به قولَ موسى قال: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ أي: إنَّه كلامٌ غيرُ معقولٍ.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قال موسى: هو ربُّكم وربُّ آبائِكم؛ أي: الذي أدعوكُم إليه مَن خلقَكم وآباءَكُم.

* * *

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أوهَـمَ أنَّه لـم يُجِـبْه عمَّا سألَ، أو أرادَ: إنَّه مجنونٌ لأنَّه يزعُمُ أنَّ هاهُنا إلـهًا غيري، وكان هذا عجزًا منه عنِ الاعتراضِ على حجّةِ مُوسَى.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ لم يُجِبْ عمَّا نسبَه إليه منَ الجنونِ بل اشتَغَلَ بتقريرِ الحجّةِ.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ توحيدَ الله تعالى.

وقيلَ: إنْ كان لكم عقولٌ؛ فإنَّ مَن عقَلَ وتدبَّرَ علِمَ أنَّ فرعَونَ لا يكونُ إلـهًا.

* * *

(٢٩ ـ ٣٣) ـ ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ لـم يقُلْ: ما دليلُكَ على أنَّ هذا الإلهَ أرسلَكَ؟ لأن فِيَه الاعترافَ بأنَّ ثَمَّ إلـهًا غيرَ فرعونَ، بل توعَّدَ موسى بالحبسِ وقال: لأحبِسنَّكَ؛ لقطعِ تساؤُلِه عنِ النّاسِ، وكان إذا سجَنَ أحدًا لـم يُخرِجْه من سجنِه حتَّى يموتَ، وكان سجنُه أشدَّ منَ القتلِ.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: أتسجُنُني ولو جئتُكَ بشيءٍ يُبيِّنُ لك صدقَ دَعوايَ أنِّي رسولُ الله تعالى، وأنَّ الذي أرسلَني قادرٌ على ما يشاءُ؟!

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: فيما تدَّعيه من ذلك الشَّيءِ المُبينِ.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: تحوَّلَتِ العصا ثُعبانًا، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، والجانُّ إلى الصِّغَرِ مائلٌ، فقيلَ: شبَّهَها بالجانِّ في خفَّتِها وسُرعتِها، وأمّا الخِلقةُ فكانَتْ في هيئةِ ثُعبانٍ، فلا تناقُضَ.

وقيلَ: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ تشبيهٌ بالشَّيطانِ، كما قال: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

قولُه تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾؛ أي: من كُمِّه أو جَيبِه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ مثلُ الثلج، ثمَّ ردَّها فرجعَتْ لهيئَتِها، وأخذَ العصا بيدِه، فعادَتْ كما كانت.

* * *

(٣٤-٣٥) - ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بالسِّحرِ، فموَّهَ على جُلسائِه بأنَّه سحرٌ.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾؛ أي: يُنحِّيَكم من أرضِ مصرَ ويستوليَ عليها .

وقيلَ: أنْ يُوقِعَ بينكم العداوةَ والفُرقةَ حتَّى يُخرِجَكم من نعمَتِكم وبلادِكم.

أو: يُريدُ أن يُخرِجَ بني إسرائيلَ من أرضِكم حتَّى لا يبقَى لكم عبيدٌ.

وأمَّا قولُه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فهذا استشارةٌ لـهم.

***

(٣٦ - ٤٠) - ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخِّرْه واحبِسْه وابعَثْ حاشرينَ في مدائنِ ملكِكَ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: ليأتُوكَ بالسَّحَرةِ.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ أي: فقبِلَ فرعَونُ ما أشارُوا به وتواعَدُوا ليومٍ معلومٍ، وهو يومُ الزِّينةِ، وهو يومُ عيدِهم.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾؛ أي: قال أصحابُ فرعَونَ للنَّاسِ: اجتَمِعُوا لتنظُروا ما يفعلُ الفريقانِ؟ ولِـمَن تكونُ الغلَبةُ؟

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾؛ أي: لنتَّبعَ السَّحرةَ؛ كقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]؛ أي: لتُرحَمُوا، وكانتِ السَّحرةُ على دينِ فرعونَ؛ أي: لنكونَ في جُملتِهم.

قال كعبٌ: كانتْ سحرةُ فرعونَ اثني عشرَ ألفًا[1].

وقيلَ: سبعينَ ألفَ ساحرٍ، وألقَوا سبعينَ ألفَ حبلٍ، وسبعينَ ألفَ عصًا.

وقيلَ: قال فرعَونُ: اجتَمِعُوا لعلَّنا نتَّبعُ موسى وهارونَ، وكان هذا استهزاءً منه؛ أي: وهذا لا يكونُ.

***

(٤١ - ٤٢) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟﴾ لفرعَونَ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾؛ أي: ثوابًا إنْ غلَبْنا موسى ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: لكم أجرٌ عندي، وأُقرِّبُكم من مجلِسي.

***

(٤٣ - ٤٤) - ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟﴾ هذا أمرُ زجرٍ وتهديدٍ.

وقيلَ: جازَ هذا الأمرُ لعلمِه بأنَّ الحقَّ سيظهرُ مُرتَّبًا على ذلك.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٤).

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾؛ أي: طرَحُوا وظَنُّوا أنَّهم غلَبُوا موسى بهَولِ مناظرِها.

﴿ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾؛ أي: بقُوَّتِه وعظَمَتِه ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ لمُوسى.

* * *

(٤٥) ـ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ ﴾ أي: فأوحَى الله تعالى إلى موسى، فألقَى عصاه، فصارَتْ ثُعبانًا عظيمًا، والتَقَمَتْ تلكَ الحبالَ والعصا على كثرتِها.

﴿تَلْقَفُ ﴾ أي: تتلَقَّفُ.

وقُرِئَ: «تلقَف» بالتَّخفيفِ(١)، والمعنَى واحد.

﴿ما تأفكون﴾ أي: ما تكذِبُونَ به.

* * *

(٤٦ ـ ٤٨) ـ ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾؛ أي: السَّحَرةُ الذين جمَعَهم فرعونُ، وكانُوا في حالةِ السُّجودِ مُؤمنينَ، فأُجرِيَ عليهم الاسمُ المُتقدِّمُ للتَّعريفِ.

وقال: «أُلقِيَ» ولـم يقُلْ: «وقَعُوا» للمُبالغةِ في وصفِ مُبادرتِهم إلى السُّجودِ.

﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ أي: مَن كفرَ به فرعَونُ، وهو إلهُ موسى وهارونَ الذي قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ردًّا عليه.

---

(١) قرأ برفع الفاء ابنُ ذكوانَ، وحفصٌ بإسكان اللام مع تخفيف القاف، وقرأ الباقون بالجزم وتشديد القاف، والبَزِّيُّ على أصله في تشديد التاء وصلًا. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧١)، و«التيسير» (ص: ١١٢ و١٥٢).

(٤٩ ـ ٥١) ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: أَصَدَّقتُم موسى من غيرِ إذني؟ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فأَوْهَم مَن حَضَره أنَّ مِن السِّحر ما جهِلَه هؤلاءِ الذين جاءَ بهم منَ المدائنِ.

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ وترهيبٌ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ هدَّدَهم بالقطعِ والصَّلبِ.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ﴾ بيَّنَ أنَّهم لشِدَّةِ استِبصارِهم لم يُبالُوا بعقابِ الدُّنيا؛ أي: قالوا: إنَّما عذابُكَ في ساعةٍ، فنَصبرُ لها وقد لَقِينا اللهَ مُؤمنينَ.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: إلى حِلمِه وثوابِه؛ أي: عذابُكَ فانٍ، وثوابُ اللهِ باقٍ.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ يعني: إيهامَهم النَّاسَ أنَّهم يقدرُونَ على قلبِ الأعيانِ بالسِّحرِ.

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لأَنْ كنَّا أوَّلَ مَن آمنَ بمُوسى ممَّن كان في جانبِ فرعَونَ، والمُرادُ: أنْ كنَّا أوَّلَ مَن آمنَ في هذه الحالِ عند ظُهورِ آيةِ مُوسى.

وقال الفرَّاءُ: أي: لأَنْ كنَّا أوَّلَ مُؤمني زمانِنا[1].

وفيه نظرٌ؛ لأنَّه كان مع مُوسى ستُّ مئةِ ألفٍ من بني إسرائيلَ كلُّهم كانوا مُؤمنينَ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٠).

(٥٢) ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ هذا كانَ بعد قصَّةِ السَّحَرةِ بسنينَ، وبعد إرسالِ الله تعالى على قومِ فرعَونَ الجرادَ والقُمَّلَ والضَّفادعَ والدَّمَ؛ أي: أوحَيْتُ إليه أنْ سِرْ ببني إسرائيلَ ليلًا، وسمَّاهم عبادَه لأنَّهم آمَنُوا بموسى.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛ أي: يتَّبِعُكم فرعَونُ وقومُه ليرُدُّوكم، وفي ضمنِ هذا تعريفُهم أنَّ الله سبحانَه وتعالى يُنجِّيهم منهم.

* * *

(٥٣ ـ ٥٦) ـ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ لـمَّا أُخبِرَ بمسيرِهم أرسلَ الشُّرَطَ ليحشُرُوا إليه النّاسَ منَ القُرَى وأطرافِ مصرَ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾؛ أي: أمرَ الشُّرَطَ حتَّى يقولُوا للنّاسِ: نحنُ أولو قوَّةٍ، ولا خطرَ لهؤلاءِ، فاجتَمِعُوا إلينا.

ويحتمِلُ أنَّهم لـمَّا اجتَمَعُوا إليه بمصرَ قال لهم فرعَونُ: إنَّهم شِرذِمةٌ؛ أي: طائفةٌ منَ النّاسِ قليلون، والجمعُ: الشَّراذِمُ، يُقالُ: «عُصبةٌ قليلةٌ، وقليلُون»، و«كثيرةٌ وكثيرُونَ».

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ يُقالُ: «غاظَني كذا وأغاظَني»، والغَيظُ: الغضَبُ، ومنه: «التَّغيُّظُ والاغتِياظُ»؛ أي: غاظُونا بخُروجِهم من غيرِ إذنٍ.

وقيلَ: إنَّهم استَعارُوا حُليَّهم وذهبُوا بها.

وقيلَ: ماتَتْ أبكارُهم تلك اللّيلةَ فغاظَهم ذلك.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ﴾؛ أي: مُجتَمِعُونَ، كما قال الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، ﴿حذِرُونَ﴾؛ أي: أخَذْنا حِذْرَنا وأسلِحَتَنا.

وقُرِئَ: ﴿حَٰذِرُونَ﴾[1]، ومعناه: حذِرُونَ.

وقيلَ: ﴿حَٰذِرُونَ﴾؛ أي: علينا السِّلاحُ، و﴿حذِرُونَ﴾؛ أي: فَرِقُونَ، والحذَرُ: اجتِنابُ الشَّيءِ خوفًا منه.

***

(٥٧ - ٥٩) - ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾؛ أي: فرعونَ وقومَه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ أي: أنهارٍ جاريةٍ.

قولُه تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ﴾؛ أي: منَ الذَّهبِ والفِضّةِ.

وقيلَ: الكنزُ: كلُّ ما لا يُعطَى منه حقُّ الله تعالى وإنْ كانَ ظاهرًا.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: مساكنَ حِسانٍ كانت تُكرَمُ عليهم.

وقيلَ: المقامُ: المقاماتُ التي كان يقومُ بها أشرافُهم في المحافلِ بجلائلِ الأمورِ.

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: كما وَصَفْنا أورَثْناها بني إسرائيلَ؛ لأنَّهم رجَعُوا إلى مصرَ بعد هلاكِ فرعَونَ.

وقيلَ: أرادَ ما استَعارُوا من حُليٍّ إلى فرعَونَ.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم وابن ذكوان. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧١)، و«التيسير» (ص: ١٦٥). وذكر في «النشر» (٢/ ٣٣٥) خلافاً عن هشام. وهشام وابن ذكوان هما راويا ابن عامر.

(٦٠) ـ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾؛ أي: فتبعَ فرعَونُ وقومُه بني إسرائيلَ للطَّلبِ مُشرقينَ؛ أي: بعدَ أن طلَعَتِ الشَّمسُ، وذلك أنَّهم اشتغَلُوا بدفنِ مَن ماتَ من أبكارِهم إلى أن انبَسطَتِ الشَّمسُ، فقولُه: ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ حالٌ لقومِ فرعَونَ.

وقيلَ: صفةُ قومِ موسى؛ فإنَّ قومَ فرعَونَ أرسلَ الله تعالى عليهم ضبابةً وظُلمةً، وكان قومُ موسى في الشَّمسِ مُشرقينَ حتَّى تباعَدُوا عن قومِ فرعَونَ، فقولُه: ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ حالٌ من «هم» في قولِه تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾.

وتباطَأَ أصحابُ فرعَونَ؛ لأنَّهم قالوا من فَرْطِ الضَّبابِ: نحنُ بعدُ في اللَّيلِ.

ويُقالُ: «أتبَعَ فلانٌ فلانًا»؛ أي: تبِعَه بسيرٍ.

وقيلَ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾؛ أي: لحِقُوهم حتَّى شَرَقَتِ الشَّمسُ.

* * *

(٦١ ـ ٦٢) ـ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ أي: تقابَلَا بحيثُ يَرى كلُّ فريقٍ صاحبَه، وهو «تفاعُلٌ» منَ الرُّؤيةِ، كما يُقالُ: «تراءَى القومانِ».

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: قرُبَ منَّا العدوُّ، ولا طاقةَ لنا بهم.

وقيلَ: كانت مُقدِّمةُ فرعَونَ سبعَ مئةِ ألفِ فارسٍ، وكان البحرُ أمامَهم، فقالوا: لا مهرَبَ لنا منهم.

قولُه تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ﴾؛ أي: كلَّا لم يُدرِكُوكم، وذلك لأنَّ الله تعالى وعدَه

النَّصـرَ، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾؛ أي: بالنَّصـرِ علـى العـدُوِّ ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: سـيدُلُّني علـى طريـقِ النَّجاةِ.

***

(٦٣ ـ ٦٨) ـ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾؛ أي: فضرَبَ فانفلَقَ؛ أي: فانشَقَّ وظهرَ منه اثنَا عشرَ طريقًا يابسًا، كلُّ طريقٍ طولُه فرسخانِ، وقامَ الماءُ عن يمينِ الطَّريقِ ويسارِه كالجبلِ العظيمِ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وهذا هو بحرُ القُلْزُمِ، وكان لكلِّ سبطٍ فِرْقٌ.

والفِرْقُ: ما انفرَقَ من ماءِ البحرِ، والفَرْقُ: المصدرُ.

ثمَّ قال قومٌ: الفِرقُ يرجعُ إلى الطُّرقِ اليابسةِ؛ أي: كانت طُرُقًا واسعةً بيِّنةً كالأطوادِ.

وقال قومٌ: الفِرْقُ إشارةٌ إلى الماءِ عن جوانبِ الطُّرقِ.

والطَّودُ: القِطعةُ العظيمةُ منَ الجبلِ.

قولُه تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾؛ أي: قرَّبْنا منَ البحرِ قومَ فرعَونَ فدخلُوه كما دخلَه موسى، فلمَّا دخُلوا اضْطَربَ عليهم البحرُ فصارَتِ الأفراقُ شيئًا واحدًا، وغرِقَ فرعَونُ وقومُه، ونجا موسى وقومُه.

وقيلَ: ﴿أَزْلَفْنا﴾؛ أي: قرَّبْناهم منَ الهلاكِ، والأصلُ فيه القُربُ، ومنه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، وسُمِّيَتِ المُزدلفةَ لاقترابِها من مِنَى.

وقيلَ: ﴿أَزْلَفْنا﴾؛ أي: جمَعْنا، ومنه: ليلةُ المُزدلفةِ، وهي ليلةُ الجمعِ.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾؛ أي: علامةً على قُدرةِ الله سُبحانَه وتعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنَّه لم يُؤمِنْ من قومِ فرعَونَ غيرُ آسيةَ، وغيرُ حزقيلَ، وهو مؤمنُ آلِ فرعَونَ، وغيرُ مريمَ بنتِ ناموسَا التي دلَّتْ على عظامِ يوسفَ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: في انتقامِه من أعدائِه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائِه.

***

(٦٩ ـ ٧١) ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نبَّه المُشركينَ على فَرْطِ جهلِهم؛ إذ رغِبُوا عن اعتقادِ إبراهيمَ ودينِه، وهو أبوهم.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أيَّ شيءٍ تعبُدونَ؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وكانت أصنامُهم من ذهبٍ وفضّةٍ ونُحاسٍ وحديدٍ وخشبٍ ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾؛ أي: فنُقيمُ على عبادتِها، وليس المُرادُ وقتًا مُعيَّنًا، بل هو إخبارٌ عمَّا هم فيه.

وقيلَ: كانُوا يعبُدونَها نهارًا، يُقالُ: «ظلَّ يفعَلُ كذا»: إذا فعلَه نهارًا، و«باتَ يفعَلُ كذا»: إذا فعلَه ليلًا.

***

(٧٢ ـ ٧٤) ـ ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾؛ أي: هل يُحسُّونَكم إذا دعَوتُموهم لنائبةٍ نزلَتْ بكم؟

وقيلَ: هل يسمَعُونَ أصواتَكم؟ فحُذِفَ المُضافُ، يُقالُ: «سمعتُه، وسمعتُ له» و«سمعَ الله لمَن حمِدَه، ومَن حمِده»، ومثلُه: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]، يُقالُ: «كِلتُه، وكِلْتُ له»، و«أسمَعْتُكَ وأسمَعْتُ لك»، فقولُه: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾؛ أي: يسمَعُونَ منكم.

قولُه تعالى: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾؛ أي: هل تنفَعُكم هذه الأصنامُ وترزُقُكم أو تملكُ لكم ضرًّا إنْ عصَيتُم؟ وهذا استفهامٌ لتقريرِ الحجّةِ عليهم، فإذا لم ينفَعُوا ولم يضُرُّوا فما معنى عبادتِكم لها؟

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: فنحنُ نُقلِّدُهم.

* * *

(٧٥ - ٨٢) - ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾؛ أي: قال ليس معكم حجّةٌ فيما عبدتُم وأسلافكم؛ فإنَّهم عدوٌّ لي؛ أي: أنا بريءٌ منهم، فهذا معنى عداوةِ الأصنامِ له؛ أي: فإنِّي اجتَنَبْتُ عبادتَهم وأُعاديهم، وقد يُقالُ للمُعادي والمُعادَى جميعًا: «عدوٌّ»، وقد قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقد يُقالُ: «فلانٌ حبيبٌ لي»؛ أي: أنا أُحبُّه، فإذًا فاعلُ العداوةِ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا الأصنامُ التي هي جماداتٌ.

وقيلَ: أي: أنا أفعلُ بهم ما لو فعلتُ بحيٍّ لعاداني؛ أي: أستَخِفُّ بالأصنامِ.

وقيلَ: إنَّهم عدوٌّ لي يومَ القيامةِ إنْ عبدتُهم.

وقيلَ: هو منَ المقلوبِ؛ أي: فإنِّي عدوٌّ لهم، ومَن عادَيتُه فقد عاداني.

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو استثناءٌ مُنقطعٌ؛ أي: لكنَّ ربَّ العالمين أعبدُه فلا أتبرَّأُ منه.

قال الزَّجَّاجُ: ويجوزُ أن يكونُوا عبَدُوا مع الله الأصنامَ، فأعلَمَهم أنَّه تبرَّأ ممّا يعبُدونَ إلّا الله تعالى[١].

وقال الكلبيُّ: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: إلّا أن يكونَ منكم أحدٌ يعبُدونَ الله تعالى[٢]؛ أي: إلّا مَن عبَدَ ربَّ العالمين؛ أي: إلّا عابدَ ربِّ العالمين، فحُذِفَ المُضافُ.

وقال الجُرجانيُّ: تقديرُه «أفرَأيتُم ما كنتُم تعبُدونَ أنتُم وآباؤُكم الأقدَمُونَ إلّا ربَّ العالمين، فإنَّهم عدوٌّ لي»، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «دونَ» و«سِوَى»، كقولِه تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]؛ أي: دونَ الموتةِ الأولى[٣].

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾؛ أي: هو الذي خلقَني، وهو يُرشِدُني إلى الدِّينِ.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾؛ أي: يرزُقُني، ودخولُ ﴿هُوَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ غيرَه لا يُطعِمُ ولا يسقي، كما تقولُ: «زيدٌ هو الذي فعَلَ كذا»؛ أي: لم يفعَلْه غيرُه.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: ﴿مَرِضْتُ﴾ رعايةً للأدبِ، وإلّا فالمرضُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٣).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٦٦).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٦٦) وقال: «وهذا الذي ذكره فيه بعدٌ واستكراه».

والشِّفاءُ منَ الله تعالى جميعًا، وكانُوا يرَونَ المرضَ منَ الزَّمانِ والشِّفاءَ منَ الأدويةِ.

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ﴾؛ أي: يُميتُني في الدُّنيا ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ للبعثِ، وكانُوا يَنسبونَ الموتَ إلى الأسبابِ، فبيَّنَ أنَّ الله تعالى هو الذي يُميتُ ويُحيي، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي بينَ الموتِ وبين هذه الحياةِ للبعثِ.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ ﴾؛ أي: أرجوه ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ قيلَ: قولُه لسارةَ: «هي أُختي»، وقولُه: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣][1].

وقيلَ: قولُه للكوكبِ: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦].

وقال الزَّجَّاجُ: الأنبياءُ بشرٌ، فيجوزُ أن تقعَ منهم الخطيئةُ، نعم لا تجري عليهم الكبائرُ لأنَّهم معصومُونَ عنها[2].

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يومَ الحسابِ والجزاءِ، وهذا من إبراهيمَ عليه السَّلامُ إظهارًا للعبوديّةِ، وإنْ كانَ يعلمُ أنَّه مغفورٌ له.

* * *

(٨٣ ـ ٨٦) ـ ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا ﴾؛ أي: اجعَلْني ممَّن ائتمَنتَه على أحكامِكَ حتَّى أحكُمَ بين عبادِكَ، وهذه رُتبةُ النُّبوّةِ.

وقيلَ: ﴿حُكْمًا﴾؛ أي: معرفةً بالله وأحكامِه.

---

(١) ورد ذلك في حديث رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٣).

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ أي: بالنَّبيِّينَ، أو بأهلِ الجنَّةِ، وهو تأكيدُ قولِه: ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

وقيلَ: ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾ في الدُّنيا ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ في الآخرةِ؛ أي: أعطِني درجاتِ الأنبياءِ.

قولُه تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي: ثناءً حسنًا في الذين يأتُونَ بعدي، وقد فعَلَ الله تعالى ذلك، فكلُّ أهلِ الأديانِ يتولَّونَه.

وقيلَ: أرادَ: الدُّعاءَ الحسَنَ إلى قيامِ السّاعةِ؛ فإنَّ زيادةَ الثَّوابِ مطلوبةٌ في حقِّ كلِّ أحدٍ، والمُرادُ باللِّسانِ: القولُ، والعربُ إذا مدَحَتْ شيئًا أضافَتْه إلى الصِّدقِ، كقولِه: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢].

قولُه تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: مِنَ الذين يرِثُونَ الفِردَوسَ، والنَّعيمُ: نقيضُ البُؤسِ.

قولُه تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ كانَ أبوه وعدَه في الظّاهرِ أن يُؤمِنَ، فاستغفرَ له لهذا، فلمَّا بانَ أنَّه لا يفِي بما قال تبرَّأ منه.

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾؛ أي: هكذا [كان][1] قبلَ أنْ أُظهرَ لي الإيمان سرًّا.

وقيلَ: أي: هو قديمُ الضَّلالِ، ودخلَ ﴿كَانَ﴾ لهذا المعنَى.

وقيلَ: ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، كقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

***

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٨٧ ـ ٨٩) ـ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: لا تفضَحْني علـى رُؤوسِ الأشهادِ، أو: لا تُعذِّبْني يومَ القيامةِ.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ أي: لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ أحدًا، والمُرادُ بقولِه: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾: الأعوانُ؛ لأنَّ الابنَ إذا لـم ينفَعْ فغيرُه متى ينفَعُ؟!

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ هو استثناءٌ منَ الكافرِ الذي لا ينفَعُه مالُه وبنوه.

وقيـلَ: هو اسـتثناءٌ مـن غيرِ الجنـسِ؛ أي: لكنْ مَن أتـى الله بقلبٍ سـليمٍ تنفَعُه سلامةُ قلبِه.

وذكرَ القلبَ لأنَّه الذي إذا سلِمَ سلِمَتِ الجوارحُ، وإذا فسدَ فسدَ سائرُ الأعضاءِ.

وقيلَ: (البنين) لأنَّه جرَى ذِكرُ والدِ إبراهيمَ؛ أي: لـم ينفَعْه إبراهيمُ.

والقلبُ السَّليمُ: الذي سلِمَ منَ الشِّركِ والأوصافِ الذَّميمةِ.

***

(٩٠ ـ ٩١) ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: قُرِّبَتْ وأُدنِيَتْ لهم ليدخُلوها.

وقال الزَّجّاجُ: قرُبَ دخولُـهم إيّاها ونظرُهم إليها[١].

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾؛ أي: أُظهِرَتْ ﴿لِلْغَاوِينَ﴾؛ أي: الذين ضَلُّوا عن الهدى.

وقيلَ: الغاوي: الخائِبُ من رحمةِ الله تعالى.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٣).

أي: تُظهَرُ جهنَّمُ لأهلِها قبلَ أن يدخُلوها حتَّى يستَشعِرُوا الفزعَ كما يستشعِرُ أهلُ الجنّةِ الفرجَ بعلمِهم بأنّهم يدخُلونَ الجنّةَ.

***

(٩٢ ـ ١٠٤) ـ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذا توبيخٌ لهم.

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾؛ أي: هل يدفعُونَ عنكم العذابَ وينتَصِرُونَ لأنفُسِهم ليدفعُوا العذابَ عنها، أرادَ به الشَّيطانَ والجنَّ الذين عبدَهم أقوامٌ وأطاعوهُم، ويجوزُ الإخبارُ عن هؤلاءِ بلفظِ ﴿مَا﴾، تقولُ: «ما في الدّارِ؟» فيُقالُ: «زيدٌ».

وقيلَ: يدخلُ فيه الأصنامُ أيضًا، فيُخيَّلُ لـهم غدًا أصنامُهم، ثمَّ يُلقَون معَهم في النّارِ.

قولُه تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾؛ أي: أُلقُوا على رُؤوسِهم في الجحيمِ، يعني: هؤلاءِ المعبُودونَ ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾: هم العابِدُونَ لـها.

وقيلَ: دُهْوِرُوا فيها[1].

وقيلَ: طُرِحَ بعضُهم على بعضٍ، يُقالُ: «كبَّه لوجهِه»، والأصلُ: «كُبِّبُوا» فأُبدِلَ منَ الباءِ الوُسطى كافٌ استِثقالًا لاجتماعِ الباءاتِ، كما تقولُ: «رَقْرَقَتْ»؛ أي: دمَعَتْ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٩٧) عن مجاهد.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ يعني: ذُرِّيةَ إبليسَ ومَن كانَ من أعوانِه منَ الشَّياطينِ وبني آدمَ.

وقيلَ: إنَّما تُلقَى الأصنامُ في النّارِ وهي حديدٌ ونُحاسٌ فيُعذَّبُ بها غيرُهم.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: يُخاصِمُ بعضُهم بعضًا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا﴾؛ أي: قال الأتباعُ للرُّؤساءِ: ما كنَّا إلا في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنتُم لا تضُرُّونَ ولا تنفعُونَ ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: إلّا الشَّياطينُ الذين زيَّنُوا لنا عبادةَ الأصنامِ.

وقيلَ: إلّا أسلافُنا الذي قلَّدْناهُم.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ أي: قريبٍ مُشفِقٍ، والحميمُ: القريبُ، يُقالُ: «حُمَّ الأمرُ وأحَمَّ»؛ أي: قرُبَ ودَنا، وحامَّةُ الرَّجلِ: خاصَّتُه.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: ليتَه كان لنا رجعةٌ لنؤمِنَ حتَّى تحلَّ لنا الشَّفاعةُ كما حلَّتْ للمُؤمنينَ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكَرْنا من قصّةِ إبراهيمَ ﴿لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وما كان أكثرُ قومِ إبراهيمَ مُؤمنينَ، وإنَّما آمنَ منهم القليلُ.

قيلَ: وما كانَ أكثرُ مَن نقُصُّ عليهم هذه الأقاصيصَ مُؤمنينَ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

* * *

(١٠٥ ـ ١١٠) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ و«القومُ» مذكَّرٌ؛ لأنَّ المعنى: كذَّبت جماعةُ قومِ نوحٍ، وقال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنَّ مَن كذَّبَ رسولًا فقد كذَّبَ الرُّسلَ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يأمرُ بتصديقِ جميعِ الرُّسلِ.

وقيلَ: كذَّبُوا نوحًا في النُّبوّةِ، وفيما أخبرَهم به من مجيءِ المُرسَلين بعدَه.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾؛ أي: ابنُ أمَّتِهم، فهي أُخوّةُ نسبٍ لا أُخوّةُ دينٍ.

وقيلَ: هي أُخوّةُ المُجانسةِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ألا تتَّقُونَ الله في عبادةِ الأصنامِ؟!

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: صادقٌ فيما أُبلِّغُكم عن الله تعالى.

وقيلَ: أي: أمينٌ فيما بينكم؛ فإنَّهم كانُوا عرَفُوا أمانتَه وصِدقَه من قبلُ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: استَتِرُوا بطاعةِ الله تعالى من عقابِه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمرَكم به منَ الإيمانِ.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: لا طمَعَ لي فيما لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾؛ أي: ما جزائي إلّا على ربِّ العالمينَ.

***

(١١١ ـ ١١٥) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾؛ أي: أنُصدِّقُ لقولِك ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الواوُ للحالِ، وفيه إضمارُ «قد»؛ أي: وقد اتَّبعَكَ الأرذَلونَ؛ أي: الأراذِلُ، يعني: المساكينَ، أي: أنصحَبُكَ لتصحَبَ هؤلاءِ الذين اتَّبعُوكَ من خساسِ النّاسِ؟ وإنَّما كان آمنَ بنوحٍ بَنُوه ونساؤُه وأناسٌ من ضُعفاءِ قومِه.

وقيلَ: ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾: الذين مكاسِبُهم دَنيَّةٌ، كالحاكةِ والأساكفةِ.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لـم أُكلَّفِ العلمَ بأعمالِـهم، إنَّما كُلِّفْتُ أن أدعُوَهم إلى الإيمانِ، والاعتبارُ بالإيمانِ لا بالحِرَفِ والصَّنائعِ، وكأنَّهم قالوا: إنَّما اتَّبعكَ هؤلاءِ الضُّعفاءُ طمعًا في العزِّ والمالِ. فقال: إنِّي لا أقفُ على باطنِ أمرِهم وإنَّما إليَّ ظاهرُهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾؛ أي: فيما يعمَلُونَ من صنائعِهم وما يأتُونَ به منَ الإيمانِ بالله تعالى ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لو تعلَمُونَ ذلك، وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ؛ أي: لو تشعُرونَ أنَّ حسابَهم على ربِّهم لَـمَا عبْتُمُوهم بصنائعِهم.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليس لي طردُ مَن آمنَ بي، وكانُوا طلَبُوا منه طردَ الضُّعفاءِ.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: أنذَرْتُهم فآمَنُوا، فليس لي طردُهم.

* * *

(١١٦ ـ ١٢٢) ـ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾؛ أي: عن سبِّ آلهتِنا، أو: عن ادِّعاءِ الرِّسالةِ، وعن قَبولِ مَن أتاك مُؤمنًا بك.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾؛ أي: منَ المقتُولينَ بالحجارةِ، والرِّجامُ: الحجارةُ، والرَّجمُ: الضَّرْبُ بها.

وقيلَ: منَ المضروبينَ بالحجارةِ.

وقيلَ: منَ المشتُومينَ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ دَعا على قومِه، وذلك عند الإياسِ من إيمانِهم.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾؛ أي: فاقضِ بيني وبينَهم قضاءً.

وقيلَ: طلبَ إنزالَ العذابِ بهم.

﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من ذلك العذابِ.

قولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾؛ أي: في الفُلكِ الذي أمَرْناه باتِّخاذِه، والفُلكُ: السَّفينةُ، والشَّحنُ: مَلءُ السَّفينةِ بالنّاسِ والدَّوابِّ وغيرِهم، ولم يُؤنَّث الفلكُ ها هُنا لأنَّ الفلكَ ها هُنا واحدٌ لا جمعٌ.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾؛ أي: بعد إنجائِنا نوحًا ومَن آمنَ معه ﴿الْبَاقِينَ﴾؛ أي: مَن بقيَ منهم ولم يركبِ السَّفينةَ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(١٢٣ - ١٢٧) - ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ التَّأنيثُ بمعنَى القبيلةِ والجماعةِ، وتكذيبُهم المُرسَلين كما ذكَرْنا في قصّةِ نوحٍ.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾؛ أي: في النَّسبِ والجنسيّةِ لا في الدِّينِ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ألا تتَّقُونَ الله في الشِّركِ والمعاصي.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: مأمونٌ عليكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: فيما آمرُكم به.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: لا طمَعَ لي في مالِكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾؛ أي: ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

***

(١٢٨ - ١٣١) - ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الرِّيعُ: المكانُ المُرتفعُ، وقيلَ: الجبلُ؛ أي: بكلِّ طريقٍ مُرتفعٍ بناءً لا تحتاجُونَ إليه للسُّكنَى، بل تبنُونَه مُراءاةً.

وقيلَ: أي: أتبنُونَ بكلِّ موضعٍ مُرتفعٍ لتُشرِفُوا على السّابلةِ فتسخَرُوا منهم.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾؛ أي: أبنيةً من دورٍ وقُصورٍ لسُكناكم اتِّخاذَ مَن يُؤمِّلُ الخلودَ في الدُّنيا.

وقال اللَّيثُ: المصنعةُ شبهُ صهريجٍ عميقٍ يُتَّخذُ للماءِ، والجمعُ: المصانعُ[1].

---

(١) انظر: «العين» (١/ ٣٠٥)، وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٩٤).

وقيلَ: المصانعُ: المساكنُ.

وقيلَ: الحصونُ، بيَّنَ أنَّ حصانةَ الأبنيةِ لا تمنعُ من قدَرِ الله تعالى.

وقولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾؛ أي: ترجُونَ الخلودَ.

وقيلَ: كأنَّكم تخلُدونَ.

وقيلَ: «لعلَّ» استفهامٌ؛ أي: فهل تخلُدونَ؟ كقولِكَ: «لعلَّك تَشتمُني»؛ أي: هل تَشتمُني؟

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾؛ أي: تُعاقِبُونَ مَن أردتُم عقوبتَه عقوبةَ المُتجبِّرين، فسفَكتُم الدِّماءَ وضربتُم بغيرِ حقٍّ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: لا تُشرِكُوا به.

* * *

(١٣٢ ـ ١٣٥) ـ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: مَن إنعامُه عليكم بالأموالِ والبنينَ والبساتينِ وسائرِ النِّعمِ.

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾؛ أي: بالأنعامِ المُسخَّرةِ لكم، والبنينَ لتَقْتَفيَ آثارَكم وليُعينُوكم.

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: البساتينَ والأنهارَ.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: إنْ أصرَرْتُم على الكفرِ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو الذي أُهلِكُوا فيه.

وقيلَ: عذابَ يومِ القيامةِ.

(١٣٦ ـ ١٤٠) ـ ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ﴾؛ أي: لا مُبالاةَ لِمَواعِظِـك، ولا نُصغي إليك.

﴿إنْ هذَا إلَّا خَلْقُ الأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلّا كذِبُ الأوَّلينَ.

وقيلَ: أي: ما خَلْقُنا إلا كخلقِ الأوَّلينَ الذين خُلِقُوا قبلَنا وماتُوا، ولـم ينزِلْ بهم شيءٌ مـمَّا يُخلَّدونَ به منَ العذابِ.

وقيلَ: أي: ما هذا الذي نحنُ عليه إلا دِينُ الأوَّلينَ، فالخَلْقُ يعني الدِّينَ، كقولِه: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

وقُرِئَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بضمِّ الخاءِ واللّامِ[(١)]؛ أي: عادةُ الأوَّلين حياةٌ ثمَّ موتٌ ولا بعثَ.

وقيلَ: ما هذا الذي أنكَرْتَ علينا منَ البُنيانِ والبَطشِ إلّا عادةُ مَن قبلَنا، فنحنُ نقتَدي بهم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نفعَلُ.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: كذَّبوه حتى أَيِسَ منهم ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ.

* * *

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿خَلْقُ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، والباقون بضم الخاء واللام. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(١٤١ ـ ١٤٥) ـ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ثمَّ ذكرَ قصَّةَ صالحٍ وقومِه، وهم ثمودُ، وكانوا يسكُنونَ الحِجْرَ، وهي ذاتُ نخلٍ وزرعٍ ومياهٍ.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ ﴾؛ أي: في النَّسبِ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عذابَ الله تعالى.

* * *

(١٤٦ ـ ١٤٩) ـ ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ﴾؛ أي: لا تظُنُّوا ذلك.

﴿ءَامِنِينَ ﴾ منَ الموتِ أو منَ العذابِ.

﴿فِى جَنَّـٰتٍ ﴾؛ أي: أتُتركُونَ ﴿فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾، الهضيمُ: الرَّخْصُ اللَّيِّنُ النَّضيجُ اليانعُ.

وقيل: الرُّطَبُ المُذَنِّبُ[١].

وقيلَ: الذي ينضَمُّ في وعائِه، فهو مُكتَنِزٌ، يُقالُ: فلانٌ هضيمُ الحشا، وأهضَمُ الكَشْحَينِ؛ أي: مُنضَمُّهما.

---

(١) ذَنَبُ البُسْرةِ وغيرِها من التَّمر: مُؤَخَّرُها، ومن المَجاز: ذَنَّبَتِ البُسرةُ تَذْنيباً فهي مُذَنِّبةٌ: وَكَّتَتْ مِن قِبَلِ ذَنَبِها، قال الأصمعيّ: إذا بَدَتْ نُكَتٌ من الإرطاب في البُسْرِ مِن قِبَلِ ذَنَبِها قيل: ذَنَّبَ، وهو ـ أي: البُسْرُ ـ مُذَنِّبٌ كمُحَدِّثٍ. انظر: «التاج» (مادة: ذنب).

وقيلَ: الهضيمُ: العُذُوقُ المُتدلِّيةُ.

وقيلَ: هو الطَّلعُ ما دامَ في كُفُرَّاهُ.

والهضمُ: الكسرُ، فالهضيمُ بمعنَى المهضوم.

وقيلَ: الهضيمُ: الذي لا نَوًى له، أو الذي يَدِقُّ نواهُ.

وقيلَ: هو الهنيءُ المريءُ، من انهضامِ الطَّعامِ.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ وقيلَ: ﴿فارِهينَ﴾[1]، والفارِهُ والفَرِهُ: الأشِرُ.

وقيلَ: الفرِحُ، والهاءُ قد تُبدَلُ منَ الحاءِ، تقولُ: «مدَهْتُه ومدَحْتُه».

وقيلَ: هما: المرِحُ.

وقيلَ: الحاذِقُ في الشَّيءِ، يُقالُ: «فرسٌ فارِهٌ»؛ أي: جيِّدُ السَّيرِ.

وقيلَ: الفارِهُ: الحاذِقُ، والفرِهُ: الأشِرُ الفرِحُ، ثمَّ الفرَحُ بمعنى المرَحِ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

* * *

(١٥٠ - ١٥٢) - ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مضى معناهُ.

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: في الشِّركِ، يعني: قولَ التِّسعةِ الذين عقَرُوا النّاقةَ.

---

(١) قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو، والباقون: ﴿فَرِهِينَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يعصُونَ الله تعالى ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أي: لا يُطيعُونَه فيما أمرَهم به.

* * *

(١٥٣ ـ ١٥٩) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾؛ أي: منَ المسحُورينَ، أُصِبْتَ بالسِّحرِ فبطَلَ عقلُكَ؛ لأنَّك بشرٌ مثلُنا، فلِمَ تدَّعي الرِّسالةَ دونَنا؟

وقيل: أي: منَ المُعلَّلينَ بالطَّعامِ والشَّرابِ، يُقالُ: «سحَرَه»؛ أي: علَّلَه بالطَّعامِ مرّةً وبالشَّرابِ مرّةً.

وقيلَ: المُسحَّرُ: المُجوَّفُ، يُقالُ: «انتفَخَ سَحْرُه»، فالمُجوَّفُ يُسمَّى مُسحَّرًا تشبيهًا بالسَّحْرِ إذا انتفَخَ فصارَ مُجوَّفًا.

وقيلَ: أي ممَّن له سَحرٌ، والسَّحرُ: الرِّئةُ، فالمُسحَّرُ ذو السَّحْرِ؛ أي: لستَ بملكٍ.

قولُه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ في أنَّكَ رسولُ الله ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: قالوا: إنْ كنتَ صادِقًا فادعُ الله يُخرِجْ لنا من هذا الجبلِ ناقةً حمراءَ عُشراءَ، فتضعُ ونحنُ ننظرُ، وترِدُ هذا الماءَ فتشربُ، وتغدُو علينا بمثلِه إلينا، فدَعا وفعلَ الله ذلك[1]، فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾؛ أي: حظٌّ؛ أي: لكم

(١) ذكره عنه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٦٠)، و«البسيط» (١٧/ ١١٠).

شربُ يومٍ ولها شربُ يومٍ، وكانت إذا كان يومُ شربِها شربَتْ ماءَهم كلَّه أوَّلَ النَّهارِ، وتسقيهم اللَّبنَ آخرَ النَّهارِ، وإذا كانَ يومُ شربِهم كان لإنسِهم ومواشيهم وأرضِهم، ليس لهم في يومِ وردِها أن يشربُوا من شربِها شيئًا، ولا لـها أن تشربَ في نوبَتِهم من مائِهم شيئًا.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾؛ أي: قال صالحٌ: هذه ناقةٌ لها شربٌ، وقد مضى معناه.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: دَعُوها لتَرعـى ولا تَعقِرُوها فينزلَ بكم العذابُ في يومٍ عظيمِ الشَّأنِ.

وقال قومٌ: يجوزُ أن يكونُوا التَمَسوا آيَةً من غيرِ تعيينِ النّاقةِ، فأتاهُم بالنّاقةِ، وكان صالحٌ أتاهُم في أوَّلِ دُعائِه بما لا يخلُو عنه نبيٌّ.

ويُروَى: أنَّ صالحًا كان قد أراهُم منَ الآياتِ ما آمنُوا، فماتَ صالحٌ وكفروا، فبعثَه الله تعالى، فقال لهم: أنا صالحٌ، فلم يُصدِّقُوه، وسألُوا الآيَةَ وعيَّنُوا النّاقةَ فأتاهُم بها، وأقامُوا على التَّكذيبِ وعقَرُوها[1].

والأكثرُ على التَّكذيبِ، وعلى أنَّه كان للنّاقةِ لبنٌ يحتلِبُونَ يومَ وُرودِها فيأتيهم من لبَنِها مقدارُ ما يُشربُ منَ الماءِ في ذلك اليومِ.

وقال قتادةُ: لـم يكُنْ ثَمَّ لبنٌ وحَلْبٌ[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) لم أجده، وذكر الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١١١) عن قتادة ما يخالفه، ولفظه: «إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار، وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأراضيهم، ليس لهم في يوم وردها أن يشربوا من شربها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئًا».

قولُه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾؛ أي: لـم يُطيعُوا نبيَّهم.

﴿فَأَصْبَحُوا نَـٰدِمِينَ﴾ وذلك أنَّه أنظرَهم ثلاثًا فظهرَتْ عليهم العلامةُ في كلِّ يومٍ، وندِمُوا ولـم ينفعِ النَّدمُ عند مُعاينةِ العذابِ.

قولُه تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ مضى معناه.

***

(١٦٠ ـ ١٦٤) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ...﴾ مضى معناه.

***

(١٦٥ ـ ١٦٧) ـ ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: تُواقِعُـونَ الذُّكـورَ مـنَ النّـاسِ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم ﴾ يعني: النِّساءَ؛ فإنَّهنَّ خُلِقْنَ للرِّجالِ على الجملةِ.

وقيـلَ: أرادَ مَـن صـارَتْ زوجًـا بالنِّكاحِ، فعلـى الأوَّلِ: [أتتركـون أن تتزوجوا بالنسـاء؟ وعلـى الثاني][1]: أتترُكـونَ وَطْءَ زوجاتِكـم المنكوحاتِ؟ وهو اسـتفهامُ توبيخٍ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾؛ أي: مُجاوِزُونَ لحدودِ الله تعالى.

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: من بني آدمَ.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾؛ أي: من بلدَتِنا، أو: قريتِنا.

***

(١٦٨ ـ ١٧٥) ـ ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾؛ أي: منَ المُبغِضينَ، والقِلَى: البُغْض، يُقالُ: «قلَيتُه أقليهِ قِلًى».

﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: من عذابِ ما يعمَلُونَ.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ نجَّى لوطًا ومَن اشتمَلَ عليه منزلُه، أو نجَّى بناتِه.

وقيلَ: أرادَ: نجِّني من صُحبتِهم، ومِن أن أكونَ على دينِهم.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ يعني امرأتَه ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: في الباقينَ في العذابِ.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾؛ أي: أهلَكْناهم بالخسْفِ والحَصْبِ، وذلك أنَّه تعالى أمطرَ عليهم حجارةً من سماءِ الدُّنيا اسمُها «سجِّيلٌ».

قال مُقاتلٌ: خسَفَ الله تعالى بقُرى لوطٍ، وأرسلَ الحجارةَ على مَن كان خارجًا منَ القريةِ[١].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني: الحجارةَ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: فبئسَ مطرُ الذين أُنذِرُوا بالعذابِ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٧٧).

ثمَّ قيلَ: إنَّ امرأةَ لوطٍ تخلَّفَتْ فأصابَها العذابُ.

وقيلَ: خرَجَتْ مع لوطٍ فأصابَها الحجرُ، فكانَتْ منَ الغابرين؛ أي: مـمَّن عاشَ بعد قومِها إلى أن أدركَها الهلاكُ خارجَ القريةِ.

وقيـلَ: إنَّ جبريـلَ خسَـفَ بقريتِهـم وجعـلَ عاليَهـا سـافلَها، ثـمَّ أتبعَهـا الله تعالى الحجارةَ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [لأنَّ المؤمنين][1] هو وبناتُه، وقيل: كانتا ابنتَينِ.

[لقائل أن يقول: ﴿مَّطَرًا﴾ منكَّرٌ؛ أي: مطراً ليس كالمطرِ المعروفِ، ويجوزُ أن يكون تنكيرَ التعظيمِ؛ أي: مطراً أيَّ مطرٍ][2].

* * *

(١٧٦) ـ ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ثمَّ ذكرَ قصَّةَ شُعَيبٍ.

قرأ المُعظَمُ: ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ مهموزةً بخفضِ ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ: ﴿أصحابُ لَيْكَةِ﴾ هاهُنا وفي صاد[3]، بفتحِ التاءِ [غيرَ][4] مهموزٍ، **وهذا إنَّما يحسُنُ** بكسرِ التاءِ، كما تقولُ في «غلامُ الأحمرِ»: «غُلامُ لَحْمَرِ»،

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

(٢) ما بين معكوفتين من (م).

(٣) أي: بلام مفتوحة من غير همزة بعدها ولا ألف قبلها وفتحِ التاء، قرأ بها أيضا ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(٤) ما بين معكوفتين من (م).

فأمَّا فتحُ التاءِ فمُشكِلٌ؛ لأنَّه لا يُقالُ: «مررتُ بلَحْمَرَ»، فتُخرَّجُ هذه القراءةُ إذًا على أنَّ هذه اللّامَ فاءٌ، وليسَتْ لامَ التَّعريفِ، فلعلَّه موضعٌ يُعرَفُ بـ«لَيكةِ».

قال الزَّجَّاجُ: وقع في التَّفسيرِ أنَّ اسمَ المدينةِ كان «لَيكةَ»[1].

قال أبو عليٍّ: لو صحَّ هذا، فلِمَ أجمعَ القُرّاءُ على الهمزِ في قولِه: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ في سورةِ الحجرِ؟ والأيكةُ التي ذُكِرَتْ هاهُنا هي التي ذُكِرَتْ هناك[2].

وقد قال ابنُ عبّاسٍ: الأَيكةُ: الغَيضةُ[3]. ولم يُفسِّرْها بالمدينةِ والبلدِ.

وهذا الاعتراضُ مردودٌ إذا ثبَتَتْ هذه القراءةُ، ولا يبعُدُ أن تُسمَّى بقعةٌ بـ«ليكة»، ثمَّ يُعبَّرَ عن تلك البقعةِ بالغيضةِ والأيكةِ لكثرةِ أشجارِها[4].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٧).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧١).

(٤) نقل أبو حيان عن أبي عبيد قوله: وجدنا في بعض التفسير أن ﴿لَيۡكَةِ﴾ اسمٌ للقرية، و﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ البلادُ كلها (يعني: المصر الجامع للقرى)، كمكة وبكة، ورأيتُها في الإمام مصحفِ عثمان في الحجر و(ق): ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾، وفي الشعراء و(ص): ﴿لَيۡكَةِ﴾، واجتمعت مصاحف الأمصار كلها بعد على ذلك ولم تختلف. انتهى.

قال أبو حيان: وقد طعن في هذه القراءة المبرد وابن قتيبة والزجاج وأبو عليّ الفارسي والنحاس، وتبعهم الزمخشري، ووهَّموا القراء وقالوا: حملهم على ذلك كون الذي كَتَبَ المصحف كَتَب في هذين الموضعين على اللفظ فيمَن نقل حركة الهمزة إلى اللام وأسقط الهمزة، فتوهم أن اللام من بِنية الكلمة ففتح التاء، وكان الصواب أن يجر، ثم مادّة (ل ي ك) لم يوجد منها تركيب فهي مادّة مهملة كما أهملوا مادّة (خ ذ ج) منقوطات، وهذه نزعة اعتزالية، يعتقدون أن بعض القراءة بالرأي لا بالرواية، وهذه قراءة متواترة لا يمكن الطعن فيها، ويقرب إنكارها من الردّة والعياذ بالله. =

وقال الخليلُ: الأَيكةُ: غيضةٌ تُنبتُ السِّدرَ والأراكَ ونحوَهما من أناعمِ الشَّجرِ(١).

وقيلَ: الأيكُ: شجرُ الدَّومِ، وهو المُقْلُ، وهي أكثرُ شجرِ مدينَ.

وقيلَ: بُعِثَ شُعَيبٌ إلى مدينَ والأيكةِ، وهما قريتانِ.

* * *

(١٧٧ ـ ١٨٤) ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ لـم يقُلْ هاهُنا: «أخوهُم»؛ لأنَّ شعيباً كانَ من مديَنَ؛ لأنَّه شُعَيبُ بنُ بويبِ بنِ مدينَ بنِ إبراهيمَ، ولـم يكُنْ من أصحابِ الأَيكةِ، وكان مبعوثًا إليهما، فإذا ذُكِرَ مدينُ قيلَ: أخوهم، وإذا ذُكِرَ أصحابُ الأيكةِ لم يُقَلْ: «أخوهم».

= أما نافع فقرأ على سبعين من التابعين، وهم عرب فصحاء، ثم هي قراءة أهل المدينة قاطبة.

وأما ابن كثير فقرأ على سادة التابعين ممن كان بمكة كمجاهد وغيره، وقد قرأ عليه إمام البصرة أبو عمرو بن العلاء، وسأله بعض العلماء: أقرأت على ابن كثير؟ قال: نعم، ختمت على ابن كثير بعدما ختمت على مجاهد، وكان ابن كثير أعلم من مجاهد باللغة.

وأما ابن عامر فهو إمام أهل الشام، وهو عربي قح قد سبق اللحن، أخذ عن عثمان وعن أبي الدرداء وغيرهما.

فهذه أمصار ثلاثة اجتمعت على هذه القراءة: الحرمان ـ مكة والمدينة ـ والشام. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ٣٣٩).

(١) انظر: «العين» (٥/ ٤٢٣).

وقال قومٌ: كان الجميعُ قومَه، ثمَّ قد يُذكَرُ في موضعٍ بالأُخوّةِ، وقد لا يُذكَرُ في موضعٍ بها.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾؛ أي: منَ النّاقصينَ للكَيلِ والوزنِ، يُقالُ: «خَسَرْتُ الميزانَ وأخسَرْتُه»؛ أي: نقَصْتُه.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾؛ أي: اعدِلُوا ما تُوفُّونَه بالمقياسِ الذي لا حيفَ فيه.

قُرِئَ ﴿القسطاس﴾ بضمِّ القافِ وكسرِها[1]، وهما لُغتانِ بمعنًى.

وقيلَ: هو الميزانُ بالرُّوميّةِ.

وقيلَ: الشّاهينُ.

وقيلَ: هو أقوَمُ الموازينِ.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا﴾؛ أي: تَعيثُوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالظُّلمِ.

وقيلَ: هو نَهيٌ عن الشِّركِ؛ لأنَّه أصلُ كلِّ فسادٍ.

قولُه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ الجبِلّةُ: الخَليقةُ، وجُبِلَ فلانٌ على كذا؛ أي: خُلِقَ، ومنه: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ [يس: ٦٢] بالتّشديدِ، ويُقالُ: «جَبِيلٌ وجَبْلٌ» بالتّخفيفِ مثلَ: «قتيلٍ وقَتلٍ».

والمُرادُ بالجِبلّةِ الأوّلينَ: الأممُ الخاليةُ.

أي: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ هو الذي خلَقَ الأوّلينَ، وقد رأيتُم وقائعَه بالأوّلينَ لـمّا عَصَوا فتوقَّعُوا مثلَها.

* * *

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي هنا وفي الإسراء بكسر القاف والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(١٨٥ ـ ١٨٧) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ مضَى معناه ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ﴾؛ أي: ما نظُنُّكَ إلّا من ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في أنَّكَ رسولُ الله تعالى ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: جانبًا منَ السَّماءِ وقطعةً منه فننظُرَ إليه، كما قال: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ [الطور: ٤٤].

وقيلَ: أرادَ فأنزِلْ علينا العذابَ، وهو مبالغةٌ في التَّكذيبِ.

قال أبو عُبيدةَ: «الكِسْفُ» جمعُ كِسْفةٍ، مثلَ: «سِدْرٍ وسِدْرةٍ»[1].

وقيلَ: «كِسْفٌ وكِسْفةٌ»، مثلَ: «قِطْعٍ وقِطْعةٌ»، والجمعُ: «كِسَفٌ» مثل «قِطَع».

* * *

(١٨٨ ـ ١٩١) ـ ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بأعمالِكم منَ الشِّركِ وبَخْسِ النّاسِ أشياءَهم فهو يُجازيكُم، فهذا تهديدٌ؛ أي: عليَّ التَّبليغُ، وليس العذابُ الذي سألتُم إليَّ.

قولُه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ مضى تفسيرُه في سورةِ البقرةِ، وهي ظُلّةٌ أقامَها الله فوقَ رُؤوسِهم فألـهَبَها عليهم حرًّا حتَّى ماتُوا من الوَمَدِ، وكانَ من أعظمِ يومٍ في الدُّنيا عذابًا.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٩١).

وقيلَ: بعَثَ الله عليهم سَمومًا، فخرَجُوا إلى الأيكةِ يستظِلُّونَ بها، فأضرَمَها الله تعالى عليهم نارًا فاحترَقُوا.

***

(١٩٢ ـ ١٩٥) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عادَ إلى ما تقدَّمَ في أوّلِ السُّورةِ من إعراضِ المُشركينَ عن القرآنِ.

وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ إشارةٌ إلى ما أخبرَ عنه منَ القِصَصِ وأنزلَ منَ القرآنِ.

قولُه تعالى: ﴿نزَّلَ به الرُّوحَ الأَمِينَ﴾؛ أي: نزَّلَ الله بالقرآنِ جبريلَ، وقُرِئَ: ﴿نَزَلَ﴾ بالتَّخفيفِ ﴿ٱلرُّوحُ﴾ بالرَّفعِ[1].

والرُّوحُ الأمينُ: جبريلُ؛ فإنَّه أمينٌ بين الله وبين أنبيائِه.

قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ أي: ليُثبِّتَ قلبَكَ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: لتُنذِرَ الخلقَ.

قولُه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لئَلّا يقولوا: لَسْنا نفهَمُ ما تقولُ.

***

(١٩٦ ـ ١٩٧) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إنَّ ذكرَ القرآنِ وخبرَه في كتبِ الأنبياءِ.

---

(١) قرأ بالأولى ابن عامر وحمزة وأبو بكر والكسائي، والباقون بالثانية. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

وقيلَ: أي: إنَّ ذكرَ محمَّدٍ ﷺ في كتُبِ الأوَّلينَ، كما قال: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والزُّبُرُ: الكتُبُ، والواحدُ: زَبورٌ، كرسولٍ ورسلٍ.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيةٌ أنْ يَعلمَه علماءُ بني إسرائيلَ﴾ أي: أوَلا يكفي في أنَّ هذا القرآنَ من عندِ الله أن يشهَدَ بذلك علماءُ بني إسرائيلَ، يعني: العلماءَ بالكتُبِ التي عند اليهودِ لمَّا أسلَمُوا، كعبدِ الله بنِ سلامٍ وسلمانَ وغيرِهما.

وقيلَ: إنَّما صارَتْ شهادةُ أهلِ الكتابِ حُجّةً على المُشركينَ لأنَّهم كانوا يرجعُونَ في أشياءَ من أمورِ الدِّينِ إلى أهلِ الكتابِ.

قُرِئَ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن﴾ بالياءِ ﴿ءَايَةً﴾ بالنَّصبِ، واسمُ «كانَ»: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾.

وقُرِئَ بالتّاءِ على التَّأنيثِ ﴿آيةٌ﴾ بالرَّفعِ[1]، على أنَّ الفعلَ لها.

وقال ابنُ عبّاسٍ: بعَثَ أهلُ مكّةَ إلى اليهودِ وهم بالمدينةِ يسألونَهم عن محمَّدٍ ﷺ، فقالوا: إنَّ هذا لَزمانُه، وإنَّه لنجِدُ في التَّوراةِ نعتَه وصفتَه، وكان ذلك لهم آيةً على صِدْقِه[2]، فرجعَ لفظُ العلماءِ إلى مَن كانَ له علمٌ بكتُبِهم، أسلَمَ أو لم يُسلِمْ على هذا القولِ.

***

---

(١) هذه قراءة ابن عامر، والباقون بالياء والنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٦).

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ١١٦)، وذكره الواحدي في «تفسيره» (١٧/ ١١٥) وبين أنه من رواية الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٩٨ ـ ١٩٩) ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾؛ أي: لو نزَّلْنا هذا القرآنَ على بعضِ الأعاجمِ الذي لا يُفصِحُونَ بكلامِ العربِ، فجعَلْنا القرآنَ بلسانِه فقرأَه على هؤلاءِ العربِ لَـمَا آمَنُوا؛ لأنَّهم كانوا لا يعقِلُونَ ما فيه، ولا يقِفُونَ على إعجازِ نظمِه، فقد جعَلْناه بلسانِكَ ولسانِ قومِكَ؛ لئلّا يبقَى لهم ريبٌ في إعجازِه.

وقيلَ: أي: لو أنزَلْنا هذا القرآنَ على رجلٍ منَ العجمِ يُحسِنُ لسانَ العربِ لأَنِفَتِ العربُ من اتِّباعِه، فجَعَلْنا الرَّسولَ من أنفُسِهم ليسكُنوا إليه.

والكنايةُ في قولِه: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾ عن البعضِ، أو عن المُنزَّلِ، والمُنزَّلُ عليهم هم القومُ المُرسَلُ إليهم، وعلى هذا فقولُه: ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾؛ أي: قرأَه محمَّدٌ ﷺ.

وقولُه: ﴿بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أرادَ النَّاسَ دونَ البهائمِ.

والصَّحيحُ: أنَّ الأعجَمَ والأعجَمِيَّ هو الذي لا يُفصِحُ سواءٌ كان منَ العربِ أو العجَمِ.

وقولُك: الأعجَمُونَ كقولِكَ: «جاءَ النُّمَيرُونَ»؛ أي: النُّمَيرِيُّونَ، فتحذِفُ ياءَ النِّسبةِ.

وقيلَ: يدخُلُ في الأعجَمينَ البهائمُ؛ أي: لو أنزَلْنا هذا القرآنَ على بهيمةٍ فقرأَتْ عليهم لـم يُؤمِنُوا عُتُوًّا وتَـمَرُّدًا، فلا عجبَ من تركِهم الإيمانَ بمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ.

وقيلَ: لو أنزَلْنا هذا القرآنَ على البهائمِ فقرأ محمَّدٌ عليه السَّلامُ لَـمَا آمنَتِ البهائمُ، فكذا هؤلاءِ المُشرِكونَ لا يُؤمِنُونَ؛ لأنَّهم كالأنعامِ بل هم أضلُّ سبيلًا.

(٢٠٠ ـ ٢٠٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٠٢ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: أدخَلْنا القرآنَ في قلوبِ المُجرمينَ بأنْ أوضَحْناه، ولكنَّهم أعرَضُوا عنه، فهم لا يُؤمِنُونَ به حتَّى يرَوا العذابَ الأليمَ، إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرةِ.

ومعنى ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما أنزَلْناه على قلبِكَ كذلك أمَرْناكَ أن تقرأَه على قلوبِ المُشركينَ، أو كذلك أوضَحْنا لهم الحجّةَ.

وقيلَ: أي: سلَكْنا الشِّركَ في قلوبِ الكفَّارِ، أو سلَكْنا تكذيبَهم إيّاكَ في قلوبِهم، وخلَقْنا فيها الضَّلالةَ.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: فيأتيهم العذابُ فجأةً.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾؛ أي: يطلُبونَ الرَّجعةَ هناك، فلا يُجابُونَ إليها.

وقولُه: «يأتيَهم» ليس عطفًا على قولِه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾، بل هو جوابُ قولِه تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ فلمَّا كان جوابًا للنَّفيِ انتصَبَ، وكذلك ﴿فَيَقُولُوا۟﴾.

***

(٢٠٤ ـ ٢٠٧) ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ لمَّا وعدَهم النَّبيُّ العذابَ قالوا: فمتى العذابُ؟ تكذيبًا واستهزاءً.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾؛ أي: سنينَ في الدُّنيا، يعني: مُدّةَ عُمرِهم.

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾؛ أي: منَ العذابِ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾؛ أي: ما أغنَى عنهم تمتُّعُهم في تلك السِّنينَ شيئًا، ويصيرُونَ كأنَّهم لـم يرَوا نعيمًا قطُّ، فلا معنَى لاستعجالِـهم للعذابِ وهو نازلٌ بهم.

* * *

(٢٠٨ـ٢٠٩) ـ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وما أهلَكْنا قريةً بإهلاكِ أهلِها إلّا وقد أقَمْنا عليهم الحجَّةَ وبعَثْنا إليهم الرُّسلَ فكَفَرُوا.

بيَّنَ بهذا أنَّه لا يثبُتُ شيءٌ إلّا بالشَّرعِ، وإنَّما قال: ﴿مُنذِرُونَ﴾ على معنَى أنَّها قُرًى.

قولُه تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: موعظةً ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: لـم نُكلِّفْ أحدًا ما ليس في وُسعِنا.

* * *

(٢١٠ـ٢١٢) ـ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ لا الشَّياطينُ، وكان في الكفّارِ مَن يقولُ: إنَّما يُلقي الشَّيطانُ هذا على قلبِ محمَّدٍ ولسانِه على طريقِ الكهانةِ[1].

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾؛ أي: ما يصلُحُ لهم أن ينزِلُوا بالقرآنِ، وإنَّما ينبَغي للملائكةِ

---

(١) ذكر نحوه مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٢٨١).

الذين هم أُمَناءُ الله على وحيِه، فالشَّياطينُ لا يقدِرُونَ على قراءةِ القرآنِ، ولا يحتَمِلُونَه إلّا احترَقُوا، ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حملَ القرآنِ.

وقيلَ: أي: حيلَ بينَهم وبينَ السَّمعِ بالشُّهُبِ والملائكةِ.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾؛ أي: عن استماعِ القرآنِ ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لأنَّهم يُرجَمُون بالنُّجومِ.

* * *

(٢١٣ - ٢١٦) - ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: القرآنُ وحيُ الله فثِقْ به، ولا تُصغِ إلى افتراءِ المُشركينَ فتدعُوَ مع الله غيرَه فتكونَ من أهلِ النّارِ.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾؛ أي: ابدَأْ بالأقربينَ من عشيرَتِك فأنذِرْهم العذابَ إنْ لم يُؤمِنُوا بك، فإنَّك إذا فعلتَ ذلك انحسَمَتْ أطماعُ سائرِ عشيرتِكَ، وأطماعُ الأجانبِ في مُقاربتِك إيّاهُم على الشِّركِ.

وعشيرتُه الأقرَبُونَ: قُريشٌ.

وقيلَ: بنُو عبدِ منافٍ.

وقال أبو هريرةَ: لـمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ قال عليه السَّلامُ: «يا معشرَ قُريشٍ، اشترُوا أنفُسَكم منَ الله، لا أُغني عنكم منَ الله شيئًا، يا بني عبدِ المُطَّلبِ لا أُغني عنكم منَ الله، يا عبّاسُ بنَ عبدِ المُطَّلبِ لا أُغني عنكَ منَ الله، يا صفيّةُ عمّةُ رسولِ الله لا أُغني عنكِ

منَ الله شيئًا، يا فاطمةُ بنتُ محمَّدٍ سليني ما شئتِ لا أُغني عنكِ منَ الله شيئًا»[(١)].

وقال الكلبيُّ: لـمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ صعِدَ رسولُ الله ﷺ الصَّفا ونادَى الأقرَبَ فالأقرَبَ فخذًا: «يا آلَ غالبٍ، يا آلَ لُؤيٍّ، يا آلَ كعبٍ، يا آلَ مرّةَ، يا آلَ كلابٍ، يا آلَ قُصيٍّ، لا أملِكُ لكم منَ الله شيئًا إلّا أن تقولوا: لا إلهَ إلا الله»[(٢)].

وقيلَ: قال لبني هاشمٍ: «ألَا إنَّ أوليائيَ منكم المُتَّقون، ألا فاتَّقُوا النّارَ ولو بشقِّ تمرةٍ»[(٣)].

ورُوِيَ أنَّه قال لبطنٍ بطنٍ: «يا بني فلانٍ، أنقِذُوا أنفُسَكم منَ النّارِ»، حتَّى انتهى إلى فاطمةَ، فقال: «يا فاطمةُ بنتُ محمَّدٍ أنقِذي نفسَكِ منَ النّارِ، لا أملِكُ لكم منَ الله شيئًا، غيرَ أنَّ لكم رحمًا سأَبُلُّها ببلالِـها»[(٤)].

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: ألِنْ جانبَكَ لهم وأظهِرْ كرامتَهم.

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾؛ أي: إنْ عصاكَ عشيرتُك والمدعُوُّونَ ﴿فَقُلۡ﴾ لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ من أعمالكم؛ أي: لا أرضَى بها.

وقيلَ: لا أُؤاخَذُ بها.

وقيلَ: أي: لا أملِكُ لكم فيها شفاعةً عندَ الله تعالى.

***

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٣٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٣٧)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٦٤)، عن قتادة مرسلًا.

(٤) هي إحدى روايات مسلم (٢٠٤) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم.

(٢١٧ ـ ٢٢٠) ـ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾؛ أي: فوِّضْ إليه أمرَكَ؛ فإنَّه العزيزُ الذي لا يُغالَبُ، الرَّحيمُ الذي لا يخذُلُ أولياءَه.

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾؛ أي: إلى الصَّلاةِ، وقيلَ: الذي يراكَ أينما كنتَ.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾؛ أي: يرَى رُكوعَكَ وسُجودَكَ فيما بينَ المُصلِّينَ.

وقيلَ: يراكَ تتقلَّبُ فيما بينَ المُصلِّينَ؛ أي: المُؤمنينَ، لا فيما بينَ السَّحَرةِ والكهنةِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: أي: في أصلابِ الآباءِ، آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ عليهم السَّلامُ[1].

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: السَّميعُ لقولِكَ، العليمُ بما في قلبِكَ.

***

(٢٢١ ـ ٢٢٣) ـ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ لمَّا قالوا: إنَّه كاهنٌ، وإنَّ الشَّياطينَ تُلقي على لسانِه، وقالوا: إنَّه شاعرٌ، قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾؛ أي: على الكاذبينَ.

والأثيمُ: الآثِمُ؛ أي: كيف تنزلُ الشَّياطينُ بالقرآنِ على محمَّدٍ، وهو يشتُمُ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٤١) من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٨) من رواية عكرمة عن ابن عباس، ومن رواية عطاء عن ابن عباس.

الأفّاكينَ الآثِمينَ، ويسُبُّ الشَّياطينَ ويذُمُّهم ويلعَنُهم، ويلعَنُ مَن اتَّبَعَهم.

وإنَّما كان الكُهَّانُ كاذِبينَ؛ لأنَّهم كانوا يخلِطُونَ بكهانَتِهم كثيرًا منَ الأكاذيبِ، وأيضًا كانوا يُوهِمُونَ أتباعَهم العلمَ بالغيبِ.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: الشَّياطينُ يُلقُونَ ما يستَرِقُونَه منَ السَّمعِ إلى الكهنةِ، فالسَّمعُ هو المسموعُ.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾؛ أي: وأكثَرُ الكهَنةِ كاذِبونَ، فقولُه: ﴿يُلْقُونَ﴾ صفةُ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، وقولُه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ يرجعُ إلى الكهنةِ.

ويجوزُ أن يرجعَ إلى ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

وقيلَ: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: يسمَعُونَ، كقولِه: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ أي: أو استَمَعَ؛ أي: يستمعُ الشَّياطينُ إلى الملائكةِ، ثمَّ يخلطونَ به كذبًا كثيرًا، فقولُه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ يرجعُ إلى الشَّياطينِ أيضًا.

قال مُقاتلٌ: إنَّ الله تعالى إذا أرادَ أمرًا في الأرضِ علِمَ به أهلُ السَّماواتِ، فتكلَّمُوا به، فتستمعُ الشَّياطينُ وترميهم الملائكةُ بالشُّهُبِ، فذلك قولُه: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾[1]؛ أي: الآذانَ إلى كلامِ الملائكةِ.

وقيلَ: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ من صفةِ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: يستَمِعُونَ إلى الشَّياطينِ، وأكثرُ الشَّياطينِ كاذِبُون.

***

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٨٢).

(٢٢٤) ـ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾

قولُه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾؛ أي: كيف يكونُ محمَّدٌ شاعرًا والشُّعراءُ هم أهلُ هزلٍ وكذبٍ، وأتباعُهم غُواةُ ضلالٍ، ومحمَّدٌ صاحبُ جدٍّ وصدقٍ، ومجالستُه لأهلِ الإيمانِ، وتقلُّبُه في السّاجدينَ؟

والشِّعرُ: القَريضُ المحدودُ بعلاماتٍ لا يتجاوَزُه، قائلُه شاعرٌ لأنَّه يَشعرُ بما لا يَشعرُ به غيرُه، والجمعُ: شُعراءُ، مثلَ: «جاهلٍ وجُهَلاءَ».

قال ابنُ عبّاسٍ: أي الشُّعراءُ المُشرِكون يتَّبعُهم الغاوُونَ(١).

تكلَّمُوا بالباطلِ وقالوا: نحنُ نقولُ مثلَ ما يقولُ محمَّدٌ، واجتمَعَ إليهم غواةٌ من قومِهم يَرْوُونَ عنهم هجوَ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكانوا ينحَرُونَ لهم الجزرَ(٢).

***

(٢٢٥ ـ ٢٢٦) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾؛ أي: يذهَبُونَ في كلِّ وادٍ منَ الكلامِ ذهابَ الهائمِ على وجهِه؛ أي: يقولون ما يَعرِضُ لهم، وليسوا أهلَ تورُّعٍ

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٤٧)، وروى الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: «هم الكفار يتبعهم ضلال الجن والإنس».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٨٢)، وعنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٤٧)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ١٣٥) عن أهل التفسير.

وتديُّنٍ حتَّى يُقيِّدوا كلامَهم بما يجوزُ لهم، ورجلٌ هائمٌ على وجهِه؛ أي: ذاهبٌ، وهَيمانُهم: خَوضُهم وغلُوُّهم في المدحِ والذَّمِّ.

* * *

(٢٢٧) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثنَى منهم شعراءَ الإسلامِ الذين كانوا يذُبُّونَ عن النَّبيِّ ﷺ، كعبدِ الله بنِ رواحةَ، وكعبِ بنِ مالكٍ، وحسّانِ بنِ ثابتٍ، وغيرِهم.

﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أي: لم يشغَلْهم الشِّعرُ عن ذكرِ الله.

﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ﴾؛ أي: بدأ المُشرِكُونَ بالهجاءِ فأجابَهم هؤلاءِ.

وقيلَ: ابتِداؤُهم أنَّهم كذَّبوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ وأخرَجُوا المسلمينَ من مكّةَ.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾؛ أي: أشرَكُوا وهجَوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾؛ أي: مُنقَلَبُهم نارُ جهنَّمَ.

و﴿أَىَّ﴾ منصوبةٌ بقولِه: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ لا بقولِه تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ «أيًّا» وسائرَ أسماءِ الاستفهامِ لا تعملُ فيما قبلَها.

والله تعالى أعلَمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجعُ والمآبُ.

* * *

سُورَةُ النَّمۡلِ

تفسيرُ سورةِ النَّملِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مضى الكلامُ في الحروفِ المُقطَّعةِ.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: ما سبقَ إنزالُه آياتٌ وأعلامٌ لله تعالى على فرائضِه ودينِه.

وقيلَ: ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه.

وذكرَ القرآنَ بلفظِ المعرفةِ، وقال: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بلفظِ النَّكرةِ، وهما في معنى المعرفةِ، كما تقولُ: «فلانٌ رجلٌ عاقلٌ» و: «فلانٌ الرَّجلُ العاقلُ».

وقيلَ: ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ اسمٌ معرفةٌ للكتابِ، وقولُه: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ صفةٌ، لا اسمٌ معرفةٌ، كما تقولُ: «هذا زيدٌ ومُعطي مالِه كثيرًا»؛ أي: هذه آياتُ القرآنِ وآياتُ كتابٍ مُبينٍ.

وفي سورةِ الحجرِ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، فأخرَجَ الكتابَ بلفظِ المعرفةِ والقرآنَ بلفظِ النَّكرةِ، وذلك لأنَّ الكتابَ والقرآنَ اسمانِ يصلحُ لكلِّ واحدٍ أن يُجعَلَ معرفةً وأن يُجعَلَ صفةً.

قولُه تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: تلك آياتُ الكتابِ هاديةً ومُبشِّرةً.

ويجوزُ أن يكونَ رفعًا؛ أي: هي هُدًى.

والبيانُ عامٌّ والبشارةُ خاصَّةٌ، ويجوزُ أن يكونَ الهُدى خاصًّا أيضًا؛ لأنَّ المُؤمنينَ هم الذين اهتَدَوا وانتفَعُوا به.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يُؤدُّونَها لمواقيتِها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يُعطُونَها ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يُؤمِنُونَ بالبعثِ.

* * *

(٤ ـ ٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: لا يُصدِّقُونَ بالبعثِ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: ضلالتَهم حتَّى رأَوها حسنةً.

وقال الزَّجَّاجُ: جعَلْنا جزاءَهم على كُفرِهم أنْ زيَّنَّا لهم ما هم فيه[1].

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتردَّدُونَ في أعمالِهم الخبيثةِ وفي ضلالتِهم.

وقيلَ: زيَّنّا لهم أعمالَهم التي تجبُ عليهم في دينِ الله، ووعَدْناهم عليها الثَّوابَ، ولكنَّهم أعرَضُوا فهم يعمَهُونَ.

قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: عذابٌ يسوؤُهم لِمَا فيه منَ الشَّدائدِ، يعني: في الآخرةِ.

وقيلَ: أرادَ يومَ بدرٍ.

﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ خسِرُوا أنفُسَهم وأهليهم، وقُرِنُوا بالشَّياطينِ، فلا أحدَ أخسَرُ منهم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٠٨).

وقيلَ: أي: أولئك هم الخاسرونَ، كقولِه: «الله أكبر»؛ أي: الكبيرُ، وقولِه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: هيِّنٌ.

وقيلَ: أي: في النّارِ أصنافٌ منَ الخاسرينَ بمعاصيهم، فلا يكونُ فيهم أخسَرُ ممَّن كفرَ بيومِ القيامةِ.

* * *

(٦) ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ﴾؛ أي: تتعلَّمُه وتأخذُه ﴿مِن﴾ عند ﴿حَكِيمٍ﴾ في أفعالِه وأقوالِه، وهو الله عزَّ وجلَّ، وكان النَّبيُّ ﷺ يتلقّاه من جبريلَ، وجبريلُ يأتيه به من عندِ الله؛ أي: هذا القرآنُ ليس بشعرٍ وسحرٍ وكهانةٍ، يُقالُ: «لقَّاني فلانٌ كلامًا فتلقَّيتُه»؛ أي: ألقاهُ وأخذتُه عنه.

وقيلَ: ﴿لَتُلَقَّى﴾؛ أي: يُلقَى عليك الوحيُ.

* * *

(٧) ـ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾؛ أي: اذكُرْ إذ قال لأهلِه؛ أي: امرأتِه.

وقيلَ: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ واتبعته الله تعالى وهو عليمٌ بك إذ بعثَكَ، هذا حينَ خرجَ موسى من مدينَ يؤُمُّ نواحيَ الشّامِ ومعه أهلُه.

ثمَّ؛ قيلَ: كان معه امرأتُه وقومٌ منَ الخدمِ والفلَقِ.

وقيلَ: كان هذا في الشِّتاءِ فوجدَ أهلُه البردَ، وكانَ معه زندٌ، فأَصْلَدَ، فأبصرَ النّارَ من بعيدٍ فقال:

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾؛ أي: لعلِّي آتيكُم بدلالةٍ على الطَّريقِ، وكان قد أضلَّ الطَّريقَ.

قُـرِئَ: ﴿بِشِهَابٍ﴾ بالتَّنوينِ، وقُـرِئَ بـغـيـرِ تـنـوينٍ(١) إضافةً إلـى القبسِ؛ أي: بشُعلةِ نارٍ.

وقيلَ: هو كقولِك: «مسجدُ الجامعِ، وصلاةُ الأولى، ولدارُ الآخرةِ، وجنّةُ الخضراءِ»، وهو من بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه، فيصحُّ عند الكوفيِّينَ.

والشِّهابُ: شُعلةُ نارٍ ساطعةٌ، والجمعُ: شهُبٌ.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ صَلِيَ بالنّارِ، واصطَلَى بها؛ أي: استدفَأَ.

* * *

(٨) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ﴾؛ أي: ناداهُ الله، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [الصافات: ١٠٤].

﴿بُورِكَ﴾ يُقالُ: «بارَكَه الله» و«بارَكَ عليه» و«بارَكَ فيه» بمعنًى، أي: بُورِكَ على مَن في النّارِ.

وقيلَ: هو من بابِ حذفِ المُضافِ، والتَّقديرُ: «بُورِكَ مَن في طلَبِ النّارِ»، وهو موسى، أو: «على مَن في قُربِ النّارِ»؛ لا أنَّه كان في وسطِها.

وقال ابنُ عبّاسٍ والحسَنُ: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: قُدِّسَ، وهو الله تعالى(٢)،

---

(١) قرأ بالتنوين عاصم وحمزة والكسائي، والباقون بالإضافة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٢) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «السنة» (٥٨٢)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٠)، عن ابن عباس =

كقولِك: «تبارَكَ اللهُ»، والمُرادُ بالنّارِ على هذا: النُّورُ؛ فإنَّ موسى صلواتُ الله وسلامُه عليه رأى نورًا عظيمًا فظنَّه نارًا، وهذا لأنَّ الله تعالى ظهرَ لموسى بآياتِه وكلامِه منَ النّارِ، لا أنَّه يتحيَّزُ في جهةٍ، وهو ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف: ٨٤] لا أنَّه يتحيَّزُ فيها، ولكن يظهرُ في كلِّ فعلٍ، فيُعلَمُ به وجودُ الفاعلِ.

وقيلَ على هذا: أي: بُورِكَ مَن في النّارِ سُلطانُه وقدرتُه.

وقيلَ: أي: بُورِكَ مَن في النّارِ من أمرِ الله تعالى الذي جعلَه علامةً.

وقال السُّدِّيُّ: كان في النّارِ ملائكةٌ[1]؛ أي: بُورِكَ الملائكةُ.

وقيلَ: ﴿مَن﴾ بمعنى «ما»، فـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: نورُ الله، وذلك أنَّه خلقَ نورًا في النّارِ التي رآها موسى، فكانَتْ نارًا ونورًا.

﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ هم الملائكةُ وموسى، وكان حولَ النّارِ ملائكةٌ لهم زَجَلٌ بالتَّسبيحِ.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نزَّهَ نفسَه عن كلِّ ما يقتَضي النَّقصَ، وكانت هذه نارًا سلَبَها الله تعالى الإحراقَ.

وفي الخبرِ: أنَّها كانت كلَّما ازدادَتْ عِظَمًا وتَضرُّمًا ازدادَتِ الشَّجرةُ خُضرةً[2].

= رضي الله عنهما، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٤٦)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٠) عن الحسن.

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (٣٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٣)، عن وهب بن منبه، ولفظه: «لما رأى موسى عليه السلام النار، انطلق يسير حتى وقف منها قريبا، فإذا هو بنار عظيمة، تفور من فرع شجرة خضراء، شديدة الخضرة؛ لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرمًا، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة وحسنًا...».

(٩) ـ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ الهاءُ فيه هي التي يُسمِّيها الكوفيُّون: العمادَ، وتُذكَرُ تأكيدًا، **والصَّحيحُ** أنَّ الـهاءَ كنايةٌ عن الشَّأنِ والأمرِ؛ أي: إنَّ الشَّأنَ والأمرَ أنا اللهُ، كما تقولُ: «إنَّه كان زيدٌ جاءَني»؛ أي: إنَّ الأمرَ هو هذا.

وقيلَ: قال موسى: يا ربِّ، مَن الذي ناداني؟ فقال: ﴿إِنَّهُۥٓ﴾؛ أي: إنَّ المُنادي لك ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾.

* * *

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ أراه أنَّه يَعلَمُ بها أنَّ المُكلِّمَ له هو اللهُ تعالى، وأنَّ موسى رسولُه، وكلُّ نبيٍّ فلا بدَّ له من آيةٍ في نفسِه يَعلَمُ بها نُبوَّتَه.

وفي الآيةِ محذوفٌ؛ أي: ألقِ عصاكَ، فألقاها فصارَتْ حيَّةً تهتزُّ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ﴾ وجازَ الحذفُ لأنَّه ذُكِرَ التَّمامُ في الأعرافِ والشُّعراءِ.

والجانُّ: حيَّةٌ بيضاءُ، والجمعُ: جِنَّانٌ، وفـي الخبرِ: «نهى عـن قتلِ جِنّانِ البيوتِ»(١)، وهي حيَّاتٌ بيضٌ تكونُ فـي البيوتِ ولا تُؤذي؛ أي: صارَتِ العصا تتحرَّكُ كما يتحرَّكُ الجانُّ، فكانت في خِفَّتِها كالجانِّ، وفي العِظَمِ كالثُّعبانِ، أو كانت في الابتداءِ كالجانِّ، ثمَّ كانت تربُو حتَّى تصيرَ كالثُّعبانِ العظيمِ.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾؛ أي: هرَبَ ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: لـم يرجِعْ.

---

(١) رواه البخاري (٣٣١٢ ـ ٣٣١٣)، ومسلم (٢٢٣٣)، ولفظه: عن نافع عن ابن عمر أنه كان يقتل الحيات، فحدثه أبو لبابة أن النبي ﷺ نهى عن قتل جنان البيوت فأمسك عنها.

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾؛ أي: قال الله تعالى له: لا تخَفْ ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ أي: لا يخافُ عندي مَن أرسلتُه؛ فإنَّ مَن آمنَه الله تعالى لا يخافُ.

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾؛ أي: أذنَبَ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا﴾؛ أي: توبةً وندَمًا ﴿بَعۡدَ سُوٓءٍ﴾ عمِلَه؛ فإنَّه يخافُ ويرجُو، وعلى هذا فالاستثناءُ صحيحٌ؛ أي: إلّا مَن ظلَمَ نفسَه منَ النَّبيِّينَ والمُرسَلين فيما فعلَ من صغيرةٍ، أو قبلَ النُّبوّةِ، وكان موسى خافَ من قتلِ القِبْطِيِّ وتابَ عنه.

وقيلَ: في الكلامِ حذفٌ؛ أي: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ إنَّما الخوفُ على غيرِهم، ثمَّ استثنَى فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾؛ أي: أشرَكَ أو عصى، فهو يخافُ عذابي ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا﴾؛ أي: تابَ وعمِلَ حُسنًا، فذلك مغفورٌ له ليس بخائفٍ.

وهذا بعيدٌ؛ إذ ليس في الآيةِ ما يدُلُّ على هذا المحذوفِ.

وقيلَ: هو استثناءٌ مُنقطعٌ؛ أي: لكنْ مَن ظلَمَ منَ العبادِ ثمَّ تابَ فإنِّي غفورٌ، والمعنَى: لا يخافُ الأنبياءُ والتّائبونَ.

وقيلَ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: «ولا»؛ أي: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ولا ﴿مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٍ﴾، وعند الكوفيِّينَ لا يجوزُ «إلّا» بمعنى «ولا».

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا﴾ بضمِّ الحاءِ، وفي روايةٍ عن أبي عمرٍو: (ثمَّ بدَّلَ حَسَنًا) بفتحِ الحاءِ والسِّينِ[1].

ثمَّ؛ هذا الحُسْنُ: التَّوبةُ وما يفعلُه التّائبُ من أعمالٍ صالحةٍ.

***

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٠)، وزاد نسبتها لابن أبي ليلى والأعمش.

(١٢) - ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾؛ أي: في جَيبِ قميصِك، وكانت عليه مِدْرَعةٌ إلى بعضِ يدِه، ولو كان بها كُمٌّ لأمَرَه أن يُدخِلَ يدَه في الكمِّ.

والجيبُ حيثُ جيبَ منَ القميصِ؛ أي: قُطِعَ.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ قال مُقاتلٌ: لـها شُعاعٌ مثلُ شعاعِ الشَّمسِ(١).

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ أي: من غيرِ مرضٍ.

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾؛ أي: عصاكَ ويدُك مُعجزتانِ في تسعِ مُعجزاتٍ هما من جُملتِها، تقولُ: «خرَجْتَ في عشرِ نفرٍ» وأنتَ أحدُهم، كما تقولُ: «خرَجْتَ عاشرَ عشرةٍ».

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: أرسَلْناكَ إلى فرعَونَ، فحُذِفَ لأنَّه معلومٌ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ أي: خرَجُوا عن طاعةِ الله مذ زمانٍ.

***

(١٣) - ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحةً بيِّنةً، كقولِه: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقيلَ: مُبصَرًا بها، كما قال تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: مرضيٌّ بها، وكقولِـهم: «ماءٌ دافقٌ، وليلٌ نائمٌ، وسرٌّ كاتمٌ»، وهو فاعلٌ بمعنى مفعولٍ، ذكرَه الكوفيُّونَ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٥).

وقيلَ: ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي: ذاتَ إبصارٍ؛ أي: فيها إبصارٌ لمَن نظرَ إليها.

وقيلَ: ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي: مُبصَّرةً، فالآياتُ تُبصِّرُ النّاظرينَ فيها بإيجابِ العلمِ لهم.

﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾؛ أي: هذا الذي نُبصِرُه عيانًا ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

* * *

(١٤) - ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾؛ أي: لم يُقِرُّوا أنَّها من عندِ الله تعالى.

قال أبو عُبَيدةَ: الباءُ زائدةٌ؛ أي: جحَدُوها[1].

﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: علِمُوا يقينًا أنَّها ليسَتْ سحرًا، وهذا يدُلُّ على أنَّهم كانوا مُعانِدين، وهذا العِنادُ إنَّما يكونُ في البعضِ وهم الرُّؤساءُ.

وقيلَ: استيقَنُوا أنَّها خارجةٌ عن العادةِ وعن قِوَى العبادِ، ثمَّ تركُوا النَّذيرَ ظُلْمًا منهم وحبًّا للرِّئاسةِ.

وقيلَ: المعنى: استيقَنُوا لو تدبَّروا وتأمَّلُوا.

وقيلَ: استيقَنُوا تلك الأمورَ حسًّا، ولكنْ لم يعلَمُوا وجهَ الدّلالةِ وأنَّها مُعجِزاتٌ.

﴿فَٱنظُرْ﴾؛ أي: فانظُرْ يا محمَّدُ كيف كانت عاقبتُهم في الإهلاكِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٧٩). وفي «مجاز القرآن» (٢/ ٢٦٤) الإشارة لزيادة الباء لكن في آية أخرى حيث قال: «﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ مجازها: أيكم المفتون كما قال الأول:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج ... نضرب بالسيف ونرجو بالفرج».

(١٥) ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾؛ أي: أعطَيناهما علمًا بالدِّينِ والحكمِ وغيرِهما كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال سُلَيمانُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾؛ أي: بالنُّبوّةِ والكتابِ والإلانةِ الحديدِ وتسخيرِ الشَّياطينِ والجنِّ والإنسِ؛ أي: فلذلك فاحمَدْنا يا محمَّدُ على ما آتيناكَ منَ النُّبوّةِ والفضيلةِ والتَّقديمِ على الجميعِ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

***

(١٦) ـ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾؛ أي: لـمَّا ماتَ داودُ ورِثَ سليمانُ علمَه، وخصَّصَه الله تعالى بالنُّبوّةِ دونَ بني داودَ، وكان لداودَ تسعةَ عشرَ ولدًا منَ الذُّكورِ.

﴿وَقَالَ﴾؛ أي: قال سليمانُ لبني إسرائيلَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾؛ أي: بفضلِ الله تعالى علينا، وزادَ على ما ورِثْنا من داودَ عليه السَّلامُ منَ العلمِ والنُّبوّةِ والخلافةِ في الأرضِ، فعلَّمَني منطقَ الطَّيرِ، وذلك أنَّه تعالى علَّمَه كلامَ الحُكْلِ، حتَّى كلامَ النَّملِ، فجعلَ ما يفهمُ من أصواتِ الطَّيرِ فهمَه منطقًا كمنطقِ الإنسانِ، وهو مُستَعارٌ.

وقيلَ: صوتُ كلِّ شيءٍ: نُطقُه.

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من أمرِ الدُّنيا والآخرةِ.

وقيلَ: من كلِّ شيءٍ يُؤتاه الأنبياءُ والنّاسُ.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ﴾ منَ الله ﴿الْمُبِينُ﴾: الظّاهرُ والمُظهِرُ لفضيلَتِنا.

* * *

(١٧) ـ ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؛ أي: حُشِرَ له في مسيرِه وأسفارِه ما كانَ الله سخَّرَ له من جنودِ الإنسِ والجنِّ والطَّيرِ، فكان سليمانُ إذا أرادَ سفرًا يجتمعُ له طوائفُ من هؤلاءِ الجنودِ على بساطٍ له عظيمٍ، ثمَّ يأمرُ الرِّيحَ فتحمِلُهم بينَ السَّماءِ والأرضِ، وكان سليمانُ يعرِفُ ألسنتَهم، ويقضي بينَهم، فقولُه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ﴾؛ أي: في مسيرٍ له.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُقالُ: «وَزَعْتُه أزَعُه وَزْعًا»؛ أي: كفَفْتُه، والوازِعُ في الحربِ: الموكَّلِ بالصُّفوفِ يَزَعُ مَن تقدَّمَ منهم من غيرِ أمرٍ ليتلاحقُوا.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يُدفَعُونَ[1].

وقيلَ: يُساقُونَ؛ أي: يدفعُ آخرُهم على أوَّلِـهم.

وقيلَ: هو منَ التَّوزيعِ بمعنَى التَّفريقِ، و«القومُ أوزاعٌ»؛ أي: طوائفُ.

وفي القصّةِ: أنَّ الشَّياطينَ نسجَتْ له بساطًا ذهبًا في إبريسَمٍ فرسخًا في فرسخٍ، فكانَ يُوضَعُ له كرسيٌّ من ذهبٍ، وحولَه ثلاثةُ آلافِ كرسيٍّ من ذهبٍ وفضّةٍ، فتقعدُ الأنبياءُ على كراسيِّ الذَّهبِ، والعلماءُ على كراسيِّ الفضّةِ[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٩٨) عن مقاتل.

وقيلَ: كان عسكرُه مئةَ فرسخٍ: خمسةٌ وعشرونَ فرسخًا للجنِّ، وخمسةٌ وعشرونَ للوُحوشِ.

***

(١٨) - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ذكَّرَه ما جرَى له في مسيرِه هذا؛ أي: حتَّى إذا أشرَفُوا على وادي النَّملِ، ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ وَادِ﴾ ولـم يقُلْ: «أَتَوا واديَ النَّملِ».

قال كعبٌ: هو بالطّائفِ[1].

وقال قتادةُ: بالشّامِ[2].

﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٌ﴾ قد يُستَعمَلُ الكلامُ والقولُ والمنطقُ في الصَّوتِ؛ أي: صاحَتْ نملةٌ، وأضافَ الوادي إلى النَّملِ لكثرةِ النَّملِ فيه.

وقيلَ: هذا ببلادِ اليمنِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾؛ أي: سمعَ سليمانُ نملةً تقولُ للنَّملِ: ادخُلوا مساكنَكم.

ثمَّ قيلَ: كانت نملةً صغيرةً مثلَ النَّملِ المُعتادِ[3].

وقال نوفٌ الشَّاميُّ وشقيقُ بنُ سلمةَ: كانت [نملُ ذلك الوادي كهيئةِ الذئابِ في العِظَم.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٢).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٥٧).

(٣) وهو قول الكلبي، كما في «البسيط» للواحدي (١٧/ ١٨٨)، وسيشير إليه المصنف بعد قليل.

وعن بُريدةَ الأسلمي: أنها كانت] كهيئةِ النِّعاجِ(١).

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ هذا يُدلُّ على قولِ الكلبيِّ؛ إذ لو كانت كالذُّبابِ أو النِّعاجِ لَـمَا حُطِمَتْ بالوَطْءِ.

وكانت معرفةُ النَّملةِ لسليمانَ معجزةً ألهمَها الله معرفتَه، وهذا كما أنَّ النَّملَ تعرفُ كثيرًا من نفعِها وضرِّها، فتكسِرُ الحنطةَ بقطعتَينِ لئلّا تنبُتَ، وتكسِرُ الكُزْبرةَ بأربعةِ أقطاعٍ لأنَّها تنبُتُ إذا كُسِرَتْ بقطعتَينِ، وتُخرِجُ الحبَّاتِ من بيوتها ليضربَ عليها الهواءُ ولا تعفَّنَ، وإذا أحسَّتْ من حيثُ الرِّياحُ بوقوعِ المطرِ تسارَعَتْ إلى نقلِ الحبّاتِ إلى داخلِ بيوتها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ جاء بلفظِ ما يعقلُ لأنَّ النَّملَ هاهُنا أُجرِيَ مُجرَى الآدميِّينَ حينَ نطقَ كما ينطقُ الآدميُّونَ.

والحَطْمُ: كسرُ الشَّيءِ؛ أي: لا يُهلِكنَّكم.

﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قيلَ: سمعَ سليمانُ هذا ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: وجنودُ سليمانَ ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ وإنْ شعرَ سليمانُ، قالَه ابنُ عبّاسٍ(٢).

وقيلَ: هذا من قولِ النَّملةِ؛ أي: وعسكرُ سليمانَ لا يشعُرونَ بحطمِكم، وكأنَّ النَّملةَ عرفَتْ أنَّهم لا يظلمونَ فقالَتْ: إنَّهم لا يستجيزُونَ حطمَكم، ولكنْ ربَّما لا يشعُرونَ بكم.

وقيلَ: لمَّا سمعَ سليمانُ هذا وقفَ بمَن معه لتدخُلَ النَّملُ مساكنَها، وهذا يدُلُّ

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (١٧/ ١٨٨)، وما بين معكوفتين منه.

وروى قول نوف البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٥٨).

(٢) لم أجده.

على أنَّه كان في جنودِه مَن يمشي على الأرضِ في تلك الحالةِ، ولـم تحتمِلْهم الرِّيحُ، ولعلَّ هذا كان قبلَ تسخيرِ الله الرِّيحَ لسُليمانَ.

***

(١٩) ـ ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾؛ أي: أبدَى عن أسنانِه للضَّحكِ، يُقالُ: بسَمَ يبسِمُ، وابتَسَمَ، وتبسَّمَ يتبسَّمُ تبسُّماً.

﴿ضَاحِكًا﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ، والتَّبسُّمُ: ابتداءُ الضَّحكِ، والضَّحكُ عبارةٌ عن الابتداءِ والانتهاءِ، والمعنى: فضحِكَ ضاحكًا، أو تبسَّمَ مبتسمًا، إلّا أنَّ «يضحَكُ» يقتَضي مزيدًا على التَّبسُّمِ، وإنَّما ضحِكَ سليمانُ للتَّعجُّبِ؛ لأنَّه رأى ما لا عهدَ له به.

ولـمَّا رأى ذلك حمِدَ ربَّه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ أي: ألهِمْني.

وقال الزَّجّاجُ: أي كُفَّني عن الأشياءِ إلّا عن شُكرِ نعمَتِك[١].

وفي الخبرِ: كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُوزَعًا بالسِّواكِ[٢]؛ أي: مُولَعًا به، كأنَّه كُفَّ ومُنِعَ إلّا عنه.

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ أي: خصَصْتَني بهذه النِّعمِ ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ إذ جعلْتَ داودَ نبيًّا،

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١١٢).

(٢) الحديث بهذا اللفظ ذكره الخليل في «العين» (٢/ ٢٠٧)، وأبو عبيد الهروي في «الغريبين» (مادة: وزع)، والواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٩٤)، والزمخشري في «الفائق» (مادة: وزع).

ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٨٠) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «وكان رسول الله ﷺ مولعًا بالسواك».

وسخَّرْتَ له الحديدَ والجبالَ والطَّيرَ، وجعَلْتَ والدتي زوجةَ نبيِّكَ، وآتيتَني النُّبوَّةَ.

وقال محمَّدُ بنُ إسحاقَ: يزعمُ أهلُ الكتابِ أنَّ أمَّ سليمانَ هي امرأةُ أُوريا التي امتَحَنَ الله بها داودَ بما امتَحَنَ، وأنَّه بعد موتِ زوجِها تزوَّجَها داودُ فولدَتْ له سليمانَ(١). والله أعلَمُ.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ أي: وألهِمْني الأعمالَ الصّالحةَ ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾؛ أي: للجنَّةِ مع عبادِكَ الذين صلَحُوا بطاعتِكَ، وصلَحُوا لجنَّتِكَ.

وقيلَ: أي: أثبِتْ اسمي مع أسمائِهم، واحشُرْني في زُمرتِهم.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ ثمَّ ذكرَ شيئًا آخرَ مـمَّا جرَى له في مسيرِه الذي كان فيه من النَّملِ ما تقدَّمَ، والتَّفقُّدُ: تطلُّبُ ما غابَ عنك من شيءٍ، والطَّيرُ: اسمٌ جامعٌ، والواحدُ: طائرٌ، والمرادُ بالطَّيرِ هاهُنا: جنسُ الطَّيرِ وجماعتُها، وكانت تصحبُه في سفرِه وتُظِلُّه.

﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ أي: ما للهُدْهُدِ لا أراه؟ فهو منَ القلبِ الذي يُعرفُ معناه، وهو كقولك: «مالي أراكَ كئيبًا؟»؛ أي: ما لَكَ؟

والهدهُدُ: طيرٌ معروفٌ، وهَدْهَدَتُه: صوتُه.

---

(١) رواه عبد بن حميد عن كعب كما في «الدر المنثور» (٧/ ١٦٢).

وقيلَ لابنِ عبّاسٍ: كيف تفَقَّدَ الهدهُدَ من بينِ الطَّيرِ؟ فقال: نزَلَ منزلًا ولـمْ يدرِ ما بُعدُ الماءِ، وكان الهدهدُ مُهتَديًا إليه فأرادَ أن يسألَه[١].

قال مجاهدٌ: فقلتُ: كيف يهتَدي والصَّبيُّ يضعُ له الحبالةَ فيصيدُه؟ فقالَ: إذا جاء القدَرُ عَمِيَ البصرُ[٢].

وقال الكلبيُّ: لـم يكُنْ معَه في مسيرِه إلّا هُدْهُدٌ واحدٌ[٣].

وقيلَ: سببُ التَّفقُّدِ أنَّ الطَّيرَ كانت تُظِلُّه فوقعَتْ لفحةٌ منَ الشَّمسِ على رأسِه، فنظرَ فإذا موضعُ الهدهُدِ خالٍ.

وقيلَ: كان يعرِضُ جنودَه ويتفقَّدُ الغائبَ والحاضرَ، وكان يأتيه من كلِّ صنفٍ واحدٌ نُوَباً، فلم يرَ الهدهدَ.

﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ قال الزَّجّاجُ: أي: بل كان منَ الغائبينَ[٤]. فكأنَّه ظنَّ أنَّه حاضرٌ وهو لا يراه، ثمَّ أدركَه الشَّكُّ في غيبتِه، فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾؛ أي: بل كانَ من الغائبين.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦١).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٩٥). والصواب أن السائل هو نافع بن الأزرق:
فقد رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٥٩) من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن السائل نافع بن الأزرق.
وهكذا رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٥٢)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٠)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وروي بإبهام السائل؛ رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «السنة» (٩٠٠) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٩٦).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١١٣).

وقـال الكسائيُّ رحمه الله: الميمُ صلةٌ؛ أي: أكانَ[1]؟ كقوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ ﴾ [الطور: ٤١]؛ أي: أَعِنْدَهم.

وقال الجُرجانيُّ رحمَه الله: أي: أصارَ منَ الغائبينَ؟ كقولِه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ [آل عمران: ١٦١]؛ أي: أن يصيرَ له أسرَى[2].

وقيلَ: أي: أخبِروني عن الهدهدِ، أحاضِرٌ هو أم كانَ منَ الغائبين؟ ومثلُه: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [ص: ٦٣]، وقولُه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال: ﴿مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ ولـم يقُلْ: «منَ الغائبةِ»؛ لرؤُوسِ الآيِ، وكانَ الطَّيرُ عند سليمانَ ممَّن يعقِلُ حيثُ فهِمَ عنها وفهِمَتْ عنه.

* * *

(٢١) ـ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قيلَ: لأنتِفَنَّ ريشَه، ولأطرَحَنَّه في الشَّمسِ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ ﴾؛ أي: إلّا أن يأتيَني بحُجّةٍ وعُذرٍ ظاهرٍ في غيبتِه.

قرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿ليأتينَّنِي﴾ بنونَينِ، وقرأ الباقونَ: بنونٍ واحدةٍ مُشدَّدةٍ[3].

وليس اللّامُ في ﴿لَيَأْتِيَنِّى ﴾ لامَ القسَمِ؛ لأنَّه لا يُقسِمُ سليمانُ على فعلِها، ولكنْ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٩٧) عن مقاتل والكسائي، وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٠٠)، لكن ذكر أبو حفص النسفي في «التيسير» (١١/ ٣٣٩) عن الكسائي مثل قول الزجاج.

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ١٩٨)، وعبارته: ﴿كَانَ ﴾ هاهنا بمنزلة صار، كقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾؛ أي: أن يصير له أسرى، والتأويل: صار من الغائبين؛ أي: صار ممن يغيب عن مركزه.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

لمَّا جاء في أثرِ قولِه: «لأُعذِّبنَّه»، وهو مـمَّا جازَ به القسَمُ أجراهُ مُجراه، ولو لـم يأتِ باللّامِ لَـمَا جاز النُّونُ، بل قالَ: «أو يأتيَنِي»؛ أي: حتَّى يأتيَني.

***

(٢٢) ـ ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ يُقالُ: «مكَثَ يمكُثُ فهو ماكِثٌ»، مثلَ: «نصَرَ ينصُرُ»، و«مكُثَ يمكُثُ»، مثلَ: «عظُمَ يعظُمُ»[1] فهو «مكيثٌ» مثلَ «عظيمٍ»، و«مكِثَ يمكَثُ فهو ماكِثٌ»، مثلَ «حمِدَ يحمَدُ»، وقولُه: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] يُقوِّي الفتحَ في الماضي؛ أي: لا تكادُ تجدُ «فاعلاً» من «فَعُلَ».

أي: فبقيَ سليمانُ بعد هذا التَّفقُّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ؛ أي: غيرَ وقتٍ بعيدٍ.

وقيلَ: فمكَثَ الهدهدُ غيرَ بعيدٍ، فجاءَ ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، وجاء بعُذرٍ؛ فإنَّ سليمانَ سألَه عن غيبتِه، فقال: علِمْتُ ما لـم تعلَمْهُ منَ الأمرِ، وبيَّنَ ذلك فقال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾؛ أي: بخبرٍ ﴿يَقِينٍ﴾.

قُرِئَ: ﴿سبَإٍ﴾ بالتَّنوينِ والصَّرفِ، فعلى هذا فهو اسمُ رجلٍ نُسِبَ إليه قومٌ، أو سُمِّيت باسمِه ناحيةٌ كما سُمِّيَتْ بلدةُ مدينَ بمدينَ، وهو اسمُ رجلٍ.

وقُرِئَ: ﴿مِنْ سبَأَ﴾ غيرَ مُنصرفٍ[2].

---

(١) قرأ عاصم بفتح الكاف والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٢) بفتح الهمزة من غير تنوين قرأ بها البزي وأبو عمرو، وقرأ قنبل بإسكانها على نِيَّة الوقف، والباقون بخفضها مع التَّنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

قال الفرَّاءُ: العربُ إذا سمَّتْ بالاسمِ المجهولِ تركُوا صرفَه[١].

وقال الزَّجّاجُ: لـم يجِبْ تركُ صرفِه، وحقُّ الأسماءِ الصَّرفُ حتَّى يقومَ دليلٌ على عدمِ الصَّرفِ، وأنكرَ أيضاً أن يكونَ هذا اسمَ رجلٍ؛ لأنَّ سبأً اسمُ مدينةٍ تُعرَفُ بمأربَ منَ اليمنِ، بينَها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثةِ أيّامٍ، قال: فمَن لـم يصرِفْ قال: إنَّه اسمُ مدينةٍ، ومَن صرَفَ وهو الأكثرُ فلأنَّه اسمٌ للبلدِ ليكونَ مُذكَّرًا سُمِّي به مُذكَّرٌ[٢].

وفي الخبرِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عن سبَأٍ، فقال: «كانَ رجلاً له عشرةٌ منَ البنينِ»[٣].

وفي التَّواريخِ: أنَّ سبأً اسمُ رجلٍ تُنسَبُ إليه اليمانية، يُقالُ له: سبأُ بنُ يَشجَبَ بنِ يَعرُبَ بنِ قحطانَ.

﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ أي: خبرٍ حقٍّ لا شكَّ فيه.

***

(٢٣) ـ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ أي: قال سليمانُ عليه السَّلامُ: وما ذلك الخبرُ؟ فقال: إنِّي وجَدْتُ امرأةً ـ يعني: بلقيس ـ تملِكُ أهلَ سبأٍ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١١٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٢٢٢) من حديث فروة بن مسيك رضي الله عنه بلفظ: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة. فأما الذين تشاءموا فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة، وأما الذين تيامنوا: فالأزد، والأشعريون، وحمير، ومذحج، وأنمار، وكندة». وقال الترمذي: «حسن غريب».
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٨٥) وصححه، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: أُعطِيَتْ من كلِّ ما يَحتاجُ إليه الملوكُ منَ الآلاتِ والرِّجالِ والأموالِ، وهذه لفظةٌ تُطلَقُ على التَّكثيرِ للشَّيءِ.

وقيلَ: أي: أُوتيَتْ من كلِّ شيءٍ في زمانِها شيئًا، فحُذِفَ المفعولُ لأنَّ الكلامَ دلَّ عليه.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: سريرٌ من ذهبٍ تجلسُ عليه.

قال ابنُ عبَّاسٍ: طولُه ثمانونَ ذراعاً، وعرضُه أربعون ذراعاً، وارتفاعُه في السَّماءِ ثلاثون ذراعاً، مضروبٌ بالذَّهبِ، مُكلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ الأحمرِ والزَّبرجَدِ الأخضرِ، قوائمُه من زبرجدٍ أخضرَ[1].

وقال مُقاتلٌ: كان ثمانينَ ذراعاً في ثمانينَ ذراعاً، وارتفاعُه منَ الأرضِ ثمانونَ ذراعاً، وهو مُكلَّلٌ بالجواهرِ[2].

***

(٢٤) - ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يعبُدونَ الشَّمسَ من دونِ الله.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: ما هم فيه منَ الكفرِ فصدَّهُم عن السَّبيلِ؛

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٠٧)، وروى الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٠) من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سرير كريم، قال: حسن الصنعة، وعرشها: سرير من ذهب، قوائمه من جوهر ولؤلؤ».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٠١).

أي: عن الطَّريقةِ المُستقيمةِ التي هي التَّوحيدُ، وبيَّنَ بهذا أنَّ ما ليس بسبيلِ التَّوحيدِ فليس بسبيلٍ يُنتَفَعُ به على التَّحقيقِ، فهم لا يهتَدون إلى الله وتوحيدِه.

***

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ قُرِئَ: ﴿أَلَا﴾ بالتَّخفيفِ، عرَّفَهم طريقَ العبادةِ؛ أي: ألَا يا هؤلاءِ، اسجُدوا لله[1] الذي يُنزِّلُ منَ السَّماءِ الغيثَ ويُخرِجُ منَ الأرضِ النَّباتِ، ويعلمُ السِّرَّ والعلَنَ، وهو ربُّ العرشِ العظيمِ لا بلقيسُ.

وهذا يحتمِلُ أن يكونَ من قولِ الهدهدِ، ويحتملُ أن يكونَ من قولِ سليمانَ، ويحتملُ أن يكونَ من قولِ الله، فهو كلامٌ مُعترِضٌ في هذه القصَّةِ، و﴿أَلَا﴾ حرفُ تنبيهٍ، والمحلُّ محلُّ الاستعطافِ فيحسُنُ فيه «ألا»، ومن أشعارِهم:

ألَا يـا اسـلَمي يا دارَ مـيَّ علـى البِلَى[2]

أي: يا دارَ ميَّ اسلَمي، وهذا القولُ يُشكِلُ؛ لأنَّ في المصحفِ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾.

وقال الجرجانيُّ: هو كلامٌ مُعترِضٌ منَ الهدهدِ، أو من سليمانَ، أو منَ الله؛ أي:

---

(١) وهي قراءة الكسائي؛ خفف (ألا) على أنها للتنبيه، ووقف على (يا)، ويبتدئ: (اسجدوا) على الأمر، وباقي السبعة بالتشديد وستأتي. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧ ـ ١٦٨).

(٢) صدر بيت لذي الرمة، وهو في «ديوانه» (١/ ٥٥٩)، وعجزه:

ولا زالَ مُنْهَــلًّا بجَرْعائــكِ القَطْــرُ

قال البغدادي في «شرح أبيات المغني» (٤/ ٣٨٥): و«ميّ» اسم محبوبته، بالتنوين، وتارة يقول: مية، فلا يُصرف. قال سيبويه: زعم يونس أنّه كان يسميّها مرّة: ميًّا، ومرّةً: ميَّةَ.

انهل القطر انهلالًا؛ أي: سال بشدةٍ، والجرعاء: الرملة المستوية التي لا تُنبت شيئًا.

﴿أَلَا يَسْجُدوا﴾، كقولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾ [الجاثية: ١٤]، و[قد] قيلَ [فيه]: إنَّه أمرٌ؛ أي: ليغفِرُوا(١)، وينتظِمُ على هذا كتابةُ المصحفِ؛ إذ ليس هاهُنا نداءٌ.

وقُرِئَ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بالتَّشديدِ، أي: فصدَّهُم عن السَّبيلِ لئَلَّا يسُجدوا، أو: زيَّنَ لهم الشَّيطانُ أعمالَـهم لئلّا يسجُدوا.

وقيلَ: هو متَّصلٌ بقولِه: ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: فهم لا يهتَدونَ أن يسجُدوا لله؛ أي: لا يعلمُونَ أنَّ ذلك واجبٌ عليهم، وعلى هذا لا زيادةَ، كقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ أي: ما منعَكَ أن تسجُدَ.

وقيلَ: فصدَّهُم عن السَّبيلِ بأنْ لا يسجُدوا.

﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ من خبَأْتُ الشَّيءَ أخبَؤُه خَبْأً، والخبءُ: ما خبَأْتَ من ذخيرةٍ، يعني: يعلَمُ الغيبَ في السَّماواتِ والأرضِ، ومنه المطرُ والنَّباتُ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتّاءِ(٢) ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

* * *

(٢٧) - ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾؛ أي: سنعرِفُ حقيقةَ ما أَخبرْتَ به: هل صدقتَ فتأمنَ العذابَ، أم كنتُ كاذباً فتستحقَّ العذابَ؟

---

(١) انظر: «البسيط» (١٧/ ٢١٢)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) قرأ حفص والكسائي بالتاء والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠ - ٤٨١)، و«التيسير» (ص: ١٦٨).

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾؛ أي: صدَقْتَ أم أنتَ منَ الكاذبينَ، كقولِه: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]؛ أي: مَن هو صبيٌّ.

وقيلَ: أصدَقْتَ فيما أخبرتَ به أم كنتَ في الماضي كاذباً فيما أخبرتَ به؟

وإنَّما صارَ صدقُ الهدهدِ عُذراً له لأنَّه أخبرَ بما يقتَضي الجهادَ، وكان سليمانُ [حُبِّبَ إليه الجهاد.

﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا﴾ فيه حذفٌ؛ أي: فكتَبَ سليمانُ][١] إلى ملكةِ سبأٍ وقومِها، ودفعَ الكتابَ إلى الهدهدِ.

* * *

(٢٨) ـ ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قُرِئَ: ﴿فألقِهي﴾ بإشباعِ كسرةِ الهاءِ.

وقُرِئَ: ﴿فَأَلْقِهْ﴾ من غيرِ إشباعٍ[٢].

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: انصرِفْ عنهم.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: اذهَبْ بكتابي هذا إليهم، فانظُرْ ماذا يرجعونَ، ثم تول عنهم.

وقيلَ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: استَتِرْ عنهم من حيثُ لا يرونَكَ، فانظُرْ ماذا يقولونَ منَ الجوابِ، فألقَى الهدهدُ إليهم الكتابَ وصارَ إلى كوَّةٍ في مجلِسها مُتوارِياً عنها.

﴿فَٱنظُرْ﴾؛ أي: انتَظِرْ.

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

(٢) قرأ بها قالون وهشام بخلف عنه، وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ باسكان الهاء، والباقون يشبعونها وهو الوجه الثاني لهشام. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٨).

وقيلَ: فاعلَمْ، كقولِه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]؛ أي: يعلَمُ.

﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: يجيئُونَ، أو: ماذا يردُّونَ منَ القولِ.

وقيلَ: فانظُرْ ماذا يتراجَعُونَ بينَهم منَ الكلامِ.

* * *

(٢٩) - ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾؛ أي: فمضَى الهدهدُ فألقى الكتابَ إليهم، فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ ففي الكلامِ حذفٌ.

قيلَ: أدخلَ الهدهدُ الكتابَ في موضعِ جلوسِها مع وزرائِها.

وقيلَ: أتاها الهدهدُ وهي نائمةٌ مُستلقيةٌ على قفاها فألقَى الكتابَ على نحرِها.

وقيلَ: وقفَ الهدهدُ على رأسِها، فرَفْرَفَ ساعةً والنّاسُ ينظُرونَ، فرفعَتِ المرأةُ رأسَها، فألقَى الكتابَ في حِجْرِها، فقرأت الكتابَ وكانت عربيّةً من قومِ تُبّعٍ الحميَريِّ، فأخبرَتْ قومَها، وقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾؛ أي: يا أيُّها الأشرافُ ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ﴾ هذا الكتاب وهو ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ لأنَّه ممَّن سُخِّرَ له الطَّيرُ والوحشُ، ولولا ذلك لم يصِلِ الهدهدُ إلى موضعِ خلوَتي ونَومي.

وقيلَ: كتابٌ كريمٌ لافتتاحِه بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقيلَ: سمَّتْه كريماً لأنَّه كان مختوماً لا يطَّلعُ عليه كلُّ أحدٍ، وفي الخبرِ: «كرامةُ الكتابِ خَتمُه»[1].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٩): فيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

وقيلَ: توهَّمَتْ أنَّه كتابٌ جاءَها منَ السَّماءِ؛ إذ كان المُوصِلُ طيراً.

وقيل: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: حسَنٌ، كقولِه: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨]؛ أي: مجلِسٍ حسَنٍ.

* * *

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ قال الكلبيُّ: أتاها وهي في قصرِها، فدارَ حولَ القصرِ حتَّى وصلَ من كوّةٍ، ثمَّ قطعَ سبعةَ أبياتٍ حتَّى انتَهى إليها وهي نائمةٌ مُستلقيةٌ، فوضعَ الكتابَ إلى جنبِها ونقرَها نقرةً، فاستيقَظَتْ وأخذَتِ الكتابَ، وإذ الأبوابُ مغلقةٌ، والحرَسُ محيطُونَ بالقصرِ، وقد عادَ الهدهدُ إلى مكانِه منَ الكوّةِ، فقالت: هل رأيتُم أحدًا دخلَ عليَّ؟ فقالوا: ما رأينا أحداً، فوقعَ في قلبِها أنَّه منَ السَّماءِ، فقالت: ﴿أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ ثمَّ فتحَتْ فإذا فيه التَّسميةُ، وفيه: من سليمانَ بنِ داودَ إلى بلقيسَ بيتِ شراحيلَ، فقالَت عند ذلك: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: إنَّ الكتابَ من سليمانَ، وإنَّ المكتوبَ فيه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[١].

﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾؛ أي: بأنْ لا تَعلُوا، أو: أُلقِيَ إليَّ أنْ لا تعلُوا.

وقال سيبويهِ: ﴿أن﴾ بمعنَى: «أي»، كقولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص: ٦]: أي امشُوا[٢]، والمعنى: أي قالَتْ: قال سليمانُ: لا تعلُوا وأْتُوني مُسلمينَ؛ أي: مُنقادينَ، والغرضُ أنَّه دعاها إلى الطّاعةِ والانقيادِ والإسلامِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٢٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١١٩) وعزاه للخليل وسيبويه، وهو بمعناه في «الكتاب» (٣/ ١٦٢).

ثمَّ؛ قيلَ: إنَّها كانت تقرأُ وتكتبُ.

وقيلَ: قُرِئَ عليها ولم تكُنْ قارئةً.

* * *

(٣٢) ـ ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا﴾ قيلَ: إنَّها أرسلَتْ إلى قومِها فاجتمَعُوا واستشارَتْهم، وهم ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ قائدًا هم أهلُ مشورتِها، وكلُّ رجلٍ منهم على عشرةِ آلافٍ.

وقيلَ: كان مع كلِّ قائدٍ مئةُ ألفٍ.

﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾؛ أي: أشيرُوا عليَّ وبيِّنُوا لي ما أعمَلُ به ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾؛ أي: فاعلةً أمراً حتَّى تحضُروني وتشهَدُوني.

* * *

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾؛ أي: نحنُ قادِرونَ على القتالِ إن احتيجَ إليه لكثرةِ عددِنا ووُفورِ عُدَدِنا.

قال ابنُ عبّاسٍ: كان من قوَّةِ أحدِهم أنَّه يُركِضُ فرسَه حتَّى إذا احتَدَّ ضمَّ فخذَيه فحبسَه بقوَّتِه[١].

﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ﴾؛ أي: شجاعةٍ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٢٥).

﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾؛ أي: في القتالِ وفي تركِه ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؛ أي: تُشيرينَ علينا.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾؛ أي: أهلَكُوها.

وقيلَ: سعَوا فيها بالفسادِ والتَّخريبِ ليزولَ تحصُّنُ أهلِها بها.

﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بأنْ يسلُبوا أموالَهم ويُذِلُّوا أعوانَهم؛ أي: إنْ دخلَ هؤلاءِ بلادَكم أذلُّوكم وأنتم ملوكٌ.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هذا من قولِها؛ أي: وإنَّ سليمانَ وقومَه إنْ دخلُوا بلادَكم فهكذا يفعَلُونَ.

وقيلَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تصديقٌ منَ الله لها؛ أي: إنَّ الأمرَ كما قالَتْ.

ثمَّ إنَّها قالت: الرَّأيُ ألّا نُعاجِلَ بالقتالِ، بل نَستبرِئُ الحال.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾؛ أي: نختَبِرُهم، فإنْ قبِلُوا الهديّةَ علِمْنا أنَّهم طلَّابُ ملكٍ، فندفعُهم بالمالِ والقتالِ، وإنْ لم يقبَلُوا الهديّةَ فهم طالِبُو دينٍ ودُعاةٌ إلى الله، فلا يُغلَبُونَ، فليس إلا الاستسلامَ.

﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قيلَ: أرسلَتْ جماعةً مع هديَّتِها.

وقيلَ: كان الرَّسولُ واحداً، ولكن كان في صُحبتِه أتباعٌ وخدَمٌ.

وقيلَ: أرسلَتْ رجلاً من أشرافِ قومِها يُقالُ له: المُنذرُ بنُ عمرٍو، وضمَّتْ إليه رجالاً ذَوي رأيٍ وعقولٍ.

والهديةُ: مئةُ وصيفٍ، ومئةُ وصيفةٍ.

وقال مجاهدٌ: مئةُ غلامٍ، ومئتا جاريةٍ[(١)].

وقال ثابتٌ البُنَانيُّ: أهدَتْ إليه صفائحَ الذَّهبِ في أوعيةِ الدِّيباجِ[(٢)].

وقيلَ: بعثَتْ ثياباً وأفراساً.

وقيل: جواريَ في زيِّ الغلمانِ، وغلماناً في زيِّ الجواري، فميَّزَ سليمانُ الجواريَ منَ الغلمانِ، قال: إنِّي آمِرُهم بالوضوءِ، فجعلَ الغلمانُ يحدُرونَ الماءَ على اليدِ والرِّجلِ حَدراً، وجعلَ الجواري يصبُبْنَ منَ اليدِ اليُسرَى على اليُمنَى، ومنَ اليُمنَى على اليُسرَى، فميَّزَ بهذا بينَهم.

وقيلَ: وجَّهَتْ مع الهدايا لَبنةً من ذهبٍ، فأخبرَ الله سليمانَ بذلك، فأمرَ بفَرْشِ الأرضِ على بابِ دارِه بلبناتِ الذَّهبِ إلّا موضعَ لبنةٍ، فلمَّا قرُبوا من دارِ سليمانَ إذا الأرضُ مفروشةٌ بالذَّهبِ، ورأَوا في الطَّريقِ موضعَ لبنةٍ خالياً، فقال كبيرُهم: سبيلُنا أن نُلقِيَ هذه اللَّبنةَ في هذا الموضعِ وإلّا نسبُونا إلى السَّرقةِ. ذكرَه زيدُ بنُ أسلَمَ[(٣)].

﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: بأيِّ شيءٍ يرجعُ؟

***

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٢٨)، وفيه: «مئتي غلام»، وهكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٣) عن ابن جريج، ثم عن ابن جريج عن مجاهد قال: جوار ألبستهن لباس الغلمان، وغلمان ألبستهم لباس الجواري.

(٢) رواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٥٩)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٧٩).

(٣) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٤٥) دون نسبة.

(٣٦) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

قولُـه تعالـى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: فلمـا جاء الرَّسـولُ سـليمانَ، ولهذا قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾.

وقيلَ: أي: فلما جاءَ بِرُّها سليمانَ[1]؛ لأنَّ الرُّسلَ جماعةٌ، ولهذا قالت: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ قُرِئَ: (أَتُمدونِيْ) بنونٍ واحدةٍ مُخفَّفةٍ[2].

وقُرِئَ: ﴿أَتُمدونِّي﴾ بنونٍ مُشدَّدةٍ، وقُرِئَ: ﴿أَتُمدونَنيْ﴾ بنونَينِ[3]؛ أي: أَتَبْعثونَ إليَّ بالمالِ؟ فهذا إنكارٌ لإهدائِهم المالَ إليه.

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾؛ أي: ما أعطاني منَ الإسلامِ والنُّبوَّةِ والمُلكِ خيرٌ ممّا أعطاكُم، فلا أفرحُ بالمالِ.

﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ظنًّا أنَّ مُلْكَ الدُّنيا يبقَى، فقولُه: ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾؛ أي: بما تُهدونَه. وقيلَ: بما يُهدَى إليكم.

* * *

(١) ذكر القولين الزجاج في «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٢٠) وعقب هذا الثاني بقوله: «إلا أَنَّ قوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ مخاطبة للرسُول». قلت: ولعل المراد بـ«برها»: ما أهدت إليه، والله أعلم.

(٢) هي رواية المسيبي عن نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١).

(٣) قرأ حمزة بنون واحدة مُشدّدة وبياء في الوصل والوقف، والباقون بنونين ظاهرتين، وأثبت الياء في الحالين ابن كثير وحمزة، وأثبتها في الوصل نافع وأبو عمرو، وقرأ عاصم وابن عامر والكسائي: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ بغير ياء في وصل ولا وقف. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٠).

(٣٧) ـ ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: قال لأميرِ الوفدِ: ارجِعْ إليهم بالهديّةِ.

وقيلَ: هذا خطابٌ للهُدهدِ؛ فإنَّه كتبَ إليها كتاباً آخرَ وأرسلَ الهدهدَ.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ أي: لا طاقةَ، يعني: إن لم يُسلِمُوا ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ من قريةِ سبأٍ، وقد سبقَ ذِكرُ القريةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤] ﴿أَذِلَّةً﴾؛ أي: قد سُلِبُوا عزَّهم ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾؛ أي: مُهانُونَ مُتَخَفُّونَ بهم منَ الصَّغَرِ، وهو الذُّلُّ.

* * *

(٣٨) ـ ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ قيلَ: لـمَّا رجعَتِ الرُّسلُ إليها قالَتْ: ما هذا بملِكٍ، وما لنا به طاقةٌ، وتجهَّزَتْ للمسيرِ إليه، فأخبرَه جبريلُ عليه السَّلامُ بخروجِها منَ اليمنِ مُقبلةً إليه، فقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾.

قال عبدُ الله بنُ شدَّادٍ: كانت بلقيسُ على فرسخٍ من سليمانَ لـمَّا قال سليمانُ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾[١].

وكانت خلَّفَتْ عرشَها بسبأٍ، ووكَّلَتْ به حفظةً.

وقيلَ: إنَّها لمَّا بعثَتِ الهديّةَ بعثَتْ رسلَها من جندِها لتُغافِصَ[٢] سليمانَ عليه السَّلامُ بالقتالِ قبلَ أن يتأهَّبَ سليمانُ له إنْ كانَ طالبَ ملكٍ، فلما علمَ سليمانُ ذلك

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٥٣).

(٢) المغافصة: المفاجأة، وغافص الرجل مغافصة وغفاصاً: أخره على غرة. انظر: «معجم ديوان الأدب» (٢/ ٣٨٦)، و«المحكم» (٥/ ٤٢٤).

قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾، وعلِمَ أنَّها إذا أُخبِرَتْ بأنَّ عرشَها افتُقِدَ تعلَمُ بذلك قوّةَ سليمانَ عليه السَّلامُ فتُوافيهِ مُسلمةً.

وقيلَ: أرادَ أن يأخذَ عرشَها قبلَ إسلامِها ليَحِلَّ له أخذُ مالِـها، ولهذا قال: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مُوحِّدينَ.

وقيـلَ: أرادَ أن يختبـرَ عقلَهـا، ولـهــذا قـال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ [النمل: ٤١].

وقيلَ: خافَتِ الجنُّ أن يتزوَّجَ بها سليمانُ عليه السَّلامُ، فقالت لسليمانَ: إنَّ في عقلِها خللاً، فأرادَ أن يمتحِنَها بعرشِها.

وقيلَ: أرادَ أن يُريَها مُعجزةً في الإتيانِ بعرشِها.

* * *

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ العفريتُ: النّافذُ في الأمرِ مع خُبثٍ ودَهاءٍ، يُقالُ: «رجلٌ عِفْرٌ وعِفْريتٌ وعِفْرِيَةٌ وعُفارِيَةٌ» بمعنًى، والأصلُ فيه الشِّدّةُ، يُقالُ: «رجلٌ عِفْرٌ»؛ أي: شديدٌ، وفلانٌ منَ الأعفارِ و«أسدٌ عِفرٌ، ولبوةٌ عَفَرْنَى».

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾؛ أي: من مجلِسِكَ الذي تَقضي فيه، وكان سليمانُ يجلسُ في مجلسِه للقضاءِ من غدوةٍ إلى نصفِ النَّهارِ.

والمقامُ: المقعدُ والمشهدُ، لا موضعُ القيامِ، كقولِه: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨]؛ أي: مجلسٍ حسَنٍ.

وقيلَ: سُمِّيَ مجلسُ القضاءِ مقاماً؛ لأنَّه يُقامُ فيه بالقضاءِ بينَ الخلقِ؛ أي: قبلَ أن تقومَ من مجلِسِكَ هذا.

ويجوزُ أن يُقالَ: لـم يكُنْ مجلسَ القضاءِ.

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ قيلَ: بلَغَ من قوَّتِه أنَّه كان يضَعُ قدمَه حيثُ ينالُ بصرُه.

﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: على ما فيه منَ الذَّهبِ والفِضّةِ والجوهرِ؛ أي: لا أخونُ فيها، ولا أُبدِّلُ العرشَ بغيرِه.

وقيلَ: مأمونٌ فيما أقولُه من أنِّي أُحضِرُه في هذا المقدارِ اليسيرِ.

فقال سليمانُ عليه السَّلامُ: أُريدُ أَسرَعَ من ذلك.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كان سليمانُ خاطبَ الجنَّ والإنسَ، فأجابَ الجنِّيُّ بما سبقَ، وأجابَ الإنسيُّ؛ أي: بعد قولِ الجنِّيِّ أو بعد أن قال سليمانُ: لا أُريدُ ذلك، بل أُريدُ أسرعَ منه.

﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من كتابِ الله عزَّ وجلَّ؛ أي: قال الرَّجلُ الذي عندَه علمُ الاسمِ الذي إذا دُعيَ به الله أجابَ، وإذا سُئِلَ به أعطى، وكان مُستَجابَ الدَّعوةِ.

قيلَ: إنَّه آصفُ بنُ برخيا.

وقيلَ: آصفُ بنُ يونسَ.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبّاسٍ: أنَّه جبريلُ[1]، و(عِلْمُ الكتابِ) على هذا: علمُه بكتبِ الله المُنزَّلةِ، أو بما في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقيلَ: علمُ كتابِ سليمانَ إلى بلقيسَ؛ لأنَّه لا يعلَمُ أثرَ كتابِ سليمانَ في بلقيسَ غيرُ جبريلَ عليه السَّلامُ في ذلك المكانِ.

---

(١) هي رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما ذكر ذلك الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٣٨).

وقيلَ: هذا الذي عندَه علمٌ منَ الكتابِ هو سليمانُ، قال للعفريتِ: أنا أقدِرُ على هذا، فأنا آتيكَ به قبلَ أن يرتدَّ إليك طَرفُكَ، وهذا إنَّما صارَ إليه مَن أنكرَ كراماتِ الأولياءِ، وعند هؤلاءِ: ما فعلَ العفريتُ فليس منَ المُعجِزاتِ؛ فإنَّ الجنَّ يقدِرونَ على أمثالِ هذا.

وقيلَ: الذي عندَه علمٌ منَ الكتابِ رجلٌ من بني إسرائيلَ اسمُه بليخا، كان يعلمُ اسمَ الله الأعظمَ.

وقيلَ: هو رجلٌ صالحٌ كان في جزيرةٍ من جزائرِ البحرِ، خرَجَ ذلك اليومَ ينظرُ مَن ساكنُ الأرضِ؟ فوجدَ سليمانَ عليه السَّلامُ، فدعا باسمٍ من أسماءِ الله، فجيءَ بالعرشِ.

﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ أي: قبلَ أن يرجعَ إليك طرفُكَ ببصرِكَ، كأنَّك تفتحُ بصرَكَ لتنظُرَ إلى الشَّيءِ فتنظرُ إليه، ثمَّ ترُدُّ بصرَكَ عن النَّظرِ.

وقيلَ: أي: تمدَّ عينَيكَ فلا ينتَهي طَرْفُكَ إلى مَداه حتَّى أُميلَه بينَ يدَيك، فهذا ضدُّ الارتدادِ، فلا بدَّ من محذوفٍ؛ أي: قبلَ أن يرتدَّ إليك طرفُكَ بعد الانتهاءِ، فحُذِفَ ذكرُ الانتهاءِ؛ لأنَّ الارتدادَ يدُلُّ عليه؛ لأنَّه لا يرتَدُّ إليه الطَّرفُ إلّا بعد مدِّه إيّاه.

وقال ابنُ جُبيرٍ: قال لسليمانَ: انظُرْ إلى السَّماءِ، فما طرَفَ حتَّى جاءَ به فوضعَه بينَ يدَيه[1].

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٤٣)، ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠٢٢) بلفظ: «رفع طرفه فلم يرجع إليه طرفه حتى نظر إلى العرش بين يديه»، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٨) بلفظ: «قيل له: ارفع بصرك من حيث يجئ العرش فلم يطرف حتى جيء به فوضع بين يديه».

وقال مُقاتلٌ: أي: قبلَ أن ينتَهيَ إليك الذي هو على مُنتَهى بصرِكَ وهو جاءٍ إليك[(١)]. وهذا بعيدٌ.

وقال مجاهدٌ: هو إدامةُ النَّظرِ حتَّى يرتدَّ طرفُه خاسِئاً حسيراً[(٢)].

وقيلَ: أرادَ مقدارَ ما يفتحُ عينَه ثمَّ تطرُفُ، وهو كما تقولُ: افعَلْ كذا في لحظةِ عينٍ.

ثمَّ؛ إنْ كان هذا الفعلُ من سليمانَ فهو معجزةٌ، وإنْ كان من آصفَ فهو كرامةٌ، وكرامةُ الوليِّ معجزةُ النَّبيِّ، ولا يقطعُ جوهَرٌ في حالٍ واحدةٍ مكانَينِ، بل يُتصوَّرُ ذلك بأن يُعدِمَ الجوهرَ في أقصى الشَّرقِ ثمَّ يُعيدَه في الحالةِ الثانيةِ، وهي الحالةُ التي بعد العدمِ في أقصى الغربِ، أو يُعدِمَ الأماكنَ المُتوسِّطةَ ثمَّ يُعيدَها.

وفي التَّفاسيرِ: انخرَقَ بعرشِ بلقيسَ مكانُه الذي هو فيه، ثمَّ نبعَ بين يدَي سليمانَ.

[وقال مقاتلٌ: احتُمِل السريرُ احتمالًا فوُضِعَ بينَ يَدَيْ سُليمان.

وقيل: دعا آصف باسم الله الأعظم][(٣)].

[واختَلَفوا في ذلك الاسم][(٤)]:

قال [مجاهد و][(٥)] مُقاتلٌ: هو يا ذا الجلالِ والإكرامِ[(٦)].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٠٧).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٨).

(٣) ما بين معكوفتين من المختصر.

(٤) ما بين معكوفتين من «البسيط» (١٧/ ٢٤٢).

(٥) ما بين معكوفتين من المختصر، وهم الموافق لما في «البسيط» (١٧/ ٢٤٢).

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٠٧).

وقال شُعَيبُ بنُ حربٍ: قال الذي جاءَ بعرشِها: إلهَنا وإلهَ كلِّ شيءٍ إلـهاً واحداً، لا إلهَ إلّا أنتَ ايتِ به(١).

ورَوَتْ عائشةُ عن النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ الاسمَ الذي دعا به آصفُ: يا حيُّ يا قيُّومُ»(٢).

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾؛ أي: رأى العرشَ ﴿مُسْتَقِرًّا﴾: ثابتًا ﴿عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾؛ أي: هذا النَّصرُ والتَّمكينُ من فضلِ الله ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ على ما أعطاني ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾.

وقيلَ: ﴿هَٰذَا﴾ السَّريرُ ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ﴾، وكان عرشُ بلقيسَ من سليمانَ على مسيرةِ شهرَينِ.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: ينفَعُ نفسَه، وجلَّ قَدْرُ الله عن قَبولِ النَّفعِ والضُّرِّ.

* * *

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٤٢).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٦٦)، والواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٤٢)، دون إسناد. وروى أبو داود (١٤٩٥) عن أنس رضي الله عنه: أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى».

وروى أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، عن أسماء بنت يزيد: أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة سورة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]». قال الترمذي: «حسن صحيح».

(٤١) - ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾؛ أي: غيِّروه عن هيئتِه حتَّى يصيرَ بحيثُ يُنكَرُ.

والتَّغييرُ: بأن يُزادَ فيه شيءٌ أو يُنقَصَ، أو يُؤخَذَ منه شيءٌ ممّا عليه منَ الآلاتِ.

وقيلَ: خافتِ الجنُّ أن يتزوَّجَ بها سليمانُ فيُولَدَ له منها ولدٌ فيبقَونَ مُسخَّرينَ لآلِ سليمانَ أبدًا، فقالوا لسليمانَ: إنَّها ضعيفةُ العقلِ، ورِجلُها كرجلِ حمارٍ، فقال: نكِّروا لـها عرشَها لنعرِفَ عقلَها.

* * *

(٤٢) - ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وأجابَتْ بأحسنِ جوابٍ؛ لأنَّها لـم تعرِفْ ولـم تُنكِرْ، ورأَت فيه مُشابهًا، ولكنْ كانت وكَّلَتْ به حَفَظةً.

وأيضاً كان فيه بعضُ التَّغييرِ.

قال عكرمةُ: كانت حكيمةً، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾[١].

وقال مُقاتلٌ: عرفَتْه، ولكنْ شبَّهَتْ عليهم كما شبَّهوا عليها، ولو قيلَ لها: أهذا عرشُكِ؟ لقالَتْ: نعم[٢].

وقيلَ: أرادَ سليمانُ أن يُظهِرَ لها أنَّ الجنَّ مُسخَّرون له، وكذلك الشَّياطينُ؛ لتعرِفَ أنَّها نُبوّةٌ وتُؤمِنَ.

وقيلَ: كان هذا في مُقابلةِ تعمِيَتِها الأمرَ في بابِ الغلمانِ والجواري.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٤٧)، ولفظه: «كانت حكيمة؛ قالت: إن قلت: هو هو، خشيت أن أكذب، وإن قلت: لا، خشيت أن أكذب، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبهه».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٠٨).

﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ قيلَ: هذا من قولِ بلقيسَ؛ أي: أُوتينا العلمَ بصحّةِ نبوّةِ سليمانَ من قبلِ هذه الآيةِ في العرشِ ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ مُنقادينَ لأمرِه.

وقيلَ: هو من قولِ سليمانَ؛ أي: أُوتينا العلمَ بقدرةِ الله على ما يشاءُ من قبلِ هذه المرأةِ.

وقيلَ: أي: أُوتينا العلمَ بإسلامِها ومجيئِها طائعةً من قبلِ مجيئِها.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: صدَّها من أن تعبُدَ عبادتُها الشَّمسَ والقمرَ.

وقيلَ: أي: منَعَها سليمانُ ما كانت تعبُدُ، أو صدَّها الله ومنَعَها ما كانت تعبدُ، والصَّدُّ بمعنَى المنعِ، تقولُ: «منَعْتُ زيداً كذا».

وقيلَ: الصَّدُّ إنَّما يتعدَّى إلى مفعولَينِ بواسطةِ حرفِ الجرِّ، مثلَ «صدَدْتُ زيداً عن كذا»، فعلى هذا المعنى: صدَّها سليمانُ، أو صدَّها اللهُ عمَّا كانت تعبُدُ، فحُذِفَ الجارُّ، كقولِه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ بكسرِ ﴿إِنَّهَا﴾ على الاستئنافِ[١]؛ أي: كانَتْ عاقلةً، ولكنَّها كانَتْ من قومٍ كافرينَ، فلهذا عبَدَتِ الشَّمسَ، أو منَعَها الله منَ الكفرِ، وإنْ كانَتْ من قومٍ كافرينَ.

* * *

(١) قرأ العشرة بكسر الهمزة، وقرأ سعيد بن جبير بفتحها. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١).

(٤٤) ـ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ أراد سليمانُ أن يرى قدمَها لـمَّا قالتِ الجنُّ: إنَّ رجلَها كرجلِ الحمارِ، وكان لسليمانَ ناصحٌ منَ الشَّياطينِ، فقالَ له: كيفَ لي أن أرى قدمَها من غيرِ أن أسألَـها كَشْفَها؟ فقال: أنا أجعلُ في هذا القصرِ ماءً وأجعلُ فوقَ الماءِ زُجاجاً حتَّى تظُنَّ أنَّه ماءٌ فترفعَ ثوبَها، فترى قدمَها.

والصَّرحُ: القصرُ.

وقيلَ للصَّحنِ أيضاً: «صَرْحٌ» منَ التَّصريحِ بالشَّيءِ، يُقالُ: هذه ساحةُ الدّارِ، وباحةُ الدّارِ، وصرحةُ الدّارِ؛ أي: صحنُها.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾؛ أي: ماءً غمرًا ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾؛ أي: لـمَّا رَأَتْه توهَّمَتْه لُـجَّةَ بحرٍ لبياضِه، واضطرابِ الحيتانِ فيه، فكشَفَتْ لذلك عن ساقَيها لتخُوضَه، ولعلَّ قرارَ الماءِ كان قريباً فرأى سليمانُ قدَمَيها، وعلمَ أنَّه لا آفَةَ برجلِها، وكان ساقُها أَزَبَّ[1]، فقال لناصحِه منَ الشَّياطينِ: كيف لي أن أقلعَ هذا الشَّعرَ من غيرِ مضرَّةٍ للجسدِ؟ فدلَّه على عملِ النُّورةِ، فكانتِ النُّورةُ والحمَّاماتُ من يومِئذٍ.

﴿مُّمَرَّدٌ﴾؛ أي: مملَّسٌ ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ لـمَّا رأَتْ أن ملكَها ليس بشيءٍ في جنبِ ملكِ سليمانَ قالت: ربِّ إنِّي ظلَمْتُ نفسي بعبادةِ الشَّمسِ ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾؛ أي: أخلَصَتْ ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ بالتَّوحيدِ ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثمَّ؛ قيلَ: إنَّ سليمانَ اتَّخذَها لنفسِه، وولدَتْ له داودَ بنَ سليمانَ بنِ داودَ.

---

(١) الأزب: كثير الشعر. انظر: «اللسان» (مادة: أزب).

وفي بعضِ الأخبارِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «كانت بلقيسُ من أحسنِ نساءِ العالمينِ ساقَينِ، وهي من أزواجِ سليمانَ في الجنَّةِ»، فقالت عائشةُ: هي أحسَنُ ساقَينِ منِّي؟ فقال عليه السَّلامُ: «أنتِ أحسَنُ ساقَينِ منها في الجنَّةِ»(١).

وقال محمَّدُ بنُ إسحاقَ: قال لها سليمانُ: اختارِي زوجاً، فقالت: مِثْلي لا يُنكَحُ وقد كانَ لي منَ الملكِ ما كانَ، فقال: لا بدَّ في الإسلامِ من ذلك، فاختارَتْ ذا تُبَّعٍ، فزوَّجَه إيّاها وردَّها إلى اليمنِ(٢).

وقال قومٌ: لم يرِدْ فيه خبرٌ صحيحٌ، لا في أنَّه تزوَّجَ بها، ولا في أنَّه زوَّجَها.

وقيلَ: لـمَّا رأتِ الماءَ ظنَّتْ أنَّ سليمانَ أرادَ أن يُغرِقَها، فلمَّا عرفَتِ الحالَ قالت: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بما أسأتُ منَ الظَّنِّ بنبيِّ الله، ثمَّ أسلمَتْ.

***

(٤٥ ـ ٤٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾ مضى معناه ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: مُؤمنونَ وكافرونَ؛ أي: آمنَ قومٌ وكفرَ قومٌ.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: لِـمَ تُؤخِّرونَ الإيمانَ الذي

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٣١٠) دون سند، وكذا الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٥٤)، ونقله القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٢١٠) عن المصنف.

(٢) ذكره عنه نشوان الحميري في «ملوك حمير» (ص: ٨٥).

يجلِبُ إليكم الثَّوابَ، أو تُقدِّمُونَ الكفرَ الذي يُوجِبُ العقابَ؟ وكان الكفّارُ يقولونَ لفَرْطِ الإنكارِ: ايتِنا بالعذابِ.

وقيلَ: أي: لِـمَ تفعَلونَ ما تستحِقُّونَ به المُعاجلةَ بالعقابِ؟ لا أنَّهم التَمَسُوا تعجيلَ العذابِ.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: هلّا تتوبُونَ إلى الله منَ الشِّركِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لترحَموا.

﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾؛ أي: تشاءَمْنا بكم وقُلنا: إن اتَّبعناكم أصابَتْنا المكارِهُ.

وقيلَ: أصابَهم قحطٌ، فقالوا: هذا بشُؤمِ هؤلاءِ.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قال صالحٌ: ما تذكُرونَه من زَجرِكم الطَّيرَ علمُه عندَ الله؛ أي: ما أصابَكم من خيرٍ وشرٍّ فمنَ الله.

وقيلَ: أي: أتاكمُ الشُّؤمُ بسببِ كفرِكم.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ أي: تُمتَحنُونَ. وقيل: تُعذَّبُونَ بذنوبِكُم.

***

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: في مدينةِ صالحٍ، وهي الحِجْرُ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾؛ أي: تسعةُ نفرٍ، والرَّهطُ: اسمُ الجماعةِ.

وقيلَ: تسعةُ رجالٍ، فكأنَّهم كانوا رؤساءَ يَتبعُ كلَّ واحدٍ رَهْطٌ، والجمعُ: أرهُطٌ وأراهِطُ.

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يعمَلُونَ بالمعاصي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أي: لا يُطيعُونَ الله، وصَفَهم بزيادةِ الشَّرِّ مع الكفرِ الذي كان في الجميعِ.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ أي: قال بعضُهم لبعضٍ: احلِفُوا.

قُرِئَ: ﴿لتُبَيِّتُنَّه﴾ بالتّاءِ، أي: لتُهلِكُنَّ صالحاً، وكذلك ﴿لَتَقُولُنَّ﴾ بالتّاءِ.

وقُرِئَ بالنُّونِ فيهما[1]؛ أي: احلِفُوا لنفعَلَنَّ كذا.

والتَّبييتُ: الإيقاعُ بهم ليلاً في حينِ نومٍ وغفلةٍ.

﴿وَأَهْلَهُ﴾؛ أي: ولدَه ونساءَه ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾؛ أي: لِذِي رَحِمِ صالحٍ، ولمَن له ولايةُ دمِه: ﴿ما شَهِدْنا مُهْلَكَ أَهْلِهِ﴾؛ أي: ما قتَلْناه وما ندري مَن قتَلَه، والمهلَكُ بمعنَى الإهلاكِ، ويجوزُ أن يكونَ الموضعَ.

وفي روايةٍ عن عاصمٍ: ﴿مَهْلَكَ أهلِه﴾ بفتحِ الميمِ[2]؛ أي: الهلاكَ، يُقالُ: «ضرَبَ يضرِبُ مَضْرَباً»؛ أي: ضربًا.

وقُرِئَ: ﴿مَهْلِكَ﴾ بفتحِ الميمِ وجرِّ اللّامِ[3]، فيكونُ اسمَ المكانِ، كالمجلِسِ لموضعِ الجلوسِ.

ويجوزُ أن يكونَ مصدراً؛ كقولِه: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعُكم.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بتاء الخطاب على الجمع، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٨).

(٢) هي رواية شعبة عن عاصم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٣) هي رواية حفص عن عاصم. انظر المرجعين السابقين.

(٥٠ - ٥٣) - ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾؛ أي: أرادُوا قتلَ صالحٍ بياتاً ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾؛ أي: قابَلْنا حيلتَهم بما أزالَـها.

قيلَ: أرادَ مُعاجلتَهم قبلَ أن يتمكَّنُوا من صالحٍ.

وقيلَ: أرسلَ الله الملائكةَ تلكَ اللَّيلةِ إلى دارِ صالحٍ يحرُسونَها، فأتى التِّسعةُ شاهِري سيوفِهم، فرمَتْهم الملائكةُ بالحجارةِ فقتلَتْهم، قاله ابنُ عبّاسٍ[1].

وقيلَ: أرسلَ الله عليهم صخرةً فدمغَتْهم.

وقيلَ: نزَلُوا في سفحِ جبلٍ ينتظرُ بعضُهم بعضاً، فنزلَ عليهم الجبلُ فأهلكَهم.

قولُه تعالى: ﴿فانظُرْ كَيْفَ كانَ عاقبةُ مَكْرِهم إنَّا﴾ بالكسرِ للاستئنافِ.

وقُرِئَ: ﴿أَنَّا﴾ بالفتحِ[2]؛ أي: فانظُرْ كيف العاقبةُ، وهي أَنَّا دمَّرْناهم وقومَهم أجمعينَ؛ أي: بصيحةِ جبريلَ.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: خاليةً عن أهلِها خراباً ليس لها ساكنٌ ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾؛ أي: أشرَكُوا.

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: صدَّقُوا صالحاً منَ العذابِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٦٥).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم، والباقون بالكسر. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٨).

ولمَّا أهلَكَهم الله خرجَ صالحٌ ومَن آمنَ به إلى الشّامِ، فنزَلُوا الرَّملةَ من فلسطينَ.

وقيلَ: ﴿وَمَكَرْنَا﴾؛ أي: أمَرْنا صالحاً بأن يتنحَّى عن الموضعِ الذي أرادوا أن يبيِّتوه فيه، فكان هلاكُ الكلِّ بصيحةِ جبريلَ.

والأظهرُ: أنَّ التِّسعةَ هلَكُوا بعذابٍ مُفردٍ، ثمَّ هلَكَ الباقُونَ.

وقيلَ: آمنَ بصالحٍ قَدْرُ أربعةِ آلافِ رجلٍ، والباقُونَ خرجَ بأيديهم خراجٌ مثلَ الحِمِّصِ، وكان في اليومِ الأوَّلِ أحمرَ، ثمَّ صارَ منَ العذابِ أصفرَ، ثمَّ صارَ في الثّالثِ أسودَ، ثمَّ صاحَ بهم جبريلُ فجَمَدُوا وخرجَ صالحٌ إلى حَضْرَمَوْتَ فماتَ، وقيلَ لذلك المكانِ: حَضْرَمَوْتُ.

***

(٥٤ ـ ٥٨) ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾؛ أي: وأرسَلْنا لوطاً، أو: واذكُرْ لوطاً.

أو: وأنجَيْنا الذين اتَّقوا وأنجَيْنا لوطاً، ثمَّ أعادَ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٨٣] لطولِ الفصلِ.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ أي: الذُّكورَ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: تعلمُونَ أنَّه فاحشةٌ لـم يسبِقْكم بها أحدٌ، وهذا استفهامُ توبيخٍ.

وقيل: أي: يَرَى بعضُكم بعضاً، وكانوا لا يستَتِرُونَ.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أعادَ ذكرَ ما ارتكبُوه لفَرْطِ ذكرِ قُبحِه.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ القيامةَ، أو: موضعَ قضاءِ الشَّهوةِ.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾؛ أي: لـم يكُنْ لهم جوابٌ بحقٍّ، بل قالوا: أخرِجُوا آلَ لوطٍ؛ أي: لوطاً ومَن اتَّبعَه على دينِه.

وقيلَ: آلُ لوطٍ: أهلُه منَ النِّساءِ، وشِرذِمةٌ من قرابتِه.

وقيلَ: أهلُه: ابنَتاه.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ أي: يتنزَّهُـونَ عـن إتيـانِ الذُّكـورِ، ويتطهَّـرُونَ عنـدَ أنفُسِهم.

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾؛ أي: خلَّصناه وقرابتَه ومَن في منزلِه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾؛ أي: جعَلْناها منَ الباقينَ في العذابِ.

وقيلَ: إنَّها كانت تدُلُّ الكفّارَ على أضيافِه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾؛ أي: على شُذّاذِهم.

وقيلَ: عليهم أنفُسِهم؛ فإنَّه أهلَكَهم وأمطرَ عليهم الحجارةَ أيضاً.

﴿مَّطَرًا﴾؛ أي: الحجارةَ.

***

(٥٩) ـ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾؛ أي: قُلْ يا محمَّدُ: المُستَحِقُّ للحمدِ والمدحِ هو الله، فله الحمدُ على إهلاكِ مَن أهلَكَ منَ العُصاةِ وإنجاءِ مَن أنجَى منَ المُطيعينَ.

وقيلَ: هذا أمرٌ للُوطٍ بأن يحمَدَ الله.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾؛ أي: على أنبيائِه.

وقيلَ: هم أصحابُ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقيلَ: المُؤمنونَ؛ أي: وسلامةٌ لهم منَ العذابِ الذي حلَّ بالكفَّارِ.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: آللهُ القادرُ على ما يُريدُ خيرٌ أم الأصنامُ التي يعبُدونَها؟

وقرأ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هذه الآيةَ فقالَ: «بل اللهُ خيرٌ وأبقَى وأجَلُّ وأكرَمُ»(١).

وليس في عبادةِ الأصنامِ خيرٌ، ولكنْ خرجَ الخطابُ على اعتقادِهم.

***

(٦٠) - ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أمَا يُشرِكُونَ خيرٌ أم مَن خلقَ السَّماواتِ والأرضَ؟ فحُذِفَ لتقدُّمِ ذكرِه في قولِه: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾؛ أي: من أجلِكم ولقوامِ معاشِكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: المطرَ، وقيلَ: العيونَ.

---

(١) ذكره مقاتل والماتريدي والسمرقندي والثعلبي والواحدي والزمخشري والرازي والقرطبي في تفاسيرهم دون راو ولا سند، وقد ورد ضمن حديث رواه البيهقي في «الشعب» (٢٠٨٢)، ومن طريقه ابن الجزري في «النشر» (٢/ ٤٦٤)، من رواية جابر الجعفي، عن أبي جعفر، عن أبيه علي بن الحسين رفعه، وهذا إسناد منقطع، والجعفي ضعيف، واتهمه بعضهم بالكذب كما في «الميزان». ورواه عبد بن حميد من كلام قتادة، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٠).

﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾؛ أي: أخرَجْنا به بساتينَ، والحديقةُ: كلُّ روضةٍ قد أحدَقَ بها حاجزٌ، وكلُّ شيءٍ استَدارَ بشيءٍ فقد أحدَقَ به.

﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾؛ أي: ذاتَ منظرٍ حسَنٍ، والبهجةُ: الحسَنُ يبتَهِجُ مَن رآه.

﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ أي: أنتم عجزةٌ عن مثلِها.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هل معه معبودٌ؟

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾؛ أي: يُشرِكُونَ به غيرَه.

وقيلَ: ﴿يَعۡدِلُونَ﴾؛ أي: عن القصدِ والحقِّ؛ أي: يكفُرونَ.

* * *

(٦١) - ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾؛ أي: مُستقرًّا للقرارِ لا تميدُ بأهلِها.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾؛ أي: وسطَها؛ لقولِه: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ [الكهف: ٣٣]؛ أي: أنهاراً؛ أي: مياهُها جاريةٌ في أنهارٍ.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جعلَ للأرضِ جبالاً ثوابتَ تُمسِكُها وتمنعُها منَ الحركةِ.

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾؛ أي: بينَ البحرِ العَذْبِ والبحرِ الأُجاجِ مانعاً بقُدرتِه.

قال ابنُ عبّاسٍ: سُلطاناً من قُدرتِه، فلا هذا يُغيِّرُ ذاكَ ولا ذاكَ يُغيِّرُ هذا(١).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٢٧٥)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٧٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ [الفرقان: ٥٣].

والحجزُ: المنعُ.

ثمَّ قيلَ: الحاجزُ بين البحرينِ: الجزائرُ والأرضُ والبلادُ، والماءُ العذبُ مثلُ ماءِ دجلةَ والفراتِ والنِّيلِ.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إذا ثبتَ أنَّه لا يقدِرُ على هذا غيرُه؛ فلِمَ يعبُدونَ ما لا يضُرُّ ولا ينفعُ؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يتفكَّرُونَ ليعلَمُوا.

* * *

(٦٢) - ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المُضطرُّ: المجهودُ المكروبُ؛ أي: أنَّ الله هو القادرُ على الإجابة.

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: الضُّرَّ النّازِلَ بالإنسانِ، وكانُوا يعترِفُونَ بذلك ويفزَعُونَ في الشَّدائدِ إلى الله.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يستخلِفُ بعد الأمواتِ أحياءً يخلُفونَهم؛ أي: يُهلِكُ قُروناً ويُنشِئُ قُروناً.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بالياءِ والتّاءِ[1].

* * *

(١) قرأ أبو عمرو وهشام: ﴿يَذَّكَّرون﴾ بالياء مع الإدغام، وقرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء مع الحذف، والباقون: ﴿تَذَّكَّرون﴾ بالتاء مع الإدغام. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٨).

(٦٣) - ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾؛ أي: يُرشِدُكم إلى البلادِ التي تتوجَّهون إليها منَ البرِّ والبحر ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؛ أي: قُدَّامَ المطرِ.

***

(٦٤) - ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كانوا يُقِرُّونَ بأنَّه الخالقُ الرَّازقُ فألزَمَهم الإعادةَ، فقال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: إذا قدرَ على الابتداءِ فمن ضرورتِه القُدرةُ على الإعادةِ.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: حُجَّتكم أنَّ لي شريكاً، أو: حجَّتكم في أنَّه صنعَ أحدٌ شيئاً من هذه الأشياءِ غيرُ الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنَّ الأصنامَ آلهةٌ.

***

(٦٥) - ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: قل لمَن سألَكَ منَ المشركينَ عن السّاعةِ: متى تكونُ؟: هذا ممّا استأثرَ الله بعلمِه، وليس في إخفائِه علمَ ذلك عن خلقِه ما يُبطِلُ كونَه للوقتِ المعلومِ عندَه.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين في السَّماواتِ والأرض لا يعلمون متى يُبعَثُونَ.

وقيلَ: أي: إنَّ المُشركينَ لا يدرُونَ متى يُبعَثُونَ؛ لأنَّهم شاكُّونَ فيه أو مُنكِرُونَ

له، وهذا كالآيسِ منَ الشَّيءِ، تقولُ: ما أدري متى يكونُ هذا؟ أي: لا أدري أيكونُ أو لا يكونُ.

﴿أَيَّانَ﴾ بمعنَى: متى.

* * *

(٦٦) ـ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾؛ أي: تدارَكَ وتتابَعَ منهم القولُ في الآخرةِ؛ أي: كثُرَ منهم الخوضُ فيها، فأنكرَ قومٌ، وشكَّ قومٌ، وتعجَّبَ قومٌ.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾؛ أي: ثمَّ حصلُوا بعد التَّردُّدِ الطَّويلِ على الشَّكِّ فيها.

وقال الفرَّاءُ: ﴿بَلِ﴾ بمعنى «أم»، وفي قراءةِ أُبيٍّ: (أم تدارَكَ علمُهم)، والعربُ قد تجعلُ «بل» مكانَ «أم»، و«أم» مكانَ «بل»[1].

فالمعنى: هل تدارَكَ علمُهم في الآخرةِ؛ أي: لـم يتدارَكْ ولـم يتتابَعْ، بل هم في شكٍّ منها، ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ قد ضَلُّوا عن علمِها.

وقيلَ: أي: بل تتابعَ وتدارَكَ علمُهم وتكامَلَ في الآخرةِ؛ لتكامُلِ علمِهم بوقوعِ البعث، وحينَئذٍ يَتبيَّنونَ ضلالَـهم وهم اليومَ في شكٍّ وعمًى.

وعلى هـذا قولُه: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ بمعنَى: «يَدَّارَكُ»؛ كقولِه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]؛ أي: يُنادي.

وقُرِئَ: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ﴾[2]، ثمَّ قيلَ: ﴿أدرَكَ﴾ بمعنى ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٩). وقراءة أُبيٍّ رواها أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠٩).

(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٦٨).

وقال الزَّجَّاجُ: هو بمعنى الإنكارِ؛ أي: بل أدرَكَ علمُهم بالآخرةِ؛ أي: ليس كذلك[١].

وقرأ ابنُ عبّاسٍ: (بلى أدّارَكَ علمُهم؟) بالاستفهامِ[٢].

وقُرِئَ: (بل أأدْرَكَ) بالاستفهامِ[٣].

***

(٦٧ ـ ٦٨) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾؛ أي: صِرْنا تُراباً نخرجُ من قُبورِنا أحياءً؟ أي: هذا ما لا يكونُ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٢٧)، وفيه: ومن قرأ: ﴿بل أدرك﴾ فعلى معنى التقرير والاستخبار، كأنه قيل: لم يدرك علمهم في الآخرة؛ أي: ليس يقفون في الدنيا على حقيقتها، ثم بين ذلك في قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾.

وأشار إلى معنى الإنكار في كلام الزجاجِ النحاسُ في «إعراب القرآن» (٣/ ١٥٠) حيث قال: وفي معنى ﴿أَدۡرَكَ﴾ قولان: أحدهما: معناه: كمل في الآخرة، والآخر على معنى الإنكار، وهذا مذهب أبي إسحاق، واستدلّ على صحّة هذا القول بأن بعده: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾. وأبو إسحاق هو الزجاج شيخ النحاس.

(٢) رواها عنه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠٨)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٠٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣١٠)، وذكرها الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ١٢٧)، وصحح إسنادها النحاسُ في «إعراب القرآن» (٣/ ١٤٩).

(٣) قرئ بالاستفهام بمد وبغير مد؛ أي: (بل أأدرك) بهَمزتين، (بل آأدرك) بأَلِفٍ بَينهما، وقرئ في الشاذ بغيرهما بأكثر من عشر قراءات. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٢). وانظر شرحها وتفصيلها ونسبة كل منها لقائله في «البحر المحيط» (١٦/ ٤٧٢ ـ ٤٧٤).

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ وذلك أنَّ الأنبياءَ كانوا يُقرِّبُونَ أمرَ البَعثِ مُبالغةً في التَّحذيرِ، وكلُّ ما هو آتٍ فقريبٌ؛ أي: ليس الوعدُ بهذا في كلِّ وقتٍ، فلم يكُنْ له تحقيقٌ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: من أحاديثِهم التي يتحَدَّثُونَ بها ممّا لا أصلَ له.

***

(٦٩) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قُلْ لهؤلاءِ الكفّارِ: سيرُوا في بلادِ الشّامِ والحجازِ واليمنِ، فانظُروا إلى آثارِ الأُممِ المُكذِّبةِ للرُّسلِ لتعرِفُوا ما حلَّ بهم منَ العذابِ، وإذا عرفتُم ذلك فاحذَرُوا مثلَه.

***

(٧٠) ـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على كفّارِ مكّةَ إن لم يُؤمِنُوا.

﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ وقُرِئَ: ﴿في ضِيْقٍ﴾[1] يُقالُ: في صدرِ فلانٍ ضِيقٌ وضَيقٌ.

﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: عاقبةُ مكرِهم عائدٌ إليهم.

***

(٧١ ـ ٧٢) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهذا غايةُ الإنكارِ منهم لقيامِ السّاعةِ.

---

(١) بالكسر ابن كثير، وبالفتح باقي السبعة. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩).

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: عسى أن يكونَ بعضُ العذابِ الذي تُوعِّدتُم به قد دَنا منكم، كقُربِ الرَّديفِ ممَّن هو رديفُه، وإنَّما قال ﴿بَعْضُ﴾ لأنَّهم وُعِدُوا عذابَ الدُّنيا والآخرةِ، والذي قرُبَ منهم عذابُ الدُّنيا منَ القتلِ والسَّبيِ واغتنامِ المالِ، وما جرى عليهم منَ القَحْطِ سنينَ.

﴿رَدِفَ لَكُم﴾؛ أي: قرُبَ منكم.

قال الفرَّاءُ: دَنا منكم، ولهذا قال: ﴿لَكُم﴾[1].

وقيلَ: «رَدِفَه» و: «رَدِفَ له» يعني: قرُبَ؛ إذ اللّامُ للتَّوكيدِ، ورَدِفَ الرَّجلَ يَردَفُه؛ أي: تبِعَه يتبَعُه.

وقيلَ: «ردِفَ له» مثلُ قولِهم: «سمِعَ الله له، وشكرَ لفُلانٍ، ونصحَ لفلانٍ»، كما يُقالُ: «شكرَه وسمعَه ونصحَه».

***

(٧٣ - ٧٤) - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: في تأخيرِ العقوبةِ عنهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَه ونعمتَه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: ما يُسِرُّونَه في صدورِهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ما يُظهِرُونَ منَ القولِ؛ أي: يُجازيهم بجميعِ ذلك.

***

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠).

(٧٥) ـ ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾؛ أي: من خصلةٍ غائبةٍ عن الخلقِ قد غابَ عنهم علمُها إلّا واللهُ عالـمٌ بها، قد أثبتَها في أمِّ الكتابِ عندَه، فكيف يخفَى عليه ما يُسِرُّ هؤلاءِ وما يُعلِنُونَه؟

وقيلَ: أي: كلُّ شيءٍ فهو مُثبَت في أم الكتاب يُخرجُه الأجلُ المؤجَّلُ له، فالذي يستعجلونه من العذاب له أجلٌ مضروبٌ لا يتأخَّرُ عنه ولا يتقدَّم عليه.

والكتابُ: اللَّوحُ المحفوظ أثبتَ اللهُ تعالى فيه ما أراد ليَعلمَ بذلك مَن شاء من ملائكته.

وتأويلُ المعتزلةِ: أن هذا كنايةٌ عن أنَّ الله لا يَخْفَى عليه شيءٌ؛ كما تقولُ للرجل: «كلُّ ما ذكرتَه فهو مكتوبٌ عندي»؛ أي: معلومٌ لي.

والغائبةُ: إشارةٌ إلى جميعِ الغائبات؛ ليُعلَمَ أنه محيطٌ بالكلِّ لا يشذُّ عنه شيءٌ.

وقيل: الغائبةُ مصدرٌ كالعاقِبةِ، فالعاقبةُ بمنزلةِ الغيب؛ أي: وما من غيبٍ في السماء والأرض؛ أي: ما مِن غائبٍ.

***

(٧٦ ـ ٧٨) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: يبيِّنُ لهم ويعرِّفهم خبرَه كما قصَّ عليهم خبرَ موسى وعيسى وغيرَهما، فإذا كان هذا موقعَه من أهلِ الكتابِ فأنتُم تَرجِعون إليهم في كثيرٍ من الأشياء فلا أقلَّ مِن أنْ تَتدبَّروه.

وقيل: أي: هذا القرآنُ يبيِّنُ لهم ما حرَّفوا من التوراةِ والإنجيل، وما سقَط من كتابِهم من الأحكام.

وقيل: أي: في هذا الكتاب بيانُ ما اختلَفوا فيه لو أسلَموا أو أخذوا به.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّ المؤمنين لأنهم المنتفِعون به.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾؛ أي: يقضي بينَ بني إسرائيلَ فيما اختلَفوا فيه في الآخرةِ فيُجازي المُحِقَّ والمُبْطِلَ.

وقيل: يقضي بينهم في الدُّنيا فيظهرُ ما حرَّفوه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُردُّ حكمُه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ.

* * *

(٧٩) - ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: فاعتمِدْ عليه فإنه ناصِرُك ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: الظاهرِ، وقيل: المظهِرِ لمن تدبَّرَ وجهَ الصواب.

* * *

(٨٠) - ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: ليس كفرُ هؤلاء لقصورِ الحقِّ عن البيان، ولكنْ لترْكِهم التدبُّرَ، فهم كالموتَى الذين لا حسَّ لهم ولا عقلَ.

وقيل: هذا فيمَن عَلِم الله أنه لا يُؤمنُ.

ثم قيل: أي: كما أنك لا تُسمعُ الموتى ابتداءً لا تُسمعُ هؤلاء الكفَّارَ.

وقيل: أي: إنك لا تسمعُ هؤلاء وقد طبَع الله على قلوبهم فهم موتَى.

﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: إذا ولّى الأصمُّ مدبِراً ثم ناديْتَه لم تُسمِعْه فكذلك هؤلاء لا يسمعون ما تَدْعُوهم إليه.

وقرئ: ﴿ولا يَسمَعُ﴾ بفتحِ التاء ﴿الصُّمُّ﴾ بالرفع(١)؛ أي: لا ينقادُون للحق.

***

(٨١) ـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾؛ أي: كفرِهم، ليس في وُسعك خلقُ الإيمان في قلوبهم.

وقرأ حمزة: ﴿وما أنتَ تَهْدِي العُمْيَ عَن ضلَالَتِهِمْ﴾(٢) كقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [يونس: ٤٣].

﴿إِن تُسْمِعُ﴾؛ أي: ما تُسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، قال ابن عباس: أي: إلَّا مَن خلَقْتُه للسعادة(٣)، فهم مخلِصُون للتوحيد.

***

(٨٢) ـ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ بيَّنَ بعض

---

(١) هي قراءة ابن كثير. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٣٠١).

أشراطِ السَّاعة؛ أي: إذا قَرُب كونُ الساعةِ، فجَعَل قُربَها وقوعاً للقول عليهم؛ لأنه لا ينفعُ الإيمانُ بعد ذلك.

وقيل: ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ هو قولُه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣]، فوقوعُ القولِ: وجوبُ العقابِ على هؤلاء؛ أي: فإذا صاروا إلى حدٍّ لا تُقبَل توبتُهم ولا يُولد لهم ولدٌ مؤمنٌ فحينئذٍ تقومُ القيامة.

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يرجعُ إلى الكفَّار، وقد سبق ذكرُهم.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابنُ عمرٍو: تخرجُ الدابَّة من صُدْعٍ في الصَّفَا بمكَّة[1].

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ قال مقاتلٌ: تكلِّمُهم بالعربية فتقولُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾؛ أي: أهلَ مكةَ ﴿كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: بالبعث ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾[2].

قرئ: ﴿إِنَّ﴾ بالكسر؛ أي: تقولُ لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾، وقرئ: ﴿أَنَّ﴾[3]؛ أي: تكلِّمُهم بأنَّ الناس.

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام، وفي قراءةِ أُبيٍّ: (تنبِّئُهم)[4].

---

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (١٨٥٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤٠٠٧٠)، عن ابن عمرو موقوفاً، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٦٩٥) مرفوعاً. قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٧٥): «حديث غريب جدًّا وسنده ضعيف... فأما رفعه فمنكر».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣١٧)، وفيه: «بآياتنا يعني بخروج الدابة» بدل: «بآياتنا أي بالبعث».

(٣) قرأ حمزة وعاصم والكسائي بفتح الهمزة، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٦ ـ ٤٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٥).

وقيل: من الكَلْمِ؛ أي: تَجْرَحهم. وفي قراءةِ ابن عباس: (تَكْلِمُهم) مخفَّفةً[1].

وفي الخبر: إنَّها لَتَسِمُهم فتكتُبُ على وجوهِهم: كافرٌ ومؤمنٌ[2].

وقيل: تخرجُ الدَّابةُ من بينِ الصَّفا والمروة.

وفي الخبر: تخرجُ الدَّابةُ من أرضِ تِهامةَ[3].

---

(١) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥١ ـ ١٥٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١١)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٤).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٢٤)، ومن طريقه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٣٨)، من حديث حذيفة مرفوعاً، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده لا يصح.

ورواه بنحوه مرفوعاً أيضاً الطيالسي في «مسنده» (١٠٦٩)، ومن طريقه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٣)، عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنه. وللحديث عندهما إسنادان: الأول فيه إبهام الراوي عن حذيفة، والثاني فيه طلحة بن عمرو وهو متروك. ورواه بالإسناد الثاني الطبراني في «الكبير» (٣٠٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤٩٠) وقال: صحيح الإسناد! وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٧): فيه طلحة بن عمرو وهو متروك.

ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢١٧٥)، ونعيم في «الفتن» (١٨٦٨)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ٣٩١)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٣٤٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤٩١) وصححه، من طريق أبي الطفيل عن حذيفة رضي الله عنه موقوفاً. ووقع عند عبد الرزاق: حذيفة بن اليمان، وعند الفاكهي والطبري: حذيفة بن أسيد، وفي باقي المصادر: حذيفة، دون تعيين. وأبو الطفيل هو عامر بن واثلة يروي عن حذيفة بن اليمان وعن حذيفة بن أسيد، كما في «تهذيب الكمال» (١٤/ ٧٩ ـ ٨٠).

(٣) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٥٦٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٧٦)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٨٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: تخرجُ ثلاثَ مرَّاتٍ مِنْ ثلاثةِ أمكنةٍ.

وقيل: ثلاثةَ أيَّامٍ متواليةٍ.

وقيل: لا يخرجُ إلَّا رأسُها، ورأسُها يبلغُ عَنان السَّماءِ.

وقال كعبٌ رضي الله عنه: صورتُها صورةُ حمارٍ[1].

وقال وهبٌ: وجهُها وجهُ رجلٍ، وسائرُ خلقِها كخلقِ الطَّير وعليه زَغَبٌ[2].

* * *

(٨٣ - ٨٤) - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؛ أي: من كلِّ أمَّةٍ زمرةً ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ أي: بالقرآنِ وبأعلامِه الدَّالةِ على الحقِّ.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يُحبَسُ أوَّلُهم على آخرِهم ليجتمِعوا، فحينئذٍ يساقون إلى موضع الحساب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾؛ أي: حتى إذا اجتمَعوا قال اللهُ لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ التي أنزلتُها على رسولي، وبالآياتِ التي أقمتُها على توحيدي، وأنَّه لا يجوزُ الإشراكُ بي.

﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾؛ أي: لم تَنظُروا حتى تَعلَموا.

وقيل: أي: لم تُحيطوا علماً بِبُطلانِ آياتي حتى تُعرضوا عنها، بل كذَّبْتُم جاهلينَ غيرَ مستدلِّينَ.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين لم تتفكَّروا.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٤١)، وأبو حفص النسفي «التيسير» (١١/ ٣٨٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٤١).

(٨٥) ـ ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ ﴾؛ أي: وجبَ العذابُ عليهم، وتحقَّقَ قولُ اللهِ: لأملأنَّ جهنَّمَ من العصاة ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾؛ أي: بما أشركوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: ليسَ لهم عذرٌ ينطقونَ به.

وقيل: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ لأنَّ أفواهَهم مختومةٌ.

* * *

(٨٦) ـ ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾؛ أي: ألم يعلموا أنَّا جعلْنا اللَّيلَ والنَّهارَ قِواماً للمعاش ليعلَموا كمالَ قدرتِنا فيؤمنوا.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: يُبْصَرُ فيه، يُقالُ: ليلُه نائمٌ؛ أي: نامَ فيه، ونهارُه صائمٌ؛ أي: صامَ فيه، والمراد: النَّهار يُبْصَرُ فيه ليُبغَى الرِّزقُ.

* * *

(٨٧) ـ ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾؛ أي: واذكُرْ ابتداءَ قِيامِ السَّاعةِ حينَ يَنفُخُ إسرافيلُ بأمْرِ اللهِ تعالى في الصُّور، وهو القَرْنُ الذي ينفخُ فيه فيحيى النَّاسُ، والمرادُ النَّفخةُ الثَّانيةُ؛ أي: يحيَونَ فزعينَ يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، ويُعاينون مِن الأمرِ ما يَهولُهم ويُفزِعُهم، وهذا النَّفْخُ كصوْتِ البُوقِ لتجتمعَ الخَلْقُ في أرضِ الجزاء.

وقيل: عُني به النَّفخةُ الأولى حين يموتَ جميعُ الخلْقِ.

﴿فَفَزِعَ﴾؛ أي: فزِعوا فزَعاً ماتوا منه.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: هم الشُّهداءُ؛ لأنَّهم أحياءٌ عندَ اللهِ، والأنبياءُ داخلون في جُملتِهم لأنَّ لهم الشَّهادةَ مع النُّبوةِ.

وقيل: إلَّا الحورَ العين.

وقيل: المستثنَون هم المؤمنون؛ لأنَّ الله تعالى قال عَقِيبَ هذا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وقال مقاتل: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملكَ الموتِ(١).

﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: وكلٌّ مِنَ الأحياءِ الذين ماتوا ثم أُحيوا والذين استثناهم ﴿ءَاتُوهُ داخِرين﴾؛ أي: يأتون اللهَ يومَ القيامةِ مستجيبينَ لأمرِه.

وقرئ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾(٢) من قولِكَ: أَتَى أَتْياً.

و﴿أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾؛ أي: صاغِرِيْنَ.

***

(٨٨) ـ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يعني: يومَ القيامةِ حين تسيرُ الجبالُ؛

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣١٨).

(٢) هي قراءة حفص وحمزة بقصر الهمزة وفتح التَّاء، والباقون بمد الهمزة وضم التَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٩).

أي: هي لكثرتِها كأنَّها جامدةٌ؛ أي: واقفةٌ في مرأى العينِ وإنْ كانَتْ في أنفسِها تسيرُ سيْرَ السَّحابِ [والسحابُ المتراكمُ يُظنُّ أنه واقف.

﴿تَمُرُّ﴾؛ أي: تسيرُ][1] حتَّى لا يبقَى منها شيءٌ، قال الله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقال مقاتلٌ: حتى تقعَ على الأرضِ فتستويَ بها[2].

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وكلُّ فعلٍ منه فهو متقَنٌ.

﴿صُنْعَ﴾ نصبٌ على المصدر لأنَّه قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾، وهذا دليلٌ على صنعِه يُقالُ: صنعَ اللهُ ذلك صُنْعاً.

وقيل: هو نصبٌ على الإغراءِ؛ أي: انظروا صنعَ اللهِ.

﴿أَتْقَنَ﴾؛ أي: أحكَمَ ما خلَقَ، والإتقانُ: الإحكامُ، ويقال: رجلٌ تِقْنٌ؛ أي: حاذِقٌ بالأشياءِ، والفصاحةُ مِن تِقْنِ فلانٍ؛ أي: سُوْسِهِ وطَبْعِهِ.

وقال الأزهريُّ: أصلُه من ابنِ تِقْنٍ، وهو رجلٌ مِنْ عادٍ لم يكن يسقُطُ له سهمٌ، فضُرِبَ به المثل، يُقال: أرمَى من ابنِ تِقْنٍ، ثم قيل لكلِّ حاذقٍ: تِقْنٌ[3].

***

(٨٩) ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: يومَ الحشـر، وهو يـومُ النَّفخِ في

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣١٨).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٩/ ٦٦).

الصُّور، فمَن جاءَ بالحسنةِ فله الجزاءُ الجميلُ، قيل: هذه الحسنةُ شهادةُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ.

وقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قيل: ليس للفضيلةِ؛ أي فلَهُ الخيرُ في مقابلةِ الحسنةِ، وهو الجنَّةُ.

وقيل: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ للتَّفصيل؛ أي: ثوابُ اللهِ خيرٌ مِنْ عَمَلِ العبدِ وقولِه وذِكْرِه وكذلك رضوانُ اللهِ خيرٌ للعبدِ من فِعْلِ العبدِ.

وقيل: يرجِعُ هذا إلى الأضعافِ؛ فإنَّ اللهَ يعطيْهِ بالواحدةِ عشراً، وبالإيمانِ في مُدَّةٍ يسيرةٍ الثَّوابَ الأبديَّ.

ويدخُلُ في لفظِ (الحسنةِ) جميعَ الأعمالِ الصَّالحةِ مِنَ الصَّلاةِ والصِّيامِ والصَّدقةِ، فتكونُ الأضعافُ خيراً من عملِ العبدِ.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قرئ بالإضافة إلى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وقرئ: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ بالتَّنوين[1].

ثم؛ قيل: يعني فزعاً واحداً؛ كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقيل: عنى الكثرةَ لأنَّه مصدرٌ، والمصدرُ صالحٌ للكثرةِ.

***

(٩٠) - ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: الشِّركِ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: أُلْقِيَتْ، يُقالُ: كبَبْتُ الإناءَ؛ أي: قلبتُه على وجهِه.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ بالتنوين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، وقرأ الباقون بغيرِ تنوين، وفتح الميم نافع وخفضها الباقون. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٧٠).

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾.

ثم؛ يجوزُ أنْ يكونَ مِنْ قولِ اللهِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ قولِ الملائكةِ.

﴿إِلَّا مَا﴾؛ [أي: بما][(١)] ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا جزاءَ عملِكم.

* * *

(٩١) ـ ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ القولُ فيه مُضمَر؛ أي: قُلْ يا محمَّدُ: إنَّما أمرت بكذا، وهو ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ هذا البيتَ الذي بمكَّةَ التي حرَّمَها الرَّبُّ، فجعلَها حَرَماً آمناً.

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾؛ أي: عبادةُ مَنْ له كلُّ شيءٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: المنقادِيْنَ لأمرِه الموحِّدين.

* * *

(٩٢) ـ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: لأدعوَ به إلى الإسلامِ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فله ثوابُ هدايتِه، ومن ضلَّ فليس عليَّ إلَّا الإبلاغُ.

* * *

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

(٩٣) - ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: نحنُ نحمدُ اللهَ على ما هدانا ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ أي: في أنفسِكُم وفي العالَمِ ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾؛ أي: يومَ القيامة.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرئ بالياء والتاء(١).

والله تعالى أعلمُ، وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبِه وسلَّم.

* * *

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).

سُورَةُ القَصَصِ

تفسيرُ سورةِ القَصص

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ ـ ٢) ـ ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ افتتحَ السُّورةَ بذِكْرِ قصَّةِ موسى وفرعونَ وقارونَ، واحتجَّ على مشركي العربِ، وبيَّنَ أنْ قرابةَ قارونَ من موسى لم تنفعْهُ مع كفرِه، وكذلك قرابةَ قريشٍ لمحمَّدٍ وبيَّنَ أنَّ فرعونَ علا وتجبَّرَ، فكانَ ذلك من كفرِه، فلْيُجْتَنَبِ العلوُّ في الأرض، وكذلك التَّعزُّزُ بكثرةِ المال، وهما من سيرة فرعونَ وقارون، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا﴾ [القصص: ٨٣].

﴿طسٓمٓ﴾ اسم السورة؛ أي: هذه طسم، ثم قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: مظهِرِ الحقِّ، أو الكتابِ الظَّاهرِ، و«أبانَ» لازمٌ ومتعدٍّ.

***

(٣) ـ ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾؛ أي: يقرأُ عليك جبريلُ بأمرِنا ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ ﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ، والنَّبأُ: الخبرُ.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: نتلو عليك ذلك بالصِّدق الذي لا كذبَ فيه ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: يصدِّقون بالقرآن؛ أي: إنَّما يعلَمُ صدقَ القرآنِ مَنْ آمنَ به، فأمَّا مَنْ لم يؤمِنْ فلا يعتقدُ أنَّه حقٌّ.

وقيل: نتلو عليك من أجلِ المؤمنين لأنَّهم المنتفِعون به.

وقيل: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لقـومٍ همُّهُم التَّصديقُ بما يتَّضِحُ بيانُه، فهم يتدبَّرون القرآنَ ويعلمونَ أنَّه حقٌّ فيؤمنون بما فيه.

* * *

(٤) ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: في زمانِه فصار عاليًا على مَن تحتَ يدِه لكثرةِ أموالِه وأتباعِه، فكان أهلُ الأرضِ ـ أي: أهلُ مصرَ ـ تحتَ يدِه وحكمِه.

والعلوُّ: العظمةُ والتَّجبرُ والبغيُ.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾؛ أي: أحزاباً وفرقاً ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾؛ أي: بني إسرائيل، ويُكرِمُ طائفةً، ومنهم قومُه، ثم فسَّرَ ذلك الاستضعاف فقال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ أي: يُقتِّلُ أبناءَهم ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾؛ أي: يستَبْقي نساءَهم ويَتركُ بناتِهم للخدمةِ.

وذلك لأنَّ الكهنةَ قالوا له: إنَّ مولوداً يُولَد في بني إسرائيل يذهَبُ ملكُكَ على يدِه، أوقال المنجِّمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعُبِّرَتْ بذلك.

قال الزجَّاجُ: العجبُ من حُمقِه لم يدرِ أنَّ الكاهنَ إنْ صدقَ فالقتلُ لا يَنفعُ، وإنْ كذَبَ فلا معنى للقتلِ(١).

وقيل: جعلَهم شِيعاً، فاستسخرَ كلَّ قومٍ من بني إسرائيلَ في شُغْلٍ مُفرَدٍ.

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: في الأرضِ بالعمل بالمعاصي والتجبُّر.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٣١).

(٥) - ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾؛ أي: كان فرعونُ يستسخرُ بني إسرائيل، ونحن نريدُ أن نتفضَّلَ على بني إسرائيلَ، وهذه حكايةُ حالٍ مضَتْ.

﴿نَّمُنَّ﴾؛ أي: نُنْعِمَ.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾؛ أي: قادةً في الخير ودعاةً إلى الدِّين يُقتَدى بهم.

وقيل: نجعلَهم ولاةً يُؤَمُّ بهم.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لِمُلْكِ فرعونَ يرثون ملكَه ويسكنون مساكنَ القِبْطِ.

* * *

(٦) - ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: نجعلَهم مقتدِرينَ على الأرضِ وأهلِها حتَّى يستولُوا عليها، يعني: أرضَ الشَّامِ ومصرَ والبلادِ التي ملكَها بنو إسرائيل، يقال: مكَّنْتُه ومكَّنْتُ له.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾؛ أي: ونريدُ أنْ نُرِيَ فرعونَ وقومَه ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من بني إسرائيل من سَلْبِهم ملكَهم.

بيَّنَ بهذا أنَّ الحذَرَ لا يدفَعُ القَدَرَ.

وقرئ: ﴿ويَرى فرعونُ﴾ بالياء والرفع[1].

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون بالنُّون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء بعدها ونصب الأسماء الثلاثة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٠).

(٧) - ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ أي: ألقينا في قلبِها، فهذا وحيُ إلهامٍ.

وقال مقاتلٌ: أتاها جبريلُ بذلك[١]. فعلى هذا هو وحيُ إعلام.

وقيل: لَمَّا ولدَتْ موسى ـ وكان الموكَّلون من جهة فرعونَ تَقتلُ أولادَ بني إسرائيلَ مسلَّطين ـ أرضعَتْهُ ثلاثةَ أشهرٍ، ثم خافَتْ أنْ يسمعَ الجيرانُ بكاءَ الصَّبيِّ، فاتَّخذَتْ لها تابوتاً من بَردي، وقيَّرَتْهُ[٢]، ووضعَتْ فيه موسى وألقَتْهُ في نيلِ مِصْرَ.

وقيل: لا، بل أُمِرَتْ أنْ تُرضعَه بعدَ الولادةِ وتلقيَه في اليمِّ.

﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾؛ أي: لا تخافي عليه الضَّيعةَ؛ فإنِّي أوكِّل به مَلَكاً يحفظُه في اليمِّ، ولا تحزني بفراقِه، فإنِّي أردُّه عليك لتمامِ الإرضاع.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: إلى أهل مصر.

* * *

(٨) - ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ففعلَتْ ذلك فالتقَطَه؛ أي: فوجدَه مِنْ غيرِ طلْبٍ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ بفتح الحاء والزاي، وقرئ: ﴿وحُزْناً﴾

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٣٦).

(٢) أي: طلَتْه بالقار ـ وهو الزفتُ ـ لئلا يدخل فيه الماء فيهلك. انظر: «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٦/ ٢٠٠).

بضم الحاء[1]، كالسَّقَم والسُّقْم؛ أي: ليصيرَ الأمرُ إلى ذلك، لا أنَّهم أخذوه لهذا، فاللَّامُ لامُ العاقبةِ.

﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: جواري فرعونَ، وهنَّ جواري امرأتِه اللَّاتي أخذْنَ تابوتَ موسى من الماءِ.

وقيل: كان فرعونُ وامرأتُه قاعدَيْنِ على شَطِّ بركةٍ في الباع[2] فإذا هما بالتَّابوتِ، فأمرَ بأخذِه.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾؛ أي: آثمين عاصِين بكفرِهم وعتوِّهم.

* * *

(٩) ـ ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ألقَى اللهُ محبَّته في قلبِها فقالَتْ لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾؛ أي: هو قُرَّةُ عينٍ لي ولك.

وقيل: قالَتْ: لا تقتلْهُ؛ فإنَّ اللهَ آتاناه من أرضٍ أخرى، وليس من بني إسرائيل.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنُصِبْ منه خيراً ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلِدُ، فاستوهبَتْ موسى من فرعونَ فوهبَه لها.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون بفتح الحاء والزاي. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٢) قوله: «في الباع»،كذا في (أ)، ولا يظهر للباع هنا معنى، وفي بعض المصادر: «في البستان». انظر: «تفسير البيضاوي» (٩/ ٣٦).

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ هذا ابتداءُ كلامٍ من اللهِ عزَّ وجلَّ؛ أي: وهم لا يشعرون أنَّ هلاكَهم بسببِه.

وقيل: هو من كلامِ المرأةِ؛ أي: وبنو إسرائيلَ لا يدرون أنَّا التَقَطْناه ولا يشعرون أنَّه ولدُنا.

* * *

(١٠) ـ ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾؛ أي: فَرَغَ للحزْنِ على موسى والاهتمامِ له حتى لا يشتغلُ بشيءٍ آخر.

وقيل: فارغاً من كلِّ هَمٍّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سكَّنَ قلبَها بما أوحى إليها.

وقيل: وسوسَ إليها إبليسُ فقال: لو قتلَه فرعونُ لكانَ لكِ أجرُه، والآن قد تولَّيْتِ قتلَه بالإلقاءِ في اليمِّ، فلمَّا أُخبِرَتْ بأنَّ موسى وقعَ في يدِ آل فرعون قالت: قد وقعَ في يدِ عدوِّه والذي فررْتُ منه ثم أنساها اللهُ ذلك.

وقيل: فارغاً من الحزْنِ لعلمِها بأنَّه لم يُقتَلْ ولم يغرَقْ.

وقيل: أي: صارَ قلبُها خالياً عن الصَّبرِ والحزمِ.

وقيل: ﴿فَٰرِغًا﴾؛ أي خائفاً فَزِعاً، تقول العرب: إنِّي منكَ فارغٌ؛ أي: خائف.

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾؛ أي: كادَتْ لشغلِ قلبِها بموسى تُظهرُ أنَّه ابنُها ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا﴾؛ أي: بالصَّبر واليقين ﴿عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾.

وقيل: ضاقَ صدرُها بقولِ آلِ فرعون: هو ابنُ فرعونَ، فكادَتْ تُظْهِرُ أنَّه ولدُها، والإبداءُ: الإخبارُ.

ومعنى الرَّبْطِ على القلبِ: إلهامُ الصَّبر.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المصدِّقين بوعْدِ اللهِ حين قالَ لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

وقيل: فَرِغَ قلبُها من الهمِّ بسببِ الوحيِ إليها في ذلك، وكادَتْ تُبدي ذلك الوحيَ وأنَّ اللهَ وعدَها كذا، فربطْنا على قلبِها حتى صبرَتْ على الكتمان.

وحروفُ الصِّلات قد تُزادُ في الكلام، تقول: «أخذْتُ الحبلَ» و«بالحبلِ»، ولهذا قال: ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ ولم يقل: (لتُبْدِيهِ).

وقيل: أي: لَتُبْدي القولَ به.

* * *

(١١) ـ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾؛ أي: لأختِ موسى: ﴿قُصِّيهِ﴾ اتَّبعي أثرَه حتى تعلَمي بعضَ علمِه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ تقولُ: بَصُرْتُ بالشيء وأَبصرْتُه بمعنًى.

﴿عَن جُنُبٍ﴾؛ أي: عن بعدٍ، ثم وُصِفَ به فقيل: رجلٌ جُنُبٌ ورجالٌ جُنُبٌ والجارُ الجنُبُ.

وقيل: ﴿عَن جُنُبٍ﴾؛ أي: عن جانب.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لم يشعرْ بها وبتطيُّرِها آلُ فرعونَ، أو لم يشعروا أنَّها أختُه.

وقيل: ﴿عَن جُنُبٍ﴾؛ أي: عن مجانبةٍ لها منه، فلم يَعرفوا أنها منه بسبيلٍ.

* * *

(١٢) - ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مَنَعْناه من الارتضاع إلَّا مِنْ أمِّه، فالتَّحريمُ هو المنعُ، والمراضعُ: جمعُ مُرضِعٍ، يُقال: امرأةٌ مرضِعٌ ومرضِعةٌ، ونساءٌ مَراضِعُ.

وقيل: هي جمعُ مَرْضَعٍ، مثل مَطْلَعٍ؛ أي: حرَّمْنا عليه الرَّضاع من الجمعِ إلَّا من أمِّه.

﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ أنْ تأتيَه أمُّه.

وقيل: مِن قبلِ أن يُولَدَ؛ أي: جرى القضاءُ بذلك.

وقيل: مِن قبلِ أنْ أتَتْ أختُ موسى.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾؛ أي: أُرشِدُكم، وكانوا يبالغون في طلبِ مرضعَةٍ يقبَلُ ثديَها، فقيل: مَن هي؟ فقالت: أمِّي، فقيل: لها لبنٌ؟ قالت: نعم، لبنُ هارون، وكان هارونُ وُلِدَ في سنةٍ لا يُقتلُ فيها الصِّبيان، فقالوا: صدقْتِ واللهِ.

﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾؛ أي: فيهم شفقةٌ ونُصْحٌ.

قال السُّديُّ: قيل لها لَمَّا قالَتْ: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، قد عرفْتِ أهلَ هذا الصَّبيِّ فدُلِّينا عليهم، فقالت: أردْتُ: وهم للملكِ ناصحون[١].

فدلَّتهم على أمِّ موسى، فدُفِعَ إليها، فلمَّا وجَدَ الصَّبيُّ ريحَ أمِّه قَبِلَ ثديَها.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥٠).

(١٣) - ﴿فَرَدَدْنَهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَرَدَدْنَهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾؛ أي: ردَدْناه وقد عطَّفْنا قلْبَ العدوِّ عليه، ووفَّينا لها بالوعد.

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾؛ أي: بولدِها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾؛ أي: بفراقِ ولدِها.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: لتعلمَ وقوعَه، فإنَّها كانت عالمةً بأنَّ ردَّه إليها سيكون.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: كانوا في غفلةٍ عن[1] التقديرِ وسترِ القضاءِ.

وقيل: أي: أكثرُ النَّاسِ لا يعلمون أنَّ وعدَ اللهِ في كلِّ ما وعَدَ حَقٌّ.

* * *

(١٤) - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُـه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: قوِيَ واشـتدَّ بدنُـه ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ أي: تناهَى شبابُه.

وقـال مقاتلٌ: بلوغُ الأشُـدِّ من ثماني عشـرةَ سـنةً إلـى أربعينَ سـنةً[2]، وقوله: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ أي: كان ابـنَ ثلاثٍ وثلاثينَ سـنةً.

وقال مجاهدٌ: بلوغُ الأشُدِّ في ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً، والاستواءُ في أربعينَ سنةً[3].

---

(١) بعدها في (أ) كلمة غير مجودة، ولم ترد في «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٤٤) وقد نقل عن المصنف هذا الكلام.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٣٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٨١).

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ أي: العلمَ بدينِه ودينِ آبائِه.

قال محمَّدُ بنُ إسحاقَ: وكانت له شيعةٌ من بني إسرائيلَ يسمعونَ منه ويقتدونَ به ويجتمعونَ إليه، وكان هذا قبلَ النُّبوَّةِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: هكذا نجزي مَنْ آمنَ باللهِ، قيل: لَـمَّا عرفَ ما هو عليه في دينِه من الحقِّ عابَ ما عليه قومُ فرعونَ، وشاعَ ذلك منه، فأخافوه وخافَهم، فكان لا يدخلُ مدينةَ فرعونَ إلا خائفاً مستخفياً.

وقيل: الحُكْمُ هاهنا: النُّبوَّةُ.

***

(١٥) ـ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾

قولُه تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال السُّديُّ: ركبَ فرعونُ[(١)] مرَّةً وموسى غيرُ حاضرٍ، فركِبَ موسى في أثرِ فرعونَ، فأدركَه المقيلُ فدخلَ بعضَ القُرى، فهو قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾[(٢)].

وقيل: لا، بل كان أظهَرَ خِلافَ فرعونَ وعابَ عليهم عبادةَ فرعونَ والأصنامِ، فدخلَ مدينةَ فرعونَ يوماً على حينِ غَفلةٍ.

وقال مقاتل: هي قريةٌ على رأسِ فرسخَيْنِ من مصر[(٣)].

---

(١) في (أ): «موسى»، والتصويب من (م) ومن مصدر التخريج الآتي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥٢).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٣٩).

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾؛ أي: وقتَ القيلولةِ وخلاءِ الطَّريقِ منَ النَّاسِ.

وقيل: ما بين المغرب والعشاء.

وكان خائفاً منهم، فدخلَ مستخفياً على غفلةٍ منهم ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أحدُهما من بني إسرائيلَ، والآخرُ من القِبْطِ، كان القِبْطِيُّ استسخرَ الإسرائيليَّ.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾؛ أي: سألَه الإسرائيليُّ أنْ يخلِّصَه من القِبْطيِّ.

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ الوَكْزُ: الضَّربُ بجُمعِ الكفِّ في الصَّدرِ، ويسمَّى ذلك اللَّكْزُ أيضاً.

وقيل: وكزَه بعصًا في يدِه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قتلَه، وكلُّ شيءٍ فرغْتَ منه فقد قضيْتَ عليه، أي: أتيْتَ عليه.

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: ممَّا دعاني إليه الشَّيطانُ، وما كان موسى أُمِرَ بالقتلِ، فلهذا ندِمَ على ما جرى منه.

﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: الشَّيطانُ عدوٌّ لابنِ آدمَ بيِّنُ الإضلالِ، وإضلالُه: دعاؤُه إلى الضَّلال.

* * *

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾؛ أي: بقتلي نفساً لم أؤمرْ بقتلِها ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾؛ أي: فاسترْ عليَّ هذا الذَّنْبَ ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقيل: ندِمَ لأنَّه كان فيما بينَهم، فخافَ أن يقتلوه.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ أي: بما أنعمْتَ عليَّ من المعرفةِ والحكمةِ والتَّوحيدِ لا أكونُ ظهيراً للكافرين.

ولم يقل: (بما أنعمْتَ عليَّ من المغفرة) لأنَّ هذا كان قبلَ الوحي، وما كان عالماً بأنَّ اللهَ غفرَ له ذلك القتلَ.

وقيل: أرادَ: إنِّي وإنْ أسأْتُ في هذا القتلِ الذي لم أؤمرْ به، فلا أتركُ نصرةَ المسلمينَ على المُجرمين.

وقيل في بعض الروايات: كان ذلك الإسرائيليُّ أيضاً كافراً، وإنَّما قيل له: «إنَّه مِن شيعةِ موسى» لأنَّه كان إسرائيليًّا، ولم يُرَدِ الموافقةُ في الدِّين، فعلى هذا ندِمَ لأنَّه أعانَ كافراً على كافرٍ، فقال: لا أكونُ بعدَ هذا ظَهراً لكافرٍ.

وقيل: ليسَ هذا خبراً بل هو دعاءٌ؛ أي: فلا أكونُ بعد هذا ظهيراً؛ أي: فلا تجعلْني ربِّ ظهيراً للمجرمين.

وفي قراءةِ عبدِ الله: (فلا تجعلني ظهيراً)[1] على جهةِ الدُّعاء.

* * *

(١٨) - ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾؛ أي: أصبح موسى في المدينة خائفاً ممَّا جرى على يدِه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: ينتظرُ الطَّلَبُ وينتظرُ ما يتحدَّثُ به النَّاسُ.

﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾؛ أي: فإذا صاحبُه الإسرائيليُّ الذي خلَّصَه أمسِ يقاتلُ قِبطيًّا آخرَ أرادَ أن يُسَخِّرَه.

والاستصراخُ: الاستغاثةُ، وهو من الصُّراخ، وذلك لأنَّ المستغيثَ يصوِّتُ ويصرُخُ في طلبِ الغَوْثِ.

---

(١) ذكرها عنه الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٠٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٩١).

قيل: كان هذا الإسرائيليُّ المستنصِرُ السَّامريَّ، استسخَرَهُ طبَّاخُ فرعونَ في حملِ الحطبِ إلى المطبخ.

(أمسِ): اسمُ اليومِ الذي قبلَ يومِكَ؛ وهو مبنيٌّ على الكسر لالتقاء الساكنين، فإذا دخلَتِ الألفُ واللامُ أو الإضافةُ دخلَه الرَّفعُ والفتحُ.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: مُضِلٌّ بيِّنُ الضَّلالَةِ، قتلْتُ بسببِكَ أمسِ رجلاً وتَدْعوني اليومَ لآخَرَ.

والغَويُّ: فَعيلٌ من أغوى يُغوي، وهو بمعنى: مُغْوٍ، وهو كالوجيع والأليم بمعنى: الموجِعِ والمؤلِمِ.

وقيل: الغَويُّ بمعنى الغاوي؛ أي: إنَّك لغويٌّ في قتالِ مَنْ لا تُطيقُ دفعَ شرِّه عنك.

وقال الحسن: إنما قال للقِبْطيِّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ في استسخارِ هذا الإسرائيليِّ وهمَّ أن يَبطشَ به[1].

* * *

(١٩) ـ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾؛ أي: القبطيِّ، قال: يا موسى، أتريد أن تقتلَني كما قتلْتَ رجلاً بالأمسِ، قيل: قال ذلك القبطيُّ هذا رجماً بالظنِّ من غير تثبُّتٍ، فشاع ذلك فيما بين النَّاسِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٣٦١).

وقيل: لا، بل ظنَّ ذلك الإسرائيليُّ أنَّ موسى يبطِشُ به، لقول موسى له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فقال: يا موسى ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾؟ فعلم ذلك القِبطيُّ أنَّ القاتلَ بالأمسِ هو موسى، فنمَّ عليه، وكان إفشاءُ السِّرِّ في الأصل من كلامِ الإسرائيليِّ.

وعلى قولِ الحسنِ إذ قال: إنَّما قال موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ﴾ للقِبطيِّ، فيحتملُ أن يكون الإسرائيليُّ رأى من موسى كراهيةَ الاستغاثةِ به، فظنَّ أنَّه يقصدُه الآنَ فباحَ بما علِمَ منه.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ﴾؛ أي: ما تريدُ إلَّا أن تكون ﴿جَبَّارًا﴾؛ أي: قتَّالاً بالظُّلم، والجبَّارُ: المتعظِّمُ.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾؛ أي: ما هكذا يكون الإصلاحُ.

***

(٢٠) ـ ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ هو مؤمنُ آلِ فرعونَ، قيل: كان نجَّاراً.

وقيل: كان ابنَ عمِّ فرعون، واسمُه: خربيلُ، وقيل: سَمعانُ.

﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾؛ أي: مِن آخِرِها ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يَعدو على رجليه.

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾؛ أي: إنَّ الجماعةَ الأشرافَ من قوم فرعونَ يتشاورون فيك ليقتلوك.

وقيل: يَهمُّون بك ليَقْتلوك.

وقال الأزهريُّ: ائتمرَ القومُ وتآمروا؛ أي: أمرَ بعضُهم بعضاً[١].

﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾؛ أي: بالقبطيِّ الذي قتلْتَه أمسِ ﴿فَاخْرُجْ﴾؛ أي: من القريةِ ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾؛ أي: في أمري إيَّاكَ بالخروج.

* * *

(٢١) ـ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: يتوقَّعُ الهلاكَ ويخافُ أن يُطْلَبَ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي﴾؛ أي: خلِّصني من المشركين.

والإنجاءُ: الإلقاءُ بالنَّجْوةِ، وهي المرتفعُ من الأرض.

وقيل: (من الظَّالمين) لأنَّهما أرادوا قتلَه بقتلٍ لم يكن عَمداً، بل كان مخطئاً فيه.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: قصدَ نحوَها، وأصلُه: اللِّقاءُ، زِيدَت فيه التاءُ.

ثم قيل: خرج يَطلبُ موضعاً يَأْمَنُ فيه فرعونَ، فأدَّاه الطَّريقُ إلى مَدينَ.

وقيل: خرج وفي قلبِه أنْ يأتيَ مَدينَ ولكن لا يعرفُ الطَّريقَ، فسأَلَ اللهَ أنْ يهديَه، وكان خرجَ بلا زادٍ ولا راحلةٍ، وبينَه وبينَ مدينَ مسيرةُ ثمانيةِ أيَّام.

﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: أن يُرْشِدَني قَصْدَ الطَّريقِ إلى موضعِ الأمنِ.

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١٥/ ٢١١).

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾؛ أي: جماعةً، وهم الرُّعاةُ يَسْقُونَ مواشيَهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾؛ أي: أسفلَ منهم ﴿امْرَأَتَيْنِ﴾ وهما بنتا شُعيب ﴿تَذُودَانِ﴾؛ أي: الغنم؛ أي: تحبِسانِ عنهما ليَفْرغَ النَّاسُ من السَّقي، فربَّما يَفضُلُ لهما شيءٌ من الماءِ، وليَفرغَ البئرُ لهما.

وحُذف لفظُ «الغنم» اختصاراً، والذَّودُ: الكفُّ والدَّفعُ.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾؛ أي: ما شأنُكما لا تسقيان مع الناس.

وقال الزجَّاج: أي: ما تَخطبانِ؛ أي: ما تُريدان بذَوْدِكما غنمَكما عن الماءِ[1].

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ قرئ: ﴿يَصْدُرَ﴾ من صَدَرَ، وهو ضد وَرَدَ؛ أي: حتى يرجعَ الرِّعاءُ، وقرئ: ﴿يُصْدِرَ﴾ بضم الياء[2]، من أصدَرَ؛ أي: حين يُصدِروا مواشيَهم من وِردِهم فيُخلوا لنا الموضعَ.

والرِّعاءُ: جمعُ راعٍ، مثلَ: تاجرٍ وتِجارٍ، وصاحبٍ وصِحابٍ.

وقيل: قالتا: نحنُ امرأتان لا نستطيعُ أنْ نزاحمَ الرِّجال.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: لا يقدرُ حتى أنْ يَسقيَ بنفسِه ماشيتَه، وليس له عونٌ يعينُه.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٣٩).

(٢) قرأ ابنُ عامرٍ وأبو عمرو بفتحِ الياءِ وضمِّ الدال، وقرأ باقي السبعة بضم الياء وكسر الدال. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص:١٧١).

فأتى موسى أهلَ الماءِ وسألَهم دلواً من ماءٍ، فقالوا: إنْ شئْتَ فأتِ الدَّلوَ فاسقِ بها، وكان يجتمِعُ على الدَّلْوِ أربعون رجلاً حتى يخرجوها من البئر، فأخذ موسى الدَّلْوَ فاستقى بها وحدَه، وصبَّ في الحوضِ ودعا بالبركةَ، ثم قرَّب غنمَهما فشربَتْ حتى رَويَتْ.

وقيل: أخذَ موسى دلوَهما ثم تقدَّم إلى السُّقاةِ بفضلِ قوَّتِه، فزاحمَهم وأخَّرَهم واستقَى لهما.

وقيل: كان على رأس البئرِ حجرٌ لا يزيلُه إلَّا جمعٌ من النَّاسِ، فرفعَه موسى بيدِه وحدَه، وأدلى دلواً واحدةً، ودعا فيها بالبركةِ، فسقى الغنمَ فرَوِيَتْ.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾؛ أي: سقى أغنامَهما لأجلِهما، فحُذفَ مفعولُ السَّقْيِ، ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ قيل: إلى ظلِّ شجرةٍ من شدَّةِ الحرِّ، وهو جائعٌ.

﴿وقال فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ أي: إنِّي محتاجٌ إلى ما تنزِّلُه إليَّ من خيرٍ.

قيل: سألَ الطَّعامَ.

وقيل: طلبَ كفايةَ جميعِ أحوالِه.

﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ أي: إلى ما أنزلْتَ إليَّ، ويُقال: هو فقيرٌ له وفقيرٌ إليه، ومحتاجٌ له ومحتاجٌ إليه.

* * *

(٢٥) - ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ قيل: رجعَتا إلى أبيهما في ساعةٍ كانتا لا ترجعانِ فيها، فسألهما، فأخبرَتاه الخبرَ، فقال لإحداهما: أَعْجِلي عليَّ به ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾

أي: الكُبرى منهما ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قال عمرُ: تستترُ بكمِّ دَرعِها، لم تكن بِسَلْفَعٍ من النِّساءِ خرَّاجةً ولَّاجةً، قائلةً بيدِها على وجهِها[1]؛ أي: واضعةً.

﴿لِيَجْزِيَكَ﴾؛ أي: ليقضيَكَ، يُقال: جَزَى يَجْزِي؛ أي: قَضَى يَقْضِي.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ قيل: قامَ يمشي معها، وكان بين موسى وبين أبيهما ثلاثةُ أميالٍ، وأمرَها أنْ تمشيَ خلفَه، وتَدُلَّه بصوتِها على الطريقِ كراهيةَ أن ينظرَ إليها.

فلمَّا جاء شعيباً ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: أمْرَهُ أجمَعَ من وقتِ الولادةِ إلى هذه الحالة ﴿قَالَ﴾ له شعيب: ﴿لَا تَخَفْ﴾ لأنَّ سلطانَ فرعونَ ما كان ينتهي إلى مَدين ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لَسْنا في مملكةِ فرعون.

* * *

(٢٦) ـ ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ قال مقاتلٌ: هي الكُبْرى التي تزوَّجها موسى[2]، قالَتْ: اتَّخِذْهُ أجيراً ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾؛ أي: مَن قوِيَ على عملِكَ وأدَّى الأمانةَ فيه.

قيل: قال شعيبٌ لها: بِمَ عرفْتِ قوَّته؟ قالت: برَفْعِ الحجرِ الذي لا يُطيقُه إلَّا عشرةٌ، وقيل: مئةٌ، فقال: بِمَ عرفْتِ أمانتَه؟ قالت: قال لي: لا تمشي أمامي فتصفَكِ الرِّيحُ لي، ولكن امْشِي خَلْفي ودلِّيني بصوتِكِ.

* * *

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٣٠)، وصححه.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

(٢٧) - ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾؛ أي: أنْ أزوِّجَكَ إحداهما ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾؛ أي: تكونَ أجيراً لي ثماني سنين، يريد رعيَ الغنمِ ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ يقال: أَجَرْتُ غلامي أجراً، فهو مأجورٌ.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾؛ أي: ذاك بفضلِ منكَ؛ أي: ليس بواجبٍ عليكَ.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾؛ أي: في العشر من السِّنين ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: من الرَّافقين بكَ والوافينَ بالوعدِ.

***

(٢٨) - ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ﴾؛ أي: قال موسى له: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾؛ أي: ذلك الذي وصفتَ بيني وبينكَ ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ من ثماني سنينَ وعشرِ سنينَ ﴿قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾؛ أي: لا ظُلْمَ عليَّ.

ونُصب (أيّ) بـ﴿قَضَيْتُ﴾، و(ما) زائدة، وجوابُ الجزاء ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾؛ أي: لا تطلبْ منِّي أكثرَ من ذلك.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أي: شهيدٌ.

ثم؛ يجوزُ أنْ يُقالَ: كانت الغنمُ للمرأةِ؛ فإنَّ المهرَ ينبغي أن يكونَ لها، والأبُ

عقَدَ الإجارةَ لها عنها، ويجوزُ أن يكونَ الأبُ أعطاها عِوضاً من ذلك، ثم هذا شرعُ مَن قبلَنا، فلا نطلبُ فيه حقائقَ شرعِنا.

وقيل: قال موسى: لا آكلُ فإنَّا أهلُ بيتٍ لا نبيعُ دينَنا بملءِ الأرضِ ذهباً، فقال شعيبٌ: ليس هذا عِوَضَ السَّقْيِ، ولكن عادتي وعادةَ آبائي قِرى الضَّيفِ وإطعامُ الطَّعامِ، فحينَئذٍ أكلَ موسى.

***

(٢٩) - ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾؛ أي: فتزوَّجَ موسى بنتَ شعيبٍ، وعملَ إلى انقضاءِ الأجل ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ﴾؛ أي: فرَغَ من الأجل، وفي الخبر: «أنَّه قضى أكبرَ الأجلين، وتزوَّج بالصغرى من الثنتين»[1].

وفي بعض الأخبار: أنَّه تزوَّجَ بالكبرى[2].

---

(١) قال الحافظ في «الكاف الشاف» (ص: ١٢٦): «أخرجه الطبراني [في «الأوسط» (٥٤٣٠)] والبزار [في «مسنده» (٣٩٦٤)] من طريق عوبد بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر: أن النبي ﷺ سئل: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما»، قال: وسئل: أيَّ المرأتين تزوج؟ قال: «الصغرى منهما»، وعوبد ضعيف». ثم ذكر عن ابن مردويه نحوه من حديث أبي هريرة رفعه وقال: «وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف».
لكن قضاء أكثر الأجلين صح من حديث آخر، فقد روى البخاري (٢٦٨٤) عن سعيد بن جبير قال: سألني يهوديٌّ من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤٢) عن وهب.

ثـم؛ إنَّ موسـى اسـتأذنَ صهرَه فـي العودِ إلـى مصرَ لزيـارةِ أمِّه وأختِه فـأَذِنَ له فـ﴿سارَ بأهلِه﴾؛ أي: بامرأتِه وحدها، وقيل: بامرأتِه ومَنْ معَها.

وقيل: إنَّ شعيباً لَـمَّا استأجرَ موسى قال له: ادخلْ بيتَ كذا وخُذْ عصاً من العِصيِّ التي في البيتِ، فأخرجَ موسى عصاً كان أخرجَها آدمُ من الجنَّة وتوارثَها الأنبياءُ حتى صارَتْ إلى شعيبٍ، فأمرَه شعيبٌ أن يلقيَها مرَّاتٍ، كلُّ ذلك لا تقعُ بيدِه غيرَ تلك، فعلم شعيبٌ أنَّ له شأناً، فلمَّا أصبحَ قال له: سُقِ الأغنامَ إلى مَفرقِ الطَّريق، فخُذْ عن يمينِك وليس بها عشبٌ كثيرٌ، ولا تأخذْ عن يسارِكَ فإنَّ هناك عشباً كثيراً وتنيناً كبيرًا يقتلُ المواشي، فساقَ موسى المواشي إلى مفرقِ الطَّريقِ، فأخذت نحو اليسارِ، ولم يقدرْ موسى على ضبطِها، فنامَ موسى وخرجَ التِّنينُ فقامَتْ العصا وصارت شُعبتاها حديداً وحاربَتِ التِّنين حتى قتلتْهُ، وعادَتْ إلى موسى فلمَّا انتبَهَ موسى رأى العصا مَخضوبةً بالدَّمِ والتِّنينَ مقتولاً، فعاد إلى شعيب عشاءً، وكان شعيبٌ ضريرًا، فمسَّ الأغنامَ فإذا أثر الخَضْبِ بادٍ عليها، فسأله عن القصَّةِ فأخبرَه بها، ففرح شعيب فقال: كلُّ ما ولدَتْ هذه المواشي هذه السنةَ قالبَ لونٍ ـ أي: ذا لونين ـ فهو لكَ، فجاء جميعُ السِّخالِ تلك السنةَ ذاتَ لونين، فعلم شعيبٌ أنَّ لموسى عند الله مكانةً، فأقامَ عندَه إلى أن تمَّتْ له أربعونَ سنةً من عمرِه، ثم خرجَ و﴿ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ﴾؛ أي: الْبَثوا مكانَكم هذا، فإنِّي رأيْتُ ناراً، وكان قد أضلَّ الطَّريقَ فقال: لعلِّي أجدُ مَنْ يدلُّنا على الطَّريق، أو آتيكم بقطعةٍ من النَّار لتتدفَّؤوا بها، وكانت ليلة باردةً[1].

---

(١) ذكر نحو هذه القصة الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٣٨)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١١/ ٤٣١). ووقع في كلام المصنف هنا مسألتان لم يثبت فيهما شيء:

الأولى: كون الرجل المذكور في قصة موسى شعيباً فهذا قد اختلف فيه المفسرون ولم نجد فيه =

قرأ عاصمٌ: ﴿بِجَذْوَةٍ﴾ بفتح الجيم، وحمزةُ بضمِّها، والباقون بكسرِها[1].

= حديثاً مرفوعاً يثبت ذلك، وفي اختلافهم دليل على عدم الوجود.

والثانية: قصص العصا التي ذكرها، من محاربتها للتنين وكذلك وقوعها بيد موسى سبع مرات، فلم أجد فيها أيضًا ما يحتج به، وأغلب الظن أنها من الإسرائيليات.

بقي قصة الغنم التي وعد الشيخُ بها موسى، فهذا روي فيه حديث مرفوع عن عتبة السلمي وآخر موقوف عن أنس:

فالمرفوع رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٣٧٨)، والبزار (٢٢٤٦ ـ كشف)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٠ ـ ٢٩٧١)، والطبراني في «الكبير» ١٧/ (٣٣٢)، من حديث عتبة السلمي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن موسى لما أراد فراق شعيب عليه السلام قال لامرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما نتجت غنمه في ذلك العام من قالب لون واحد، فلما وردت الغنم الحوض وقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها بعصاه، فحملت فنتجت كلهن قالب لون واحد ليس فيهن فَشوش ولا ضَبوب ولا ثَعول ولا كَمْشة تفوت الكف» قال: «فإن فتحتم الشام وجدتم بقايا منها فاتخذوها وهي السامرية»، قال يحيى بن بكير: الفشوش التي ينفشُّ لبنها عن الحلب، والضبوب التي يضب ضرعها على اللبن عند الحلب، والكمشة التي تعتاص عند الحلب.

وقوله: «قالب لون»؛ أي: على غير ألوان أمهاتها كأن لونها قد انقلب. انظر: «النهاية» (مادة: قلب).

قال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: مدار هذا الحديث على عبد الله بن لَهِيعة المصري وفي حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ، والله أعلم.

قال: وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفاً عليه ما يقارب بعضه بإسناد جيد، قال: لما دعا نبيُّ الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد فرفع خيالاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة، فولدن كلهن بلقًا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن ذلك العام. رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

وهي قطعةٌ من نارٍ ليس فيها لهبٌ.

وقال الكلبيُّ: آتيكم بشعلةٍ مِن نارٍ.

***

(٣٠) - ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾؛ أي: لمَّا جاء موسى إلى النَّارِ ﴿نُودِىَ﴾؛ أي: سمع قولاً عند الطُّور في الوادي المقدس ﴿مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ﴾؛ أي: شقِّه، وكذلك شطُّه، والجمعُ: شُطآنٌ وشواطئُ ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾؛ أي: عن يمين موسى، وقيل: عن يمينِ الجبل.

﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ﴾ البقعةُ: القطعةُ من الأرض ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ سمَّاها مباركةً؛ لأنَّ الله تعالى كلَّم موسى فيها وبعثَه نبيًّا.

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ أي: من ناحيةِ الشجرة.

وقيل: كان موسى عند الشجرة؛ كما يقال: نُودي فلانٌ من الدَّار.

وقيل: كانت شجرةَ العُنَّاب.

وقيل: كانت شجرةَ العَوْسج.

***

(٣١) - ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ أي: تتحرَّك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ أي: حيَّةٌ خفيفةُ الحركةِ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾؛ أي: أعرضَ ذاهباً إلى ما وراءَه خوفاً ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: لم يرجعْ على عَقِبه إلى الشجرة، فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ إنما هو عصاً ولا يضرُّكَ.

وقيل: الجانُّ واحدُ الجنِّ؛ أي: كأنَّها الجنُّ في التمرُّد وفي ظهور العجائب منها.

***

(٣٢) - ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ مضى معناه، ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قيل: لمَّا صارَت العصا ثعباناً بسطَ موسى يدَه كالمتَّقي بيديه من الثُّعبانِ، فقيل له: اضمُم إليك ما بسطْتَ من يديك؛ فإنَّك آمنٌ من ضررِها.

وقيل: أي: اضمُم يدَكَ إلى صدرِكَ ليُذهبَ اللهُ ما في صدرِكَ من الخوفِ: إمَّا من آل فرعون، أو من الثعبان.

وقال مقاتلٌ: سألتني أعرابيَّةٌ شيئاً وأنا آكل، فملأْتُ الكفَّ، وأومأْتُ إليه، فقالت: هاهنا في رَهْبِي، تريد: في كمِّي[1].

فعلى هذا ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾؛ أي: من جانب الكُمِّ، وعلى هذا هو تتمَّة قوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ فهو اليدُ البيضاء.

قرئ: ﴿من الرُّهْبِ﴾ بضمِّ الرَّاء، وقرئ: ﴿من الرَّهَبِ﴾ بفتح الراء والهاء[2]، مثل السُّقْم والسَّقَم.

---

(١) ذكره عنه الراغب الأصفهاني في «المفردات» (ص: ٣٦٦)، وردَّ الزمخشري في «الكشاف» هذا التأويل، وعدَّه مِن بِدَعِ التفاسير.

(٢) قرأ حفص بفتح الرَّاء وإسكان الهاء، ونافع وابن كثير وأبو عَمْرو بفتحهما، والباقون بضم الرَّاء وإسكان الهاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

وقوله: ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ ﴾ يدلُّ على أنها اليدُ اليمني لأنَّ الجيبَ على اليسار، وقوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ يريد اليدينِ إن قلنا: أرادَ الأمنَ فزعِ الثُّعبان.

وقيل: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: تشمَّرْ واستعدَّ لتحمُّلِ أعباءِ النُّبوَّة.

﴿فَذَٰنِكَ﴾؛ أي: العصا واليدُ البيضاء ﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: حجَّتان على صدقِك.

قرئ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ بالتخفيف والتشديد(١).

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: أرسلناكَ إلى فرعونَ ﴿وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾.

* * *

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾ يعني: القبطيَّ، وطَبْعُ الإنسانِ الخوفُ، فخافَ موسى.

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾؛ أي: أحسنُ بياناً، وكان في لسانِ موسى رُتَّةٌ من قِبَلِ النَّار، ولهذا قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

والفصاحةُ: الظُّهورُ والصفاء، يقال: أَفْصَحَ الصُّبحُ؛ أي: بدا وظهرَ، وأَفْصَحَ اللَّبنُ؛ أي: زالت الرغوةُ عنه، فالكلامُ الفصيحُ هو الصَّافي من اللَّحنِ.

﴿رِدۡءٗا﴾: مُعِيناً، يقال: رَدَأْتُ الحائطَ؛ أي: دَعْمْتُه بخشبٍ أو لَبِنٍ لئلَّا يسقُطَ، وأَرْدَأْتُ الحائطَ بهذا المعنى أيضاً.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

وقرأ نافع: ﴿رِدًا﴾ بغيرِ همزٍ[1]، ويجوزُ أن يكونَ تخفيفاً للهمز وإلقاءً لحركتها على السَّاكن الذي قبلَها.

وقيل: أردأت الغنمُ على مئةٍ؛ أي: زادوا؛ أي: زيادةً معي.

﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بالرَّفع؛ أي: ردءاً مصدِّقاً لي، وقُرِئ بالجزم[2] على معنى الجزاء.

ثم؛ هذا التَّصديقُ من هارون، وقيل: لكي يصدِّقَني فرعون.

* * *

(٣٥) - ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ شَدُّ العَضُدِ بمعنى التَّقوية والإعانة.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: حجَّةً على النُّبوَّة.

وقيل: سُلطاناً على فرعون، والنُّبوَّةُ سلطانٌ ومُلْكٌ؛ لأنَّه تنفيذُ الحكمِ على الخلق.

ويقال: للزيت السَّليطُ؛ لأنَّه يُستضاءُ به.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي: بقتلٍ وإيذاءٍ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: سلطاناً بآياتنا فلا يصلون إليكما.

وقيل: أي: تمتنِعانِ منهم بآياتِنا.

وقيل: أي: أنتما ومَن اتَّبعكُما الغالبونَ بآياتِنا.

وعنى بالآياتِ: سائرَ معجزاتِه.

* * *

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٢) قرأ عاصم وحمزة برفع القاف، والباقون بجزمها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣٦) - ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: ظاهراتٍ.

قال الكلبيُّ: مكثَتِ امرأةُ موسى مكانَها لا تدري ما فعلَ موسى، حتى مَرَّ بها مارٌّ فأخبرَها أنَّه رأى موسى متوجِّهاً نحوَ مِصْرَ، فاحتملَتْ ورجعَتْ إلى أبيها(١)، والله أعلم.

وليس في القرآنِ آيةٌ: هل سارَ بها إلى مصرَ أم لا؟

وقيل: هذه الآياتُ: ما احتجَّ به موسى في إثبات التَّوحيدِ من الحججِ العقليَّةِ.

وقيل: هي معجزاتُه.

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾؛ أي: ما هذا الذي جئْتَنا به من العصا واليدِ البيضاءِ والحُججِ بالقولِ إلَّا سحرٌ مفترًى قد اختلقْتَه مِن قِبَلِ نفسِكَ ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا﴾ يعني: التدين، بمعنى: ما دعاهم إليه موسى.

***

(٣٧) - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾؛ أي: هو أعلمُ بالمحِقِّ منَّا؛ أي: إنَّه يعلمُ أنِّي المحِقُّ وأنتم المبطِلون، ففَرَضَ كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤] لا أنَّه كانَ ثَمَّ تردُّدٌ.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: دارُ الجزاءِ.

***

(١) لم أقف عليه.

(٣٨) - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾؛ أي: لا تنظروا إلى قولِ موسى، فلا أعلمُ لكم إلهاً غيري، وهذا اعترافٌ منه بالشَّكِّ.

* * *

(٣٩) - ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تعظَّموا عن الإيمانِ باللهِ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدوان، أي: لم يكن له حجَّةٌ تَدْفعُ بها ما جاءَ به موسى.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: إنَّما استكبروا لأنَّهم توهَّموا أنَّه لا معادَ.

قرئ: ﴿لا يَرْجِعونَ﴾ بنصبِ الياءِ، وقرئ بضمِّ الياء ونصبِ الجيم[١].

* * *

(٤٠) - ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: في البحرِ المالحِ، وهو بحرُ قُلْزُم.

وقال قتادةُ: هو بحرٌ مِن وراءِ مصرَ، غرَّقَهم اللهُ فيه[٢].

---

(١) قرأ بهذه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم، والباقون بفتح الياء وكسر الجيم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨٠)، وسمى البحر: إساف.

وقال مقاتل: يعني نهر النِّيلِ[1]. **والمشهورُ الأوَّلُ.**

﴿فَانظُرْ﴾ يا محمَّدُ ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: بعينِ قلبِك.

***

(٤١) ـ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: أئمَّةً في الشَّرِّ والضَّلالِ يُقتدَى بهم، فيكونُ لهم وزرُهم ووزرُ من اتَّبعَهم حتى يكونَ عقابُهم أكبرَ.

﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: إلى الشِّرْكِ الذي عاقبتُه النَّارُ.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا يُمنَعون من العقابِ.

***

(٤٢) ـ ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾؛ أي: ألزمْناهم اللَّعنَ؛ أي: التَّبعيدَ عن الخيرِ.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾؛ أي: من المُبعَدين، يُقال: قبحَه اللهُ؛ أي: نحَّاه من كلِّ خيرٍ، وقيل: من المهلكين.

وقيل: يَقْبُحُ خلقُهم يومَ القيامة وتَسودُّ وجوهُهم، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، وقال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقيل: تقبحُ أعمالُهم وأوصافُهم عند النَّاسِ، والمقبوحُ بمعنى المُقبَّح.

وقال أبو عَمرٍو: قَبَحْتُ وجهَهُ بالتخفيف بمعنى: قبَّحْتُ[2].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٤٦).

(٢) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٤/ ٤٧)، والواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٠٢)، عن أبي عبيد عن أبي عمرو.

وقيل: (وأَتْبَعناهم لعنةً)؛ أي: أمرنا العبادَ تلعنُهم فمَنْ ذكرَهم لعنَهم.

***

(٤٣ ـ ٤٥) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: سُنَّةُ اللهِ إرسالُ الرُّسلِ فليسَ محمَّدٌ بِدْعاً من الرُّسْلِ.

[﴿بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وقيل: من][1] بعد ما غرَّقْنا فرعونَ وقومَه وخسفْنا بقارونَ.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: آتيناه الكتابَ بصائرَ؛ أي: ليُبصِروا به ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: إنَّ التوراةَ هُدًى من الضَّلالة لِمَنْ عمِلَ بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لِمَن آمن بها.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: ما كنْتَ بجانبِ الجبلِ الغربيِّ إذ كلَّمنا موسى وقضَينا إليه أمرَنا؛ أي: فرَغْنا إليه ممَّا أردْنا تعريفَه.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: من الحاضرين.

وقال ابن عباس: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾؛ أي: أخبَرْنا أنَّ أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ خيرُ الأممِ[2].

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾؛ أي: خلقْنا أمماً من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٠٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾؛ أي: طالَتْ عليهم المهلةُ، فنسُوا عهدَ اللهِ وتركوا أمرَه، وظاهرُ هذا يُوجِبُ أن يكونَ جرى لنبيِّنا عليه السَّلامُ ذكرٌ في ذلك الوقتِ وأنَّ اللهَ سيبعثُه، ولكنْ طالَتِ المدَّةُ فنسيَ القومُ ذلكَ.

وقيل: آتينا موسى الكتابَ وأخذْنا على قومِه العهدَ، ثم تطاولَ العهدُ فكفروا، فأرسلناك مجدِّداً للدِّين وداعياً[1] للخَلْق.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾؛ أي: مقيماً في أهل مدينَ كمُقام موسى وشعيبٍ فيهم.

﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: تذكِّرُهم بالوعد والوعيد.

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: أرسلناكَ إلى أهلِ مكَّةَ وأنزلْنا إليك هذه الأخبارَ، ولولا ذلك لَـمَا علِمْتَها.

* * *

(٤٦) ـ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾؛ أي: كما لم تحضرْ جانبَ المكانِ الغربيِّ إذْ أرسلَ اللهُ موسى إلى فرعونَ، فكذلك لم تحضرْ جانبَ الطُّورِ ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى لَـمَّا أتى الميقاتَ مع السَّبعين.

﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: عرَّفناكَ ذلك رحمةً لك ولقومِكَ ليثبُتَ بذلك عندَهم أنَّكَ رسولُ اللهِ إليهم.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾؛ أي: تنذرَهم أنْ يَحِلَّ بهم ما حلَّ بالكفَّارِ من قبلُ.

---

(١) في (أ): «ودعا»، ولعل المثبت هو الصواب.

﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: أهلَ مكَّةَ والعرب، فإنَّهم ما كانوا أهلَ الكتاب.

والمنادَى على هذا موسى، والرَّحمةُ مخصوصةٌ بالنَّبيِّ عليه الصلاة والسلام؛ أي: رحمناكَ رحمةً بتعريفِكَ هذه القصَّة.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: إذ نادَينا أُمَّتَكَ ـ يا محمَّدُ ـ وهم في أصلابِ آبائِهم أنْ يؤمنوا بكَ إذا بُعِثْتَ[١]، وكان هذا رحمةً لكَ.

وفي روايةٍ عن ابن عباس: أن الله تعالى قالَ: يا أُمَّةَ أحمدَ، أجبْتُكم قبلَ أنْ تدعوني، وأعطيتُكم قبلَ أنْ تسألوني، وغفرْتُ لكم قبلَ أنْ تستغفروني، ورَحِمْتُكم قبلَ أنْ تستَرْحِموني[٢].

قال وهبٌ: وذلك أنَّ موسى لَمَّا ذكرَ اللهُ له فضلَ محمَّدٍ وأُمَّتِه قال: يا ربِّ، أَرِنيهِم، فقال اللهُ تعالى: إنَّكَ لن تدركَهم، وإنْ شئْتَ ناديْتُ أُمَّتَه فأسمعْتُكَ صوتَهم، قال: بلى يا ربِّ، فقال اللهُ: يا أُمَّةَ محمَّدٍ، فأجابوا من أصلاب آبائِهم، فقال: قد أجبْتُكم قبلَ أن تَدْعُوني[٣].

---

(١) بهذا اللفظ ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٠٨) عن مقاتل بن حيان، ورواه عنه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٤٨).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٠٨).

ورواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢١٩) عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير يرفعه، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٦٢) عن أبي زرعة موقوفاً.

ورواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٨) والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٣٥) عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً. قال الدارقطني في «العلل» (٨/ ٢٩١) عن الموقوف: «وهو أصح».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٢)، والواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٠٨).

ومعنى الآية على هذا: ما كنْتَ بجانبِ الطُّور إذ كلَّمنا موسى فناديْنا أمَّتَك وأخبرناه ما كتبْناه لكَ ولأمَّتِكَ من الرَّحمة إلى آخرِ الدُّنيا، ولكنْ فعلْنا ذلك رحمةً منَّا بكم.

***

(٤٧) - ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ بيَّنَ وجهَ الحكمةِ في إرسالِ محمَّدٍ ﷺ إلى الكفَّارِ في وقتِه.

وجواب (لولا) محذوف؛ أي: لولا أن يصيبَهم عذابٌ بسببِ معاصيهم المتقدِّمة فيقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لَمَا بعثْنا الرُّسْلَ، وإنَّما بعثْنا إزاحةً لعذرِ الكفَّارِ، وهذا قول مَن يقول: العقلُ يوجِبُ الإيمانَ والشُّكرَ لأنَّه قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وإنَّما يكون ما قدَّمَتْ أيديهم موجِباً للعقاب إذا تقرَّرَ الوجوب قبلَ بعثةِ الرُّسل، وإنَّما يكون ذلك بالعقل.

والصَّحيحُ أنَّ المحذوفَ: لولا كذا لَـما احتِيْجَ إلى تجديدِ الرُّسلِ؛ أي: هؤلاء الكفَّارُ غيرُ معذورين إذا بلغَتْهُم الشَّرائعُ الشَّائعةُ والدُّعاءُ إلى التَّوحيدِ، ولكنْ تطاولَ العَهْدُ، فلو عذَّبناهم فقد يقول قائل منهم: طال العهدُ بالرُّسُلِ، ويظنُّ أنَّ ذلك عذرٌ، ولا عذْرَ لهم بعدَ أنْ بلغَهم خبرُ الرُّسل، ولكن كمَّلْنا إزاحةَ العذرِ وأتممْنا إليه البيان، فبعثناكَ يا محمَّدُ إليهم، وقد حكَمَ اللهُ بأنَّه لا يعاقِبُ عبداً إلَّا بعدَ كمالِ البيانِ والحجَّةِ وبعثةِ الرُّسُلِ.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بما فعلوا من المعاصي وإنْ لم يكنْ بعضُها بالأيدي، وذلك أنَّ الغالبَ أنَّ الكسْبَ يقعُ باليدِ.

(٤٨) - ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ من العصا واليدِ البيضاء، وهلَّا أُعْطِيَ محمَّدٌ القرآنَ جملةً واحدةً.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ نزلَ هذا في المشركين؛ أي: إنَّهم بلَغَهم قبلَ محمَّدٍ أمرَ موسى فكفروا به، ولـمَّا أتاهم محمَّدٌ كفروا به و﴿قالُوا ساحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾؛ أي: موسى ومحمَّدٌ تعاوَنا.

وقرئ: ﴿سِحۡرَانِ﴾[1]؛ أي: القرآنُ والتَّوراةُ سِحرانَ تَظاهرا، فكيفَ يتعلَّلون الآنَ ويقولون: هلَّا كانَتْ آياتُه كآياتِ موسى، وكيف ينتظمُ هذا القولُ ممَّنْ كفرَ بموسى من قَبْلِ محمَّدٍ؟

قال الكلبيُّ: بعثَتْ قريشٌ إلى اليهودِ وسألوهم عن بَعْثِ محمَّدٍ وشأنِه فقالوا: إنَّا نجدُه في التَّوراةِ بنعتِه وصفتِه، فلَمَّا رجعَ الجواب إليهم ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[2].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: مِن موسى ومحمَّدٍ وجميعِ الأنبياءِ.

والمراد: لو أوتي محمَّدٌ ما تمنَّوا واقترحوا من العصا واليدِ البيضاءِ وفَلْقِ البَحْرِ ونزولِ القرآنِ عليه جُملةً واحدةً حتى يكون مثلَ موسى = فهم كافرون بموسى وسيكفرون بمحمَّدٍ، وبيَّنَ أنَّ قولَهم تَعَلُّلٌ.

وقال قومٌ: إنَّ اليهود علَّموا المشركين وقالوا: قولوا لمحمَّدٍ: لولا أوتيْتَ مثلَ

---

(١) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي، والباقون: ﴿ساحران﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٢).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٦)، والواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤١١).

ما أُوتيَ موسى فإنَّه أوتي التَّوراة بدفعةٍ واحدةٍ، فهذا الاحتجاجُ واردٌ على اليهود؛ أي: أولم يكفرْ هؤلاء اليهودُ بما أوتي موسى حتى قالوا في موسى وهارون: إنَّهما ساحران وإنَّا كافرون بكلٍّ واحدٍ منهما.

أو قالوا: إنَّ التَّوراةَ والقرآنَ سحرانَ تظاهرا على إفتانِ الناس وخَدْعهم، وقيل على هذا: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾؛ أي: الإنجيل والقرآن.

ولَـمَّا كفروا بموسى كفروا بعيسى ومحمَّدٍ وقالوا: إنَّهما ساحران؛ أي: فكيفَ يحتجُّون في تركِ الإيمان بالقرآنِ بأنَّه لم ينزلْ جُملةً واحدةً كما أُنزِلَتِ التَّوراةُ جملةً واحدةً، وهذا القولُ يوجب أنْ يُقال: كان في اليهود مَن كفرَ بموسى وهارونَ في ابتداءِ ما بُعِثَ إليهم موسى، فيكون الكلامُ احتجاجاً عليهم، وهذا يدلُّ على أنَّ المحذوفَ في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾: لَـمَا جدَّدنا بعثةَ الرُّسل؛ لأنَّ اليهودَ اعترفوا بالنُّبوَّاتِ، ولكنَّهم حرَّفوا وغيَّروا وبدَّلوا واستحقُّوا العقاب، فقال: قد أكملْنا إزاحةَ عذرِهم ببعثةِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام.

وقيل: هو إشارةٌ إلى مَن كفرَ بموسى من القوم الذين بُعِثَ إليهم، وهم القِبْطُ وفرعونُ؛ أي: نزولُ التَّوراةِ جملةً واحدةً على موسى لم يَمنعْ كثيراً من قومِه من الكفرِ به، فلو نزلَ القرآنُ جملةً واحدةً على محمَّدٍ لكَفَر مشركو[1] العربِ ككُفْرِ أولئك.

وقيل: أي: أولم يكفرْ جميعُ اليهودِ بما أوتي موسى في التَّوراةِ من ذِكْرِ المسيحِ ومحمَّدٍ وذِكْرِ الإنجيلِ والقرآنِ، فرأوا عيسى ومحمَّداً ساحرَيْنِ والكتابَيْنِ سِحْرَيْنِ.

* * *

---

(١) في (أ): «فكفر مشركي»، والمثبت أنسب بالسياق.

(٤٩) ـ ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾؛ أي: قلْ يا محمَّد: إذ كفرتُم معاشرَ المشركين بهذين الكتابَين فأتوا بكتابٍ من عندِ الله هو أهدى منهما ليكونَ ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في أنَّهما سِحرٌ، أو: فأتوا بكتابٍ هو أهدى من كتابي موسى ومحمَّدٍ عليهما السلام.

* * *

(٥٠) ـ ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي: إن لم يجيبوك إلى الإيمانِ بهذين الكتابَيْنِ مع عجزِهم عن الإتيانِ بأهدى منهما ﴿فَٱعْلَمْ﴾ أنَّه ليس بهم طلبُ الحقِّ، وإنَّما يتَّبعون ما تَهْوى نفوسُهم وتميلُ إليه طباعُهم من الانهماكِ في المعاصي على توهُّمِ أنَّه لا جزاءَ.

وقيل: أي: فإنْ لم يستجيبوا لك ولم يأتوا بما هو أهدى من التَّوراة والإنجيلِ فاعلمْ أنَّه لا حُجَّةَ لهم، وإنَّما هم أتباعٌ للهوى.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى ﴾؛ أي: لا أحدَ أضَلُّ منه.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾؛ أي: تابعنا لهم القولَ، فبعثْنا رسولاً بعدَ رسولٍ.

وقيل: أنزلْنا القرآنَ يتبَعُ بعضُه بعضاً، ردًّا على مَنْ قال: هلَّا أوتي محمَّدٌ القرآنَ جملةً واحدةً.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: ليتذكَّروا، لا لأنَّا ننتفِعُ بإيمانِهم.

* * *

(٥٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخبرَ أنَّ قوماً ممَّنْ أوتوا الكتابَ من بني إسرائيل من قبلِ القرآنِ يؤمنون بالقرآنِ كعبدِ اللهِ بنِ سلامٍ وسلمانَ، ويدخلُ فيه مَن أسلمَ من علماء النَّصارى، وهم أربعون رجلاً قدِموا مع جعفرِ بنِ أبي طالبٍ المدينةَ؛ اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانيةُ نفرٍ أَقْبلوا من الشَّام، وكانوا أئمةَ النَّصارى.

﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبلِ القرآنِ.

وقيل: مِن قبلِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام.

﴿هُم بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآنِ، أو بمحمَّدٍ عليه الصلاة والسلام.

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ أي: إذا قرئ عليهم القرآن قالوا: صدَّقنا بما فيه ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ إذ كان ذكْرُ النبيِّ ﷺ مكتوباً عندهم في التَّوراة والإنجيل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: من قبلِ نزولِ القرآنِ، أو: من قبلِ بعثةِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ ﴿مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: موحِّدين، أو مؤمنين بأنَّه سيُبْعَثُ محمَّدٌ وينزلُ عليه القرآنُ.

(٥٤) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ أي: لهم أجرٌ على إيمانِهم بالكتابِ الأوَّلِ، وآخرُ على إيمانِهم بالكتاب الثَّاني.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ أي: بما ثَبَتوا على الحقِّ ولم يحرِّفوا.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ قيل: لَمَّا تبعوا النبيَّ عليه السَّلامُ شتمَهم الكفَّارُ فصفَحوا.

وقيل: يدفعون بشهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ الشِّركَ، ويدفعونَ بالطَّاعاتِ ما تقدَّمَ لهم من السَّيئاتِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: في طاعة الله.

***

(٥٥) ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ﴾؛ أي: سمعوا ما قالَ لهم المشركونَ من الأذى والشَّتمِ ﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ أي: لم يشتغلوا به ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾؛ أي: لنا دينُنا ولكم دينكم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: أمَنَةٌ لكم من أنْ تَسمعوا منَّا جوابَ الشَّتم، وليس يريد التَّحيَّة، بل أرادَ بينَنا وبينكم المتاركةُ، وكان هذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ.

﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: لا نريدُ أنْ نكونَ من أهل السَّفَهِ والجهل.

وقيل: أي: لا نبتغي دينَ الجاهلين، ولا نبتغي مجاورةَ الجاهلين، أو: لا يجبُ الخوضُ معكم فيما تخوضونَ فيه.

(٥٦) ـ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ **أجمع المفسِّرون على أنَّه نزل في أبي طالب**، وروى البخاريُّ ومسلمٌ بإسنادِهما عن الزُّهريِّ، عن سعيدِ بنِ المسيِّب، عن أبيه: أنَّه لـمَّا حضرَتْ أبا طالبٍ الوفاةَ جاءَه رسولُ اللهِ ﷺ وعنده أبو جهلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أميَّةَ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «يا عمِّ، قلْ لا إلهَ إلَّا اللهُ كلمةً أُحاجُّ لكَ بها عندَ اللهِ»، فقال أبو جهلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أميَّةَ: أترغَبُ عن ملَّةِ عبدِ المطَّلبِ، فلم يزَلْ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُها عليه ويُعاوِدانِه بتلك المقالةِ، حتى قالَ أبو طالبٍ آخرَ ما كلَّمَهم به: على مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ، وأبى أن يقولَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال عليه السَّلامُ: «واللهِ لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عنكَ» فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[١].

وروي أنَّه قال أبو طالب: لولا أنْ تُعَيِّرَني نساءُ قريشٍ ويقلْنَ: حمَلَه على ذلك الجزَعُ لأقررْتُ بها عينَيْكَ، فنزل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[٢].

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾؛ أي: بمَن سَبَق علمُه بأنه يهتدي.

***

(٥٧) ـ ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ نزلَتْ الآيةُ في الحارثِ بنِ عثمانَ بنِ نوفلِ بنِ عبدِ مَنافٍ؛ قال للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: إنَّا لَنعلَمُ أنَّ الذي

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥/ ٤٢)، والبزار في «مسنده» (٩٧٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وعند مسلم: «تعيرني قريش» بدل: «تعيرني نساء قريش».

تقولُ حَقٌّ، ولكنْ يمنعُنا من ذلك أنَّ العربَ تتخطَّفُنا من أرضِنا لاجتماعِهم على خلافِنا، ولا طاقةَ لنا بهم(١).

وكان هذا من تعلُّلاتِهم.

والتَّخطُّفُ: الانتزاعُ بسرعةٍ.

ويرجعُ قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ إلى القومِ الذين ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: ٤٦].

﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾؛ أي: الهدى الذي معَكَ، وهو القرآنُ، وإضمارُ (الذي) في مثلِ هذا الموضعِ مشهورٌ، تقول: أنتَ الرَّجلُ فعلْتَ كذا، أي: أنت الذي فعلْتَ كذا.

وقيل: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: هذا الذي تسمِّيه الهدى، تحاربُنا العربُ ولم نُطِقْهم.

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: ألم نجعلْ مكانَهم في حرَمٍ ممنوعٍ من الأعداءِ، فمَن فعلَ هذا بهم في كفرِهم فهو قادرٌ على أنْ يمنعَ الكفَّارَ عنهم في إسلامِهم، وقد رزقناهم ولم يكن لهم زرعٌ وضَرْعٌ، حتى حُمِلَ إليهم كلُّ الثَّمراتِ، فنحن قادرون على أنْ نرزقَهم في إسلامِهم.

﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: مأموناً فيه كقوله: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١].

وقال البصريُّون: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ ذا أمنٍ؛ كقولهم: موضعٌ آهلٌ؛ أي: ذو أهل.

وكانت العربُ أصحابَ غاراتٍ، وأهلُ مكَّةَ آمنون من الإغارةِ والسَّبي والقَتل،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٨٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه مختصراً النسائي في «الكبرى» (١١٣٢١) بلفظ: «الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾».

وكانوا يذهبون حيث شاؤوا، وإذا قالَ الواحدُ منهم: «أنا من أهل الحرَمِ» لم يتعرَّضْ له أحدٌ.

وقيل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾؛ أي: ألم نمكِّنْهم ونجعلِ الحرمَ مكاناً لهم.

و﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يُجمَعُ إليه، يُقال: جبَى الماءَ في الحوضِ؛ أي: جمعَه فيه، والجابيةُ: الحوضُ العظيم.

قرئ ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ بالياء والتاء[1]؛ لأنَّ تأنيثَ (الثَّمرات) جمعٌ، فليس بتأنيثٍ حقيقيٍّ.

يعني: يُحمَل إلى الحرم ثمراتُ كلِّ شيء من مصرَ والشَّامِ واليمنِ والعراق.

﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: رزقناهم رزقاً من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: هم غافلونَ عن الاستدلالِ، وأنَّ مَنْ رزقَهم وأمَّنَهم فيما مضى يرزقُهم لو أسلموا.

وفي التفسير: يأكلونَ رِزقي ويعبدونَ [غيري][2].

* * *

(٥٨) - ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ بيَّنَ لِمَنْ توهَّمَ أنَّه لو آمنَ لقاتلَه العربُ: أنَّ الخوفَ في تركِ الإيمانِ أكثرُ، فكم مِن قومٍ كفروا ثم حلَّ بهم البَوارُ.

---

(١) قرأ نافع بالتاء، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٢).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٥١)، وما بين معكوفتين منه.

والبطر: الحيرةُ من كثرةِ النِّعَمِ[١].

وقال الزَّجَّاجُ: البطرُ: الطُّغيانُ عندَ النِّعمةِ ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ نُصبَتْ بإسقاطِ (في)؛ أي: بَطِرَتْ في معيشتِها[٢].

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لم تُسْكَنْ بعدَ هلاكِ أهلِها إلَّا قليلاً من المساكن، فالاستثناءُ يرجعُ إلى المساكنِ؛ أي: أنَّ بعضَها سُكِنَ، قاله الفراء[٣].

واعتُرِضَ عليه فقيل: لو كان الاستثناءُ يرجِعُ إلى المساكن لقالَ: إلَّا قليلٌ؛ لأنَّكَ تقولُ: اليومَ لم تضربوا إلا قليلٌ، برفعٍ إذا كان المضروبُ قليلاً، فإذا نصبْتَ كان القليلُ صفةً للضَّرب؛ أي: لم تضربوا إلَّا ضرباً قليلاً، والمعنى إذاً: فتلْكَ مساكنُهم لم يسكُنْها إلَّا المسافرُ ومَنْ يمرُّ بالطَّريقِ يوماً وبعضَ يومٍ؛ أي: لم تُسكَنْ بعدَهم إلَّا سكوناً قليلاً.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾؛ أي: لِمَا خلَّفوا بعدَ هلاكِهم، ولمَّا كان الله تعالى هو الباقي وما سِواه فانٍ قيل: إنَّه يرِثُ كلَّ شيءٍ؛ أي: إليه يصيرُ كلُّ شيءٍ فتنقطِعُ دعاوي الخلق؛ أي: إنِّي قادرٌ أنْ أفعلَ بكم ما فعلْتُ بهذه القرى.

***

(٥٩) - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾؛ أي: القرى الكافرِ أهلُها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ يعني بأمِّها: مكَّةَ، والمراد بالقرى: التي حولَ مكَّةَ.

(١) بعدها في (أ) كلمتين غير مفهومتين، ولا يضر حذفهما بالسياق.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٥٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٩).

وقيل: أي: ما كانَ اللهُ ليهلِكَ القرى حتى يبعثَ في أعظمِها رسولاً ينذرُهم، وخصَّ الأعظمَ ببعثةِ الرَّسولِ فيها لأنَّ الرَّسولَ يُبعَثُ إلى الأشرافِ، وهم يسكنونَ المدائنَ، وهي أمُّ ما حولَها.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾؛ أي: يخبرُهم أنَّ العذابَ ينزلُ بهم إنْ لم يؤمنوا.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾؛ أي: لم أُهلِكْهم إلَّا وقد استحقُّوا الإهلاكَ لإصرارِهم على الكفْرِ بعدَ الإعذارِ إليهم.

***

(٦٠) ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ أي: من الدنيا ونعيمِها ﴿فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾؛ أي: تتمتَّعون بها مدَّةَ حياتِكم، فإمَّا أنْ تزولوا عنها أو تزولَ عنكم.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من الثَّواب للمؤمنين ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ أي: أفضلُ وأدومُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ الباقي أفضلُ من الفاني.

قرئ بالتاء والياء(١).

***

(٦١) ـ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ﴾ يعني الجنَّةَ وما فيها من الثَّواب، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهي تزولُ وتَفنى.

---

(١) قرأ أبو عمرو بالياء وذكر ابن مجاهد أنه قرأ بالياء والتاء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٢).

﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾؛ أي: مصيبُه ومدركُه؛ أي: فهو لاقٍ ما وُعِدَ وصائرٌ إليه.

﴿مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: تمتيعَ الحياة الدُّنيا بالمالِ والولد ﴿ثُمَّ هُوَ﴾؛ أي: ثم هذا المتمتِّعُ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ النَّار.

قال ابن عبَّاسٍ: نزلَت في حمزةَ وأبي جهلٍ[1].

وقيل: في محمَّدٍ ﷺ وأبي جهلٍ[2].

وقيل: في عمَّارٍ والوليدِ بنِ المغيرةِ[3].

والصَّحيحُ أنَّه نزلَتْ في المؤمن والكافر على التَّعميم.

وقيل: من ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾؛ أي: يُحضَرُ للحساب والسُّؤال.

***

(٦٢ - ٦٣) - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: ينادي اللهُ يومَ القيامةِ هؤلاء المشركين فيقول: أين شركائي بزعمِكم لِيَنصُروكم ويَشفعوا لكم؟

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: حقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ، قيل: هم الشَّياطين، وقيل: رؤوسُ الضَّلالةِ:

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾؛ أي: كفَّارُ بني آدمَ على القولِ الأوَّلِ، أو الأتباعُ على الثَّاني.

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٨/ ٢٨٨)، وأعله بنصر بن حماد أبي الحارث الوراق، وقال عنه: «ومع ضعفه يكتب حديثه». وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٣٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٩٤) عن مجاهد.

(٣) ذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» (٢٠/ ٤٨٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٩) عن السدي.

﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: سوَّلنا لهم الغيَّ والضَّلالَ وزيَّنَّا لهم ذلك ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾؛ أي: أضلَلْناهم كما ضلَلْنا.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ والشَّياطينُ يتبرؤون ممَّن أطاعَهم، والرُّؤساءُ يتبرَّؤون ممَّن قَبِل منهم.

* * *

(٦٤) ـ ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾؛ أي: استغيثوا بآلهتِكم التي عبدْتُموها لينصُروكم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾؛ أي: فلَم يُجيبوهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ: لو كانوا يهتدون لَـمَا رأوا العذابَ في الآخرةِ وما اتَّبعوهم.

وقيل: لَمَّا دَعوا معبودَهم فلم ينفعْهم ذلك رأوا العذابَ.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لو كانت رؤيتُهم إيَّاه في وقتٍ كان ينفعُهم الاهتداءُ.

* * *

(٦٥ ـ ٦٦) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: يقولُ اللهُ لهم: ما كان جوابُكم لمن أُرسِلَ إليكم من النَّبيِّين.

﴿فَعَمِيَتْ﴾؛ أي: خفيَتْ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ الحُجَجُ، و﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾: الأخبارُ، سمَّى حُججَهم أنباءً لأنَّها أخبارٌ يُخبَر بها.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: لا يسأَلُ بعضُهم بعضاً عن الحُجَجِ؛ لأنَّ اللهَ أدحضَ حججَهم.

وقال ابن عبَّاسٍ: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: لا ينطقون. [يعني]: بحجَّةٍ[1].

وقال: لا يتساءلونَ في تلكَ السَّاعةِ ولا يدرونَ ما يجيبون به من هَولِ تلك السَّاعةِ، ثم يجيبونَ بعد ذلك؛ كما أخبرَ اللهُ تعالى عن قولِهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقيل: لا يَفرغُ بعضُهم إلى سؤالِ بعضٍ لشغلِهم بأنفسِهم.

* * *

(٦٧) - ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾؛ أي: من الشِّركِ ﴿وَءَامَنَ﴾؛ أي: صدَّقَ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: أدَّى الفرائضَ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾؛ أي: الفائزينَ بالسَّعادةِ.

* * *

(٦٨ - ٧٠) - ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ هذا هو متَّصلٌ بذكْرِ الشُّركاءِ الذين عبدوهم؛ أي: الاختيارُ إلى اللهِ لا إلى المشركين ليختاروا مَن يريدونَه لعبادتِهم؛ لأنَّ الشَّفيعَ إلى اللهِ مَنْ يختارُه اللهُ لا مَنْ يختارُه المستشفِعُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٣٧)، وما بين معكوفتين منه.

وقيل: أي: يختارُ للنُّبوَّةِ مَنْ أرادَ، لا مَن أرادَ الخلْقُ، وهو جوابُ قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقيل: هو جوابُ اليهودِ إذ قالوا: لو كانَ الرَّسولُ إلى محمَّدٍ غيرَ جبريلَ لآمنَّا به.

و﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ الاسمُ من الاختيار، وهو اسمٌ للمختارِ، يُقال: محمَّدٌ ﷺ خِيرَةُ اللهِ من خلقِه؛ أي: مختارُ اللهِ، و﴿مَا﴾ للنَّفي؛ أي: ليسَ الاختيارُ إلى الخلقِ.

وقيل: هي بمعنى الذي؛ أي: ويختارُ الذي لهم فيه الخيرة.

والصَّحيح الأوَّلُ؛ لإطباقِهم على الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: ما تُسِرُّ قلوبُهم من الكفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من النِّفاق.

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا إلهَ غيرُه ردًّا على المشركين ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: يحمدُه أولياؤُه في الدُّنيا وفي الجنَّة ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾؛ أي: الفَصْلُ بينَ العبادِ، وقد حكَمَ بالرَّحمةِ لأهلِ الطَّاعةِ وبالشَّقاءِ لأهلِ المعصية.

***

(٧١) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ بيَّن بهذا أسبابَ المعيشةِ ليقوموا بشكرِ نِعمِه؛ أي: إنْ جعلَ اللهُ عليكم اللَّيلَ دائماً فهلْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بنهارٍ؟

فإذا أقررْتُم بأنَّه لا يقدرُ عليه غيرُه فلِمَ تشركون به؟

والسَّرمدُ: الدَّائمُ.

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؛ أي: بنورٍ تطلبونَ فيه المعيشةَ.

وقيل: بنهارٍ تتصرَّفونَ فيه في معايشِكُم وتصلحُ فيه الثِّمارُ والنَّباتُ.

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ أي: سماعَ فهمٍ وقَبولٍ.

* * *

(٧٢) - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾؛ أي: دائماً ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تستقرُّون فيه من النَّصَبِ، ولا ليلَ في الجنَّةِ إذ لا تعبَ فيها فلا حاجةَ إلى الإجمامِ.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم فيه من الخطأ في عبادةِ غيرِ اللهِ.

* * *

(٧٣) - ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: ليكونَ النَّهارُ معاشاً واللَّيلُ سَكَناً.

* * *

(٧٤) - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾؛ أي: أين مَنْ عبدْتُم دوني

لِمَ لا ينصرونكم؟ وأعاد هذا لاختلافِ الحالَيْنِ؛ يُنادَونَ مرَّةً فيُقال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ فيدعُونَ الأصنامَ فلا يستجيبونَ، فيظهرُ خزيُهم، ثم يُنادَونَ مرَّةً أخرى فيسكتون، وهو توبيخٌ وزيادةُ خزيٍ.

❊ ❊ ❊

(٧٥) ـ ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: أخرجْنا من كلِّ أمَّةٍ شهيداً؛ أي: شاهداً يشهدُ عليها، وشهيدُ كلِّ أمَّةٍ: رسولُها الذي يَشهدُ عليها.

والشَّهيدُ: الحاضرُ؛ أي: أحضرنا رسولَهم المبعوثَ إليهم.

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: حجَّتكم فيما كنتُم تفعلونَ.

﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾؛ أي: فبُهتوا ولم يجدوا عُذراً، وعلِموا أنَّ الحقَّ ما دعاهم الرُّسلُ إليه.

وقيل: الحقُّ: الإلهيَّة؛ أي: علموا أنَّها لله وحدَه.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: ذهبَ باطلاً ذهاباً لا يظهرُ له أثرٌ كما يَضِلُّ الماءُ في اللَّبنِ.

وقيل: ضلَّ عنهم أصنامُهم فلم ينتفعوا بهم ولا بعبادتِهم وافترائِهم ودعواهم أنَّ مع اللهِ آلهةً.

❊ ❊ ❊

(٧٦) ـ ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لـمَّا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٦٠] بيَّنَ أنَّ قارونَ اغترَّ بالدُّنيا، ولكنَّ الدُّنيا لا تَعصمُ من عذابِ اللهِ، كما لم تَعصمْ فرعونَ وقارونَ؛ أي: لستم أيُّها المشركون بأكثرَ عدداً من فرعون، ولا بأكثرَ عُدَّةً ومالاً من قارون، فلم ينفعْ فرعونَ جنودُه وأموالُه، ولم ينفعْ قارونَ قرابتُه من موسى ولا كنوزُه.

وكان قارونُ ابنَ عمِّ موسى لحًّا(١).

وقيل: كان ابنَ خالتِه.

وقال محمَّدُ بنُ إسحاقَ: كان قارونُ عمَّ موسى لأبيه وأمِّه(٢).

[وقيل: كان قارونُ عاملاً لفرعونَ على بني إسرائيلَ، فكان](٣) يَبْغي عليهم ويَظْلِمُهم.

وقيل: كان بَغْيُه أنَّه قال: إذا كانت النُّبوَّةُ لموسى، والـمَذبحُ والقُربانُ في يد هارون، فما لي؟

وقيل: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: زاد عليهم في الثياب شبراً كثيراً(٤).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾؛ أي: الذي إنَّ مفاتِحَه، والمفاتحُ في قولٍ: الخزائنُ، وهو جمعُ مِفْتحٍ، وهو الخزانةُ، وفي قولٍ: المفاتحُ: جمعُ مفتاحٍ، وهو ما يُفتَحُ به البابُ.

وقيل: كانت مفاتحُه جلودَ الإبلِ.

---

(١) أي: لاصق النسب. انظر: «الصحاح» (مادة: لحح).

(٢) رواه عنه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٤٣).

(٣) ما بين معكوفتين من (م).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣١١) عن شهر بن حوشب.

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ النَّوءُ: النُّهوضُ بجهدٍ ومشقَّةٍ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: كان يحملُ مفاتيحَه أربعونَ رجلاً أقوى ما يكونُ من الرِّجال(١).

وقال مجاهد: العصبَةُ ما بين العشرةِ إلى خمسةَ عشر(٢).

وقيل: من عشرةٍ إلى أربعين.

والعُصْبةُ في اللُّغة: الجماعةُ يَتعصَّبُ بعضُهم لبعضٍ.

وقيل: كان إذا ركبَ قارونُ حُمِلَت المفاتيحُ على سبعينَ بغلاً.

يُقال: نُؤْتُ بالحمْلِ أنوءُ به؛ أي: نهضْتُ به، وناءَ بي الحمْلُ؛ أي: أَثْقَلني.

والباء في ﴿بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ للتَّعدية؛ أي: لتنيءُ العُصبةَ؛ أي: تُثْقِلُهم وتُميلُهم من ثقلِها.

وقال الزجَّاجُ: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ للتَّعدية؛ أي: لتُثْقِلُ العُصْبةَ(٣)، وهذا هو الذي قدَّمْناه.

وقال أبو عبيدةَ: هذا من المقلوبِ، وإنَّما العصبةُ تنوءُ بالمفاتِح(٤).

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾؛ أي: بني إسرائيل.

وقيل: أرادَ بالقومِ موسى، فهو جمعٌ أريدَ به واحدٌ، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وإنما هو نُعيم بنُ مسعودٍ.

﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾؛ أي: لا تأشَرْ ولا تَبْطَرْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾؛ أي: البَطرِيْنَ الذين

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٥١) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «تفسير مجاهد» (ص: ٥٣١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣١٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٥٥).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١١٠).

لا يشكرونَ على ما أعطاهم؛ أي: لا تفرَحْ بكثرةِ متاعِ الدُّنيا، فإنَّ حقَّ المؤمنِ أنْ يَصرف الدُّنيا فيما يَنفعُه في الآخرة.

***

(٧٧) - ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ أي: اطلُبْ فيما أعطاكَ اللهُ من الدُّنيا الجنَّةَ؛ أي: اكتسِبْ به الطَّاعاتِ وأنفِقْه في رضا اللهِ، لا في التَّجبُّر والبغي.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: اعملْ فيها لآخرتِكَ؛ أي: لا تترُكْ أنْ تعملَ في دنياك لآخرتِكَ.

وقيل: أي: لا تترُكْ أن تطلبَ حظَّكَ من الرِّزقِ الحلالِ.

وقيل: أي: خُذْ قدْرَ الكفايةِ وتصدَّقْ بالباقي، فالنَّصيبُ قَدْرُ الكفايةِ هاهنا.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: أطعِ اللهَ واعبدْهُ كما أنعمَ عليك، والمعنى: أحسنِ العطيَّةَ والصَّدقةَ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تعمل بالمعاصي.

***

(٧٨) - ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾؛ أي: قالَ قارونُ: إنَّما أُعطيتُ هذا المالَ لفضلي على غيري بالعلم بالتَّوراة، وكان من علمائِهم، وكانَ أحدُ العلماءِ السَّبعين الذين اختارهم موسى للميقات.

وقيل: أي: إنَّما آتانيهِ اللهُ لعلمِه بفضلي ورضاه عنِّي، فقوله: ﴿عِندِىٓ﴾ معناه: أنَّ عندي أنَّ اللهَ آتاني هذه الكنوزَ على علمٍ منه باستحقاقي إيَّاها بفضلٍ فيَّ.

وقيل: أوتيتُه على علمٍ عندي بوجوهِ المكاسبِ والتِّجاراتِ، ولم يعلم أنَّ اللهَ لو لم يسهِّلْ له اكتسابَها لَـمَا اجتمعَتْ عندَه.

وقال ابن عباس: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِىٓ﴾ بصَنْعةِ الذَّهب[1]. وأشار إلى علم الكيمياء، وأنكره الزجَّاجُ، وقال: لا أصلَ للكيمياءِ[2].

﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾؛ أي: أهلَكَ بالعذابِ أقواماً كذَّبوا الرُّسل ولم ينفعْهم قوَّتُهم ومالُهم، كنمروذ بنِ كنعانَ الجبَّارِ وغيره، فلو كان المالُ يدلُّ على فضلٍ فلِمَ أهلكَهم مع كثرةِ أموالِهم؟

وقيل: القوَّةُ الآلاتُ، والجَمْعُ: الأعوانُ والأنصارُ.

﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ أي: لا تَسألُ الملائكةُ غداً عن المجرمين لأنَّهم يُعرَفون بسيماهم، فإنَّهم يُحشرون سودَ الوجوه زُرْقَ العيون.

وقيل: لا يُسألُ المجرمون عن ذنوبِهم لظهورِها وكثرتِها، بل يدخلون النَّارَ بلا حسابٍ، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] هو سؤالُ التَّوبيخِ، والمعنى: لا يُسألون ليُعرَفَ ذلك من قِبلِهم، وإنْ سُئلوا للتَّوبيخ.

وقيل: لا يُسألُ مجرمو هذه الأمَّة عن ذنوبِ الأمم الخاليةِ الذين عُذِّبوا في الدُّنيا.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٦٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٥٦)، وليس المراد بالكيمياء العلم المتعارف عليه اليوم، وإنما المراد بها هنا ادعاءُ القدرة على صنع الذهب والفضة من غير معادنها. انظر: «الفهرست» لابن النديم (ص: ٤٣١).

وقيل: أَهلَكَ مَن أَهلَكَ من القرونِ عن علمٍ منه بذنوبِهم، فلم يَحتجْ إلى مساءلتِهم عن ذنوبِهم.

***

(٧٩) - ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾؛ أي: على بني إسرائيلَ فيما رأوه زينةً من متاعِ الدُّنيا من الثِّياب والدَّوابِّ والتَّجمُّل.

قال ابن عبَّاسٍ: على البِغالِ الشُّهْبِ حلَّ عليها الكواعبُ من الجواري، وألبسهنَّ ثيابَ الحمرةِ(١).

وقيل: خرج على بغلةٍ شهباءَ، عليها سُرجٌ من ذهبٍ عليه الأرجوان، ومعه أربعةُ آلافِ فارسٍ، وعلى دوابِّهم الأرجوان، وثلاثُ مئةِ جاريةٍ عليهنَّ الحليُّ والثِّيابُ الحُمْرُ على البغالِ الشُّهْبِ.

والأُرجوان في اللُّغةِ: صِبْغٌ أحمرُ.

وقال الكلبيُّ: خرج في صبغٍ أحمرَ كان الله أنزلَه على موسى من الجنَّة، فسرَقه منه قارونُ(٢).

وقال الحسن: ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾؛ أي: في ثيابٍ صفرٍ(٣).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٦٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٦٤)، والقرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٣١٧)، وفيهما: «ثوب أخضر» بدل: «صبغ أحمر».

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٦٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠١٣)، بلفظ: «في ثياب حمر وصفر».

وقيل: ثيابٌ معصفرةٌ في سبعين ألفاً عليهم المُعصفرات.

فلمَّا نظرَ مؤمنو ذلك الوقتِ في تلك الزِّينةِ والجَمالِ تمنَّوا مثلَ ذلكَ، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: نصيبٍ وافرٍ من الدُّنيا.

وقيل: إنَّما قالَ هذا قومٌ لم يرغبوا في الآخرةِ، وهم الكفَّارُ.

* * *

(٨٠) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أحبارُ بني إسرائيلَ للَّذين تمنَّوا مُلْكَ قارونَ: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ وأطاعَ ممَّا أوتي قارونَ ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ أي: لا يُؤتَى الأعمالَ الصَّالحةَ، أو لا يُعطَى الجنَّةَ في الآخرةِ ﴿إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ على طاعةِ اللهِ.

والتَّلقيةُ: إلقاءُ الشَّيءِ في القلبِ، فإذا تمكَّنَ الشَّيءُ المُلقَى من القلبِ فقد تلقَّاه صاحبُه.

وقيل: يُلْقَّى بمعنى: يُلقَّنُ، مثلَ: تَظَنَّى وتَظَنَّن.

* * *

(٨١) - ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: فغيَّبناهُ في الأرضِ يغوصُ فيها ويسوخُ هو وأهلُه ودارُه، فهو يتجلْجلُ فيها إلى يومِ القيامةِ، كلَّ يومٍ بقَدْرِ قامةِ رجلٍ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: خُسِفَ به إلى الأرضِ السُّفلى[1].

وقال مقاتل: قالَتْ بنو إسرائيل: إنَّما أهلَكَ موسى قارونَ ليأخُذَ مالَه ودارَه، فخسَفَ اللهُ بعدَ قارونَ بثلاثةِ أيَّامٍ بمالِه وبدارِه[2].

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾؛ أي: من جماعةٍ ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾؛ أي: لم يمنعْهُ مانعٌ من أمرِ اللهِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾؛ أي: من الممتنعين ممَّا نزلَ به من الخَسْفِ.

والمنتصِرُ: مَن بَلَغ النُّصرةَ.

وقيل: إنَّ موسى علَّمَ الكيمياءَ ثلاثةً: يوشع بن النُّون، وكالوب، وقارون، فخدعَهما قارونُ وحصَّلَ علمَهما مع علمِه، وكان يعملُ الكيمياء، وكَثُرَ مالُه لذلك.

وقيل: إنه دعا امرأةً مُومسةً من بني إسرائيل ووعدَها أن يعطيَها مالاً عظيماً، قيل: ملأ طستاً من ذهبٍ دنانيرَ، لتقولَ وموسى على السرير بين بني إسرائيل: إنَّ موسى دعاني البارحةَ ليفسُقَ بي، فوعدَتْه المرأةُ ذلك، فلمَّا أصبحَتْ أدركَتْها رحمةٌ من اللهِ، فقامَتْ وبنو إسرائيل حضورٌ فقالت: يا موسى، احذرْ، هذا قارون فإنَّه دعاني أمسِ. . ، وذكرَتِ القصَّة، فوضعَ موسى وجهَه على الأرض وبكى، فأوحَى اللهُ إليه: أنِّي جعلْتُ الأرضَ لكَ مطيعةً في قارون، فقال موسى: يا أرضُ خذيْهِ.

وقيل: إنَّ موسى قال للنَّاس: إنَّ اللهَ بعَثَني إلى قارونَ كما بعَثَني إلى فرعونَ، فمَنْ كان معه فلْيَعْتزِلْني، ففارقوا قارونَ ولم يبقَ معه إلَّا شرذمةٌ، فقال موسى: يا أرضُ خذيهم، فأخذَتْهم إلى كعبهم، فقال قارون: يا موسى أنشدُكَ اللهَ والرَّحم، فقال: يا أرضُ خذيهم، فأخذَتْهم إلى أفخاذِهم، ثم إلى صدورِهم، ثم إلى جباهِهم،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٣٧) بلفظ: «الأرض السابعة»، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٠) بلفظ: «أرض السفلى السابعة»، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٥٣٦).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٥٧).

ثم ابْتَلَعتْهم الأرض، فأوحى اللهُ إلى موسى: يا موسى، استغاثَ بكَ قارونُ مراراً وأنت تقول: يا أرضُ خذيهِ، وأنا أقول: يا عبدُ نادِني، وعزَّتي لو استغاثَ بي مرَّةٍ لأغثْتُه[1].

وقيل: إنَّ قارونَ ينسفِلُ كلَّ يومٍ بقدْرِ قامةٍ حتَّى إذا بلغَ قعْرَ الأرضِ السُّفلى نفخَ إسرافيلُ في الصُّور.

***

(٨٢) ـ ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾؛ أي: صاروا يتندَّمون على ذلك التَّمنِّي و﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ قال الخليل: (وَيْ) مفصولةٌ من (كأنَّ)[2]؛ أي: إن القوم قالوا متندِّمين: (وي)، فإنَّ كلَّ مَن ندمَ قال: (وي).

وقال الفرَّاءُ: أي: ويكَ، ومعناه: ويلَكَ، فحذف اللَّام وفتح (أنَّ) بفعلٍ مضمَرٍ؛ أي: ويلَكَ اعلم أنَّ الله. وهذا قول قطربٍ[3].

ثم زيَّفه الفرَّاءُ وقال: لم نَرَ العربَ تُضمِر الظَّنَّ والعلمَ حين يكونُ العملُ لهما، فلا يقالُ: يا هذا أنَّك قائم؛ أي: أعلمُ أنَّك قائمٌ، بلى حذفُ اللَّام كثيرٌ حين يكونُ ويْكَ بمعنى: ويلَكَ.

---

(١) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٤٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٣٦) وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٦) عزوه لابن المنذر وابن مردويه.

(٢) انظر: «العين» (٨/ ٤٤٣)، و«الكتاب» لسيبويه (٢/ ١٥٤).

(٣) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٥١٣).

قال: وقال قومٌ (وي) منفصلةٌ، يقول الرَّجلُ لغيره: وي أمَا تراني بينَ يديْكَ.

قال: وكُتِبَ في المصحف: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ موصولةً لكثرةِ جريانِها في الكلَّام، كما كتبوا: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ [طه: ٩٤] موصولةً، وهو كقول الرجلِ: أمَا تَرَى إلى صُنعِ الله[1].

ولهذا قال قتادةُ: معناه: ألم تَعْلَم[2].

وقال ابنُ عباسٍ: أي: ذلك أنَّ الله. وهذا قولُ الكسائيِّ[3].

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والرَّحمة ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسفَ بقارونَ.

قرئ: ﴿لَخَسَفَ﴾ بالفتح، و: ﴿لخُسِفَ﴾ بضمِّ الخاء وكسرِ السين[4].

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: ألم تَرَ، أو: أما ترى.

ولم يُرِدْ بقوله: (أصبح) إصباحاً بعد اللَّيل، بل هو بمعنى: صار.

والأمس: عبارةٌ عمَّا مضى من الوقت المتقدِّم.

* * *

(٨٣) - ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أخبر بقصَّة فرعون وقارون، ثم أنَّه لا حظَّ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٣٦)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٤٠).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٦٩)، وعبارته: «وقال الكسائي: ﴿ويكأن﴾ في التأويل: ذلك أن الله، وهو مأخوذ من قول ابن عباس؛ فإنه قال في هذه الآية: قالوا: ذلك أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر».

(٤) بفتح الخاء والسين رواية حفص عن عاصم، والباقون بضم الخاء وكسر السين. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٢).

في الآخرة لمن سارَ بسيرتهما؛ أي: تلك الجنَّةُ ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾؛ أي: تعظُّماً في الأرض عن الإيمان.

﴿وَلَا فَسَادًا﴾ هو الدعاءُ إلى عبادةِ غيرِ الله.

وقيل: العملُ بالمعاصي.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾؛ أي: العاقبةُ الجميلةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقيل: لفظُ الدار الآخرة يشمل الثَّواب والعقاب، والمراد: إنَّما ينتفِعُ بتلك الدَّار مَن اتَّقى، ومَن لم يتَّقِ فتلكَ الدَّارُ عليه لا له؛ لأنَّها تضرُّه ولا تنفعُه.

* * *

(٨٤) ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: من جاءَ بالتَّوحيد والطَّاعة فله من الثَّواب ما هو أفضلُ من عملِه.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ فأشركَ وعصى ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يعاقبُ بما يليقُ بعملِه.

* * *

(٨٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ختمَ السُّورةَ ببشارةِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ بردِّهِ إلى مكَّةَ قاهراً لأعدائِه.

وقيل: هو بشارةٌ له بالجنَّة.

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ﴾؛ أي: أنزله.

قال مقاتل: لمَّا نزل النبيُّ عليه السَّلامُ بالجُحْفةِ في مسيرِهم من مكَّةَ إلى المدينةِ عامَ الهجرة اشتاقَ إلى مكَّة وذكر مولدَه، فنزلَتْ هذه الآية[1].

ومَعادُ الرَّجلِ: بلدُه، لأنَّه يغيبُ في أسفارِه ثم يعودُ إليه.

وقيل: أي: إلى عادَتِكَ حيثُ وُلِدْتَ[2].

وقيل: المعادُ هاهنا: القيامة، يقال: «اذكُرِ المعادَ»؛ أي: مبعثَك في الآخرة.

وقيل: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: إلى الموت.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: إنَّ الذي فرضَ عليك القرآنَ وما كنْتَ ترجو أنْ يُلقَى إليك الكتابُ لرادُّك.

﴿قُل﴾؛ أي: قلْ لكفَّار مكَّة إذا قالوا: إنَّكَ في ضلالٍ: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: مَن جاءَ بالهدى فهو ينصرُه، ﴿و﴾هو أعلمُ بـ﴿مَن هو في ضلالٍ﴾ فهو يقهرُه.

ومَن حمل المعادَ على الجنَّة قال: كان فيها إذ كانَ آدمُ في الجنَّة؛ لأنه كان في صلْبِه وقد دخلَها ليلةَ المعراج أيضاً.

وقيل: هو كما يُقال: عاد إلى كذا؛ أي: صار إليه، وإن كان ذلك ابتداء.

***

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٥٩).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٣٥١)، وزاد: وذلك أن المعاد في هذا الموضع: المَفْعَلُ من العادة، ليس من العود، إلا أن يوجِّه موجِّه تأويل قوله: ﴿لَرَآدُّكَ﴾: لَمُصَيِّرُك، فيتوجه حينئذ قوله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى معنى العود، ويكون تأويله: إن الذي فرض عليك القرآن لمصيِّرك إلى أن تعود إلى مكة مفتوحة لك.

(٨٦ ـ ٨٨) ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾؛ أي: ما علمْتَ أنَّا نرسلُكَ إلى الخلق، ولكنَّا أنعَمْنا عليكَ، فلا يحملنَّكَ شوقُكَ إلى وطنك على المداهَنة في الدِّين، وهذا حين دُعي إلى أنْ يرجعَ إلى دينِ آبائِه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ قال الكسائيُّ: هو استثناء منقطعٌ بمعنى: لكن.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: القرآن ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى التوحيد.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: لا تعبدْ معه غيرَه، فإنَّه ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: إلا هو، وقيل: أي: إلا ما أُريْدَ به وجهُه.

وقيل: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: إلا ما ملكَه، من الوجاهة، والملِكُ قد يسمَّى وجهاً، فإن الملكَ من أوجَهِ النَّاسِ.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الآخرة؛ أي: الفصلُ بينَ الحقِّ، وخُصَّ بالآخرة لأنَّ الدعاوي تنقطعُ.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تُردُّون في الآخرة.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

تفسير سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ قال الشَّعبيُّ: نزلَ مُفتتَحُ هذه السُّورة في أناسٍ كانوا بمكَّة من المسلمين، فكتب إليهم أصحابُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ من المدينةِ أنَّه لا يُقبَلُ منكم إقرارٌ ولا إسلامٌ حتى تهاجروا، فخرجوا، فأتبعهم المشركون فآذوهم فنزلت فيهم: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آيةُ كذا، فقالوا: نخرجُ فإنِ اتَّبعنا أحدٌ قاتلناه، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم مَن قُتل ومنهم مَن نجا، ونزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ [النحل: ١١٠][(١)].

وقال مقاتل: نزلت في مِهْجَعٍ مولى عمر بن الخطَّاب، كان أوَّلَ قتيلٍ من المسلمينَ يوم بدرٍ، رماه عامر بن الحضرميِّ بسهمٍ فقتلَه، فقال النبي عليه السَّلامُ يومَئذٍ: «سيِّدُ الشُّهداءِ مِهْجَعٌ، وهو أوَّلُ مَنْ يُدعَى إلى باب الجنَّةِ من هذه الأمَّة»، فجَزع عليه أبواه وامرأتُه فنزل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾[(٢)].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٣٩)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣١)، عن الشعبي.

(٢) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١١) عن مقاتل، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٧): «وسنده إلى مقاتل في أول كتابه». وهو بنحوه في «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٧٢). =

وقال ابن عبَّاس: يريد بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾: الذين آمنوا بمكَّة كسلمةَ بنِ هشامٍ وعيَّاش بنِ أبي ربيعةَ والوليدِ بنِ الوليدِ وعمَّارِ بنِ ياسرٍ وياسرٍ أبيه وسميَّةَ أمِّه وعدَّةٍ من بني مخزومَ وغيرِهم، خرجوا من مكَّةَ ليهاجروا، فردَّهُم المشركون وآذوهم(١).

﴿الٓمٓ﴾ اسم السُّورة تُعرَفُ به.

وقيل: هي قَسَمٌ.

وقال ابن عباس: ﴿الٓمٓ﴾ أنا اللهُ أعلمُ(٢).

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ اللفظُ استفهامٌ، ومعناه: التَّقريرُ والتَّوبيخ؛ أي: أظَنَّ الذين جَزِعوا من أذى المشركين أن نَقْنعَ منهم بأن يقولوا: «إنَّا مؤمنون» ولا يُمتَحنوا بما يتبيَّنُ به حقيقةُ إيمانِهم.

﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ نصبٌ بنزعِ الخافض؛ أي: أَحسِبوا أنْ يُتركوا لأنْ يقولوا، أو: بأنْ يقولوا.

وقيل: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ أحَسِبوا ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ أي: لا يُفتَنون في إيمانِهم وأموالِهم وأنفسِهم، ويدخلُ في هذه الفتنةِ الأمراضُ وشدائدُ الدُّنيا، وكلُّ ذلك فتنةٌ.

***

= وروى ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٩١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٧٧١)، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: «أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر». ورواه ابن سعد أيضًا عن الزهري.

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٨٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٩).

(٣) ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: ابتلَيْنا الماضينَ، كالخليل أُلقِيَ في النَّارِ، وكقومٍ نُشِروا بالمَنَاشير في دينِ الله فلم يَرْجِعوا عنه[١].

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾؛ أي: فلَيَرَينَّ اللهُ الذين صدَقوا في إيمانِهم.

قال الزجَّاج: ليَعْلَمنَّ صدقَ الصَّادقِ بوقوعِ صدقِه منه، وقد علِمَ الصَّادقَ من الكاذبِ قبلَ أن يخلقَهما، ولكنَّ القَصْدَ قصدُ وقوعِ العلم بما يجازِي عليه، وإنَّما يَعلمُ صِدْقَ الصَّادقِ واقعاً كائناً عند وقوعِه، وقبل ذلك علمَ أنَّه سيقع[٢].

* * *

(٤) ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: الشِّركَ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: يريد الوليدَ بنَ المغيرةِ، وأبا جهلٍ، والأسودَ، والعاصَ بنَ هشامٍ، وعتبةَ وشيبةَ، والوليدَ بن عتبةَ، وعقبةَ بنَ أبي مُعيطٍ وحنظلةَ بنَ أبي سفيانَ، والعاصَ بنَ وائلٍ[٣].

---

(١) روى البخاري (٣٦١٢) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بردةً له في ظلِّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٦٠).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٩٢) عن ابن عباس: «يعني الوليد بن المغيرة، وأبا جهل، =

﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾؛ أي: يَفوتونا ويُعجِزونا، بل نؤاخذُهم بما يفعلون، وقد قُتلوا يومَ بدرٍ.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساءَ حكماً يحكمونَ، فـ﴿مَا﴾ نصبٌ، ويجوز: ساءَ الحكمُ حكمُهم، فـ﴿مَا﴾ رفعٌ.

***

(٥) ـ ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾؛ أي: مَنْ كان يؤمِّلُ أنْ يلقى اللهَ فيثيبَه على عملِه فإنَّ الأجلَ الذي وقَّتَه اللهُ للثَّواب والعقاب لآتٍ لا محالةَ، وهذا رجاءُ اللقاءِ الذي هو الرُّؤية.

وقيل: هو رجاءُ ثوابِ اللهِ.

وقيل: الرَّجاءُ: الخوفُ هاهنا؛ أي: من كانَ يخافُ عقابَ اللهِ فإنَّ أجلَ اللهِ لآتٍ.

قيل: الأجلُ هاهنا: الموتُ، كما قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

وقيل: الأجلُ يومُ القيامةِ.

***

(٦) ـ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾؛ أي: ومَن جاهد في الدِّين وصبرَ على أذى الكفَّار فإنَّما يسعَى لنفسِه؛ فإنَّ الثَّواب له، ولا يرجعُ إلى اللهِ نفعٌ من ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عن أعمالهم.

= والأسود، والعاص بن هشام، وغيرهم من قبائل شتى».

وعن مقاتل: «نزلت في بني عبد شمس؛ منهم شيبة وعتبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل».

(٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾؛ أي: ما عملوا في الشِّركِ ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾؛ أي: بإحسانِهم وطاعتِهم وبما يُصيبُهم من أذى المشركين.

ثمَّ؛ يحتملُ: ما عملوا من معصيةٍ في الشِّركِ تُكفَّر عنهم، وما عملوا من حسنةٍ في الإسلام نثيبُهم.

ويحتملُ نكفِّر عنهم سيِّئاتِهم في الكفرِ والإسلامِ، ونثيبُهم على إحسانِهم في الكفرِ والإسلامِ.

***

(٨) ـ ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ بيَّنَ أنَّ ممَّا يُفتَنُ به الإنسانُ في إيمانِه: أن يأمرَه أبواه بالمعصيةِ والشِّركِ، وأنهَّ لا يجبُ طاعتُهما في ذلك، وإنْ كان يجب رعايةُ حقِّهما(١).

نزلَتْ في سعدِ بن أبي وقَّاصٍ؛ فإنَّه لَمَّا أسلمَ قالت له أمُّه حَمْنةُ: يا سعدُ، بلغني أنَّكَ صَبَوْتَ، فواللهِ لا يُظِلُّني سقْفُ بيتٍ من الضِّحِّ(٢) والرِّيح، ولا آكلُ ولا أشربُ، حتَّى تكفُرَ بمحمَّدٍ، وترجعَ إلى ما كنْتَ عليه، فأبى سعدٌ، وصبرَتْ هي ثلاثةَ أيَّامٍ لم

---

(١) في (أ): «قليلهما»، ولعل المثبت هو الصواب. وفي «لطائف الإشارات» لوالد المصنف (٣/ ١٩٦): قوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ [الأحقاف: ١٥] أَمَرَ الإنسانَ برعاية حقِّ والديه على الاحترام، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام.

(٢) الضِّحُّ: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض. انظر: «النهاية» (مادة: ضحح).

تأكلْ ولم تشربْ ولم تستظلَّ بظلٍّ، فأتى سعدٌ النَّبيَّ عليه السَّلامُ وشكا ذلك إليه، فنزلَتْ هذه الآيةُ والتي في لقمان والأحقاف[1].

وروي عن سعد أنه قال: كنْتُ بَرًّا بأمِّي فأسلمْتُ، فقالت: لتدعَنَّ دينَكَ أو لا آكلُ ولا أشربُ حتَّى أموتَ وتعيَّرَ بي ويُقال: يا قاتلَ أمِّهِ، وبقيَتْ يوماً ثمَّ يوماً واشتَدَّ جَهدُها، فقلْتُ: يا أُمَّه، لو كانَتْ لك مئةُ نفسٍ فخرجَتْ نفساً نفساً ما تركْتُ ديني هذا، فإنْ شئْتِ فكلي وإنْ شئْتِ فلا تأكلي، فلمَّا رأَتْ ذلك أكلَتْ، ونزلَتْ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾[2].

وقال ابن عباس: نزلت في عيَّاش بنِ أبي ربيعةَ أخي أبي جهلٍ لأمِّه[3].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾؛ أي: وصَّيناهُ بحُسْنٍ، تقول: وصَّيتُه خيراً؛ أي: بخيرٍ.

وقيل: أي: أَلْزَمناه حُسناً. [أو: وصيناه أنِ افْعَلْ حُسْناً][4].

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٦) دون عزو، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٠) وعزاه للمفسرين. ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٦٣) عن قتادة، وأصله عند مسلم (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة، عقب الحديث (٢٤١٢)، والترمذي (٣١٨٩)، من حديث سعد رضي الله عنه. والتي في لقمان الآيتان (١٤ ـ ١٥)، والتي في الأحقاف الآية (١٥).

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤١)، وعزاه ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٣٧) إلى الطبراني في «كتاب العِشْرة».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٤٩٦) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ما بين معكوفتين من (م). وفصَّله القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٤٠) فقال: وقال أهل الكوفة: تقديره: ووصينا الإنسان أن يفعل حُسناً، فيقدَّر له فعلٌ، وقال الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكونا ... ومن أبي دهماء إذ يوصينا

خيراً بها كأنما خافونا

﴿وَوَصَّيْنَا﴾ يعني: في الكتب المتقدِّمة، وفيما تقدَّم من أهل الكتاب.

وقيل: أي: أَمرْنا بكذا، فيكون إشارةً إلى الأمرِ النَّاجز.

* * *

(٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: مع الصَّالحينَ الجنَّة.

وقيل: نجعلُهم في زمرةِ الصَّالحين، ثم معلومٌ أنَّ الصَّالحين يكونونَ في الجنَّة.

* * *

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ بيَّنَ أنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يؤمِنُ، ثم يخافُ أذى الكفَّارِ، فيميلُ إليهم ويتركُ الإسلام، فهذا من الفِتنِ في الدِّين.

وقيل: نزلَتْ في قومٍ من المنافقين كانوا إذا أُوذوا صَرخوا بالشِّرْكِ[١].

وقيل: نزلَتْ في المؤمنين الذين أخرجَهم المشركون إلى بدرٍ فارتدُّوا، وفيهم نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧][٢].

= أي: يوصينا أن نفعل بها خيراً؛ كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾؛ أي: يمسح مسحاً.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٦٥) عن مجاهد والضحاك، ورواه عن مجاهد ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٤٠)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٨٥)، عن عكرمة.

وقيل: نزلَتْ في عيَّاشِ بنِ أبي ربيعةَ، أسلمَ وهاجرَ ثم أوذيَ وضُرِبَ وارتدَّ، وإنَّما عذَّبه أبو جهلٍ والحارثُ وكانا إخوتَه لأمِّه.

قال ابن عبَّاسٍ: ثم أسلمَ عيَّاش بعدَ ذلكَ بدهرٍ وحَسُنَ إسلامُه[1].

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: عذابَ النَّاسِ في الدُّنيا كعذابِ اللهِ في الآخرةِ.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ أي: إنْ غنِمَ المسلمون قالوا: إنَّا معَكم فأَشْرِكونا فيما أصبْتُم.

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ﴾؛ أي: لا يخفَى عليه صدقُ الصَّادقين.

قولُه تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: ليعلمَنَّ الذي عَلِم أنَّه يؤمنُ مؤمناً.

و(مَن) يصلحُ للواحد والجمع، فلهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾، ثم قال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾.

***

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾؛ أي: اتَّبعونا في الشِّركِ؛ فإنْ كان لكم حسابٌ وسؤالٌ فهو علينا، ونحن نتحملُ عنكم، وهذا لشدَّةِ إنكارِهم للبعث.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٢٢) عن الكلبي ومقاتل، وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٧٥). وذكره دون نسبة السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٦٢٦). وقد تقدمت القصة مطولة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢].

﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ جزمٌ على الأمر ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ أي: لا يخفِّفُ عنهم شيءٌ من العذاب ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: يَعِدونهم الباطلَ.

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾؛ أي: أوزارَهم التي عَمِلوها ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾؛ أي: لقولهم للمؤمنين: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾.

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هذا سؤالُ توبيخٍ لا سؤالُ استعلامٍ.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ أي: يَكْذِبونَ؛ من قولِهم: «لا بَعْثَ، وإن كانَ فنحنُ نتحمَّلُ وزرَكم»؛ لأنَّ أحداً لا يحمِلُ إثمَ أحدٍ عنه، بلى مَنْ أضلَّ غيرَه فله إثمُ ضلالِه وإثمُ إضلالِه للغير، وفي قدرةِ اللهِ أنْ يحمِّلَ إثمَ زيدٍ على عَمرٍو ويعاقبَهُ على ذلك، على معنى التَّخفيفِ عن زيدٍ وتضعيفِ العقابِ على عَمرو، وله أن يفعل ما يريدُ.

***

(١٤ ـ ١٥) ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾؛ أي: ابتُلي النَّبيُّون قبلَكَ بالكفَّار ثم صبروا، وكان الظَّفر لهم ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ﴾؛ أي: أقامَ فيهم ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾.

قال ابنُ عبَّاسٍ: بُعِثَ نوحٌ لأربعينَ سنةً، فلبثَ في قومِه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، وعاشَ بعد الغرق ستِّين سنةً، حتى كَثُرَ النَّاسُ وفَشَوا[1].

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦١٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤١)، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤٠٠٥) مرفوعاً، ولم يتكلم عليه بشيء، وكذلك سكت عنه الذهبي.

وقال ابنُ وهب: عُمِّرَ نوحٌ ألفاً وأربعَ مئةِ سنةٍ(١).

وقيل: بل كان جميعُ عمرِه ألفَ سنةٍ إلَّا خمسين سنةً.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾؛ أي: طفا الماءُ فوقَ كلِّ شيءٍ فغرِقوا.

وقيل: الماءُ الطَّائفُ بهم من كلِّ وجهٍ.

﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾؛ أي: مشركون.

قولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ أي: أنجيناهم من الغرقِ، وأصحابُ السَّفينة هم الذين ركبوها مع نوحٍ.

﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً﴾؛ أي: تركْنا السَّفينةَ آيةً لِـمَنْ بعدَ نوحٍ.

وقيل: جعَلْنا أولئك الكفَّارَ وجعلنا قصَّتَهم آيةً يَعتبرُ بها الخلْقُ.

* * *

(١٦ ـ ١٨) ـ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وأرسلْنا إبراهيمَ.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وحِّدوه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: من عبادة الأوثان ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إن تأمَّلْتم حتى تعلَموا.

وقيل: إن علِمْتُم أنَّ اللهَ ربُّكم.

---

(١) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (١١/ ٤٨٩).

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾؛ أي: أنتم إنْ تركْتُم عبادةَ الرَّحمن إنَّما تعبدون أصناماً، والأوثانُ بمعنى الأصنام.

وقال أبو عبيدة: الصَّنمُ: ما يُتَّخذُ من فضَّةٍ أو ذهبٍ أو نحاسٍ، والوثَنُ: ما يُتَّخذُ من جَصٍّ أو حجارةٍ[1].

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾؛ أي: تفتعِلون كذباً؛ يعني: تسميتَهم هذه الأوثانَ بأسماءَ مثلَ: الَّلات والعُزَّى.

وقيل: أي: تنحتون كذباً؛ أي: تعملونَ أصناماً وتزعمونَ أنَّها آلهةٌ فإنَّما تنحِتون كذباً؛ أي: شيئاً تكذِبون فيه، وتقول: خلقتُ الأديمَ؛ أي: قدَّرْتُه لأَقْطعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ﴾ أن يَرْزُقوكم ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؛ أي: اصْرِفوا رغبَتَكم في أرزاقِكم إلى اللهِ، فإيَّاه فاسألوا ووحِّدوه دون غيره.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ هذا، من قولِ إبراهيمَ لقومِه؛ أي: التَّكذيبُ عادةُ الكفَّارِ، وليس عليَّ إلَّا التَّبليغُ.

***

(١٩) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني: كفَّارَ عصْرِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، قرئ بالياء والتاء[2].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١١٤) واقتصر على قوله: «الوثن من حجارة أو من جصٍّ»، وفي «البسيط» للواحدي (١٧/ ٥٠٥) عن أبي عبيدة قال: «الأوثان: كل ما كان منحوتا من خشب أو حجر، والصنم: ما كان من ذهب أو فضة أو نحاس».

(٢) بالتاء قراءة أبي بكر وحمزة والكسائي، والباقون بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٧٣). وذكر في «السبعة» (ص: ٤٩٨) خلافاً عن أبي بكر فيها.

﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ عندَ الميلادِ، وعندَ بُدُوِّ الثِّمارِ والنَّباتِ، وإذ علموا أنَّ اللهَ هو المبدِئُ إمَّا باعترافِهم وإمَّا بالدَّليل الواضحِ فهو قادرٌ على الإعادة، ومَنْ أنكرَ الابتداءَ فلو فكَّر أدنى فكرٍ لعَلِمَ أنَّ ابتداءَ المخلوقاتِ من اللهِ تعالى.

* * *

(٢٠ ـ ٢٣) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ﴾ اللهُ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ على كثرتِهم وتفاوُتِ هيئتِهم، واختلافِ ألسنَتِهم وألوانِهم وطبائِقِهم؛ لتَعْلموا بذلك كمالَ قدرةِ الله تعالى.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾؛ أي: ينشِئُها نشأةً ثانية.

قولُه تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: لا وجوبَ لأحدٍ عليه.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؛ أي: تُردُّون في دارِ الجزاءِ، وتنقطعُ دعاوى الخَلْق.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: فائتينَ متخلِّصين من الحساب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: ما أنتم بمعجزين في الأرضِ، ولا مَن في السَّماء بمعجِزٍ.

وقال قُطربٌ: ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لو كنتُم فيها، كما تقول: لا يفوتُني فلانٌ بالبصرةِ ولا هاهنا؛ يعني: لا يفوتني بالبصرةِ لو صارَ إليها[1].

وقيل: لا تستطيعون هرباً في الأرضِ ولا في السَّماءِ.

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣١)، والواحدي في «البسيط» (١٧/ ٥١٠).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾؛ أي: بالقرآنِ، أو بما نصبَ من الأدلَّةِ والأعلامِ.

﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾؛ أي: مـن الجنَّـة، ونَسَـب اليـأسَ إليهـم، والمعنى: أُويسوا.

***

(٢٤) ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ عادَ الكلامُ إلى قصَّةِ إبراهيمَ لَـمَّا أقامَ عليهم الحُجَّةَ أعرضوا عن الحُجَّةِ، وكان جوابُهم ﴿أَن قَالُوا ﴾: اقتلوا إبراهيمَ ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، ثم اتَّفقوا على تحريقِه، ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ ﴾ أذى ﴿النَّارِ ﴾؛ أي: ففعلوا فأنجاهُ اللهُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾؛ أي: في إنجاءِ اللهِ إبراهيمَ من النَّار العظيمةِ حتَّى لم تحرقْهُ بعدَما أُلقي فيها ﴿لَآيَاتٍ ﴾.

***

(٢٥) ـ ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ قرئ: ﴿مودَّةُ﴾ بالرفع ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالخفض[1]؛ أي: ما اتَّخذْتُموه مودَّةُ بينِكم، فقوله: ﴿مودَّةُ﴾ خبرُ (إنَّ)، و(ما) بمعنى الذي؛ أي: هو سببُ مودَّتِكم.

وقيل: أي: إنَّ الذين اتَّخذتموهم ذوو مودَّةِ بينِكم، فأُضمر المضافُ.

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

وقيل: المضمَر «هو»، وقوله: ﴿مودةُ بينِكم﴾ خبرٌ عنه، والجملةُ خبرُ (إنَّ) أي: إنَّ الذين اتخذتُموهم أوثاناً هو مودَّةُ بينِكم، أو: تلك مودَّةُ بينِكم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: اجتماعُكم وألفتُكم في الأوثانِ مودَّةُ بينِكم في الحياة الدنيا.

وقيل: إنَّ الذين تعبدون من دون الله أوثاناً، ينقطع الكلام هاهنا ثم يقول: ﴿مودةُ بينِكم في الحياة الدنيا﴾ فـ﴿مودةُ﴾ رفعٌ بالابتداء، وخبرُه في الظرف؛ أي: مودةُ بينِكم كائنةٌ في الدُّنيا لا في الآخرة.

وقُرئ (مودَّةٌ) بالرَّفع والتَّنوين (بينكم) نصباً على الظرف[1]، يخرجُ هذا على الوجهَيْن الأوَّلين.

وقرأ حمزة: ﴿مَّوَدَّةَ﴾ بالنَّصب من غير تنوينٍ ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالخفض[2]، فجعلَ (ما) مع (إنَّ) كافَّةً، ولم يجعلْها بمعنى (الذي)، ونصبَ ﴿مَّوَدَّةَ﴾ على أنه مفعولٌ له؛ أي: إنَّما اتخذْتُم الأوثانَ للمودَّة، ثم أضافَها إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾ كما أضاف مَنْ رفعَ.

وقرأ نافعٌ: ﴿مودةً﴾ بالنَّصب والتنوين ﴿بينكم﴾ بالنصب[3]، فلم يُضف المودَّةَ إلى ﴿بينكم﴾؛ أي: جعلْتُم الأوثانَ تتحابُّون عليها وعلى عبادتِها.

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: المودَّةُ بينَ رؤساءِ الكفرِ وأتباعِهم إنَّما هي في الدُّنيا، ثم يتبرَّأ بعضُهم من بعض، كما قال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

---

(١) رواية عن عاصم ذكرها ابن مجاهد فقال: وروى الأعشى عَن أَبي بكر عَن عَاصِم: (مَوَدَّةٌ) رفعاً منوناً (بَيْنَكُم) نصباً. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨ ـ ٤٩٩).

(٢) قرأ بها حمزة وحفص عن عاصم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٣) قرأ بها نافع وابن عامر وعاصم من رواية أبي بكر. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هو خطابٌ لعبدَةِ الأصنام؛ الرُّؤساءُ منهم والأتباعُ.

وقيل: يدخل فيه الأوثان؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

* * *

(٢٦) ـ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾؛ أي: صدَّقَ بإبراهيمَ لوطٌ، وهو أوَّلُ مَنْ آمنَ به حين رأى النَّارَ لم تحرقْهُ، ومعنى آمن له؛ أي: آمَن لأجلِه ولأجلِ ما أتى به من البرهان.

﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾؛ أي: قال لوطٌ: إنِّي مهاجرٌ إلى ربِّي.

وقيل: قال إبراهيم.

ثم إنَّهما هاجرا من أرض السَّوادِ إلى الشَّام؛ أي: إني تاركٌ وطني ومفارقٌ مَنْ خالَفني من أهلي تقرُّباً بذلك إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال الكلبيُّ: هاجرَ من أرضِ حرَّان إلى أرضِ فلسطينَ، وهو أوَّل مَنْ هاجرَ مِنْ أرضِ الكفرِ[1].

﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾؛ أي: إلى رضا ربي، أو إلى حيثُ آمرني ربِّي.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الممتنعُ الذي لا يُرام ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله.

وقيل: كان إبراهيمُ عمَّ لوطٍ، ونزلَ إبراهيمُ بالسَّبْعِ من أرضِ فلسطينَ، وهي من تربةِ الشَّامِ، ونزلَ لوطٌ المؤتفِكةَ، وهي من السَّبْعِ على مسيرةِ يومٍ وليلةٍ، فبعثَه اللهُ إليهم نبيًّا.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٥١٥).

(٢٧) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ أي: مَنَّ اللهُ عليه بالأولادِ، فوهبَ له إسحاقَ ويعقوبَ ولداً وولدَ ولدٍ، وإنَّما وهبَ له إسحاقَ من بعدِ إسماعيلَ، ويعقوبَ من إسحاقَ.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فلم يبعثِ اللهُ نبيًّا من بعدِ إبراهيمَ إلَّا من صُلْبِهِ.

ووحَّدَ الكتابَ لأنَّه أراد المصدرَ كالنُّبوَّة، فهو عبارةٌ عن الجمع، أو يُقال: هو اسمُ الجنس، كقولك: فلانٌ كثيرُ الدِّرهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: جعلْنا النُّبوَّة في أولادِه، ونصَرْناه على أعدائِه، وأحسنَّا الثَّناءَ عليه في الدُّنيا.

وقيل: أُريَ مكانَه من الجنَّة.

وقيل: ﴿أَجْرَهُۥ﴾: التَّوفيقَ حتى اكتسبَ به ثوابَ الآخرةِ.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: من الأنبياءِ، وقيل: من أهل الجنَّةِ.

وكلُّ هذا حَثٌّ على الاقتداءِ بإبراهيمَ في الصَّبر على الدِّينِ الحقِّ.

* * *

(٢٨ ـ ٣٠) ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾؛ أي: أرسلْنا لوطاً، أو: اذكر لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾

موبِّخاً أو محذِّراً: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ أي: لتَرْكبونَ الخَصْلةَ القبيحةَ التي ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: لم يفعلْها قبلَكم أحدٌ من النَّاس، فقوله: ﴿بِهَا﴾؛ أي: بفِعْلها.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ بيَّنَ أنَّ الفاحشةَ إتيانُ الرِّجال.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، قيل: كانوا قُطَّاعَ الطَّريقِ.

وقيل: كانوا يقصدون بالفاحشةِ مَنْ يمرُّ بهم فتجنَّبهم النَّاس، وكان هذا قطعُ السَّبيلِ.

وقيل: كانوا يَحْذِفُونَ المارَّةَ بالحَصا.

وقيل: أي: تقطعونَ سبيلَ النَّسْلِ بتعطيلكم النِّساءَ.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ والنَّادي: المجلسُ؛ أي: تُعلنون الأمورَ القبيحةَ وتجاهرونَ بها.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: استمكَنَتِ الفاحشةُ منهم حتى فعلَ بعضُهم ببعضٍ في المجالسِ[1].

وقيل: كانوا يتضارطونَ في مجالِسهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ من عتوِّهم واستهزائهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ دعا بإنزالِ العذابِ عليهم.

* * *

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٥١٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٤)، مختصراً بلفظ: «﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ يقول: في مجالسكم».

(٣١ - ٣٢) - ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾؛ أي: فاستجابَ اللهُ دعاءَه في إهلاكِهم، وبعثَ جبريلَ في اثني عشَرَ ملكاً، فمرُّوا على إبراهيمَ، فبشَّروه بإسحاقَ ومِنْ وراءِ إسحاقَ يعقوبَ، و﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ وهي قريةُ قومِ لوطٍ، وهي سَدومُ وغيرُها ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾؛ أي: مفسدين.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فاستبعدَ هلاكَه فـ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾.

***

(٣٣) - ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾؛ أي: ساءَه مجيئُهم إليه، ولم يعلمْ أنَّهم ملائكةٌ، وخافَ قومَه عليهم، حتى أعلموه أنَّهم ملائكةٌ.

وقولُه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾؛ أي: بناتِكَ، ولا يجوزُ عطْفُ الظَّاهرِ على المضمَرِ المخفوضِ كما سبق في قولِه: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١][1]،

---

(١) وقد وقع في هذه المسألة خلاف طويل بين العلماء ما بين مجيز وينسب للكوفيين، ومانع وينسب للبصريين، وبني على ذلك موقف كل من قراءة حمزة بخفض الأرحام، ولخص ذلك ابن الأنباري في «الإنصاف في مسائل الخلاف» (٢/ ٣٨٠). وقد تقدم الكلام عليها مستوفى عند آية النساء، وتعقب المصنفُ ثمةَ مَنْ ضعف القراءة لامتناع عطف الظاهر على المضمر المخفوض، فما ذكره هنا من المنع من ذلك إما سهو أو نقل لأقوال المانعين، ومنهم المبرد كما نقله عنه الواحدي هنا. انظر: «البسيط» (١٧/ ٥٢١).

فالتقدير: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ ونُنجِّي ﴿أَهلَكَ﴾، أو: ﴿مُنَجُّوكَ﴾ ومنجُّون ﴿أَهلَكَ﴾.

* * *

(٣٤) ـ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عذاباً من السَّماءِ حجارةً، وملائكةً تجعلُ عاليَها سافلَها.

قُرِئ: ﴿مُنزِلُونَ﴾ بالتخفيف والتشديد(١).

وقرء ﴿مُنَجُّوكَ﴾ بالتخفيف والتشديد(٢).

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾؛ أي: في قرى قومِ لوطٍ علامةً واضحةً على قدرتِنا وانتقاماً(٣) لأوليائِنا.

وقيل: أراد بالآيةِ البيِّنةِ: الأنهارَ التي كانت في أرضِهم، فهي إلى السَّاعةِ لا يُنتَفعُ بشيءٍ منها.

وقيل: آثارَ منازلِهم الخَرِبَةِ.

وقال مجاهدٌ: هي الماءُ الأسودُ على وجهِ الأرضِ(٤).

---

(١) بالتشديد ابن عامر، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

(٢) بالتخفيف ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٣) «وانتقاماً» كذا في (أ)، ولعل الأولى: «وانتقامِنا» عطفاً على: «قدرتنا».

(٤) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٤٥)، والواحدي في «البسيط» (١٧/ ٥٢٣).

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؛ أي: وأرسلْنا إلى مدينَ شُعيباً ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾؛ أي: واخشَوا البعثَ الذي فيه جزاءُ الأعمالِ.

وقيل: أي: اجتهدوا في الطَّاعةِ رجاءَ الثَّواب في الآخرةِ.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: لا تكفروا فإنَّه أصلُ كلِّ فسادٍ.

والعِثِيُّ: المبالغةُ في الفسادِ، يُقال: عَثا يَعثو، وعاثَ يعيْثُ، بمعنًى.

وقيل: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾؛ أي: صدِّقوا به، فإنَّ القومَ كانوا ينكرونَه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزَّلزلةُ يومَ الظُّلَّةِ، فرجفَتْ بهم الأرضُ مع أخذِ الظُّلَّةِ بأَكْظَامِهم[1] فهلَكوا ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: هالكيْنَ لا يبرحوْنَ.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾؛ أي: وفتنَّا عاداً، عطفاً على قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

---

(١) في (أ): «بإلظامهم»، ولا معنى لها، ولعل المثبت هو الصواب، والأكظام: جمع الكظَم محركة، وهو مخرج النفس، أو الحلق أو الفم. انظر: «القاموس» (مادة: كظم).

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾؛ أي: ظهرَ لكم يا أهلَ مكَّةَ من منازِلِهم بالحِجْرِ واليمَنِ آياتٌ في هلاكِهم، فحذفَ فاعل التَّبيُّن.

﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾؛ أي: ذوي بصائرَ عندَ أنفسِهم في الكفر؛ أي: يتوهَّمون أنَّهم على بصيرةٍ من أمرِهم، فلا يُصغُون إلى دعوةِ النَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام.

وقيل: أي: كانوا ذوي عُقولٍ تمكِّنُهم تمييزَ الحقِّ من الباطلِ لو تأمَّلوا.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾؛ أي: وأهلكْتُ هؤلاء بعدَ أنْ جاءَتْهم الرُّسلُ فاستكبروا ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾؛ أي: لم يَسبقونا ولم يَفوتونا.

* * *

(٤٠) ـ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾؛ أي: كلَّ هؤلاءِ عاقبناهم بكفرِهم.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ كقومِ لوطٍ.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كقومِ صالحٍ.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارونَ.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقومِ نوحٍ وفرعونَ وقومِه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ لأنَّه أنذرَهم وأمهلَهم وبعثَ إليهم الرُّسُلَ وأزاحَ العِلَلَ.

* * *

(٤١) ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ العنكبوتُ: الدُّوَيبَّةُ المعروفةُ التي تنسجُ نسجاً رقيقاً مُهلهَلاً بينَ الهواء.

أي: إنَّ بيتَ العنكبوتِ لا يُكِنُّ من حرٍّ وبردٍ، فكذا أصنامُ هؤلاءِ لا تُغني عنهم في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: لو علموا أنَّ عبادةَ الأوثانِ كاتِّخاذِ بيتِ العنكبوتِ، لا أنَّهم لو علِموا أنَّ بيتَ العنكبوتِ ضعيفٌ.

* * *

(٤٢) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ قرئ: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء والياء[1].

قال أبو عليٍّ: ﴿مَا﴾ استفهامٌ، وموضعُه نصبٌ بـ﴿يَدۡعُونَ﴾ لا بـ﴿يَعۡلَمُ﴾، بل [صار] بالجملة التي ﴿مَا﴾ [منها في موضعِ] نصبٍ بـ﴿يَعۡلَمُ﴾، والتقديرُ: إنَّ اللهَ يعلمُ أَوَثنًا يَدْعون مِنْ دونه أو غيرَه، فيؤاخذُهم به، ولهذا قال: ﴿مِن﴾ ولا تدخل (مِن) في الإيجاب، وهذا قولُ الخليل[2].

---

(١) عاصم وأبو عمرو بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠ ـ ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٤٣٤) وما بين معكوفتين منه، وانظر قول الخليل في =

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: من الأصنام.

وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى الذي؛ أي: يعلمُ الذي تدعون من دونِه من وثَنٍ وملَكٍ وجِنٍّ فيؤاخذُكم بعبادتِكم لهذه الأشياءِ.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾؛ أي: هذا المَثَلُ وغيرُه ممَّا نقرِّرُه للنَّاس ببيِّنةٍ ودلالةٍ وما يفهمُها إلَّا أولو العلمِ.

والمَثَلُ هاهنا: تشبيهُ أحوالِ كفَّارِ هذه الأمَّةِ بكفَّارِ الأممِ السَّالفةِ.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الذين لم يَصيروا بالإصرارِ على الكُفْر صُمًّا بُكماً عُمياً.

وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية، فقال: «العالِمُ مَن عَقَل عن الله فعَمِلَ بطَاعَتِه»[1].

وقال الكلبيُّ: أرادَ اللهُ ذلكَ منه[2].

= «الكتاب» (٣/ ٢٢٠).

(١) رواه داود بن المحبر في كتاب «العقل» كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٧)، وعنه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣٧ ـ زوائد الهيثمي)، ومن طريق الحارث رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٢٠)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٤٣)، من حديث جابر رضي الله عنه. وداود بن المحبر متروك كما قال الدارقطني في «الضعفاء والمتروكين» (١/ ٢٠٢).
وروى الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٦٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، عن الدَّارقطني قوله: كتاب «العقل» وضعه أربعةٌ أولُهم ميسرَةُ بن عبد ربه، ثمَّ سرقه منه داود بن المحبر فركَّبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركَّبه بأسانيد أخر، ثمَّ سرقه سليمان بن عيسى السِّجْزِي فَأتى بأسانيد أخر.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٥٣٠) بلفظ: إلا عالم أراد الله له ذلك، فيعلم ما ضرب له المثل =

(٤٤) ـ ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: لم يخلُقْهما باطلاً بل خلَقَهما وخلَقَ المكلَّفين، وأمَرَ ونهَى ليُثيبَ ويُعاقِبَ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خصَّهم لأنَّهم المنتفِعون.

وقيل: أي: فيه حُجَّةٌ للمؤمنِ على الكافر.

* * *

(٤٥) ـ ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾؛ أي: أَنذِرْهم أنت ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ لِمَا فيها من تلاوةِ القرآنِ المشتمِلِ على المواعظِ.

والصَّلاةُ تشغلُ بدَنَ المصلِّي، فإنَّ العبدَ يُقبِلُ على اللهِ في المحرابِ ويُعرِضُ عن كلِّ شيء، وقيل للنبي عليه السَّلامُ: إن فلاناً يصلِّي اللَّيلَ كلَّه فإذا أصبحَ سرَقَ، فقال: «سينهاه ما قرأ»، ثم تابَ الرَّجلُ فأحسنَ، فقال النبيُّ ﷺ: «ألم أقل: ستنهاهُ صلاتُه»[1].

وفي الخبر: «مَنْ لم تنهَهُ صلاتُه عن الفحشاءِ والمنكرِ لم يزدَدْ بها مِنَ اللهِ إلَّا بُعداً، ولم يزدَدْ بها من الله إلَّا مَقتاً»[2].

= في القرآن.

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد في «المسند» (٩٧٧٨)، والبزار في «مسنده» (٩٢١٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): رواه أحمد والبزار، ورجاله رجال الصحيح

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٦)، والطبراني في «الكبير» (١١٠٢٥)، من حديث ابن =

وهذا يشيرُ إلى أنَّ مرتكبَ الفحشاءِ والمنكرِ لا قَدْرَ لصلاتِه.

وقيل: أي: مَنْ كانَ في الصَّلاة فهو في تلكَ الحالةِ مُنْتَهٍ عن الفحشاءِ والمنكرِ.

وقيل: هو خبرٌ بمعنى الأمر؛ أي: لِيَنْتَهِ المصلِّي عن الفحشاءِ، والصلاةُ بنفسِها لا تنهَى ولكنَّها سببُ الانتهاءِ، وهو كقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقولِه: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾؛ أي: ذكرُ اللهِ لكم بالثَّوابِ والثَّناءِ عليكم أكبرُ من ذكركِم له في عبادتِكم وصلاتِكم.

وقيل: ذكركُم للهِ في صلاتِكم وفي قراءةِ القرآنِ أفضلُ من كلِّ شيءٍ.

وقيل: ذكرُ اللهِ يمنعُ من المعصيةِ، فإنَّ مَنْ كان ذاكراً له لا يخالفُه.

= عباس رضي الله عنهما مرفوعاً. وفي إسناده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.

ورواه الدَّارَقُطني في «غرائب مَالك» ـ كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ٤٤) ـ وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٩٧)، من طريق محمد بن الحسن الأَزْديّ عن مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً، قال الدّارقطني: «هذا باطل لا أصل له، ومحمد بن الحسن مجهول». وقال ابن حبان: محمد هذا يروي عن مالك ما لا أصل له، لا يجوز الاحتجاج به.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٠٩)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٩٥٤) من طريق الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٠٩)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٤٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٠٤): أخرجه علي بن معبد في كتاب «الطَّاعة والمعصية» من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، ورواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في «تفسيره» من حديث ابن عَبَّاس بإسناد لين، والطَّبرانيّ من قول ابن مسعود: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتَنْهَه عن المُنكر لم يَزْدَدْ من الله إلَّا بعداً». وإسناده صحيح.

وقيل: أي: الصَّلاةُ تنهَى عن الفحشاء والمنكَر، فذكرُ الله أحرى بأنْ ينهَى عن الفحشاء والمنكر.

وقيل: أراد بـ(ذكر الله) تلاوةَ القرآنِ؛ أي: أنْ تتلوَ عليهم القرآنَ وتدعوَهم أكثر أجراً من الصَّلاة، وإن كانت تنهَى عن الفحشاء والمنكر، فإذا كان الذِّكْرُ أفضلَ فهو أولى أنْ يَنهى.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾؛ أي: لا يخفى عليه شيءٌ.

* * *

(٤٦) - ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: جادلوهم بالقرآنِ والحُجَجِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾؛ أي: إلَّا المصرِّين على الكفرِ فجادِلوهم بالسَّيف، وهذا أمرٌ بقَبولِ الجزيةِ، فإن أبَوا التزامَ الجزيةِ فالسَّيف.

وقيل: هذا منسوخٌ بآيةِ القتالِ؛ أي: ادعوهم إلى الإسلامِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: جعَلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فهؤلاء كالمشركين في سقوط الحرمةِ، فانتصِروا منهم.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ بيَّنَ أنَّ إقامةَ الحُجَّةِ على مَن اعترفَ بالألوهيَّة والنُّبوَّةِ أهونُ؛ أي: رضِيْنا بكم فارجِعوا إلى كتابِكم فيما اختلَفْنا فيه؛ فإنَّ ذكْرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ كان موجوداً في كتبهم.

وقيل: جادِلوهم بالتي هي أحسنُ إلَّا مَنْ ظلَمَ فقتلَ رجلاً بغير حقٍّ أو أخذَ مالاً بغير حقٍّ، فلْيؤخَذْ منه ذلك الحقُّ، وإنْ كان بالإغلاظِ في القولِ.

وقيل: إذا أخبرَكم مَنْ أسلمَ منهم عن التَّوراةِ بشيءٍ فجادِلوهم بالتي هي أحسنُ، وقولوا: آمنَّا بما أنزلَ اللهُ على موسى من كتابٍ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: أصرُّوا على كفرِهم فلا تثقوا بقولهم.

وقيل: هو فيمَن لم يُسلِمْ منهم؛ أي: أخبروكم عن كتابِهم بشيءٍ ممكنٍ، فقولوا آمنَّا بما أنزل اللهُ على موسى على الجملةِ، إلَّا من ظلَمَ فذكر شيئاً لا يقبلُه العقل[١] فلا تثقوا به[٢].

وقيل: في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: مَنْ أسلمَ منهم كابنِ سلامٍ وأصحابِه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فجادلوهم بالتي هي أحسن؛ أي: بإيرادِ الحُجَجِ وقراءةِ القرآنِ عليهم.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: وكما أنزلنا الكتابَ إلى مَنْ تقدَّمَكَ أنزلْنا عليك القرآنَ لتجادِلَهم به.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مِن قبلِكَ مِنْ بني إسرائيل ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: مؤمني أهلِ الكتابِ [﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: مسلمي أهل مكة.

---

(١) جعل المصنف رحمه الله العقل هو الحاكم على ما يذكره أهل الكتاب، وهذا وإن كان ميزاناً في بعض الأمور فلا يصح في كثير من الأمور لا سيما الغيبية، فالأولى أن يقال: إلا من ظلم فذكر شيئاً يخالف ما جاء به القرآن أو الرسول ﷺ.

(٢) في المختصر: «بقوله».

وقيل: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾][1] هم اليهود قبْلَ بعثةِ النَّبيِّ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، كانوا يؤمنون بهِ ﴿وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: مِنْ أهلِ عصرِكَ مِنْ أهلِ الكتابِ.

﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وهم الذين آمنوا به في وقتِه من اليهود والنَّصارى.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ بالله، فلا يَضقْ صدرُك فقد صدَّقَكَ قبلَ المبعثِ أقوامٌ وبعدَه أقوامٌ، وفيه أكملُ شهادةٍ لك.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾؛ أي: لم تعلمْ هذه الأقاصيصَ ولا قرأتَها، ولا تخطُّ بيمينِكَ ولا تقرأُ حتَّى يُقال: فهمتَها من كتاب.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لو قرأْتَ وتعلَّمْتَ واختلفْتَ إلى أهلِ الكتُبِ لارتاب الكفَّارُ.

وقيل: وجدوا في كتبِهم أنَّ محمَّداً لا يقرأ ولا يكتبُ، فلو كنْتَ تخطُّ وتقرأُ لارتابوا، فالمبطِلُ هو الذي يأتي بالباطل، وكلُّ مَنِ ادَّعى دِيناً غيرَ الإسلامِ فهو مبطِلٌ. والله أعلم.

* * *

(٤٩) ـ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي: ليس هذا

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

القرآنُ كما يقولُه المبطِلون من أنَّه سحرٌ أو شعرٌ، ولكنَّه علاماتٌ ودلائلُ يعرفونَ بها دينَ اللهِ وأحكامَه، وهي كذلك ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أصحابُ محمَّدٍ ﷺ، يحفظونَه ويقرؤونَه.

ووصفَهم بالعلمِ لأنَّهم ميَّزوا بأفهامِهم بينَ كلامِ اللهِ وكلامِ البشرِ والشَّياطينِ.

وقيل: كونُ محمَّدٍ أميًّا لا يقرأُ ولا يكتبُ آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أوتوا العلمَ منهم، وقد وجدوا ذلك في كتبِهم ولكنَّهم ظلموا أنفسَهم وكتَموا، وكان عليه السَّلامُ آياتٍ لا آيةً واحدةً؛ لأنَّه دلَّ على أشياءَ كثيرةٍ من أمرِ الدِّين، فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾.

وقيل: بل هو ذو آياتٍ بيِّناتٍ، فحذف المضاف.

وقيل: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي: في صدورِ مؤمني أهلِ الكتابِ.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: الكفَّارُ؛ لأنَّهم جَحدوا نبوَّته ﷺ.

* * *

(٥٠) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وقالُوا لولا أُنزلَ عليهِ آيةٌ مِن ربِّه﴾؛ أي: كآياتِ موسى وعيسى عليهما السلام ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريدُ، وقرئ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[1].

* * *

---

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر على التوحيد، والباقون بالجمع. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٥١) - ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أو لم يكفِ المشركين من الآياتِ هذا الكتابُ المعجِزُ، وقد تحدَّيتَهم بأنْ يأتوا بمثلِه أو بسورةٍ منه فعجزوا، ولو أتيتَهم بآياتِ موسى وعيسى عليهما السلام لقالوا: سحرٌ، ونحن لا نعرفُ السِّحرَ، والكلامُ مقدورٌ لهم، ومع ذلك عجَزوا عن المعارضة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: في القرآنِ رحمةٌ وموعظةٌ لمن كانَتْ همَّتُه للإيمان؛ فأمَّا مَن يتعلَّلُ ويتحكَّمُ فلا يزدادُ إلَّا كفراً.

وقيل: معنى الآية: أنَّ قوماً كانوا يُصغون إلى قولِ أهلِ الكتاب، فزُجِروا عنه وأُمِروا بالاقتصار على القرآن، وفي مثلِ هذا قالَ النَّبيُّ ﷺ لعمرَ رضي الله عنه: «لو كانَ ابنُ عِمرانَ حيًّا لَـمَا وَسِعَه إلَّا اتِّباعي»[١]. والله أعلم.

***

(٥٢) - ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: قل للمكذِّبين لك: كفى بالله شاهداً يشهدُ لي بالصِّدق فيما ادَّعيْتُه من أنِّي رسولُه ﴿يَعْلَمُ مَا

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٨١١٢)، والإمام أحمد في (المسند» (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٤): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه مجالد بن سعيد، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما». وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٣٣٤): «ورجاله موثوقون إلا أن في مجالد ضعفًا»، وصحح ابن كثير إسناده في «البداية والنهاية» (١/ ٤٥٨).

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يخفى عليه شيءٌ، وهذه الشَّهادةُ ما بيَّن من المعجزةِ في هذا الكتاب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾؛ أي: بغير الله تعالى، وقيل: بعبادةِ الشيطان ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

* * *

(٥٣ ـ ٥٥) ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لَـمَّا أنذرَهم بالعذاب قالوا لفرطِ الإنكارِ: عَجِّلْ لنا هذا العذابَ ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: سبقَ القضاءُ بما يكونُ، فلكلِّ أجلٍ كتابٌ لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ.

وهذا الأجلُ المسمَّى هو في عذابِ الآخرةِ، وقيل: هو القتل ببدرٍ.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾؛ أي: هم يستعجلونَ وقد أعدَّ اللهُ تعالى لهم جهنَّم وإنَّها ستحيطُ بهم لا محالةَ، فما معنى الاستعجال؟

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾؛ أي: تحيطُ بهم جهنَّم فيغشاهم العذابُ من الجهاتِ.

﴿ونقولُ: ذُوقوا﴾ هذا مبالغةٌ في تعذيبِهم.

وقيل: هم لا يسمعون خطابَه، ولكن يقول الملَكُ بأمرِه.

وقرئ: ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء[1]؛ أي: يقولُ الموكَّلُ بهم: ذوقوا.

---

(١) قرأ بها نافع وعاصم وحمزة والكسائي، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٥٦) - ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ هذا متَّصلٌ بالأمرِ بالصَّبر على أذى الكفَّار، وكانَ قومٌ من المسلمين يكرهون الهجرةَ خوفاً من ضيْقِ المعيشةِ عليهم في غير بلدِهم، ولأنَّه يشقُّ عليهم مفارقَةُ الوطنِ، فالمعنى: إنَّ الأرضَ واسعةٌ فهاجروا ولا تجاوِروا المشركين، نزلَتْ في أهل مكَّةَ.

وقيل: أي: إن كنتُم في ضِيقٍ بمكةَ من إظهارِ الإيمانِ بها فهاجِروا إلى المدينةِ فإنها واسعةٌ لإظهارِ التوحيد بها، فإياي فوحِّدوا إذا أتيتُموها.

قال الزجَّاج: (إيَّاي) منصوبٌ بفعلٍ مضمَرٍ؛ أي: إيَّايَ فاعبُدوا فاعبدوني، فاستُغْني بأحدِ الفِعلَيْنِ عن الثَّاني، والفاء في قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ بمعنى الشَّرط[1]؛ أي: إنْ ضاقَ بكم موضعٌ فإيَّايَ فاعبدوا لأنَّ أرضي واسعة.

وقيل: أي: أرضُ الجنَّةِ واسعة.

* * *

(٥٧) - ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾؛ أي: لا تغترُّوا بالدُّنيا فلا بقاءَ لها، وأشار بهذا إلى أنَّ مَن كان معرَّضاً للخروج من الدُّنيا، فينبغي أن لا يَجبنَ عن الهجرةِ من مكَّةَ إلى المدينةِ.

وقيل: أي: لا تُقيموا بدار الشِّركِ خوفاً من الموت؛ إذ لا بُدَّ من الموت أينما كان العبدُ.

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٧٢).

(٥٨) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ ذكرَ ثوابَ مَن هاجرَ؛ أي: لنُسكننَّهم غرفَ الدُّرِّ والياقوتِ والزَّبَرْجَدِ، فتكون منازلُ الجنَّةِ بدلاً عن منازلِهم التي تركوها في الدنيا، يقال: بوَّأتُه منزلاً.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿لنُثْوِيَنَّهُم مِن الجنَّةِ غُرفاً﴾(١)، من ثوى بالمكان؛ أي: أقامَ به، وأَثْوِيْتُه؛ أي: أنزلتُه منزلاً يقيمُ فيه.

وقال أبو عليٍّ: أصلُه: لنُثْوينَّهم من الجنة في غرفٍ، فحُذف الجارُّ كما حُذف من نحو قولك: أمرتُكَ الخيرَ(٢).

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ يريد: المهاجرين والأنصارَ.

وقيل: ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ لله تعالى، وفيه حذفٌ؛ أي: نعمَ أجرُ العاملينَ الغُرَفُ، أو الجنَّةُ.

* * *

(٥٩) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾؛ أي: ثبتوا على إيمانهم مع الفتن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾؛ أي: به يتَّقون.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٤٣٨). وقوله: «أمرتُك الخير» قطعة من بيت في «الكتاب» (١/ ٣٧)، و«خزانة الأدب» (١/ ٣٤٣)، واختلف في نسبته، قال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة، وتمامه:

أمرتُك الخيرَ فافعَلْ ما أُمِرتَ به ... فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

والمعنى: أمرتك بالخير، بدليل قوله عقبه: فافعل ما أمرت به، ولأن الأمر لا يستعمل إلا بالباء.

(٦٠) - ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾؛ أي: كم مِن ذاتِ حياةٍ تَدبُّ على الأرض ليس معها رزقُها مُدَّخراً، فكذلك أنتم يرزقُكم الله عزَّ وجلَّ في دار الهجرة.

﴿مِّن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: من نفسِ دابَّةٍ ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾؛ أي: لا تقدر على رزقِها.

وقيل: لا ترفعُ رزقَها معها.

وقيل: لا تدَّخرُ شيئاً لغدٍ واللهُ يرزقُها أينما توجَّهتْ.

﴿وَإِيَّاكُمْ﴾؛ أي: يرزقُكم إنْ هاجرتُم أيضاً إلى المدينة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولِكم: لا نجدُ بالمدينة ما ننفقُ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم.

* * *

(٦١) - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ عيَّرَ المشركونَ المسلمين بالفقرِ وقالوا: لو كنتُم على حقٍّ لم تكونوا فقراءَ، وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفَّارِ فقراءُ أيضاً، فأزال اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الشُّبهةَ، وكذا قولُ مَنْ قالَ: «إنْ هاجَرْنا لم نَجِدْ ما نُنْفقُ»؛ أي: لو سألتهم لاعترفوا بأنَّ اللهَ خالقُ هذه الأشياء، فكيف يشكُّون في الرِّزق، فمَنْ بيدِه تكوينُ الكائناتِ لا يعجزُ عن رزقِ العبدِ، ولهذا وصلَه بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تكذِّبون بتوحيدي.

* * *

(٦٢) - ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

قـولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾؛ أي: لا يختلفُ أمـرُ الرِّزقِ بالإيمانِ والكفرِ، ولا يُعتبرُ بالفقرِ، فكلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقَدَرٍ، فله أنْ يبسطَ الرزقَ لِمَن يشاءُ ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾؛ أي: يَقدرُ على مَن يشاء.

***

(٦٣) - ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: لو سألتَهم عن هذا لاعْتَرَفوا بأنَّ اللهَ منزِلُ المطرِ ومُحيي الأرضِ بعدَ الجفافِ بالشِّتاءِ، فإذا قدرَ على ذلك فهو قادرٌ على إغناءِ المؤمنين.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾؛ أي على ما أوضحَ من الحُجَّةِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾؛ أي: لا يتدَّبرون هذه الحُجَجَ.

وقيل: الحمدُ للهِ على إقرارِهم بذلك.

***

(٦٤) - ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾؛ أي: ليسَ ما أعطى اللهُ الأغنياءَ من الدُّنيا في سرعةِ الانقضاء إلا كالشَّيء الذي يلهو به الإنسانُ ساعةً ثم ينقضي؛ كاللَّعب الذي لا حقيقةَ له، وإنَّما الحياةُ الحقيقيةُ هي الدَّائمة في الآخرة ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾؛ أي: لهي دارُ الحياةِ بلا موتٍ.

وقال قتادة: أي: لَهِيَ الحياةُ[١].

وقال الفرَّاءُ: الحيوانُ حياةٌ لا موتَ فيها[٢].

وقال أبو عبيدةَ: الحيوانُ والحياةُ والحِيُّ واحدُ، [فهذه على ما حكاهُ أبو عبيدةَ مصادرُ، والحِيُّ] بكسر الحاءِ مِثْلُ العِيِّ[٣].

وقال أبو زيد: الحيوان: ما فيه الرُّوح، والـمَوَتانُ والموتُ: ما لا روحَ فيه[٤]. وعلى هذا فالحيوانُ وصفٌ مثلُ الحَيِّ.

ففي قولٍ: يعني: وإنَّ الدَّارَ الآخرة هي الحياة، وفي قولٍ: هي الحيُّ لأنَّها لا تزول، ويجوز أن يكون المعنى: هي دار الحيَوان؛ فإنَّ حياةَ الحيِّ فيها لا تزولُ ولا تَبيدُ.

* * *

(٦٥) - ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ عجَّبَ من المشركين إذ صدُّوهم عن الدِّين مع اعترافِهم بأنَّ اللهَ خالقُ السماوات والأرض، ومُنزِلُ الأمطارِ، ومُخرِجُ النَّباتِ، ومع التجائِهم إلى الله في الشَّدائد.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي: في ماءِ البحرِ لأمرٍ من أمورِ المعاشِ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾؛

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٦٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٨).

(٣) انظر: «البسيط» (١٧/ ٥٥٦) وما بين معكوفتين منه، وهو في «مجاز القرآن» (٢/ ١١٧) بمعناه.

(٤) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٥٥٧).

أي: فأصابَهم شِدَّةٌ وخوفُ هلاكٍ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وتركوا عبادةَ الأصنامِ ودعائِها.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ وهذا مِنْ آثارِ الفسادِ.

* * *

(٦٦) - ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ قيل: هذا أمرُ تهديدٍ؛ أي: اكفروا بما أعطيْتُكم من النِّعمة والخَلاصِ من البحر، وتمتَّعوا بالدُّنيا ما شئتُم، فستعلمونَ ما ينزلُ بكم في الآخرةِ، وهذا على قراءةِ مَن قرأ: ﴿ولْيَتمتَّعُوا﴾ بسكونِ الّلام، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وابنِ كثير، وقرئ: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ بكسر اللام[1]، فيَحتمِلُ أن تكونَ لامَ الأمرِ فتُكسَر مع الواو كما تُكسرُ دونها، ويحتمِلُ أن تكونَ لامَ (كي)؛ أي: كي يكفُروا ويتَّمتعوا بالدُّنيا؛ أي: لا نفعَ في الشِّرك إلَّا الكفرَ والتَّمتُّعَ بالدنيا.

* * *

(٦٧) - ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: كيف أشركوا بي وقد جعلْتُ لهم حرماً أَمِنوا فيه من السَّبْيِ والقتلِ والإغارة، وخلَّصْتُهم في البرِّ كما خلصتُهم في البحر، فصاروا يشركون في البرِّ ولم يشركوا في البحر! فهذا تعجيبٌ من تناقُضِ أحوالهم.

---

(١) وهي قراءة باقي السبعة عدا قالون فقد قرأ بسكون اللام. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: بالأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ هذا استفهامُ تعجيبٍ.

وقيل: أراد بـ(نعمة الله) محمَّداً والإسلامَ.

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الكذبُ: إضافةُ الشَّريكِ إلى الله؛ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ وهو دينُ محمَّدٍ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ هو استفهامُ تقريرٍ.

* * *

(٦٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾؛ أي: مَن جاهدَ الكفَّارَ فينا؛ أي: لطلَبِ مرضاتِنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: نوفِّقُهم للثَّبات على الدِّين.

وقيل: لنهدينَّهم إلى الطَّاعات.

وقيل: إلى سُبلِ الشهادةِ والمغفرةِ.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: بالنَّصر والإثابة.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: والذين هدَيناهم جاهدوا.

وقيل: جاهدوا ونظروا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ فإنَّ مَنْ صحَّ نظرُه اهتدى.

وقيل: جاهدوا في حفظ السُّنَّة لنهدينَّهم إلى الجنَّة، والله أعلم.

* * *

سُورَةُ الرُّومِ

تفسير سورة ألم غلبت الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ ـ ٣) ـ ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ﴿الٓمٓ﴾ اسمُ السُّورة؛ وقيل: هي قسَمٌ وخبرُه ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾؛ أي: لقد غُلبَتْ، فلمَّا أُضْمِرَتْ (قد) أُضمِرَ معها اللَّام.

وسببُ النُّزول: أنَّ كسرى بعثَ جيشاً إلى الرُّوم واستعملَ عليهم رجلاً يُقال له: شَهْرَبرَاز، فظهروا على الرُّوم وقتلوا وخرَّبوا مدائنهم وقطعوا زيتونهم بأذرعاتٍ وبُصرى، وهو أدنى الشَّام إلى أرض العرب ـ وقيل: بالجزيرة، وهي أقربُ أرضِ الرُّوم إلى أرضِ فارس، وقيل: بالأردن وفلسطين، وقيل: كسكر ـ وبلغَ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ والمسلمين فشقَّ عليهم، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يكره ظهورَ الأُمِّيِّين على أهلِ الكتاب، وفرحَ كفَّارُ مكَّةَ وشمِتوا، وقالوا: أنتم أهلُ كتابٍ، وقد ظهرَ أخوانُنا من أهل فارسَ على إخوانِكم من الرُّوم، ولنظهرَنَّ نحنُ أيضاً عليكم[1].

والرُّوم ولدُ رومِ بنِ عِيْصِ بنِ إسحاقَ، غلبَ عليهم اسمُ أبيهم فصار كالاسم للقبيلة.

وقيل: الرُّوم جمعُ روميٍّ كالزِّنجِ جمع زنجيٍّ، وهو منسوبٌ إلى رومِ بنِ عِيْصٍ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٤) عن المفسرين.

﴿وَهُم﴾؛ أي: والروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾؛ أي: من بعد أن غُلِبوا ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ والغَلَبُ والغَلَبَةُ مصدر غلبت، وأضافَ الغلَبَ إلى الرُّوم؛ لأنَّ الفعلَ قد يُضاف إلى مفعولِه يقول: «أعجبني خياطةُ هذا الثَّوبِ» لأنَّه محلُّ الفعل.

وقيل: أي: من بعد غلبَةِ فارسَ لهم سيغلبون.

***

(٤ ـ ٥) ـ ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ البِضْعُ ما بين الثَّلاثِ إلى العَشْرِ.

ولَـمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ خرجَ أبو بكرٍ رضي الله عنه بها إلى المشركين وقال: أنزلَه اللهُ، وناحبَهم؛ أي: راهنَهم، وكان ذلك قبلَ تحريمِ القِمار ـ قيل: ناحَبَ أميَّةَ بنَ خلَف، وقيل: أبيَّ بن خَلَف، وقيل: أبا سفيان ـ على أنَّ الرُّومَ تغلبُ فارس إلى ثلاثِ سنينَ على ثلاثِ قلائص، ثم أتى النَّبيَّ ﷺ فأخبرَه فقال: «هلَّا احتَطْتَ بأنَّ البِضْعَ ما بين الثَّلاثِ والتِّسعِ والعَشْرِ»، وقال: «ارجعْ فاستزدْهُ في القلائِصِ والسِّنين»، فجعلوا[1] الرِّهان سبعَ قلائصَ إلى سبعِ سنينَ[2].

---

(١) في (أ): «فصبروا».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٠ ـ ٤٥١) عن عكرمة مرسلًا.

وقد روي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٩٥)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١١٥)، والترمذي (٣١٩٣) وحسنه، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٢٥)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٤٠) وصححه، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١). وروي في هذه القصة أحاديث وآثار كثيرة يطول ذكرها، جمعها السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٣).

قال الشَّعبيُّ: فظهَروا في تسع سنين(١).

وقال نِيارِ بنِ مُكْرَمٍ وكانتَ له صحبةٌ: قرأ عليهم أبو بكرٍ هذه الآيَةَ فقالوا له: نبايعُكَ على أنَّ الرُّومَ لا تغلِبُ فارسَ، قال أبو بكر: البِضْعُ ما بينَ الثَّلاثِ إلى التِّسْعِ، فقالوا: الوسطُ من ذلكَ سِتٌّ، فوضعوا الرِّهان، فقال المسلمون لأبي بكرٍ: بئسَ ما صنعْتَ، لو شاء اللهُ أنْ يقولَ: «في ستِّ سنينَ» لقالَ، فلمَّا كانَتْ سنةُ ستٍّ لم تظهَرِ الرُّومُ على فارسَ، فأخذوا الرِّهانَ، فلمَّا كانت سنةُ سبْعٍ ظهرَتِ الرُّومُ، فذلك قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾(٢).

والمشهورُ في الرِّوايات أنَّ ظهورَ الرُّوم كان في السَّنةِ السَّابعةِ من غَلَبَةِ فارس للرُّوم، ولعلَّ روايةَ الشَّعبيِّ تصحيفٌ من السَّبْعِ إلى التِّسْعِ من بعض النَّقَلَةِ.

وفي معظَمِ الرِّواياتِ أنَّه جعلَ القَلائِصَ سبعاً إلى سبْعِ سنينَ.

وقيل: أخبرَ جبريلُ يومَ بدرٍ رسولَ اللهِ عليهما السَّلام بظهورِ الرُّومِ على فارسَ، فسُرَّ المسلمون(٣).

وكانت هذه آيَةً من آياتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ إذا أَخبرَ عمَّا سيكون، فكانَ كما أخبرَ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٧٠).

(٢) رواه الترمذي (٣١٩٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٣٦٩) واللفظ له. قال الترمذي: حديث حسن صحيح، غريب من حديث نيار بن مكرم، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد. و(نيار) بكسر النون وتخفيف الياء، و(مكرم) بضم الميم وسكون الكاف وكسر الراء، له صحبة، عاش إلى أول خلافة معاوية، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من أهل المدينة، وقال: سمع من أبي بكر، وكان ثقة قليل الحديث.

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٤)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٢).

وقال أبو سعيدٍ الخُدْريُّ رضي الله عنه: ظهرَتِ الرُّوم على فارسَ يومَ أُحُدٍ[١].

وقيل: يومَ الحُدَيْبِيَة.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: من قبلِ أنْ تغلِبَ ومِن بعدِ ما غلبَتْ، فلا فرحةَ للمشركين في غَلَبةِ فارسَ؛ فإنَّ كَوْنَ الإسلامِ حقًّا لا يتعلَّقُ بذلك.

وقيل: أي: لله الأمرُ مِنْ قبلِ كلِّ شيءٍ ومِنْ بعدِ كلِّ شيءٍ.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بظَفَرِ الرُّومِ لإنجازِ وَعْدِ اللهِ.

وقيل: ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ رسولَه على المشركين؛ لأنَّ جبرئِلَ عليه السَّلامُ أخبرَ بذلك النَّبيَّ ﷺ يوم بدر.

وقيل: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ المسلمين على المشركين في المراهنةِ بينَ أبي بكرٍ رضي الله عنه والمشركينَ.

وهذا القائلُ يقول: ظهورُ كافرٍ على كافرٍ معصيةٌ لا يفرحُ المؤمنون بها، فكانَ ذلكَ فَرَحَ طَبْعٍ لا فرَحَ اختيار.

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: المعزُّ لأوليائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

* * *

(١) كذا ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٤)، ولعل ذكر (أحد) هنا محرفة، فالمروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنها يوم بدر، كما روى الترمذي (٣١٩٢) عنه أنه قال: «لما كان يوم بدر ظهرَتْ الروم على فارسَ، فأعجَبَ ذلك المؤمنين، فنزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، كذا قرأ نصر بن علي (غَلَبَتِ الرُّوم). ورواه أيضاً بذكر بدر الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨٧).

(٦ ـ ٧) ـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ أي: وعدَ اللهُ وَعْداً لا يخلِفُ وعدَه؛ لأنَّ كلامَه صدقٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ اللهَ لا يخلِفُ وعدَه، أو: لا يعلمون صِدْقَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: همَّتُهم أمرُ دنياهم.

قال الحسنُ: بلَغَ واللهِ مِنْ علْمِ أحدِهم بالدُّنيا أنَّه ينقرُ الدِّرهمَ بيدِه فيخبرُكَ بوزنِه، ولا يحسنُ أنْ يصلِّي[1].

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إذ لم يؤمنوا بها.

وقيل: أي: يعلمون ما يشاهدون بالحسِّ، ولا يعرفون ما تدلُّ عليه هذه الآثارُ المشاهَدة من ثبوت الصَّانع وتوحيده.

* * *

(٨) ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ هؤلاء الغافلونَ في السَّماواتِ والأرضِ وأنفسِهم حتى يعلموا أنَّ اللهَ لم يخلقِ السَّماوات وغيرَها إلَّا بالحقِّ.

---

(١) ذكره عنه بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٦)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨٨) بلفظ: «ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن يصلي».

قال الزَّجاجُ: في الكلام حذف؛ أي: فيعلموا؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه[١].

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: إلَّا للحقِّ، قيل: يعني: للثَّواب والعقاب.

وقيل: إلَّا لإقامة الحقِّ.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: للسَّمواتِ والأرضِ أجلٌ ينتهيان إليه، وهو يومُ القيامة.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الكفَّار ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بالبعث بعد الموت ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: لا يؤمنون أنَّه كائنٌ.

وقيل: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: خلَقَ ما خلَقَ في وقتٍ سمَّاه لأنْ يخلُقَ ذلك الشَّيءَ فيه.

* * *

(٩) - ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾؛ أي: ليَروا ما حلَّ بالكفَّار ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: أُعطوا ما لم يُعْطَ هؤلاء ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: حرثُوها ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ يعني: ملكوا الأرضَ ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾؛ أي: أكثرَ عمارةً من كفَّار وقتِ النَّبيِّ عليه السلام.

ثم؛ قيل: كانوا أكثرَ عمارةً لكثرةِ عددِهم وقوَّةِ بطشِهم.

وقيل: لأنَّ أهلَ مكَّةَ ما كانوا أهلَ حَرْثٍ.

وقيل: أكثرَ مما عمروا الآخرةَ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٧٨).

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي إنَّما حَلَّ بهم ما حلَّ من العقابِ بعدَ أنْ جاءَتهم رسلُهم بالبيِّنات فكفروا بهم.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات، وقيل: بالأحكام، وقيل: أَخبَروهم بأمرِ العذاب.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ أي: ليعذِّبَهم على غير ذنْبٍ، ولو عذَّبَهم على غير ذنبٍ لم يكن ظلماً أيضاً؛ لأنَّ تصرُّفَه في ملكِه، ولكنْ في ظنِّ الخَلْقِ قد يَعتقد أقوامٌ أنَّه ظلمٌ.

وقيل: ما كان ليظلمَهم بالتَّكليفِ، فلَهُ أنْ يكلِّفَ العبيدَ ويُصرِّفَهم على ما يريد.

وعلى الجملةِ: لا يُتَصوَّرُ منه الظُّلْمَ.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالكفر.

* * *

(١٠) - ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هو متَّصل بقوله ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أي: ثمَّ كان آخرُ أمرِ[1] الذين أساؤوا بأنْ كذَّبوا أنبياءَ اللهِ.

السوأى والسوء: العقوبةُ الغليظةُ في الدُّنيا بالإهلاك وفي الآخرةِ بالنَّارِ.

قرئ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ بالرَّفع والنَّصب[2].

وقيل: أي: كان التَّكذيبُ آخرَ أمرِهم فباتوا عليه.

---

(١) في (أ): «الأمر»، ولعل المثبت هو الصواب. وفي «التفسير المختصر» للمصنف: «ثم كان عاقبة الذين من قبلهم وهم الذين أساؤوا بأن كذبوا أنبياء الله».

(٢) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(١١) ـ ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ﴾؛ أي: هو خالقُ الأشياءَ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: بعدَ الموتِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالإعادةِ للحسابِ.

والخَلْقُ: المخلوق، ويرجعُ قوله: ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ إلى الخلق، ولهذا لم يقل: يُعيدهم.

قرئ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء والياء(١).

* * *

(١٢) ـ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾؛ أي: ييأسُ.

وقال الزَّجاجُ: المبلِسُ: السَّاكتُ المنقطعُ في حجَّتِه، اليائسُ مِنْ أنْ يهتديَ إليها.

* * *

(١٣) ـ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ ﴾؛ أي: لم يكنْ لهم من معبوديهم مَنْ يشفعُ لهم ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾؛ أي تبرَّؤوا من آلهتِهم وتبرَّأَتْ آلهتُهم منهم.

وقيل: أي: كانَتْ الآلهة ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ من الأتباعِ ﴿كَٰفِرِينَ﴾.

وقيل: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾؛ أي: من الرؤوسِ الذين دعَوهم إلى الضَّلال ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾؛ أي: لم ينفعْ أولئكِ الرُّؤوساءُ أتباعَهم.

---

(١) بالياء أبو عمرو وأبو بكر، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

وقيل: (كان) زيادةٌ؛ أي: وهم في ذلك اليومِ كافرون بشركائِهم.

وقيل: وصاروا بشركائِهم كافرينَ؛ كقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧]؛ أي: يصيرَ له أسرى.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾؛ أي: فريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في السَّعيرِ، وهو تفرُّقٌ لا اجتماعَ بعدَه.

وقيل: تتفرَّقُ كلمتُهم فلا يكون للكافرينَ مَنْ ينصرهم، بخلافِ اليومَ فإنَّهم مجتمعون في تعاونِهم.

* * *

(١٥) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: في الجنَّةِ، يُقال: حبَرَهُ اللهُ يَحْبُره حَبْراً فهو محبورٌ؛ أي: مُنَعَّمٌ مسرورٌ.

الحَبَرَةُ والحَبْرَةُ والحَبْرُ: السُّرور، والتَّحبيرُ: التَّحسينُ، والحَبْرُ: العالمُ؛ لأنَّه يتخلَّقُ بأحسنِ الأخلاقِ.

وقال الأوزاعيُّ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: ينعَّمونَ بالسَّماع في الجنَّةِ[1].

---

(١) رواه عنه تمام في «فوائده» (١/ ٦١)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٢٤).

ورواه الترمذي (٢٥٦٥) من طريق الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير. وكذا رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠٢١)، وهناد بن السري في «الزهد» (٤).

والرَّوضةُ عند العربِ: ما يَنبُتُ حولَ الغديرِ من البُقولِ، ولم يكن عند العربِ شيءٌ أحسنَ منه.

وقيل الحَبْرَةُ من الحَبَارِ وهو الأثَرُ، فهو السُّرورُ يبدو أثرُه في البشرةِ، ويُقال: «ذَهَبَ حَبْرُه وسَبْرُه»؛ أي: أثرُه[١].

***

(١٦) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: بما يجبُ الإيمانُ به مِنَ اللهِ ورسولِه والبعثِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾؛ أي: يحضرُهم اللهُ النَّارَ؛ أي: يجمعُهم فيها.

***

(١٧) ـ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ ذكَرَ الجنَّةَ والنَّارَ، ثم ذكَرَ ما يوصِلُ إلى الجنَّةِ ويُبْعِدُ من النَّارِ، وهو الصَّلواتُ والعباداتُ.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ، كقولِه: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]؛ أي: نزِّهوهُ عن الأضدادِ والأندادِ في هذه الأوقاتِ.

ومذهبُ ابنُ عبَّاسٍ: أنَّ كلَّ تسبيحٍ في القرآنِ فهو صلاةٌ[٢]. فهذه الآيةُ أمرٌ بالصَّلاة، وقد يقولُ الرَّجلُ: حتى أفرغَ من تسبيحي؛ أي: صلاتي.

***

---

(١) قال أبو بكر الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٢٤١): «ذهب حِبْرُهُ وسِبْرُهُ، أراد: قد ذهب بهاؤه وجماله... ويروى: قد ذهب حَبْرُهُ وسَبْرُهُ. فإذا كُسرا كانا اسمين، وإذا فُتحا كانا مصدرين».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٢٠).

(١٨) ـ ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: هو المحمودُ عند أهلِ السَّماءِ والأرضِ.

واعترَض هذا بين الأوقاتِ للصَّلوات لأنَّ الصَّلاةَ لا تخلو عن الحمدِ لله.

وسُئِلَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: هل تجدُ الصَّلواتِ الخمسَ في القرآن؟ قال: نعم، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ المغربَ ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ الغَداةَ ﴿وَعَشِيًّا ﴾ العصرَ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الظهرَ ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ في سورة النور [٥٨] العشاء(١).

وقيل: بدأ بصلاة المغرب لأنَّ اللَّيل متقدِّم النَّهار.

و﴿تُظْهِرُونَ ﴾: تَدخلون في وقت الظَّهيرة، وهو يصفُ النَّهارَ، يُقال: أظهَرَ كما يُقال: أمسى، وأصبحَ، وأَضْحى.

***

(١٩) ـ ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ بيَّنَ كمالَ قدرتِه؛ أي: يخرجُ الحيَّ من النُّطفةِ المواتِ ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾؛ أي: النُّطفةَ من الحيِّ ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾؛ أي: يخرج النَّباتَ فتخضرُّ الأرض.

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾؛ أي: من القبورِ يومَ القيامةِ بالماءِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٧٧٢)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٧٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٥٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٤١) وصححه.

قال مقاتل: يرسلُ اللهُ يومَ القيامةِ ماءَ الحياةِ من السَّماءِ السَّابعةِ إلى الأرضِ بينَ النَّفختَيْنِ، فتنبُتُ عظامُ الخلقِ ولحومُهم وجلودُهم في قبورِهم نباتَ العشْبِ[1]. كما ينبتونَ في بطونِ أمَّهاتِهم.

قرئ: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بضم التَّاء، و﴿تَخْرُجونَ﴾ بفتحِها[2].

***

(٢٠) - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ أي: مِنْ علاماتِ ربوبيَّتِه أنْ خلقَكُم في أصلِ الإنشاءِ من ترابٍ؛ لأنَّه خلقَ أباكم آدمَ منه، والفرْعُ كالأصل.

وقيل: هو كقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢]؛ أي: قتَلَ آباؤكُم.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾؛ أي: ثم أنتم عقلاءُ ناطقونَ وتتصرَّفونَ فيما هو قِوَامُ مَعاشِكم، فلم يكنْ ليخلقَكُم هكذا عبثاً، ومَن قَدرَ على هذا فهو أهلٌ للعبادةِ والتَّسبيحِ.

***

(٢١) - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: نساءً تسكنونَ إليها.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسِكم.

وقيل: أي: خلقَ حوَّاءَ من ضِلَعِ آدمَ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤١٠).

(٢) قرأ بالفتح حمزة والكسائي، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

وقيل: خلقَ لكم أزواجاً من نُطَفِ الرِّجالِ.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾؛ أي: بينَ الرِّجالِ والأزواجِ، يعني: التَّوادَّ والتَّعاطُفَ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿مَّوَدَّةً﴾؛ أي: الجماعَ ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: الولدَ[1].

***

(٢٢) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكانوا يعترفونَ بأنَّ الخالقَ هو اللهُ، فاستدلَّ به على البعثِ.

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اختلافَ اللُّغاتِ بالعربيةِ والعَجَميَّةِ والتُّركيةِ والرُّوميةِ وغيرِها.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ يعني الأبيضَ والأسودَ والأحمرَ، وليس هذه الأشياءُ من فعلِ النُّطفةِ، ولا من فعل الأبوينِ، ولا بدَّ من فاعِلٍ، فعُلِمَ أنَّ الفاعِلَ هو اللهُ تعالى.

﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالَمِين﴾؛ أي: للبرِّ والفاجرِ.

وقرأ حفصٌ بكسر اللَّام[2]، كما قال: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

***

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٤)، وروي عن الحسن، رواه عنه ابن وهب في «جامعه ـ التفسير» (٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦ ـ ٥٠٧)، و«التيسير» (ص:١٧٥).

(٢٣) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ما جعلَ لكم من النَّومِ، وهو راحةٌ للأبدانِ والأجسامِ ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ في حالِ الانتباهِ ليلاً أو نهاراً.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريدُ: سماعَ تفهُّمٍ.

وقيل: كان فيهم مَنْ يسدُّ سمعَه لا يسمعُ القرآنَ ووَعْظَ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام.

وقيل: ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: يجيبونَ داعيَ اللهِ تعالى سمعاً وطاعةً؛ أي: إجابةً.

***

(٢٤) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: أنْ يريكُم، فحذف (أن) لدلالةِ الكلامِ عليه.

وقال الزَّجاجُ: من آياته آيةً يريكُم البرقَ، وقيل: أي: ويريكم البرقَ خوفاً وطمعاً من آياتِه، فيكونُ عطفَ جملةٍ[1].

﴿خَوْفًا﴾؛ أي: من الصَّواعقِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في الرَّحمةِ.

***

(٢٥) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: يمسِكُها بغيرِ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٨٢).

عَمَدٍ لمنافعِ الخلْقِ ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: النَّفخةَ الأخيرةَ.

قال مقاتلٌ: يدعو إسرافيلُ من صخرةٍ من بيتِ المقدسِ حين ينفخُ في الصُّورِ بأمرِ اللهِ(١).

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وأنتم أمواتٌ في الأرضِ، كما تقول: دعوْتُ فلاناً من الدَّار.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: إذا أنتم تخرجون من الأرض.

وقوله: ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾؛ أي: خرجْتُم، كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]؛ أي: قَنَطُوا.

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: كلُّهم عبيدُه ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ أي: مقرونٌ بالعبوديَّةِ؛ إمَّا قالةً وإمَّا دلالةً.

وقيل: أراد المطيعَ فيهم، والقُنوتُ: القيامُ بالطَّاعةِ.

وقيل: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يومَ القيامةِ، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]؛ أي: للحساب.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: في ظنِّكم.

وقيل: ﴿أَهْوَنُ﴾؛ أي: هيِّنٌ، أي: قدرتُنا على الكمال.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤١١).

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: له الوَصْفُ الأرفَعُ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على وحدانيَّتِه. والمثَلُ: الوصفُ، كما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]؛ أي: صفتُها.

* * *

(٢٨) - ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ نزلَتْ هذه الآيةُ في كفَّارِ قريشٍ، كانوا يقولون في التَّلبيةِ: «لبَّيْكَ لا شريكَ لكَ إلَّا شريكٌ هو لَكَ، تملكُه وما ملَكَ»[1]؛ أي: وَصَف لكم شبيهاً من أنفسكم.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾؛ أي: من عبيدِكم ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من المالِ والأهلِ والنِّعمةِ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تخافون أنْ يرثوكم كما يرِثُ بعضُكم بعضاً.

وقيل: تخافون لائمتَهم كما يخافُ الرَّجلُ لائمةَ أبيه وأخيه وأقاربِه.

وقيل: تخافون أن يقاسموكم أموالَكم كما يقاسمُ بعضُكم بعضاً؛ أي: العبدُ لا يكون شريكاً لمولاه، فكيف تَعدِلونَ عبيدي بي وأنتم لا تَعدِلون عبيدَكم بأنفسِكم.

﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: كخفيةِ بعضِكم لبعضٍ كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩]؛ أي: إخوانكم من المؤمنين.

وقيل: أي: هل تخافون أن تَنبسِطَ عبيدُكم في أموالِكم كما تخافونَ من انبساطِكم أنتم.

---

(١) روى مسلم (١١٨٥) تلبيتهم هذه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: كما نتثبَّتْ لكم هذه الأعلامَ نفصِّل الآيات. وقرئ: (يُفصِّلُ) بالياء، والأكثر بالنُّون[1].

***

(٢٩) - ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: ليس إصرارُهم لقصورِهم في الحُجَجِ، ولكنَّهم اتَّبعوا الهوى وقلَّدوا الأسلافَ.

﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا هادي لمن أضلَّه اللهُ تعالى؛ أي: سبقَ حكمُه بضلالِهم.

***

(٣٠) - ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ أي: الزَمْ دينَ إبراهيمَ في التَّوحيد، والمراد: هو وأمَّتُه؛ أي: بانَ إصرارُ الكفرةِ، وقد ثبتَ لكم الحُجَّةَ فاثبتوا أنتم على الإسلام.

والوجهُ في اللُّغةِ: ما يُتوَجَّهُ إليه.

﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ أي: حنيفاً للدِّين؛ أي: مائلاً إلى الطَّاعة مستقيماً عليها.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: استقمْ على الإسلامِ؛ فإنَّه فطرةُ اللهِ ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: خلقَهم عليها يومَ أخذَ الميثاقَ حين قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]،

---

(١) بالياء رواية ذكرها ابن مجاهد عن أبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٧).

فأقرُّوا بالرُّبوبيَّة، وعلى هذا فليسَتِ الفطرةُ ما جُبِلَ عليها الخلقُ، بل المرادُ: ما جُمِعَ عليه الخَلْقُ إذ قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾.

وقيل: أرادَ بالنَّاسِ: المؤمنين؛ إذ لو فُطِرَ الجميع على الإسلامِ لَمَا كفرَ أحدٌ، وقد ثبَتَ أنَّه خلقَ أقواماً للنَّار[١]، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وأخرج الذُّرِّيَّةَ من صلْبِ آدمَ سوداءَ وبيضاءَ، ثم قال: هؤلاءِ في الجنَّةِ وهؤلاءِ في النَّارِ[٢].

وقال في الغلامِ الذي قتلَه الخضرُ: «طبعَه اللهُ يومَ طبعه كافراً»[٣].

وقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ نصبٌ على الإغراء على المعنى الذي ذكرنا؛ أي: الزَموا التَّوحيدَ.

وقال إسحاق الحنظليُّ: تمَّ الكلام عند قولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فطرَ اللهُ الخلقَ فطرةً إمَّا لجنةٍ أو نارٍ، وإليه أشار النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام في قوله: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرةِ»، وقوله: «فأبواه يُهوِّدانِه ويُنصِّرانِه»[٤]؛ أي: ثم إنْ كان أبواه مؤمنَين يُحكَم له

---

(١) روى معناه مسلم (٢٦٦٢) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وفيه: «إنَّ الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم».

(٢) روى معناه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٦٦٠) من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»، قال: فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: «على مواقع القدر».

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، ولفظه: «وأما الغلامُ فطُبِعَ يومَ طُبِعَ كافرًا».

(٤) هما حديث واحد رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالإيمان في الظَّاهر، وإن كانا كافرَيْن حُكِمَ له بالكفر في الظَّاهرِ[(١)].

والمعنى: أنَّ هؤلاء [الذين][(٢)] اتَّبعوا أهواءهم خُلقوا في أصلِ الفِطرةِ للنَّارِ فلا يهديهم أحدٌ، والنَّبيُّ عليه السلام والمؤمنون خُلقوا للجنَّةِ، ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، وعلى الأوَّل: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ خبرٌ بمعنى النَّهي؛ أي: لا تبدِّلوا دينَ الإسلام.

* * *

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ نصبٌ على الحال؛ أي: أقيموا وجوهَكم للهِ منيبينَ.

قال المبرِّدُ: هو كقولك: «اتَّقِ زيداً واحذروا أن تَظْلِموه»، إذا كان رئيساً يُجمعُ؛ لأنَّ الخطاب له ولغيره، فكذلك قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ للنَّبيِّ وأمَّتِه، فحسُن أن يقول: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[(٣)].

وقد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: راجعين إليه فيما أمرَكم.

﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أطيعوه، ثم بيَّنَ أنَّ العبادةَ لا تنفعُ إلَّا مع الإخلاص فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) ذكره عنه الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٣/ ٢٢٣). وإسحاق الحنظلي هو ابن إبراهيم المعروف بإسحاق بن راهويه من شيوخ البخاري ومسلم. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٣٥٨).

(٢) ما بين معكوفتين من (م).

(٣) ذكر عنه بنحوه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥٨).

قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُم﴾ قيل: هو مِنْ نعْتِ المشركين.

وقيل: هو استئنافُ كلامٍ؛ أي: من الذين فارقوا دينَهم.

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ فَرِحون بما عندَهم.

وقيل: أرادَ اليهودَ والنَّصارى، كما يقولُ الرَّجلُ: لا تكـنْ يهوديًّا، لا تكـن نصرانيًّا، لا تكن مشركاً، فيَحذف واوَ العطف.

ومَن قال: يرجعُ هذا إلى المشركين قال: تفرُّقُهم وتحزُّبُهم؛ إذ كلُّ قومٍ عبدوا صنمًا آخر.

وقرئ: ﴿فَرَّقُواْدِينَهُمْ﴾ بالتشديد[1].

* * *

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ عجَّبَ من المشركين في ترْكِ الإنابةِ إلى اللهِ مع تتابُعِ الحُجَجِ عليهم؛ أي: إذا مسَّ هؤلاء ﴿ضُرٌّ﴾؛ أي: أمرٌ يَضرُّ بهم من مرضٍ وشدَّةٍ دَعوا إليه مقبلينَ عليه وحدَه دون الأصنامِ؛ لعلمِهم بأنَّه لا فرجَ عندَها.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾؛ أي: ثـم إذا أعطاهـم عافيةً ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: يشركون به في العبادةِ.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: يفعلون ذلك ليكونوا كفَّاراً بما أنعَمْنا عليهم من كشْفِ الضُّرِّ.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقوا﴾، والباقون: ﴿فَرَّقُواْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ هـو أمـرُ تهديدٍ، وهذا خطـابٌ بعدَ الإخبـارِ عن غائـبٍ؛ لأنَّه قال: ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾؛ أي: تمتَّعوا أيُّها الفاعلون لهذا.

* * *

(٣٥) - ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾؛ أي: أيفعلونَ هذا بحجَّةٍ جاءَتْهم من السَّماء فهي تتكلَّمُ بما كانوا به يشركون؟

وقيل: أأنزلْنا عليهم كتاباً من السَّماء ينطقُ بهذا حتى يُعذَروا، أو رسولاً يتكلَّم بهذا؟

وإضافةُ الكلام إلى الكتاب توسُّعٌ.

والسُّـلطانُ: ما يَدفعُ به الإنسـانُ عن نفسِـهِ أمراً يَسـتوجبُ به عقوبةً، كما قال: ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

* * *

(٣٦) - ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ يعني: الخصْبَ والسَّـعَةَ؛ أي: أظهـروا السُّـرورَ بالنِّعمـةِ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: قَحْـطٌ وشـدَّةٌ وبـلاءٌ ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾؛ أي: قَنطـوا.

وبيَّنَ أنَّ تلكَ الشِّدَّةَ إنَّما تصيبُهم بشؤْمِ كفرِهم، وهذا صفةُ الكافرِ، فأمَّا المؤمنُ فيشكرُ ربَّه عندَ النِّعمةِ ويرجوهُ عندَ الشِّدَّةِ.

* * *

(٣٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: أنَّ اللهَ يبتلي كثيراً من النَّاسِ بالتَّضييقِ عليهم، وكثيراً بالبَسْطِ لهم في الرِّزْقِ، فلا يجبُ أنْ يدعوَهم الفقرُ إلى القنوطِ.

ويُسمَّى القَحْطُ سيِّئةً لأنَّه يسوءُ النَّاسَ، وأيضًا إذا كان جزاءَ السَّيئةِ فيُسمَّى سيئةً.

﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يعطي بقَدْرٍ ويضيِّقُ؛ كقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧].

* * *

(٣٨) ـ ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ يبسطُ الرِّزقَ ويَقْدِرُ، ولكنْ إنْ قتَّرَ وضَيَّقَ على قومٍ فقد أمَرَ مَنْ وُسِّعَ عليه الرِّزْقُ أنْ يوصِلَ إلى الفقيرِ كفايته ليَمتحنَ شُكْرَ الغنيِّ، ثم أمَرَ بإيتاء ذي القربى، وخيرُ الصَّدقةِ على القريبِ، وفيها صلةُ الرَّحم.

وقيل: الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ المواريث.

وقيل: لا نسخَ، بل للقريبِ حقٌّ لازمٌ في البرِّ على كلِّ حالٍ.

﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أي أطعِمِ السَّائلَ الطَّوَّافَ(١).

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ قيل: أشارَ إلى حقِّ الضَّيفِ.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾؛ أي: إعطاءُ الحقِّ أفضلُ من الإمساكِ لأنَّه يضاعِفُ لك الثَّواب.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥٨).

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: التَّقرُّبَ إليه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: يَظفرونَ بمطلوبِهم من الثَّوابِ في الآخرةِ.

* * *

(٣٩) - ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ما أعطيتُم من شيءٍ لطلبِ الازديادِ لتزيدوا من أموالِهم في أموالِكم ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يزدادُ عندَ اللهِ؛ أي: إذا أخذْتَ المكافأةَ من الخلْقِ فلا تطلبِ الثَّوابَ منَ اللهِ.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: فهو الذي يتضاعفُ ثوابُه للواحدِ عشرةً إلى سبعِ مئةِ ضعْفٍ وأكثر.

قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ في هديَّة الرَّجلِ الشَّيءَ يرجو أنْ يُثابَ أفضلَ منه، فذلك الذي لا يربو عندَ اللهِ ولا يُؤجَرُ صاحبُه، ولكن لا إثمَ عليه فيه(١).

وقال الضَّحاكُ: هذا رباً حلالٌ، لا وِزْرَ فيه ولا أَجْرَ(٢).

وقوله: ﴿فَـَٔاتِ﴾ خطابٌ للنَّبيِّ عليه الصلاة والسلام، والمراد: هو وأمَّتُه؛ لأنه قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٣٣٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٨٣)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩١).

قرأ نافع: ﴿لِتُربُوا﴾ بالتَّاء مضمومةً، ساكنةَ الواو على المخاطبة، وقرأ الباقون: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ بالياءِ مفتوحةً محرَّكةَ الواو[1].

و﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: أهل المضاعفةِ، يُقال: أصبَحْتَ مُضْعِفاً؛ أي: إبلُكَ ضِعافٌ، ومُسْمِناً؛ أي: إبلُكَ سِمانٌ؛ أي: فأولئك ذوو أضعافٍ من الحسناتِ، ولم يقل: «فأنتم المضعِفون» لأنَّه رجعَ من المخاطبة إلى المغايبةِ.

قرأ المعظَمُ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ بالمدِّ؛ أي: أعطيتم، وقرأ ابنُ كثيرٍ بالقصر[2]؛ أي: ما جئتم من الرِّبا، يُقال: أتيْتُ الصَّوابَ وأتيْتُ الخطأَ.

والرِّبا: الزِّيادةُ، ثم منها ما يحرُمُ، قال الله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ومنها ما لا يحرُمُ، وهو أنْ يهَبَ شيئاً ليستثيبَ أكثرَ منه.

وقيل: كان هذا حراماً على النَّبيِّ ﷺ على الخصوصِ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ يجوزُ أن تكونَ (ما) للجزاء، ويجوزُ أن تكونَ بمعنى: الذي.

* * *

(٤٠) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عادَ الكلامُ إلى الاحتجاجِ على المشركين؛ أي: هو الذي لا يعجزُهُ شيءٌ، فيخلُقُ ويرزقُ ويحيي ويميتُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٧)، و«التيسير» (ص:١٧٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٧)، و«التيسير» (ص:٨١).

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ أي: مِـنْ مَعبـودِيـكُـم ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ فكيـفَ أشـركتُموهم بـي؟ وأضافَ الشُّـركاءَ إليهـم لأنَّهم كانـوا يسـمُّونَهم بالآلهةِ والشُّـركاءِ.

***

(٤١) ـ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ قيل: هذا الفسادُ: عذابُ اللهِ والقَحْطُ وقلَّةُ النَّباتِ.

والبَرُّ: هو الموضعُ الذي لا يجري به نهرٌ.

والبحرُ: ما كان من المدائن والقُرى على شطِّ بحرٍ أو نهرٍ كبيرٍ.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: بالمعاصي ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ أي: ليذيقَ كفَّارَ مكَّةَ من سِني القَحْطِ ـ وهي سبعُ سنينَ ـ جزاءَ بعضِ ما عملوا.

وقيل: الفسادُ الواقعُ في البحرِ: ما كان مِنْ تغريقِ قومِ فرعونَ فيه وقومِ نوحٍ، ولهذا قال بعد هذا: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ليبلغَكُم الخبرُ المستفيضُ بأنَّ الأنبياءَ عليهم أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ دَعوا أممَهم إلى اللهِ، فكفروا، فحَلَّ بهمُ العقابُ، وهو ممَّا يُسمَّى فساداً في العُرْفِ؛ لأنَّه تخريبُ المنازلِ وتفويتٌ وخَسْفٌ وتغريقٌ، وقد سُمِّي العذابُ في القرآن شَرًّا وسَيِّئةً، وإنْ كانَ ما يفعلُه اللهُ لا يكونُ شَرًّا وسَيِّئةً وفساداً، ولكنَّه جزاءُ الشَّرِّ والسَّيئةِ والفسادِ.

وقيل: يعني بالفسادِ: الكفْرَ والظُّلْمَ والمعاصيَ وقطعَ الطُّرُقِ؛ أي: صارَ هذا الظُّلْمُ مانعاً من الزَّرْعِ والعَماراتِ والتِّجارات.

إنَّما أنزلَ اللهُ بهمُ القَحْطَ المبتنَى على قِلَّةِ الزَّرْعِ جزاءً لهم على بعضِ أعمالِهِم.

وقيل: أي: ظهرَ الفسادُ من أهلِ البَرِّ و[أهل][1] البحرِ.

وقال: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ لأنَّ مُعظَمَ الجزاءِ في الآخرةِ.

والقراءةُ: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بالياء، وقرأ ابنُ عبَّاسٍ بالنُّون[2].

* * *

(٤٢) - ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ﴾؛ أي: لتعتبروا بمَنْ قبلِكم حتى تعلَموا عاقبةَ مَنْ كذَّبَ الرُّسُلَ.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾؛ أي: كافرين فأُهْلِكوا بكفرِهم.

* * *

(٤٣) - ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾؛ أي: قد وَضَحَ الحقُّ، وبالغتَ في الإعذارِ، فاشتغِلْ بما أنتَ فيه ولا تحزنْ عليهم.

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

(٢) قرأ بالنون قنبل عن ابن كثير، وروح عن يعقوب. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٧)، و«التيسير» (ص:١٧٥)، و«النشر» (٢/ ٣٤٥). وذكرها عن ابن عباس: القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٤٣)، ولعله نقله عن المصنف.

وقـال الزَّجـاجُ: أي: أقمْ قصـدَكَ، واجعَلْ جِهتَـكَ اتِّباعَ الدِّينِ القَيِّـم[١]؛ يعني: الإسلام.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: يومُ القيامةِ، ولا يقدرُ أحـدٌ على رَدِّهِ، ولا يردُّهُ اللهُ تعالى[٢].

﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أي: يتفرَّقـونَ إلـى الجنَّـةِ والنَّـارِ، و﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ بمعنـى: يتصدَّعو نَ.

* * *

(٤٤) ـ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾؛ أي: مَنْ كفرَ في الدُّنيا لم يضرَّ اللهَ شيئاً ولا المؤمنين، بل ضَرَّ نفسَه؛ لأنَّه المعاقَبُ في الآخرةِ.

﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ أي: إنَّما يوطِّنونَ لأنفسِهم في الآخرة مَسكناً وقَراراً في الجنَّة، لا يزيدون بذلكَ في مُلْكِ اللهِ.

وقيل: لأنفسِهم يسوُّون المضاجعَ في القبورِ حتَّى يأْمَنوا عذابَ اللهِ.

* * *

(٤٥) ـ ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يَمْهَدونَ لأنفسِهم ليجزيَهم اللهُ من فضلِه.

وقيل: يَصَّدَّعونَ ليجزيَهم اللهُ؛ أي: ليتميَّزَ الكافرُ من المسلمِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٨٨).

(٢) عبارة الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٧٤): «يعني: يوم القيامة لا يقدر أحد على رد ذلك اليوم؛ لأن الله قد قضى بمجيئه، فإذا جاءكم لا مردَّ له»

ثم قيل: أي: ليجزيَهم فَضلاً من فضلِه.

وقيل: ليجزيَهم ثواباً دائماً بفضلِه، فـ﴿مِن﴾ بمعنى الباء.

***

(٤٦) ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ بالمطرِ؛ لأنَّها تتقدَّمُه وتُطْمِعُ فيه ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ يعني: الغيثَ والخِصْبَ؛ أي: يرسِلُ الرِّياحَ ليبشِّرَكُم وليذيقَكُم من رحمتِه.

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ ﴾ في البحرِ بتلْكَ الرِّياحِ.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ ﴾ من البحر ﴿مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني الرِّزقَ بالتِّجارةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النِّعمَ بالتَّوحيدِ والطَّاعةِ.

***

(٤٧) ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾؛ أي: بالحُجَجِ، كما أتيْتَ قريشاً بالحُجَجِ ﴿فَٱنتَقَمْنَا ﴾؛ أي: فكفَرَ بعضُهم فانتقمْنا ممَّنْ كفَرَ.

وقيل: البيِّناتُ: ما بَيَّنَ لهم من الشَّرائعِ، والانتقامُ: إحلالُ العذابِ بهم. والجرمُ هاهنا: الكفْرُ.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: أخبَرْنا به، ولا خُلْفَ في خَبرِنا.

***

(٤٨) ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾؛ أي: تُزعِجُه من حيثُ هو ﴿فَيَبْسُطُهُۥ ﴾ اللهُ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾؛ أي: قِطعاً بعدَ أنْ يبسطَه.

وأضافَ الإثارةَ إلى الرِّياح وإنْ كانَ الفعلُ من اللهِ على معنى: أنَّها تقعُ عندَ مجيءِ الرِّياحِ، كما قال: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا ﴾ [إبراهيم: ٣٦]؛ أي: ضَلَّ بهنَّ كثيرٌ.

وقيل: ﴿كِسَفًا ﴾؛ أي: قطعاً بعضُها فوقَ بعضٍ حتى تكثفَ.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾؛ أي: القَطْرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾؛ أي: من خلالِ السَّحابِ مع كفايته.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: يجعلُه قِطعاً متراكمةً، ثم يبسطُه كيفَ يشاء.

وقرأ ابن عامر: ﴿كِسْفًا﴾ بتسكينِ السين، والباقون بفتحِها[1]، والمعنى واحدٌ.

وقرئ: (من خَلَلِه)[2]؛ أي: مِنْ فُرَجِه.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ ﴾؛ أي: بالمطرِ ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾: يفرحونَ بنزولِ المطرِ عليهم.

* * *

(٤٩) ـ ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾؛ أي: يفرحونَ عَقيبَ أنْ كانوا مكتئبين باحتباسِ المطرِ عليهم وإنْ كانوا كذلك.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٨)، وذكر الداني في «التيسير» (ص: ١٧٥) خلافاً عن هشام.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٧٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكرها أبو حفص النسفي في «التيسير» (١١/ ١٥٨) رواية عن أبي عمرو.

واختلفوا في تكريرِ (من قبل) فقيل: هو تأكيدٌ، كقوله: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠].

قال الزَّجَّاجُ: الأولى داخلةٌ على الإنزالِ، والثَّانيةُ على المطرِ؛ أي: وإن كانوا من قبلِ إنزالِ المطرِ من قبلِ المطرِ[1]، وهو كما تقولُ: أمسِكْ من قبلِ أنْ تبلُغَ إلى المجلسِ، فلا يُنكَر هذا التَّكرير.

وفي هذا بُعْدٌ.

وقيل: ﴿مِن﴾ صلةٌ؛ أي: مِنْ قبلِ الزَّرع.

﴿لَمُبْلِسِينَ﴾؛ أي: آيسين، والتقدير: وما كانوا من قبلِه إلَّا مبلسيْنَ.

* * *

(٥٠) ـ ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: انظروا ببصائرِكُم إلى أثر المطرِ في النَّباتِ فاستدِلُّوا بذلك على [أنَّ][2] مَن قَدَر عليه قادرٌ على إحياءِ الموتى.

قرئ: ﴿أَثَرِ رحمةِ اللهِ﴾، وقرئ: ﴿ءَاثَٰرِ﴾[3]؛ لأنَّ رحمةَ اللهِ كثيرةٌ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٨٩).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قرأ بالجمع ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص، والباقون بالإفراد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

(٥١) ـ ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: وإنْ أرسلْنا ريحاً تفسِدُ الزَّرعَ حتى يرَوا الزَّرعَ مصفرًّا ﴿لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعدِ استبشارِهم يَعْمهونَ[1].

وقوله: ﴿فَرَأَوْهُ﴾ يعودُ إلى الزَّرْعِ، وهو الأثرُ المذكورُ في قوله: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: رأوه أصفرَ بعد الخُضرةِ.

والمعنى: أنَّهم يَفرحون عندَ النعمةِ، ويَخيبون ويكفرون عند الشِّدَّةِ.

وقيل: كانوا إذا استبطَؤوا المطرَ سألوا اللهَ، فإذا حُبِسَ عنهم كفروا بالله.

وقيل: أي: ولئن أرسلنا ريحاً فرأوا السَّحابَ مصفرًّا؛ لأنَّ اصفرارَ السَّحابِ يدلُّ على يبسِه وأنَّه لا مطرَ فيه.

وقوله: ﴿لَّظَلُّوا﴾؛ أي: لَيظَلُّنَّ، فأَوقعَ الماضيَ موقعَ المستقبلِ، ومعنى الكلامِ الشَّرطُ والجزاءُ.

***

(٥٢ ـ ٥٣) ـ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: وضحَتِ الحُججُ ولكنَّهم لإلفِهم تقليداً للأسلافِ في الكفرِ ماتَتْ عقولُهم فلا يتهيَّأُ لك إسماعُهم وهدايتُهم.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: لا يَسمعُ مواعظَ اللهِ إلَّا المؤمنين الذي يُصغونَ إلى أدلَّة التَّوحيد.

***

(١) قوله: «يعمهون» كذا في (أ)، والذي في الآية: ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

(٥٤) - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللهُ الذي خَلَقَكُم مِنْ ضُعْفٍ﴾؛ أي: من نطفةٍ ضعيفةٍ.

وقيل: أي: من ذي ضُعْفٍ؛ أي: من ماءٍ ذي ضُعْفٍ.

ومعنى ﴿ضُعْفٍ﴾: أنَّه قليلٌ.

وقرئ: ﴿ضَعْفٍ﴾ بالفتح[1]، والمعنى واحد.

وقيل أراد بالضعف: ما كانوا عليه في الابتداءِ من الطفوليَّة والصِّغر.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾؛ أي: ركَّب الرُّوحَ فيكم. وقيل: القوَّةَ في حال الشباب.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ يعني: الهرمَ، والشَّيبةُ مصدرٌ كالشَّيب، والمرادُ: جُملةُ الشَّيبِ، لا شيبٌ واحدٌ؛ لأنَّ المصدرَ يصلحُ للجملةِ، وكذا القولُ في الضَّعفِ والقوَّةِ.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: من الصِّغَرِ والكِبَرِ والضَّعْفِ والقُوَّةِ.

* * *

---

(١) قرأ عاصم وحمزة بالفتح، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٥ - ١٧٦). وقال ابن مجاهد: «وقَرأ حفص عن نفسه لا عن عاصم بضم الضَّاد». وقال الداني: «قرأ أبو بكر وحمزة: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ في الثلاثة بفتح الضاد، وكذلك روى حفصٌ عن عاصم فيهنَّ، غير أنه ترك ذلك واختار الضم اتِّباعًا منه لرواية حدَّثه بها الفضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، عن عبد الله بن عمر أن النبي عليه السلام أقرأه ذلك بالضم وردَّ عليه الفتح وأباه. وعطية يضعَّف، وما رواه حفص عن عاصم عن أئمته أصح، وبالوجهين آخذ في روايته لأتابع عاصمًا على قراءته، وأوافق حفصاً على اختياره.

(٥٥) ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؛ أي: يحلفُ هؤلاء المشركون أنَّهم ما لَبثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً، كما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وقيل: يحلفون ما لَبثوا في قبورِهم غيرَ ساعةٍ.

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كَذبوا في قولِهم: ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ كما كَذبوا في الدُّنيا.

وقيل: أي: هكذا كانوا يكذِّبونَ بالبعْثِ في الدُّنيا كما كَذَبوا في قولهم: لم نلبَثْ في القبورِ إلَّا ساعةً.

وقال مقاتلٌ: سببُ كذبِهم: أنَّهم يَستقلُّون قَدْرَ لُبْثِهم في الدُّنيا وفي القبورِ لَـمَّا عاينوا الآخرةَ[1].

وقيل: المرادُ أنَّهم كَذَبوا كَذِباً صريحاً من غيرِ أنْ يكونَ لهم عذرٌ، حتَّى يستدلَّ أهلُ الجَمْعِ بكذبِهم هذا على كذبِهم في الدُّنيا بالشِّرْكِ.

* * *

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾؛ أي: يقولُ المؤمنونَ للكفَّارِ: لقد لبثْتُم إلى يومِ البعْثِ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٢٠).

وقيل: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمِ اللهِ؛ إذ قال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: وقال الذين أوتوا العلمَ في كتابِ اللهِ والإيمانَ: لقد لبثْتُم إلى يومِ البعْثِ.

وعلى هذا ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بمعنى: كتابَ الله.

وقيل: الذين حُكِمَ لهم في الكتاب بالعلمِ.

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾؛ أي: اليومُ الذي كنتُم تنكرونَه.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: لا ينفعُهم العلمُ بالقيامةِ ولا الاعتذارُ يومَئذٍ. قرئ بالياء والتاء[1].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: لا يُطلَبُ منهم العُتْبَى والرُّجوعُ يومَئذٍ؛ لأنَّها دارُ جزاءٍ لا دارُ تكليفٍ.

***

(٥٨) - ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: بيَّنَّا لهم كلَّ مَثَلٍ ينبِّهُهم على التَّوحيدِ وصِدْقِ الرُّسُلِ ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾؛ أي: كالعصا وفَلْقِ البحرِ وغيرِهما ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: ما أنتم أيُّها المؤمنون إلَّا أصحابَ أباطيلَ. مِنْ فرطِ عنادِهم.

---

(١) قرأ بالياء عاصم وحمزة والكسائي، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٩)، و«التيسير» (ص:١٧٦).

(٥٩) ـ ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: كالذي طبعَ على قلوبِهم حتَّى لا يصدِّقوا فإنَّه يختمُ اللهُ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ توحيدَ اللهِ.

* * *

(٦٠) ـ ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾؛ أي: اصبِرْ على أذاهم؛ فإنَّ اللهَ ينصرُكَ.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾؛ أي: لا يستفزَّنَّكَ عن دينِكَ الذين لا يؤمنون؛ أي: هم ضُلَّالٌ، يُقال: استخفَّ فلانًا؛ أي: استجهلَه فحملَه على اتِّباعه في الغيِّ.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾؛ أي: لا يصدِّقون بالله تعالى، والله أعلم.

* * *

سُورَةُ لُقْمَانَ

تفسير سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ ـ ٥) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿الٓمٓ﴾ اسمُ السُّورة، ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه آياتُ الكتابِ الحكيمِ التي وُعِدْنَ في الكتب المتقدِّمة، كما تقولُ: باب كذا؛ أي: هذا بابُ كذا، وهذه آياتُ القرآنِ فتأمَّلوها، و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: المحكَم من كلِّ خَللٍ وتناقضٍ، وقيل: ذو الحكمةِ.

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: هذه الآياتُ هدًى يُهتدَى بها إلى سبيلِ الحقِّ، رَحِمَ اللهُ بها عبادَه، أودعَها ما تمسُّ إليه حاجتُهم حتى يَصِيروا بالعِلم والعَمل بها محسِنين، وخَصَّ المحسِنين لأنَّهم المنتفِعون.

وهو نصبٌ على الحال؛ أي: في حال الهداية والرَّحمة.

وقرأ حمزة: ﴿هدًى ورحمةٌ﴾ بالرَّفع[1]؛ أي: تلك هدًى ورحمةٌ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهو نعتٌ للمحسنين.

وقيل: هو ابتداءٌ، والخبرُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: على استقامةٍ في دينِهم ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزونَ بما يَطلبون من الثَّوابِ.

***

(٦) - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ عنَى الكفَّار المعرِضين عن هذا الكتابِ المشتغلِينَ بالحديثِ الباطلِ.

نزلت في النَّضْرِ بنِ الحارثِ، كانَ يخرجُ تاجراً إلى فارسَ، فيشتري أخبارَ الأعاجمِ، فيحدِّثُ بها قريشاً ويقولُ: إنَّ محمَّداً يحدِّثُكم بحديثِ عادٍ وثمودَ، وأنا أحدِّثُكم بحديثِ رُسْتُمَ وإسْفِنْديارَ وأخبارِ الأكاسرةِ، فيستمعونَ حديثَه، ولا يستمعون إلى القرآنِ[1].

وقيل: نزلَتِ الآيةُ في شراءِ القَيناتِ والمغنِّياتِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه: نزلَتْ في رجلٍ اشترى جاريةً تغنِّيه ليلاً ونهاراً[2].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٨٦) عن الكلبي ومقاتل. وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٣٢).
ورواه بنحوه البيهقي في «الشعب» (٥٩١٤) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا إسناد ساقط.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٩٩) من طريق آخر عن ابن عباس دون ذكر الآية. وفيه شيخ لم يسم.

(٢) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٩٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٦)، من رواية ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عبّاس. وثوير ضعيف.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٣٥) من رواية عطية العوفي عن ابن عباس بلفظ: ﴿لِيُضِلَّ عَن =

وفي الخبر: «لا يحلُّ تعليمُ المغنِّياتِ ولا بيعهُنَّ، وأثمانُهنَّ حرامٌ». رواه أبو أمامةَ عن النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام[1].

﴿يَشْتَرِي﴾؛ أي: يستبدلُ ويختارُ.

وقيل: أرادَ: ظاهرَ الشِّراء، كشراءِ النَّضرِ بنِ الحارثِ كتبَ الأعاجمِ.

والاشتغالُ بالغِناءِ على الدَّوامِ سَفَهٌ تُردُّ به الشَّهادةُ، فإنْ لم يَدُمْ لم تُرَدَّ.

= سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: سبيل الله: قراءة القرآن، وذكر الله إذا ذكره، وهو رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وإسناده مسلسل بالضعفاء.

وذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٢٧٨) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، لكن كتفسير للآية لا أنه سبب نزول، ولفظه: الرجل يشتري الجارية المغنية تغنيه ليلًا أو نهارًا.

وهكذا رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٥٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحو ما ذكره النحاس.

وروى البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٣٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٩٨٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في الآية: «الغناء وأشباهه».

(١) رواه الترمذي (١٢٨٢) و(٣١٩٥)، والحارث بن أبي أسامة (٨٩٢ ـ بغية الباحث)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣٨٤)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٨٤). ولفظ الترمذي: «لَا تَبِيعُوا القَيْنَاتِ وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ، وَلَا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ». وضعفه الترمذي، وفي إسناده عبيد الله بن زحر الإفريقي وهو ضعيف، وعلي بن يزيد الألهاني ضعيف جدًّا.

ورواه الطبراني في «الكبير» (٧٧٤٩) من طريق الوليد بن الوليد ـ وهو العنسي الدمشقي ـ عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن يحيى بن الحارث الذماري، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة به. والوليد بن الوليد قال عنه الدارقطني: منكر الحديث.

ورواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣١٥) من طريق مسلمة بن علي عن يحيى بن الحارث به، ونقل عن يحيى بن معين قوله: مسلمة بن علي ليس بشيء. وعن النسائي: متروك الحديث.

واستماعُ الحُداءِ ونشيدِ الأعراب والرَّجَزِ ممَّا لا بأسَ بهِ.

والأوتارُ والمعازفُ وطبلُ اللَّهوِ حرامٌ، وفي اليراع تردُّدٌ، والدُّفُّ مُباحٌ، ضُرِبَ بينَ يَدي رسولِ اللهِ ﷺ يوم دخلَ المدينةَ، فهمَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه بالزَّجر، فقال عليه الصلاة والسلام: «دعهُنَّ يا أبا بكرٍ حتَّى يعلمَ اليهودُ أنَّ دينَنا فسِيْحٌ[(١)]»، فكنَّ يضربْنَ ويقلْنَ:

نحنُ بناتُ النَّجارِ حبَّذا محمَّدٌ مِنْ جارِ[(٢)]

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليستزلَّ بحديثِ الباطل عن دينِ اللهِ.

وقرئ: ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفتح الياء[(٣)]؛ أي: ليصيرَ أمرُه إلى الضَّلالِ.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: إنَّه جاهلٌ فيما يَفعلُ.

---

(١) في (أ): «أن في ديننا فسح»، والمثبت من «البسيط» و«تفسير القرطبي» وقد صرح القرطبي بالنقل عن المصنف.

(٢) كذا ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٩٧).

وروى نحوه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه، دون قوله: «فهمَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه بالزَّجر، فقال عليه الصلاة والسلام: دعهُنَّ يا أبا بكرٍ حتَّى يعلمَ اليهودُ أنَّ دينَنا فسِيْحٌ». قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٤٩٤): هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يروه أحد من أصحاب السنن، وقد خرجه الحاكم في مستدركه كما يروى.

قلت: ويغني عنه في الاستدلال على المراد ما رواه البخاري (٩٤٩)، ومسلم (٨٩٢)، عن عائشةَ: أنَّ أبا بكر رضي الله عنه، دخل عليها وعندها جاريتان في أيام مِنى تُدفِّفان وتَضربان، والنبيُّ ﷺ مُتغشٍّ بثوبه، فانتَهرهما أبو بكر، فكشف النبيُّ ﷺ عن وجهه، فقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيامُ عيدٍ، وتلك الأيامُ أيامُ مِنًى». وفي رواية لأحمد (٢٤٥٤١): «تضربان بدُفَّين».

(٣) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

وقيل: يَرجِعُ هذا إلى مَن أضَلَّ.

﴿ويتَّخذُها﴾ بالرَّفع عطفاً على ﴿يَشْتَرِى﴾، وبالنَّصب عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾[1].

﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾؛ أي: يتَّخذَ سبيلَ اللهِ أو آياتِ القرآنِ، والسَّبيلُ قد يؤنَّث، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: مُذِلٌّ مُخزٍ.

* * *

(٧) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: إذا يُقرأ عليه القرآنُ ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾؛ أي ترفَّعَ عن الانقيادِ، وأعرضَ إعراضَ مَنْ في أذنَيْهِ وَقْرٌ؛ أي: صَممٌ.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: بَشِّرْهُ يا محمَّدُ بعذابِ الآخرةِ.

* * *

(٨ ـ ٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ذكرَ عذابَ الكفَّارِ، ثم ذكرَ أنَّ للمؤمنين الثَّوابَ في الجنَّاتِ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: دائمينَ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ أي: وعدَهم اللهُ هذا وَعداً حقًّا لا خُلْفَ فيه.

---

(١) قرأ بالنصب حفص وحمزة والكسائي، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

(١٠ - ١١) - ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: أقامَ السَّماواتِ من غيرِ عَمَدٍ أصلاً كما ترَوْنَ أنَّه لا عَمَدَ لها.

وقيل: مِنْ غيرِ عَمَدٍ ترون؛ أي: ثَمَّ عَمَدٌ لا ترَوْنَ.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابتَ لئلَّا ﴿تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: لئلَّا تتحرَّكَ.

وقيل: كراهيةَ أنْ تميدَ بكم.

﴿وَبَثَّ﴾؛ أي: نشَرَ فيها من أنواع الدَّوابِّ.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ رجعَ إلى الخبرِ عن نفسِه، وهو من بابِ تلوينِ الخِطابِ.

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾؛ أي: خلقَها من غيرِ شريكٍ، فبيِّنوا معاشرَ المشركين ما الذي خلقَ هذه الأصنامُ.

***

(١٢) - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ اتَّصلَ الرَّدُّ على المشركين بقصَّةِ لقمانَ، وقولِه لابنِه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾؛ فإنَّ كفَّارَ قريشٍ كانوا يراجعون أهلَ الكتابِ في أشياءَ، وكانت قصَّةُ لقمانَ مشهورةً عندَهم، وكان تصديقُ اليهود بقصَّةِ لقمانَ حجَّةً على المشركين، وكان إخبارُ النَّبيِّ عليه السلام بها من غيرِ تعلُّمٍ وقراءةِ كتابٍ معجزةً له.

قال سعيدُ بنُ المسيِّبِ: كان لقمانُ أسودَ من أهل مِصْرَ خيَّاطاً[١].

وقال مجاهدٌ: كان رجلاً أسودَ عظيمَ المَشَافر[٢].

وقيل: كان عبداً حبشيًّا مُجَدَّعاً.

وقيل: كان نجَّاراً.

وقيل: كان راعياً.

والأكثرون على أنَّه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا.

وقيل له: كنْتَ راعياً، فبِمَ بلغْتَ ما بلغْتَ؟ قال: بصدقِ الحديثِ، والصَّمْتِ عمَّا لا يَعنيني[٣].

والحكمةُ: العلمُ والفقهُ والإصابةُ[٤].

وفي الخبر: «لم يكنْ لقمانُ نبيًّا، ولكنْ كانَ عبداً كثيرَ التَّفكُّرِ، حسنَ اليقينِ، أحبَّ اللهَ فأحبَّه»[٥].

---

(١) كذا ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٩٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٧) دون قوله: «خياطاً»، وكونه كان خيَّاطًا رواه عن ابن المسيب: الإمام أحمد في «الزهد» (٢٦٨).

(٢) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٩١)، والطبري في «تفسيره» (١٨/٥٤٧)، والمشافر: جمع مشفر، والمشفر من البعير بمنزلة الشفة من الانسان وقد تستعار المشافر للإنسان. انظر: «المخصص» (٢/ ١٥١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٨) عن عمرو بن قيس قوله.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٨٩) عن مجاهد في تفسير الحكمة: «العقل والفقه والإصابة في القول من غير نبوة».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٩٩)، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٨٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره السيوطي في «الزيادات على الموضوعات» (١/ ٨٣) بإسناد ابن عساكر ثم قال: «نوفل بن سليمان الهنائي يروي الموضوعات».

ومَن قال: «كان نبيًّا» قال: «الحكمةُ: النُّبوَّةُ».

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾؛ أي: آتيناه أنِ اشكرْ للهِ؛ أي: أمَرْناه بذلكَ وألهَمْناه، وهذا تفسيرُ الحكمةِ.

وقيل: أي: بأنْ اشكرْ للهِ فشكرَ، وكان حكيماً بشكرِه لنا.

وقيل: آتيناه الحكمةَ وقلْنا له: اشكرْ للهِ على الحكمةِ.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: ومَن يطعِ اللهَ فإنَّما يعملُ لنفسِه؛ لأنَّ نفعَ الثَّوابِ عائدٌ إليه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: كفَرَ النِّعمَ فلم يوحِّد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ لـ﴿غَنِيٌّ﴾ عن عبادةِ خلقِه ﴿حَمِيدٌ﴾ عندَ الخلْقِ.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: آتيناهُ الحكمةَ إذ قال لابنِه.

قال ابنُ عبَّاسٍ: كان ابنُه وامرأتُه كفَّاراً فما زالَ يعظُهم حتى أسلموا[1].

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ هو كلامٌ يُستعطفُ به المدعوُّ ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تجعلْ له شريكاً في العبادةِ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: لا شيءَ من الذُّنوبِ أعظمُ من الشِّركِ؛ لأنَّ عذابَه لا ينقطعُ.

والظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه. ومَنْ أشركَ وضعَ العبادةَ غيرَ موضعِها.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٠١) عن مقاتل، وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٣٤).

(١٤) ـ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ قيل: هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه، وإنْ كانَ مما أخبرَ اللهُ عنه؛ أي: قال لابنِه: لا تشركْ باللهِ، ولا تطعْ في الشِّرْكِ والدَيْكَ، فإنَّ اللهَ أوصى بهما في طاعتِهما فيما لا يكون شركاً ومعصيةً للهِ تعالى.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ إلى قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾: ﴿لَا تُشْرِكْ ﴾ و﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾.

وقيل: وقلْنا للُقمانَ فيما آتيناه من الحكمةِ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾؛ أي: قلْنا له: اشكرْ للهِ، وقلْنا له: وصَّيْنا الإنسانَ.

وقيل: وإذ قالَ لقمانُ لابنِه: لا تشركْ، ونحنُ وصَّيْنا الإنسانَ بوالديه حُسناً، وأمَرْنا النَّاسَ بهذا، وأمرَ لقمانُ به ابنَه، ثم عادَ الكلامُ إلى تمامِ ما وَعظَ به لقمانُ ابنَه، وليس يبعدُ على الجملةِ اعتراضُ كلامٍ في أثناءِ قصَّةٍ.

وهذه الآيةُ ـ أعني: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ ـ نزلَتْ في سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ كما ذكرناه في (سورة العنكبوت)[1].

أي: أمرْنا الإنسانَ ببرِّ الوالدَيْنِ، فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ، وقد تقولُ: أوصِ فلاناً بي، فيُفَهمُ منه أنَّك تريد: ليفعلَ بي خيراً.

ثم نبَّه على مُوجِبِ البرِّ فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾؛ أي: حملَتْه في بطنِها وهي تزدادُ كلَّ يومٍ ضَعفاً على ضَعْفٍ.

---

(١) عند تفسير الآية (٨) منها.

وقيل: يعني: ضَعْفَ الولَدِ على ضَعْفِ الأمِّ.

وقيل: المرأةُ ضعيفةُ الخِلْقَةِ، ثم يُضعفُها الحملُ.

وانتصب ﴿وَهْنًا﴾ على المصدَرِ، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ مبتدأٌ، ثم اعترَض ما اعترَضَ، ثم رجعَ إلى خبرِ المبتدأ فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؛ أي: وصَّيْنا الإنسانَ بوالديهِ أنِ اشكرْ لي ولوالديْكَ.

والفِصالُ: فَصْلُ الولدِ عن الأمِّ كي لا يَرضعَ؛ أي: وفصالُه في انقضاءِ عامَيْنِ، والمقصودُ مِنَ الفِصالِ: الفِطامُ، ويُقالُ: انفصلَ عن كذا؛ أي: تميَّزَ، وبه سُمِّيَ الفَصيلُ.

﴿ٱشْكُرْ لِى﴾ على نعمةِ الإيجادِ ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ على نعمةِ التَّربيةِ، والوصيَّةُ في معنى القولِ؛ أي: قلنا له: ﴿ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: أنا أحاسِبُكَ على أعمالِكَ.

***

(١٥) - ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ﴾؛ أي: أمرتُكَ بالبرِّ بهما، ولكنْ لا يجوزُ لك طاعتُهما في الشِّركِ بي، فلا مسامحةَ في الشِّركِ.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؛ أي: صاحبْهما في أمورِ الدُّنيا بالمعروفِ فيما لا يفسِدُ عليك دينَكَ.

والمعروفُ: ما كان في عُرْفِ الشَّرائعِ حَسناً، فيجبُ الإنفاقُ على الفقيرِ من الوالدَيْنِ وإنْ كانَ كافراً.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾؛ يعني: محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقيل: أبا بكرٍ؛ لأنَّه حين أسلمَ أتاه عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ وسعيدُ بنُ زيدٍ وعثمانُ والزُّبيرُ وطلحةُ فقالوا له: آمنْتَ وصدَّقْتَ محمَّداً؟ فقال: نعم، فتابَعوه، وأتَوا رسولَ اللهِ ﷺ فآمنوا وصدَّقوا[١].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: ولَـمَّا أسلمَ سعدٌ أسلمَ معه أخواه عامرٌ وعويمرٌ، فلم يبقَ منهم مشركٌ إلَّا عتبةُ[٢].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة، و﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الفاء؛ أي: اتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليَّ فإليَّ مرجعُكم.

***

(١٦) - ﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ قال ابنُ لقمانَ: إنْ عملْتُ بالخطيئةِ حيثُ لا يراني أحدٌ، كيفَ يعلمُه اللهُ؟ فقال لقمانُ: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ الآية؛ أي: المسألةُ التي سألْتَني عنها ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾، أو: إنَّ فِعْلَةَ الإنسانِ وإنْ صغُرَتْ يأتِ بها اللهُ.

أو الكنايةُ للقصَّة، كقولِكَ: إنَّها هندٌ قائمةٌ؛ أي: إن القصَّةَ ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾.

قرئ: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنَّصْبِ؛ أي: إنْ تَكُ الخطيئةُ أو المَظْلمةُ أو السَّيئةُ مثقالَ حبَّةٍ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٦) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٠٧) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقرئ بالرَّفع[1]، وعلى هذا قال: ﴿تَكُ﴾ بالتَّاءِ لأنَّها ترجعُ إلى معنى: خردلةٍ؛ أي: إنْ تَكُ حبَّةٌ من خَرْدلٍ.

وقيل: أنَّثَ لأنَّ مِثقالَ الحبَّةِ من الخردَلِ إمَّا سيئةٌ أو حسنةٌ، كما قال: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأنَّثَ وإنْ كان المثلُ مُذكَّراً؛ لأنَّه أرادَ الحسنات.

و﴿تَكُ﴾ هاهنا بمعنى: تَقَعْ، فلا يقتضي خبراً، وهذا مُتَّصلٌ بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: إليَّ مصيرُكم فأثيبُكم بأعمالِكم حتَّى مثقالَ حبَّةٍ مِنْ خَردَلٍ.

﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يعني: الصَّخرةَ تحتَ الأرضيْنَ السَّبعِ وعليها الأرضُ[2].

وقيل: هي الصَّخرةُ على ظهر الحوتِ.

وقال السُّديُّ: هي صخرةٌ ليسَتْ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ[3] [بل هي وراءَ سبعِ أرضينَ عليها مَلَكٌ قائمٌ؛ لأنه قال: ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾][4]، وفيهما غُنيةٌ عن قوله: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾. **وهذا الذي قالَه ممكنٌ.**

ويُمكِنُ أن يقالَ: قولُه: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ تأكيدٌ؛ كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ ـ ٢].

---

(١) قرأ بالرفع نافع والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٢٠٧)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٠٩)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٩٠) عن الكلبي قوله بلفظ: «الصخرة التي الأرض عليها».

(٣) إلى هنا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٢٠٨)، وروي من طريق السدي عن ابن عباس وابن مسعود رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٥٦). قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٥٠): «وهذا كله ضعيف لا يثبته سند، وإنما معنى الكلام المبالغة والانتهاء في التفهيم، أي أن قدرته تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء وفي الأرض».

(٤) ما بين معكوفتين من (م).

﴿يَأْتِ بِهَا﴾؛ أي: يعلمُها ﴿اللَّهُ﴾، وقيل: يُجازِ عليها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾؛ أي: باستخراجِها ﴿خَبِيرٌ﴾ بمكانِها.

وقيل: أرادَ الرِّزقَ؛ أي: إن كان للإنسانِ رزقٌ بمثقالِ حبَّةِ خَرْدلٍ في هذه المواضعِ جاءَ اللهُ بها حتى يسوقَها إلى مَنْ هي رزقُه؛ أي: لا تهتمَّ للرزقِ حتى تشتغلَ به عن أداءِ الفرائضِ، وعن اتِّباعِ سبيلِ مَنْ أنابَ إليَّ.

***

(١٧) - ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: حافظْ عليها ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويدخلُ فيه جملةُ الطَّاعاتِ ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ويدخلُ فيه جملةُ المعاصي ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ من الأذى في الأمر بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر.

وقيل: على شدائدِ الدُّنيا كالأمراض وغيرها.

﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: من حقيقةِ الإيمانِ[١]؛ يعني: الصَّبرَ على المكارِه.

وقيل: أي: إقامةُ الصَّلاةِ والأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ مِن حقِّ الأمورِ التي أمرَ اللهُ بها.

وقيل: هو إشارةٌ إلى جميعِ ما تقدَّمَ من الأوامرِ.

وقيل: عزمُ الأمورِ: كلُّ أمرٍ يدلُّ على أنَّ صاحبَه ثابتٌ في دينِه مستبصِرٌ في أمرِه.

---

(١) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما الواحدي في «البسيط» (٦/ ٢٣٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥٢٩) عن عطاء.

(١٨) ـ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قرئ: ﴿ولا تُصاعِرْ﴾[١]؛ أي: لا تتكبَّرْ على النَّاسِ ولا تُعْرِضْ عنهم تكبُّراً عليهم.

والصَّعَرَ: داءٌ يأخذُ الإبلَ في رؤوسِها وأعناقِها، فيَحدثُ بها ازورارٌ، وقد يسمَّى الملِكُ أَصْيدَ، وهو من الصَّيَد، وهو داءٌ يأخذُ البعيرَ مثل الصَّعَرِ.

ويُقال: صَعَّرَ وصَاعَرَ بمعنًى، مثل: ضعَّفَ وضاعَفَ.

وقيل: هو أنْ تلويَ شِدْقَكَ إذا ذُكِرَ الرَّجلُ عندكَ كأنَّك تَحقِرُه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي: اختيالاً وتعظُّماً.

***

(١٩) ـ ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ القَصْدُ: ما بينَ الإسرافِ والتَّقصيرِ، والمرادُ: النَّهيُ عن الخُيلاءِ، وقيل: عن الإسراعِ في المشيِ، وفي الخبر: «سرعةُ المشيِ تُذْهِبُ بهاءَ المؤمنِ»[٢].

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾؛ أي: انقصْ، يُقال: فلانٌ يغضُّ من فلانٍ.

والصَّوتُ: مصدرُ صاتَ يصيْتُ صَوتاً، فهو صائتٌ، ويقال: صوَّتَ تصويتاً،

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ بتشديد العين من غيرِ ألف، والباقون بالألف وتخفيف العين. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٩٠) من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف جدًّا، وروي من طرق أخرى عن أبي هريرة، ومن حديث ابن عمر وأبي سعيد وأنس رضي الله عنهم وأسانيدها ضعيفة جدًّا، وانظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٣٠).

فهو مصوِّتٌ، ورجل صَاتٌ؛ أي: شديدُ الصَّوتِ، بمعنى: صائتٍ، كقولهم: رجلٌ مالٌ ونالٌ؛ أي: كثيرُ المال والنَّوال.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾؛ أي: أقبَحَ الأصواتِ، يقال: رجلٌ منكرُ الوجهِ؛ أي: قبيحُ الوجهِ.

ويُضرَبُ المَثلُ بالحمار في نُكْرِ الصَّوتِ، وإنْ كان في الأصواتِ ما هو أنكرُ وأقبحُ من صوتِ الحمارِ.

ووحَّد الصَّوتَ وهو مضاف إلى الجماعة لأنَّه مصدرٌ، والمصدرُ يدلُّ على الكثرةِ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾؛ أي: ألم تعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِنْ نجمٍ وشمسٍ وقمرٍ، وقيل: يعني: المطر ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ في الجبالِ والأشجارِ والثِّمارِ، وكلِّ ما ينتفِعُ به الآدميُّ.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾؛ أي: أوسَعَ وأكملَ؛ يُقال: سَبغَتِ النِّعمةُ؛ أي: تمَّتْ، ومنه: درعٌ سابِغَةٌ.

قرئ: ﴿نِعَمَهُۥ﴾ و﴿نِعْمَةً﴾[1]، والمعنَى واحدٌ؛ لأنَّ المفردةُ تدلُّ على الكثرةِ، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص على الجمع والتذكير، والباقون على التوحيد والتأنيث. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

ثم قيل: الظاهرةُ: الإسلامُ، والباطنةُ: ما سترَ من الذُّنوبِ.

وقيل: الظاهرةُ: تسويةُ الخَلْقِ، والباطنةُ: المعرفةُ.

وقيل: الظاهرةُ: محمَّدٌ ﷺ، والباطنةُ: المعرفةُ.

وقال المحاسبيُّ: الظاهرةُ: نِعَم الدُّنيا، والباطنةُ: نِعَمُ العُقبى[1].

وقيل: الظَّاهرةُ: ما ترى الأبصارُ من المالِ والجمالِ والجاهِ في النَّاسِ وتوفيقِ الطَّاعاتِ، والباطنةُ: ما يجدُه المرءُ في نفسِه من العلمِ باللهِ وحسنِ اليقينِ، وما يدفعُ اللهُ عن العبدِ من الآفاتِ.

وقوله: ﴿نِعَمَهُۥ﴾ بالإضافة؛ قيل: نِعمُ اللهِ تعالى، ومَن قرأ: ﴿نعمَةً﴾ بالفتح وبالتنوين قال: هي للجمعِ كما تقدَّم.

وقيل: هي نعمةٌ مخصوصةٌ، في الظَّاهر: شهادةُ اللِّسان، وفي الباطنِ: معرفةُ القلبِ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: يخاصمُ لسببِ الشِّرك، وهو مقلِّدٌ لا علْمَ عندَه.

* * *

(٢١) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هلمُّوا إلى كتابِ اللهِ ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ﴾ أسلافَنا في الكفرِ باللهِ والشِّركِ ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: أوَلو كانَ تقليدُ الآباءِ بتزيينِ الشيطان بلا حُجَّةٍ ولا دليلٍ ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [وجواب

(١) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٥٢): «الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة».

الاستفهام محذوف][1]؛ أي: هل يتَّبعونه لو كانوا عقلاءَ؟ أي: ينبغي أنْ لا يتَّبعوا الشَّيطانَ.

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: إلى الكفرِ الذي عاقبتُه النَّارُ.

* * *

(٢٢) - ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: مَن يُخْلِصْ عملَه للهِ، فكانَ محسِناً في عملِه؛ لأنَّ الإحسانَ والطَّاعةَ من غير معرفةِ القلبِ لا تنفعُ، والإيمانُ من غيرِ طاعة أخرى لا يحسُنُ.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: تعلَّقَ بما يخلِّصُه مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: مصيرُها.

* * *

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾؛ أي: الحسابُ علينا فنحنُ نجازِيْهم.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: نبقيْهم في الدُّنيا مُدَّةً قليلةً يتمتَّعونَ بها ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾؛ أي: ندخلُهم كُرهاً عَذاباً غليظاً شديدَ الإيلامِ.

ولفظ (مَنْ) يصلحُ للواحد والجمع، فلهذا قال: ﴿كَفَرَ﴾، ثم قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾، و﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

---

(١) ما بين معكوفتين من (م).

(٢٥) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: هم يعترفونَ بأنَّ اللهَ خالقُهم ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما هدانا من دينِه، وعلى إيضاحِ الحُجَّةِ؛ إذ قررَّهم بما فيه الحجَّةُ عليهم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يميِّزونَ بينَ الأمورِ، ولا يتركون الإِلْفَ والتَّقليدَ وإنْ لاحتِ الحُجَجُ. وقيل: أي: لا ينظرون ولا يتدبَّرون.

***

(٢٦) ـ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هو مالكُ الجميعِ، فلا ينظرونَ ولا يتدبَّرون، فلا حاجةَ له إلى إيمانِ هؤلاءِ، وإنَّما أمرَهم لينفعَهم.

***

(٢٧) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ احتجَّ على المشركينَ بما احتجَّ، ثم بيَّنَ أنَّ معانيَ كلامِ الرَّبِّ لا تَنفدُ ولا نهايةَ لها، فما أنزلَه عبارةٌ عن معاني خطابٍ لا نهايةَ له(١)، فالكلماتُ يمكنُ حملُها على الكلامِ القديمِ، [ولفظُ الجمعِ وإنْ كان كلامُه واحداً كقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]، ويُمكنُ حملُها على

---

(١) في (أ): «فما يقدر أن ينزل عبارات عن معاني خطابه لا نفادَ له»، والمثبت من (م).

العباراتِ عن الكلامِ القديمِ][1] فيرجعُ إلى أنَّ مقدوراتِه لا نهايةَ لها.

وقال القفَّالُ: لَـمَّا ذكرَ ما سخَّرَه لهم ممَّا في السَّماواتِ والأرضِ، وأنَّه أسبغَ النِّعمَ، نبَّهَ على أنَّ الأشجارَ لو كانت أقلاماً، والبحارَ مِداداً، فكُتبَ بها عجائبُ صنعِ اللهِ الدَّالَّةُ على قدرتِه ووحدانيتِه = لم تَنْفَدْ تلْكَ العجائبُ.

فردَّ معنى الكلماتِ إلى المقدوراتِ، **وحَمْلُ الآيةِ على الكلامِ القديمِ أولى**، والمخلوقُ لا بُدَّ له من نهايةٍ، وإذا نُفِيَتِ النِّهايةُ عن مقدوراتِه فهو نفيُ النِّهايةِ عمَّا يقدرُ في المستقبلِ على إيجادِه، فأمَّا ما حصرَه الوجودُ وعدَّه فلا بُدَّ مِنْ تناهِيْهِ، والقديمُ لا نهايةَ له على التَّحقيقِ.

وسببُ النُّزولِ قولُ المشركينَ: هذا الذي يقولُه محمَّدٌ إنَّما يقولُه مِنْ تِلقاءِ نفسِه، فلا بُدَّ أنْ ينفدَ، فردَّ اللهُ قولَهم، وبيَّنَ أنَّ كلامَه لا ينفدُ[2].

وقيل: أي: لَـمَا نَفِدَتِ الكلماتُ التي تقعُ عبارةً عن معلوماتِ اللهِ؛ إذ لا نهايةَ لمعلوماتِه، والمرادُ: لا تَنفَدُ كلماتُه وحكمتُه ومعلوماتُه، **وهذا قريبٌ** ممَّا تقدَّمَ؛ لأنَّ ما علمَ أخبرَ عنه، وخبرُه قديمٌ لا نهايةَ له.

وعلى القولِ الآخرِ: ما يقدرُ على إظهارِه من العباراتِ الدَّالَّةِ على علمِه وخبرِه لا نهايةَ له.

﴿**والبحرَ**﴾ بالنَّصبِ؛ أي: ولو أنَّ البحرَ يمدُّه، وقرئ: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ بالرَّفع[3].

---

(١) في (أ): «فما يقدر أن ينزل عبارات عن معاني خطابه لا نفادَ له»، والمثبت من (م).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٠٠) دون عزو، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩٧) وعزاه لقتادة.

(٣) قرأ بالنصب أبو عمرو، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

﴿يَمُدُّهُۥ﴾: يزيدُ فيه، يُقال: مَدَّ النَّهرُ؛ أي: زادَ ماؤُه.

وفي الكلامِ اختصارٌ؛ أي: لو أنَّ الأشجارَ بُرِيَتْ أقلاماً، وكانَ البحرُ مِداداً ومعَه أبحرٌ تَنصَبُّ فيه وتزيدُه، فكُتِبَ بهذه الأقلامِ والبحورِ معانيَ كلامِ[1] اللهِ تعالى لنَفِدَتِ الأقلامُ والبحورُ ولم تفْنَ معاني كلامِه؛ فإنَّ كلَّ ما تعلَّقَ به علمُه تعلَّقَ به خبرُه، فلا نهايةَ لمعلوماتِه ومُخْبَراتِه، فالكلماتُ يجوزُ أنْ تُحمَلَ على خبرِه، وعلى مُخبَرِه الذي هو المعلوماتُ، وعلى المقدورات أيضاً، فهي ثلاثةُ مَسالِكَ.

وقال أبو عبيدة: البحرُ هاهنا: الماءُ العَذْبُ، وأمَّا الماءُ المِلْحُ فلا تنبُتُ فيه الأقلامُ[2]؛ أي: ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ، والبحرُ سبعةُ أبحرٍ تمدُّ ما في الأرض من الأقلام حتى يكونَ جميع ما تنبتُه هذه البحور أقلاماً، فكتب بها كلماتُ الله، ما نَفِدتْ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكِه فلا يُغالَب ﴿حَكِيمٌ﴾ يُطْلِعُ عبادَه من عملِه على ما يريدُ.

***

(٢٨) - ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: خَلْقُ الجميعِ وبَعْثُهم بعدَ موتِهم كخَلْقِ نفسٍ واحدةٍ في أنَّه لا يعتاصُ على اللهِ شيءٌ، فليسَ علمُه في قياسِ علمِ الخلقِ، ولا كلامُه ولا قدرتُه، فكيفَ يُشرَكُ به أحدٌ، ولا أحدَ [إلا][3] هو؟

---

(١) في (أ): «معاني كتاب كلمات»، والمثبت من المختصر.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٢٨). وهذا قول بعيد.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

نزلَتْ في كفَّارِ قريشٍ قالوا: إنَّ اللهَ تعالى خلَقَنا أطواراً؛ نطفةً وعلقةً ومضغةً ولحماً، فكيف يزعمُ محمَّدٌ أنَّا نُبْعَثُ خَلقاً جديداً في ساعةٍ واحدةٍ؟ فنزلَتِ الآيةُ[1].

أي: قدرتُه على خَلْقِ الجميعِ وبَعْثِ الجميعِ كقدرتِه على خَلْقِ نفسٍ واحدةٍ وبَعْثِ نفسٍ واحدةٍ.

وفي الآيةِ حذفٌ؛ أي: إلَّا كبَعْثِ نفسٍ واحدةٍ، فحذفَ المضافُ، وهو كقوله: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ أي: كدَورانِ الذي يُغشَى عليه.

وقال الكسائيُّ: هذا يكونُ في الفعلِ، فأمَّا الاسمُ فلا يجوزُ ذلك فيه، لا يُقال: له رأسٌ كالثَّورِ، بل يُقال: له أكلٌ كالثَّورِ[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالِهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالِهم.

***

(٢٩) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾؛ أي: يزيد من هذا في ذاك ليَتمَّ به قِوامُ العالَم، وهذا ممَّا نبَّهَ به أيضاً على كمال قدرتِه.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾؛ أي: لمنافعِ الخَلْقِ ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أي: يجري إلى أنْ يكون الأجَلُ المسمَّى، وهو القيامةُ؛ أي: مَن قدرَ على هذه الأشياءِ فلا بُدَّ من أن يكونَ عالماً بها، والعالِم بها عالمٌ بأعمالِكم.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٤٣٨).

(٢) لم أقف عليه عن الكسائي، وذكر نحوه الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٥) و(٢/ ٣٢٩)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٧٥).

(٣٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: خلقَ ما شاءَ كما شاءَ لأنَّه هو الحقُّ، لا إلهَ إلَّا هو ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾؛ أي: يعبدونه، لأنَّ ما عُبِدَ دُعِيَ في النَّوازلِ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: عالٍ على كلِّ شيءٍ، وما دونه فهو متذلِّلٌ مُنقادٌ لعهدِهِ، وهو الكبيرُ، فكلُّ شيءٍ مُتصاغرٌ له.

***

(٣١) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: برحمةِ الله ومِنَّتِهِ عليكم مع أهوالِ البحرِ وصِغَرِ الفلكِ ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: مِن عجائبِ صُنعِه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: مَنْ صبرَ على أداءِ الفرائضِ.

وقيل: خصَّهم لأنَّهم المنتفِعون.

وقيل: فيه آياتٌ لِـمَنْ هَمُّهُ أنْ يشكُرَ خالقَه ويصبرَ على طاعتِه وعن معصيتِه، فأمَّا مَنْ هَمُّه اتِّباعُ الهوى فلا يتدبَّرُ الحُجَجِ.

***

(٣٢) ـ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾؛ أي: أصابَتْهم شِدَّةٌ في البحرِ فزعوا إلى اللهِ، ثم يناقِضون إذا زالَتِ الشِّدَّةُ ويُشركون، وهذا مِن فَرْطِ الجهل.

﴿غَشِيَهُم﴾؛ أي: علاهم ﴿مَّوْجٌ﴾ وهو ما ارتفعَ من البحرِ.

﴿كَالظُّلَلِ﴾؛ أي: كالجبال، وقيل: كالسَّحابِ تراكبَ بعضُه على بعضٍ، فهي تُظِلُّ مَنْ تحتَها.

﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾؛ أي: فزِعوا إليه بالإخلاص عالِمِين بأنَّه لا يكشفُ الشِّدَّةَ غيرُه.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾؛ أي: مِنْ هَوْلِ البحرِ، والمراد من قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾: الاستقبالُ؛ لأنَّه قال: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ و(لَـمَّا) لا تستدعي جواباً بالفاء؛ أي: منهم مقتصدٌ ومنهم جائرٌ، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾[1]، والجَورُ نقيضُ الاقتصاد، وكذلك الجحدُ بآياتِ اللهِ، وإذا كان الجحدُ بمعنى الجَورِ فمعنى الاقتصاد: الإقرارُ بآياتِ اللهِ.

قال مجاهدٌ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: في القول، وإن كان مضمِراً للكفرِ؛ أي: [ليس][2] بفاحشِ القَولِ في ربِّه.

والخَتَّـارُ: الكفورُ، والختـرُ: الغَدْرُ، يُقال: خترَ يختِرُ ويختُرُ ـ بالكسـر والضَّم ـ خَتْراً.

وقال قطربٌ: لا يُقال: «إنْ تأتِني لكَ درهمٌ»، بل يُقال: «إنْ تأتني أُعْطِكَ»، وتقول: «إنْ تأتني فلَكَ درهمٌ»، فكذا لا يُقال: فلمَّا نجاهم فاقتصدَ بعضُهم وجحدَ بعضُهم، فلَمَّا لم يذكرْ فعلاً بل قال: ﴿فَمِنْهُم﴾ حَسُنَ دخول الفاء، وعلى ما ذكرنا قبلَ هذا فالمعنى: إذا نجَّاهم، أو: إنْ نجَّاهم، حتى يرجعَ إلى الاستقبال.

* * *

---

(١) أي: دل على هذا المضمر الذي هو «ومنهم جائر» قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ فأومأ بهذا إلى نقيض قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾. «البسيط» (١٨/ ١٢٥).

(٢) ما بين معكوفتين من (م).

(٣٣) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ختمَ السُّورة بالتَّحذيرِ من القيامة ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾؛ أي: عقابَ يومٍ ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾؛ أي: كلُّ امرئٍ تُهمُّه نفسُه، وهذا كقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

وفيه إضمارٌ؛ أي: لا يجزي فيه والدٌ.

والمؤمن لا يشفعُ لأحدٍ إلَّا بإذنِ الله، فالشَّفيعُ من جهةِ الله لا من جهةِ الخَلْقِ.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: بالبعث ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ أي: عن الإسلام ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾؛ أي: الشَّيطانُ.

* * *

(٣٤) - ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: عِلْمُ وقْتِ قيامِ السَّاعةِ، ولا يعلمُه أحدٌ غيرُه، فإيَّاكم أنْ تأتيَكُم بغتةً وأنتم مغترُّون بالدُّنيا.

قال مقاتلٌ: نزلَتْ في رجلٍ من أهل الباديةِ اسمُه الوارثُ بنُ عَمرٍو المحاربيُّ، سألَ النَّبيَّ ﷺ عن السَّاعة ووقتِها، وقالَ: إنَّ أرضَنا أجدبَتْ فمتى ينزلُ الغيثُ؟ وتركْتُ امرأتي حُبلى فماذا تلدُ؟ وقد علمْتُ أينَ وُلدْتُ فبأيِّ

أرضٍ أمـوتُ؟ وقـد علمْتُ ما عملْـتُ اليومَ فما أعمل غـداً؟ فأنزلَ اللهُ هـذه الآيةَ[١].

وقال أبو هريرةَ: سألَ رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ عن السَّاعة، فقال: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السَّائِلِ، ولكنْ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلَّا اللهُ»، ثم قرأ هذه الآية[٢].

وروى ابنُ عمرَ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلَّا اللهُ»، فذكر ما في هذه الآية[٣].

قال ابنُ عبَّاسٍ: هذه الخمسةُ لا يعلمهُنَّ إلَّا اللهُ، لا يعلمُها ملَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ، فمَن ادَّعى أنَّه يعلم شيئاً من هذه فقد كفرَ بالقرآنِ؛ لأنَّه خالفَه[٤].

ثم إنَّ الأنبياءَ يعلمون كثيراً من الغيبِ بتعريفِ اللهِ إيَّاهم، والمرادُ: إبطالُ قولِ الكَهَنةِ والمنجِّمين ومَن يستسقي بالأَنْواءِ، وقد يُعرَفُ بطولِ التَّجاربِ أشياءُ كذكورةِ الحمل وأنوثَتِه، وذلك بتعليمِ اللهِ العبدَ، واللهُ يعلمُ من غير استفادةٍ من معلِّمٍ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٤٠)، ورواه ابن المنذر في «تفسيره» عن عكرمة ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) ـ وسمى الرجل: الوارث من بني مازن. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٧)، واسم الرجل فيه: الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب.

وذكره الواحدي أيضاً في «البسيط» (١٨/ ١٢٨) وعزاه لمجاهد ومقاتل، واسم الرجل في مطبوعه: الوارث بن عمرو المجازي. ولعله محرف عن: المحاربي.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٨٥) عن مجاهد ولم يسمه.

فهذا الخبر مع الاختلاف في اسم صاحب القصة لم يرو بسند متصل إلى النبي ﷺ، وإنما هي مراسيل عن عكرمة ومجاهد ومقاتل.

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، والرواية التي ذكرها المصنف مختصرة.

(٣) رواه البخاري (٧٣٧٩).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٢٨).

﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ولم يقل: «بأيَّةِ أرضٍ» قال الفرَّاء: اكتفى بتأنيث الأرضِ من تأنيثِ (أي)[1].

وقال الأخفشُ: يجوز: مررْتُ بجاريةٍ أيِّ جارية، وأيَّةِ جاريةٍ[2].

والله تعالى أعلم بالصَّواب، وإليه المرجع والمآب.

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٢٩). وفي «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٧٨): «وقد تقول: أي امرأة جاءتك، وأية امرأة جاءتك».

سُورَةُ السَّجدَة

سورة ألم تنزيل السجدة وتفسيرها

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿الٓمٓ﴾ اسمُ السُّورةِ؛ أي: هذه السُّورةُ تنزيلُ الكتابِ؛ أي: مما نزَّلَه اللهُ من الكتابِ الذي وعدَكَ إنزالَه عليك، وبيَّنَ في الكتبِ السَّالفةِ أنْ يُنزلَه عليك.

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شكَّ أنَّه من جملةِ ذلك الكتاب.

﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: من عند الله، فليس بشعرٍ ولا سحرٍ ولا كهانةٍ ولا أساطيرِ الأوَّلين.

***

(٣) ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾؛ أي: أيقولونَ افتراه؛ أي: أفترى محمَّدٌ هذا القرآنَ وليس من إنزال اللهِ ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ كذَّبهم في دعوى الافتراء؛ أي: بل القرآنُ حقٌّ من ربِّكَ ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا﴾ يعني: العربَ ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ أي: لم يشاهدوا هم ولا آباؤهم نبيًّا، وكانت الحُجَّةُ ثابتةً للهِ عليهم بإنذارِ مَن تقدَّم من الرُّسل، وإنْ لم يرَوا رسولاً.

***

(٤) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عرَّفهم كمالَ قدرتِه ليستمعوا القرآنَ ويتأمَّلوه.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال الحسنُ: من أيَّام الدُّنيا[1].

وقال الضَّحَّاكُ: في ستَّة آلاف سنةٍ[2]؛ أي: في مدَّةِ ستَّة أيَّامٍ من أيَّامِ الآخرة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: استولى عليه، وقد سبق معناه فيما قبلُ.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ أي: فإليه فارْجِعوا.

* * *

(٥) ـ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يُنزل القضاءَ والقدرَ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يرجعُ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ أي: في يومٍ من أيَّام الآخرةِ مثلَ ألفِ سنةٍ مما تعدُّون من أيَّام الدُّنيا[3].

وقوله: ﴿يَعْرُجُ﴾؛ أي: يرجعُ ذلك الأمرُ والتَّدبيرُ إليه بعدَ انقضاءِ الدُّنيا، ومعنى ﴿يَعْرُجُ﴾: يرتفعُ ويصعدُ، واليومُ الذي مقدارُه ألفُ سنةٍ يومُ القيامة[4].

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٢٠)، والسمعاني في «تفسيره» (٤/ ٢٤٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٠)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧١٤) من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٣٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله: «أي: في يومٍ من أيَّام الآخرةِ مثلَ ألفِ سنةٍ مما تعدُّون».

(٤) هذا الكلام هو شرح صاحب «النظم» ـ وهو أبو الحسن الجرجاني ـ لكلام ابن عباس كما ذكر =

وسيأتي معنى قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وقيل: أي: ينزلُ الوحيُ والقضاءُ مع جبريلَ عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يعرجُ جبريلُ إلى السَّماء في يومٍ واحدٍ من أيَّامِ الدُّنيا، وهو مسيرةُ ألفِ سنةٍ؛ خمسُ مئةٍ للنُّزولِ وخمسُ مئةٍ للصعودِ؛ لأنَّ قَدْرَ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ لابن آدمَ، فإذا قطعَه الملَكُ في يومٍ بادئاً وعائداً فقد قطعَ مسيرةَ ألفِ سنةٍ في يومٍ.

وعلى هذا فالكناية في ﴿يَعْرُجُ﴾ عن الملَكِ، ولم يجْرِ له ذِكْرٌ.

قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى السَّماء على لغةِ مَن يذكِّر السَّماء، أو إلى الله، والمراد: إلى الموضع الذي أمرُه فيه.

وسألَ عبدُ اللهِ بنُ فيروزَ عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ عن هذه الآيةِ وعن قولِه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فقال: أيَّامٌ سمَّاها اللهُ سبحانَه وتعالى، ولا أدري ما هي، وأكرَهُ أنْ أقولَ فيها ما لا أعلمَ[1].

وقيل: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾؛ أي: في يومٍ مقدارُه، فـ﴿كَانَ﴾ صلةٌ.

وقيل: ليس صلةً، بل المعنى: في يومٍ قد عرفْتُم قديماً أنَّ مقدارَه ألفَ سنةٍ.

وقيل: عنى بـ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: ما يكتبُه في اللَّوحِ المحفوظِ للملائكةِ، حتَّى إذا رأوه في اللَّوح عَلِموا أنَّه أراد أن يَنْزِلُوا به على النَّبيِّ ﷺ.

= الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٣٥)، حيث عقب قول ابن عباس بقوله: «وهذا القولُ اختيار صاحب «النظم»، وقد شرحه وبينه فقال: قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يعني به أمر الدنيا إلى آخره، يدبره الله ـ عز وجل ـ مدة أيام الدنيا، ثم يعرج إليه ذلك الأمر والتدبير بعد انقضاء الدنيا وفنائها، ومعنى ﴿يَعْرُجُ﴾: يرتفع، ومعنى يرتفع: يصير، كقولك: ارتفع أمرنا إلى الأمير، أي: صار إليه، وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة، مقداره ألف سنة، هذا كلامه».

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٩٨)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٧) نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» والحاكم.

وقيل: عنى بـ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: تسخيرَ الشَّمسِ في الطُّلوعِ والغروبِ، فإنَّ ما بينَ الشَّرقِ والغربِ في مسيرِ الشَّمسِ في الطُّلوعِ خمسُ مئةِ سنةٍ، وفي الغروبِ خمسُ مئةِ سنةٍ، فذلك ألفُ سنةٍ، فقولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الشَّمسُ تطلعُ من السَّماءِ وتدورُ فوقَ الأرضِ، وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ كنايةٌ عن السَّماء أو عن اسمِ اللهِ؛ لأنَّها إذا رجعَتْ إلى اللهِ فقد رجعَتْ إلى السَّماءِ، ومصيرُها إلى السَّماءِ، وهي لا تكونُ في السَّماء بمعنى غيبوبتِها تحتَ الأرضِ، وعودها طلوعها فوقَ الأرضِ، وأمَّا قولُه في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] هو إشارةٌ إلى يومِ القيامةِ بخلافِ هذه الآية.

ومَن قال بالقول الأوَّل قال: أوقاتُ القيامةِ مختلفةٌ، فيُعذِّبُ الكافرُ بجنسٍ من العذابِ ألفَ سنةٍ، ثم يُنْقَلُ إلى جنسٍ آخرَ مدَّتُه خمسونَ ألفَ سنة.

* * *

(٦ - ٩) - ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذي يخلقُ هذه الأشياءَ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالمُ ما غابَ عن الخلقِ وما حضرَهم.

﴿الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قُرئ بسكون اللَّام؛ أي: أحسنَ كلَّ شيءٍ، فقولُه: ﴿خَلْقَهُ﴾ بدل من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾.

و﴿أَحْسَنَ﴾؛ أي: أحكمَ وأتقنَ، ومعنى الإتقانِ: العلمُ.

وقيل: توحَّد بظاهر الإحسان؛ أي: أحسنَ خلقَ كلِّ شيء.

وقرئ: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفتح اللَّام[1].

---

(١) قرأ بسكون اللام ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، =

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني: آدمَ، كان أوَّلُه طيناً، فلمَّا نُفِخَ فيه الرُّوحُ صار جسماً ولحماً.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾؛ أي: ولدَه وذريَّتَه ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾؛ أي: مِنْ ماءٍ سُلَّ من ظهورِ الرِّجال ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾؛ أي: من نطفةٍ ضعيفةٍ رقيقةٍ، لا خطرَ لها عند النَّاس.

والمهانَةُ: الضَّعفُ، يُقال: مَهُنَ مَهانةً، وقومٌ مُهناءُ.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ رجعَ إلى آدمَ؛ أي: سوَّى خلْقَه ونفخَ فيه من روحِه، ثم رجع إلى ذرِّيته فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾.

وقيل: ثم جعلَ ذلك المهينَ خَلْقاً معتدلاً، وركَّبَ فيه الرُّوحَ، والتَّسويةُ: التَّهيئةُ والتَّعديلُ للخلْقِ.

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ أضافَ الرُّوحَ إلى نفسِه تشريفاً؛ أي: جعلَه حيًّا ناطقًا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتميِّزوا بينَ الأشياء ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ثم أنتم لا تشكرونَ، بل تكفرونَ.

* * *

(١٠) ـ ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ لمَّا ذكرَ نعمَه على بني آدم بيَّنَ أنَّ معظمَهم أنكروا البعث وقالوا: أإذا بَلِينا في الأرضِ أنُعادُ؟!

يُقال: ضَلَّ الماءُ في اللَّبنِ؛ أي: ذهبَ، وأُضِلَّ الميتُ في القبر[1]، ويُقال:

= و«التيسير» (ص: ١٧٧).

(١) «أُضِلَّ الميتُ»؛ أي: دُفن، قال النابغة:

وآب مضلوه بعينِ جَلِيَّةٍ وغودِرَ بالجَوْلانِ حزمٌ ونائلُ

أي: دافنوه، و«أَضَلَّ الميتَ»: دفنه وغيبه في التراب، قال المخبَّل: =

ضَلَلْتُ أضِلُّ من باب ضرَبَ يضرِبُ، وضَلِلْتُ أضَلُ من باب علِمْتُ أعلَمُ.

وقرأ الحسنُ: (أإذا صَلَلْنا في الأرضِ)(١)؛ مِنْ صَلَّ اللَّحمُ: إذا أَنْتَن.

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾؛ أي: أنُعادُ؟!

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: ليس لهم جحودُ قدرةِ اللهِ تعالى على الإعادةِ؛ لأنَّهم معترِفون بقدرتِه، ولكنَّهم اعتقدوا أنْ لا حسابَ، وأنَّهم لا يلقَونَ اللهَ.

* * *

(١١) ـ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ﴾ بِقَبْضِ الأرواحِ.

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾؛ أي: لا يُبقي منكم أحداً، يُقال: توفَّاهُ اللهُ؛ أي: استوفى روحَه، وتوفَّيْتُ مالي من فلانٍ؛ أي: استوفَيْتُه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تصيرونَ بعدَ الموتِ أحياءً، فلا تغترُّوا بقولِكم: «أئذا كنَّا تراباً أنعادُ»، وقيل: التَّوفي بمعنى الإحصاء؛ أي: يحصيكم ملَكُ الموتِ، فلا يغيبُ أحدٌ عن إحصائِه.

* * *

(١٢) ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

= أضلت بنو قيس بن سعد عميدها وفارسها في الدهر قيس بن عاصم

يعني: دفنته. انظر: «الصحاح» (مادة: ضلل)، و«البسيط» (١٨/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(١) قيدها بعضهم بفتح اللام وآخرون بكسرها، ونسبت لعلي وابن عباس والحسن وأبان بن سعيد بن العاص وغيرهم. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣١)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٠)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦١٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٠)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٣٩)، و«البحر» (١٧/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لو رأيْتَ منكري البعثِ يومَ القيامةِ لرأيْتَ ما يُعتبَرُ به، فأُضمرَ هذا الخبرُ.

يُقال: نَكَسَ رأسَه؛ أي: طأطأ رأسَه من النَّدمِ والخزيِ والحزن.

﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: يقولون: ربَّنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ أي: أبصرْنا ما كنَّا نجهلُ وسمعْنا ما كنَّا نُنكرُ ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ أي: قد زالَتْ عنَّا الشُّكوكُ الآن، وكانوا يبصرون ويسمعون في الدُّنيا ولكنْ لم يكونوا يتدبَّرون، فكانوا كمَن لا يبصرُ ولا يسمعُ، فلمَّا تنبَّهوا في الآخرةِ صاروا كأنَّهم حينَئذٍ سَمِعوا وأبصروا.

وقيل: أي: ربَّنا لكَ الحُجَّةُ فقد أبصرْنا رسلَكَ وعجائِبَ خلقِكَ في الدُّنيا، وسمعْنا كلامَهم فلا حُجَّةَ لنا، فهذا اعترافٌ منهم وطلبٌ لأنْ يُردُّوا إلى الدُّنيا ليؤمنوا.

***

(١٣) ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ أي: كفرُهم مراغَمةٌ لنا، ولو شئْنا لهديناهم، ولكنْ سبَقَ القضاءُ لأقوامٍ بالشَّقاء وأقوامٍ بالسَّعادةِ.

وهذه الهدايةُ: خلقُ المعرفةِ في القلبِ.

وتأويلُ المعتزلةِ: ولو شئْنا لأكرَهْناهم على الهدى بإظهار الآياتِ الهائلةِ، أو: ولو شئْنا لرددناهم إلى الدُّنيا إذْ سألوا ذلك، ولكنْ حَقَّ القولُ بأنِّي لا أفعلُ ذلكَ.

***

(١٤) ـ ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾؛ أي: يقولُ اللهُ لهم غداً، أو يقـولُ الملَكُ بأمرِ اللهِ إذا أُدخِلوا النَّار: «ذوقوا العذابَ» وجاءَ إضمارُ العذابِ لدلالةِ الحالِ عليه، ولجَريانِ ذِكْرِه في مواضعَ.

﴿نَسِيتُمْ﴾؛ أي: تركتُم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ أي: العملَ لهذا اليوم، أو تركْتُم الإيمانَ بهذا اليومِ ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؛ أي: تركناكم في العذابِ ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الذي لا ينقطع.

***

(١٥) - ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ هـو تسـليةٌ للنَّبيِّ عليـه الصلاة والسلام؛ أي: إنَّهم لإلْفِهم الكفرَ لا يؤمنون بك، إنَّما يؤمنُ بكَ وبالآياتِ المتدبِّرونَ لها، وهم الذين إذا قُرِئ عليهم القرآنُ ووُعظوا به ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ عـلى وجوهِهم تعظيماً لآياتِه.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: قالوا في سجودِهم: سبحانَ اللهِ وبحمدِه، وسبحانَ ربِّيَ الأعلى وبحمدِه؛ أي: تنزيهاً للهِ عن قولِ المشركين.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: لا يترَفَّعون عن الصَّلاة للهِ والسُّجودِ.

***

(١٦) - ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾؛ أي: تتباعَدُ جنوبُهم عن مواضعِ الاضطجاعِ؛ اشتغالاً منهم بالصَّلاةِ، يُقال: جَفا الشَّيءُ يجفو جَفاءً؛ أي: نأَى.

وجفَّتْ عيني عن الغَمْضِ؛ أي: نَبَتْ عنه. والمضاجعُ: جمعُ المَضْجَعِ.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: للخوفِ من النَّارِ، وللطَّمعِ في الجنَّةِ، فهو نصبٌ لأنَّه مفعولٌ له، وقيل: لأنَّه مصدرٌ؛ أي يخافونَ خوفاً ويطمَعونَ طمعاً.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يعني: إخراجَ الزَّكاةِ المفروضةِ، وقيل: يعني الفرضَ والنَّفلَ.

* * *

(١٧) - ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ بيَّنَ أنَّ مَنْ أشركَ يُقالُ له: ذُقِ العذابَ، ثم بيَّنَ أنَّ مَنْ آمنَ وأطاعَ فكم له من الثَّواب.

قالَ الزَّجاجُ: لَـمَّا أسرُّوا صلاةَ اللَّيلِ أُسرَّ وخُبِّئَ وأُعِدَّ لهم الثَّوابُ العظيمُ[(١)].

وإنَّما لا يعلمُ النَّاسُ كُنْهَ ثوابِ اللهِ لأنَّ مقدوراتِه لا تتناهى، فلا يُتصوَّرُ حصرُها، وفي الخبرِ: «يقول اللهُ: أعددْتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشرٍ، اقرؤوا إنْ شئْتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»[(٢)].

أي: لا تعلمُ نفسٌ من هؤلاء المؤمنين ﴿مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ ممَّا تَقَرُّ به أعينُهم من الثَّوابِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: الأمرُ في هذا أجلُّ وأعظمُ من أن يُعرَف تفسيرُه[(٣)].

وقرئ: ﴿أُخْفِيَ﴾ بفتح الياء، وقرأ حمزةُ: ﴿أُخْفِيْ لهم﴾ بسكون الياء[(٤)]؛ أي: ما أُخْفِيْ لهم أنا، وقراءةُ عبد الله: (ما نُخْفِي) بالنون[(٥)].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٠٧)، والمذكور هو معنى كلامه.

(٢) رواه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٥٢).

(٤) هي قراءة حمزة، وباقي السبعة بفتح الياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٩)، و«إعراب =

(١٨) - ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾؛ أي: ليسَ المؤمنُ كالفاسقِ، فلهذا آتينا هؤلاءِ المؤمنين الثَّوابَ العظيمَ.

وقد قيل: في قوله: ﴿جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦]: هو الوليدُ بنُ عقبةَ.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: هذا الفاسقُ [الوليدُ بن] عقبةَ بن أبي مُعيطٍ، قالَ لعليٍّ رضي الله عنه: أنا أحَدُّ منكَ سِناناً، وأبسطُ لِساناً، وأملأُ منك للكتيبةِ، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: اسكُتْ، فإنَّما أنتَ فاسقٌ. فنزلَتْ هذه الآيةُ[1].

فالمؤمنُ عليٌّ رضي الله عنه، والفاسقُ الوليدُ.

وقد قيل في قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦]: هو الوليدُ بنُ عقبةَ[2]، وفي روايةٍ عن ابن عبَّاسٍ: هذا الفاسقُ عقبةُ بنُ أبي مُعيطٍ[3].

= القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٢).

(١) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٤٣)، والآجري في «الشريعة» (١٥٩٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١١٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٢١)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، وهذا إسناد ساقط.
ورواه الأصفهاني في «الأغاني» (٥/ ١٥٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٩)، من طريق آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي، وهو ضعيف.
وأورده عن ابن عباس أيضاً السمرقندي والثعلبي والواحدي والبغوي وابن عطية وابن الجوزي في تفاسيرهم، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٢٥)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٣)، عن عطاء بن يسار مرسلاً. وما بين معكوفتين من المصادر.

(٢) كذا وقع في (أ)، وهو تكرار لا لزوم له.

(٣) هي رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في «البسيط» للواحدي (١٨/ ١٥١).

﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ قال الفرَّاءُ: لم يقلْ: لا يستويان؛ لأنَّ الاثنين إذا كانا غيرَ مَصمودٍ لهما[١] ذهبا مذهبَ الجمْعِ، تقول: ما جعلَ اللهُ المسلمَ كالكافرِ، فلا تُسوِّيَنَّ بينهم، ويجوز: فلا تُسَوِّيَنَّ بينهما[٢].

وقال الزجَّاجُ: (مَن) يصلحُ للواحدِ والجمعِ؛ أي: لا يستوي المؤمنونَ والكافرونَ.

وقال أيضاً: يجوزُ أنْ يُقالَ للاثنين: «لا يستوون» لأنَّ الاثنينَ جماعةٌ[٣].

* * *

(١٩) - ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أخبرَ عن مقرِّ الفريقين غداً، فللمؤمنينَ ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أي: يأوون إلى الجنَّاتِ، فأضافَ الجنَّاتِ إلى المأوى؛ لأنَّ ذلك الموضعَ يتضمَّنُ جنَّاتٍ.

﴿نُزُلًۢا﴾ النُّزلُ: ما يُهيَّأُ للنَّازلِ والضَّيْفِ، وهو نصب على الحالِ من (الجنَّات)؛ أي: لهم الجنَّاتُ مُعدَّةً، ويجوزُ أن يكون مفعولاً له.

* * *

(٢٠) - ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: النَّارُ مأوًى لهم بدلَ الجنَّة للمؤمنِ.

---

(١) أي: غير مقصودين، تقول: صمده وصمد إليه؛ أي: قصده. انظر: «اللسان» (مادة: صمد).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٢).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٠٨).

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾؛ أي: إذا دفعَهم لهبُ النَّارِ إلى أعلاها رُدُّوا إلى موضعِهم منها؛ لأنَّهم يطمعونَ في الخروج منها، وهو كقولك: كلَّما أرادَ الحائطُ أنْ يقعَ دعمْتُه.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: يقولُ لهم خزنةُ النَّارِ، أو يقولُ اللهُ لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قيل: الجوعُ الذي أصابَ أهل مكَّةَ سبعَ سنينَ حتى أكلوا الجيَفَ.

وقيل: مصائبُ الدُّنيا.

وقيل: القتلُ يومَ بدرٍ.

وقيل: عذابُ القبرِ. **وفيه نظرٌ**؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وأمَّا العذابُ الأكبرُ فقد قيل: القتلُ يومَ بدرٍ.

وقيل: الاصطِلام في الدُّنيا.

ومَن حملَ العذابَ الأدنى على القتلِ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: يرجعُ مَن بقيَ منهم.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني: المشركينَ.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ نزلت في المستهزئين، وقد انتقمَ الله منهم ببدرٍ[1].

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٥٦) عن مقاتل.

(٢٣ ـ ٢٥) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ أي: أعطينا موسى التَّوراةَ، كما أعطيناكَ الفرقانَ ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي: من لقائِكَ موسى يومَ القيامةِ مع سائرِ الأنبياءِ، أو: مِنْ لقائِه في ليلةِ الإسراءِ.

وقيل: لا تكنْ في مِرْيةٍ مِنْ أنَّكَ لَقيتَه ليلةَ الإسراءِ، كما تقولُ لمن يستَيْقِنُ شيئاً: لا تكنْ في شَكٍّ مِنْ أمرِ كذا؛ أي: لسْتَ في شَكٍّ منه.

وقيل: فيه إضمارٌ؛ أي: آتيناه التَّوراةَ فلقِيَ من قومِه الأذى فصبرَ عليه، ولا تَكُ في مريةٍ منْ أنْ تلقَى ما لقِيَ هو، واصبرْ كما صبرَ.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: آتينا موسى الكتابَ، وجعلناه هدًى لبني إسرائيلَ.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ مُتَّصلٌ بقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي: من لقاءِ الرَّبِّ.

وقيل: فلا تكُ في مريةٍ من لقاء موسى الكتابَ، فإنَّ اللهَ تعالى ألقى إليه التَّوراةَ.

وفي الخبر: «فلا تكنْ في مريةٍ مِنْ أنْ يلقَى موسى ربَّه يومَ القيامةِ في الجنَّة»[1]، وإنْ قيل له في الدُّنيا: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾؛ أي: جعلْنا الكتابَ هدًى، أو: جعلْنا موسى هدًى ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٧٥٨)، والضياء المقدسي في «المختارة» (١٠/ ٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ بلفظ: «من لقاء موسى ربَّه عز وجل». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٠): «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح»، وكذا صحح إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٦).

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾؛ أي: قادةً وقدوةً يُقتدَى بهم في دينِهم ﴿يَهْدُونَ﴾؛ أي: يَدْعون النَّاسَ إلى طاعةِ اللهِ.

وقيل: أرادَ بهم الأنبياءَ، وقيل: الفقهاءَ والعلماءَ.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: أمرناهم بدعاءِ الخلْقِ إلى طاعةِ اللهِ.

وقيل: ﴿بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: لأمرنا؛ أي: يهدونَ النَّاسَ لدينِنا.

﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قُرِئ بفتح اللَّام وتشديدِ الميم، وهو للمجازاة؛ أي: لَـمَّا صبروا جعلناهم أئمَّةً، وقُرِئ: ﴿لِمَا﴾ بكسر اللَّام والتَّخفيف[1]؛ أي: لصبرِهم جعلناهم أئمَّةً.

وهذا الصَّبرُ: صبرٌ على الدِّينِ وعلى البلاءِ، وقيل: صبروا عن الدُّنيا.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: ماتوا على يقينٍ بآياتِنا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: يقضي ويحكمُ بينَ المؤمنين والكفَّار، فيجازي كلًّا بما يستحقُّ.

* * *

(٢٦) - ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ قرئ بالياءِ، والنُّون؛ أي: أولم نبيِّنْ لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ القرونَ الكافرةَ مِنْ قبلِهم.

* * *

(٢٧) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾؛ أي: أولم يعلموا كمالَ قدرتِنا بسوقِنا الماءَ إلى الأرضِ اليابسةِ التي لا نباتَ فيها لنُحيِيَها.

قال ابنُ عبَّاسٍ: هي أرضٌ باليمنِ ليس فيها بحرٌ ولا نهرٌ، ويأتيها السَّيلُ من حيثُ لا يعلمونَ، فيزرعونَ عليه ما أحبُّوا من الحبوبِ(١).

وقيل: ﴿الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: كلُّ أرضٍ لا نباتَ فيها.

والماءُ هاهنا: هو السَّيل أو المطرُ، ويُقالُ: ناقةٌ جُرُزٌ؛ إذا كانَتْ تأكلُ كلَّ شيءٍ، وسيفٌ جُرَازٌ؛ أي: يقطعُ كلَّ شيءٍ.

***

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾؛ أي: القضاءُ؛ أي: يستعجلونَ العذابَ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾؛ أي: يَضطرُّهم إلى الإيمانِ ذلك اليومُ، ولكنْ لا ينفعُهم.

وقيل: يومُ الفتحِ: يومُ بدرٍ.

وقيل: يومُ فتحِ مكَّةَ.

وقيل: نزلت في قومٍ معيَّنين قالوا هذا، فلمَّا فُتِحَتْ مكَّةُ هربوا، فلحقَهم خالدُ بنُ الوليدِ فقتلَهم(٢).

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٦١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٤١)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٦) مختصراً بلفظ: أرض باليمن. وروى الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١١١)، عنه قال: «الجرزُ التي لا تمطر إلا مطرًا لا يغني عنها شيئًا إلا ما يأتيها من السيول».

(٢) ذكر المفسرون هنا قصة مفادها: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة تحصَّن بنو جَذِيمة على أعلى جبل، =

(٣٠) ـ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ هذا منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ ﴿وَانْتَظِرْ﴾؛ أي: انتظِرْ موعدي لكَ، قيل: يعني يومَ بدرٍ.

وقيل: يعني عذابَ الاصطلام[1].

وقيل: عذابَ الآخرةِ.

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾؛ أي: ينتظِرون بكم حوادثَ الزَّمانِ.

وقيل: العذابَ؛ أي: حالتُهم ذلك وإن كانوا لا يقصدون انتظارَ العذابَ.

وقيل: ليسَتِ الآيةُ منسوخةً؛ إذْ قد يقعُ الإعراض مع الأمرِ بالقتال كالهدنة وغيرها.

وقيل: أَعرِضْ عنهم بعدما أبلغْتَ في الحُجَّةِ.

والله تعالى أعلمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجِعُ والمآبُ.

***

= فأرسل إليهم خالد بن الوليد يستنزلهم، فقالوا: قد أسلمنا، قال: فانزلوا إن أسلمتم، فنزلوا فوضع فيهم السيف فقتلهم لأنهم كانوا قتلوا عوفًا أبا عبد الرحمن بن عوف وجدًّا لِخالد قبل ذلك.

كذا ذكره أبو حفص النسفي والسمرقندي عن الكلبي، وأبو حفص عن الحسن، والفراء دون عزو، وهذا مع أنه لا سند له يصح مردودٌ عقلاً ونقلاً:

أما عقلاً ففيه أن خالداً رضي الله عنه قتلهم بعد أن أسلموا وأعلنوا إسلامهم ـ وعلم منهم هو ذلك ـ بسبب إحنة كانت بينه وبينهم في الجاهلية، ولا يجوز نسبة هذا لصحابي جليل، ولا يمكن أن يقبل به رسول الله ﷺ.

وأما نقلاً فيرده ما رواه البخاري (٤٣٣٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بَعَثَ النَّبيُّ ﷺ خالدَ بنَ الوليد إلى بني جَذِيمةَ، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحْسِنوا أنْ يَقولوا: أسلَمْنا، فجعلوا يقولون: صَبَأْنا صَبَأْنا، فجَعَل خالدٌ يَقتلُ منهم ويأسِرُ... » الحديث. وهذا يهدم ما استدلوا به من أساسه، حيث قالوا: صبأنا، ولم يقولوا: أسلمنا، فقتلوا لأن ما أشهروه هو الكفر في الظاهر، لا الإسلام كما في ذاك الخبر.

(١) الاصطلام: الاستئصال. انظر: «الصحاح» (مادة: صلم).

سُورَةُ الأَحْزَابِ

تفسير سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ ـ ٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ نزلَتِ السُّورة في المنافقينَ وإيذائِهم رسولَ اللهِ ﷺ وطعنِهم فيه وفي مناكحتِه وغيرِها.

نزلَتِ الآيةُ الأولى في أبي سفيانَ وعكرمةَ بنِ أبي جهلٍ وأبي الأعوْرِ السُّلميِّ قدموا المدينةَ بعد قتالِ أُحُدٍ، ونزلوا على عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ، وقد أعطاهم رسولُ اللهِ ﷺ الأمانَ على أنْ يكلِّموه، فقامَ معَهم عبدُ اللهِ بنُ أبي سَرْحٍ وطُعمةُ بنُ أُبيرق وقالوا: ارْفُضْ ذِكْرَ آلهتنا اللَّات والعُزَّى ومناةَ، وقُلْ: «إنَّ لها شفاعةً ومنفعةً لمن عبدَها» وندعُكَ وربَّكَ، فشَقَّ على النَّبيِّ ﷺ قولُهم، فقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ: يا رسولَ اللهِ، ائذَنْ لنا في قتلِهم، فقال: «إنِّي قد أعطيتُهم الأمانَ»، فقال عمرُ: اخرجوا في لعنةِ اللهِ وغضبِه، وأمرَ النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام عمرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله عنه أنْ يخرجَهم، فنزلَتِ الآيةُ[1].

---

(١) ذكره دون سند مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٥٠٠)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٣٤)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٤٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣١٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٥١). وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٣٢): هكذا ذكره =

أي: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وحدَه، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالموافقةِ لهم والمُداهنةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما طلبَ هؤلاءِ، وما جرى بينَهم وبينَ عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ والمنافقين.

وقيل: اتَّقِ اللهَ في نقْضِ العهدِ.

ثم؛ قيل: الخطابُ للأمَّةِ، وقيل: له ولهم.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: القرآنَ، وفيه زجرٌ عن اتِّباع مراسمِ الجاهليةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قرئ بالياء والتاء[1].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: اعتمِدْ عليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: حسبُكَ اللهُ قائماً بأمورِكَ، وقد كفاكَ أمرَ الأحزابِ، وسيكفيْكَ كلَّ أمرٍ.

* * *

(٤) - ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ نزلَتْ في جميلِ بنِ مَعْمَرِ بنِ حبيبٍ الفِهريِّ، وكان رجلاً حافظاً لِـمَا يسمعُ، فقالَتْ قريشٌ: ما حفظَ هذه الأشياءَ إلَّا وله قلبانِ، وكان يقولُ: لي قلبانُ أعقِلُ بكلِّ واحدٍ منهما أفضلَ من عقلِ محمَّدٍ، فلمَّا هُزِمَ المشركون يومَ بدرٍ ومنهم جميلُ بنُ معمرٍ رآه أبو سفيانَ وهو معلِّقٌ

= الثعلبي والواحدي بغير سند.

(١) قرأ أبو عمرو بالياء، وباقي السبعة بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

إحدى نعلَيْهِ بيدِه والأخرى في رجلِه، فقال أبو سفيانَ: ما بالُ إحدى نعلَيْكَ في يدِكَ والأخرى في رجلِكَ؟ قال: ما شعرْتُ إلَّا أنَّهما في رجليَّ، فعرَفوا يومَئذ أنَّه لو كان له قلبان لَمَا نسيَ نعلَه في يدِه[1].

وقيل: نزلَتْ في عبدِ اللهِ بنِ خَطَلٍ، كانت قريشٌ تسمِّيه: «ذا القلبَيْنِ» لدهائِه[2].

و﴿مِّن﴾ للتَّوكيد؛ أي: ما جعلَ اللهُ لرجلٍ قلبَيْنِ.

وقال الزُّهريُّ: هذا مَثَلٌ ضربَه اللهُ في شأنِ زيدِ بنِ حارثةَ لَمَّا تبنَّاهُ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أي: كما لا يكونُ لرجلٍ قلبان لا يكون ولدُ رجلٍ واحدٍ لرجلَيْن[3].

وقيل: هو مَثَلٌ ضُرِبَ للمُظاهِرِ؛ أي: كما لا يكونُ للرَّجلِ قلبان لا تكونُ امرأةُ المظاهرِ أمَّه، حتَّى يكونَ له أمَّان.

وقيل: كانَ الواحدِ من المنافقينَ يقولُ: لي قلبٌ يأمرُني بكذا، وقلبٌ يأمرُني بكذا، فالمنافِقُ ذو قلبَيْنِ، فالمقصودُ رَدُّ النِّفاقِ.

وقيل: أي: لا تجتمعُ طاعةُ الكافرينَ والإيمانُ باللهِ في قلبٍ كما لا يجتمعُ قلبانِ في جوفٍ، والمعنى: لا يجتمعُ اعتقادانَ متضادَّانِ في قلبٍ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧١ - ٤٧٢)، و«تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٤٩)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٦)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٧٠ - ٣٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٥١)، وصاحب القصة هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح القرشي، وهو من مسلمة الفتح. انظر: «الاستيعاب» (١/ ٢٤٧)، و«أسد الغابة» (١/ ٤٣٣)، و«الإصابة» (١/ ٥٠٠).

(٢) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢١٣).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٩)، بلفظ: «بلغنا أنه كان في شأن زيد بن حارثة، ضرب له مثلًا، يقول: ليس ابنُ رجل آخر ابنَك»، وتعقبه النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٣١٩) بقوله: «قول ضعيف لا يصح في اللغة، وهو من منقطعات الزهري». وذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ٩١٠) وعده من العجائب.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ أي: كما لم يجعلْ لرجلٍ قلبَيْنِ في جوفِه لم يجعلِ الزَّوجةَ أمًّا حتى يكونَ للظهارِ حقيقةً، بل هو قولٌ منكرٌ وزورٌ.

﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ على وزن الشَّائي والنَّائي، والقياس: إثباتُ الياءِ فيه بعدَ الهمزِ كما تَثبتُ في الشَّائي والنَّائي، ويجوزُ حذف الياء فتقول: (اللَّاءِ)، ويجوز تخفيف الهمزة بعد حذف الياء فتجعلها بينَ بينَ(١).

وقرئ: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ من المظاهرة، وقرئ: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾؛ أي: تتظاهرون، فحذفَ تاء (تفعلون)، وهي قراءةُ حمزةَ، وقرأ ابنُ عامر: ﴿تَظَّاهرون﴾ بالتَّشديد فأَدغم التَّاءَ التي حذفَها حمزةُ، وقرئ: ﴿تظَّهَّرون﴾(٢)؛ أي: تتظهَّرون، يُقال: ظاهرَ من امرأتِه وتَظاهَرَ وتَظهَّرَ؛ أي: قال لها: أنْتِ على كظهرِ أمِّي.

وكانوا يطلِّقون بهذا في الجاهليَّةِ، فلمَّا جاءَ الإسلامُ نُهوا عنه، وأُوجِبَتِ الكفَّارةُ على مَنْ ظاهرَ مِنِ امرأتِه.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ نزلَتْ في زيدِ بنِ حارثةَ، كانَ عبداً مملوكاً للنَّبيِّ عليه السلام، وهبَتْه منه خديجةُ، فأعتقَه وتبنَّاهُ قبلَ الوحي، فلمَّا تزوَّجَ النَّبيُّ عليه السلام زينبَ بنتَ جحشٍ وكانت تحتَ زيدِ بنِ حارثةَ قبلَ الوحيِ قالَتِ اليهودُ والمنافقونَ: تزوَّجَ محمَّدٌ امرأةَ ابنِه وهو ينهَى النَّاسَ عن ذلكَ(٣).

---

(١) قرأ قالون وقنبل بالهمز من غير ياء، وورش بياء مختلسة بدلًا من الهمزة وإذا وقف صيرها ياء ساكنة، والبزي وأبو عمرو بياء ساكنة بدلاً من الهمزة في الحالين، والباقون بالهمز وياء بعدها في الحالين. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٢) قرأ بالأولى عاصم، وابن عامر كما ذكر المصنف، والكسائي كحمزة، والباقون بالأخيرة. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٣) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٤٧٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣١٩)، والواحدي في «أسباب =

وقـال ابـنُ عمـرَ: ما كنّـا ندعو زيـدَ بنَ حارثـةَ إلّا: زيدَ بـنَ محمَّدٍ، حتـى نزلَ: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1].

الأدعيـاءُ: جمـعُ الدَّعِـيِّ، وهو الـذي يُدْعَى ابنـاً لغيرِ أبيـه، أو يدَّعيْهِ غيـرُ أبيه، والمصـدرُ: «الدِّعـوةُ» بالكسـر؛ أي: مـا جعـلَ مَـنْ يَدْعونـه ابنـاً ـ وليـس بولـدٍ في الحقيقـةِ ـ ابناً.

﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ يعني قولَهم: زيدُ بنُ محمَّدٍ؛ أي: إنَّه تسميةٌ لا حقيقةٌ.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ يعني قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾.

﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: يرشد إلى الصِّدقِ.

* * *

(٥) ـ ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾؛ أي: الذين وَلَدُوهم فإنَّه أعدلُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أقومُ؛ لأنَّه قولُ صدقٍ لا كذبَ فيه.

﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾؛ أي: لـم تَشـتهِرْ أنسـابُهم ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾؛ أي: يُقـال: مولـى فـلانٍ: عَتيْقُـه[2].

= النزول» (ص: ٣٥٢).

(١) رواه البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥).

(٢) أي: يعني بالموالي: المعتقين؛ أي: إن كان عبدًا وأعتقته فهو مولاك، كما كان زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ. «البسيط» (١٨/ ١٧٢).

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ أي: فهم إخوانكم، فيقولُ: يا أخي.

وقال ابنُ عبَّاس: ﴿مواليكُم﴾؛ أي: بنو عمِّكُم[١].

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: فيما قلتُموه قبلَ النَّهي.

وقيل: أي؛ لو دعوْتَ رجلاً لغير أبيهِ وأنت ترى أنَّه أبوه لم يكن عليك بأسٌ.

وقال الزجَّاجُ: لا جناحَ عليكَ في أنْ تقولَ: «يا بُنيَّ» من غيرِ تعمُّدٍ في أن تُجريَهِ مُجرى الولدِ في الإرثِ[٢].

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: ولكنَّ الإثمَ في الذي تعمَّدَتْ قلوبُكم.

وكانت عادةُ العربِ التَّبنِّيَ، وكانوا يُثبتونَ الإرثَ بذلك، ولَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ رَدَّ كُلُّ مَنْ تبنَّى أحداً نسبَه إلى أبيه، فإنْ لم يعلموا أباه رُدَّ إلى مواليه.

***

(٦) - ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: هو أولى بأنْ يَحكم على المؤمنين فيَنفُذَ حكمُه ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: من بعضِهم ببعضٍ؛ كقولِه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: فهذه رتبةُ النَّبيِّ، ثمَّ لا يرثُه[٣] أحدٌ من أمَّتِه إلا بقرابةٍ، فكذلكَ أدعياؤُكم لا تَرثوهم ولا يرثوكم إذْ لا قرابةَ بينِكم وبينِهم، فحُكْمُ النَّبيِّ على أمَّتِه

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٧٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢١٥).

(٣) في (أ): «يرث»، ولعل المثبت هو الأولى.

أنفذُ مِنْ حُكْمِ السَّيدِ على عبدِه وأَمَتِه، ثمَّ ذلك لم يوجبِ الإرثَ، فكذا هذا في زيدِ بنِ حارثةَ.

وفي مصحفِ أبيٍّ: (وهو أبٌ لهم)[١]، فإذا كان أباً لأمَّتِه ثمَّ لا إرثَ فكذا أبوَّةُ التَّبنِّي.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾؛ أي: في وجوبِ التَّعظيمِ، أو في أنَّ اللهَ حرَّمَهنَّ عليهم كما حرَّم عليهم أمَّهاتِهم.

وقيل: أي: شفقتُهُنَّ عليهم كشفقةِ الأمَّهاتِ.

ثمَّ هذه الأمومةُ لا تُوجِبُ ميراثاً، فأمومةُ التَّبنِّي كيفَ توجِبُ؟!

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾؛ أي: إنَّما يقعُ التَّوارُثُ بالأرحامِ والقَراباتِ لا بالتَّبنِّي، وكان المسلمون يتآخَون ويتوارثون بذلك وكذا بالتَّبنِّي في ابتداءِ الإسلامِ، ثم نُسخ [ذلك في][٢] هذه الآية.

وقيل: أشارَ بقولِه: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى مقصودِ قولِه عليه السلام: «أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه، فأيُّما رجلٍ ماتَ وتركَ دَيناً فإليَّ، وإنْ تركَ مالاً فهو لورثتِهِ»[٣]؛ أي: فهو أولى بهم حتى يلزمُه قضاءُ دَيْنِ مَنْ ماتَ منهم ولا مالَ له، ثم هذه الرُّتبةُ لم توجبْ توريْثَه منهم إلَّا بالقرابةِ، فالتَّبنِّي والمؤاخاةُ والحِلْفُ أبعدُ من ذلك، ذكرَه الزُّهريُّ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣١٧)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٠٨).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) رواه البخاري (٢٣٩٩)، ومسلم (١٦١٩)، زاد البخاري ضمن روايته: اقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

وقيل: وجْهُ الاتِّصالِ: أنَّ اللهَ عابَ عليهم التَّسميةَ بالأبوَّةِ بالتَّبنِّي أو التَّسميةَ بالأمومةِ في الظِّهار، ثم صلَحَتْ هذه بالتَّسميةِ في النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام وزوجاتِه، فيُقال: النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام أبو المؤمنين وأزواجُه أمَّهاتُ المؤمنينِ، فبيَّنَ أنَّ هذا خارجٌ ممَّا عابَ وردَّ، فلا بأسَ في تسميةِ النَّبيِّ أباً للمؤمنين، وتسميةِ أزواجِه أمَّهاتِ المؤمنين.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: ولكنَّ التَّوارثَ فيما أنزلْتُ من كتابي لا يقعُ إلَّا بالرَّحم والقَرابة.

وقيل: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: إذا دعاهم إلى شيءٍ ودعَتْهم أنفسُهم إلى شيءٍ آخرَ كانت طاعةُ النَّبيِّ مقدَّمَةً وتصرفُه جائزاً كما ينفذُ تصرُّفُ المولَى على عبدِه شاءَ العبدُ أو أبى، حتَّى لو زوَّجَ امرأةً لم يحتجْ إلى رضاها ورضا أوليائِها؛ لأنَّه أحقُّ بها منها.

وقال قومٌ: لا يجوزُ أنْ يُسمَّى النَّبيُّ عليه السلام أباً؛ لقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ولكن يُقال: هو مِثْلُ الأبِ للمؤمنين، كما قال: «إنما أنا لكم مثلُ الوالدِ»(١).

والصَّحيحُ: أنَّه يجوزُ أنْ يُقال له: أبو المؤمنين؛ أي: في الحرمة، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ أي: في النَّسَب.

وقيل: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ في أمرِ الدِّين، وزوجاتُه أمهاتُ المؤمنين بمعنى تحريمِ النِّكاحِ لا غيرَ؛ إذ لا يجوزُ الخلوةُ بهنَّ ورؤيتُهنَّ، ولا يَثبتُ التَّوارثُ.

---

(١) رواه أبو داود (٨)، والنسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣١٦١٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ أبي داود: «بمنزلة الوالد».

وقالَتْ امرأةٌ لعائشةَ رضي الله عنها: يا أُمَّه! فقالت: لستُ لَكِ بأمٍّ، إنَّما أنا أمُّ رجالِكم[١]. فثبَتَ أنَّ معنى هذه الأمومةَ: تحريمُ نكاحهنَّ فقط، ولا يُقال: بناتُه أخواتُ المؤمنين، ولا يُقال لإخوانهنَّ وأخواتهنَّ: أخوالُ المؤمنين وخالاتُهم.

قال الشَّافعيُّ: تزوَّجَ الزُّبيرُ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ وهي أختُ عائشةَ، ولم يقل: هي خالةُ المؤمنين[٢].

وأطلَقَ أقوامٌ هذا وقالوا: معاويةُ خالُ المؤمنين؛ يعنون: في الحرمةِ لا في النَّسَبِ.

﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذوو القراباتِ بعضُهم أولى بميراثِ بعضٍ فيما كتبَ اللهُ لهم في آيةِ المواريثِ، فالكتابُ بمعنى الحكم.

وقيل: فيما أنزل في القرآنِ واستقرَّ عليه الحكمُ، فهو أولى من الذين تآخوا على الإيمان والهجرة.

وعنى بالمؤمنينَ: الأنصارَ، وبالمهاجرين: الذين هاجروا إليهم من المؤمنين، وحدثَ في ذلك الوقتِ المؤاخاةُ مرَّتين:

إحداهما: بينَ المهاجرين في أنفسِهم، فآخى فيهم حمزةُ زيداً، وأبو بكرٍ عمرَ، والنَّبيُّ عليه السَّلام عليًّا.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٠/ ٦٤).

(٢) انظر: «الأم» للشافعي (٥/ ١٥١)، وعبارته: «أن الزبير بن العوام تزوج بنت أبي بكر وأن طلحة تزوج ابنته الأخرى وهما أختا أم المؤمنين وعبد الرحمن بن عوف تزوج ابنة جحش أخت أم المؤمنين زينب ولا يرثهن المؤمنون ولا يرثنهم كما يرثون أمهاتهم ويرثنهم ويشبههن أن يكنَّ أمهات لعظم الحق عليهم مع تحريم نكاحهن».

والثَّانية: بينَ المهاجرِينَ والأنصارِ، لَمَّا آخى رسولُ اللهِ ﷺ بينَ أبي بكرٍ وخارجةَ، وبينَ عمرَ وعاصمٍ، وبينَ الزُّبيرِ وكعبِ بنِ مالكٍ، وغيرِ ذلك.

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾؛ أي: ولكنْ فعلُكم إلى أوليائِكم معروفاً جائزٌ؛ أي: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾ ممَّن أحبَبْتُموهم ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ فتُوصُوا لهم بشيءٍ، فالمعروفُ هاهنا: الوصيةُ أو الهبةُ والصِّلةُ، أو الأمران.

وقيل: عنى بالأولياءِ القَراباتِ من المشركين، فهم أولياءُ في النَّسَبِ لا في الدِّيْنِ.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: كانَ التَّوارُثُ بالهجرةِ والإيمانِ في ابتداءِ الإسلامِ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾.

وقيل: أي: ما ذُكرَ من [أنَّ][1] أولي الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ، أو مِنْ أنَّ المشركَ لا يرثُ المسلمَ، أو مِنْ أنَّ الوصيةَ بقَدْرٍ جائزةٌ.

﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾؛ أي: مكتوباً، والكتابُ: اللَّوحُ المحفوظُ، وقيل: التَّوراةُ.

* * *

(٧) - ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾؛ أي: كان مسطوراً حين كتبَ اللهُ ما هو كائنٌ، وحين أخذَ المواثيقَ من الأنبياءِ.

ويحتمِلُ أنْ يكونَ تعظيماً في قطْعِ الولايةِ بينَ المسلمين والكافرين؛ أي: هذا ممَّا لهم تختلِفْ فيه شرائعُ الأنبياءِ؛ أي: كانَ في ابتداءِ الإسلامِ توارثٌ بالهجرة،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

والهجرةُ سببٌ متأكِّدٌ في الدِّيانةِ، ثم توارثوا بالقرابةِ مع الإيمان، وهو سببٌ وكيدٌ، فأمَّا التَّوارثُ بينَ مؤمنٍ وكافرٍ فلم يكن في دينِ أحدٍ من الأنبياءِ الذين أُخِذَ عليهم المواثيقُ، فلا تُداهنوا في الدِّين لا تمالئوا الكفَّارَ، ونظيرُه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ومِن تركِ التَّفرُّق في الدِّينِ: تركُ موالاةِ الكفَّارِ.

وقيل: أي: النَّبيُّ أولى بالمؤمنينِ من أنفسِهم كان ذلك في الكتاب مسطورًا ومأخوذاً به المواثيقُ من الأنبياءِ.

[وقيل][1]: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾؛ أي: واذكر إذ أخَذْنا، فيكون هذا تذكيراً للنَّبيِّ عليه السلام ذلك؛ أي: واذكرْ يا محمَّدُ لقومِكَ ذلك[2].

ثم قيل عن أخذ المواثيق: حين أُخرجوا من صُلْبِ أدمَ كالذَّرِّ، وقيل: أي: أخذنا ميثاقَهم بأنْ بلِّغوا ما أُرسلتم به، وبأنْ يصدِّقُ بعضَهم بعضاً، وبأنْ يَتبَعُ بعضُهم بعضاً في التَّوحيدِ.

وخَصَّ محمَّداً ونوحاً وإبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم السلام بالذِّكر في هذه الآية لأنَّهم أصحابُ الكتبِ والشَّرائع، وإنْ دخلوا في زمرةِ النَّبيِّنَ.

وقَدَّمَ محمَّداً ـ ﷺ ـ في الذِّكْرِ، وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ في هذه الآيةِ: «كنتُ أوَّلَ النَّبيِّن في الخَلْقِ، وآخرَهم في البعْثِ»[3].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. وهو قول الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢١٦)، وعنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٨٢).

(٢) انظر: «البسيط» (١٨/ ١٨٢)، وفيه بعد قوله الزجاج: «المعنى: واذكر إذ أخذنا»: وهذا يجوز أن يكون تذكيرًا للنبي ﷺ ذلك الميثاق، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر لقومك ذلك.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٣) عن قتادة مرسلاً، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١١٦)، =

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾؛ أي: عَهداً شَديداً على الوفاءِ بما الْتَزَموا، وهو اليمينُ باللهِ تعالى، فالميثاقُ الثَّاني تأكيدٌ للميثاقِ الأوَّلِ باليمين.

وقيل: الأوَّلُ هو الإقرارُ باللهِ تعالى، والثَّاني في أمرِ النُّبوَّةِ.

* * *

(٨) - ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾؛ أي أخذْتُ ميثاقَهم لأسألَهم وهم صادقونَ عن صدقِهم في الذي جاؤوا به أممَهم، وأحتجَّ بهم على الأممِ.

وقيل: ليسألَ الرُّسلَ: هل بلَّغوا ليُثابوا على تبليغِهم؟ وفيه تنبيهٌ، أي: إذا كان الأنبياءُ يُسألونَ فكيفَ مَنْ سواهم، وعلى الأوَّلِ فائدةُ السُّؤالِ توبيخُ الكفَّارِ، كما قالَ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وأعدَّ اللهُ للكافرين من أممِ الرُّسلِ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعاً.

* * *

(٩) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ذكَّرَه نعمَه عليهم بهزيمةِ الأحزابِ عامَ الخندقِ، وكان المنافقون قد واطؤوا الكفَّارَ، وكان ذلك

= والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٦٦٢)، وتمام في «فوائده» (١٠٠٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣٣٢) من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٤٢): «سعيد بن بشير فيه ضعف، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلًا وهو أشبه، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفًا».

مـن إيذائِهـم النَّبيَّ عليـه الصلاة والسـلام، واتَّصلَ هذا بذكـرِ إيذائِهم في أمـر النَّبيِّ والتَّـزوُّجِ بزوجـةِ زَيْدٍ.

﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾؛ أي: أبـو سفـيانَ وقريـظةُ وغَطـفانُ وجمـعٌ من بني أسدَ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ باردةً، وبعثَ الملائكةَ، فقلعَتِ الرِّيحُ الأوتادَ، وأطفأَتِ النِّيرانَ، وجالَتِ الخيلُ بعضُها فوقَ بعضٍ، وكبَّرَتِ الملائكةُ في جانب عسكرِهم، فانهزمَ المشركون من غير قتالٍ.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ قيل: الصَّبا[١]، أُرْسِلَتْ عليهم فأكفأَتْ قدورَهم، ونزعَتْ فساطيطَهم وولَّوا منهزمين.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ أي: الملائكةَ. قال مقاتلٌ: أُنْزِلَ ألفُ ملَكٍ عليهم جبريلُ[٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ أي: كنتُم بمرأًى منه.

قرئ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالياء والتاء[٣].

وقرئ: (وجنوداً لم يرَوها)[٤]؛ أي: لم يرَها المشركون، وقرئ: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾[٥].

وكانت هذه الرِّيحُ معجزةً؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه السلام والمسلمين كانوا على قُرْبٍ من المشركين، وبينهم عرضُ الخندقِ، ثم زعزعَتِ الرِّيحُ الكفَّارَ، وكان المؤمنونَ في عافيةٍ منها، ولا خبرَ عندَهم عنها.

---

(١) روى البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلكَتْ عَادٌ بالدَّبُورِ»

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧٦).

(٣) قرأ أبو عمرو بالياء والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

(٤) هي رواية نصر عن أبيه عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ١١٩).

(٥) وهي القراءة المشهورة عن العشرة.

(١٠) - ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾؛ أي: اذكروا النِّعمةَ إذْ جاءتْكُم جنودٌ حين جاؤوكم من كلِّ جانبٍ، يصفُ كثرةَ العدوِّ.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾؛ أي: من فوقِ الوادي مِن قِبَلِ المشرقِ؛ قريظةُ والنَّضيرُ وغطفانُ يقودُهم عتبةُ بنُ حصينٍ وطليحةُ بنُ خويلدٍ من بني أسد.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾؛ أي: ممَّا يلي المدينةَ، وهم أسد وغطفانُ.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أي: مالَتْ فلم تَلتفتْ إلَّا إلى عدوِّها من فرطِ الهوْلِ.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ قيل: إنَّ الرِّئةَ تنفتحُ عند الخوفِ فيرتفعُ القلبُ حتى يكادُ يبلغُ الحَنجرةَ مثلاً، ولهذا يقال للجبانِ: انتفخَ سَحرُهُ.

وهو مبالغةٌ في وصفِ الخوفِ، ولا يتحرَّكُ القلبُ عن موضعِه.

والأظهرُ: أنَّه أرادَ اضطرابَ القلْبِ وضرباتِه؛ أي: كأنَّه لشدَّةِ اضطرابِه بلغَ الحَنجرةَ.

والحَنْجرةَ والحُنْجورُ: جوفُ الحلْقِ.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾؛ أي: خفتُم كثرتَهم حتى قنطْتُم.

والظُّنون: ظَنَّ قومٌ النَّصرَ، وظَنَّ قومٌ غَلَبَةَ العدوِّ.

وقيل: هو خطابٌ للمنافقينَ؛ أي: قلْتُم هَلَكَ محمَّدٌ وأصحابُه.

وقيل: يعني: ظَنَّ المسلمونَ النَّصرَ، وظَنَّ المنافقون هلاكَ محمَّدٍ عليه السلام.

قُرئ: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بالألف في حالِ الوصلِ والوقف،

تمسُّكاً بخطِّ المصحف، وقُرئتْ من غيرِ ألفٍ في الحالَيْن، وقُرِئت بالألف[١] في حالةِ الوقفِ وحذفِها في الوصل[٢].

وفي آخرِ الآيِ مشابهةُ القوافي لأنَّها مقاطعُ.

ومِن حديث الخندق: أنَّ حُيَيَّ بنَ أخطبٍ وقوماً من اليهودِ ممَّنْ أجلاهم النَّبيُّ عليه السلام من بني النَّضير قدِموا على أبي سفيانَ ودعوه إلى حربِ رسولِ اللهِ ﷺ، وأجابَهم وخرجوا إلى غطفان، فدعَوهم، فأخبرَ اللهُ نبيَّه باجتماعِهم، فأمرَ بحفرِ الخندقِ، وجاءَ القومُ وبقيَ النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام في الخندقِ ستِّين يوماً وليلةً حتى بلغَتِ القلوبُ الحناجرَ، ولم يكن بينَهم قتالٌ أكثرَ من التَّرامي على أبواب الخندقِ، وجعلت العربُ تقول: إنَّ هذه مكيدةٌ ما كانت عندَنا[٣].

***

(١١) ـ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هنا للقريبِ، وهنالك للبعيدِ، وهناك للوسط، ويُشارُ به إلى الوقْتِ والمكانِ، وهاهنا أشارَ به إلى الوقت؛ أي: عندَ ذلك اختُبِرَ المؤمنون ليَبينَ المخلِصُ من الكافرِ من المنافقِ، وكان هذا الابتلاءُ بالخوفِ والقتالِ والجوعِ والحصرِ.

﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾؛ أي: حُرِّكوا ﴿زِلْزَالًا﴾؛ أي: تحريكاً.

---

(١) في (أ): «وقرئت بغير ألف»، والصواب المثبت. وانظر التعليق الآتي.

(٢) قرأ ابن كثير والكسائي وعاصم في رواية حفص بالألف في الوقف دون الوصل، وقرأ نافعٌ وعاصمٌ في رواية أبي بكرٍ وابنُ عامر بالألف في الوصل والوقف، وقرأ أبو عمرو وحمزة بغير ألف في الحالين. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢١٩) وما بعدها.

قال الزَّجاجُ: كلُّ مصدرٍ من المضاعفِ (فعْلالٌ) يجوزُ فيه الكسرُ والفتح، نحو قلقَلْتُه قِلقالاً وقَلقالاً، وزُلزلوا زِلزالاً وزَلزالاً؛ والكسرُ أجودُ لأنَّ غيرَ المضاعفِ على الكسرِ، نحو: دحرجتُه دِحراجاً[1].

***

(١٢) ـ ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾؛ أي: اذكرْ نعمةَ اللهِ إذ قالَ المنافقون كذا، ثم نصرَكُم ونبيَّكُم على الذين كفروا[2]، وذلك أنَّ طعمةَ بن أبيرق ومُعتِّبَ بنَ قشيرٍ وجماعةً نحوًا من سبعينَ رجلاً قالوا يومَ الخندق: كيف يعدُنا كنوزَ كسرى وقيصرَ، ولا يستطيعُ أحدُنا أن يتبرَّز؟ ما وَعَدَنا إلا غروراً[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢١٨).

(٢) في (أ): «ثم يضربكم وغيركم على الدين»، وهي عبارة لا معنى لها، ولعل المثبت هو الصواب.

(٣) والمشهور في القصة أن قائل هذا هو معتب بن قشير كما ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٤٧٨)، والواقدي في «مغازيه» (٢/ ٤٥٩)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٣٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٣٥)، والزبير بن بكار كما رواه عنه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠١٧).

ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٩ ـ ٤٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤١٨ ـ ٤٢٠)، من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده، وكثير متروك. وليس فيه تسمية القائل. ورواه الطبري دون تسمية القائل أيضًا عن قتادة وابن زيد.

وقصة تبشير النبي ﷺ بمدائن كسرى وقيصر وقعت عند كسر الصخرة التي عرضت لهم أثناء حفر الخندق أخرجها النسائي في «المجتبى» (٣١٧٦) من طريق أبي سكينة ـ رجل من المحررين ـ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. ورواها الإمام أحمد في «المسند» (١٨٦٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٠٧)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

بيَّنَ أنَّ أهلَ النفاقِ والذين في قلوبِهم مرضٌ لا تصبُّرَ منهم[١] في الدِّين.

و﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: أهلُ النِّفاق، وهم أهلُ المرضِ أيضاً، عَبَّرَ عنهم بعبارتَيْنِ.

وقيل: الذين في قلوبهم مرضٌ لم يكونوا منافقينَ، ولكن كانوا أهلَ ضعفٍ في البصائرِ، فكان المنافقونَ يستميلونَهم بإدخالِ الشُّبَهِ عليهم.

***

(١٣) ـ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: يا أهلَ المدينةِ، نزلَتْ في بني سالمٍ من المنافقين[٢].

وقيل: في عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابِه[٣].

وقيل: قالَتِ اليهودُ للمنافقين: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ عن هذا القتال.

ويثربُ: اسمُ موضعٍ، والمدينةُ في ناحيةٍ منه، ونَهى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُقالَ للمدينةِ: يثربَ، وسمَّاها طيبة[٤]، ولعلَّه كرهَ اسمَ الثَّربِ لأنَّه العِنادُ، يُقال: ثَرَبَ وأَثْرَبَ وثَرَّبَ؛ أي: وَبَّخَ.

---

(١) في (أ): «لا نصير معهم» بدل «لا تصبُّر منهم» ولعل الصواب المثبت.

(٢) قاله مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٤٧٨).

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٨١)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٩٤)، عن السدي.

(٤) ورد في ذلك أحاديث:

منها: ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٥١٩) عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل، هي طابة هي طابة».

ومنها ما رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٧٩٨)، وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على =

﴿لا مَقامَ لكم﴾؛ أي: لا مكانَ لكم تقيمون فيه، فالـمَقامُ بالفتح: اسم الموضع، ومنه: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقرئ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بضم الميم[١]؛ أي: لا إقامةَ لكم، يقال: أقمْتُ إقامةً ومُقاماً.

وقيل المُقامُ بالضمِّ: اسمُ موضعِ الإقامةِ أيضاً كالـمَقامِ.

﴿فَٱرْجِعُواْ﴾؛ أي: إلى المدينة؛ أي: لا يمكنكُم المُقامُ في هذا الخندقِ لكثرةِ العدوِّ.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ أي: ومن المنافقينَ فريقٌ يستأذنون في الانصرافِ إلى بيوتِهم، ويعتلُّون بـ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ أي: منكشفةٌ؛ أي: في طرفٍ من المدينة يُخشَى عليها العدوُّ.

وقيل: خاليةٌ لا حافظَ لها.

قال مقاتلٌ: هم بنو حارثةَ وبنو سَلِمةَ[٢].

= «المسند» (٢٠٨٩٩)، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كانوا يسمون المدينة يثرب، فسماها رسول الله ـ ﷺ ـ طيبة».

ورواه مسلم (١٣٨٥) عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سمى المدينة طابة».

وروى البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون: يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد».

(١) بضمها قراءة حفص والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧٩). وهو قول مردود، فإن هاتين هما اللتان نزل بهما قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقد روى البخاري (٤٠٥١)، ومسلم (٢٥٠٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: فينا نَزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ بنو سَلِمة وبنو حارثةَ، وما نُحِبُّ أنَّها لم تَنزل، لقول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

والعورةُ في الثُّغور وفي الحروبِ: خَلَلٌ يُتخوَّف منه القتلُ.

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ أي: ما يريدون إلا الفرارَ من نصرةِ النَّبيِّ ﷺ.

***

(١٤) ـ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ أي: لو دُخِلَتِ المدينةُ على هؤلاءِ من جوانبِها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾؛ أي: ثم طُلِبَ منهم أن يكفروا لم يَلْبثوا إلا يسيراً، بل يتسارعونَ إلى الكفرِ لضعفِ نيَّاتهم، ولفَرْط نفاقِهم.

بيَّنَ أنَّ بيوتَهم ليست بعورةٍ، ولكنَّ قلوبَهم ضعيفةٌ، وإيمانَهم ضعيفٌ، فلو اختلطَ بهم الأحزابُ لأظهروا الكفرَ، وإنَّما يُظهِرونَ الإيمانَ الآنَ لغلبَةِ المسلمين.

والأقطارُ: الجوانبُ، وقَطَّرَهُ؛ أي: ألقاهُ على أحدِ قُطْرَيْهِ.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾؛ أي: الكفرَ والميلَ على المسلمين.

﴿لَأَتَوْها﴾؛ أي: لجاؤوها، أو: لفَعَلوها، تقولُ: أتيْتُ الشَّيءَ؛ أي: فعلتُه.

وقرئ: ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمد[1]؛ أي: لأعطَوها من أنفسِهم.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾؛ أي: لم يحتبِسوا إلا قليلاً حتى يُشركوا.

وقيل: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ بالمدينة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ بعدَ إعطاءِ الكفرِ من أنفسِهم حتى يَهلِكوا.

وقيل: أي: ولم يقيموا مع النبيِّ عليه السلام في حربٍ ولا دينٍ.

وقوله: ﴿بِهَا﴾ يرجع إلى غيرِ مذكورٍ؛ أي: ما تَلَبَّثوا بالمعركة.

---

(١) ابن كثير ونافع وابن عامر بالقصر، والباقون بالمد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

وقيل: أي: إنَّهم يتعلَّلونَ في نصرتِكَ، ولو طلَبَ الكفَّارُ منهم إعانةً على المسلمين لأتوهم سِراعاً غيرَ متعلِّلين بشيءٍ، كما قال: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٥٢]؛ أي: في نصرهم.

* * *

(١٥) ـ ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾؛ أي: من قبلِ الخندقِ أنْ لا ينهزموا ﴿لَا يُوَلُّونَ ﴾؛ أي: عاهدوا أنْ لا يولُّوا، فلمَّا حذفَ (أنْ) عادَ الفعلُ إلى الرَّفع.

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾؛ أي: مسؤولاً عنه.

وقيل: مطلوباً، كما تقول: أسأَلُكَ حقِّي؛ أي: أطلبُكَ به؛ أي: يُسألون في الآخرة عن عهودِهم.

* * *

(١٦) ـ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾؛ أي: مَنْ حضرَ أجلُه ماتَ أو قُتِلَ فلا ينفعُ الفرارُ.

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾؛ أي: لا تَبْقَون في الدُّنيا بعدَ الفِرار إلَّا مُدَّةَ آجالِكم، وكلُّ ما هو آتٍ فقريبٌ.

* * *

(١٧) ـ ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: يمنعُكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

سُوٓءًا ﴾؛ أي: هلاكاً ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾؛ أي: خيراً ونصراً وعافيةً.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾؛ أي: لا قريباً ينفعُهم، ولا ناصراً ينصرُهم.

ومعنى قوله: ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾: مَنْ يمنَعُ اللهَ من أن يرحمَكم إنْ أرادَ بكم رحمةً؟ إذ لا يُقال: عصمَه من رحمةِ اللهِ، بل يُقال: عصمَه من الآفةِ.

وقال قومٌ: يقال: عصمَه من الخيرِ، وعصمَه عن الشَّرِّ.

* * *

(١٨) ـ ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ قيل: هم طائفةٌ أخرى منهم؛ أي: منكم مَن يثبِّطُ ويخذِّلُ ويهوِّلُ بكثرةِ جموعِ الأحزابِ.

والعَوْقُ: المنعُ، يقال: عاقَه يَعوقُه عَوقاً، وعَوَّقَه واعتاقه، بمعنًى واحدٍ.

وهؤلاء قومٌ كانوا يخذِّلون الأنصارَ، ويقولون: ما محمَّدٌ وأصحابُه إلَّا أكلَةُ رأسٍ(١)، وإنَّ أبا سفيانَ منَّا، هلمَّ فخلُّوهم وتعالَوا إلينا.

وقال مقاتلٌ: المعوِّقون عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ وأصحابُه المنافقون(٢).

وقيل: هم اليهودُ فإنَّهم أرسلوا إلى المنافقين في أيَّام الخندقِ وقالوا: لِمَ تقتلون أنفسَكم بأيدي أبي سفيان ومَن معَه، هلُمُّوا إلينا، فنحن جيرانُكم.

قال الله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ﴾ خوفاً من الموت ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴾ بل يَنهزِمون.

---

(١) قوله: «أكلة رأس» يُضرب في القلة والأمر الذي لا يُعبأ به، قال الجوهري: قولهم: هم أكلة رأس؛ أي: قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل. انظر: «الصحاح» (مادة: أكل).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٨١).

وقيل: أي: هؤلاء القائلون لا يأتون البأسَ إلا قليلاً خوفاً من الموت.

وقيل: لا يَحضُرون القتالَ إلَّا رياءً وسُمعةً.

* * *

(١٩) - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: إنْ حضروا حضروا بخلاً عليكم بالظَّفَر والغنيمة، أو النَّفَقة والمعونة، وهو منصوبٌ على الحال.

والأشحَّةُ جمعُ الشَّحيح، كالأدلَّة والدَّليل.

وقيل: أي: يعوِّقونَ أشحَّةً.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾؛ أي: البأسُ دارَتْ ﴿أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: نظروا نظرَ المغشيِّ عليه من الموتِ؛ أي: كما تدورُ عينُ الذي[1] يُغشَى عليه.

وقيل: يعني: أنَّهم في الخوفِ مِنْ أجبنِ النَّاسِ، وفي حالِ الغنيمةِ مِنْ أبخلِ النَّاسِ يريدون أخذَ الجميعِ.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يقال: سلقْتُه باللِّسان؛ أي: أسمعْتُه فأكثَرْتُ، ولسانٌ مِسْلَقٌ؛ أي: حديدٌ ذَلِقٌ، وقيل: سَلَقَ؛ أي: رفَعَ صوتَه، وفي الخبر: «ليسَ منَّا مَنْ حلقَ أو سَلَقَ»[2] أي: رفَعَ صوتَه عند المصيبةِ.

يعني: إذا ذهبَ الخوفُ آذَوكم بالسَّلاطة.

---

(١) في (أ): «كما تدور العين كالذي»، ولعل المثبت هو الصواب.

(٢) رواه مسلم (١٠٤) بلفظ: «أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق»، وفي رواية: «ليس منا».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾؛ أي: أظهروا الإيمان ولكنْ ليسوا مؤمنين ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وذلك يسيرٌ على اللهِ.

***

(٢٠) ـ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾؛ أي: لجبنِهم يظنُّونَ أنَّ الأحزابَ لم ينصرفوا، وكانوا انصرفوا ولكنَّهم لم يتباعدوا في السَّير.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾؛ أي: وإنْ يرجِعُ الأحزابُ إليهم للقتالِ ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ أي: يتمنَّى المنافقون لو كانوا في الباديةِ، يُقال: بدا فلانٌ بَدْواً؛ أي: خرَجَ إلى الباديةِ، وهي البِداوةُ والبَداوة بالكسر والفتح، وأصل الكلمة من البُدُوِّ، وهو الظُّهورُ.

﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؛ أي: كان منهم في أطرافِ المدينةِ مَن لم يَحضر الخندقَ، جعلوا يسألون عن أخبارِكم ويتمنَّونَ هزيمةَ المسلمين.

وقيل: أي: يودُّوا لو أنَّهم بادونَ سائلونَ عن أنبائِكم من غيرِ مشاهدةِ القتال لِفَرطِ جُبْنِهم.

وقيل: هم أبداً لِجُبْنِهم يسألون عن أخبار المؤمنين: هل قصَدَهم عدوٌّ؟ لِفَرْطِ بُغضِهم يتربَّصونَ بكم الدَّوائرَ.

﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: رمياً بالحجارةِ على طريق الرِّياءِ، ولو كان ذلك للهِ لكانَ قليلُه كثيراً.

(٢١) - ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هـذا عتـابٌ للمتخلِّفيـن عـن القتـالِ؛ أي: كانَ لكـم قـدوةٌ فـي النَّبـيِّ عليه السـلام حيثُ بـذلَ نفسَـه لنصرةِ دينِ اللهِ.

والأُسوةُ: القُدوةُ.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ﴿لِّمَن﴾ بدلٌ من قوله: ﴿لَكُمْ﴾.

﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾؛ أي: هؤلاء هم الذين يتأسَّونَ به دونَ مَنْ لا يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ.

***

(٢٢) - ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ وصـفَ الذين صبروا مـع النَّبيِّ عليه السلام على القتالِ لَمَّا رأَوا أبا سفيانَ وجَمْعَه ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما وَعدَنا ـ في سورة البقرة وغيرها ـ إذ قال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ أي: قد ظهَرَ خبرُ صِدْقِ خبرِ اللهِ ورسولِه.

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾؛ أي: تصديقاً بوعودِه وتسليماً لأمرِه مِنْ غيرِ اعتراضٍ عليه، وكانَ النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام أخبرَ أصحابَه بمسيرِ

الأحزابِ إليهم[1]، فلمَّـا ولَّى الأحزابُ زادَهم ذلك إيماناً، وصار الخبرُ عِياناً.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾؛ أي: ما زادهم ذلك، ولو قال: «ما زادوهم» لجاز أيضاً.

ولـمَّـا اشتدَّ الأمرُ على المسلمين، وطالَ المقام في الخندقِ، قامَ عليه السلام على التَّلِّ الذي عليه مسجدُ الفتحِ في بعضِ اللَّيالي وتوقَّع ما وعدَه اللهُ من النَّصرِ وقال: «مَنْ يذهَبُ ليأتيَنا بخبرِهم وله الجنَّةُ؟» فلم يجبْهُ أحدٌ، فقال ثانياً وثالثاً فلم يجبْهُ أحدٌ، فنظر إلى جانبِه وقال: «مَنْ هذا؟» فقال: حذيفةُ، فقال: «ألم تسمَعْ كلامي منذُ اللَّيلة؟»، قال حذيفةُ: فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ منعَني أن أجيْبَكَ الضُّرُّ والقَرُّ، فقال: «انطلق حتى تدخلَ في القومِ فتسمعَ كلامَهم وتأتيَني بخبرِهم، اللَّهمَّ احفظْهُ من بينِ يدَيْهِ ومِنْ خلفِهِ وعن يمينِه وعن شمالِه حتَّى تردَّهُ إليَّ، انطلِقْ ولا تُحدِثْ شيئاً حتى تأتيَني»، فانطلَقَ حذيفةُ بسلاحِه، ورفَعَ رسولُ اللهِ ﷺ يدَه يقولُ: «يا صريخَ المكروبينَ، يا مجيبَ المضطَّرين، اكشفْ همِّي وغمِّي وكَرْبي، فقد ترى حالي وحالَ أصحابي»، فنزلَ جبريلُ عليه السلام فقال: «إنَّ اللهَ سمِعَ دعوتَكَ، وكفاكَ هَوْلَ عدوِّكَ»، فخرَّ رسولُ اللهِ ﷺ على ركبَتَيْه، وبسطَ يدَه، وأرخى عَيْنَيه، وهو يقول: «شكراً شكراً كما رَحِمْتَني ورحِمْتَ أصحابي»، وأخبرَهُ جبريلُ أنَّ اللهَ يرسِلُ عليهم ريحاً، فبَشَّرَ أصحابَه بذلك.

قال حذيفةُ: فانتهيْتُ إليهم، وإذا نيرانُهم تتَّقِدُ، فأقبلَتْ ريحٌ شديدةٌ فيها حَصباءُ، فما تركَتْ لهم ناراً إلَّا أطفأَتْها، ولا بناءً إلَّا طرحَتْه، وجعلوا يتترَّسون من الحصباء،

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٤٠)، وذكر يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٧١٠)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢١٦)، عن الكلبي أن النبي ﷺ قال للصحابة: إنَّهم قد خرجُوا عليكم، وهم يصيرون إليكم بعد تسعٍ أو عشرٍ. قال ابن حجر: لم أجده. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٣٣).

وقام أبو سفيانَ إلى راحلتِه وصاحَ في قريشٍ: النَّجاءَ النَّجاءَ، وفعلَ عيينةُ بنُ حصنٍ كذلك، وكذلك الحارثُ بنُ عوفٍ والأقرعُ بنُ حابسٍ، وتفرَّقَتِ الأحزابُ[١].

وأصبحَ رسولُ اللهِ ﷺ فعادَ إلى المدينة وبه من الشَّعَثِ ما شاء الله، فجاءَتْه فاطمةُ رضي الله عنها بغسولٍ، فكانت تغسلُ رأسَه، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: رحمَكَ ربُّكَ، وضعْتَ السِّلاحَ ولم تضعْهُ أهلُ السَّماءِ، ما زلْتُ أتبعُهم حتى جاوزْتُ بهم الرَّوحاء، ثم قال: انهَضْ إلى بني قريظةَ[٢].

وقال أبو سفيانَ: ما زلْتُ أسمعُ قعقعةَ السِّلاحِ حتى جاوزْتُ الرَّوحاء.

---

(١) بهذا السياق وهذه الألفاظ لم أجده إلا عند المصنف، ونقله عنه القرطبي في «تفسيره» (١٤/ ١٥٧).
وأصل الحديث رواه مسلم (١٧٨٨) ولفظه: عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: كنا عند حذيفة. فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت. فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب. وأخذتنا ريح شديدة وقر. فقال رسول الله ﷺ: «إلا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا. فلم يجبه منا أحد. ثم قال: «ألا برجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا. فلم يجبه منا أحد. ثم قال: «ألا برجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا. فلم يجبه منا أحد. فقال: «قم. يا حذيفة! فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بدًّا، إذ دعاني باسمي، أن أقوم. قال: «اذهب فأتني بخبر القوم. ولا تذعرهم علي» فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام. حتى أتيتهم. فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار. فوضعت سهما في كبد القوس. فأردت أن أرميه. فذكرت قول رسول الله: «ولا تذعرهم علي» ولو رميته لأصبته. فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت. فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها. فلم أزل نائما حتى أصبحت. فلما أصبحت قال: «قم، يا نومان!».

(٢) رواه البخاري (٤١١٧)، ومسلم (١٧٦٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها، بلفظ: «لما رجع النبي ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال: هاهنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم».

(٢٣) ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ هذا ثناءٌ على المؤمنين بالوفاءِ بما عاهدوا الله عليه، وذلك أنَّهم بايعوا رسولَ اللهِ ﷺ على ذلك ونذروا.

والنَّحْبُ: الموتُ، أو النَّذرُ، أو الخطرُ العظيمُ، ونَحَبَ القومُ؛ أي: جَدُّوا في عملِهم.

وقال أبو عبيدة: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾؛ أي: ماتَ[1].

قيل: نزلَتْ في القومِ الذين عاهدوا رسولَ اللهِ ﷺ ليلةَ العقبةِ.

وقيل: في حمزةَ ومَن قُتِلَ بأُحُدٍ[2].

وروى مسلمٌ والبخاريُّ بإسنادِهما عن أنسٍ قال: غابَ عمِّي أنسُ بنُ النَّضرِ عن قتالِ بدرٍ، وقال: قد غبْتُ عن أوَّلِ مشهدٍ مع الكفَّارِ، لَئِنْ أشهدني اللهُ قتالاً لَيرَيَنَّ ما أصنعُ، فلمَّا كان يومُ أُحُدٍ انكشفَ المسلمونَ، فقال: اللَّهمَّ إنِّي أبرأُ إليْكَ مِنْ صَنِيعِ هؤلاءِ، ثم قالَ: إنِّي لأجِدُ ريحَ الجنَّةِ دونَ أُحُدٍ، فقاتلَهم حتى قُتِلَ، [فوُجدَ] فيه بِضْعٌ وثمانونَ جراحةً مِنْ بينِ ضربةٍ بسيفٍ وطعنةٍ برمحٍ ورميةٍ بسهمٍ، وقد مَثَلوا به حتى لم يُعرَف، فعرَفَتْهُ أختُه ببنانِه ـ ورُوي: بثناياه ـ فنزل: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[3].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٣٦)، وفيه: أي: نذره الذي كان نحب؛ أي: نذر، والنحب أيضاً: النفس؛ أي: الموت.

(٢) ذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٤٨٤)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٤٠)، دون سند، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢١٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣)، والرواية فيهما: «ببنانه». ورواية «بثناياه» ذكرها الواقدي في «المغازي» (١/ ٢٨٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣) (ط دار إحياء التراث)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢١٧)، والسمعاني في «تفسيره» (٤/ ٢٧١) وما بين معكوفتين من المصادر.

وقيل: مرَّ طلحةُ على النَّبيِّ عليه السلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «هذا ممَّنْ قضى نحبَه»[١].

وكان ثبتَ مع النبيِّ عليه أفضلُ الصلاة والسلام يومَ أُحُدٍ حتى أصيبَتْ يدُه، فقال عليه السلام: «أوجبَ طلحةُ الجنَّةَ»[٢].

فإذنْ قضاءُ النَّحْبِ بأنْ يُقتلَ أو يصابَ بعضوٍ أو بجرحٍ.

وقيل: قولُه في طلحةَ: «هذا ممَّنْ قضى نحبَه»؛ أي: ممَّنْ سيقضي؛ أي: استحقَّ أنَّه يُستشهَدُ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾؛ أي: حضرَ القتالَ لِيُقتَلَ أو لِيُنْصَرَ.

وعلى الجملة: مَنْ حضرَ القتالَ فقد قضى نحبَه؛ فإنْ قُتِلَ لم يبْقَ عليه شيءٌ، وإنْ عاشَ فعليه استدامةُ الذَّبِّ عن الدِّينِ حتى يأتيَه اليقينُ.

وقال اللَّيْثُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾؛ أي: قُتِلَ في سبيلِ اللهِ فأدركَ ما تمنَّى من الثَّوابِ، فذلك قضاءُ النَّحْبِ[٣].

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: ما غيَّروا العهدَ.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٤٠)، وابن ماجه (١٢٦)، عن معاوية رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث معاوية إلا من هذا الوجه».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٣٧٦)، وقول النبي ﷺ: «أوجب طلحة» دون سبب النزول: رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤١٧)، والترمذي (٣٧٣٨)، عن الزبير رضي الله عنه، وقال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح غريب»، ورواه الدورقي في «مسند سعد» (٩٠) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢١٩)، وانظر: «العين» (٣/ ٢٥١).

(٢٤) ـ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾؛ أي: ما بدَّلوا تبديلاً لأجزيَهم بصدقِهم، وأعذِّبَ مَنْ خالَفهم، أو: صدَقوا ما عاهدوا اللهَ عليه ليجزيَهم.

﴿إِن شَآءَ﴾؛ أي: أنْ يعذِّبَ المنافقين إن شاء؛ أي: يميتَهم على النِّفاقِ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يوفِّقَهم للإيمان.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ هو معطوفٌ ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾.

﴿بِغَيْظِهِمْ﴾؛ أي: لم يظفروا على المسلمين، والباء بمعنى (مع)؛ أي: ردَّهم مع غيظِهم، كما يقال: ركبَ الأميرُ بسلاحِه.

﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾؛ أي: لم يصيبوا ما أمَّلوا من الظَّفَرِ والملكِ، وكان ذلك عندَهم من الخيرِ.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالرِّيحِ والملائكةِ.

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني: يهودَ قريظةَ بعدَما كانوا عاهدوا النبيَّ عليه الصلاة والسلام على الكتابِ، ثم مالؤوا أبا

سفيانَ فخذلَهم اللهُ، ونَهَدَ إليهم[١] رسولُ اللهِ ﷺ لَمَّا عادَ من الخندقِ، وقال لأصحابه: «عزمْتُ عليكم ألَّا تصلُّوا العصرَ إلَّا في بني قريظةَ»، فحاصرَهم حتى قالوا: اجعل بينَنا وبينَكَ رجلاً من أصحابِكَ، فبعَثَ إلى سعدِ بنِ معاذٍ، فحضر على حمارٍ، وكان به جرحٌ أصابَه يومَ الخندقِ، فقال: «إنَّ هؤلاء حكَّموكَ»، فقال لهم سعدٌ: أرضيْتُم بحكمي؟ قالوا: نعم رضينا، فأخرجَهم من حصونِهم إلى بعضِ الدُّور ثم قال: حكمْتُ أنْ تُقتَلَ مُقاتِلَتُهُمْ، وتُسْبَى ذَرارِيُّهم، وتُجعَلَ أموالُهم للمهاجرينَ دونَ الأنصارِ. فقال عليه الصلاة والسلام: «حكمْتَ فيهم بحُكْمِ اللهُ مِنْ فوقِ سبعةِ أرقعةٍ»[٢].

﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾؛ أي: عاوَنوهم من أهلِ الكتاب.

---

(١) نهد الجيش لقتال العدو: إذا نهضوا إليه. انظر: «جامع الأصول» (١٠/ ٣٧٩).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٧٢) عن قتادة. وانظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٥١٢)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٤٠). وروى البخاري قطعًا منه مفرقة:

فقد روى البخاري (٤١١٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: «فإلى أين؟» قال: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم.

وروى البخاري (٤١١٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرد منا ذلك، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا منهم.

وروى البخاري (٤١٢١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، يقول: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد قال للأنصار: «قوموا إلى سيدكم، أو خيركم». فقال: «هؤلاء نزلوا على حكمك». فقال: تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، قال: «قضيت بحكم الله»، وربما قال: «بحكم الملك».

وقوله: «سبعة أرقعة» قال ابن دريد: هكذا جاء في الحديث على لفظ التذكير، على معنى السقف، والرقيع: السماء. انظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٧٦٧).

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: من حصونِهم وقصورِهم، وأصلُ الصَّياصي: قرونُ البقرِ والظِّباءِ، وكلُّ قرنٍ صِيصيةٌ؛ لأنَّ ذواتَ القرون تتحصَّن بقرونِها، وصِيصيةُ الدِّيكِ: شوكةٌ من خلفِ رجلِه؛ لأنَّه يتحصَّنُ بها، وتُسمَّى شوكةُ الحائكِ: «صِيصيةً» تشبيهاً بالقرنِ، فالصَّياصي: كلُّ ما يُمتَنَعُ به.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: الخوفَ حتى نزَلوا على حكم سعدِ بنِ معاذٍ، وكانوا حُلَفاءَه، وإنَّما حكَّموه طمعاً في أنَّه لا يحكمُ بحكمٍ يستأصلُهم.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم المقاتِلةُ. قال مقاتل: قُتِلَ منهم أربعُ مئةٍ وخمسون رجلاً[1]. وقيل: أكثر من ذلك.

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾؛ أي: وتَسْبونَ طائفةً؛ أي: الذَّراري. قال مقاتل: هم سبعُ مئةٍ وخمسون[2].

***

(٢٧) ـ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾؛ أي: نخيلَهم وعَقارَهم ومنازلَهم وأموالَهم من الذَّهب والفِضَّة.

وقيل: أي: جعلَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام أرضَهم للمهاجرين لأنَّهم لم يكن لهم عَقارٌ بالمدينة.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٨٥).

(٢) المصدر السابق.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾؛ أي: لم تملكوها ولم تطؤوها بعدُ بأقدامكم، وهي ممَّا سيفتحُه اللهُ عليكم؛ قيل: يعني خيبرَ فإنَّها فُتحَتْ بعدَ قريظة، وقيل: يعني مكَّة.

وقيل: الرُّومَ وفارسَ وما يظهرُ عليه المسلمون إلى القيامة.

وقيل: عنى قرى اليهود التي تخلَّوا عنها لَـمَّـا قُتلَتْ قريظةُ، فصارَتْ فيئًا للمسلمين.

* * *

(٢٨) - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا متَّصلٌ بما سبق من المنعِ في إيذاءِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وكان قد تأذَّى ببعضِ الزَّوجاتِ؛ قيل: سألْنَه شيئاً من عَرَضِ الدُّنيا، وقيل: زيادةً في النَّفقة، وقيل: آذيْنَه بغَيرةِ بعضِهِنَّ على بعضٍ.

وآلى أنْ لا يكلمَهُنَّ شهراً، فاعتزلَ في مَشْرُبةٍ له، ونزلَ القرآنُ بالتَّخييرِ، وكُنَّ يومَئذٍ تسعاً: عائشةَ وحفصةَ وأمَّ حبيبةَ وسودةَ وأمَّ سلمة وصفيَّةَ وميمونةَ وزينبَ بنتَ جحشٍ وجُوَيْرِيَةَ.

والظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿إِن كُنتُنَّ﴾ خطابٌ للجميع، ويجوزُ أن يكون مختصًّا بمَن كان منها الإيذاءُ.

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ يعني: متعةَ الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ بالطَّلاق بعد ذلك الإمتاعِ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ أي: من غير إضرارٍ.

قيل: السَّراحُ الجميلُ: الطَّلاقُ للعدَّة؛ أي: في طهرٍ لم يجرِ فيه جماعٌ.

والسَّراح: اسمٌ من التَّسريحِ أُقيمَ مُقامَ التَّسريحِ، كما يقال: أدَّى أداءً.

(٢٩) ـ ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾؛ أي: إنْ لم يكن قصدُكُنَّ التَّوسُعَ في الدُّنيا فإنَّ اللهَ أعدَّ لمن أحسنَ منكنَّ أجراً عظيماً.

و(الدارُ الآخرةُ): الجنَّةُ.

ولمَّا نزلَتْ آيةُ التَّخيير بدأ عليه السلام بعائشةَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنهما، فاختارَتِ اللهَ ورسولَه والدَّارَ الآخرةَ، واقتدَتِ الباقيات بها، وقلْنَ: ما لنا ولِلدُّنيا، وهي دارُ فناءٍ، والآخرةُ أحبُّ إلينا من الفانية(١)، فلمَّا اخترْنَ رسولَ اللهِ ﷺ شكرهُنَّ اللهُ على ذلك وقال: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ [الأحزاب: ٥٢](٢)، وميَّزَ حكمهُنَّ عن غيرهِنَّ، فجعلَ ثوابَ طاعتِهِنَّ وعقابَ معصيتِهِنَّ أكثرَ ممَّا لغيرهنَّ.

فظاهرُ مذهب الإمام الشَّافعيِّ رحمه الله: لو اختارَتْ واحدةٌ منهنَّ الدُّنيا لم يكن ذلك طلاقاً، بل كان يجبُ عليه أن يطلِّقَها(٣).

والتَّمتُّعُ المذكورُ قبلَ التَّسريحِ من بابِ تعجيلِ الزَّكاةِ قبلَ الحولِ، والكفَّارةِ قبلَ الحِنْثِ.

---

(١) روى البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥)، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، زوج النبي ـ ﷺ ـ أخبرته: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، فبدأ بي رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: إن الله قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»، زاد مسلم: قالت: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨٧) عن قتادة والحسن.

(٣) انظر: «الأم» (٥/ ١٥٠)، و«الحاوي الكبير» (٩/ ١٠).

وقيل: أرادَ: فتعالَيْنَ أطلقْكُنَّ وأُمَتِّعْكُنَّ، فيكون سراحاً جميلاً، فلا أراجعُ ثم أطلِّقُ لتطويل العدَّةِ وقصدِ المضارَّة.

***

(٣٠ - ٣١) - ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ هذا أمرٌ بلزومِ طاعةِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام واجتنابِ إيذائِه.

قرئ ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ بالكسر وبالفتح[١].

قال ابنُ عبَّاسٍ: يريد بها النُّشوز[٢].

وقيل: سوءُ الخُلُقِ والعصيانُ البيِّنُ[٣].

وقيل: أي: مَنْ تُقدِمُ منكنَّ على زناً بيِّنٍ تَعرفُ أنَّه زناً.

ثم قال مقاتلٌ: هذا التَّضعيف في العذابِ في الآخرةِ[٤]؛ لأنَّ إيتاءَ الأجرِ مرَّتين أيضاً في الآخرة.

وقال قومٌ: لو قُدِّرَ الزِّنا من واحدةٍ منهنَّ - وقد أعاذَهُنَّ اللهُ عن ذلك - لكانت تُحَدُّ حَدَّيْنِ لعِظَمِ قَدْرها، كما يُزادُ حَدُّ الحرَّةِ على الأَمَةِ.

---

(١) قرأ بالفتح ابن كثير وشعبة، والباقون بالكسر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٩ - ٢٣٠)، و«التيسير» (ص: ٩٥).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٩٧)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٢٨).

(٣) في (أ): «التبيان». وعبارة الواحدي في «الوسيط» (١٨/ ٢٢٨): «قال مقاتل: يعني العصيان البين. وقال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٨٧).

والعذابُ يعني الحدَّ، كما قال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وعلى هذا فمعنى الضِّعفين معنى المثلَيْن أو المرَّتَين.

وقال أبو عبيدةُ: ضعفُ الشَّيء مثلُه مرَّتين، وضعفاهُ ثلاثةُ أمثالِه؛ أي: يجعلُ إلى الشَّيء شيئين حتى يكون ثلاثةً[١].

والظَّاهرُ أنَّه أراد بالضِّعفَيْنِ المثلَيْنِ؛ لأنَّه قال: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، فأمَّا في الوصايا فلو أوصى لإنسانٍ بضعفِ نصيبِ ولدِه فهو وصيةٌ بأنْ يُعطَى مثلَ نصيبِه مرَّتين، ولو قال: بضعْفَي نصيبِ ولدي، فهو وصيةٌ بأن يعطَى مثل نصيبِه مرَّتين أو ثلاث مرَّات.

ولكنَّ الوصايا تجري على العرف فيما بين النَّاس، وكلامُ اللهِ تعالى يُرَدُّ تفسيرُه إلى كلام العرب، والضِّعْفُ في كلام العرب: المثلُ إلى ما زاد، وليس بمقصورٍ على مثلَيْن، يقال: هذا ضعْفُ هذا؛ أي: مثلُه، وهذا ضعفاه؛ أي: مثلاه، فالضِّعْفُ في الأصل زيادةٌ غيرُ محصورةٍ، قال الله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ [سبأ: ٣٧] ولم يُرِدْ مِثلاً ولا مِثلَيْن. كلُّ هذا قول الأزهريِّ[٢].

وقرئ: ﴿نُضعِّف﴾ بالنون وتشديد العين ﴿لَهَا ٱلْعَذَابَ﴾ بالنَّصب، و: ﴿يُضَعَّفْ﴾ بالياء ونصب العين، و: (نضاعِفْ) بالنون والألف، و: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ بالياء والألف ونصب العين[٣]، ويقال: ضعَّف وضاعفَ بمعنًى؛ مثل: جاريةٌ منعَّمةٌ ومناعَمَةٌ.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٣٧)، و«تهذيب اللغة» (١/ ٣٠٤)، و«البسيط» (١٨/ ٢٢٩).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ٣٠٤)، و«البسيط» (٩/ ١٢٣) و(١٨/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٣) قرأ ابن عامر وابن كثير: ﴿نُضعِّف﴾ بضم النون وتشديد العين ﴿العذابَ﴾ بالنصب، وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح العين على ما لم يسمَّ فاعله، وقرأ باقي السبعة: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ بالياء وألف بعد الضاد وفتح العين على ما لم يسمَّ فاعله. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).
وروى خارجة عن أبي عمرو: (نضاعِفْ) بالنون والألف كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٨٢) والمشهور عنه ما تقدم.

=

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: مَن تُطعِ اللهَ ورسولَه ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ أي: كان عملُها على موافقةِ أمرِ اللهِ تعالى.

والقراءة: ﴿يَقْنُتْ﴾ و﴿يَأْتِ﴾ بالياء، وقرأ حمزةُ: ﴿ويَعْمَلْ﴾ بالياء، وقُرئ بالتاء، وقُرئ: ﴿نُؤْتِهَآ﴾ بالنون وبالياء(1).

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾؛ أي: حسناً في الجنَّة.

وقيل: القنوتُ في هذه الآيةِ: طاعةُ النَّبيِّ ﷺ، وقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأنَّ طاعة الرسول لطاعة الله.

* * *

(٣٢) - ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: منزلتكُنَّ فوقَ منزلةِ النِّساءِ لاتصالكُنَّ بأشرفِ الخلْقِ، ثم قال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾؛ أي: خفْتُنَّ اللهَ، فبيَّن أنَّ الفضيلةَ إنَّما تتمُّ بالتَّقوى.

ولفظ (أحدٍ) يقعُ على الأُنثى والذَّكَر وعلى ما ليس بآدميٍّ، يقال: ليس فيها أحدٌ لا شاةٌ ولا بعير.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: لا تُلِنَّ الكلامَ لغيرِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولا تُرقِّقْنَ بالقولِ ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ أي: نفاقٌ، وقيل: تشوُّفُ الفجور.

= وروى محبوب عن أبي عمرو: (يضاعِفْ) بالياء والألف كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١) وهي خلاف المشهور عنه أيضاً.

(١) قرأ حمزة والكسائي: ﴿ويَعْمل صَالحاً يؤتها أجرها﴾ بالياء فيهما، والباقون بالتاء في الأول وبالنون في الثاني. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: جميلاً، لا يُطْمِعُ قاصداً.

والمرأةُ تُندَبُ إذا خاطبَتِ الأجانبَ وكذا المحرَّمَ عليها بالمصاهرةِ إلى الغِلْظةِ في القَوْلِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أمرهنَّ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر[1].

***

(٣٣) - ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِرْنَ في بُيوتِكُنَّ﴾ يقال: وَقَرَ يَقِرُ وَقاراً: إذا سكنَ، والأمر: قِرْ، وللنِّساءِ: قِرْنَ، مثل: عِدْنَ وَزِنَّ.

وقيل: هو أمرٌ من قرَّ في المكانِ يَقِرُّ والأمر اقْرِرْنَ، فتُبدَلُ من العين الياءُ كراهيةَ التَّضعيف، كما أُبدلَ في قيراط ودينار ويصير للياء حركةُ الحرفِ المبدَل، فالتقدير: «اقْيِرْنَ» ثم تُلْقَى حركةُ الياء على القافِ كراهيةَ تحرُّكِ الياءِ بالكسر، وتسقطُ الياءُ لاجتماعِ الساكنينَ، وتسقط همزةُ الوصلِ لتحرُّكِ ما بعدَها، فتصير: (قِرْنَ).

وقرأ أهلُ المدينةِ وعاصمٌ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[2]، وقال [الزجَّاج][3]: هو من قَرِرْتُ في المكان أَقَرُّ، من باب: حَمِدَ يَحمَدُ؛ أي: اقْرَرْنَ، ثم تُحذَف العينُ كراهيةَ التَّضعيفِ وتُلقَى حركتُها على القاف، فيقالُ: (قَرْن).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٢٩).

(٢) هذه قراءة نافع وعاصم، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) زيادة يقتضيها السياق. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٢٤)، و«البسيط» (١٨/ ٢٣٤).

وقال الفرَّاءُ: هو كما تقولُ: هل أَحَسْتَ صاحبَكَ[1]؛ أي: هل أحسَسْتَ.

وقال أبو عثمانَ[2]: «قَرِرْتُ به عيناً» بالكسر، ولا يجوز: «قَرِرْتُ في المكان» بالكسر، إنَّما هو: «قَرَرْتُ».

وقيل: هذا لا يقدحُ في القراءة إذا ثبَتَتْ عن النبيِّ ﷺ، فيُستدَلُّ بما ثبَتَ عنه على صحَّةِ اللُّغة.

ومعنى الآيةِ: الأمرُ بلزومِ البيتِ.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ التَّبرُّجُ: الخروجُ.

وقيل: إظهارُ المحاسِنِ والزِّينةِ، يُقال: في عينِه بَرَجٌ؛ أي: سَعَةٌ.

وقيل: التَّبرُّجُ: التَّبخترُ في المشي.

﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: تبرُّجَ أهلِ الجاهليَّةِ، فحُذف المضاف.

ثم؛ قيل: أراد بالجاهلية الأولى: ما بينَ آدمَ ونوحٍ.

وقيل: ما بينَ نوحٍ وإدريسَ.

وقيل: يعني: زمانَ إبراهيمَ، فكانت المرأةُ تلبسُ الدُّروعَ من اللُّؤلؤِ غيرَ مخيطِ الجانبينِ، وتلبسُ الثِّيابَ الرِّقاقَ ولا تواري بدنَها.

وقيل: كانت العربُ أهلَ قشفٍ وضَنْكٍ، فقال: ﴿ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ لأنَّ التنعُّمَ وإظهارَ الزِّينة إنَّما جرى في الأزمان السابقة.

وقيل: كانت عادةُ الكفَّار قبلَ الإسلام خروجَ البغايا وتَزيُّنَهنَّ للرجال.

وقيل: المقصودُ من الآيةِ: الْزَمْنَ البيوتَ، فإنْ مسَّتِ الحاجةُ إلى الخروجِ فليكُنِ الخروجُ على تبذُّلٍ وتستُّرٍ تامٍّ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٤٢).

(٢) هو المازني، وذكر قوله أبو علي الفارسي في «الحجة» (٥/ ٤٧٥)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: في مواقيتِها ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: عندَ محلِّها.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ يقال: أردْتُ أنْ أفعلَ كذا، وأردْتُ لأفعلَ كذا؛ أي: إنَّما أمَركُنَّ اللهُ بما أمَرَ به ليُذهبَ عنكم الرِّجس.

والرجسُ: عملُ الشَّيطانِ، وما ليسَ للهِ فيه رضاً.

وأهلُ البيتِ هاهنا: نساءُ النَّبيِّ ﷺ. قالَه ابنُ عبَّاس[1].

ثم قيل: هُنَّ زوجاتُه.

وقيل: كلُّ امرأةٍ كانت في بيتِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام.

وإنَّما قالَ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان فيهم، وإذا اجتمع المذكَّر والمؤنَّث غُلِّبَ المذكَّر.

وقال قومٌ: هو خاصٌّ في النَّبيِّ عليه السلام وفاطمةَ وعليٍّ والحسنِ والحسينِ رضي الله عنهم؛ لِمَا رُويَ أنَّه عليه أفضلُ الصلاة والسلام غَشَّى هؤلاء بكساء وقال: «اللَّهمَّ هؤلاءِ أهلُ بيتي وخاصَّتي فأذهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطَهِّرْهم تَطهيراً»[2].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١٣٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٤٢٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٥٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٠٥)، و(٣٧٨٧) من حديث عمر بن أبي سلمة، وقال: غريب من هذا الوجه. ورواه (٣٨٧١) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وصححه، كما في «تحفة الاشراف» (١٣/ ١٢). ورواه من حديث أم سلمة أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٢٦٥٠٨) بثلاثة أسانيد أحدها صحيح. وفي الباب من حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم (٢٤٢٤)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٠٢)، قالت: خرج النبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِن شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن عليٍّ فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثُم جاءت فاطمةُ فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وسياقُ القرآنِ يدلُّ على القولِ الأوَّلِ.

وقيـل: قولـه: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ خرجَ على لفظ الأهـلِ، كما يقولُ الرَّجـلُ لصاحبِه: كيـف أهلُـكَ؛ أي: امرأتُـكَ ونسـاؤُكَ، فيقـول: هـم بخيـرٍ؛ لأنَّـه لـمَّا سـألَ كنَّـى، فخـرجَ الجوابُ على مـا كنَّـى، كقولـه: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هـود: ٧٣].

وقالَتْ أمُّ سلمةَ: أدخلْتُ رأسي في الكساءِ فقلْتُ: وأنا منهم؟ قال: «نعم»[١].

---

(١) رواه البيهقي في «الاعتقاد» (ص: ٣٢٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٩١٢) بلفظ: (قال: بلى إن شاء الله). ونقل البيهقي عن شيخه أبي عبد الله الحاكم الذي روى عنه هذا الحديث قوله: «هذا حديث صحيحٌ سنده، ثقاتٌ رواته».

وقال البغوي: «هذا حديث صحيح الإسناد».

ثم قال البيهقي: «وهذا يؤكد ما ذكرنا من دخول آله وأزواجه في أهل بيته، وعلينا محبتهم جميعهم وموالاتهم في الدين».

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٦٥٥٠) بلفظ: «بلى فادخلي في الكساء»، وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف.

وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٠٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٦٦٣)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها بلفظ: أن رسول الله ﷺ جمع فاطمة وحسنًا وحسينًا رضي الله عنهم ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي. قالت أم سلمة: قلت: يا رسول الله أدخلني معهم، قال: «إنك من أهلي».

وقد جاء في روايات أخرى كثيرة أن النبي ﷺ قال لها: «إنك على خير»، ولم يقل: بلى، ولا صرح بدخولها. منها حديث أم سلمة عند أحمد في «المسند» (٢٦٥٠٨)، وفيه: «إنك إلى خير إنك إلى خير»، وإسناده صحيح كما ذكرنا في التعليق السابق.

وللقرطبي في «تفسيره» (١٤٧/١٧) كلام حسن في ترجيح عموم الآية حيث قال: ولا اعتبار بقول فرقة منهم الكلبي: هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة، فالآيات كلها من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ =

والأظهرُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهنَّ، فلمَّا اجتمعوا خرجَ الكلام على لفظ الرجال.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: يا أهل البيت. وقال الزَّجَّاجُ: نصبٌ على المدح[1]؛ أي: أعني أهلَ البيت.

* * *

(٣٤) - ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: اذكرْنَ موضعَ النِّعمةِ؛ أي: صيَّركُنَّ اللهُ في بيوتٍ تُتلى فيها آياتُ اللهِ القرآنُ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: اذكرْنَ آياتِ اللهِ حتى تكونَ منكنَّ على بالٍ لتتَّعِظْنَ بمواعظِ اللهِ.

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾: سُنَّةِ الرَّسولِ ممَّا كان يعلِّمُ الأمَّةَ من أمور الدِّين.

= ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ منسوق بعضها على بعضٍ، فكيف صار في الوسط كلاماً منفصلاً لغيرهن؟ وإنما هذا شيءٌ جرى في الأخبار أن النبي عليه السلام لما نزلت عليه هذه الآية دعا عليًّا وفاطمة والحسن والحسين، فعمد النبي ﷺ إلى كساء فلفها عليهم ثم ألوى بيده إلى السماء فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فهذه دعوة من النبي ﷺ لهم بعد نزول الآية أحبَّ أن يدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواجُ، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيرها لهم خاصة وهي دعوة لهم خارجة من التنزيل.

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٢٦).

وقال ابنُ عبَّاسٍ: آيات الله: ما ذكرَ من الثَّواب والعقاب، والحكمة: حدودُ اللهِ في مفترضاتِه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾؛ أي: عالماً بغوامضِ الأشياءِ.

وقيل: برًّا بكنَّ إذ اختاركُنَّ أزواجاً لرسولِه.

﴿خَبِيرًا ﴾؛ أي: عالماً بغوامضِ الأشياءِ ومواضعِ الاختبارِ لَكُنَّ، فاشكرْنَ نعمتَه.

***

(٣٥) - ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾؛ أي: الرجالُ والنساءُ سواءٌ في أنَّهُ لا يضيعُ ثوابُ عملٍ عندَ اللهِ.

قالَ قتادةُ: لمَّا ذكرَ اللهُ تعالى أزواجَ النَّبيِّ عليهِ السَّلام دخلَ نساءٌ من المسلماتِ عليهنَّ فقُلنَ: ذُكِرْتُنَّ ولم نُذْكَرْ، فلو كانَ فينا خيرٌ ذُكِرْنا، فنزلتْ هذه الآيةُ[٢].

وقالَ مقاتل: بلَغني أنَّ أسماءَ بِنتَ عُمَيسٍ لمَّا رجعتْ من الحبشةِ معَ زوجِها جعفرِ بنِ أبي طالبٍ قالتْ لنساءِ النَّبيِّ عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ: هلْ نزلَ في النِّساءِ شيءٌ من القرآنِ؟ فقُلنَ: لا، فأتتْ رسولَ اللهِ ﷺ وقالتْ: إنَّ النِّساءَ لفي خيبةٍ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٤٢)، وفيه: «حدود الله ومفترضاته».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٤٣) والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٠٩ ـ ١١٠).

وخسارٍ. قالَ: «وممَّ ذلكَ؟» قالتْ: لأنَّهنَّ لا يُذْكَرْنَ بخيرٍ كما يذكرُ الرِّجالُ، فنزلتْ هذه الآيةُ(١).

وقيل: إنَّ أمَّ سلمةَ وأُنيسةَ بنتَ كعبٍ قالتا: يا رسولَ اللهِ، ما نرى ربَّنا يذكرُ النِّساءَ في شيءٍ من كتابِهِ، إنَّما يَذكرُ الرِّجالَ بالفضيلةِ والجزاءِ، نخشى أن لا يكونَ فيهنَّ خيرٌ، ولا للهِ فيهنَّ حاجةٌ، فنزلتِ الآيةُ(٢).

قال الفرَّاءُ: لفظَ المؤمنين يشمَلُ الذكورَ والإناثَ، ولكنَّهنَّ أردْنَ أنْ يُخصَّصْنَ وينفرِدْنَ بالذِّكرِ، فذكرَهُنَّ اللهُ لذلكَ(٣).

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾؛ أي: المنقاديْنَ للهِ ظاهراً وباطناً.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الذينَ صَدَّقوا اللهَ ورسولَهُ.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾؛ أي: المطيعيْنَ.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: في إيمانهمْ ونذورِهمْ وأقوالهمْ.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على ما أصابَهمْ؛ أي: من الضُّرِ والفقرِ والنَّوائبِ والمصائبِ، وعلى أمْرِ اللهِ وعن معاصيهِ.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾؛أي: الذينَ خَشَعتْ قُلوبُهمْ من خوفِ اللهِ. وقيلَ: أي: المتواضعين.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٤٤٣) عن مقاتل بن حيان.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٤٤٢) عن مقاتل، وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٨٩). وروى الترمذي (٣٢١١) عن أم عمارة الأنصارية: أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) هذا معنى ما ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٤٣)، ونقله عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٤٤).

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ﴾؛ أي: الذين يصومونَ ويصونونَ صومَهمْ عمَّا يَخْرِقُهُ من الفطرِ على الحرامِ واجتنابِ الآثامِ وغيرهما.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ فاكتفَى بما تقدَّم.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيلَ: في أدبارِ الصَّلواتِ، وغدوًّا وعِشيًّا، وفي المضاجعِ، وعندَ الانتباهِ من النَّومِ.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾؛ أي: قد أعدَّ اللهُ لهم ﴿مَّغْفِرَةً﴾؛ أي: غفرانَ الذُّنوبِ والأجرَ العظيمَ وهو الجنَّةُ.

(٣٦) - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ هذا متَّصلٌ بقولِهَ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾؛ أي: اذكُرْنَ القرآنَ والسُّنَّةَ؛ إذ ليسَ لأحدٍ معها خيارٌ في الأمرِ، بل ليسَ لأحدٍ الحكمُ إلَّا بما في الكتابِ والسُّنةِ.

نزلَتِ الآيةُ في عبدِ اللهِ بنِ جحشٍ وأختِه زينبَ، وكانا ابنَي عمَّةِ النَّبيِّ ﷺ، فخطبَ النَّبيُّ ﷺ زينبَ لزيدِ بنِ حارثةَ مولاهُ، وكان يَظنُّ أنَّهُ يخطبُها لنفسِهِ، فلَّما أُعْلِمَتْ أنَّهُ خطبَها لزيدٍ كَرِهَتْ وكذلكَ أخوها، فلمَّا نزلت الآيةُ رضِيَا، فزوَّجها رسولُ اللهِ ﷺ من زيدٍ[1].

---

(١) روى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٩)، والدارقطني في «سننه» (٣٧٩٦)، من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤٧): رواه الطبراني وفيه حفص بن سليمان وهو متروك وفيه توثيق لين. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٢ و١١٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسنادين ضعيفين. ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٤٥) عن قتادة مرسلًا، ورواه أبو عوانة في «المستخرج» (١١/ ٣١٨) عن أنس رضي الله عنه وليس فيه ذكر أخيها.

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ قالَ: ﴿لَهُمُ﴾ لأنَّهُ يدخلُ تحتَ قولِه: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ جميعُ المؤمنينَ والمؤمناتِ، والخِيَرةُ: الاختيارُ.

وقيل: نزلَتْ في أمِّ كلثوم بنتِ عُقبةَ بنِ أبي مُعيطٍ، وهبَتْ نفسَها لرسولِ اللهِ ﷺ فزوَّجَها من زيدِ بنِ حارثةَ[1].

قرئ ﴿أَن يَكُونَ﴾ بالتاء والياء[2].

(٣٧) ـ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾: مَنَّ عليه إذ أوصلَه إلى ما مالَ إليه من نكاحِ زينبَ امرأةِ زيدٍ وإزالةِ التَّبنِّي بأوكدِ الوجوهِ، وهو التَّزوُّجُ بامرأةِ مَنْ تبنَّاه حتَّى بانَ لهم أنَّه لم يبْقَ للتَّبنِّي أثرٌ في الشَّرْعِ.

قالَ مقاتلٌ: زَوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ زينبَ من زيدٍ، فمكثتْ عِندَهُ حيناً، ثمَّ إنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أتى زيداً يوماً يطلُبُهُ فأبصَرَ زينبَ قائمةً، وكانَتْ بيضاءَ جميلةً جسيمَةً مِنْ أتَمِّ نساءِ قريشٍ، فهويها وقالَ: «سُبحانَ مُقَلِّبِ القُلُوبِ» ففطنَ زيدٌ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، ائذنْ لي في طلاقِها فإنَّ فيها كِبراً يَعْظُمُ عليَّ وتُؤذيني بِلسانِها، فقالَ عليهِ السَّلام: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٤) عن ابن زيد، وهو معضل.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وعاصم وهشام بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٩٤). وانظر الكلام عليه في التعليق الآتي.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: جاءَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى بابِ زيدٍ يَطلُبُهُ فبَعَثَ اللهُ ريحاً، فرفَعَتْ السِّترَ وزينبُ مُتَفَضِّلَةٌ، فرأى زينبَ فوقعَتْ في نفسهِ، ووقعَ في نفسِ زينبَ أنَّها وقَعَتْ في نفسِ النبيِّ ﷺ، فأتى زيدٌ فأخبرَتْهُ، فوقَعَ في نفسِ زيدٍ أن يُطَلِّقَها، وأقامَ زيدٌ لا ينشرُ عليها من يومِئذٍ، فكانَ زيدٌ يرى رسولَ اللهِ ﷺ فيقولُ: إنِّي أريدُ أنْ أُطَلِّقَ زينبَ، وهو يقول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾(١).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٥٠) دون سند ولا عزو. وذكر نحوه بعض المفسرين كالثعلبي والزمخشري وغيرهم.

قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١١١): غريب بهذا اللفظ. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٣٤): ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرج الطبري معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله. قلت: هو في «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٤٥٢)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٦) عن ابن زيد.

وهذا الحديث لا يصح سنداً ولا متناً، أما السند فلانقطاعه مع ضعف ابن زيد نفسه، وأما المتن فلما في قوله: «أبصرَهَا بعْدَما أنكحهَا إيَّاهُ فوقَعتْ في نفْسِه»، وللقاضي عياض في الرد على هذا الخبر في كتابه «الشفا» كلام طويل، وقد نقل عن القشيري [هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء البصري المالكي] قوله: وكيف يقال: رآها فأعجبَتْه، وهي بنتُ عمَّتِه، ولم يزَلْ يرَاها منذُ وُلِدَت، ولا كان النساءُ يحتجِبْنَ منه عليه السلام؟ وهو زوَّجَها لزيدٍ، وإنَّما جعلَ اللهُ تعالى طلاقَ زيدٍ لها، وتزويجَ النبيِّ ﷺ إياها؛ لإزالةِ حرمةِ التبنِّي وإبطالِ سنَّتِه؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧].

وقال أيضًا: وأصحُّ ما في هذا ما حكاه أهلُ التفسيرِ عن عليِّ بن الحسينِ رضي الله عنهما: أنَّ اللهَ تعالى كان أعلمَ نبيَّه عليه السلام أنَّ زينبَ ستكونُ من أزواجِه، فلمَّا شكَاها إليه زيدٌ قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية، وأخفَى في نفسِه ما أعلمَه اللهُ تعالى به من أنَّه سيتزوَّجُها ممَّا اللهُ مُبدِيه ومُظهِرُه بتمامِ التزويجِ وطلاقِ زيدٍ لها. وسيأتي هذا القول قريبا.

وقال القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٧): «وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل الآية، وهو الذي =

﴿لِلَّذِىٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: بالهدايةِ ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: بالإعتاق.

وكان زيدٌ من سبي الجاهِليةِ، فاشتراهُ النَّبيُّ عليهِ السَّلام بعُكَاظ في الجاهليَّةِ وأعتقَهُ وتَبَنَّاهُ.

وقيلَ: وكَّلَتْ خديجةُ مَن يشتري لها غلاماً بعكاظَ فاشترى لها زيدًا، وكانَ غلاماً كيِّساً، فقال رسولُ اللهِ ﷺ لخديجةَ: «هبيهِ لي»، فقالت: نعم، على أنَّكَ إن أعتقتَهُ فولاؤُهُ لي، فقالَ: «لا حاجةَ لي فيهِ»، فقالَ: «هو لكَ»، فنشأ زيدٌ في حِجْرِ رسولِ اللهِ ﷺ.

ثمَّ إنَّ عَمَّهُ لَقِيَهُ يوماً وكانَ ورَدَ مكةَ في شغلٍ لهُ، فقالَ: ما اسمُكَ يا غلام؟ فقالَ: زيدٌ، فقالَ ابنُ مَنْ؟ قالَ: ابنُ حارِثةَ، قالَ: ابنُ من؟ قالَ: ابنُ شراحيلَ الكلبيّ، قالَ: ما اسمُ أمِكَ؟ قال: سُعدى، وكنتُ في أخوالي طيِّءٍ، فضَمَّهُ إلى صدرِهِ، وأرسلَ إلى أُختِهِ وقَومِهِ فَحضروا وأرادوا منه أن يقيمَ معهُمْ، فقالَ: لمن أنتَ؟ فقالَ: لمحمدٍ بنِ عبدِ اللهِ، فأتُوهُ وقالوا: هذا ابنُنَا فردَّهُ علينا، فقالَ: «أعرِضْ عليهِ فإن اختارَكُمْ فخُذُوا بيده»، وبعثَ إلى زيدٍ وقالَ: «هل تعرفُ هؤلاءِ؟» قالَ: نعم، هذا أبي وهذا أخي وهذا عمي. قالَ: «فأيُّ صاحبٍ كنْتُ لك؟»، فبكى وقالَ: لِمَ تسألُني عن ذلك؟ قال: «أخيِّرُكَ، فإنْ أحببْتَ أنْ تلحقَ بهم فالحَقْ، وإنْ أردْتَ أنْ تقيمَ فأنا مَنْ قد عرفْتَ»، قال: ما أختار عليكَ، فجذبَهُ عمُّه وقال: يا زيدُ، اخترْتَ العبوديَّةَ على أبيكَ وعمِّكَ؟! قال: أي واللهِ، العبوديَّةُ عندَ محمَّدٍ أحبُّ إليَّ مِن أنْ أكونَ عندَكم، فقال رسولُ اللهِ

= عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه، فأمَّا ما روي أن النبي ﷺ هوي زينب امرأة زيد فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته».

ﷺ: «اشهدوا أنِّي وارثٌ وموَرَّث»، فلم [يزلْ] يُقال: «زيدُ بنُ محمَّدٍ» إلى أنْ نزلَ قولُه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾(١).

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾؛ أي: تستـرُ فـي قلبـكَ مـن إرادةِ التـزوُّجِ بهـا ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾؛ أي: مُظْهِـرُه عليـك حيـن يُنـزل بـه قرآنـاً.

قال عمرُ وابنُ مسعودٍ وعائشةُ: ما أنزلَ اللهُ على رسولِه محمَّدٍ ﷺ آيةً أشدَّ عليه من هذه الآيةِ(٢).

وقالت عائشةُ: لو كتمَ النبيُّ ﷺ شيئاً من الوحي لكتَم قولَه: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾(٣).

أي: تكرهُ قولَ النَّاسِ في أمرِ زينبَ وتخافُ لائمتَهم، وأن يقولوا: أمرَ رجلاً بطلاقِ زوجتِه ثم نكحَها.

وقيل: الخشيةُ هاهنا: الاستحياءُ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: المرادُ بالنَّاسِ هاهنا: اليهودُ، وكانوا يَعيبون المؤمنين(٤).

---

(١) رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقصة تخييره ذكرها باختصار ابن هشام في «سيرته» (١/ ٢٤٩)، وذكره مطولاً ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٤٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩/ ٣٤٨). ورواه بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٤٩٤٦) عن أسامة بن زيد.

(٢) ذكره عنهم الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٤٥٦)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٥٢). وروي عن الحسن رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١٣٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٤٢)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩١): «رواه الطبراني من طرق رجال بعضها رجال الصحيح». **قلت**: ومع ذلك فهو مرسل.

(٣) رواه عن عائشة رضي الله عنها مسلم (١٧٧)، ورواه البخاري (٧٤٢٠) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٥٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ بيَّنَ أنَّه لا عبرةَ بقولِ النَّاسِ، بل العبرةُ بما أذِنَ اللهُ فيه.

وقال عليُّ بنُ الحسينِ: كان اللهُ أعلمَ نبيَّه عليه السلام أنَّ زينبَ ستكونَ من أزواجِه، وأنَّ زيداً يطلِّقُها[1].

وعلى هذا فيجوزُ أن يعاتَبَ النبيُّ عليه السلام على قولِه: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ مع علمِه بأنَّها ستكون زوجتَه، وعلى كتمانِه ما أخبرَه اللهُ به، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾؛ أي: في كتمان ما أخبرَكَ به، وإنَّما كتمَ رسولُ اللهِ ﷺ لأنَّه استحيا أن يقول لزيدٍ: إنَّ زوجتَكَ ستكون من زوجاتي.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ الوَطَرُ: كلُّ حاجةٍ كان للمرء فيها همَّة، والجمع: الأوطارُ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: بَلَغَ ما أرادَ من حاجتِه[2]؛ يعني: الجماع، وفيه إضمارٌ؛ أي: لَمَّا قضى وطرَه منها وطلَّقها.

وقيل: هو عبارةٌ عن الطَّلاقِ؛ أي: لمَّا طلَّقها.

﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ قال أنسٌ: فلمَّا انقضَتْ عِدَّةُ زينبَ قال رسولُ اللهِ ﷺ لزيدٍ: «اذهب فاذكرْها عليَّ»، قال زيدٌ: فانطلَقْتُ فقلْتُ: يا زينبُ أبشري، أرسلني رسولُ اللهِ ﷺ يذكرُكِ، ونزل القرآنُ، وجاء رسولُ اللهِ ﷺ حتى دخلَ عليها بغيرِ إذنٍ[3].

وفي هذا ما يدلُّ على أنَّه ـ ﷺ وشرَّف وكرَّم ـ كان مستغنياً عن الوليِّ والشُّهود، ولهذا كانت زينبُ تفاخرُ نساءَ النَّبيِّ ﷺ وتقول: زوَّجَكُنَّ أقاربُكُنَّ، وزوَّجني اللهُ عزَّ وجلَّ[4].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٦ ـ ١١٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٦٦).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٥٥) بلفظ: «أي: لذته ونهمته».

(٣) رواه بنحوه مسلم (١٤٢٨).

(٤) رواه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

ومن مواضعِ الامتنانِ على النبيِّ ﷺ: أنَّ اللهَ تعالى كرَّهها إلى زيدٍ حتى طلَّقها.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾؛ أي: أبحْتُ لكَ ذلكَ سُنَّةً للمؤمنين في جوازِ نكاحِ أدعيائِهم.

ولا مطعنَ بهذه القصَّةِ في النبيِّ ﷺ لأنَّ زيداً كان عَتيقَه، وهو الذي خطبَ زينبَ له، وكان زيدٌ يشكو إلى النبيِّ ﷺ أخلاقَها ـ وهي بنتُ عمَّةِ النبيِّ ﷺ ـ ويريد تطليقَها، فما كان التطليقُ بسببِ علمِه بوقوعِها في قلبِه، على أنَّه لو يثبتُ أنَّه طلَّقها لوقوعِها في قلبِه فلا يُعابُ فيه؛ لأنه ما يقعُ من الحبِّ في القلبِ من غيرِ اختيارٍ فلا مؤاخذةَ به، وإنَّما كان يَقبحُ منه لو سعى في التَّفريق بينهما.

وقالت زينبُ: لمَّا وقعْتُ في قلبِ النَّبيِّ ﷺ لم يستطِعْني زيدٌ، وما أمتنعُ منه غيرَ ما يمنعُه اللهُ تعالى منِّي، فلا يقدرُ عليَّ[1].

ورُوي أنَّه كان بينَ زيدٍ وزينبَ خصومةٌ ظاهرةٌ ومراجعاتٌ طويلةٌ إلى النبيِّ ﷺ، فخطَرَ ببالِه أنَّه إنْ طلَّقَها زيدٌ ضمَّها إلى نفسِه لأنَّها بنتُ عمَّتِه، وعرف بقرائنِ الحال أنَّ الوصلةَ لا تبقى بينهما، فليس إذنْ في مثلِ هذا مُعابٌ.

وقولُ مَن قالَ: (لو كتمَ شيئاً من القرآن لكتمَ هذا) لا يدلُّ على أنَّه صدرَ منه ما لا يجوزُ، ولكنْ لأنَّه تركَ الأفضلَ، وهو إظهارُ ما في نفسِه من غيرِ مبالاةٍ بالنَّاسِ.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: لا مردَّ لأمرِه، ولا مُعقِّبَ لحكمِه.

* * *

---

(١) وهذا الخبر لا يصح، فإنه من رواية نوح بن أبي مريم رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك، كما ذكر القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٥)، ونوح بن أبي مريم أبو عصمة قال عنه ابن حجر في «التقريب»: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(٣٨) ـ ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾؛ أي: ما كان عليه حرجٌ في هذا الأمرِ، وإنما حاذرَ مقالةَ الجهَّالِ، وأيضًا استحيا مِن تحدُّثِ النَّاسِ، ولا عيْبَ في الحياء.

﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾؛ أي: فيما أحلَّ اللهُ له، أو: فيما قدَّرَ اللهُ له وحكَمَ به.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾؛ أي: سَنَّ لمحمَّدٍ ﷺ في التَّوسعةِ عليه في النِّكاحِ كسُنَّتِه في الأنبياءِ الماضين كداود وسليمانَ، يعني: داودَ حين هَوِيَ المرأةَ التي فُتِنَ بها فجمعَ اللهُ تعالى بينَه وبينَها[١].

وقيل: لا حرَجَ على أحدٍ فيما لم يحرَّمْ عليه، فقوله: ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ يعني: مَن تقدَّم، و﴿سُنَّةَ ﴾ نصب على المصدر؛ أي: سَنَّ اللهُ له سُنَّةً واسعةً.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾؛ أي: قضاءً مقضيًّا.

* * *

(٣٩) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ قيل: هو خفض، وهو نعت لـ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾، [وقيل][٢]: رفع على المدحِ؛ أي: هم الذين، ويجوز أن يكون نصباً؛ أي: أعني الذين.

﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي: لا يخشونَ لائمةَ النَّاسِ.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي: مجازياً.

---

(١) وهذه القصة ليس لها أصل صحيح يعتمد عليه كما سيأتي في سورة (ص).

(٢) ما بين معكوفتين من (م).

(٤٠) ـ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لَمَّا تزوَّجَ زينبَ قال النَّاسُ: تزوَّجَ امرأةَ ابنِه فنزلَتِ الآيةُ[1]؛ أي: ليس هو بابنِه حتى تحرُمَ عليه حليلةُ ابنِه.

قال ابن عبَّاسٍ: أي: ليس في قضائي أن يكونَ له ابنٌ يعيشُ حتى يصيرَ رجلاً[2].

وقيلَ: أي: لم يكنْ أبا أحدٍ لم يَلِدْهُ، وقَدْ وُلِدَ لهُ ذُكورٌ: إبراهيمُ والقاسِمُ والطَّيبُ والُمطهَّرُ.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولكنْ كانَ رسولَ اللهِ ﴿**وخاتِمَ النَّبيينَ**﴾؛ أي: آخِرَ النَّبيينَ.

و(خاتِم) بكسرِ التَّاء، يُقَالُ: هذا خاتِمُ الشَّيء؛ أي: آخِرُهُ، وقرَأَ عاصِمٌ بفتحِ التَّاءِ[3]، وهو مِنْ الخَتْمِ على الشَّيءِ، وهو الطَّبعُ، فالخاتَمُ ما يُختَمُ بِهِ على الشَّيءِ، وهو مثلُ القالِبِ والقالَبِ.

وقيلَ: الخاتِمُ والخاتَمُ لُغَتانِ، مثلَ: دانِقٍ ودانَقٍ، وطابِقٍ من اللَّحمِ وطابَقٍ.

والختمُ على الكتابِ بعدَ كُلِّ شيءٍ، فرَجعَ المعنى إلى شيءٍ واحدٍ.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها وقال: حديث غريب.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٦٠).

(٣) والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٤١ ـ ٤٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أمرَ بإكثارِ الذِّكرِ والشُّكرِ على ما أنعمَ بِه عليهم.

قيل: أرادَ: واظبوا على الصَّلواتِ الخمسِ، لا كالمنافقينَ الذينَ يقومونَ إلى الصَّلاةِ كسالى يراؤونَ النَّاسَ ولا يذكرونَ اللهَ إلَّا قليلاً.

وقيلَ: أشغِلوا ألسِنتَكُم في معظَمِ أحوالِكُم بالتَّسبيحِ والتَّهليلِ والتَّمجيدِ والتَّكبيرِ.

وقيلَ: الذِّكرُ الكثيرُ: ما جرى على إخلاصٍ من القلبِ، والقليلُ: ما يَقَعُ على حُكمِ النِّفاقِ.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: صلُّوا للهِ بُكرةً وأصيلاً، والصَّلاةُ تُسمَّى تسبيحاً، وخَصَّ الفَجرَ والمغربَ والعِشاءَ بالذِّكرِ لأنَّها أحقُّ بالتَّحريضِ عليها لاتِّصالها بأطرافِ النَّهارِ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لمَّا نزلَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال المهاجرون والأنصارُ: هذا لَكَ يا رسولَ اللهِ خاصَّة، ليس لنا فيه شيء، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ[1].

والصَّلاةُ من الله تعالى: رحمتُه، ومن الملائكةِ: دعاؤُهم للمؤمنين؛ أي: يأمرُ الملائكةَ بالاستغفارِ لهم.

---

(١) ذكره بنحوه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٦٣) وفيه أن القائل هو أبو بكر رضي الله عنه، وذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٤٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه دون سند، ورواه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٢).

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: من الضَّلالةِ إلى الهدى، ومعنى هذا: التَّثبيتُ على الهداية؛ لأنَّهم كانوا في حالِ الخطاب على الهداية.

وقيل: ليَهديَكم إلى الجنَّة، ويُنجيَكم من النَّار.

* * *

(٤٤) ـ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فهو يؤمِّنهم من عذابِ يومِ القيامة، وفي ذلك اليومِ يلقونَه وتحيَّتُهم سلامٌ؛ أي: تحيَّةُ بعضِهم لبعضٍ سلامٌ؛ أي: سلامٌ لنا ولكم من عذابِ اللهِ.

وقيل: هذه التَّحيَّةُ من الملائكةِ عليهم.

وقيل: من الله تعالى، فيُسلِّمهم من الآفات، أو يبشِّرُهم بالأمنِ من المخافات.

﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾؛ أي: يومَ القيامة بعدَ دخول الجنَّة.

وقيل: عنى: يومَ الموتِ.

وقيل: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾؛ أي: يلقونَ ملَكَ الموتِ، وقد ورَدَ: أنَّه لا يَقبِضُ روحَ مؤمنٍ إلَّا سَلَّم عليه[1]، وقد سبقَ ذكرُ ملَكِ الموتِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾؛ أي: ثواباً عظيماً.

* * *

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٧٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١٣٩)، والدينوري في «المجالسة» (٣٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٤٧٨)، جميعهم من قول البراء بن عازب رضي الله عنه. وصححه الحاكم، فتعقبه الذهبي بأن فيه محمد بن مالك قال ابن حبان: لا يحتج به.

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾؛ أي: شاهداً على أمَّتِكَ وجميعِ الأممِ.

وقيل: شاهداً على أمَّتِك بأنَّكَ بلَّغتَهم الرِّسالةَ، فقولُكَ عليهم شهادةٌ مقبولةٌ عندي.

و﴿وَمُبَشِّرًا ﴾؛ أي: بالثَّواب لمن أطاعَ ﴿وَنَـذِيرًا ﴾ بالنَّار لمن عصَى.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: إلى طاعةِ الله ﴿بِإِذْنِهِۦ ﴾؛ أي: بأمرِه. وقيل: بتوفيقِه وتيسيرِه.

وقيل: بعلمِه؛ أي: يعلمُ ما يكون منك ومن الأمَّة.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾؛ أي: هادياً مَن ظُلَمِ الضَّلالةِ، فأنتَ كالمصباح المضيء.

وقال الزجَّاجُ: أي: وذا سراجٍ منيرٍ؛ أي: كتاب نيِّر[1].

* * *

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾؛ أي: بأنَّ لهم الجنَّةَ.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾؛ أي: المشركينَ واليهودَ والنَّصارى والمنافقين؛ أي: لا تُطِعْهم فيما يشيرون به عليك من المداهنة في الدِّين ولا تمالئهم.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾؛ أي: دَعْ أنْ تؤذيَهم مجازاةً على إيذائِهم إيَّاك.

وقيل: أعرِضْ عن إيذائِهم ولا تنشغِلْ به، والآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فإنَّه يكفيك أذى الأعداء.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٣١)، و«البسيط» (١٨/ ٢٦٦).

(٤٩) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لمَّا جرَتْ قصَّةُ زيدٍ وتطليقُه زينبَ، كانت زينبُ مَدخولاً بها فخطبَها النبيُّ عليه السلام بعدَ انقضاءِ عدَّتِها، وتبيَّن ذلك الحكمُ للأمَّة، فالمطلَّقةُ إنْ لم تكن ممسوسةً فلا عِدَّة لها، ولعلَّهم توهَّموا أنَّ تأخيرَ النَّبيِّ عليه أفضل الصلاة والسلام نكاحَ زينبَ عن وقت الطَّلاق كان بسببِ التَّبنِّي، فتبين أنَّه كان بسببِ العِدَّة.

﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾؛ أي: تزوَّجْتُم ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ أي: أن تجامِعُوهنَّ، وقرئ: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ تُماسُّوهُنَّ﴾[1].

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾؛ أي: لا يَلزمُهُنَّ التَّربُّصُ الذي هو العِدَّة.

﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾؛ أي: تستوفونها عَدداً، فالاعتدادُ هاهنا بمعنى الاستيفاء، يقال: عدَدْتُه ألفَ درهمٍ فاعتدَّها؛ أي: استَوْفاها، ووزنْتُ حقَّه فاتَّزنه، وكِلْتُه فاكتالَه؛ أي: استوفاه وزناً وكيلاً، فقولُه: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي: تستَوْفُونها عدداً.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: هو إذا لم يسمِّ لها صَدَاقاً، فإنْ سمَّى فلها النِّصفُ ولا متعةَ[2]، وهذا هو الأصحُّ من مذهبِ الإمام الشَّافعيِّ[3].

وقيل: الآيةُ منسوخةٌ بقوله في (البقرة): ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال مقاتلٌ: أي: فمتعوهنَّ بنصفِ المهرِ[4].

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٣)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣١٤٢).

(٣) انظر: «الأم» للشافعي (٥/ ٥٠)، و(٧/ ٢٧٠)، و«النكت والعيون» للماوردي (٤/ ٤١٢).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٠٠). وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٧٠).

وهذا إذا سمَّى لها مهراً، فإنْ لم يسمِّ فلها المتعةُ والسَّراحُ الجميلُ الذي لا ضررَ فيه ولا إيذاءَ.

وقيل: أراد: فطلقوهنَّ فإنْ متَّعْتُموهنَّ بعد الطَّلاقِ كان تسريحاً جميلاً.

ومَنْ حملَ على تطليقِ مَنْ لم يسمِّ لها مَهراً يقولُ: ذُكِر المتاعُ قبلَ الطَّلاقِ فكان من باب تعجيلِ الزَّكاةِ قبلَ الحولِ.

وقيل: سرِّحوهنَّ بعد الطَّلاق إلى أهلهنَّ، فلا يجتمِعُ الرَّجلُ والمطلَّقةُ في موضعٍ واحدٍ.

❊❊❊

(٥٠) ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ﴾؛ أي: اللَّاتي عندكَ لأنَّهنَّ قد اخترْنَكَ على الدُّنيا، والأجرُ: المهرُ.

﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ وهي ماريةُ أمُّ إبراهيمَ عليهِ السَّلام، وصفيَّةُ وجُويريَةُ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ أعتقَ صفيَّة وجُويريَةَ وتزوَّجَهما.

﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾؛ أي: ردَّهُ عليكَ من الكفَّارِ، والغنيمةُ قد تُسمَّى فيئاً.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾؛ أي: بناتِ العبَّاس وغيرِهِ من أولادِ عبدِ المطَّلبِ.

﴿وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ﴾ يعني: أولادَ بناتِ عبد المطَّلبِ.

﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾ من ولدِ عبدِ مَنافِ بنِ زهرة.

﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ إلى المدينة، والمعنى: هاجرْنَ كما هاجرْتَ، وإنْ لم تكن هجرتُها في حال هجرةِ النبيِّ عليه السلام.

والآيةُ دلَّتْ على أنَّ الهجرةَ كانت شرطاً في التَّحليلِ، ثم يحتمِلُ أنَّ الأمرَ كان كذلكَ ثم نُسِخَ كما نُسِخَتِ المواريثُ بالهجرةِ.

واشتملَتِ الآيةُ على إدامةِ إحلالِ مَنْ كُنَّ عندَه، أو استئنافُ إحلالِ مَنْ لم تكن عندَه.

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾؛ أي: وأحللْنا لكَ امرأةً مؤمنةً ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ منك.

قال مقاتلٌ: أي: إنَّ اليهوديَّةَ أو النَّصرانيَّةَ أو الحربيَّةَ إنْ وهبَتْ نفسَها للنَّبيِّ لم تحلَّ له[1]، فلهذا قال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾.

ثم قيل: هذه الهبةُ أنْ يتزوَّجها بلا مهرٍ.

وقيل: هي التزوُّجُ بلا مهرٍ وبلفظِ الهبةِ حتى تقولَ: وهبْتُ نفسي منك، فإذا قبلَها النَّبيُّ عليه السلام حلَّتْ له، وإنْ لم يقبلْها لم يلزمْه قَبولُها، كما إذا وُهبَ رجلٌ شيئاً فلا يجبُ عليه القَبولُ، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

ومِنْ ضرورةِ الهبةِ أنْ لا يكونَ ثَمَّ صداق.

وإنَّما قالَ: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ لأنَّه لو قال: (لكَ) لجاز أن يُتوهَّم أنَّه يجوزُ ذلك لغير النبيِّ كما جازَ في قولِه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾.

﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ قال الزجَّاجُ: نصبٌ على الحال[2]؛ أي: خاصةً لكَ، ووجهُ الخاصِّيَّة: أنَّها لو طلبَتْ فرضَ المهرِ قبلَ الدُّخول لم يكن لها ذلك، فأمَّا في ما بيننا

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٠١).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٣٢).

فللمُفوِّضة طلبُ المهرِ قبلَ الدُّخول ومهرِ المثلِ بعدَ الدُّخول.

﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ أي: يَنكحَها، يُقال: نَكَحَ واستنكَحَ، مثل: عَجِبَ واستعجَبَ، وعَجِلَ واستعجَلَ.

ويجوز أنْ يَرِدَ الاستنكاحُ بمعنى طلبِ النِّكاح، أو طلبِ الوَطءِ.

فعند الشَّافعيِّ: خاصيَّةُ النَّبيِّ ﷺ بلفظِ الهبة، وفي الخلوِّ عن المهرِ وإن وَطِئَها.

وعند أبي حنيفة: لأحدِ النِّكاحُ بلفظِ الهبةِ في الخاصيَّة في الخلوِّ عن المهرِ إذا وطئ[1].

ومن الخاصيَّةِ للنَّبيِّ ﷺ في هذه الآيةِ: جوازُ النِّكاحِ بغيرِ وليٍّ.

والقراءة: ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ بالكسر؛ أي: إنْ تهَبْ، أو: إذا وهبَتْ، فهي للمستقبل، تقولُ: مَنْ جاءني أعطيتُه؛ أي: مَن يَجيئني أُعطِهِ.

وقرأ الحسن: (أن وهَبَتْ) بفتح (أن)[2]؛ أي: إذْ وهبَتْ، فهي إخبارٌ عن هبةٍ مضَتْ.

ثم قيل: لم يكن عند النَّبيِّ ﷺ موهوبةٌ وإنْ كان اللهُ تعالى أباحَ له الموهوبةَ.

وقال قومٌ: بلى، كان عنده موهوبةٌ، ثم اختلفوا فيها:

فقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما: هي أمُّ شريكٍ العامريَّة[3].

---

(١) قوله: «لأحدِ النِّكاحُ بلفظِ الهبةِ في الخاصيَّة في الخلوِّ عن المهرِ إذا وطئ» كذا وقعت العبارة في (أ)، ولعل فيها سقطاً أو تحريفاً، ويوضح المعنى قول الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٥٤) (ط دار إحياء التراث): وقال النخعي وأهل الكوفة: إذا وهبت نفسها منه وقبلها بشهود ومهر فإنَّ النكاح ينعقد والمهر يُلزَم به، فأجازوا النكاح بلفظ الهبة، وقالوا: كان اختصاص النبي ﷺ في ترك المهر.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١) عن الحسن وعيسى وسلاَّم، و«المحتسب» (٢/ ١٨٢) عن أبي بن كعب والحسن وسلَّام.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٧٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال قومٌ: هي خولةُ بنتُ حكيمٍ[(١)].

وقال قتادةُ: هي ميمونةُ بنتُ الحارثِ[(٢)].

وقال الشَّعبيُّ: زينبُ بنتُ خزيمةَ[(٣)].

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ما أوجَبْنا على المؤمنين في أزواجِهم، وهو أن لا يتزوَّجوا إلَّا بأربعِ نسوةٍ بمهرٍ وبيِّنةٍ ووليٍّ.

= ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٥٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧١٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٦)، عن علي بن الحسين. وروى النسائي في «الكبرى» (٨٨٧٩) عن هشامِ بن عروةَ، عن أبيه، عن أم شَرِيك: «أنها كانت فيمَن وهبت نفسها للنبي ﷺ» قال الحافظ في «الإصابة» (٨/ ٢٤٠): ورجاله ثقات.

وقد وقع في اسمها ونسبها، وهل قبلها النبي أم لم يقبلها، خلاف كثير. انظر: «الإصابة» (٨/ ٢٣٧و٢٣٨) ترجمة أم شريك الدوسية، وأم شريك العامرية القرشية، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٥٣).

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٥٥) عن عائشة رضي الله عنها. وصح هذا عن عروة بن الزبير، رواه البخاري (٥١١٣) عنه قال: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل. قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ١٦٤) هذا مرسل لأن عروة لم يدرك زمن القصة، لكن السياق يشعر بأنه حمله عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٢٦٦) و(٢٢٦٧) من قول عكرمة والزهري وقتادة. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٥) من طريق سعيد عن قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٥٠)، وزاد فيه: «من الأنصار» فتعقبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٢٢٣) بقوله: «وأمَّا حكايةُ الماوَرديِّ عن الشَّعبي أنَّ زينبَ بنتَ خُزيمةَ أمَّ المساكينِ أنصاريةٌ، فليس بجيدٍ؛ فإنها هلاليةٌ بلا خلافٍ». وقد ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٦٤) عن الشعبي فقال: «الهلالية» على الصواب.

والذي رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧١٧٤)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٥)، عن الشعبي: «أنها امرأة من الأنصار وهبت نفسها للنبي، وهي ممن أرجأ».

﴿فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ مُلْكُ اليمين لا يكونُ إلَّا ما يجوزُ سبيُه.

ومقصودُ الآية: أنَّه كان يجوزُ للنَّبيِّ ﷺ الزِّيادةُ على الأربعِ والهبةُ والصفيُّ، فكان له أن يصطفيَ من السَّبْي ما شاء، فأمَّا الأُمَّةُ فما أبيحَ لهم شيءٌ من ذلكَ.

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾؛ أي: لئلَّا يلحقُكَ تضييقٌ في ذلك(١).

***

(٥١) ـ ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ ثم أَتبعَ ما مضى بضربٍ آخرَ [مِن](٢) التَّوسعةِ، وهو تركُ القَسْمِ، فكان لا يجبُ عليه القَسْمُ بين زوجاتِه، والإرجاءُ: التَّأخيرُ.

وكان القَسْمُ واجباً عليه، ثم نُسِخَ الوجوبُ بهذه الآيةِ.

قال أبو رَزينٍ: فكان ممَّن آوى عائشةُ وحفصةُ وأمُّ سلمةَ وزينبُ، فكان قسمتُهنَّ من نفسِه وماله سواءٌ بينهنَّ، وكانَ ممَّنْ أرجأ سودةُ وجويريةُ وأمُّ حبيبةَ وميمونةُ وصفيَّةُ، فكان يقسِم لهنَّ ما شاءَ(٣).

وقيل: أرادَ أنْ يفارقَهُنَّ فقلْنَ: اقسمْ لنا من نفسِكَ ما شئْتَ ودَعنا على حالِنا(٤).

---

(١) بعدها في (أ): «فيضيق ذلك» ولا معنى لها.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (ص: ٢٦٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٤٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٩).

(٤) قطعة من حديث أبي رزين السابق.

﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَ﴾؛ أي: إنْ أردْتَ أنْ تؤويَ إليك امرأةً ممَّن عزلتَهُنَّ من القسمةِ وتضمَّها إليك فلا بأسَ عليك في ذلك، وكذلك حكمُ الإرجاءِ، فدلَّ أحدُ الطَّرفَيْنِ على الثاني.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: فلا ميلَ، يُقالُ: جنحَتِ السَّفينةُ؛ أي: مالَتْ إلى الأرضِ؛ أي: لا ميلَ عليكَ باللَّومِ والتَّوبيخِ.

والابتغاءُ: الطَّلبُ؛ لقوله: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧]؛ أي: فمَن طلَبَ قضاءَ شهوتِه فيما سوى المنكوحاتِ والمملوكاتِ.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ﴾؛ أي: ذلك التَّخييرُ الذي خيَّرناكَ في صحبتهنَّ أدنى إلى رضاهنَّ إذ كان من عندِنا.

وقيل: أي: إذا آويْتَ المعزولةَ طابَتْ نفسُ سائرِ المعزولاتِ، ولم تنقطعْ أطماعُهنَّ.

وقيل: هذا شيءٌ أخذَ النَّبيُّ عليه السلام عليهنَّ الرِّضا به لَـمَّا خيَّرهُنَّ فاخترْنَه على هذا، وعلى أنْ لا يتزوَّجْنَ بعدَه.

وكان عليه السلام مع هذا يتشدَّدُ على نفسِه في رعايةِ التَّسويةِ بينهنَّ، حتى إنَّه كان ليُطافُ به في مرضِه محمولاً إلى أنِ استحلَّهُنَّ فحلَّلْنَ له أنْ يقيمَ في بيتِ عائشةَ رضي الله عنها[(١)].

وقال قوم: فقوله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ في اللَّاتي كنَّ يهبْنَ أنفسهنَّ لرسولِ الله ﷺ، فكانَ لا يجبُ عليه القَسْمُ لهنَّ دونَ غيرهنَّ من الموجوداتِ.

---

(١) روى البخاري (٤٤٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه، يقول: «أين أنا غدًا، أين أنا غدًا»، يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها.

وقيل: معنى الإرجاء والإيواء: قَبولُ الهبةِ وتركُها.

وقيل: يَرجعُ ذلك إلى التَّطليقِ؛ أي: لكَ أنْ تطلِّقَ مَنْ شئْتَ وتمسِكَ مَنْ شئْتَ.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾؛ أي: أردْتَ مراجعَتها فلَكَ ذلكَ.

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لمَّا حلَّ له أزواجُه حرُم عليه أنْ ينكحَ غيرهنَّ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من المحبَّة والبغض، [أو][1] مِنْ إيثارِ العدلِ والمَيْلِ.

* * *

(٥٢) - ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

قوله تعالى ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لَمَّا خيَّرهنَّ فاخترْنَه شكرَ اللهُ ذلكَ لهنَّ وحرَّم عليه التَّزوُّجَ بغيرهنَّ والاستبدالَ بهنَّ[2].

فكنَّ تِسعاً، وكانَ طلَّقَ حفصةَ قبلَ قصَّةِ التَّخيير وراجعَها[3].

وقيل[4] قبل قصةِ التَّخييرِ أيضاً: إنَّه همَّ بطلاقِ سَودةَ، فوهبَتْ نوبتَها لعائشةَ حتى لم يطلِّقْها[5]، وكانَ ما جرى لسودةَ حينَ وجبَ القَسْمُ عليهِ، وقد

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (ص: ٢٦٩).

(٣) انظر ما سيأتي في أول سورة الطلاق.

(٤) في (أ): «وقرئ».

(٥) روى أبو داود (٢١٣٥) عن عائشة رضي الله عنها: أن سودة بنت زمعة قالَتْ حين أسنَّتْ وفرِقَتْ أن يفارقَها رسولُ الله ﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها.

وروى الترمذي (٣٠٤٠) عن ابن عباس رضي الله عنها: خشيت سودة أن يطلقها النبي ﷺ، فقالت: =

بَيَّنَّا أنَّ في بعضِ الرِّواياتِ أنَّهُ خَيَّرَهُنَّ على الرِّضا بتركِ القَسْمِ.

فعلى[1] هذا حُرِّمَ عليهِ تَطليقُ التِّسعِ وحُرِّمَ عليهِ التَّزوُّجُ بغيرهنَّ.

وقالتْ عائشة رضيَ اللهُ عنها: ما ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى أُحِلَّ لهُ النِّساءُ[2].

وقالَ قومٌ: حُرِّمَ عليهِ تطليقُهُنَّ ولم يُحرَّمِ التَّزوُّجُ بغيرِهِنَّ. **وهذا بعيدٌ** مع قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾

وقيلَ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من بعدِ الأصنافِ المذكورةِ في قوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقيلَ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ﴾ بعدِ المسلمات؛ أي: لا يحِلُّ لكَ أن تُبديَ نِكاحَ المشركاتِ والكتابيَّاتِ، ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾: ولا أن تطلِّقَ مسلِمَةً لتستَبدِلَ بها كتابيَّةً ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ ممَّا أفاءَ اللهُ عليكَ؛ أي: إلَّا ما مَلَكْتَهُ بالسَّبيِ من الكوافرِ فتلكَ لكَ، وقد حكَمَ اللهُ تعالى بأنَّ أزواجَهُ أمَّهاتُ المؤمنينَ، ويُشعِرُ هذا بنوعِ تعظيمٍ في حقِّهنَّ، فالكافرةُ لا تستحِقُّ ذلكَ، فلم يَجزْ لَهُ نِكاحُ غيرِ المسلمةِ. هذا قولُ مجاهدٍ[3]، وبهِ أخذُ عطاءٍ وابن جُبيرٍ[4].

= لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعل، فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨]، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(١) في (أ): «فإذا» ولعل الصواب هو المثبت.

(٢) رواه الترمذي (٣٢١٦)، والنسائي (٣٢٠٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٥١)، ولفظه: «﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾: ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من النصارى واليهود والمشركين ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك».

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٩١٧) عن عطاء، وذكره عن سعيد بن جبير: بكر بن العلاء في «أحكام القرآن» (٢/ ٣١٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٠٣).

وأيضاً كانَ لا يجوزُ لهُ استدامةُ صحبةِ مَن يكرهُهُ، فالكافرَةُ أشَدُّ إنالةً وأميَلُ إلى الدُّنيا.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾؛ أي: جمالهنُّ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾؛ أي: الإماءُ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ملَكَ بعدَ هؤلاء ماريةَ(١).

قرئ: ﴿لَا يَحِلُّ﴾ بالياءِ والتَّاءِ(٢).

قالَ الفرَّاءُ: مَن قرأَ بالياءِ قالَ: أي: لا يحلُّ لكَ شيءٌ من النِّساءِ، ومَن قرأَ بالتَّاء عنى النِّساءَ(٣).

وقيل: تأنيثُ النِّساء ليس حقيقياً لأنَّهُ تأنيثُ الجمع.

قالَ أبو علي: وفيهِ نظرٌ؛ لأنَّ تأنيثَ النِّساءِ لا يتقاصرُ عن تأنيثِ المرأةِ، لأنَّ النِّساءَ عبارةٌ عن جمعِ كُلِّ واحدةٍ منهنَّ امرأةٌ، فيرجِعُ إذاً التَّذكيرُ إلى لفظِ الجمعِ أو إلى شيءٍ(٤).

***

(٥٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٨١).

(٢) قرأ أبو عمرو بالتاء، وباقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) انظر: «البسيط» (١٨/ ٢٧٩)، وعنه نقل المصنف، وهو معنى كلام الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٤٦).

(٤) في «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٤٧٩): «التاء والياء جميعاً حسنان، لأنّ النساء تأنيثه ليس بحقيقي، إنّما هو تأنيث الجمع، نحو الجمال والجذوع، فالتذكير حسن، والتأنيث حسن».

قولـه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ ذكرَ سـبباً آخـرَ مما كانَ يـؤذي النَّبيَّ عليهِ السَّـلام.

قالَ أنسٌ: أَوْلَمَ رسولُ اللهِ ﷺ على زينبَ بنتِ جحشٍ بتمرٍ وسَويقٍ وذبحَ شاةً، وبعثَتْ أمِّي أمُّ سليمٍ إليهِ بحيسٍ في تَورٍ من حجارةٍ، فأمرني رسولُ اللهِ ﷺ أنْ أدعوَ أصحابهُ إلى الطَّعامِ، فدعوتُهم، فجعلَ القومُ يجيؤونَ فيأكلونَ ويخرجونَ، ثمَّ يجيءُ القومُ فيأكلونَ ويخرجونَ، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، قد دعوْتُ حتَّى ما أجدُ أحداً أدعوهُ، فقالَ: «ارفعوا طعامَكُم»، فرفعوا، وخرجَ القومُ، وبقيَ ثلاثةُ نَفَرٍ يتحدَّثونَ في البيتِ، فأطالوا المُكْثَ، وتأذَّى به النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكانَ شديدَ الحياءِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ، وضربَ رسولُ اللهِ ﷺ بيني وبينَهُ ستراً(١).

وفي روايةٍ: فطعِموا ثمَّ جلسوا يتحدَّثون، فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ كأنَّهُ يتهيَّأُ للقيامِ فلم يقوموا، فقامَ هو وقعدَ ثلاثةٌ، ثمَّ إنَّ النَّبي ﷺ جاءَ فدخلَ فإذا القومُ جلوسٌ، ثمَّ إنَّهم قاموا وخرجوا، فجئتُ فأخبرْتُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام، فجاءَ حتى دخلَ، قال: وذهبْتُ أدخلُ فألقى الحجابَ بيني وبينَه، ونزلَتِ الآيةُ(٢).

وقال عمرُ: قلْتُ: يا رسولَ اللهِ، يدخلُ عليك البرُّ والفاجرُ، فلو أمرْتَ أمَّهاتِ المؤمنين بالحجابِ، فأنزل الله تعالى آيةَ الحجابِ(٣).

وقيل: كان عليه السلام يَطْعَمُ ومعه بعضُ أصحابِه، فأصابَتْ يَدُ رجلٍ منهم يدَ عائشةَ وكانت معهم، فكرِهَ رسولُ اللهِ ﷺ ذلك، ونزلَتْ آيةُ الحجابِ(٤).

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٥١٦٣)، ومسلم (١٤٢٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٩١).

(٣) رواه البخاري (٤٧٩٠) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٦٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٣١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦٠) عن مجاهد.

وقيل: كان عمرُ مع النَّبيِّ ﷺ على طعامٍ في ظلمَةِ اللَّيلِ، فوافقَتْ يدُه يدَ امرأةٍ من أزواجِ النَّبيِّ ﷺ، فقالَ: واللهِ لو أطاعني رسولُ اللهِ لضرَبَ عليكنَّ الحجابُ، فنزلَتِ الآيةُ(١).

﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قيل: أي: إلَّا بأنْ يُؤذَنَ لكم، أو: لأنْ يؤذَنَ لكم، فموضعُ ﴿أَن﴾ نصبٌ.

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ أي: إلَّا أنْ يدعوكم إلى طعامٍ.

ومعنى ﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾: تُدعَونَ، وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: لا تدخلوا بيوتَ النَّبيِّ إلى طعامٍ إلَّا أنْ يؤذَنَ لكم.

﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾؛ أي: منتظِرِيْنَ إدراكَه ونضجَه وبلوغَه، يُقال: أَنَى يَأْنِي إِنًى؛ أي: أدرك، ومنه ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]؛ أي: بلغَ غايةَ الحرارةِ.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾؛ أي: بعدَ أنْ تأكلوا.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ يعني: دخولَ بيتِه بغيرِ إذنٍ، والقعودَ لانتظارِ الطَّعامِ، والحديثَ بعدَ الطَّعامِ ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾؛ أي: أن يأمركم بالخروجِ.

والاستئناسُ: التَّأنس.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لا يستحيي أنْ يبيِّنَ لكم ما هو الحقُّ؛ أي: لا يتركُ هذا البيانَ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٣٥٨) عن مجاهد مرسلًا، ووصله البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٥٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٥٥)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٢٢٧)، و«الأوسط» (٢٩٤٧)، من طريق مجاهد عن عائشة رضي الله عنها. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٣): «رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة».

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: لا تكلِّموا أزواجَ النَّبيِّ إلَّا من وراءِ حجابٍ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: سؤالهنَّ المتاعَ من وراءِ حجابٍ ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الرِّيبةِ.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في شيءٍ من الأشياءِ، ولفظ ﴿كَانَ﴾ مستغنًى عنه، فهو تأكيدٌ.

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قال رجلٌ من سادةِ قريشٍ من العشرةِ الذين كانوا معه على حراء في نفسِه: لو توفِّي رسولُ اللهِ ﷺ لتزوَّجْتُ عائشةَ، وهي بنتُ عمِّي[١].

قال مقاتلٌ: هو طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ، وكان طلحةُ قال لـمَّا نزلَتْ آيةُ الحجابِ: أينهانا أن ندخلَ على بناتِ عمِّنا؟ يعني: عائشةَ، وهما من بني تيم بن مرَّة، ثم قال: والله لئن ماتَ محمَّدٌ وأنا حيٌّ لأتزوجَنَّ عائشةَ. وبلغَ ذلك النبيَّ ﷺ فشقَّ عليه، فنزلَتْ هذه الآيةُ[٢].

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦١)، وسنده لا يعرف، وفي متنه نكارة، فأنى لمن رواه أن يعرف بما في نفس ذلك القائل. ورواه بنحوه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٤١٨) وليس فيه أن قوله ذلك كان إسراراً في نفسه، لكن قال البيهقي: «لم يروه عن سفيان إلا مهران بن أبي عمر». ومهران قال عنه الذهبي في ترجمته في «الميزان»: قال البخاري: في حديثه اضطراب. وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال الحسين بن حسن الرازي عن ابن معين: كتبت عنه، وكان شيخاً مسلماً وعنده غلط كثير في حديث سفيان.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٠٥) ومقاتل متروك، فلا تصح رواياته على انقطاعها، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٧٣) عن معمر وهو معضل، وقال القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٠٩): «ولا يصح».

ثم نقل عن ابن عطية قوله أيضاً في هذه الروايات: «وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله». =

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾؛ أي: ذنباً عظيماً.

قال ابنُ عبَّاسٍ: وندمَ هذا الرَّجلُ على ما حدَّثَ به نفسَه، فمشى إلى مكَّةَ على رجليه، وحمل على عشرةِ أفراسٍ في سبيلِ اللهِ، وأعتق رقيقاً، فكفَّرَ اللهُ عنه ورحمَه[1].

وإنَّما مُنِعَ مِنَ التزوُّجِ بزوجاتِه بعدَه لأنهنَّ أزواجُه في الجنَّة، وإنَّ المرأة في الجنَّةِ لآخرِ أزواجِها، وقد قال حذيفةُ لامرأتِه: إنْ سرَّكِ أنْ تكوني زوجتي في الجنَّةِ إنْ جمعَنا اللهُ فيها، فلا تتزوَّجي من بعدي، فإنَّ المرأةَ لآخرِ أزواجِها، وكذلك حُرِّمَ على أزواجِ النبيِّ ﷺ أنْ ينكحْنَ من بعدِه لأنهنَّ أزواجُه في الجنَّةِ[2].

وقيل: إنَّما حُرِّمْنَ لئلا يلحقَه غضاضةٌ وغيرةٌ.

* * *

(٥٤) ـ ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾؛ أي: يعلمُ سرَّكم وعلنكم.

وقيل: يعني: طلحةَ، فما أبداه قولُه: «يمنعُنا محمَّدٌ من الدُّخول على بنات عمِّنا»، وما أخفاه قولُه في نفسِه: «لأتزوَّجنَّها بعد موتِ النبيِّ ﷺ»[3].

ثم لمَّا نزلَ الحجابُ كان لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يكلِّمهُنَّ إلَّا من وراء حجابٍ، ولا أنْ يراهُنَّ إلا متنقِّبات أو متستِّرات.

= وعن شيخه أبي العباس القرطبي صاحب «المفهم»: «وقد حكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة، وحاشاهم عن مثله، وإنما الكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال».

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٨٧) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ساقط.

(٢) رواه بنحوه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ١٢١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٤٢١).

(٣) وكلاهما لم يرد فيه خبر صحيح كما تقدم.

وكانت عائشةُ إذا طافت سُتِرَتْ مِنَ النَّاسِ[١].

(٥٥) ـ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ لَمَّا نزلَتْ آيةُ الحجابِ قال الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ لرسولِ اللهِ ﷺ: ونحن أيضاً نكلِّمهُنَّ مِنْ وراءِ حجابٍ؟ فنزلَتْ هذه الآيةُ[٢].

وفي الآية ذكرُ مَن يحلُّ للمرأةِ البروزُ له، ولم يذكرِ العمَّ والخالَ لأنَّهما يجريان مجرى الوالدَيْن، وقد يُسمَّى العمُّ أباً، قال الله: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] العم[٣].

قال الزجَّاجُ: العمُّ والخالُ ربَّما يَصفانِ المرأةَ لولدَيهما؛ فإنَّ المرأةَ تحلُّ لابن العمِّ وابنِ الخالِ، فكُرِهَ لهما الرُّؤيةُ[٤].

وقيل: في هذه الآية بعضُ المحارمِ، وقد ذكر الجميعَ في سورة الرُّوم، فهذه الآية بعضُ تلكَ الآية.

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾؛ أي: نساء المؤمنين.

قال ابنُ عبَّاسٍ: لم يُرِدْ نساءَ اليهود والنَّصارى لأنهنَّ يَصفْنَ لأزواجِهِنَّ نساءَ

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٣٧٢).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٥٣٦)، و«النكت والعيون» (٤/ ٤٢١)، و«زاد المسير» (٦/ ٤١٧).

(٣) في «معاني القرآن» للزجاج: «فجعل العم أباً».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٣٥). وفيه نظر، فإن العمة والخالة أيضاً قد تصفان ذلك لأولادهما، بل النساء أقل تحفظاً في ذلك، وهن أكثر قدرة على الوصف.

النبيِّ عليه الصلاة والسلام[1]، وكذا المشركاتُ، فالإضافةُ في ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ إشارةٌ إلى الاجتماع على الإيمان، وهو كقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فلا يدخلُ فيه الكفَّار، فإنهم ليسوا من رجالنا.

وقيل: لا فرْقَ بين المؤمنات والكافرات في المناظر، فالمعنى: ولا النساء، فجرى لفظُ الإضافةِ كقوله في: ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ و﴿أَبْنَآئِهِنَّ﴾.

﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قيل: هذا عامٌّ في العبيد والإماءِ.

وقال ابن المسيِّب: يعني: الإماءَ دون الرِّجال[2]. فليس للعبيدِ النَّظرُ لمالكته.

وقرابةُ الرَّضاعِ كقرابةِ النَّسبِ؛ لخبرِ أبي قُعَيْسٍ إذ قال لعائشةَ: إنِّي عمُّكِ من الرَّضاعةِ، فقال عليه السلام: «إنَّه عمُّكِ فلْيَلِجْ عليك»[3].

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ عاد الكلامُ إلى خطابِ زوجاتِ النَّبيِّ ﷺ ووَعْظِهنَّ.

* * *

(٥٦) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ عرَّفَ العبادَ منزلةَ رسولِ اللهِ ﷺ عندَ اللهِ، وأمرَ بالصَّلاةِ عليه دون إيذائِه.

والصَّلاةُ من اللهِ: رحمتُه ورضوانُه، ومن الملائكةِ الدُّعاءِ، ومِنَ الأمَّةِ الدُّعاءُ والتَّعظيمُ لأمرِه.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٨٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٥) إلى ابن مردويه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٩١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٢٣٥).

(٣) رواه البخاري (٤٧٩٦)، ومسلم (١٤٤٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والتَّسليمُ قولُكَ: «سلامٌ عليكَ»، ومعناهُ: سَلِمَ أمرُكَ من العيبِ والفسادِ والمكارِهِ عاجلاً وآجلاً.

(٥٧) - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾؛ أي: صلُّوا عليه ولا تؤذوه في نفسِه وأزواجِه والمؤمنين به، فإن الذين يؤذونَه كفَّارٌ ملعونون ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

والمؤذون: اليهودُ والنَّصارى والمشركون والمنافقون.

﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾: يخالفون أمرَه، واللهُ تعالى منزَّه عن التَّأذي، ولكنْ جرى الخطابُ على ما يتعارفُه الخلقُ.

واللَّعْنُ في الدُّنيا: القتلُ والجلاءُ، وفي الآخرةِ عذابُ النَّارِ.

وقيل: قال: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ والمرادُ: إيذاءُ الرَّسولِ تشريفاً للرَّسولِ، وفي القرآنِ من هذا كثيرٌ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقيل: لـمَّا كانَ اللهُ المجازي لهم على أذاهم أُضِيْفَ الأذى إليه.

ولفظ الأذى شاملٌ لكلِّ ما يُعصَى به اللهُ.

***

(٥٨) - ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾؛ أي: يرمونَهم بما ليس منهم.

قيل: رأى عمرُ رضي الله عنه جاريةً من الأنصارِ متبرِّجةً فضربَها، وكرِهَ ما رأى

من زينتِها، فخرج أهلُها وآذَوا عمرَ باللِّسانِ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيات[١].

وقيل: نزلَتْ في عليٍّ رضي الله عنه، فإنَّ المنافقين كانوا يؤذُونَه ويكذِبونَ عليه[٢].

وقيل: كانت المرأةُ من نساءِ المؤمنين تتسوَّر للحاجة، فيتعرَّض لها بعضُ الفجَّارِ يظنُّ أنَّها أَمَةٌ، فتصيح به فيذهبُ، فشكَوا ذلك إلى النبيِّ ﷺ ونزلَتِ الآيةُ[٣].

ونهى الحرائرَ عن التَّشبُّه بالإماءِ في اللِّبسةِ في الآية التي بعد هذه الآيةِ، وقد ميَّزَ اللهُ بينَ أذى الرَّسولِ وأذى المؤمنين، فجعل الأوَّلَ كفراً، والثانيَ كبيرةً، فقال في أذى المؤمنين: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

* * *

(٥٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يريد بنساءِ المؤمنين: زوجاتِ النَّبيِّ ﷺ، وقيل: حرائرَ المؤمنين، فغرَضُ الإضافةِ بيانُ الحرية.

أمرهنَّ بالتستُّر عندَ الخروج للحوائج والتبرُّزِ إلى الصحراء بالتَّغطِّي بالجلابيب، وكان هذا قبلَ اتخاذِ الكُنُفِ، بخلافِ الأمَةِ التي تَبرُزُ مكشوفةَ الرَّأسِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٨٣) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا طريق روي عن ابن عباس بإسناد ساقط.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٠٧).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٨٨) عن السدي والكلبي، وبنحوه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٦٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦٢)، عن الضحاك والسدي والكلبي.

وفي التفاسير: يُغطِّيْنَ وجوهَهُنَّ من فوقِ رؤوسِهِنَّ بالجلابيبِ، وتُبْدِينَ عيناً واحدةً.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾؛ أي: بالعفافِ فتنقطعَ الأطماعُ عنهنَّ.

والأمَةُ مأمورةٌ بالتستُّر، وكان الأمرُ في ذلك الوقتِ في الإماءِ أسهلَ، والآن فيجب التستُّرُ والتقنُّعُ في حقِّ الجميع من الحرائر والإماء، وهذا كما أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ مَنعوا النِّساءَ المساجدَ بعد وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ مع قولِه: «لا تمنَعوا إماءَ اللهِ مساجدَ اللهِ»(١)، حتى قالت عائشةُ: لو عاشَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى وقتِنا لمنعهنَّ من الخروجِ إلى المساجدِ(٢).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سلف ﴿رَّحِيمًا﴾ لا يؤاخذُهُم بما ارتكبوا على جهالةٍ.

والجلبابُ: ثوبٌ أوسعُ من الخمارِ دونَ البُرْد، تغطِّي به المرأةُ رأسَها وصدرَها، ذكرهُ الخليل(٣).

***

(٦٠ ـ ٦٢) ـ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ توعَّدَ الذينَ يؤذونَ المؤمنينَ من المنافقينَ وغيرِهم بالقتلِ والجلاء عن الوطنِ.

---

(١) رواه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٢٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٨٦٩)، ومسلم (٤٤٥).

(٣) انظر: «العين» (٦/ ١٣٢)، و«تهذيب اللغة» (١١/ ٦٤)، وفيهما: «دون الرداء».

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قيل: هم المنافقونَ، عبَّر عنهم بلفظَيْنِ.

وقيلَ: هم الزُّنَاةُ وأصحابُ الفجورِ.

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هم كانوا يخبرون المؤمنينَ بما يَسُوؤهم من عدوِّهِم، ويقولون: قد أتاكُمُ العدوُّ، ويقولونَ عن سرايا المسلمين: إنَّهم قُتلوا وهُزموا[1].

وقيلَ: هم كانوا يقولونَ: أصحابُ الصُّفَّةِ قومٌ عُزَّاب، فهم الذين يتعرَّضون للنِّساءِ.

وقيلَ: هم قومٌ من المسلمينَ كانوا ينطِقونَ بالأخبارِ الكاذبةِ حُبًّا للفتنةِ، وقد كانَ في أصحابِ الإفكِ قومٌ مسلمونَ ولكنَّهم خاضوا فيه حبًّا للفتنةِ.

والإرجافُ: إشاعةُ الباطلِ للاغتمامِ به.

وقيل: تحريكُ القلوبِ، يقالُ: رجفتِ الأرضُ، أي: تحرَّكتْ وزُلزلَتْ، ومنه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]، ومنهُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وقيل: أذَى كلِّ هؤلاء يرجعِ إلى ما يَغُمُّ قلبَ الرَّسولِ والمؤمنينِ.

وقيلَ: أذى المنافقين بممالأة الكفارِ وإلقاءِ الشُّكوكِ في قلوبِ المؤمنين والتَّضريبِ بينهم، وأذى مَن كانَ في قلبهِ مرضٌ بتتبعِ النِّساءِ للزِّنيةِ، وأذى المرجفين بتوليدِ الأخبارِ التي لا أصلَ لها.

وقيلَ: العباراتُ الثَّلاثُ آيِلةٌ إلى المنافقينَ، فهم الذينَ في قلوبِهمْ مرضٌ وهم المرجفونَ.

وقيلَ: كانَ مِنهم قومٌ مُرجِفونَ، وقومٌ يتبعونَ النِّساءَ للزِّنيةِ، وقومٌ يشكِّكونَ المسلمينَ.

---

(١) ذكره دون نسبة الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٦٢)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٩٤)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٨٥) عن قتادة.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ أي: لنسلِّطنَّكَ عليهم، ولنأمُرَنَّكَ بقتالِهم كما أمرناكَ بقتالِ المشركينَ واليهودِ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾؛ أي: في المدينةِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيكونونَ حينَئذٍ مطرودينَ ملعونينَ على ألسنَةِ المؤمنين أينَما كانوا، وإذا اطُّلعَ عليهم قُتِلوا.

وقيلَ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا يبقَوْنَ معكَ بالمدينة إلَّا مدَّةً يسيرةً حتَّى يهلِكوا.

وقيلَ: أي: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿مَّلْعُونِينَ﴾[(١)].

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾؛ أي: وُجدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾؛ أي: خُذوهم واقتلوهم، وهو كما يقال: العقربُ تُقتَل؛ أي: حقُّها أن تُقتلَ.

وقيل: معنى الآية: إنْ أصرُّوا على النِّفاقِ لم يكن لهم مُقامٌ بالمدينةِ إلَّا وهم مطرودون ملعونونَ.

وقد فُعلَ بهم هذا، فإنَّه لـمَّا نزلَتْ سورةُ براءةَ جُمِعوا فقال النبيُّ عليه السلام: «يا فلانُ قُمْ فاخرجْ فإنَّكَ منافقٌ، ويا فلانُ قمْ»، فقامَ أولياؤُهم من المؤمنين، وتولَّوا إخراجَهم من المسجدِ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: هذه سُنَّتي في المنافقينَ في سائرِ الأممِ، ولا تبديلَ لسُنَّتي.

---

(١) وهذا قول الفراء، قال: وقد يَجوز أن تجعل القلة من صفتِهم صفةَ الملعونين، كأنك قلت: إلا أقلاء ملعونين؛ لأنّ قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ يدلّ عَلَى أنّهم يَقِلّون ويتفرّقون. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٥٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢)، من حديث ابن عباس رضي اللّه عنهما، وفيه: قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيبًا فقال: «قم يا فلان فاخرج فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم. . . الحديث. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤): فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٦٣) ـ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ هؤلاء المؤذونَ لرسولِ اللهِ ﷺ لَمَّا تُوُعِّدوا بالعذابَ سألوا عن السَّاعةِ استبعاداً وتكذيباً، متوهِّمين أنَّها لا تكون.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أجبْهم عن سؤالِهم، وقُلْ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وليسَ في إخفاءِ اللهِ وقتَها عَنِّي ما يُبطلُ نبوَّتي، وليس مِنْ شَرْطِ النَّبيِّ أنْ يعلمَ الغيبَ بغيرِ تعليمٍ منَ اللهِ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؛ أي: في زمانٍ قريبٍ.

وقيل: أي: ليْتَ السَّاعةَ تكونُ قريبةً، فحذفَ تاءَ التَّأنيثِ ذهاباً بالسَّاعة إلى اليومِ، كقولِه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ولم يقل: «قريبة» ذهاباً بالرَّحمةِ إلى العفوِ؛ إذ ليس تأنيثُها أصليًّا.

وقيل: إنَّما أُخفِيَ وقتُ السَّاعةِ ليكونَ العبدُ مستعدًّا لها في كلِّ وقتٍ.

***

(٦٤ ـ ٦٥) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أبعدَهم عن رحمتِه، وأعدَّ لهم ناراً مستعِرةً، فكن يا محمَّدُ على يقينٍ منها، ولا يَضِقُ صدرُكَ بإيذائِهم واستهزائِهم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ أي: لا يجدون مَنْ يُنجيهم مِنْ عذابِ اللهِ والخلودِ فيه.

***

(٦٦) ـ ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ﴿يَوْمَ﴾ ترى هؤلاء السَّائلينَ عن القيامةِ استخفافاً بها ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ وهذا التقليبُ: تغييرُ ألوانِهم بِلَفْحِ النَّارِ، فتسوَدُّ الوجوهُ مرَّةً وتخضرُّ أخرى، وإذا بُدِّلَتْ جلودُهم بجلودٍ أُخَر فحينئذٍ يتمنَّون أنَّهم ما كفروا ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾؛ أي: يقولونَ: يا ليتَنا لم نكفرْ فننجُوْ من العذابِ كما نجا المؤمنون.

***

(٦٧) ـ ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾؛ أي: قلَّدْنا كبراءَنا فيما دعَوْنا إليه من غيرِ دليلٍ فحادُوا بنا عن قصدِ الطريق.

والسَّادةُ: جمع السيِّد، وهو فَعَلَةٌ مثل كَتَبَةٍ وفَجَرةٍ، وقرئ: ﴿ساداتِنا﴾[١]، وهو جمعُ الجمعِ، والسَّادةُ والكبراءُ بمعنًى.

وقيل: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ في الشَّرَفِ ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾؛ أي: ذوي الأسنانِ منَّا.

وقال مقاتل: هم المطعِمون في غزوةِ بدرٍ[٢].

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ أي: عن السَّبيلِ، وهو التَّوحيدُ، فلمَّا حُذِفَ الجارُّ وصَلَ الفعلَ.

والإضلالُ لا يتعدَّى إلى مفعولَيْن من غير توسُّطِ حرف الجرِّ، كقوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الفرقان: ٢٩].

---

(١) قرأ بها ابن عامر، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٠٩).

قرئ: ﴿ٱلسَّبِيلَاْ﴾ و﴿ٱلرَّسُولَاْ﴾ و﴿ٱلظُّنُونَاْ﴾ في الوصلِ والوقفِ، وقرئ بحذفِ الألفِ في الوَصْلِ والوقفِ، وبحذفِ الألفِ في الوصلِ وإثباتِها في الوقفِ[1].

* * *

(٦٨) ـ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: عَذِّبْهم مثلَي ما تعذِّبُنا؛ فإنَّهم ضلُّوا وأضلُّونا، فآتِهم عذابَ الضَّلالِ والإضلالِ.

﴿والْعَنْهُمْ لَعْناً كثيراً﴾؛ أي: لعناً في أثرِ لعنٍ، أو: فزدْهم إبعاداً من الرَّحمةِ، وزدْهم عذاباً على عذابٍ؛ لأنَّ الإبعادَ من الرَّحمة أدنى من العذابِ.

وقرأ عاصمٌ: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ بالباء[2] على وصف اللَّعْنِ بالكبر، ولقربِ معنى الكبير والكثير؛ لأنَّ ما كبُر كان كثيراً عظيمَ المقدارِ.

* * *

(٦٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ لمَّا ذكَرَ أنَّ المنافقينَ والكفَّارَ آذَوا رسولَ اللهِ والمؤمنين حذَّرَ المؤمنين من التَّعرُّض للإيذاءِ، وبيَّنَ أنَّ مَنْ يؤذي النبيَّ فإنَّ اللهَ يبرِّؤه كما برَّأ موسى، وكانت بنو إسرائيل قالت: إن موسى آدَرُ؛

---

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وعاصم في رواية حفص بالألف في الوقف دون الوصل، وقرأ نافعٌ وعاصمٌ في رواية أبي بكرٍ وابنُ عامر بالألف في الوصل والوقف، وقرأ أبو عمرو وحمزة بغير ألف في الحالين. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٩). وزاد ابن مجاهد نسبة القراءة بالباء لابن عامر في رواية، ولم يذكر ذلك الداني.

لأنه كان رجلاً حَييًّا، وكان لا يغتسلُ إلَّا وعليه إزارٌ، وكانوا يغتسلون عراةً، فانطلق ذاتَ يومٍ يغتسلُ في عينٍ بأرض الشَّامِ، واستترَ بصخرةٍ فوضع ثيابَه عليها، ففرَّتِ الصخرةُ بثيابِه، فاتَّبعَها موسى حتى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيلَ، فنظروا إليه وهو من أحسنِ النَّاسِ خَلقاً وأعدلِهم صورةً، وليس به الذي قالوه، فبرَّأه اللهُ ممَّا قالوا. رواه أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ[1].

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾؛ أي: ذا وجاهةٍ، يُقال: وَجُهَ الرَّجلُ يَوْجَهُ وَجاهةً فهو وجيهٌ.

وقال ابن عبَّاسٍ: كانَ لا يسألُ اللهَ شيئاً إلَّا أعطاهُ[2].

وقيلَ: آذَوا موسى بأن قالُوا: قتلَ هارونَ حسداً له، فبرَّأهُ اللهُ بأن أحيا هارونَ فأخبرَهم أنَّه لم يقتلْه ثمَّ ماتَ، رواهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه[3].

وقيلَ: آذَوه بأن أمرَ قارونُ المرأةَ المُومِسةَ لتفتريَ عليه وتنسبَه إلى الزِّنى[4].

وقيلَ: رمَوه بالبَرَصِ، فبرَّأه اللهُ ممَّا قالُوا، وأراهم جسدَه نقيًّا.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٠٠).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٥٧٩)، ورواه أحمد بن منيع في «مسنده» كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٣٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٧). وإسناده قوي كما قال ابن حجر لكنه أضاف: «وما في الصحيح أصح من هذا، لكن لا مانع أن يكون للشيء سببان فأكثر كما تقدم تقريره غير مرة».

(٤) تقدم في قصة قارون من أواخر سورة القصص.

(٧٠) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: اخشَوا عقابَه في الاقتداءِ بالمنافقين في إيذاءِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وإيذاءِ المؤمنين.

والقولُ السَّديدُ: الصِّدقُ، والسَّدادُ: القَصدُ، وسدَّ يَسِدُّ بكسرِ السِّين؛ أي: أتى السَّداد.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: القولُ السَّديدُ: شهادةُ أن لا إلهَ إلَّا الله[1].

وقيلَ: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ يَسُدُّ عنكم أبوابَ النِّيرانِ أو الكذبَ.

***

(٧١) - ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: يتقبَّلْ حسناتِكم، وقيلَ: يوفِّقْكم لصالحِ الأعمالِ، وقيلَ: يعطكم الثَّوابَ الجزيلَ.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: يستُرْها عليكم.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ﴾؛ أي: نجا مِن كلِّ خوفٍ، وأدركَ كلَّ مقصودٍ.

***

(٧٢) - ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ لمَّا بيَّنَ في هذه

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٦) عن عكرمة قوله.

السُّورةِ مِنَ الأحكامِ ما بيَّنَ أمرَ بالتزامِ أوامرِه، والأمانةُ تعمُّ وظائفَ الدِّين، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: الأمانةُ: الفرائضُ(١).

وقالَ الحسنُ: عُرِضَت الأمانةُ على السَّماواتِ السَّبعِ التي زُيِّنَت بالنُّجومِ وبالعرشِ العظيمِ من فوقِها، فقيلَ لهنَّ: أتأخذنَ الأمانةَ بما فيها؟ قلنَ: وما فيها؟ قيلَ لهنَّ: إن أحسنتنَّ جُزيتُنَّ، وإن أسأتنَّ عُوقِبتنَّ. قلنَ: لا، ثمَّ عُرِضَت على الأرضين اللاتي مُهِّدَت بالأوتادِ وذُلِّلَت للمهادِ، وعلى الجبالِ الصُّمِّ الشُّمِّ الشَّوامخِ البواذخِ الصِّلابِ الصِّعابِ، فقلنَ: لا، كلٌّ يقولُ: لا أتحمَّلُ فريضةً، ولا أبتغي ثواباً ولا عقاباً، وكلٌّ يقولُ: هذا الأمرُ لا نُطيقُه، ونحنُ كلٌّ سامعون مطيعون(٢).

ومعلومٌ أنَّ الجمادَ لا يفهمُ ولا يُجيبُ، فلا بدَّ من تقديرِ الحياةِ، والعرضُ عليها تخييرٌ لا إلزامٌ، والعرضُ على الإنسانِ إلزامٌ.

وقالَ قومٌ ومنهم القفَّالُ: العرضُ في هذه الآيةِ ضربُ مثلٍ؛ أي: إنَّ السَّماواتِ والأرضَ على كبرِ أجرامِها لو كانَت بحيثُ يجوزُ تكليفُها لثقُلَ عليها تقلُّدُ الشَّرائعِ بما فيها من الثَّوابِ والعقابِ؛ أي: إنَّ التَّكليفَ أمرٌ حقُّه أن تعجزَ عنه السَّماواتُ والأرضُ والجبالُ، وقد كُلِّفَ الإنسانُ، فهوَ ظَلومٌ جهولٌ لو غفلَ عمَّا كُلِّفَ وقصَّرَ فيه، وهذا كقولِه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقولُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: لو كانَت ممَّا يجوزُ تكليفُها لأشفقْنَ وأبيْنَ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: حملَ هذا الأمرَ العظيمَ، فصارَ حاملاً له وهوَ ظَلومٌ جهولٌ؛ لأنَّه لا يتأمَّلُ العواقبَ من الثَّوابِ والعقابِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٧) عن سعيد بن جبير وابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٠٣).

قالَ القفَّالُ: فإذا تقرَّرَ في الكتابِ أنَّه يضربُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ، وورد علينا من الخبرِ ما لا يخرجُ إلَّا على ضربِ المثلِ؛ وجَبَ حملُه عليه.

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾؛ أي: خانَ فيها وحملَ الإثمَ، ويعني بالإنسانِ: الكافرَ[1].

وقيلَ: عرضَ الأمانةَ على أهلِ السَّماواتِ والأرضِ مِن الملائكةِ؛ إذ ليسَ تخلو هذه المواضعُ مِن ملائكةِ اللهِ تعالى فيها، فأبَوا تضييعَ الأمانةِ، وحملَ الكافرُ الأمانةَ وضيَّعَها.

وقيلَ: ﴿عَرَضْنَا﴾ بمعنى: عارضنا الأمانةَ بالسَّماواتِ والأرضِ والجبالِ، فضَعُفَت هذه الأشياءُ عن الأمانةِ، ورجَحَت الأمانةُ بثقلِها عليها.

قولُه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ كنايةٌ عن ضعفِ السَّماواتِ والأرضِ والجبالِ في جنبِ الأمانةِ، والإنسانُ الذي حملَ هذه الأمانةَ الثَّقيلةَ ظَلومٌ جهولٌ لتهاونِه بها.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾؛ أي: آدمُ؛ أي: التزمَ الفرائضَ، قالَ اللهُ له: أتحملُ هذه الأمانةَ بما فيها؟ قالَ: وما فيها؟ قالَ: إن أحسنتَ جُزِيتَ، وإن أسأتَ عُوقِبتَ. قالَ: إنِّي أتحمَّلُها بما فيها بينَ أُذني وعاتقي[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ حينَ عصى ربَّه وأُخرِجَ من الجنَّةِ ﴿جَهُولًا﴾ بعاقبةِ ما تحمَّلَ.

وقالَ السُّدِّيُّ: هذه الأمانةُ: ائتمانُ آدمَ ابنَه قابيلَ على أهلِه وولدِه، إذ خانَ بقتلِ هابيلَ، وذلك أنَّ اللهَ تعالى قالَ لآدمَ: إنَّ لي ماءً بمكَّةَ فأتِه، فقالَ آدمُ للسَّماءِ: احفظي

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٣٨).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٨).

ولدي بالأمانةِ، فأبَت، وقالَ للأرضِ فأبَت، وقالَ للجبالِ فأبَت، فقالَ لقابيلَ، فقالَ: نعم، تذهبُ وترجعُ وتجيءُ وتجدُ أهلَكَ كما يسرُّكَ. فانطلقَ آدمُ فلمَّا رجعَ وجدَ قابيلَ قتلَ هابيلَ(١).

وقيلَ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: لم يُؤدِّها؛ لأنَّ حَمْلَ الحاملِ الشَّيءَ إمساكٌ له، وكأنَّه قالَ: لم يُؤَدِّ الأمانةَ.

❊ ❊ ❊

(٧٣) ـ ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾؛ أي: عرضْنا الأمانةَ على الجميعِ، ثمَّ قلَّدناها للإنسانِ ليَظهرَ شِركُ المشركِ ونفاقُ المنافِقِ ليعذِّبَهم اللهُ، وإيمانُ المؤمنِ ليُثيبَه الله، واللامُ للعاقبةِ، وإلَّا فلا علَّةَ لفعلِ الله.

وقيلَ: معناه: أنَّ الطَّاعةَ علامةُ الثَّوابِ، والزَّلَّةَ علامةُ العقابِ.

قُرِئَ: ﴿وَيَتُوبَ﴾ بالنَّصبِ على العطفِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ على الاستئنافِ(٢).

واللهُ تعالى أعلمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجعُ والمآبُ، والحمدُ للهِ وحدَه.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٠٤).

(٢) نسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢١).